



شرح

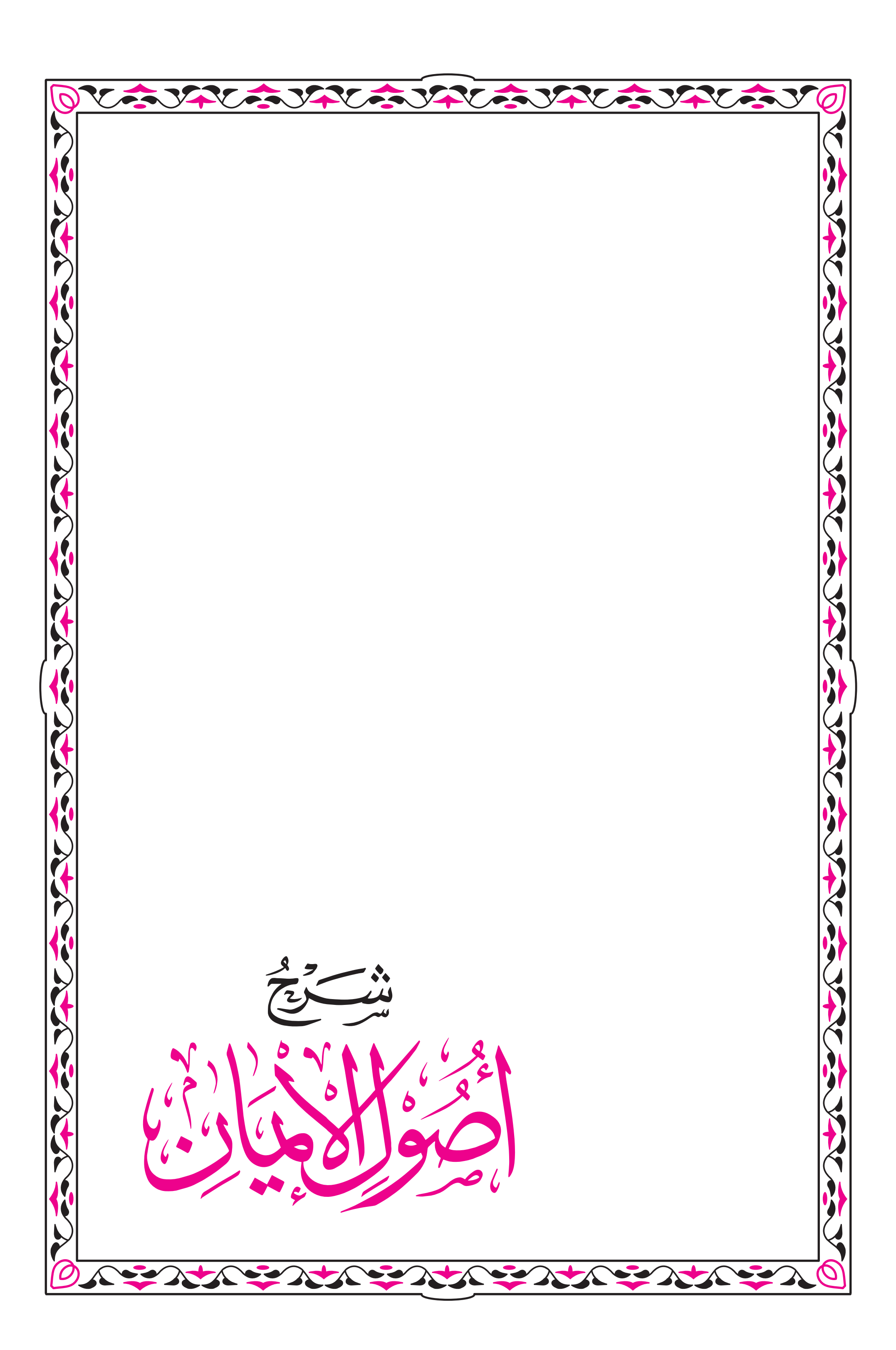
عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

اعتنى به

أبو عبد العزيز منير الجزائري



دار الفرقان
للنشر والتوزيع


شرح
أصول الإيمان



حقوق الطبع محفوظة

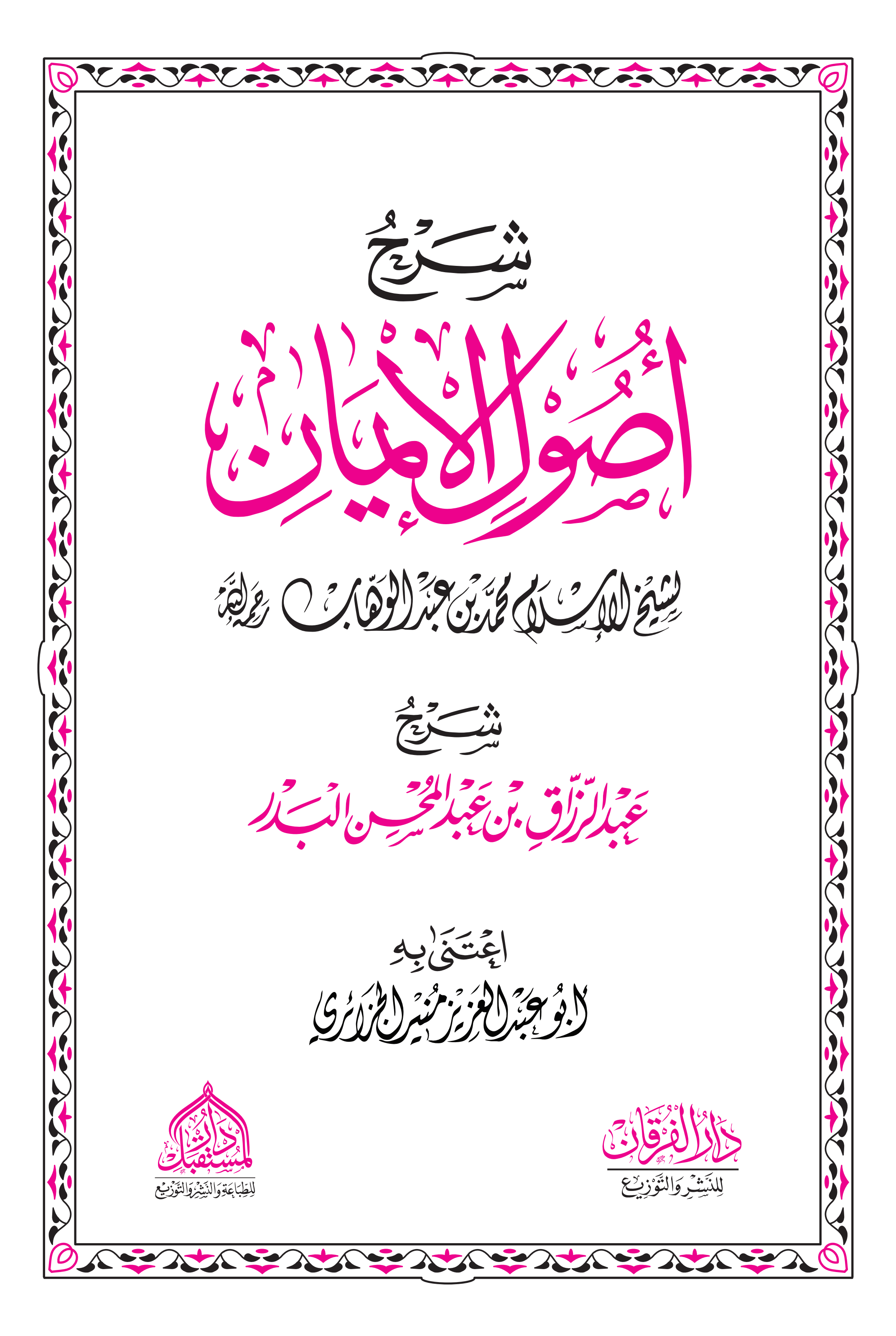
1444هـ - 2023م

رقم الإيداع: 2023/39574

دار الفرقان للنشر والتوزيع

20 شارع أحمد حسينة - باب الوادي - الجزائر (العاصمة)
00213 (0) 556 96 58 10
dar.alfurquan@gmail.com

جمهورية مصر العربية - القاهرة
دار المستقبل للطباعة والنشر والتوزيع
00201122226611



شرح
أصول الإيمان

لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله

شرح

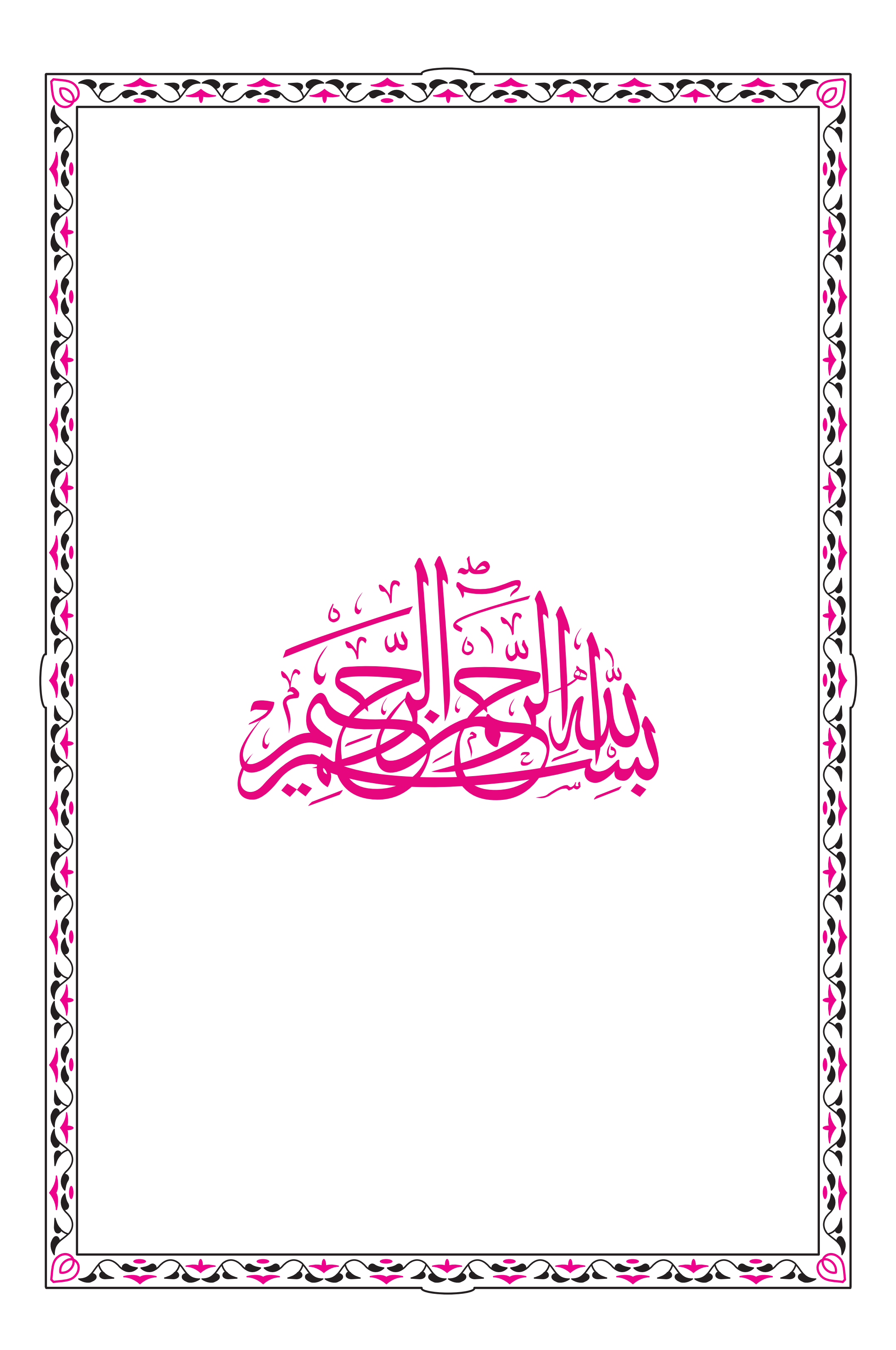
عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

اعتنى به

أبو عبد العزيز منير الجزائري

دار المستقبل للطباعة والنشر والتوزيع

دار الفرقان للنشر والتوزيع


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَةُ المُعْتَنِي

الحمد لله الَّذي بنعمته اهتدىٰ المهتدون، وبعدله ضلَّ الضَّالون، أحمده سبحانه حمد عبد نزَّه ربَّه عما يقول الظَّالمون، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وسبحان الله ربِّ العرش عمَّا يصفون، وأشهد أنَّ نبيَّنا محمَّدًا عبده ورسوله وخليله الصَّادق المأمون، اللَّهم صلِّ وسلِّم عليه وعلىٰ آله وأصحابه الَّذين هم بهديه مستمسكون، وعلىٰ طريقه سائرون.

أمَّا بعد:

فإنَّه «لا صلاح للعباد، ولا فلاح ولا نجاح، ولا حياة طيِّبة ولا سعادة في الدَّارين، ولا نجاة من خزي الدُّنيا وعذاب الآخرة، إلَّا بمعرفة أوَّل مفروض عليهم والعمل به، وهو الأمر الَّذي خلقهم الله عَزَّوَجَلَّ له، وأخذ عليهم الميثاق به، وأرسل به رسله إليهم، وأنزل به كتبه عليهم، ولأجله خلقت الدُّنيا والآخرة، والجنَّة والنَّار، وبه حقَّت الحاقَّة ووقعت الواقعة، وفي شأنه تنصب الموازين وتتطاير الصُّحف، وفيه تكون الشَّقاوة والسَّعادة، وعلىٰ حسب ذلك تُقسم الأنوار ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠]»(١).

وفي المقابل فإنَّ أعظم الذُّنوب الشِّرك بعلَّام الغيوب جَلَّجَلَالُهُ، عن عبد الله بن مسعود قَالَ: سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ أَي الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللهِ؟

---

(١) «معارج القبول» (١/ ٥٥).

قَالَ: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ»[(١)].

وهو أكبر الكبائر، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرَةَ عَنْ أَبِيهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ؟»(ثَلاَثًا).

قَالُوا: بَلَىٰ يَا رَسُولَ اللهِ.

قَالَ: «الإِشْرَاكُ بِاللهِ..»[(٢)].

فلهذا فإنَّ التوحيد أعظم وأكرم ما يعتني به العبد المسلم، والشِّرك أكبر وأخطر ما يهابه ويخافه علىٰ نفسه.

وقد تنوَّعت كتابات علماء أهل السُنَّة في هذا الموضوع بين شعر ونثر، ومطوِّل ومختصِر؛ ومن بين هؤلاء العلماء الفضلاء الأجلاء الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ «فشمَّر عن ساعد جدّه واجتهاده؛ وأعلن بالنُّصح لله ولكتابه ورسوله، وسائر عباده، دعا إلىٰ ما دعت إليه الرُّسل، من توحيد الله وعبادته، ونهاهم عن الشِّرك، ووسائله وذرائعه؛ فالحمد لله الَّذي جعل في كلِّ زمان من يقول الحقّ، ويرشد إلىٰ الهدىٰ والصِّدق، وتندفع بعلمه حجج المبطلين، وتلبيس الجاهلين المفتونين»[(٣)].

وقد كتب رَحِمَهُ اللَّهُ العديد من الكتب والرسائل نُصحا للأمَّة فيما ينفعها، وتحذيرا لها فيما يضرّها في دينها ودنياها، فجزاه الله خير الجزاء.

ومن هذه الكتب المذكورة، والرسائل المشهورة **(أصول الإيمان)**[(٤)]، وهو

---

(١) رواه البخاري (٤٤٧٧)، ومسلم (٨٦).

(٢) رواه البخاري (٢٦٥٤)، ومسلم (٨٧).

(٣) «الدّرر السنيَّة في الأجوبة النَّجديَّة» (١/ ١٦).

(٤) قال الشيخ العلامة عبد المحسن بن حمد العباد البدر حفظه الله: «وله كتاب (أصول الإيمان)، يشتمل علىٰ اثني عشر بابًا، واثنين وأربعين ومائة حديث» «منهج شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب في التأليف» (ص١٥).

بحث نافع لطيف، ماتع منيف، له المكانة العالية، والمنزلة الغالية عند العلماء وطلبة العلم، لذا حفظوه وفي المجالس شرحوه.

وَمِمَّا زاد المتن نفعًا - بإذن الله - شرح شيخنا عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظه الله.

ومِنْ باب التَّعاون علىٰ نشر العلم النَّافع، والسَّعي في تعميمه للحاجة الماسَّة إليه، قُمْت بالاعتناءِ بهذه الرِّسالة؛ وَأَصْلها دروس للشَّيخ فُرِّغت؛ فاستأذنْتُه في إخراجها في كُتيِّب، فما كان مِنَ الشَّيخ حفظه الله إلَّا الموافقة والتَّشجيع، فجزاه الله خيرًا(١).

ومَا كَانَ مِنِّي إِلَّا التَّهذيب والتَّرتيب، والتَّوثيق والتَّدقيق، بَلْ حَاوَلْتُ المُحَافَظَة علىٰ كلام الشَّيخ بِحُرُوفِه إِلَّا مَا يَقْتَضِيه المَقَامُ مِنْ إِضَافَة مَا يُربط به الكَلَام لِتَمَامِ المَعْنىٰ مع التَّعليق علىٰ بعض المواضع منها.

سائلًا الله عَزَّوَجَلَّ أنْ يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، وأنْ يجزي خير الجزاء كل من أسهم في إخراجه للمنتفعين، إنه سميع مجيب الدعاء.

وصلَّىٰ الله وسلم علىٰ نبيِّنا محمَّد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

محبكم في الله

أبو عبد العزيز منير الجزائري

abou-abdelaziz@hotmail.fr

للملاحظات والاقتراحات

واتساب:٠٠٢١٣٥٥٥٩٠٣٠٩٥

---

(١) كان ذلك في بيته بالمدينة النَّبويَّة، يوم الأربعاء ٢ ربيع الآخر ١٤٣٩هـ، الموافق لـ ٢٠/ ١٢/ ٢٠١٧م.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الشارح

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا اللهُ وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله؛ صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد:

فنبدأ مستعينين بالله عَزَّوَجَلَّ في التعليق علىٰ هذا الكتاب القيم والمؤلَّف النافع «**أصول الإيمان**» لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهذا الكتاب مع صغر حجمه إلا أنه عظيمٌ جدًّا في بابه، وقد جمع فيه مصنفه رَحِمَهُ ٱللَّهُ غُرَر هذا الموضوع وأسسه وأصوله، وجمع فيه طرفًا مباركًا من نصوص الشرع فيما يتعلق بأصول الإيمان.

والإيمان الذي خلقنا الله عَزَّوَجَلَّ لتحقيقه وأوجدنا لتكميله وتتميمه قائمٌ علىٰ أصول لا قيام له إلا عليها، وشأن الإيمان في قيامه علىٰ أصوله كشأن البيت لا يقوم إلا علىٰ أعمدته وأسسه، وكشأن الأشجار لا تقوم إلا علىٰ أصولها؛ فأصول الإيمان منزلتها في الدين منزلة الأصول من الأشجار، والقواعد من البنيان، ومنزلة الرأس من الجسد؛ ولهذا إذا عُدمت هذه الأصول أو عُدم بعضها انهدم الإيمان، قال الله تعالىٰ:

﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِي ٱلْأَخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [المائدة: ٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: ٥٤]، فانعدام أصول الإيمان أو أصلٍ منها محبطٌ للأعمال مبطلٌ للدين فلا قيام للدين إلا علىٰ أصوله وقواعده.

وقد ضرب الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مثلًا للإيمان بالشجرة في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم: ٢٤، ٢٥]؛ فجعل الله عَزَّوَجَلَّ مثل الإيمان مثل الأشجار، بل إن المراد بالشجرة هنا تحديدًا النخلة، كما هو مبين في السنة في «**الصحيحين**» وغيرهما عن النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أنه قال: «**أخبروني بشجرة لا يتحات ورقها، ولا، ولا**»[1]، فذكر صفات لها جعلها الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مثلًا للمؤمن، فخاض الناس في شجر البوادي، فلما لم يعرف أحد منهم قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**هي النخلة**»؛ فالنخلة جعلها الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مثلا للمؤمن، والنخلة لها عرقٌ راسخ في الأرض ولها أصل ثابت ولها فروع قائمة، والإيمان يقوم علىٰ أصل وله أيضًا فروع، والإيمان قول واعتقاد وعمل؛ اعتقادٌ في القلب وقول باللسان وعمل بالجوارح، فالإيمان بمثابة الشجرة، الإيمان شجرة عروقها في القلب، ومكان نباتها ونمائها هو القلب، ولها سقيٌ يغذِّيها كالشجرة وهو الوحي؛ كلام الله عَزَّوَجَلَّ وكلام رسوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وكلما عظم نصيب الإنسان وحظه من الوحي عظم نماء شجرة الإيمان في قلبه.

وهذه الشجرة لها أساس تقوم عليه وهو الاعتقاد الصحيح، ولها فروع وهي

---

(١) رواه البخاري (٤٦٩٨)، ومسلم (٦٤).

الأعمال الصالحة والطاعات الزكية التي يتقرب بها المسلم إلىٰ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، ولها ثمار مثمرة مستمرة، ولها جنًى لذيذ دائم، تؤتي أكلها كل حين، وثمر هذه الشجرة ثمرٌ مستمرٌّ دائم في الدنيا والآخرة، وثمار الإيمان علىٰ صاحبه في الدنيا والآخرة لا حد لها ولا عد، بل إن كل خير ينزل وكل نعمة تُنال وتحصل للعبد في دنياه وأخراه هي ثمرة من ثمار إيمانه ونتيجة من نتائجه، وقد قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «**الجواب الكافي**»: «كل خير رتبه الله في كتابه علىٰ الإيمان وهو نحو مائة خصلة كل خصلة منها خير من الدنيا وما فيها»[(١)]، وعدَّ جملة منها، وكذلك العلامة عبد الرحمن بن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه العظيم «**التوضيح والبيان لشجرة الإيمان**» عقد فصلًا عظيما جدًّا في بيان ثمار الإيمان وفوائده وعدَّد جملة كبيرة من فوائد الإيمان.

الشاهد: أن الإيمان لا يقوم إلا علىٰ أصوله وقواعده؛ فهو بمثابة البناء، واستقامة البناء وقيامه إنما يكون علىٰ أصوله التي بيّنت في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ وسنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه.

وأصول الإيمان ستةٌ، ذكرها النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ مجتمعةً في حديث جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؛ عندما سأل النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قائلًا: «**أخبرني عن الإيمان؟**». قال: «**أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وأن تؤمن بالقدر خيره وشره**»[(٢)]، فهذه أصول الإيمان التي عليها قيامه. وجاءت أيضًا مجتمعةً في غير ما آية من كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، كقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في سورة «البقرة»: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وقال الله عَزَّوَجَلَّ في آخر السورة: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ

(١) «الجواب الكافي» (ص ٤٨).

(٢) رواه مسلم (٨).

وَٱلْمُؤْمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، وقال الله جَلَّ وَعَلَا في سورة «النساء»: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦]، وجاء ذكر هذه الأصول في مواضع كثيرة من كتاب الله عَزَّوَجَلَّ.

فهي أصولٌ عليها يُبنىٰ الإيمان، ولا قيام للإيمان إلا عليها، وهي كما نبه العلماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ أصولٌ مترابطة مرتبط بعضها ببعض، آخذ بعضها ببعضٍ، لا يُقبل بعضها دون بعض، فمن آمن ببعضها لزمه الإيمان بباقيها، ومن كفر ببعضها فهو كافرٌ بباقيها، فالإيمان ببعضها يستلزم الإيمان ببقية الأصول، والكفر ببعضها كفرٌ بالإيمان وكفر بالله؛ لأنها أصول مترابطة لا يقوم الإيمان إلا عليها مجتمعةً؛ فإذا فُقد منها واحد انهار البناء وانهدم الإيمان، ومن وُجد منه كفرٌ أو شك بالملائكة أو بالقدر أو بالكتب أو بالأنبياء أو بواحدٍ من الأنبياء فوجود الكفر محبط للأعمال هادمٌ للإيمان، وقد مر قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [المائدة: ٥]، فهذه الأصول لا يقوم الإيمان إلا عليها مجتمعة، فإذا فُقد واحد منها أو فُقد بعضها لم ينتفع الإنسان بعمل، ولهذا أُثر عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال في القدر: «الإيمان بالقدر نظام التوحيد، فمن آمن وكذب بالقدر فهو نقض للتوحيد»[(١)]، فلا يكون موحدًا ولا يكون مؤمنًا بالله من يكذب بالقدر، ولا يكون مؤمنا بالله من يكذب بالملائكة، ولا يكون مؤمنًا بالله من يكذب بكتبه التي أنزلها أو

(١) رواه عبد الله بن أحمد في «السنة» (٩٢٥)، واللالكائي في «شرح الاعتقاد» (١٢٢٤).

برسله الذين بعثهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فالكفر بشيء من هذه الأصول كفرٌ بالله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

ولهذا اعتنىٰ العلماء -رحمهم الله وغفر لهم وأحسن إليهم- بهذه الأصول وبيانها وإبرازها وذكر شواهدها ودلائلها؛ نصحًا للأمة، وبيانًا للعباد، ومعذرةً إلىٰ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وكُتب في هذه الأصول كتابات كثيرة مطولة ومختصرة في القديم والحديث، ومؤلفات أهل العلم في الإيمان وبيان أصوله كثيرة جدًّا، وتأتي هذه الرسالة المختصرة جامعة في بابها مع اختصارها أصول الإيمان وذِكر شواهدها ودلائلها وجمْعها جمعًا مختصرًا مفيدا للمسلم؛ ففيها فائدة عظيمة للمسلم ولطالب العلم المبتدئ، وفيها أيضًا تذكير لطالب العلم ولأهل العلم بما جمعته وحوَته من دلائل عظيمة وشواهد مباركة من سنة النبي ﷺ في تقرير هذه الأصول العظام التي عليها يُبنىٰ الإيمان.

ونسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يوفقنا أجمعين لحسن تعلم أصول الإيمان تقربًا إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، واجتهادًا في تحقيق هذه الأصول وفهمها فهمًا صحيحًا تُعمر به القلوب وتزكو به النفوس وتطيب به الأعمال وترتفع به درجات العبد عند الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ؛ فإن العبد ترتفع درجاته عند الله عَزَّوَجَلَّ ارتفاعًا عظيما بما يُملأ به قلبه من الإيمان أعظم من القيام بالأعمال، فأثر الإيمان في ارتفاع الدرجات أعظم من أثر الأعمال، وقد جاء في «**الصحيحين**» عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن أهل الجنة يتراءون أهل الغرف من فوقهم كما يتراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم**». قَال الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال: «**بلىٰ، والذي نفسي بيده، رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين**»[(١)]، فعمارة القلب

(١) رواه البخاري (٣٢٥٦)، ومسلم (٢٨٣١).

بالإيمان وبأصوله وتحقيق الإيمان في القلب هذا من أعظم ما يكون، وإذا صلح القلب وعمُر بالإيمان صلحت الجوارح تبعًا له؛ لأن الجوارح لا تتخلف عن مرادات القلب، فإذا صلح القلب بالإيمان صلُحت الجوارح، كما قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**ألا، وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله؛ ألا وهي القلب**»[1].

والقلب والبدن يملأ بالإيمان، والإيمان يدخل فيه ويتمكن منه بمجاهدة النفس علىٰ معرفة الإيمان ومعرفة أصوله والوقوف علىٰ دلائله وشواهده وبراهينه، وكلما زاد العبد في هذا عظُم حظه من الإيمان تحصيلًا له وتمكنًا فيه، وقد قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**ملئ عمار إيمانًا إلىٰ مُشاشه**»[2]، المشاش: أطراف الأصابع، يعني: امتلأ من الداخل إيمانًا، فمن كان شأنه في دينه بهذا الوصف لا يكون حاله كمن يعبد الله علىٰ حرف أو يعبد الله بقيامه بأعمال الإسلام الظاهرة ولم تتمكن حقائق الإيمان من قلبه ولم ترسخ في قلبه، ولهذا قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ﴾ [الحجرات: ١٤]، فالإيمان رتبة عالية ودرجة رفيعة يبلغها العبد بتوفيق الله عَزَّوَجَلَّ بمجاهدته لنفسه في تعلم أصول الإيمان.

وأصول الإيمان يتفاوت الناس في معرفتها؛ فمنهم من معرفته بها معرفة مجملة يصح بها عمله، لأن العمل لا يصح إلا بقدر من الإيمان يصحح الأعمال، إذا انتفىٰ هذا القدر بطُل العمل كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٩]، وكما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَنْ عَمِلَ

---

(١) رواه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).

(٢) رواه النسائي (٥٠٠٨)، وابن ماجه (١٤٧)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٨٠٧).

صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾ [النحل: ٩٧]، فالعمل لا يكون مقبولًا إلا بوجود قدر من الإيمان يصح به العمل، فمن الناس حظه من الإيمان ما يصح به عمله، ومنهم من وفَّقه الله عَزَّوَجَلَّ لمعرفة تفاصيل الإيمان وحقائقه ومعرفة دلائل الإيمان وشواهده وبراهينه ما كان عامرًا به قلبه، فترتفع درجاته عند الله عَزَّوَجَلَّ بذلك.

وعلىٰ هذا ينبغي أن يُفهم قول بكر بن عبد الله المزنِ في شأن أبي بكر الصديق قال: «**إن أبا بكر لم يفضل الناس بأنه كان أكثرهم صلاة وصوما إنما فضلهم بشيء كان في قلبه**»(١). وهذا فيه تنبيه إلىٰ الدرجة العلية التي لم يُسبق فيها أبو بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في الإيمان، فهو صديق الأمة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وأرضاه، فدرجته في الإيمان درجة علية، درجة رفيعة، وهو المقدَّم في السابقين من هذه الأمة أمة محمد ﷺ، وهو خير أمة محمد عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ، بل هو رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وأرضاه خير أتباع الأنبياء، لا قلا يوجد فيهم من هو خيرٌ منه كما قال عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «**أبو بكر وعمر سيدا كُهول أهل الجنة من الأولين والآخرين، ما خلا النبيين والمرسلين**»(٢)، فهذه منزلة علية، وإذا نظرت إلىٰ جانب العمل فكان سابقًا غيره في الأعمال، حتىٰ قال عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «**لاَ أُسَابِقُكَ إِلَىٰ شَيْءٍ أَبَدًا**»(٣)، فكان سابقًا في العمل، لكن أراد بكر المزنِي أن ينبه علىٰ قوة الإيمان الذي امتلأ به قلب أبي بكر الصديق رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وأرضاه.

فشأن الإيمان ومكانته عظيمة جدًّا، وحاجة العبد ماسة إلىٰ تعلمه وتعلم أصوله والوقوف علىٰ حقائقه وشواهده وبراهينه؛ ولهذا لا ينبغي للمسلم أن يستكثر علىٰ نفسه وعلىٰ وقته قراءة مثل هذه الكتب والرسائل التي تبين الإيمان وتوضحه، ولا

---

(١) رواه أحمد في «فضائل الصحابة» (١١٨).

(٢) رواه الترمذي (٣٦٦٥)، وابن ماجه (٩٥)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٠٠٥).

(٣) رواه أبو داود (١٦٧٨)، والترمذي (٣٦٧٥)، وحسنه الألباني في «صحيح أبي داود» (١٤٧٣).

يقول علىٰ وجه القطع لنفسه عن الخير وعن الفهم: أصول الإيمان عرفناها -أو- الإيمان عرفناه، بل الإيمان يحتاج إلىٰ تجديد مستمر ومذاكرة دائمة كما قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**ليخلق في جوف أحدكم كما يخلق الثوب، فاسألوا الله أن يجدد الإيمان في قلوبكم**»[1]، فالعبد يحتاج إلىٰ مجاهدة لنفسه في تجديد الإيمان وتقوية الإيمان وترسيخ الإيمان وتمكين أصول الإيمان في قلبه، ولهذا كانت الأذكار النبوية المشروعة للأمة كلها تربط الإنسان بالإيمان وأصوله، وكان عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إذا أوىٰ إلىٰ فراشه لينام قال: «**اللَّهمَّ أسلمتُ وجهي إليك، وفوَّضتُ أمري إليك، وألجأتُ ظهري إليك، رغبةً ورهبةً إليك، لا ملجأ ولا منجا منك إلاَّ إليك، آمنتُ بكتابك الذي أنزلت، وبنبيِّك الذي أرسلت**»[2]، وهكذا تجد في الأذكار ما يربط العبد بالإيمان وبأصوله، ولاسيما أصل الأصول؛ وهو توحيد الله وإخلاص الدين له ومعرفته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ فهذا أعظم الأصول وأجلُّها وأرفعها علىٰ الإطلاق، وبقية الأصول تبعٌ له، ولهذا بدأ المصنف رحمه الله بهذا الأصل المكين والأساس المتين الذي هو معرفة الله عَزَّوَجَلَّ وتحقيق توحيده.

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

---

(١) رواه الحاكم في «مستدركه» (٥)، وقال الهيثمي: رواه الطبراني في «المعجم الكبير» وإسناده حسن مجمع الزوائد (١/ ٢١٢)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٤٧٠).

(٢) رواه البخاري (٢٤٧)، ومسلم (٢٧١٠).

باب معرفة الله عَزَّوَجَلَّ والإيمان به

١ - **عن أبي هريرة** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قال: قال رسول اللهِ** ﷺ: «**قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: أَنَا أَغْنَىٰ الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**» رواه مسلم(١).

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ بعد أن بدأ بالبسملة وطلب العون من الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: «بابٌ: معرفة الله عَزَّوَجَلَّ والإيمان به»، هذا الباب الذي بدأ به المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ هو أصل أصول الإيمان؛ معرفة الله جَلَّ وَعَلَا والإيمان به.

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ **يُعرف بأمرين:**

١ - يعرف بآياته ومخلوقاته الدالة عليه، وفي كل شيء له آية تدل علىٰ أنه الواحد، فالمخلوقات دالةٌ علىٰ وجود خالقها، والمصنوعات دالةٌ علىٰ وجود صانعها ومبدعها، فالله عَزَّوَجَلَّ يُعرف بآياته، ولهذا أمرنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وأمر الناس بالتفكر في آيته والنظر فيها؛ لأنها تدل عليه، ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية: ١٧ - ٢٠]، هذه كلها تدل علىٰ الخالق وتشهد علىٰ عظمته وكمال صُنعه ودقة خلقه وكمال إبداعه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وتقديره، فهي تدل علىٰ الله، والمخلوقات تدل علىٰ خالقها، ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ

---

(١) رواه مسلم (٢٩٨٥).

وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا ﴾ [الطلاق: ١٢]، فالمخلوقات دليل هادٍ إلىٰ الخالق المبدع، دليلٌ لمعرفة عظمته وكمال قدرته وكمال قوته وكمال تدبيره وعظيم تصرفه، قيل لأعرابي: بم عرفت ربك؟ قال: «سماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج؛ ألا يدل ذلك علىٰ اللطيف الخبير؟!»(١). وقيل لآخر: بم عرفت ربك؟ قال: «بنقض العزائم، وحل الهمم»(٢). فشواهد عظمة الخالق وكمال قدرته جَلَّوَعَلَا في مخلوقاته لا حد لها ولا عد، ولهذا قيل:

وفي كلِّ شيءٍ لَهُ آيةٌ ... تدلُّ علىٰ أنَّه الوَاحِدُ

ولهذا جاء في القرآن الكريم آيات كثيرة جدًّا فيها التذكير بآيات الله: «من آياته كذا، ومن آياته، ومن آياته كذا»، يمر عليك في القرآن آيات كثيرة، أو تُذكر أشياء ثم تُختم الآية، «إن في ذلك لآية»، فهذه آيات وشواهد ودلائل وبراهين علىٰ كمال المبدع وعظمة الخالق سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ.

٢- ويُعرف سبحانه -وهذا الأمر الثاني- بأسمائه وصفاته التي أخبر بها تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ عن نفسه في كتابه وأخبر بها عنه رسوله ﷺ، وفي القرآن لا تكاد تمر بآية في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ إلا وفيها ذكرٌ لشيء من أسماء الله الحسنىٰ أو صفاته العظيمة؛ وسورة الإخلاص: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ تعدل ثلث القرآن؛ قال العلماء: لأنها أخلصت لبيا ن صفة الرحمن، وآية الكرسي كانت أعظم آية في القرآن؛ لأنها أخلصت للتوحيد وبيان صفات الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ وعظمته، فاشتملت من أسماء الله الحسنىٰ ما

---

(١) «معارج القبول» (١/ ١٠٠)، وقد ذكر العلامة السعدي رَحِمَهُٱللَّهُ جملة من الأمثلة والحكايات في الاستدلال علىٰ الله في كتابه القيم: «البراهين العقلية علىٰ وحدانية الرب ووجوه كماله» (ص٢٦).

(٢) قال العلامة محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُٱللَّهُ تعليقًا علىٰ هذا الكلام: «فالإنسان يعزم علىٰ الشَّيء ثمَّ لا يدري إلَّا وعزيمته منتقضة، بدون سبب ظاهر» «القول المفيد» (٢/ ١٧٠).

يزيد علىٰ الخمسة أسماء، ومن الصفات ما يزيد علىٰ العشرين صفة؛ فهي أعظم آية في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، وعظمتها من عظمة المعاني الجليلة الكبيرة الفخمة التي اشتملت عليها، فإن هذه الآية اشتملت من ذكر التوحيد وبيان عظمة الرب وتقرير دلائل التوحيد ما لم تشتمل عليه آية أخرىٰ في القرآن الكريم، وما اجتمع في هذه الآية جاء متفرقًا في آيات كثيرة، كما أشار إلىٰ هذا المعنىٰ شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بعض كتبه.

ومعرفة الله عَزَّوَجَلَّ ومعرفة أسمائه وصفاته هذا أشرف العلوم علىٰ الإطلاق، ليس في العلوم علمٌ أشرف من هذا العلم، وليس في العلوم علم أجل من هذا العلم، وكما قيل: شرف العلم من شرف معلومه، وليس هناك أشرف من العلم بالله جَلَّوَعَلَا والعلم بأسمائه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وصفاته العظيمة الدالة علىٰ كماله وجلاله وعظمته سبحانه، وقد قال بعض السلف قديمًا: «من كان بالله أعرف كان له أخوف»[1]، ذكر هذه الكلمة الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فالعبد كلما زاد حظه وعظم نصيبه من معرفته لربه تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ عظم صلاحه واستقامته وزكاء قلبه وطيب عمله وسداد قوله، وقد قال الله تعالىٰ في القرآن: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ [فاطر: ٢٨]، والآية شاهدة لما سبق؛ فكلما عظمت هذه المعرفة في قلب العبد عظم حظه من الخير وزاد نصيبه منه، والله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ خلق الخلق لتوحيده، والتوحيد الذي خلق الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ الخلق لأجله يتناول جانبين:

١- الجانب العلمي؛ وهو المعرفة، معرفة الله والعلم به سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وبأسمائه وصفاته.

---

(١) «مدارج السالكين» (٣/ ٣٣٨).

٢- والجانب الآخر الجانب العملي؛ وهو إخلاص الدين له وإفراده تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بالعبادة وحده دون سواه.

وقد ذكُر النوع الأول الذي هو العلمي في آخر سورة الطلاق، وبُيّن في الآية أنه مقصودٌ للخلق: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴾ [الطلاق: ١٢]، فمن مقصود الخلق خلق الناس وإيجادهم العلم بالله، لنعلم أنه علىٰ كل شيء قدير وأنه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أحاط بكل شيء علما، فالله خلق الخلق ليعرفوه وليعلموا عظمته وجلاله وكماله وكمال قدرته وإحاطة علمه؛ فهذا مقصود للخلق.

والمقصود الثاني للخلق إفراده بالعبادة ووحده دون سواه، وهذا بيَّنه الله في أواخر سورة الذاريات في قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾؛ هنا خلق ليعبدوا وهناك خلق ليعلموا، فالخلق مقصوده أمران: العلم والعمل؛ يقال عن الأول: «التوحيد العلمي»، ويقال عن الثاني: «التوحيد العملي». التوحيد العلمي: بمعرفة الله ومعرفة أسمائه ومعرفة صفاته ومعرفة تفرده بأفعال الكمال وصفات الجلال ونعوت العظمة والتدبير والتسخير والتصرف والإحياء والإماتة، نعلم ذلك ونثبته لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ونوحد الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ به، ولا نجعل مع الله فيه شريك، والجانب الثاني: جانب عملي؛ وهو الذي دلت عليه آية الذاريات: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أي إلا ليقوموا بعبادته وتوحيده.

والمراد بالعبادة: التوحيد، وقوله: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أي: إلا ليوحدون، فالعبادة لا تصح إلا بالتوحيد، والعبادة التي خلق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الخلق لأجلها وأوجدهم لتحقيقها لا تصح إلا بالتوحيد، فإذا داخلها الشرك لا تكون عبادة صحيحة، فالله عَزَّوَجَلَّ لم يَلق الخلق ليعبدوه ويعبدوا غيره معه! بل خلقهم ليعبدوه وحده، ولهذا

فالله عَزَّوَجَلَّ خلق الخلق ليفردوه، «كل أمرٍ بالعبادة في القرآن أمرٌ بالتوحيد»: يؤثر عن ابن عباس أنه قال وحده بالعبادة، كما أنه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ تفرد وحده بالخلق والرزق والإحياء والإماتة والتدبير فالواجب أن يُفرد وحده تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ في العبادة، فلا يُجعل معه شريك في الحب والخوف والرجاء والذل والخضوع والركوع والسجود والذبح والنذر وغير ذلك، وهذه عبادات حقٌّ لله، حقٌّ للخالق، حقٌّ للمتفرد، حق للبارئ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ولهذا لما عبَد قوم موسىٰ العجل واتخذوه شريكًا مع الله لما أمرهم بالتوبة قال لهم لهذه اللطيفة: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِيِٕكُمۡ﴾ [البقرة: ٥٤]، نبههم بذكر اسمه «البارئ» سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ علىٰ بطلان ما هم عليه من عبادة؛ لأن كونه تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ وحده البارئ دليل وشاهد علىٰ أنه وحده المستحق للعبادة، والمستحق لأن يفرد تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ وحده بالطاعة،: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١، ٢٢]، والخطاب هنا للمشركين؛ لا تجعلوا لله شركاء في العبادة وأنتم تعلمون أنه لا خالق لكم غير الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ.

وقول المصنف رَحِمَهُٱللَّهُ: «**بابٌ: معرفة الله عَزَّوَجَلَّ والإيمان به**»، المعرفة تقدم الحديث عنها.

والإيمان بالله المراد به: الإيمان بوحدانيته تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، ولهذا قال العلماء رَحِمَهُمُٱللَّهُ: الإيمان بالله لا يقوم إلا علىٰ هذه الأركان الثلاثة:

١- **الأول**: الإيمان بوحدانية الله في ربوبيته.

٢- **والثاني**: الإيمان بوحدانية الله في أسمائه وصفاته.

٣- **والثالث**: الإيمان بوحدانية الله في ألوهيته.

ودين الإسلام سمي توحيدًا؛ لأن مبناه علىٰ الإيمان بوحدانية الله في الألوهية والربوبية والأسماء والصفات، قال الله تعالىٰ: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١]، وقال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ [ص: ٦٥]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩]، فـ«الأحد» يدل علىٰ أحديته، و«الواحد» يدل علىٰ وحدانيته، والأحدية والوحدانية صفتان لله دالتان علىٰ تفرده تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ؛ تفرده بالخلق والرزق والتصرف والتدبير، وتفرده تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ بالأسماء الحسنىٰ والصفات العظيمة، فهو متفرد بها ولهذا قال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠]؛ أي: مختصٌّ بها متفردٌ بها تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، وهو أيضًا متفرد بالعبادة يجب أن يُفرد بها ولهذا قال: ﴿وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ﴾ [ص: ٦٥]، فيجب أن يفرد بالعبادة دون سواه، كما أنه تفرد تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ وحده بالخلق فوجب أن يفرد تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ وحده في العبادة، فالإيمان بالله هو الإيمان بوحدانية الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ في ربوبيته وفي ألوهيته وفي أسمائه وصفاته.

ولهذا بدأ المصنف فيما يتعلق بمعرفة الله والإيمان به بدأ ذلك بإبطال الشرك؛ لأن المشرك ما عرف الله ولا آمن به، منبهًا المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بهذا البدء بهذا الحديث إلىٰ أن وجود الشرك تنتفي به المعرفة ويبطل به الإيمان، فمن أشرك بالله ما عرف الله، ومن أشرك بالله ما آمن بالله، كيف يكون عارفًا بالله عالمًا به من يسوّي به مخلوقًا من مخلوقاته! كيف يكون مثل هذا عارفًا بالله!! ولهذا وصف الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ المشركين بقوله: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧]، فالمشرك ما عرف الله، ولو عرف الله عَزَّوَجَلَّ حقًا وصدقًا لما اتخذ معه شريكًا، ولما سوىٰ به حجرًا أو شجرًا

أو قبرًا أو إنسانًا أو مَلكًا، أو أي مخلوق كان، ولا يمكن أن يسوي به مخلوقًا من مخلوقاته، ولهذا الشرك ناشئ عن فساد المعرفة بالله، فالمشرك ما عرف الله، ولا آمن بالله، ولأجل هذا بدأ المصنف في باب المعرفة بذكر هذا الحديث العظيم الذي فيه إبطال الشرك، ففي أي باب من أبواب الشرك وفي أي مجال من مجالاته الشرك باطل وفيه دلالةٌ علىٰ أن صاحبه ما عرف ربه ولا آمن به تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ؛ ولهذا أورد المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أول ما أورده من أدلة حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **«قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: أنا أغنىٰ الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه»**.

* قوله ﷺ: «**قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ**» هذا حديث قدسي، والحديث القدسي ألفاظه ومعانيه من الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، فالله عَزَّوَجَلَّ قال ذلك لفظًا ومعنىٰ، وليس معناه من الله ولفظه من الرسول ﷺ! بل هو بألفاظه ومعانيه كلام الله، فقول رسولنا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «قال الله تعالىٰ» مفهوم هذه الكلمة «**أَنَا أَغْنَىٰ الشُّرَكَاء عَنْ الشرْك**» كلماتٌ من الذي قالها؟ رب العالمين، ولو كان اللفظ الكلمات من الرسول لما جاءت العبارة بهذه الصيغة «قال الله تعالىٰ: أنا أغنىٰ الشركاء عن الشرك»، فهذا كلام من الله حروفه وكلماته ومعانيه كله من الله، فهو حديث قدسي تكلم به رب العالمين، والحديث القدسي فيه إثبات الكلام لله عَزَّوَجَلَّ وأنه يتكلم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كما شاء، والكلام صفة من صفاته، وهو تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يقول الحق ويهدي السبيل جَلَّ وَعَلَا.

قال: «**قال الله تعالىٰ: أنا أغنىٰ الشركاء**» وقوله: «**أغنىٰ**» هذا اسم تفضيل، ليس فعل ماض وإنما هو اسم تفضيل؛ أغنىٰ الشركاء عن الشرك: أي أن إذا كان في الشركاء من هو غني عن شركائه فالله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ غني عن الشرك، ولهذا إذا وجد في العمل شرك رده الله علىٰ عامله ولم يقبله منه.

قال: «**أنا أغنىٰ الشركاء عن الشرك**»؛ الشركاء: أي من هم متشاركون في أمر، فإذا كان في الشركاء من هو غني عن شركائه فالله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ غني عن الشرك، ولهذا إذا وُجد في العمل إشراكٌ بالله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ رُدَّ العمل علىٰ صاحبه، فهذا فيه تنبيه للمشرك الذي يعبد الله ويعبد معه غيره بكمال غنىٰ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عن عباده، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥]، فالله عَزَّوَجَلَّ غني عن العباد، والعباد مفتقرون إليه، والعبادة التي يقوم بها العبد هو المفتقر إليها، أما الله عَزَّوَجَلَّ غني عنها لا تنفعه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ طاعة من أطاع ولا تضره معصية من عصىٰ، ولهذا قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الحديث القدسي: «**يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا علىٰ أتقىٰ قلب رجل منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئًا، يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا علىٰ أفجر قلب رجل واحد، ما نقص ذلك من ملكي شيئًا**»(١)، فهو تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لا تنفعه طاعة من أطاع ولا تضره معصية من عصىٰ، ﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ ﴾ [الإسراء: ١٥].

قال: «**أنا أغنىٰ الشركاء عن الشرك**»؛ والشرك: هو تسوية غير الله بالله في شيء من خصائص الله، سواء خصائصه في ربوبيته، أو أسمائه وصفاته، أو ألوهيته، فمن سوَّىٰ بالله غيره في شيء من خصائصه فقد أشرك بالله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ شركًا أكبِ ينقل من ملة الإسلام ويخرج من حظيرة الدين.

قال: «**عن الشرك**»؛ الشرك هو التسوية وعدل غير الله بالله، ولهذا قال الله عَزَّوَجَلَّ في وصف المشركين: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأنعام: ١]؛ أي: يسوُّون به غيره، وقال عن أهل النار أنهم يقولون: ﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ

---

(١) رواه مسلم (٢٥٧٧).

ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء: ٩٧، ٩٨]، فمن سوىٰ غير الله بالله أو عدل غير الله بالله في شيء من خصائص الله في الربوبية أو الألوهية أو الأسماء والصفات فهو مشركٌ بالله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ الشرك الأكبر الناقل من ملة الإسلام.

ومن الشرك: الشرك الأصغر؛ لأن الشرك نوعان: شرك أكبر ناقل من ملة الإسلام وهو ما سبق بيانه، وشركٌ أصغر وهو يختلف عن الشرك الأكبر في حده وفي حكمه.

وحدُّ الشرك الأكبر عرفناه؛ تسوية غير الله بالله في شيء من خصائص الله، وحكمه أيضًا عرفناه وهو الخلود في النار يوم القيامة.

والشرك الأصغر يختلف عن الشرك الأكبر في الحد والحكم؛ أما في الحد: فإن الشرك الأصغر هو ما جاء في النصوص تسميته شركًا ولم يبلغ حد الشرك الأكبر وهو تسوية غير الله بالله في شيء من خصائصه، مثل أن يقع الإنسان في يسير الرياء، أو يقع من لسانه كلمات وألفاظ شركية لا يقصدها؛ مثل أن يقول: ما شاء الله وشئت، أو مثل أن يقول والكعبة أو يحلف بمخلوق من مخلوقات الله، «**من حلف بغير الله؛ فقد كفر أو أشرك**»[(١)]، الشرك هنا أصغر، وكذلك قول القائل: «**لولا البط لأتانا اللصوص أو لولا كذا لكان كذا**»، أو نحو هذه الألفاظ؛ فهذه ألفاظ شركية وجاء في النصوص ما يدل علىٰ أنها شرك لكنها لا تبلغ رتبة الشرك الأكبر الناقل من ملة الإسلام.

والإسلام جاء بتحريم هذه الألفاظ الشركية والمنع منها صيانةً لجناب التوحيد، وتعظيمًا لمقام الرب تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، وتكميلًا للإيمان وتتميمًا له وحفظا له وحماية لجنابه، وسدًا للذرائع التي تفضي إلىٰ الشرك بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ولهذا هذه ألفاظ محرمة ألفاظ شركية يُنهىٰ عنها ويُمنع منها ويحذَّر من فعلها.

---

(١) رواه أبو داود (٣٢٥١)، والترمذي (١٥٣٥)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٢٠٤).

ومن الأمور العجيبة المؤلمة المؤسفة تصفحت كتابا؛ كتبه أحد المفتين في إحدىٰ الدول؛ وهو عبارة عن أسئلة وجهت إليه فبُدئت بسؤال عن لفظ شركي، فقال: (هناك قاعدة وهي: أن الأصل في المسلم سلامته، وأي لفظ يقوله يُحمل علىٰ أحسن المحامل فله أن يقول من هذه الألفاظ ما شاء وتحمل له علىٰ أحسن محامله)، ففتح الباب علىٰ مصراعيه بهذا التقعيد الفاسد ليقال من الألفاظ الشركية والكلمات الباطلة ما شاء، والعوام الذين يسمعون له تبقىٰ نفوسهم مستمرة ويبقون محافظين علىٰ هذه الألفاظ التي جاءت الشريعة بسدها والمنع منها.

قارن قول هذا الرجل بقول النبي ع ليه الصلاة والسلام لما سمع رجلًا يقول: «ما شاء الله وشئت»، فغضب عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وقال: «**جَعَلْتَنِي لِلَّهِ عَدْلاً؟ بَلْ مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ**»[(١)].

أنت لو تفكرت في حقيقة هذا الرجل لمَّا قال: «**ما شاء الله وشئت**» هل كان قاصدًا تسوية مشيئة النبي بمشيئة الله؟ لا والله، وإنما لفظة جاءت علىٰ لسانه فمنعه منها وغضب عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وقال: «**أجعلتني لله ندًّا؟! بل ما شاء الله وحده**» ويأتي أناس ويقعدون قواعد ويضعون أصولا للعوام لتبقىٰ هذه الأصول الشركية علىٰ ألسنتهم! فأين هؤلاء من هدي النبي عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وسنَنه القويمة؟ ومضىٰ في فتاواه علىٰ هذه الطريقة، سُئل عن أمور كثيرة جدًّا ومضىٰ في فتاواه علىٰ هذه الطريقة في جانب العقيدة وجانب العبادة وجانب السلوك لا تكاد تجد له فتوىٰ مستقيمة كلها فتاوىٰ يذهب بالناس إلىٰ مذاهب منحرفة وباطلة، فلا يذكر لهم آية من كتاب الله ولا يذكر لهم حديثا عن رسول الله ﷺ ولا يذكر لهم مرويًّا ومأثورًا عن سلف الأمة،

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (١٨٣٩)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٣٩).

وإنما يتخرَّص ويتقوَّل في دين الله وعلىٰ الله وفي كتاب الله وفي سنة رسول الله ﷺ بلا علم ولا فهم؛ فهذا مثل من قال عنهم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**وَإِنَّمَا أَخَافُ عَلَىٰ أُمَّتِي الأَئِمَّةَ الْمُضِلِّينَ**»(١)؛ فإن خطرهم علىٰ الناس عظيم جدًّا.

الشاهد: أن الشرك منه أكبر ومنه أصغر، والشرك الأكبر ناقل من الملة وصاحبه مخلد في النار يوم القيامة، والشرك الأصغر يختلف عن الأكبر في الحد والحكم، ومن حيث الحد عرفنا، ومن حيث الحكم فالعلماء اختلفوا هل الشرك الأصغر يدخل في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨]؟ فمنهم من قال هو داخل لعموم الآية لكنه يعذب ولا يخلد في النار، ومنهم من قال هو مثل الكبائر بل من أكبر الكبائر وأعظمها وأخطرها، وإذا كان للإنسان حسنات راجحة يوم القيامة قد تغطي علىٰ يسير الشرك الأصغر الذي وُجد عنده، لعموم قوله: ﴿إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ [هود: ١١٤]، قولان لأهل العلم ولكن الشرك الأصغر في غاية الخطورة علىٰ الإنسان وهو أعظم من الكبائر المجردة وأخطر منها، ولهذا قال ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «**لأن أحلف بالله كاذبًا أحب إليَّ من أن أحلف بغيره صادقًا**»(٢).

قال: «**أَنَا أَغْنَىٰ الشرَكَاء عَنْ الشرك، من عمل عملًا**»؛ «عملًا» نكرة في سياق الشرط تفيد العموم؛ أي عمل كان، سواء كان العمل قليلًا أو كثيرًا، أو كان الإشراك قليلًا أو كثيرًا يتناول ذلك، ولهذا هذا الحديث يتناول بعمومه تحريم الرياء وتحريم السمعة وتحريم إرادة الدنيا بالعمل، فكل هذا داخل في قوله: «**من عمل عملًا أشرك فهي معي غيري تركته وشركه**»، والرياء محبط للعمل، إذا وُجد مع العمل في أصله

---

(١) رواه أبو داود (٤٢٥٤)، والترمذي (٢٢٢٩)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٥٨٢).

(٢) رواه عبد الرزاق في «مصنفه» (١٥٩٢٩)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (١٢٢٨١)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٨٩٠٢)، وصححه الألباني في «الإرواء» (٢٦٦٢).

أبطله من أصله، وإذا كان يسيرًا ودخل علىٰ جزء من العمل أفسد من العمل ما قارفه، فهو محبطٌ للعمل ومفسدٌ لما قارفه من العمل لأن الله لا يقبل إلا الخالص، فعن أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَنَحْنُ نَتَذَاكَرُ الْمَسِيحَ الدَّجَّالَ فَقَالَ: «**أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِمَا هُوَ أَخْوَفُ عَلَيْكُمْ عِنْدِي مِنَ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ؟**».

قَالَ: قُلْنَا بَلَىٰ.

فَقَالَ: «**الشِّرْكُ الْخَفِيُّ أَنْ يَقُومَ الرَّجُلُ يُصَلِّي فَيُزَيِّنُ صَلاَتَهُ لِمَا يَرَىٰ مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ**»(١).

ولهذا يجب علىٰ كل عاقل ناصح لنفسه أن يتيقن تمامًا أنه لن يدخل معه في قبرِه ما هو معدودٌ في صالح عمله إلا ما كان مبتغيًا به وجه الله، لو كانت أعماله التي قام بها أمثال الجبال لا يقبلها الله منه إلا إذا كان قد قصد بها وجه الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فلا يقبل الله من العمل إلا العمل الخالص أي الصافي النقي الذي لم يُرد به إلا الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ.

قال: «**من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري**»؛ أي: جعل لغيره فيه شركة.

«**تركته وشركه**»؛ أي: أن الله لا يقبله منه بل يرده عليه، وهذا فيه دلالة علىٰ أن عمل من سوَّىٰ مع الله غيره، وأشرك مع الله غيره أن عمله مردودٌ غير مقبول، فمعنىٰ: «**تركته وشركه**»؛ أي: رددتُ عليه عمله ولم أقبله منه؛ ففيه: أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لا يقبل من العمل إلا الخالص.

فالمصنف رَحِمَهُٱللَّهُ بدأ بهذا الحديث منبهًا أن من أشرك مع الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ غيره ما عرف الله ولا آمن به حقيقة الإيمان، لأن الشرك إن كان أكبر فهذا بطُل معه كل شيء، وإن كان أصغر فهذا دليل علىٰ نقص الإيمان وضعفه وضعف المعرفة بالله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ.

❊ ❊ ❊

---

(١) رواه ابن ماجه (٤١٩٤)، وحسنه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٣٣٨٩).

[ما جاء في نفيُ النوم عن الله تعالى]

٢- وعن أبي موسىٰ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قَامَ فِينَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ، فَقَالَ: «**إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ لا يَنَامُ، وَلا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلَ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ، حِجَابُهُ النُّورُ، لَوْ كَشَفَهُ لأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَىٰ إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ**». رواه مسلم[(١)].

من الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ ومن معرفته سبحانه الإيمان بأسمائه وصفاته ومعرفة أسمائه وصفاته الواردة في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ وسنة نبيه ﷺ؛ فإن العبد كلما عظُم حظه من معرفة أسماء الله جَلَّوَعَلَا وصفاته الواردة في القرآن والواردة في سنة النبي ﷺ عظم حظه ونصيبه من الإيمان، لأن من الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ الإيمان بأسمائه وصفاته الواردة في كتابه وسنة نبيه ﷺ، والإيمان بها يسبقه معرفتها؛ ولهذا قال: «معرفة الله عَزَّوَجَلَّ والإيمان به»، فلابد من معرفتها من خلال كتاب الله عَزَّوَجَلَّ وسنة نبيه ﷺ، ثم إتْباع المعرفة بالإيمان؛ وهو أن يقرَّ قلب المسلم ويصدق بهذه الأسماء وهذه الصفات وأنها أسماء لله عَزَّوَجَلَّ وصفاتٌ لله عَزَّوَجَلَّ متضمنة لمعاني الجلال والكمال والعظمة والكبرياء، بحيث يمتلأ القلب بمعرفته بها إيمانًا ويقينًا وتعظيمًا وإجلالًا لله عَزَّوَجَلَّ وذلًّا وخضوعًا له وانكسارًا بين يديه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؛ وهذه كلها ثمارٌ وآثار لمعرفة الله عَزَّوَجَلَّ بمعرفة أسمائه وصفاته الواردة في كتابه وسنة رسوله عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ. ولهذا أخذ المصنف يسوق في هذه الترجمة جملةً من الأحاديث

---

(١) رواه مسلم (١٧٩).

من سنة النبي الكريم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ التي فيها التعريف بالمعبود سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وذلك بذكر أسمائه جَلَّ وَعَلَا وصفاته.

قال: «**وعن أبي موسىٰ قال: قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات**» هؤلاء الخمس الكلمات التي قام فيها رسول الله ﷺ معلمًا ومنبهًا ومبينًا لأصحابه ولأمته عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كلها كلماتٌ فيها تعريفٌ بالرب العظيم، وهذا التعريف بالله من المحاور التي ترتكز عليها دعوات المرسلين من أولهم إلىٰ آخرهم. قال العلماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: إن دعوات المرسلين من أولهم إلىٰ آخرهم ترتكز علىٰ ثلاث محاور:

١- **المحور الأول**: التعريف بالرب المعبود والخالق الجليل سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

٢- **والمحور الثاني**: التعريف بعبادته والطريق الذي ارتضاه لعباده ليتقربوا من خلاله إليه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

٣- **والمحور الثالث**: بيان ما أعده الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لمن سلك هذا الطريق من ثواب، ولمن حاد عنه وانحرف عنه من عقاب.

فهذا الذي قام فيه النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ هذا من المحور الأول وهو أساسٌ لابد منه؛ تعريف الناس بربهم، وقد جاء عنه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أحاديث كثيرة جدًّا فيها تعريف الناس بالله؛ بذكر صفاته وأسمائه وعظمته وجلاله وكماله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قال: «**قام فينا بخمس كلمات**»، وقوله: «**بخمس كلمات**» دليل علىٰ دقة الصحابة في ضبط العلم وما يُلقىٰ عليهم من رسول الله ﷺ، فالنبي ﷺ ألقىٰ عليهم خمس كلمات فضبَطها بالعدد أبو موسىٰ الأشعري حتىٰ تنضبط، والأرقام تعين علىٰ ضبط العلم وحفظه.

قال: «قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات، فقال: «**إن الله عَزَّوَجَلَّ لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام**»؛ هذه الكلمة الأولىٰ في نفي النوم عنه بل نفي كل نقصٍ عنه يرد في

الكتاب والسنة يتضمن ولابد إثبات كمال ضد ما نُفي، وهذه قاعدة معروفة عند أهل العلم في باب النفي؛ النفي في الصفات ليس نفيًا صرفًا، وإنما هو نفي متضمن لكمال ضد المنفي، لأن النفي الصرف ليس مدحًا، لا يكون النفي إلا إذا تضمن معنًىٰ ثبوتيًّا، ولهذا قوله: «**لا ينام**» نفي النوم فيه إثبات كمال الحياة، وأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ له الحياة الكاملة التي لا يعتريها نقص، بخلاف حياة المخلوق الذي حياته فيها نقص، فالنوم ناشئ عن التعب، فالإنسان يتعب وينصب فيحتاج إلىٰ الراحة ويحتاج إلىٰ النوم؛ فهذا نقص يدل علىٰ ضعفه وعجزه ونصَبه وتعبه، فحياته فيها نقص، أما حياة الله عَزَّوَجَلَّ فهي حياة كاملة، حياته تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ حياة لم تُسبق بعدم، «**كان الله ولم يكن شيء قبله**»[(١)]، في الدعاء: «**اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء**»[(٢)]، ولا يلحق حياته فناء، ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ﴾ [القصص: ٨٨]، ولا يعتري حياته تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ نقص؛ ولهذا نفىٰ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في كتابه النقائص التي تتنافىٰ مع كمال حياته كقوله هنا في الحديث: «**إن الله لا ينام**»، وكقوله تعالىٰ في آية الكرسي: ﴿**ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ**﴾ [البقرة: ٢٥٥] وكقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٖ﴾ [ق: ٣٨]؛ أي: تعب ونصب؛ فنزه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ نفسه عن النقائص التي تتنافىٰ مع كمال حياته سبحانه، فالله عَزَّوَجَلَّ حيٌ حياةً كاملة لا نقص فيها بوجهٍ من الوجوه، حياةٌ لم تُسبق بعدم ولا يلحقها فناء ولا يعتريها نقص، النوم نقص، والسِنة نقص، واللغوب نقص، والموت نقص، والله منزهٌ عن ذلك كله لكمال حياته تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ[(٣)].

---

(١) رواه البخاري (٧٤١٨).

(٢) رواه مسلم (٢٧١٣).

(٣) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَأَمَّا الْخَاتِمَةُ الْجَامِعَةُ فَفِيهَا قَوَاعِدُ نَافِعَةٌ الْقَاعِدَةُ الْأُولَىٰ: أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ مَوْصُوفٌ بِالْإِثْبَاتِ وَالنَّفْيِ فَالْإِثْبَاتُ كَإِخْبَارِهِ بِأَنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ وَعَلَىٰ كُلِّ =

«**إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام**»؛ أي: أنه منزه عن ذلك كله، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَـٰفِلٍ﴾ [هود: ١٢٣]، النائم غافل، والنائم لا يدري ما حوله، لكن الله جَلَّوَعَلَا منزه عن ذلك كله، فهو لا ينام ولا ينبغي له أن ينام.

هنا معرفة المسلم بهذا الوصف لله عَزَّوَجَلَّ وهو وصفه بكمال الحياة وتنزهه عن السِنة والنوم والموت واللغوب ونحو ذلك لكمال حياته سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؛ وهذه المعرفة تولد في العبد عبودية وذلا لله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، والعلماء رَحِمَهُمُٱللَّهُ ذكروا أن كل اسمٍ من أسماء الله وكل صفةٍ من صفاته له عبودية يقتضيها ذلك الاسم، فمن عرف ربه تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ هذه المعرفة، وأنه جَلَّوَعَلَا له الحياة الكاملة التي لا يعتريها نقصٌ ولا عجزٌ ولا ضعف، ولا يعتريها سنة ولا نوم ولا موت، حياةٌ تامة كاملة، فما الذي توجده هذه المعرفة من عبودية؟ لاشك أن هذه المعرفة توجد في العبد صدق الإقبال علىٰ الله جَلَّوَعَلَا وحُسن التوكل عليه ودوام الطاعة له، لأن العبد يعلم أن ربه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ الذي يتجه إليه بالعبادة والسؤال والطلب حيٌ لا ينام، حيٌ لا يموت، حيٌ لا يمسه لغوب ولا تعب، فهذا يوجد فيه توجُّهًا صادقا إليه وحده دون سواه، ولهذا قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨].

وهذا يستفيد منه المسلم فائدة عظيمة: أن الحي الذي يموت لا يعلَّق القلب به

=

شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّهُ سَمِيعٌ بَصِيرٌ وَنَحْوُ ذَلِكَ وَالنَّفْيُ كَقَوْلِهِ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ وَيَنْبَغِي أَنْ يُعْلَمَ أَنَّ النَّفْيَ لَيْسَ فِيهِ مَدْحٌ وَلَا كَمَالٌ إلَّا إذَا تَضَمَّنَ إثْبَاتًا وَإِلَّا فَمُجَرَّدُ النَّفْيِ لَيْسَ فِيهِ مَدْحٌ وَلَا كَمَالٌ ؛ لِأَنَّ النَّفْيَ الْمَحْضَ عَدَمٌ مَحْضٌ ؛ وَالْعَدَمُ الْمَحْضُ لَيْسَ بِشَيْءٍ وَمَا لَيْسَ بِشَيْءٍ فَهُوَ كَمَا قِيلَ: لَيْسَ بِشَيْءٍ ؛ فَضْلًا عَنْ أَنْ يَكُونَ مَدْحًا أَوْ كَمَالًا وَلِأَنَّ النَّفْيَ الْمَحْضَ يُوصَفُ بِهِ الْمَعْدُومُ وَالْمُمْتَنِعُ وَالْمَعْدُومُ وَالْمُمْتَنِعُ لَا يُوصَفُ بِمَدْحٍ وَلَا كَمَالٍ .

فَلِهَذَا كَانَ عَامَّةُ مَا وَصَفَ اللهُ بِهِ نَفْسَهُ مِنْ النَّفْيِ مُتَضَمِّنًا لِإِثْبَاتِ مَدْحٍ» «مجموع الفتاوىٰ» (٣/ ٣٦).

ولا يُتوكل عليه، والحي الذي قد مات من باب أولىٰ لا يُلتجأ إليه ولا يُتوكل عليه، والجماد الذي ليس له حياة أصلًا من باب أولىٰ لا يُلتجأ إليه ولا يُتوكل عليه؛ فهذا يبين لنا بطلان عبادة غير الله.

* قوله: «**إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام**» هذا من الدلائل العظيمة علىٰ بطلان عبادة غير الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ. يقال لمن يعبد غير الله: تعبد من ينام**!!** يكفيك أنه ينام ألا تعبده، فهذه وحدها تكفي، وكونه ينام هذا وحده كافٍ ألا يُعبد؛ لأن نومه دليل علىٰ نقصه، فكيف تعرض حاجتك عليه وكيف تتوكل عليه وهو فيه نقص**!!** وكيف يُطلب الكمال ممن هو ناقص؟ وكيف تُطلب العافية ممن لا يملكها في حق نفسه، ولا يملك لنفسه ضرًا ولا نفعًا ولا موتـًا ولا حياةً ولا نشورا؛ فهذا وحده كافٍ في بطلان عبادة غير الله، والحي الذي يموت أو ينام هذا كيف يلتجأ إليه ؟**!** والحي الذي قد مات ودُفن ووُري في التراب كيف يتوجه إليه؟**!** والحجر الذي هو جماد كيف يتوجه إليه ويلتجأ إليه؟**!** فهذا من أبين البينات وأوضح البراهين علىٰ بطلان عبادة غير الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

ومن يدعو غير الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ خُسف عقله؛ إذ كيف يسوي هذه المخلوقات بالرب العظيم والخالق الجليل تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ الذي بيده أزمَّة الأمور جَلَّ وَعَلَا **!!** ولهذا جاء ملاحظة هذا المعنىٰ في أدعية النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، كما جاء في «**الصحيح**» أنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كان يقول في دعائه: «**اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، أعوذ بعزتك لا إله إلا أنت أن تضلني، أنت الحي الذي لا يموت، والجن والإنس يموتون**»[١]. فالتوجه يكون لمن؟ للحي الذي

---

(١) رواه مسلم (٢٧١٧).

لا يموت، للحي الذي لا ينام، للحي الذي لا تأخذه سنة ولا نوم، أما الحي الذي يموت والحي الذي ينام والحي الذي تأخذه السنة والنوم والحي الذي ينصب ويتعب ويمرض ويسقم كيف يُتوجه إليه بالدعاء والعبادة والسؤال والطلب!؟ فهذا من أبين البينات وأوضح البِراهين علىٰ بطلان عبادة غير الله، وعلىٰ وجوب إفراده تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ وحده بالعبادة والذل والخضوع والانكسار.

الكلمة الثانية: قال: «**يخفض القسط ويرفعه**»، وجاء في بعض روايات الحديث في الصحيح: «**وبيده الميزان يخفض ويرفع**»[(١)]؛ أي: أن الميزان بيده ووزن الأمور بيده وبتدبيره سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فهو جَلَّوَعَلَا الخافض الرافع، القابض الباسط، المعطي المانع، الذي بيده أزمة الأمور تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، وهذا أيضًا من الدلائل والبراهين علىٰ وجوب كمال الذل له والخضوع له والانكسار بين يديه تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ.

«**يخفض القسط ويرفعه**» فالأمر بيده تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ؛ بيده الخفض والرفع، والقبض والبسط، والعطاء والمنع، والعز والذل، كل شيء بيده تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، فهذا يدل علىٰ شدة افتقار العبد إلىٰ الله وغنىٰ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عن عباده، غنيٌّ عنهم من كل وجه وهم فقراء إليه من كل وجه، لا غنىٰ لهم عنه طرفة عين.

والجملة الثالثة قال: «**يرفعه إليه عمل الليل قبل عمل النهار**»، وهذا فيه أن الأعمال تُرفع إلىٰ الله؛ أعمال الليل ترفع قبل أعمال النهار، وأعمال النهار تُرفع قبل أعمال الليل، يعني أن الأعمال تُرفع إليه أولًا بأول، اليوم بيومه والليل بليلته، تُرفع إليه أعمال الليل قبل النهار وأعمال النهار قبل الليل، تُرفع إليه وهو سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ مطلع عليها لا تخفىٰ عليه تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ منها خافية، أحصىٰ كل شيء عددا وأحاط

---

(١) رواه البخاري (٤٦٨٤).

تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بكل شيء علمًا، لكن هذا الرفع للأعمال إليه لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فيه حكمة، فالأعمال ترفع إليه؛ أعمال الليل التي قام بها العبد في ليله تُرفع قبل أن يأتي الصباح، وأعمال النهار تُرفع قبل أن يأتي الليل، فهي ترفع أولًا بأول أعمال الليل وأعمال النهار.

فالجملة الثالثة: رفع أعمال الليل قبل أعمال النهار، **والجملة الرابعة**: رفع أعمال النهار قبل أعمال الليل؛ رفعُها إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

والرفع في قوله: «**ترفع إليه**» فيه دليل علىٰ علوه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وأنه جَلَّ وَعَلَا عليٌّ علىٰ خلقه سبحانه، ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلىٰ: ١]، وهو: ﴿ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ٩] فهو العلي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ علىٰ خلقه. ومن ينكرون علو الله ما معنىٰ قول النبي ﷺ: «**تُرفع إليه**»؟ وماذا يفهمون من مثل هذا الحديث ونظائره؟ وكذلك قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج: ٤]، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠]، «**إن الله حيي كريم يستحيي إذا رفع العبد إليه يديه أن يردهما صفرا خائبتين**»[١]؛ هذه كلها شواهد علىٰ علو الله، ولهذا من ينكر علو الله أو يقول تعالىٰ الله عن ذلك الله في كل مكان ما معنىٰ ترفع إليه؟ وما معنىٰ إليه يصعد؟ وما معنىٰ تعرج إليه؟ كل هذه الأحاديث ما معناها ؟ علىٰ حد قولهم وفهمهم ليس لها معنىٰ.

فالشاهد أن هذا الحديث ونظائره من الدلائل الواضحات علىٰ علو الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ علىٰ خلقه، وأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مستو علىٰ عرشه استواءً يليق بجلاله وكماله فوق عباده سبحانه، وترفع إليه أعمال الليل قبل أعمال النهار، وأعمال النهار قبل

---

(١) رواه أبو داود (١٤٨٨)، والترمذي (٣٥٥٦)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٧٥٣).

أعمال الليل، ويوضح هذا المعنىٰ الحديث الآخر عندما قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة العصر وصلاة الفجر، ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم بهم، فيقول: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلون، وأتيناهم وهم يصلون**»(١)، فهذا فيه أيضًا دلالة علىٰ كمال إحاطة علم الله عَزَّوَجَلَّ بأعمال العباد، وأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يَخفىٰ عليه منها خافية؛ الأعمال التي تكون بالليل كلها محصاة علىٰ العباد وتُرفع إليه وهذا من كمال حكمته تُرفع إليه في وقتها، وأعمال النهار أيضًا ترفع إليه، فالكل محصىٰ: ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة: ٦]، والعبد إذا كان غارقًا في ذنوبه لا يزال يومًا بعد يوم يحمل وزرًا وإثمًا يمارسه في هذه الحياة ثم ماذا يكون؟ يلقىٰ الله عَزَّوَجَلَّ بذلك كله محصًىٰ عليه: ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾، يأتي يوم القيامة يحمل وزرًا يلقىٰ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ به.

فقوله: «**يرفع إليه عمل الليل قبل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل**»، هذا مما ينبه العبد علىٰ المراقبة والمحاسبة ومتابعة نفسه في الأعمال، وينتبه ألا تغرب شمس اليوم ولا يَخرج الصباح إلا وله حظٌ من الأعمال الصالحة التي يتقرب بها إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وعنده سلامة من الآثام والمعاصي والذنوب التي تُسخط الله جَلَّ وَعَلَا، لأن الأمر مستمر كل يوم بيومه وكل ليلة بليلتها، فهذا يجعل العبد في دوام المحاسبة ودوام المعاتبة لنفسه ودوام المجاهدة علىٰ الأعمال الصالحة كل يوم بيومه.

وهذا المعنىٰ الذي يُلمح إليه الحديث تجد كثيرًا منا في أمور الدنيا يلاحظ ذلك

---

(١) رواه مسلم (٦٣٢).

ملاحظة تامة وملاحظة دقيقة، والشيء الذي يُرفع له وقت محدد يرفع فيه تجد الإنسان يأتي به بدقة؛ لأنه يقول إذا رُفع لا مجال لأن أحصله وقد فاتني، فتجده يتابع بدقة تامة حتىٰ لا يفوته، فهذا المعنىٰ الذي قاله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**يرفع إليه- أي إلىٰ الله- عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل**»، هذا فيه دعوة للعبد لمتابعة الأمر ومجاهدة النفس ومحاسبتها والجد والاجتهاد، لأن الوقت يمضي والأيام والليالي تمضي وكل يوم بيومه تُرفع وكل ليلة بليلتها ترفع، وما ذهب من الليالي والأيام لا يعود ولا يرجع؛ فهذا فيه دعوة للعبد أن يجدَّ ويجتهد في حفظ أيامه وحفظ لياليه بما يسُرُّه أن يلقىٰ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ به، والليالي والأيام مستودع للأعمال، وكل ما يكون من العبد في لياليه وأيامه سيلقىٰ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ به يوم القيامة.

ثم ذكر **الجملة الخامسة** قال: «**حجابه النور، لو كشفت لأحرقت سبحات وجهه ما انتهىٰ إليه بصره من خلقه**»، وبصر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ منتهٍ إلىٰ كل المخلوقات وجميع الكائنات، فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يبصر جميع الكائنات ويرىٰ جميع المخلوقات، لا يفوته شيء ولا يغيب عنه شيء ولا يعزب عنه شيء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، يرىٰ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من فوق سبع سماوات دبيب النملة السوداء علىٰ الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، ويرىٰ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ جريان الدم في عروقها، ويرىٰ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ سريان الماء في عروق النبات، لا يخفىٰ عليه شيء ولا يعزب عنه شيء ولا يغيب عنه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ شيء، مطلعٌ علىٰ كل شيء، يرىٰ كل شيء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

يقول ﷺ هنا: «**حجابه النور**»؛ أي: حجاب الله النور.

يقول: «**لَوْ كَشَفَه**» يعني لو كشف هذا النور الذي جعله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ حجابًا له «**لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وجهه**»، ومعنىٰ سبحات وجهه: أي بهاء وجهه ونور وجهه وجلال وجهه وجمال وجهه «**لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وجهه مَا انتهىٰ إليه بصره من خلقه**»،

وبصره منتهٍ إلىٰ كل المخلوقات لأنه سبحانه يبصر تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ كل شيء؛ فهذا يدل علىٰ كمال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وكمال عظمته وبهائه وجلاله وجماله وعظمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

«**ما انتهىٰ إليه بصره من خلقه**»، فهذا فيه كمال عظمة الله جَلَّ وَعَلَا، وفيه أيضًا ضعف المخلوق، وأن المخلوق شأنه أن سبحات وجه الله عَزَّ وَجَلَّ لو كُشف عنها الحجاب لاحترق، ويوم القيامة يجعل الله عَزَّ وَجَلَّ للمخلوق قدرة وقوة يتمكن بها من رؤية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولهذا رؤية الله لا تكون لأحد في الدنيا، «**إنكم لن تروا ربكم حتىٰ تموتوا**»[(١)]، لا تكون إلا يوم القيامة يكرم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أهل الإيمان بلذة النظر إلىٰ وجهه الكريم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قال: «**حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهىٰ إليه بصره من خلقه**» في الحديث إثبات الوجه صفةً لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، ودعوكم من أقوال العاطلين المبطلين الجاحدين المنكرين المكذبين لكلام الله وكلام رسوله ﷺ الذين يقولون في الله وفي كلام الله وفي كلام رسوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ما لا يعلمون، ممن خاضوا في التأويل الباطل زعمًا منهم أنهم ينزهون الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ؛ فالله له وجهٌ عظيم جليل يليق بجلاله وكماله، أثبت ذلك هو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لنفسه، وأثبت ذلك له رسوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فنؤمن بأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ له وجه عظيم يليق بجلاله وكماله، ووجه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ له بصر، قال: «**لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهىٰ إليه بصره**»، أيضًا فيه إثبات البصر لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، فهو يبصر جَلَّ وَعَلَا ويرىٰ، ويبصر بعينين جاء ذكرهما في القرآن وفي سنة النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، قال تعالىٰ: ﴿تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا﴾

---

(١) رواه النسائي في «السنن الكبرىٰ» (٧٧٦٤)، وأحمد في «مسنده» (٢٢٧٦٤)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٤٢٨)، وقال الألباني في «ظلال الجنة»: «إسناده جيد رجاله ثقات».

[القمر: ١٤]، قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**وإن ربكم ليس بأعور**»(١)؛ أي: له عينان كاملتان منزهتان عن النقائص والعيوب، فكل ذلك نؤمن به.

ومن لا يؤمن بذلك ومن ضيَّع هذه المعرفة بالله ترتب علىٰ ذلك من ضياع إيمانه ورقَّة دينه وضعف عبادته وضعف صلته بالله بحسب ما ضيَّع من معرفته بربه، ولهذا قال العلماء: إن للعقائد الفاسدة شؤمًا علىٰ أصحابها، فمن يعطلون الصفات ويَخوضون فيها تحريفًا وتعطيلًا وجحدًا ونفيا هذه لها شؤم عليهم، ولهذا تأتي أعمالهم تبعًا لفساد العقائد أعمال ضعيفة وأعمال مضيَّعة وتفريط في الواجبات وفعل للمحرمات، وهذا كله ناشئ من فساد العقيدة فيما يتعلق بالله وصفاته وأسمائه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

والواجب علىٰ المسلم في هذا الباب «باب الأسماء والصفات»، أن يمرر نصوص الصفات كما جاءت وأن يؤمن بها كما وردت، آمنَّا بالله وبما جاء عن الله علىٰ مراد الله، وآمنَّا برسول الله وبما جاء عن رسول الله ﷺ علىٰ مراد رسول الله ﷺ، ولا نخوض في صفات الله بعقولنا القاصرة كما يفعله علماء الكلام أهل الضلال والباطل؛ يأتون إلىٰ الصفات المثبتة في القرآن والسنة ويخوضون بعقولهم، فيقولون: الوجه ما يليق بالله والبصر ما يليق بالله، والاستواء ما يليق بالله.. ثم يَخوضون في تأويلات باطلة تفسد عليه دينه وعلىٰ من يستمع إليه؛ وهذا كله يجب الإعراض عنه وعدم السماع إليه والبُعد عنه وعن أهله والإقبال علىٰ العقيدة الصحيحة الصافية النقية المستمدة من كتاب الله وسنة نبيه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

وحتىٰ يتضح المعنىٰ أكثر فلننظر في حال الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ لما سمعوا النبي

(١) رواه البخاري (٧١٣١)، ومسلم (٢٩٣٣).

عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يقول هذا الحديث ويقول أمثاله من أحاديث الصفات بأي شيء تلقَّوْها؟ هل سمعتم أن أحدًا من الصحابة قال يومًا من الأيام لو كان لله وجها لكان كذا وكذا ؟ لو كان الله مستويًا علىٰ عرشه للزم أن يكون كذا؟ أبلغكم شيء عن أحد من الصحابة مثل ذلك؟ هذا كله ضلال لم يوجد إلا مع وجود البدع والضلالات والانحرافات عن دين الله، أما قاعدة الصحابة وقاعدة من اتبعهم بإحسان في هذا الباب تلقي أخبار الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بالقبول بدون اعتراض وبدون انتقاد وبدون تحريف وبدون تأويل، وإنما تلقٍّ تام لها بالقبول، يقول الزهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من الله الرسالة، وعلىٰ الرسول البلاغ، وعلينا التسليم»(١)، أما علىٰ قاعدة المتكلمين: «وعلينا الانتقاد»، قاعدتهم في هذا الباب وعلينا الانتقاد، لأن المتكلم عندما يقف عند أحاديث الصفات لا يسلم وإنما يبدأ ينتقد «لو قلنا كذا للزم كذا» هذا انتقاد ليس تسليمًا، فقاعدة الصحابة وقاعدة من اتبعهم بإحسان في هذا الباب التسليم والإيمان، وعندهم أنه لا أحد أعرف بالله من الله، ولا أحد أعرف بالله من خلق الله من رسوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

والشاهد أن الواجب علىٰ المسلم في جميع نصوص الصفات الواردة في القرآن والسنة أن يتلقاها بالتسليم والإيمان التام الكامل، يثبتها لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ علىٰ الوجه الذي يليق بجلاله وكماله وعظمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

❊ ❊ ❊

---

(١) «صحيح البخاري» تعليقًا رقم (٤٦) [٦/ ٢٧٣٨].

[ما جاء في أن لله يمينًا]

٣- وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا: «**يَمِينُ اللهِ مَلأَىٰ، لَا تَغِيضُهَا نَفَقَةٌ، سَحَّاءُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَغِضْ مَا فِي يَمِينِهِ، وَالْقِسْطُ بِيَدِهِ الأُخْرَىٰ، يَرْفَعُ وَيَخْفِضُ**». أخرجاه[1].

ثم أورد المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ، وهو أيضًا في باب التعريف بالله، تعريف عباد الله بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ قال: «**يمين الله ملأىٰ، لا يغيضها نفقة، سخاء الليل والنهار**»، وصف يمين الله وهي يده تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بأنها ملأىٰ، وأيضًا سحاء، وانتبه للوصفين ففي العلم بهما فائدة عظيمة لك؛ ملأىٰ وسحاء، قد يكون الإنسان يده فيها شيء من العطاء أو فيها شيء من الامتلاء، ولكنها غير سحاء يكون بخيلًا، وقد يكون كريمًا عنده حب للنفقة لكن ما عنده شيء، فالنبي ﷺ قال: «**يمين الله ملأىٰ، لا يغيضها نفقة، سخاء الليل والنهار**»، يد ملأىٰ وأيضًا معطاء سحاء ينفق بالليل والنهار؛ فهذا يدل علىٰ كمال عظمة الله عَزَّوَجَلَّ وأن الخير بيده سبحانه وأنه واسع العطاء جزيل المن، عطاؤه كلام: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦] جَلَّ وَعَلَا.

«**يمينه ملأىٰ**» إذا عرف العبد أن الله عَزَّوَجَلَّ شأنه كذلك؛ يمينه ملأىٰ لا يغيضها أي لا يُنقصها نفقة، سحاء الليل والنهار ما الذي تولده هذه المعرفة في قلبه ؟ هذا يولد فيه صدق الإقبال عليه، يولد فيه المعنىٰ الذي جاء في قوله تعالىٰ: ﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ

---

(١) رواه البخاري (٤٦٨٤)، ومسلم (٩٩٣).

ٱلرِّزْقَ﴾ [العنكبوت: ١٧]، ابتغ الرزق عند من يمينه ملأىٰ سحاء الليل والنهار، فهذه المعرفة تجعل العبد يُقبل علىٰ الله ولا يُقبل علىٰ أحد سواه تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، لأن الرزق بيده، يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، الأمور بيده، هو الرزاق، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢].

من القصص اللطيف في هذا الباب: قصة أوردها العديد من المفسرين عن الأصمعي؛ يقول: «أقبلت ذات مرة من مسجد البصرة إذ طلع أعرابي جلف جاف علىٰ قعود له متقلدا سيفه وبيده قوسه، فدنا وسلم وقال: ممن الرجل ؟ قلت من بني أصمع، قال: أنت الأصمعي ؟ قلت: نعم. قال: ومن أين أقبلت ؟ قلت: من موضع يتلىٰ فيه كلام الرحمن، قال: وللرحمن كلام يتلوه الآدميون ؟ قلت: نعم، قال: فاتل علي منه شيئا، فقرأت ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ﴾ فقال: يا أصمعي حسبك!! ثم قام إلىٰ ناقته فنحرها وقطعها بجلدها، وقال: أعني علىٰ توزيعها، ففرقناها علىٰ من أقبل وأدبر، ثم عمد إلىٰ سيفه وقوسه فكسرهما ووضعهما تحت الرحل وولىٰ نحو البادية وهو يقول: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ فمقت نفسي ولمتها، ثم حججت مع الرشيد، فبينما أنا أطوف إذا أنا بصوت رقيق، فالتفت فإذا أنا بالأعرابي وهو ناحل مصفر، فسلم علي وأخذ بيدي وقال: أتل علي كلام الرحمن، وأجلسني من وراء المقام فقرأت: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ﴾ حتىٰ وصلت إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ فقال الأعرابي: لقد وجدنا ما وعدنا الرحمن حقا، وقال: وهل غير هذا ؟ قلت: نعم، يقول الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ قال فصاح الأعرابي وقال: يا سبحان الله! من الذي أغضب الجليل حتىٰ حلف! ألم يصدقوه في قوله حتىٰ ألجئوه إلىٰ اليمين ؟ فقالها ثلاثا وخرجت بها نفسه»[1].

---

(١) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (١٧/ ٤٢)، و«أضواء البيان» (٧/ ٤٤١).

فإيمان العبد بأن الله عَزَّوَجَلَّ يمينه ملأىٰ يورث العبد افتقارًا، ذلًّا، سؤالًا، طلبًا، طمعًا، والله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يحب من عبده أن يذل له وأن يسأله وأن يلح عليه وأن يطلب منه، وفي الحديث عن النبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «**من لم يسأل الله يغضب عليه**»، يمينه ملأىٰ، خزائنه ملأىٰ، ما عنده تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ لا ينفد ثم لا يتجه إليه العبد بالسؤال!! من لا يسأل الله يغضب عليه. يقول الناظم:

والله يغضب إن تركت سؤاله وبنيُّ آدم حين يُسأل يغضب

تجد من الناس من يسأل من يغضبون منه إذا سألهم ويتبرمون ويترك سؤال من يحب منه كل وقت وحين أن يسأله ومن هو خزائنه تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ ملأىٰ سبحانه.

قال: «**يمين الله ملأىٰ لا يغيضها نفقة**» وأيضًا تُضبط: «**لا تغيضها نفقة**»؛ أي: لا ينقصها.

قال: «**أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض، فإنه لم ينقص ما في يمينه**»؛ لأن ما عنده لا ينفد سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، عطاءه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ كلام: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، ﴿يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ﴾ [سبأ: ٣٦].

«**والقسط بيده الأخرىٰ، يرفع ويخفض**»، والحديث واضح الدلالة بل صريح الدلالة علىٰ أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ له يدان تليقان بجلاله وكماله، قال: «**يمين الله ملأىٰ.. وبيده الأخرىٰ**»، وهذا جاء أيضًا التصريح به في القرآن: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾ [ص: ٧٥]، وقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤]، فهذا جاء صريحًا في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، وهو صريح في ثبوت يدين لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؛ وهما يدان حقيقيتان تليقان بالله.

ولو قرأت هذا الحديث لوجدت فيه من وصف اليدين ما يقطع دابر المعطلين المؤولين الذين يؤولون اليد إما بالقدرة أو القوة أو النعمة أو غير ذلك من التأويلات، فوصف اليد هنا بعدة صفات تأملها؛ وصفها بأنها يمين، وصف الثانية بأنها أخرىٰ، ووصفها أيضًا بأنها سحاء يعني يعطي، ووصفها أيضًا قال: «**بيده الأخرىٰ الرفع**

والخفض»، وفي الحديث الآخر قال: «**يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار**»، يقول ابن القيم في كتابه «**الصواعق**»: وُصفت يد الله في الكتاب والسنة بما يقارب المئة صفة كلها تدل علىٰ أنها يد حقيقية، مئة صفة مثل: البسط، العطاء، القبض، الأصابع إلىٰ غير ذلك، قرابة المئة صفة جاءت في الكتاب والسنة: ﴿وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ﴾ [الزمر: ٦٧]، القبض والطي، والأخذ «**إلا تلقاها الله بيمينه**» أحاديث كثيرة جدًّا وآيات كثيرة فيها وصف اليد لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بأنها يد حقيقية؛ ومع هذا الوضوح ومع كثرة هذه الدلائل تجد أهل التأويل الباطل يقفون عند النصوص التي فيها اليد ويصرفونها عن مدلولها ويقولون المراد باليد القدرة.

وهذا الحديث الذي بين أيدينا قاطع لدابرهم قاصم لهم، اقرأه عليهم ويكفي في إبطال ما يقولون، من يقول لك اليد القدرة اقرأ عليه الحديث، قل له أنت تقول اليد القدرة! ماذا تصنع بهذا الحديث «**يمين الله ملأىٰ**» ماذا تقول؟ قدرته ملأىٰ؟ «**لا يغيضها نفقة سحاء الليل والنهار وبيده الأخرىٰ**» وبقدرته الأخرىٰ؟ هذا كلام يستقيم؟ قراءة الحديث هذا وحده كافي في إبطال تأويل المتأولين، وهذه قاعدة نبَّه عليها أهل العلم في رد التأويل؛ إذا تأول متأول شيئًا من صفات الله يكفيك أن تذكر له موارد هذه الصفة في القرآن والسنة موضعًا موضعًا، يكفي إيراد هذا في رد باطله.

الشاهد أن هذا الحديث فيه إثبات عظمة الله وجلاله وكماله، وأيضًا سعة عطائه ومنه، وأن الأمور بيده عَزَّوَجَلَّ العطاء والمنع والخفض والرفع والقبض والبسط كل ذلك بيده، وإثبات اليمين له، وإثبات اليد الأخرىٰ له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهذا أيضًا ثابت في القرآن، في سورة الزمر قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

❋ ❋ ❋

[ما جاء في وصف الله تعالى بالعلم]

٤- وعن أبي ذرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «رَأَىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ شَاتَيْنِ تَنْتَطِحَانِ، فَقَالَ: أَتَدْرِي فِيمَ تَنْتَطِحَانِ يَا أَبَا ذَرٍّ؟ قُلْتُ: لا. قَالَ: لَكِنَّ اللهَ يَدْرِي، وَسَيَحْكُمُ بَيْنَهُمَا». رواه أحمد[(١)].

ثم أورد هذا الحديث في التعريف بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وفيه بيان كمال علمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. قال: رأىٰ رسول الله ﷺ شاتين ينتطحان، فقال: «**أتدري فيم ينتطحان يا أبا ذر؟**». قلت: لا. قال: «**لكن الله يدري**»؛ فهذا فيه إثبات علم الله المحيط بالعباد والمحيط بالبهائم والدواب وبكل المخلوقات، أحاط سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بكل شيء علما وأحصىٰ كل شيء عددا، فكل شيء أحصاه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ فهذا فيه إثبات العلم.

وفيه إثبات كمال العدل ولهذا قال: «**وسيحكم بينهما**»؛ أي: يحكم بينهما يوم القيامة، وهذا المعنىٰ جاء أيضًا في الأحاديث الأخرىٰ ما يشهد له؛ كقوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**لتؤدن الحقوق إلىٰ أهلها يوم القيامة**»؛ يعني: من ضيَّع الحقوق وأدائها إلىٰ أهلها في الدنيا سيؤديها لزامًا إلىٰ أهلها يوم القيامة، قال: «**لتؤدن الحقوق إلىٰ أهلها يوم القيامة، حتىٰ يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء**» التي نطحتها، الجلحاء: التي ليس لها قرون. والقرناء: التي لها قرون، والشاة القرناء إذا نطحت الشاة الجلحاء بقرنها يقتص لها منها يوم القيامة، فما بالكم بمظالم العباد**!!**

ولهذا جاء في حديث عبد الله بن أُنيس وهو حديث حسن عن النبي ﷺ أنه قال:

---

(١) ورواه أحمد في «مسنده» (٢١٤٣٨) وانظر: «السلسلة الصحيحة» (٤/ ٤٦٦).

«**يحشر الناس يوم القيامة عراة غرلًا بهما**». قَالوا: وَمَا بُهْمًا يَا رسول الله ؟ يعني عرفنا حفاة وعرفنا عراة؛ حفاة: لا نعال عليهم، عراة: ليس عليهم ثياب بهما ما معناها ؟ قَالوا: وَمَا بُهْمًا يَا رسول الله؟ قَالَ: «**لَيْسَ مَعَهُمْ شَيْءٌ**»؛ من كان عنده أموال قصور تجارات ممتلكات كل هذه بموته انتهت بالنسبة له، ليس معهم من الدنيا شيء، قد ينتهب الإنسان نهبة كبيرة يرفع الناس إليه فيها أبصارهم ثم يموت بعد انتهابها بساعة فلا يستفيد منها شيئًا وتكون يحملها يوم القيامة وزرًا، ويأتي بها يوم القيامة مظلمة. قال: «**بهمًا**»؛ أي: لَيْسَ مَعَهُمْ شَيْء، «**ثمَّ يُنَاديهمْ** سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ» وقد حشر العباد «**بصوت يسمعه من بَعُد كما يسمعه من قرب: أنا الملك، أنا الديان، ثم يقول** سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: **لا ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار وله عند أحد من أهل الجنة حق حتىٰ أقصه منه، ولا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة ولأحد من أهل النار عنده حق حتىٰ أقصه منه، حتىٰ اللطمة**»، قَال الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ: كيف وإنما نأتي الله عَزَّوَجَلَّ عراة غُرْلًا بُهْمًا ؟ قَالَ: «**بالحسنات والسيئات**»[(١)].

وقوله «**بالحسنات والسيئات**» يوضحه الحديث الآخر الذي قال فيه النبي ﷺ للصحابة: «**أتدرون من المفلس؟**». قَالُوا: المفلس فينا يا رسول الله من لا درهم له ولا متاع. فقال رسول الله ﷺ: «**المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاته وصيامه وزكاته، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيقتص هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقتص ما عليه من الخطايا، أخذ من خطاياهم فطرح عليه، ثم طرح في النار**»[(٢)]؛ هذا معنىٰ قوله

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (١٦٠٤٢)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٩٧٠)، والحاكم في «مستدركه» (٣٦٣٨)، وحسنه الألباني في «صحيح الأدب المفرد» (٥٧٠).

(٢) رواه مسلم (٢٥٨١).

في الحديث الأول: «**بالحسنات والسيئات**».

إذًا هذا الحديث فيه من التعريف بالله؛ وبيان إحاطة علم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالمخلوقات، أحاط بها علمًا وأحصىٰ كل الأعمال وكل ما يقع أحاط بذلك علما سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، يعلم ما كان وما سيكون وما لم يكن لو كان كيف يكون. وأيضًا فيه إثبات عدل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأن المظالم لا تضيع حتىٰ لو كان شيئًا قليلًا، «**من اقتطع شبرًا من الأرض ظلمًا، طوقه الله إياه يوم القيامة من سبع أرضين**»[(١)]، ليس هناك شيء يضيع، فهذا فيه كمال عدل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وهذه المعرفة بأمثال هذه الأحاديث يورث العبد تقوىٰ الله عَزَّوَجَلَّ وبُعدًا عن الظلم وبُعدا عن التعدي، فالمظالم لا تضيع، والظالم سيلقىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بمظالمه وسيجازىٰ ويحاسب بميزان بمثاقيل الذر، وهذا كله من كمال عدل الله؛ فهذه معرفة عظيمة يترتب عليها من صلاح العبد وصلاح أعماله وزكاء نفسه وحسن معاملته ومراقبته وبُعده عن المظالم يترتب عليها خير عظيم.

❋ ❋ ❋

---

(١) رواه مسلم (١٦١٠).

[ما جاء في صفتي السمع والبصر لله تعالى]

٥- وعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**أَنَّ رَسُولَ اللهِ** ﷺ **قَرَأَ هَذِهِ الآيَةَ**: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ **إِلَى قَوْلِهِ**: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾[النساء: ٥٨]، **وَيَضَعُ إِبْهَامَيْهِ عَلَىٰ أُذُنَيْهِ وَالَّتِي تَلِيهَا عَلَىٰ عَيْنَيْهِ**». رواه أبو داود، وابن حبان، وابن أبي حاتم[(١)].

ثم أورد المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾ [النساء: ٥٨]؛ وهذا الحديث يبين لنا أيضًا بابًا من أبواب معرفة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ويبين لنا أيضًا في الوقت نفسه أثر المعرفة في صلاح العبد، وأن الأمرين مرتبطان؛ معرفة العبد بربه وصلاح العبد، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ فأصلحوا أنفسكم بأداء الأمانات وجاهدوا أنفسكم علىٰ أدائها: ﴿وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾ عليكم ﴿أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾، ثم ختم الآية بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾؛ هذا الذي أُمرتم به وانتبهوا إليه، الله سميع بصير، بمعنىٰ أن علم العبد بسمع الله لكلامه ورؤيته لأفعاله وحركاته وسكناته يعلمه الحافظ علىٰ الأمانة وإذا حكم لا يحكم إلا بالعدل؛ مراقبةً لله وخشيةً له وطاعةً وعلمًا بأن ربه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يسمعه ويراه.

وإيمان العبد الصحيح بأن الله عَزَّوَجَلَّ يسمعه ويراه يترتب عليه صلاح العبد،

---

(١) رواه أبو داود (٤٧٢٨)، وابن حبان في «صحيحه» (٢٦٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/ ٩٧٨)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٣٠٨١).

وكم في هذه المعرفة من النفع للعبد لو استحضرها وتذكرها.

قال الإمام ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «راودَ رجلٌ امرأةً في فلاة ليلاً فأبت، فقال لها: ما يرانا إلا الكواكب فقالت: فأين مُكَوكِبُها؟!

رأىٰ محمد بن المنكدر رجلا واقفا مع امرأة يكلمها فقال إن الله يراكما سترنا الله وإياكما»[1] فاستحضار العبد لرؤية الله له وسماعه لكلامه من الأسس العظيمة لصلاح العبد في أقواله وأعماله.

ولو استحضر العبد رؤية الله له وسماعه لكلامه لاستحيا من الله حق الحياء أن يتكلم بكلام يسخطه أو أن يفعل فعلا يغضبه، لكن ضعف معرفة العبد لربه بأسمائه وصفاته تجعل العبد ينخرط فيما ينخرط فيه من معاص وسيئات، ويقع فيما يقع فيه من الآثام.

وهنا يقول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لما قرأ هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ إلىٰ قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾ «**ويضع**» أي: النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إبهاميه علىٰ أذنيه والتي تليها السبابة علىٰ عينيه؛ قال العلماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: أراد بذلك تحقيق الوصف وتثبيته، وأن الله عَزَّوَجَلَّ له سمعٌ حقيقي وبصر حقيقي[2]، فأراد أن يثبت هذا الأمر ويحقق هذا الوصف ويؤكد ثبوته عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بوضع الإبهام علىٰ أذنيه والسبابة علىٰ عينيه، تحقيقا للوصف وتثبيتا له، ولهذا نظائر في سنته؛ مثل لما كان علىٰ المنبر وقال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**يأخذ الله سماواتِهِ وأرضِيه بيديهِ فيقبِضهما،**

---

(١) «جامع العلوم والحكم» (ص ١٦٢).

(٢) قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وضع إبهامه علىٰ أذنه والتي تليها علىٰ عينه رفعا لتوهم أن المراد بالسمع والبصر غير الصفتين المعلومتين، وأمثال هذا كثير في القرآن والسنة» «الصواعق المرسلة» (١/ ٣٩٧).

فيقول: أنا الملك ويقبض أصابِعه ويبسطها فيقول: أنا الملك» حتىٰ نظرت إِلىٰ المنبرِ يتحرك من أسفلِ شيء منه، حتىٰ إِني لأقول: أساقِط هو برسول الله ﷺ ؟!»[1]؛ أي: المنبر.

فهذا كله المراد به تحقيق الوصف وتثبيته، وأن الله عَزَّوَجَلَّ له سمع حقيقي وله بصر حقيقي يليق بجلاله، وليس السمع كالسمع ولا البصر كالبصر، واقرأ هذا المعنىٰ واضحًا في قول الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١]؛ فأثبت لنفسه تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ السمع والبصر بعد نفي المثلية، فماذا أفاد ؟ قال العلماء: في إثبات السمع والبصر بعد نفي المثلية دليلٌ علىٰ أن إثبات الصفات لله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ علىٰ الوجه اللائق بجلاله وكماله ولا يستلزم التشبيه، فالصفات لله ثابتة علىٰ الوجه اللائق بجلال الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ وكماله، وهو سبحانه منزه عن النقائص والعيوب.

وليحذر المسلم في هذا الباب من أن يبالغ في الإثبات إلىٰ حد التشبيه، أو يبالغ في التنزيه إلىٰ حد التعطيل؛ فكل منهما ضلال، والحق قوام بين ذلك، الحق حسنة بين سيئتين وهدىٰ بين باطلين؛ باطل المشبهة وباطل المعطلة، الحق هو إثباتٌ بلا تمثيل وتنزيه بلا تعطيل، هذا هو الحق.

❊ ❊ ❊

---

(١) رواه مسلم (٢٧٨٨).

[مفاتيح الغيب]

٦- وعن ابن عمرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ، لا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللهُ: لا يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ إِلَّا اللهُ، وَلاَ يَعْلَمُ مَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ إِلَّا اللهُ، وَلا يَعْلَمُ مَتَىٰ يَأْتِي الْمَطَرُ أَحَدٌ إِلَّا اللهُ، وَلا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِلَّا اللهُ، وَلا يَعْلَمُ مَتَىٰ تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ**». رواه البخاري ومسلم(١).

ثم أورد المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ حديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله ﷺ قال: «**مفاتيح الغيب خمس، لا يعلمها إلا الله**»؛ وهذا الحديث فيه التعريف بالله ببيان كمال علمه وإحاطة علمه وأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أحاط بكل شيء علما واختص تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بعلم الغيب،: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ [النمل: ٦٥]، اختص بذلك، ولم يُطلع أحدًا علىٰ ذلك إلا في أشياء معينة لحكمة: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧]، فالله عَزَّوَجَلَّ اختص بعلم الغيب، فلا يعلم الغيب إلا الله كما يدل علىٰ هذا الحديث، وأيضًا كما يدل عليه الآية التي تم الإشارة إليها؛ ولهذا قال العلماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: من ادَّعىٰ علم الغيب فهو كافر؛ لأنه مكذب بالقرآن ومكذب بسنة الرسول الكريم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ولأنه أيضًا ينازع الله في خصائصه وصفات كماله، فيدَّعي لنفسه منازعة الله في خصائصه وصفات كماله. ونبينا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ سمع امرأة تمدحه تقول: «**وفينا نبي يعلم ما في غد**»، فغضب ﷺ وقال: «**لاَ تَقُولِي هَكَذَا، وَقُولِي**

---

(١) رواه البخاري (١٠٣٩)، ومسلم (٩).

مَا كُنْتِ تَقُولِينَ»[١]، فعلم الغيب من خصائص الرب العظيم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولا يعلم الغيب إلا الله جَلَّ وَعَلَا، والنبي ﷺ لا يعلم الغيب، والمخلوقات لا تعلم الغيب، وإنما الذي يعلم الغيب والشهادة هو رب العالمين.

وعندما نقول: «عالم الغيب»، فالمراد بالغيب أي بالنسبة لنا نحن، أما في حقه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فالكل شهادة، الغيب عنده شهادة والسر عنده علانية، فهو غيبٌ بالنسبة لنا لأنه غائب عنا، أما الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يغيب عنه شيء ولا يعزب عنه شيء وهو مطَّلع تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ علىٰ كل شيء، فهو غيب بالنسبة لنا، عالمٌ بالغيب أي ما غاب عنا نحن المخلوقات، أما في حقه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فليس هناك غيب، بل الكل شهادة، يعلم السر وأخفىٰ، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، ويعلم ما في بطون الأرض ويعلم ما في السماوات، أحاط بكل شيء علما وأحصىٰ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ كل شيء عددًا.

قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**مفاتيح الغيب خمس، لا يعلمها إلا الله**»، وهذا فيه التنبيه علىٰ اختصاص الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بعلم هذه المغيبات، قال: «مفاتيح الغيب» الغيب: هو ما غاب عنا ولا سبيل للعبد إلىٰ النفوذ إليه أو إلىٰ معرفته فهو غائب عن الإنسان، ورب العالمين تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مختصٌ بالعلم بالمغيبات، «**مفاتيح الغيب خمس، لا يعلمها إلا الله**»، ثم ذكرها.

قال: «**لا يعلم ما في غد إلا الله**» كل الحوادث التي تكون في مستقبل الإنسان في أيامه القريبة أو في أيامه البعيدة، أي: «**ما في غد**» القريب أو «**ما في غد**» البعيد، لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو المختص بعلم ذلك.

«**ولا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله**»؛ ﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ

---

(١) رواه البخاري (٤٠٠١).

ﭽ ﭐﻟۡﺄَﺭۡﺣَﺎﻡُ ﻭَﻣَﺎ ﺗَﺰۡﺩَﺍﺩُۚ ﭼ [الرعد: ٨]؛ يعني ما يحصل في الرحم من نقص أو ازديَاد، من نمو للجنين وضعف ـ مثلًا ـ أو اكتمال له أو نماء وهكذا... فكل هذا من علمه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

«**ولا يعلم متىٰ يأتي المطر أحد إلا الله**» يعني لا يعلم ذلك إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

«**ولا تدري نفس بأي أرض تموت**» لا يدري الإنسان متىٰ يموت، وإذا كانت منيته في بلد وهو في بلد آخر ساقه الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ إلىٰ البلد الذي فيه منيته، وكم من إنسان سافر ليذهب إلىٰ مكان منيته بالتحديد، وكم من إنسان سافر فخرج من بيته وركب مطيته ليذهب إلىٰ مكان موته، فمنيته المحددة في مكان معين فيذهب إليها، وتجده يَخرج من بيته ويودع أهله ويسافر وقد كُتب له في منتصف الطريق بين مكة والمدينة ـ مثلا ـ أن تنتهي حياته فذهب إلىٰ منيته.

وعندما يتفكر الإنسان في القصص التي تحصل في هذا الباب يرىٰ عجبًا ويرىٰ كمال قدرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فيمر علىٰ الناس في واقعهم قصص عجيبة، ومن هذه القصص في هذا الباب: أن أهل بيتٍ كان والدهم ووالدتهم الكبار الجد والجدة كانوا في سفر وكانوا قادمين فكانوا أبناء الأبناء وهم ينتظرونهم عند الباب لأنه قرُب مجيئهم، فدخل والد أحدهم إلىٰ البيت بعد صلاة المغرب وإذا بابنه نائم عمره ست أو سبع سنوات، فقال لوالدته أيقظيه قالت هو تعشىٰ ونام، قال: لا أنا أريد أن يكون مع الأولاد يستقبلون والدنا، فأيقظته أمه وألبسته وخرج وما أمضىٰ ربع ساعة وصدمته سيارة ومات عند الباب، فأيقظته أمه ووالده يطلب ذلك ولو يعلم والده أنه يطالب بإيقاظه ليموت وأمه توقظه وتلبسه ثيابه ليموت ما يدري، فربع ساعة توقظ ولدها ليذهب ليموت؛ هذا أمرٌ علمه عند الله، انظروا للقصة هذه ونظائرها كثير، إذا جاءت المنية ولا يدري أحد متىٰ تأتي؟ قد تكون بعد ربع ساعة قد تكون بعد دقائق فهذا علمه مختص بالله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، لا يعلم ولا تدري نفس بأي أرض تموت.

«**ولا يعلم متىٰ تقوم الساعة إلا الله** تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ» ومن ادَّعىٰ علم شيء من ذلك فهو مكذب بالقرآن ومكذب بأحاديث الرسول الكريم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

وإذا عرف العبد هذا العلم، عرف علم الله عَزَّوَجَلَّ؛ أن الله عَزَّوَجَلَّ عليم وعلمه محيط بكل شيء، وأنه اختص بعلم المغيبات وعلم السرائر وما تخفي الصدور أحاط بكل شيء علما؛ فهذا يورث العبد مراقبة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ خشيةً وإقبالا علىٰ الله وقيامًا بعبادته إصلاحًا لحاله بينه وبين الله عَزَّوَجَلَّ.

❊ ❊ ❊

[ما جاء في صفة الفرح لله تعالى]

٧- وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَلهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَىٰ رَاحِلَتِهِ بِأَرْضِ فَلاةٍ، فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ، وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَأَيِسَ مِنْهَا، فَأَتَىٰ شَجَرَةً فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا، وَقَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ؛ فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ هُوَ بِهَا قَائِمَةً عِنْدَهُ، فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا، فَقَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ: اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ، أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ**» أخرجاه[1].

أورد المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ هنا في «باب معرفة الله والإيمان به»، هذا الحديث العظيم حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ، وهذا الحديث من جملة الأحاديث التي يعرف بها المسلم ربه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ؛ يعرفه ربًا رحيما غفورًا توابًا يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات، يفرح بتوبة التائبين وإنابة المنيبين واستغفار المستغفرين، مع أنه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ غنيٌ عن العالمين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥]، وهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا تنفعه طاعة من أطاع ولا إنابة من أناب ولا توبة من تاب ولا استغفار من استغفر، كل ذلك لا ينفعه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ولا يزيد في ملكه شيئًا، ولهذا قال سبحانه في الحديث القدسي: «**يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا علىٰ أتقىٰ قلب رجل منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئًا، يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا علىٰ أفجر قلب رجل واحد،**

---

(١) رواه البخاري (٦٣٠٩)، ومسلم (٢٧٤٧).

ما نقص ذلك من ملكي شيئًا»[١]، فهو تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ لا تنفعه طاعة من أطاع ولا تضره معصية من عصىٰ، ﴿ مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۚ ﴾ [الإسراء: ١٥]؛ ومع هذا كله فمن كمال منه وعظيم لطفه وجميل إحسانه يفرح تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ بتوبة عبده إذا تاب، وهذا الفرح هو تفضلٌ ومنٌّ وكرمٌ وإحسانٌ من الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ.

وهو جَلَّوَعَلَا يفرح كما أخبر عنه بذلك ﷺ الذي هو أعلم عباده به، إذ لا يوجد في عباد الله من هو أعلم بالله من رسول الله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وقد صح عنه الحديث أنه ﷺ قال: «**إن أتقاكم وأعلمكم بالله: أنا**»[٢]، فهو عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أعلم عباد الله بالله، وهو لا ينطق عن الهوىٰ ﷺ، وأخبر ﷺ في هذا الحديث أن الله يفرح، فنحن نخبر عن الله بما أخبر عنه به رسوله ومجتباه صلوات الله وسلامه عليه؛ فنقول مؤمنين معتقدين: إن ربنا يفرح بتوبة التائبين، ولا نشك في ذلك ولا نرتاب، ولا ندخل في هذا الحديث أو غيره من أحاديث الصفات دخول المبطلين المعطلين الجاحدين المؤولين المحرفين، فكل هذه طرائقُ زائغة عن سواء السبيل، بل نُمرُّ نصوص الصفات كما جاءت ونؤمن بها كما وردت، وقاعدتنا في هذا الباب: «من الله الرسالة، وعلىٰ الرسول البلاغ، وعلينا التسليم»، فنبينا ﷺ أخبر أن رب العالمين يفرح بتوبة التائبين فنقول معتقدين إن الله يفرح بتوبة التائبين.

وصفات ربنا تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ المضافة إليه سبحانه كلها تليق بجلاله وكماله؛ فهي ثابتة له سبحانه من غير تمثيل كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴾ [الشورىٰ: ١١] أثبت لنفسه السمع والبصر بعد نفي المثلية؛ فدل ذلك علىٰ أن إثبات الصفات لله سبحانه علىٰ الوجه اللائق به لا يستلزم التمثيل، والقول في

---

(١) رواه مسلم (٢٥٧٧).

(٢) رواه البخاري (٢٠).

الصفات قول واحد، وباب الصفات بابٌ واحد وهو أنها كلها تمر كما جاءت ويؤمَن بها كما وردت دون أن تحرَّف ودون أن تعطَّل ودون أن تمثَّل بصفات المخلوقين ودون أن يحاول العبد تكييف صفات الرب تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، فكل ذلك ضلالٌ وباطل.

فمن الإيمان بالله ومن معرفة الله: الإيمان بأنه يفرح بتوبة التائبين، من إيماننا بربنا جَلَّوَعَلَا أن نؤمن بأنه يفرح بتوبة التائبين؛ وهذا ما أخبر به رسوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، بل إنه سبحانه يفرح بتوبة التائبين فرحًا عظيمًا مع غناه عَزَّوَجَلَّ عن توبتهم، ولهذا ضرب عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ مثلا عجيبًا عظيمًا في بيان عظم فرح الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ بتوبة عبده المؤمن؛ قال ﷺ: «**لله أشد فرحًا بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم، كان علىٰ راحلته بأرض فلاة ...**» إلىٰ آخر الحديث.

وقوله: «**لله**» قيل: اللام لام الابتداء، وقيل لام التأكيد.

«**لله أشد فرحًا**»، وهذا فيه تبيانٌ لعظم فرح الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ بتوبة عبده إذا تاب إليه وأناب إليه ورجع إلىٰ الله.

قال: «**لله أشد فرحًا بتوبة عبده**»؛ وعبده هنا إن كان توبة من الكفر إلىٰ الإيمان فالعبودية هنا العبودية العامة التي هي العبودية لربوبيته سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وإن كان توبةً من العصيان فيما دون الكفر إلىٰ الطاعة فالعبودية العبودية الخاصة التي هي عبوديةٌ لألوهيته، لأن العبودية تطلق ويراد بها نوعان: العبودية لربوبية الله، والعبودية لألوهيته.

١- العبودية العامة التي هي عبودية الذل والطواعية لتدبير الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وتسخيره لهذه الكائنات ولهذه المخلوقات وكونها جميعها طوع تدبيره وتسخيره سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ولا تخرج عن مشيئته وإرادته عَزَّوَجَلَّ؛ هذا يشمل جميع المخلوقات، يشمل المسلم والكافر والبر والفاجر.

٢- والنوع الثاني: العبودية لألوهيته وهي عبودية الطاعة، وهذه يتفاوت الناس

فيها بتفاوتهم في طاعتهم لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قال: «**لله أشد فرحًا بتوبة عبده حين يتوب**» وهنا ينبغي أن يُفقه ما يفرح الرب به؛ وهو توبة العبد.

والتوبة: هي إنابة العبد ورجوعه إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ بتركه ما فرط فيه من واجب، وترك ما كان يغشاه من محرمات ومنهيات؛ بالرجوع إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وذلك بفعل ما أمر وترك ما نهىٰ عنه وزجر، فالتوبة رجوع بترك التفريط في الواجب وترك فعل المحرم والعودة إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ والإنابة إليه بفعل ما أمر وترك ما نهىٰ عنه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وزجر، هذه حقيقة التوبة التي دعا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عباده إليها وأمرهم بالنصح فيها ﴿تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا﴾ [التحريم: ٨]، أن يكون ناصحًا في توبته.

والتوبة التي امتدح الله عَزَّوَجَلَّ أهلها وعظَّم شأنهم وأخبر عن فرحه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بتوبتهم وذكر أنه يحبهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، وذكر لهم فضائل وثمار وآثار ينالونها في الدنيا والآخرة، وأهل التوبة هم من استجمعت توبتهم شروطًا، لأن التوبة لا تكون مقبولة إلا إذا استتمت شروطها التي دل عليها كتاب الله وسنة نبيه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

وأولها: أن يكون التائب في توبته تائبٌ إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ مخلصًا يبتغي بتوبته وجه الله، لهذا قال: ﴿تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾، قال: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ﴾ [البقرة: ٥٤]، فالتوبة إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والنبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في قصة الأسير لما أعلن ذاك الأسير توبته قال: «إني أتوب إلىٰ الله ولا أتوب إلىٰ محمد»، عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**عرف الحق لأهله**»[١]، فالتوبة لله، ﴿تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾، ولهذا لابد أن يكون التائب في توبته مخلصًا يبتغي بتوبته

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (١٥٥٨٧)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٨٣٩)، وضعفه الألباني في «السلسلة الضعيفة» (٣٨٦٢).

وجه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، يريد بها الله عَزَّوَجَلَّ والدار الآخرة، لا يتوب من أجل شهرة يطلبها أو مراءاةٍ وسمعة أو شيئًا من هذه المقاصد، وإنما يتوب يبتغي بتوبته رضا الله عنه وأن لا يسخط ربه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عليه وأن يحظىٰ بثوابه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ للتائبين، فهذا الشرط الأول؛ أن تكون التوبة خالصة لله عَزَّوَجَلَّ.

والشرط الثاني: أن يندم التائب علىٰ ذنوبه وتفريطه وتقصيره ووقوعه في المحرمات، يندم علىٰ ذلك ندمًا شديدًا، ويأسف علىٰ ما كان منه من تقصير في جنب الله وفي طاعة الله وفي القيام بالواجبات التي أمر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بها.

والأمر الثالث: أن يعقد العزم علىٰ أن لا يعود إلىٰ هذه الذنوب؛ يعزم في قلبه عزمًا أكيدًا بينه وبين الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أن لا يعود إلىٰ هذه الذنوب وأن لا يقارف شيئًا منها وأن يمضي علىٰ الاستقامة وعلىٰ طاعة الله وعلىٰ ما يرضي الرب تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

والأمر الرابع: أن يقلع عن الذنوب؛ لا يسوف في الإقلاع وإنما يقلع عنها ويتركها ويقبل علىٰ الطاعات، وكم فوَّت كثير من الناس إقبال قلوبهم علىٰ التوبة إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالتسويف والتأجيل، وكم من أناس أجَّلوا التوبة واخترمتهم المنية قبل أن يحققوها، ولا زال يؤجل التوبة يندم علىٰ ذنوب فعلها ويتألم علىٰ فعله لها ونفسه لا تطاوعه علىٰ تركها فيبقىٰ مطاوعًا لنفسه متماديًا في عصيانه مؤجلًا توبته إلىٰ أن يداهمه الموت وهو غير تائب؛ فيلقىٰ الله عَزَّوَجَلَّ بغير توبة. ولهذا لابد في التوبة من الإقلاع، يقلع عن الذنب فورًا ويتركه، ومع إقلاعه عنه وتركه له يعزم أن لا يعود إليه عزمًا أكيدًا بينه وبين الله، ويبقىٰ نادمًا علىٰ تفريطه مقبلا علىٰ طاعته لربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

والشرط الخامس: أن تكون توبته في وقت قبول التوبة، والتوبة تُقبل في كل وقت وحين، في أي ساعة من ليل أو نهار باب التوبة مفتوح، وسيأتي معنا قول النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب**

مسيء الليل» فالتوبة بابها مفتوح في كل ساعة وفي كل لحظة من ليل أو نهار بابها مفتوح، ولكن دلت النصوص علىٰ أن هناك وقتان لا تُقبل فيهما التوبة، مع أن بابها مفتوح في كل ساعة وفي كل لحظة فقد دلت النصوص علىٰ أن هناك وقتان لا تُقبل فيهما التوبة:

الأول: أن يغرغر الإنسان وأن تصل روحه الحلقوم وأن يعاين الموت ويشاهد المفارقة لهذه الحياة فيعلن توبته في تلك اللحظات، فمن كانت توبته في ذلك الوقت لا تُقبل منه: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔنَ﴾ [النساء: ١٨]، هذا ليس وقتًا للتوبة، ولهذا قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر**»(١)، إذا بلغت الروح الحلقوم ثم قال: «إني تائب الآن أعلن توبتي أتوب إلىٰ الله»، هذا لا ينفع، قال العلماء لأن هذه التوبة توبة مشاهدة وليست توبة غيب، والذي ينفع هو الإيمان بالغيب، أما الذي يشاهد الموت ويعاينه ويرىٰ قدومه علىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ومغادرته لهذه الحياة ثم في تلك اللحظة يعلن توبته هذا ليس وقتًا لها، ولهذا لا تُقبل التوبة. والله عَزَّوَجَلَّ لم يقبل من فرعون قوله: ﴿قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾؛ لأنه قالها عن مشاهدة للموت ومعاينة له لما أدركه الغرق.

والوقت الثاني الذي لا تقبل فيه التوبة: طلوع الشمس من مغربها، وإذا رآها الناس آمنوا جميعًا لكن لا يقبل الله عَزَّوَجَلَّ التوبة حينئذ، إذا طلعت الشمس من مغربها وتاب الناس لا يقبل الله عَزَّوَجَلَّ منهم التوبة في ذلك الوقت كما أخبر بذلك الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ(٢).

---

(١) رواه الترمذي (٣٥٣٧)، وابن ماجه (٤٢٥٣)، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب» (٣١٤٣).

(٢) كما جاء في حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ تَابَ قَبْلَ أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا، تَابَ اللهُ عَلَيْهِ» رواه مسلم (٢٧٠٣).

فهذه شروط للتوبة وهي في الوقت نفسه يمكن علىٰ ضوء شرح هذا الحديث هي شروط لهذا الأمر العظيم الذي يفرح الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ به؛ قال عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «**لله أشد فرحًا بتوبة عبده حين يتوب إليه**».

ثم ضرب مثالًا يبين عظيم فرح الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ بتوبة التائبين من عباده قال: «**من أحدكم كان علىٰ راحلته بأرض فلاة**»؛ أي: بصحراء قاحلة لا ماء فيها ولا طعام ولا شراب، «**فانفلتت منه**- أي راحلته- **وعليها طعامه وشرابه فأيس منها**»؛ أي: بحث عنها وطلبها هنا وهناك وهو في الصحراء القاحلة فلم يجد لها أثرا ولم يقف لها علىٰ عين ولا علىٰ خبر، بحث ولم يجدها فأيس ووقع في قلبه يأس من الحصول علىٰ الناقة، «**فأتىٰ شجرة فاضطجع في ظلها**»، اضطجع علىٰ جنبه في ظل تلك الشجرة، «**وقد أيس من راحلته**)، وجاء في بعض الألفاظ: «**فاضجع في ظل شجرة ينتظر الموت**»، لا طعام ولا شراب ويئس من الراحلة فاستظل في ظل شجرة واضطجع ينتظر الموت، ولنتصور هذه الحال؛ رجل في صحراء قاحلة، وراحلته ضلت، أي: ضاعت عنه، وبحثها عنها فلم يجدها وأعياه التعب وجلس بلا طعام ولا شراب تحت ظل الشجرة ينتظر الموت الذي يأتيه بالتدرج ضعفًا ضعفًا إلىٰ أن تُزهق روحه، فهذه حال شديدة جدًّا علىٰ الإنسان. فيقول عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «**فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده فأخذ بخطامها**» إذا بناقته واقفة عند رأسه وهو مضطجع ينتظر الموت وإذا بخطامها يتدلىٰ عند رأسه، فرجعت إليه وعليها طعامه وشرابه، فأخذ بخطامها وأمسك بها فرحًا غاية الفرح، يقول: «**فأخذ بخطامها، فقال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك**»، يقول عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «**أخطأ من شدة الفرح**».

هذا مثل ضربه النبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ لأشد ما يكون تصورًا للفرح الذي يقع من العبد، فرح في غاية الشدة، وهو مثل ضربه النبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ لأعظم ما يكون

من فرح العبد في مثل هذه الحالة التي وصفها النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ولم يكتف عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بسوق المثال، «وأمسك بخطام ناقته» بل زاد في البيان قال: «**فأخذ بخطامها فقال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك. أخطأ من شدة الفرح**».

وقوله لهذه الكلمة قالها عن ذهول بسبب الفرح الشديد الذي سيطر علىٰ عقله؛ فذهل فقال كلمة الكفر، ولا يكون من يقولها في مثل هذا الذهول كافرًا لأنه لم يقُلها عن اعتقاد بها أو قصدٍ لها أو إرادةٍ لقولها، وإنما لسانه ارتبك من شدة فرحه، فقدَّم كلمةً علىٰ كلمة لا يقصد ذلك هو، لكنه مع ذهوله ومع شدة الفرح الذي عنده تقدمت عنده كلمة علىٰ كلمة، بدل أن يقول: «اللهم أنت ربي وأنا عبدك»، أخطأ من شدة الفرح فقدم كلمة علىٰ كلمة؛ وهذا التقديم والتأخير لو كان الإنسان يقصده ينتقل من ملة الإسلام ويخرج من حظيرة الدين، ولكنه لذهوله ولسيطرة الفرح عليه حصل عنده هذا الخطأ، ولهذا قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**أخطأ من شدة الفرح**» فهو نوع من الخطأ المعفو عنه، ولا يؤاخذ العبد عليه إذا حصل له شيء من هذا.(١)

الشاهد أن هذا الفرح الذي ذكُر هنا فرحٌ عظيم وهو أشد ما يوصف في فرح العباد؛ فقال: «**لله أشد فرحا بتوبة عبده إذا تاب**» من هذا الرجل، وهذا يبين لنا أنه إذا كان هذا أعظم فرح يقدَّر في فرح العباد، والله عَزَّوَجَلَّ فرحه بتوبة عبده أعظم من هذا، فمعنىٰ ذلك أن كل فرح يوجد عند العباد لأي أمرٍ يكون مما يفرحون به فرب العالمين سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ فرحه بتوبة عبده أشد، لأن هذا مثل لأشد ما يكون من فرحٍ يكون عند العباد، فهذا كله يبين لنا عظيم لطف الله عَزَّوَجَلَّ وعظيم منه وإحسانه؛ حيث إنه عَزَّوَجَلَّ مع غناه عن عباده يفرح سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ بتوبة التائبين.

---

(١) قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولهذا لا يكفر من جرىٰ علىٰ لسانه لفظ الكفر سبقا من غير قصد لفرح أو دهش وغير ذلك كما في حديث الفرح الإلهي بتوبة العبد» «إعلام الموقعين» (٣/ ٥٢).

والعبد العاقل الناصح لنفسه؛ هذا الحديث عندما يقرأه متأملًا له واقفًا عند دلالاته يفتح له بابًا عظيمًا في الإقبال علىٰ الله والتوبة إليه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، لو عقل الإنسان وتأمل هذا الحديث لفتح له بابًا عظيمًا في التوبة والإقبال علىٰ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ والإنابة إليه، فالرب جَلَّوَعَلَا يفرح بتوبة عبده إذا تاب وهو غنيٌّ عن توبة عبده، والمحتاج إلىٰ التوبة هو العبد، الفقير إلىٰ التوبة هو العبد، المنتفع بالتوبة هو العبد، الذي ينال ثمار التوبة هو العبد، أما الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ غنيٌ عن العباد وغنيٌ عن توباتهم، وانتفاع العبد بتوبته هو انتفاعٌ في الدنيا والآخرة، لأن التوبة بركة علىٰ العبد في دنياه وبركة عليه في أخراه، والمعاصي والذنوب شؤم ومضرة عليه في دنياه وفي أخراه، فالحديث يفتح للعبد بابًا للتوبة بل بابًا للمسارعة إليها والمسابقة إليها والمبادرة إليها وعدم تأخيرها.

هذا الحديث ساقه المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ لأن فيه تعريفًا بالرب؛ وأنه ربٌ كريم، ربٌ محسن، ربٌ جواد، ربٌ لطيف سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ربٌ غني عن العباد وعن طاعاتهم وعن عباداتهم، ربٌ يفرح بتوبة عباده إذا تابوا إليه ويقبل التوبة.

وليُلاحظ هنا أن من دلالات هذا الحديث: أن الله عَزَّوَجَلَّ فتح باب التوبة للعباد من كل ذنب، لم يَخص ذنبًا دون ذنب بالقبول، فكل ذنب يتوب منه العبد توبة صادقة يقبل الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ منه توبته ويفرح سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بتوبته، وكل ذنب يتوب منه العبد ولو كان الذنب من أعظم الذنوب ومن أكبِها وأشنعها، فمن تاب تاب الله عليه، ولهذا تجد في القرآن الدعوة للتوبة موجهة للنصارىٰ، موجهة للمشركين، موجهة للعصاة، لكل أحد، كل أحد مدعو للتوبة وكل أحد مفتوح له باب التوبة مهما عظم جرمه وكبر ذنبه: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣] يعني بدون استثناء، أيًا كان الذنب من تاب منه صادقًا تاب الله عليه وقبل توبته وفرح سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بتوبته.

فهذا الحديث من الأحاديث العظيمة التي تعرف الناس بربهم تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، ومن عرف هذا الحديث حسُن إقباله علىٰ الله، وزال عنه القنوط من روح الله، وعظم رجاؤه في الله عَزَّوَجَلَّ وفي ثوابه، لم يسيطر عليه يأسٌ يقيده، أو قنوطٌ عن الخير يحجبه، بل إنه يقبل علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ وينيب إليه ويكون تائبا أوَّابًا، فالحديث يفتح للعبد أبواب عظيمة جدًّا من أبواب الإقبال علىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فاللهم تب علينا يا رب العالمين.

❊ ❊ ❊

[ما جاء في أن لله تعالى يدًا]

٨- وعن أبي موسىٰ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أَنَّ رسول الله ﷺ قَالَ: «**إِنَّ اللهَ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ؛ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ؛ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ، حَتَّىٰ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا**». رواه مسلم[(١)].

ثم أورد المصنف رَحِمَهُٱللَّهُ حديث أبي موسىٰ الأشعري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وهو أيضًا من الأحاديث التي فيها تعريف العباد بالرب سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

قال عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «**إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتىٰ تطلع الشمس من مغربها**»؛ وهذا الحديث فيه من البيان بما يتعلق بمعرفة الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ أنه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ تواب يقبل التوبة من عباده مهما كانت ذنوبهم ومهما كانت معاصيهم وجرائمهم، يقبل التوبة في كل وقت وحين، في أي ساعة من ليل أو نهار، في أي لحظة يقبل تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ التوبة.

ويقول هنا عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «**إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل**»؛ فهذا فيه دلالة علىٰ أن باب التوبة مفتوح، وتلقي التوبة حاصلٌ وكائن في كل وقت وفي أي لحظة، فمن تاب في أي لحظة من اللحظات تاب الله عليه، وهذا فيه من دلائل منها:

وجوب المبادرة إلىٰ التوبة: وحرمة تأخيرها والتسويف فيها، حتىٰ إن الإمام ابن القيم رَحِمَهُٱللَّهُ ذكر في كتابه «**مدارج السالكين**» أن تأخير التوبة من الذنب يُعد ذنبًا

---

(١) رواه مسلم (٢٧٥٩).

يجب أن يُتاب منه، فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «المبادرة إلىٰ التوبة من الذنب فرض علىٰ الفور ولا يجوز تأخيرها فمتىٰ أخرها عصىٰ بالتأخير فإذا تاب من الذنب بقي عليه توبة أخرىٰ وهي توبته من تأخير التوبة وقل أن تخطر هذه ببال التائب بل عنده: أنه إذا تاب من الذنب لم يبق عليه شيء آخر وقد بقي عليه التوبة من تأخير التوبة»[(١)]،

يعني يعلم أنه مذنب وأنه مقصر وأن فعله يُسخط الله ويندم علىٰ هذا الأمر ثم يقول الشهر القادم أتوب، وإذا جاء الشهر القادم أجَّله للذي بعده وهكذا، فهذا التأخير بحد ذاته يعد ذنبًا، وبعض التائبين يتوب من ذنوبه وينسىٰ أن يتوب من تأخيره، فيتوب من المعصية المعينة التي كان يفعلها ولا يتوب من تأخيره للتوبة منها.

فالحديث فيه المسارعة للمبادرة للتوبة قبل فوات أوانها وقبل حصول الحرمان منها، «**إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل**» كأنه يقال هنا للتائب: يَا من أردت التوبة بادر، ولا تقُل أؤجلها للوقت الفلانِي أفضل، أو لانتهائي من الأمر الفلانِي أحسن، أو نحو ذلك من الخواطر التي تجعل كثيرا من الناس يؤخرون توبتهم، بل سارع إليها في أي لحظة، فمتىٰ وجد الإنسان من قلبه إقبالًا وفي قلبه ندمًا فليبادر إلىٰ التوبة إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ توبة صادقة، وليسأل ربه تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ الثبات علىٰ هذه التوبة والعافية والوقاية من الذنوب ويصدُق مع الله عَزَّوَجَلَّ.

«**إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل**» ولاحظ هنا مسيء الليل ومسيء النهار؛ وهذا فيه أن إساءات العباد تقع منهم في الليل وتقع منهم في النهار، وكثير من العباد يتقلب في لياليه وأيامه في إساءة تلو

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٢٧٢).

إساءة، ورب العباد باسطٌ يده في الليل ليتوب مسيء النهار، وباسط يده في النهار ليتوب مسيء الليل، وذاك غافل عن هذا كله ويتقلب في ليله ونهاره من مساءة إلىٰ أخرىٰ ومن ذنب إلىٰ آخر، يصبح علىٰ ذنوب ويمسي علىٰ ذنوب، ثم يمسي علىٰ ذنوب ويصبح علىٰ ذنوب، ويتقلب في ذنوب في لياليه وأيامه، ثم تكون مصيبته عظيمة عندما يلقىٰ الله عَزَّوَجَلَّ بهذه المساءات المتراكمة التي اجتمعت له في لياليه وأيامه، يقدُم علىٰ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ويلقاه بتلك المساءات التي كانت منه والذنوب التي كان يقارفها في لياليه وأيامه، ويندم ولا ينفعه حينئذ ندم، فكم يغفل الناس عن هذا الحديث العظيم، ولو تفكر فيه الإنسان لفتح له بابًا عظيما للتوبة إلىٰ الله، وهذا مما يبين لنا أن نقص الناس في إيمانهم وأعمالهم وإنابتهم من نقص معرفتهم بربهم، ولو تحققت في القلب المعرفة صحيحةً قويةً لترتب عليها صلاحٌ في أعمال العبد وأقواله، فإذا نقصت معرفة العبد بربه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ترتب علىٰ ذلك من ضعف الدين ورقة الإيمان وفساد الخلُق وفساد العمل الشيء الكثير.

قال: «**إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتىٰ تطلع الشمس من مغربها**» أي: أنها إذا طلعت من مغربها طُبع علىٰ كل قلبٍ بما فيه؛ وإن كان علىٰ الاستقامة فهو علىٰ الاستقامة، وإن كان علىٰ الضلال والضياع والعياذ بالله كان عليها، يُطبع علىٰ كل قلب بما فيه، ولا يُقبل التوبة ممن يقول: يَا رب أنا تبت إليك يَا رب أنا تائب إنني تائب أنا نادم؛ هذه كلها لا تفيد ولا تنفع، فإذا طلعت هذه الآية العظيمة يصبح الناس وإذا بالشمس بدل أن تطلع علىٰ عادتها من المشرق إذا بهم يفاجئون ويرونها تخرج من المغرب، متجهة من جهة الغرب إلىٰ جهة الشرق إيذانـًا بتغير حال العالم وخراب الدنيا وانتهائها وقرب انقضائها وزوالها وذهابها وقدوم الناس إلىٰ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فمن تاب عند معاينته

هذا الأمر لا يقبل الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ توبته، كما أنه أيضًا لا يقبل توبته كما تقدمت الإشارة عندما يعاين الموت ويغرغر وتبلغ روحه حلقومه، فهو في هذه الحالة أيضًا لا تُقبل منه توبته.

فالعاقل عندما يسمع هذا الحديث العظيم يتحرك في قلبه إقبالًا علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ ويقول لنفسه محاسبا معاتبا: يا نفس إلىٰ متىٰ هذا التمادي في الإساءة؟ وإلىٰ متىٰ هذا التمادي في العصيان؟ متىٰ تقلعين أيتها النفس ومتىٰ تتوبين ومتىٰ تندمين؟ يا نفس رب العالمين يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل وهو غنيٌ عن العباد وأنت يَا نفس لا تزالين مصرة علىٰ العصيان متمادية في الخطأ!! فيحاسب نفسه ويعاتبها؛ وكلما قويت المحاسبة من العبد لنفسه زان حاله وطاب أمره واستقام.

ونسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يتوب علينا، وأن يرزقنا أجمعين الاستقامة علىٰ صراطه المستقيم.

❊ ❊ ❊

[ما جاء في صفة رحمة الله تعالى]

٩- ولهما، عن عمرَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: «**قُدِمَ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِسَبْيٍ هَوازِنَ، فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنَ السَّبْيِ تَسْعَىٰ، إِذْ وَجَدَتْ صَبِيًّا فِي السَّبْيِ، فَأَخَذَتْهُ فَأَلْزَقَتْهُ بِبَطْنِهَا فَأَرْضَعَتْهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ** ﷺ: «**أَتَرَوْنَ هَذِهِ الْمَرْأَةَ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ؟**» قُلْنَا: لا، وَاللهِ! فَقَالَ: «**للهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا**»[(١)].

ثم أورد المصنف رَحِمَهُٱللَّهُ هذا الحديث العظيم أيضًا في باب تعريف العباد بالرب سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ومن نصح النبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ ومن عظيم بيانه في دلالة الناس وتعريفهم بالله، ومن خلال هذه المعاني العظيمة يقوي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ في القلوب ويمكن في النفوس المعرفة بالله عَزَّوَجَلَّ؛ منبهًا بذلك عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ أن معرفة الله عَزَّوَجَلَّ هي غاية المطالب وأجل المقاصد، وهي الباب العظيم لهداية العبد وصلاح قلبه وصلاح أموره كلها، فكان عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ ينوع البيان ويستغل المواقف ليمكن في القلوب المعرفة بالله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ.

وقد جاء عنه عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ أحاديث كثيرة في ذكر رحمة الله جَلَّوَعَلَا وسعة رحمته وأنه تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ أرحم الراحمين جَلَّوَعَلَا، واستغل عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ هذا الموقف المثير للقلوب في جانب قوة الرحمة يشد القلوب شدًّا، موقف رآه الصحابة يشد القلوب شدًا في جانب الرحمة والإحساس بقوتها، فاستغل هذا الموقف عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ لبيان عظيم رحمة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

---

(١) رواه البخاري (٥٩٩٩)، ومسلم (٢٧٥٤).

جاء في «**الصحيحين**» من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: «**قدم علىٰ رسول الله** ﷺ **بسبي هوازن، فإذا امرأة من السبي**»؛ أي: من جملة هذا السبي «تَسعَىٰ» يعني تجري وتعدو هنا وهناك تبحث عن ولدها طفلها رضيعها، تبحث عنه، تفتش عنه بين الناس وقلبها يتفطر، وأيضًا صدرها وثديها امتلأ بالحليب، وامتلاء صدر المرأة بالحليب يُعد مضرة لها وأذىٰ لها، فصدرها امتلأ حليبًا، وولدها مفقود، وتعدو هنا وهناك تبحث عن ولدها، وهي في غاية اللهف وغاية الشوق تريد ولدها، بينما هي كذلك «**إذ وجدت صبيًّا في السبي فأخذته فألزقته ببطنها**» يعني ضمته إلىٰ بطنها ضمًا شديدًا وألقمته ثديها وأخذت ترضعه؛ هذه الرحمة التي في هذه المرأة في جريها وبحثها عن هذا الولد وسعيها وراءه ثم إلزاقها له وضمه إلىٰ صدرها بحنان وعطف ورحمة، هذه الرحمة ما هو قدرها؟

وهنا حقيقة يا إخوان ينبغي أن نقف ونعرف فضل الأمهات؛ كم قد نغفل عن هذا الأمر؟ وكم يغفل بعض الناس عن فضل الأم ورحمتها وحنانها وإحسانها ؟ وكم يغفل الإنسان عندما يكبِر ويترعرع وينشغل بأمور الحياة عن إحسانٍ قديم وجميلٍ سابق ورحمةٍ متوالية وحنانٍ عظيم ؟ فهذا الحديث يصور الرحمة العظيمة التي جعلها الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في قلب الأم لوليدها، أمر عجب! حتىٰ إن النبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ لما أراد أن يبين عظم رحمة الله عَزَّوَجَلَّ بعباده اختار أعظم مَثَل يمكن أن يقدَّر ويوصف؛ وهو رحمة الأم بولدها، وإذا أراد الناس أن يضربوا مثلًا في رحمة الناس بعضهم ببعض لا يدون مثلا أعظم من رحمة الأم بولدها، والنبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ لما اختار هذا المثل اختار المثل في أعظم شيء في بابه وهو رحمة الأم بولدها، وليست هذه الرحمة في الأم من بني آدم فقط، بل حتىٰ في الحيوانات، بل حتىٰ الحيوان الوحش الضاري جعل الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في قلبه رحمة لولده رحمة عجيبة جدًّا حتىٰ إنه يرفع خفه وحافره لا يطأ

ولده مع أنه وحش ضاري! فرحمة جعلها الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في قلب الأم عجيبة جدًّا، ثم في كثير من الناس تُتلقىٰ هذه الرحمة بعقوق وجحود وإساءة وغلظة وفظاظة وينسىٰ ذاك المعروف العظيم، وهذا كله من نقص العقول ونقص الدين، ولأجل عظم حق الوالدين وحق الوالدة علىٰ وجه الخصوص قرن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ حقها بحقه في أكثر من آية في القرآن الكريم: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾ [النساء: ٣٦]، ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ [لقمان: ١٤]، والآيات في هذا المعنىٰ كثيرة.

فيقول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لما رأىٰ هذا المنظر العجيب من الرحمة المتدفقة والحنان العظيم من هذه المرأة بصبيها وولدها وضمته إلىٰ صدرها وأخذت ترضعه بكل حنان وكل شفقة؛ فانتهز النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ هذه المناسبة لتعريف الناس بعظيم رحمة الله قال لهم: «**أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار؟**»؛ يعني: هذه المرأة التي بهذه الصفة وبهذه الحال التي رأيتم هل تتصورون أنها تأخذ هذا الولد الذي أرضعته وتلقيه في وسط النار؟ لأن رحمتها تمنعها من ذلك وتمنعها من أمور أقل من ذلك، فيقول هل تتصورون أن هذه المرأة تلقي ولدها في النار؟ قال الصحابة: قلنا: لا والله، ما يمكن، يعني رحمة بهذا الحجم وبهذا القدر ما يمكن تلقي ولدها في النار.

قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**لله أرحم بعباده من هذه بولدها**»، وهذا المعنىٰ موجود في القرآن: ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤]؛ يعني مهما قُدرت الرحمة التي في العباد، بل لو أن رحمات الراحمين من الناس جمُعت كلها وأصبحت رحمةً واحدة فالله عَزَّوَجَلَّ أرحم جَلَّوَعَلَا، أرحم بعباده من كل رحمة تقدَّر عند العباد.

وهذا أيضًا من الدلائل العظيمة والشواهد البينة علىٰ أن صفات الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لا يدرك كُنهها الواصفون ولا يمكن أن تقدَّر، كل ما يخطر ببال الإنسان من كمال يظنه

وصفًا لله فالله أكمل وأعظم، لأن صفاته سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لا يبلغ كنهها الواصفون، مهما قدَّر الإنسان في ذهنه من كمال وجلال وعظمة، وهذا المثل ذكره النبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ لتبيين الأمر وإلا رحمة الله عَزَّوَجَلَّ لا يُبلَغ كنهها ولا تُعرف كيفيتها، ورحمة لا يدور عظمها وكمالها في بال ولا يَخطر في خيال، وكيف يبلغ كنه رحمته أو صفاته الواصفون وهو سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ الكبير المتعال! ألسنا نقول: «الله أكبر»، الله أكبر من كل شيء، الله أكبر من كل ما يدور في خيالنا أو في خواطرنا؛ فهذا مما يبين لنا عظم رحمة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

وإذا كان العبد متماديًا في العصيان غير مقبلٍ علىٰ طاعة الرحمن ثم يوم القيامة يصلىٰ النيران فهذا غاية الحرمان، لأن الله عَزَّوَجَلَّ رحيم بعباده وأشد رحمة من هذه بولدها، ثم العبد يعيش في هذه الحياة ولا يعرض نفسه لنيل رحمة الله، رحمة الله عَزَّوَجَلَّ للمؤمنين للمتقين للتائبين للمنيبين للمقبلين علىٰ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ولاحظ المصنف رَحِمَهُٱللَّهُ أورد هذا الحديث بعد الأحاديث التي في التوبة، يعني كأنه يقول: تفكر وتأمل في عظم فرح الله جَلَّوَعَلَا بتوبة عبده ثم اعلم أنه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أرحم الراحمين، ورحمته بعباده لا تقدَّر ولا يُبلغ قدرها أو كنهها.

فهذا فيه دعوة عظيمة للتعرض لرحمة الله ونيلها من الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، كما أن الحديثين الذين قبله فيهما الدعوة إلىٰ التعرض للتوبة والإنابة إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ.

قال: «**لله أرحم بعباده من هذه بولدها**»؛ فهو عَزَّوَجَلَّ لا يلقي عباده في النار، إلا من استحق العقوبة بها، ويلقيه تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ فيها عدلًا منه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

فالحديث يحرك في القلب رجاء وخوفا، رغبة ورهبة، ويجاهد العبد نفسه علىٰ أن لا يكون محرومًا من هذه الرحمة التي يكتبها الله عَزَّوَجَلَّ لعباده المؤمنين التائبين المنيبين.

ونسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يتغمدنا جميعًا برحمته، وأن يوفقنا لسلوك صراطه المستقيم.

❊ ❊ ❊

[ما جاء في سعة رحمة الله تعالى]

١٠- وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَمَّا خَلَقَ اللهُ الْخَلْقَ، كَتَبَ فِي كِتَابٍ، فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ: إِنَّ رَحْمَتِي غَلَبَتْ غَضَبِي**». رواه البخاري(١).

ثم ساق هذا الحديث في بيان عظم رحمة الله عَزَّوَجَلَّ؛ قال: «**لما خلق الله الخلق كتب في كتابه فهو عنده فوق العرش**»؛ «عنده»؛ أي: عند الله، «فوق العرش»؛ أي: العرش المخلوق العظيم الذي ذكره الله عَزَّوَجَلَّ في القرآن وذكر جملةً من صفاته، وذكره النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في السنة وذكر جملة من صفاته؛ وهو سقف المخلوقات وأعلاها وأرفعها، وأخبر جَلَّ وَعَلَا في القرآن في سبع آيات أنه استوىٰ علىٰ العرش استواءً يليق بجلاله، فهو سبحانه عليٌّ علىٰ خلقه مستوٍ علىٰ عرشه استواءً يليق بجلاله وكماله سبحانه.

وقد كتب كتابًا لما خلق الخلق وهو عنده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فوق العرش: «**إن رحمتي غلبت غضبي**»، وفي رواية: «**سبقت غضبي**»، وهذا فيه كما بيَّن أهل العلم تفاضل الصفات، قال رحمتي سبقت غضبي، وأيضًا مما يدل علىٰ هذا المعنىٰ قوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**اللهم إني أعوذ برضاك من سخط، وبمعافاتك من عقوبتك**».

قال: «**إن رحمتي سبقت غضبي**» وهذا من الدلائل الدالة علىٰ عظيم رحمة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بعباده، لأن رحمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تسبق غضبه، ولا ينال غضب الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ إلا الظالم المضيع المفرط الذي استحق غضب الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عليه.

❋ ❋ ❋

---

(١) رواه البخاري (٣١٩٤)، ومسلم (٢٧٥١).

١١- ولهما عنه: أَنَّ رسول الله ﷺ قال: «**جَعَلَ اللهُ الرَّحْمَةَ مِائَةَ جُزْءٍ، فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ جُزْءًا، وَأَنْزَلَ فِي الأَرْضِ جُزْءًا وَاحِدًا، فَمِنْ ذَلِكَ الْجُزْءِ تَتَرَاحَمُ الْخَلائِقُ حَتَّىٰ تَرْفَعَ الدَّابَّةُ حَافِرَهَا عَنْ وَلَدِهَا خَشْيَةَ أَنْ تُصِيبَهُ**»(١).

١٢- ولمُسْلِمٍ، معناه مِنْ حَدِيثِ سَلمَانَ، وَفِيهِ: «**كُلُّ رَحْمَةٍ طِبَاقَ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ**». وَفِيهِ: «**فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ كَمَّلَهَا بِهَذِهِ الرَّحْمَةِ**»(٢).

وهذا أيضًا فيه بيان للرحمة، قال: «**جعل الله الرحمن مائة جزء**»، والرحمة هنا المذكورة في هذا الحديث ليست الرحمة التي هي صفة الله، وإنما هي الرحمة التي هي أثر صفة الله جَلَّوَعَلَا، وأن الله عَزَّوَجَلَّ لما جعل الرحمة التي يتراحم بها المخلوقين جعلها مئة جزء، يعني قسَّم هذه الرحمة إلىٰ مئة جزء «**فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءًا، وأنزل في الأرض جزءًا واحدًا، فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق، حتىٰ ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه**»، فهذه الرحمة الموجودة بين العباد من جملتها ما سبق ذكره في رحمة المرأة بوليدها؛ هذه رحمة في الحقيقة جزء من مئة جزء.

وقد جاء في الحديث الآخر عند مسلم قال: «**كل رحمة طباق ما بين السماء والأرض**» يعني مئة جزء، وكل جزء من هذه الأجزاء طباق ما بين السماء والأرض؛ يعني يملأ ما بين السماء والأرض.

وفيه: «**فإذا كان يوم القيامة كملها بهذه الرحمة**» يعني كمَّل التسعة وتسعين جزء بهذه الرحمة؛ فهذا يبين لنا رحمة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، إذا كانت هذه الرحمة التي

---

(١) رواه البخاري (٦٠٠٠)، ومسلم (٢٧٥٢).

(٢) رواه مسلم (٢٧٥٣).

بين العباد ويتراحمون بها وهي رحمة مخلوقة وهي من أعمال العباد، إذا كانت بهذا الوصف بينهم فكيف برحمة معطي هذه الرحمة والمان بهذه الرحمة والمتفضل بها!! فهذا مما يبين عظيم رحمة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، لأن معطي الكمال أولىٰ به، ولله المثل الأعلىٰ.

* * *

[جزاء عمل الكافر وعمل المؤمن]

١٣- وعن أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ الْكَافِرَ إِذَا عَمِلَ حَسَنَةً، أُطْعِمَ بِهَا طُعْمَةً فِي الدُّنْيَا، وَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَإِنَّ اللهَ يَدَّخِرُ لَهُ حَسَنَاتِهِ فِي الآخِرَةِ وَيُعْقِبُهُ رِزْقًا فِي الدُّنْيَا عَلَىٰ طَاعَتِهِ**». رواه مسلم(١).

وهذا أيضًا من الأحاديث التي تبين وتعرف الناس بالله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ وعظيم إحسانه ولطفه بعبده المؤمن المنيب التائب المقبل علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، وبيان الفرق بين حاله وحال الكافر؛ الكافر يعامله الله جَلَّوَعَلَا بعدله، والمؤمن يعامله الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ برحمته ونواله وعطائه وفضله.

ولهذا قال هنا: «**إن الكافر إذا عمل حسنة أطعم بها طعمة في الدنيا**»؛ إذا عمل حسنة أي من الحسنات التي لا تفتقر لنية، لأنه لو صلىٰ وهو علىٰ كفره أو صام وهو علىٰ كفره أو غير ذلك لا تُعد حسنات، لكنه لو ساعد فقيرًا أطعم محتاجا إلىٰ غير ذلك من أبواب الإحسان والمساعدات للناس؛ قال: «**إن الكافر إذا عمل حسنة أطعم بها طعمة في الدنيا**»؛ يعني يعطيه الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ شيئًا في الدنيا، ويأتي يوم القيامة ليس عنده إلا سيئاته، وحسناته التي قدَّمها أخذ عليها حظه في الدنيا؛ وعند لقاء الله عَزَّوَجَلَّ يوم القيامة يُطرح في النار ويبقىٰ فيها مخلدا أبد الآباد، لا يقضىٰ عليه فيموت ولا يخفف عنه من عذابها. وهذا يبين لنا أن الكافر بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لو كان يقدم من الأعمال أمثال الجبال من النفقات والمساعدات والبذل والمعاملة باللطف وغير

---

(١) رواه مسلم (٢٨٠٨).

ذلك من الأمور كل هذه لا تشفع له يوم القيامة في النجاة من النار، بل يعطيه الله عَزَّوَجَلَّ عليها في الدنيا من مثلا الولد أو مثلا الصحة أو التوسيع بالمال أو العافية أو غير ذلك، ويوم القيامة يلقىٰ الله عَزَّوَجَلَّ بكفره فيعاقبه عليه بالنار خالدًا مخلدا فيها.

قال: «**وأما المؤمن فإن الله يدخر له حسناته في الآخرة، ويعقبه رزقًا في الدنيا علىٰ طاعته**» يعني يدخر له حسناته ثوابًا في الآخرة يثيبه فيها عليها بالثواب العظيم مع «**رزقًا في الدنيا علىٰ طاعته**» يعني يرزقه في الدنيا ويتفضل عليه في الدنيا بالصحة بالعافية بالمال بغير ذلك علىٰ تفاوت بين العباد في هذا الأمر لحكمة يعلمها سبحانه، ولكنه جَلَّوَعَلَا يدخر للمؤمن حسنات مع ما يعطيه من الرزق، حتىٰ وإن كان رزقه كفافًا فقد أعطاه الله من انشراح الصدر والقناعة والرضا وسماحة النفس وسرور القلب إلىٰ غير ذلك من المعاني التي يهبها الله جَلَّوَعَلَا لعبده المؤمن.

فهذا من الأحاديث العظيمة التي تعرف الناس بعدل الله جَلَّوَعَلَا ورحمته وفضله ومنه وإحسانه؛ حتىٰ ينتبه العبد ويطرد الغفلة عنه ويقبل علىٰ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، لأنه إذا حسُن إقباله علىٰ الله نال وفاز بخيري الدنيا والآخرة كما هو بين في هذا الحديث، لأنه قال: «**يدخر له حسناته في الآخرة**»، «**ويعقبه رزقًا في الدنيا علىٰ طاعته**»، فجمع بطاعته ومحافظته عليها بين خيري الدنيا والآخرة، والكافر خسر الدنيا والآخرة والعياذ بالله.

❋ ❋ ❋

[ما جاء في صفة رضا الله تعالى]

١٤- وَلَهُ، عنه مَرْفُوعًا: «إِنَّ اللهَ لَيَرْضَىٰ عَنِ الْعَبْدِ يَأْكُلُ الأَكْلَةَ، فَيَحْمَدُهُ عَلَيْهَا، وَيَشْرَبُ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدُهُ عَلَيْهَا»[(١)].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وله» أي مسلم في صحيحه «عنه» أي عن أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ «مرفوعًا» إلىٰ النبي ﷺ أنه قال: «**إن الله ليرضىٰ عن العبد؛ أن يأكل الأكلة فيحمده عليها، ويشرب الشربة فيحمده عليها**»؛ وهذا الحديث فيه إثبات صفة الرضا لله جَلَّ وَعَلَا، فيه التعريف بالله عَزَّ وَجَلَّ ببيان هذه الصفة العظيمة من صفات الرب العظيم جَلَّ وَعَلَا، وأنه عَزَّ وَجَلَّ يرضىٰ.

والرضا صفة فعلية لله جَلَّ وَعَلَا، والصفات الفعلية هي المتعلقة بالمشيئة، مشيئة الله عَزَّ وَجَلَّ، فهو عَزَّ وَجَلَّ يرضىٰ عمن يشاء ويسخط علىٰ من يشاء، كما أنه يحب من يشاء ويبغض من يشاء؛ فهذه كلها صفات فعلية لله جَلَّ وَعَلَا. والرضا صفة دل عليها القرآن في غير موضع وفي غير ما آية: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾؛ أثبت رضاه عن المؤمنين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأثبت أيضًا رضا المؤمنين عنه، والمؤمن رضي بالله ربا ورضي برسله ورضي بدينه، وقد قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد رسولًا**»[(٢)].

والله عَزَّ وَجَلَّ من أوصافه كما يدل هذا الحديث أنه يرضىٰ عن أهل الإيمان كما

---

(١) رواه مسلم (٢٨٠٨).

(٢) رواه مسلم (٣٤).

أنه رضي الإسلام دينًا لهم، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، فمن ارتضىٰ لنفسه الدين الذي رضيه الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ لعباده وعمل به وحافظ عليه رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، ومن لم يرتض لنفسه دين الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ الذي ارتضاه لعباده سخط الله عليه، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧]، وقال عن الكفار: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ﴾ [محمد: ٢٨]؛ أي بما مالوا إليه من الكفر والإعراض عن دين الله والإقبال علىٰ الأمور التي تسخط الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ وتغضبه.

فالرضا صفة عظيمة من صفات الله جَلَّوَعَلَا، ومما يجب علىٰ المسلم أن يعرف به ربه: أن يعرف أن ربه يرضىٰ ويسخط؛ وهذا يدفع العبد إلىٰ النظر في الأعمال والقربات والطاعات التي ينال بها رضا الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ ليفعلها فيفوز برضا ربه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وفي الوقت نفسه ينظر في الأعمال التي تسخط الله جَلَّوَعَلَا وتغضبه ولا ينال بها العبد رضاه فيبتعد عنها ويحذر من مقارفتها والوقوع فيها.

والمصنف رَحِمَهُٱللَّهُ نبَّه علىٰ هذه الصفة وثبوتها لله عَزَّوَجَلَّ بإيراد هذا الحديث؛ وإلا فإن النصوص الواردة في إثبات هذه الصفة في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ وسنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه كثيرة جدًّا.

قال ﷺ: «**إن الله ليرضىٰ عن العبد؛ أن يأكل الأكلة فيحمده عليها، ويشرب الشربة فيحمده عليها**» هذا مما يرضىٰ به تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ عن عبده؛ إذا أكل أو شرب أن يعترف في قرارة نفسه وفي قلبه بنعمة الله عليه، وأن هذا فضل الله وأن النعمة نعمة الله وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم؛ فيكون أولًا مقرًا بنعمة الله عَزَّوَجَلَّ عليه معترفًا بفضله سبحانه وعطائه ونواله، وعارفًا أن المنعم هو الله، والمتفضل هو الله، والرزاق هو الله، والكريم هو الله، مقرٌ بذلك، ثم يشكر الله عَزَّوَجَلَّ

علىٰ النعم ويحمده تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ عليها، فإذا أكل الأكلة قال: «الحمد لله»؛ لأن هذه الأكلة هي منة الله عليه وفضله، فيأكل الأكلة فيحمد الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ عليها، ويشرب الشربة فيحمد الله، وإذا لبس ثوبًا جديدًا قال: «الحمد لله الذي كساني هذا»، يحمد الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ نعمه، بل يسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يوزعه شكر نعمه، ويستعمل نعم الله عَزَّوَجَلَّ في طاعته ورضاه وما يقرب إليه.

فإذا كان العبد بهذه الصفة رضي الله تبارك وتعالىٰ عنه، وإذا وصلت إليه النعمة اشتغل بالحمد، بخلاف كثير من الناس في مسألة الطعام والشراب؛ إذا طعم أو شرب لا يتحدث عن المنعم حمدًا له وشكرا وإنما يتحدث عن الطاهي للطعام وصفة طهيه له ومهارته فيه وما إلىٰ ذلك من الأمور التي يُشتغل بالحديث عنها ويغفل عن حمد المنعم سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وشكره علىٰ منه وإفضاله، فلا يمضي الإنسان حياته وهو غافل عن المنعم المتفضل المان فهذا نوع من الغفلة لا ينال بها العبد خيرًا، بل الخير يناله العبد باستشعار نعمة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عليه وبحمده لله عَزَّوَجَلَّ وشكره لنعمه، ولهذا أثنىٰ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ علىٰ أنبيائه بذلك: ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ﴾ [النحل: ١٢١] يشكر نعمة الله عليه، دائم الشكر لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ علىٰ نعمه، شكرٌ دائم ومستمر ماضٍ مع العبد في لياليه كلها وأيامه جميعها فهذا مما ينال به رضا الله.

الحديث يثبت صفة الرضا لله جَلَّوَعَلَا، ويثبت في الوقت نفسه ما يُنال به الرضا، وهذا الحديث فيه تنبيه علىٰ الصفة وتنبيهٌ علىٰ ما تقتضيه الصفة من عبودية لله جَلَّوَعَلَا، وهذا أمر ينبغي أن يُنتبه له في باب الصفات وفقهها؛ أن العبد يؤمن بالصفة ويثبتها لله عَزَّوَجَلَّ علىٰ الوجه اللائق بجلاله وكماله، ثم يشتغل بالعبوديات التي تختص بالصفة وتقتضيها، وقد قال أهل العلم: إن لكل اسم من أسماء الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ عبوديةٌ هي من مقتضياتها وموجبات الإيمان بها، فإذا آمن العبد بأن الله عَزَّوَجَلَّ من

أوصافه الرضا، ومن فاز برضا الله عنه فاز بكل خير في الدنيا والآخرة، وسلم من كل ضر وشر في الدنيا والآخرة، فإذا علم العبد أن ربه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ من أوصاف جلاله ونعوت كماله أنه يرضىٰ سبحانه؛ فهذا يحرك في القلب حرصًا علىٰ معرفة الأعمال التي يُنال بها رضاه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وجادا واجتهادًا في القيام بها، والحديث يرشد إلىٰ شيء من الأعمال التي يُنال بها رضا الله؛ أن يأكل العبد الأكلة فيحمد الله جَلَّ وَعَلَا عليها، وأن يشرب الشربة فيحمد الله جَلَّ وَعَلَا عليها.

❊ ❊ ❊

[بيان عظمة الله تعالى]

١٥- وعن أبي ذرٍّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أَطَّتِ السَّمَاءُ، وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ، مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلَّا وَفِيهِ مَلَكٌ سَاجِدٌ لِلهِ تَعَالَىٰ، وَاللهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا، وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا، وَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَىٰ الْفُرُشِ، وَلَخَرَجْتُمْ إِلَىٰ الصُّعُدَاتِ تَجْأَرُونَ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ**». رواه التِّرمذي وَقَالَ: حديثٌ حَسنٌ[1].

قوله: «**لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ؛ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا، وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا**». فِي الصَّحِيحَين مِنْ حَديثِ أَنَس[2].

ثم أورد المصنف رَحِمَهُٱللَّهُ هذا الحديث حديث أبي ذر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وأرضاه، وهو من الأحاديث المبينة لعظمة الله جَلَّوَعَلَا وكمال قدرته وكمال تدبيره جَلَّوَعَلَا، وما ادَّخره لمن أطاعه من نعيم وثوابٍ عظيم، وما أعده لمن عصاه من عقاب أليم؛ وهذه أمورٌ لا تُطرأ ببال الإنسان من أمورٍ عظيمة وأحوالٍ مهولة جاء في الكتاب والسنة إشارةٌ إليها وذكرٌ لأنواعها وأصنافها وشيء من تفاصيلها، ولكن الحقائق تُدرك يوم القيامة عندما يفوز أهل الإيمان بنعيم الجنة وعندما ينال أهل الكفر عذاب النار، والنبي ﷺ بيَّن بيانـًا وافيًا وفي الوقت نفسه أخبر فيما يتعلق بنعيم الجنة أنه ليس في الجنة مما في الدنيا إلا الأسماء، والله جَلَّوَعَلَا يقول في سورة السجدة: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ

---

(١) رواه الترمذي (٢٣١٢)، وابن ماجه (٤١٩٠)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٤٤٩).

(٢) رواه البخاري (٤٦٢١)، ومسلم (٢٣٥٩).

مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ﴾، وفي الحديث يقول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**يقول الله تعالىٰ: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر علىٰ قلب بشر**»[(١)]، وابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يقول: «**ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء**»[(٢)]؛ يعني: عنب ورمان... هذه أسماء أما الحقائق التي في الجنة فأمرٌ آخر وشأنٌ آخر.

فالشاهد أن الأمور التي أعدها الله عَزَّوَجَلَّ لعباده المطيعين في الجنة والعقوبات التي أعدها للعصاة أمور عظيمة جدًّا تدل علىٰ عظمة الله عَزَّوَجَلَّ، وأنه ما خلق هذا الخلق عبثا ولا أوجدهم باطلا، بل أوجدهم لغاية عظيمة وهي أن يعبدوه ويقوموا بطاعته، وأعد لمن أطاعه شيئًا عظيما لا يَخطر بالبال، وأيضًا من نكل وأعرض عما خُلق له وأوجد لتحقيقه أعد الله له عذابا أيضًا لا يَطر بالبال، يقول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا ولبكيتم كثيرًا**»؛ أمور مهيلة جدًّا الناس في غفلة عنها.

قال: «**لو تعلمون ما أعلم، لضحكتم قليلًا ولبكيتم كثيرًا**»؛ قال المصنف هذا الجزء من الحديث موجود في «**الصحيحين**» من حديث أنس، أما السياق بطوله فهو في الترمذي من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقوله في حديث أبي ذر: «**أطت السماء، وحق لها أن تئط**» هذا أيضًا مما يبين عظمة الله جَلَّ وَعَلَا ببيان عظمة هذه المخلوقات وكثرتها، فهي تدل علىٰ عظمة خالقها وكمال مبدعها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وموجدها: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ﴾ [المدثر: ٣١]، فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هنا يقول: «**أطت السماء، وحق لها أن تئط**» يعني ثقلت وصار لها صوت أطيط، والأطيط: صوت من الثقل، والثقل ناشئ عن كثرة الملائكة الذين علىٰ السماء

---

(١) رواه البخاري (٣٢٤٤)، ومسلم (٢٨٢٤).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١/ ٣٩٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٦٥).

خلقهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وأوجدهم، وأشار النبي ﷺ إلىٰ كثرتهم فقال: «**ما فيها موضع أربع أصابع إلا وفيه ملك ساجد لله**»، فالسماء ثقلت وصار لها صوت أطيط من كثرة الملائكة الذين عليها، فهذا يدل علىٰ كثرة الملائكة، قال عَزَّوَجَلَّ في بيان كثرتهم: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا﴾ [النجم: ٢٦]؛ «كم» للتكثير تكثيرية، فهم عددٌ كثير لا يعلمهم إلا الذي خلقهم وأوجدهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ثم خلْق الملائكة يَختلف عن خلق الناس؛ آتاهم الله عَزَّوَجَلَّ بسطة وسعة وعظمة في الخلق والقوة والقدرة، أوصاف عديدة جاء ذكرها مبينًا في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ وسنة النبي ﷺ يدل علىٰ عظمة خالقها، خذ مثالا واحدًا ـ وسيأتي عند المصنف لاحقا ـ قول النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في الحديث الصحيح: «**أذن لي أن أحدثكم عن أحد الملائكة، وهو من حملة العرش؛ ما بين شحمة أذنه إلىٰ عاتقه تخفق فيه الطير سبعمائة سنة**»(١)؛ يعني لو طار طير من عاتق الملك متجهًا إلىٰ شحمة أذنه يحتاج إلىٰ سبعمائة سنة طيران حتىٰ يصل إلىٰ شحمة الأذن، هذا أحد الملائكة.

وهذا الخلق العظيم الذي ذكر والتفاصيل التي ذكرت عن هذه المخلوقات في السنة وفي القرآن وأيضًا في هذا الحديث ثقلت السماء بمن عليها من الملائكة؛ هذا كله يدل علىٰ عظمة الخالق لهذه المخلوقات والمبدع لهذه الكائنات والمسخر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ومن بيده أزمة الأمور، وجميع هذه المخلوقات علىٰ تنوعها واختلافها واختلاف مواضعها وأماكنها في السماء وفي الأرض وفي بطون الأرض وفي البحار؛ كل هذه المخلوقات رب العالمين آخذ بناصيتها، جميعها تحت تسخيره وطوع تدبيره جَلَّ وَعَلَا، في حركاتها في سكناتها في جميع أمورها طوع تدبير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ،

---

(١) رواه أبو داود (٤٧٢٧)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٨٥٤).

أحاط علمه بها كلها، فما يقع من أي مخلوق من هذه المخلوقات دقَّ أو جل صغُر أو كبُر إلا وأحاط به علم الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ ونفذ فيه تدبيره وتسخيره، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، الخلق خلقه والملك ملكه جَلَّوَعَلَا؛ فهذا مما يبين عظمة الله عَزَّوَجَلَّ بذكر هذه المخلوقات العظيمة التي أوجدها الرب العظيم وخلقها .سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ

«**والله، لو تعلمون ما أعلم**» أي: مما أعده الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ من عقوبة لمن عصاه.

ولاحظ تسلسل الحديث في تقرير معنىٰ مهم «**أطت السماء، وحق لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وفيه ملك ساجد لله**»؛ الملائكة خلقهم الله عَزَّوَجَلَّ وجعل فيهم العبادة إلهامًا، فهم: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠]، هم في دوام عبادة لله، والعبادة عندهم مثل النفَس عند المخلوقين، منتظمين عليها ليس فيهم معصية، ولا يعرف في الملائكة شيء اسمه معصية بل حياتهم كلها طاعة، خلْقٌ أوجده الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ وجعله مطيعًا والله علىٰ كل شيء قدير، خلَقهم جَلَّوَعَلَا وأوجدهم بهذه الصفة مطيعين بدون معاصٍ، سخرهم وجعلهم مطيعين، لا يعصون الله هكذا وصفهم في القرآن: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، جعلهم الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بهذه الصفة؛ في دوام عبادة ودوام تسبيح ودوام ذكر ودوام تعظيم لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وامتثال لأوامره ولا يعرف شيء اسمه معصية في حياة الملائكة، حياتهم كلها طاعة لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

فذكر خلقه لهذه المخلوقات وذكر أيضًا شأن هذه المخلوقات في طاعة الله قال: «**أطت السماء، وحق لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وفيه ملك ساجد لله**» ثم أشار عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ بعد هذا إلىٰ العقوبات المعدَّة لمن خرج عن الطاعة

وخرج عن الذل والسجود والخضوع لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ والانكسار بين يديه عَزَّوَجَلَّ فأشار إلىٰ العقوبات المعدة؛ فهذا فيه لفت انتباه أن الخلق خُلقوا ليعبدوا الله، وأن الثقلين أوجدهم الله عَزَّوَجَلَّ ليقوموا بعبادة الله سجودًا وركوعًا وذلًّا وخشوعًا وامتثالًا وانقيادًا إلىٰ غير ذلك من الطاعات، خلقهم الله لذلك، ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] فمن خرج علىٰ هذه الطاعة له عقوبة أعدها الله له يوم القيامة؛ فينبه النبي ﷺ في هذا الحديث علىٰ خطورة هذه العقوبة وأنها ليست بالهينة، أشار إلىٰ خطورتها وشدتها وفداحتها وعظمها بقوله: «**لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ**» يعني مما أعده الله لمن عصاه من عقوبات، «**لضحكتم قليلًا ولبكيتم كثيرًا**»؛ لأنه أمر مهيل جدًّا، «**وما تلذذتم بالنساء علىٰ الفرش**»؛ لأنه كلما أراد أن يتلذذ الإنسان وردت في ذهنه تلك العقوبات فصرفته عن لذته.

«**ولخرجتم إلىٰ الصعدات تجارون إلىٰ الله تعالىٰ**»؛ أي: بالدعاء أن يرحمكم وأن يغفر لكم وأن يعفو عنكم وأن يلطف بكم، «لخرجتم في الصعدات»؛ أي في الصحراء في العراء «**تجأرون**» أي: تلحون علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ وتكررون الدعاء والسؤال والطلب، يقول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ «**كأني أنظر إلىٰ موسىٰ** عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ **هابطًا من الثنية وله جؤار إلىٰ الله بالتلبية**»[1]، فالجؤار وتجأرون: أي تكررون وتلحون وترفعون أصواتكم بالدعاء تسألون الله عَزَّوَجَلَّ أن يلطف بكم وأن يعفو عنكم وأن يقيكم من عذابه ومن سخطه.

«**لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَم**» وهذا ينبه إلىٰ فائدة مهمة جدًّا في باب الإيمان وهو: أن صحة العلم وسلامة العلم فيه نفع للإنسان في صلاح أموره، وأن نقص العبادة عند

---

(١) رواه مسلم (١٦٦).

العبد والإقبال علىٰ الله ووقوعه في المعاصي فرع عن ضعف العلم، فإذا ضعف العلم ضعف العمل وضعفت الطاعة، وإذا قوي العلم في قلب الإنسان قوي إقباله علىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولهذا ربط عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ هنا بين العلم وبين؛ قال: «لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لكذا» فيه ارتباط بمعنىٰ أن العلم كلما قويت درجته عند العبد قوي فيه العمل؛ ولهذا لاحظ الحديث قال: «**إن أتقاكم وأعلمكم بالله: أنا**»[1]، فيه ارتباط بين التقوىٰ والعلم؛ كلما عظم نصيب العبد من العلم بالله عظم حظه من تقوىٰ الله عَزَّوَجَلَّ.

إذًا هذا الحديث صلته بالترجمة وهي «باب معرفة الله والإيمان به» أن فيها التنبيه علىٰ عظمة الله جَلَّوَعَلَا، وفيها التنبيه علىٰ أن المعرفة بعظمة الله عَزَّوَجَلَّ وبما أعده من ثوابٍ وبما أعده من عقاب تور جد عند العبد صلاحًا واستقامةً وإقبالًا علىٰ طاعة الله عَزَّوَجَلَّ.

❊ ❊ ❊

---

(١) رواه البخاري (٢٠).

[حُرمة التألِّي على الله تعالى]

١٦- وَلِمُسْلِمٍ عَنْ جُنْدبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «قَالَ رَجُلٌ: وَاللهِ لَا يَغْفِرُ اللهُ لِفُلانٍ، فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّىٰ عَلَيَّ أَلَّا أَغْفِرَ لِفُلَانٍ؟ إِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُ، وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ»(١).

ثم أورد المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ هذا الحديث العظيم في باب معرفة الله والإيمان به سبحانه، وأن من معرفة الله علىٰ ضوء هذا الحديث العظيم أن يعرف العبد أن الله عَزَّ وَجَلَّ واسع المغفرة، وأنه جَلَّ وَعَلَا يغفر الذنوب، وأنه لا يتعاظمه ذنب أن يغفره: ﴿يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣]؛ يغفر الذنب ولو كان الذنب فيه تعدٍ في حق الله من سب أو قولٍ علىٰ الله بلا علم، أو نسبةٍ لله ما لا تليق به جَلَّ وَعَلَا، أو تفريط في جنب الله، أو غير ذلك من أنواع الذنوب، فالذنوب كلها يغفرها الله في حق من تاب وأناب إلىٰ الله جَلَّ وَعَلَا، والله عَزَّ وَجَلَّ أخبر عن نفسه بذلك: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾ [الزمر: ٥٣]، «جميعًا»؛ أي: بما فيها الشرك والكفر والإلحاد والفسق.. الذنوب جميعًا، أيُّ ذنب كان يغفره الله في حق من تاب، ولهذا قال في الآية: ﴿لَا تَقْنَطُواْ﴾: أي توبوا إلىٰ الله وأنيبوا إلىٰ الله، فإن الله عَزَّ وَجَلَّ يغفر الذنوب جميعًا.

ولا تعارض بين هذه الآية وبين قوله عَزَّ وَجَلَّ في سورة النساء: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨]، في سورة النساء قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا

---

(١) رواه مسلم (٢٦٢١).

يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾،وفي آية الزمر قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾، لأن آية الزمر في حق من تاب، قال: ﴿لَا تَقۡنَطُواْ﴾؛ أي: توبوا إلىٰ الله، فهي في حق من تاب، ومن تاب تاب الله عليه مهما كان ذنبه ومهما عظم جرمه، وآية النساء في حق من مات علىٰ ذلك مَن مات مشركا لا مطمع له في مغفرة الله ولا سبيل له إلىٰ نيل رحمة الله، ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ﴾ [فاطر: ٣٦] ليس له مطمع أبدًا في نيل مغفرة الله عَزَّوَجَلَّ ورحمته بل ليس له إلا العذاب الأبدي والعقاب السرمدي، أما من كان علىٰ قيد الحياة في الدنيا في ميدان العمل مهما كانت ذنوبه ومهما كان جرمه فالله غفور رحيم، ولو بلغت ذنوب العبد عنان السماء يقول الله عَزَّوَجَلَّ في الحديث القدسي: «**يا ابن آدم، لو بلغت ذنوبك عنان السماء- أي: السحاب- ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي**»، هذا كلام الرب سبحانه «**يا ابن آدم، لو بلغت ذنوبك عنان السماء- أي: السحاب- ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي**»[(١)]، فالله عَزَّوَجَلَّ يغفر الذنوب جميعًا ولا يتعاظمه ذنب مهما كانت الذنوب.

ولهذا من أيَّس الناس من التوبة والإنابة وقنَّطهم منها فهو متألٍ علىٰ الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، كيف يقول في حق الله عَزَّوَجَلَّ مثل هذا القول؛ والله عَزَّوَجَلَّ فتح باب التوبة وقبل توبة من تاب واستغفار من استغفر!! والباب فتحه «**إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل**»، فباب الرحمة والمغفرة والتوبة والإنابة مفتوحة لكل أحد، إذا من المعرفة بالله عَزَّوَجَلَّ أن يعرف المسلم أن الرب العظيم واسع المغفرة، وأنه يغفر الذنوب مهما عظمت ومهما

---

(١) رواه الترمذي (٣٥٤٠)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٤٣٣٨).

كانت، فمن قنَّط عباد الله ويأسهم من التوبة فقد قال علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ بلا علم، وهو من شر الناس وأسوئهم حالًا.

* قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ [البروج: ١٠]، قال: ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ﴾ دعاهم إلىٰ التوبة، الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قرأ هذه الآية وقال: «انظروا إلىٰ هذا الكرم والجود، قتلوا أولياءه وهو يدعوهم إلىٰ التوبة والرحمة»(١)، قتلوا عباده، أججوا نارًا لأوليائه ألقوهم في النار ويقول: ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ﴾ فباب التوبة مفتوح لكل أحد مهما كان ذنبه، فإذا تألىٰ الإنسان علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ ونظر في ذنوب وقع فيها أشخاص أو شخص وقال: (هذا لا يتوب الله عليه وهذا لا يغفر الله له)؛ هذا تألٍّ علىٰ الله وقول علىٰ الله بلا علم.

وانتبه هنا؛ الحديث ينبهك علىٰ مسألة عظيمة جدًّا في باب الصفات، ليس هذه الصفة فقط وإنما في عموم الصفات؛ ألا وهي: خطورة القول علىٰ الله بلا علم في صفاته، وانتبه لها هذه فائدة عظيمة جدًّا يدل عليها هذا الحديث؛ خطورة القول علىٰ الله بلا علم في صفاته، سواءً في جانب النفي أو في جانب الإثبات.

في جانب الإثبات: أن يثبت لله عَزَّوَجَلَّ من الصفات ما لا يليق به.

وفي جانب النفي: أن ينفي عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من الصفات ما يليق به.

وهنا في هذا الحديث أشار النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إلىٰ أي النوعين؟ إلىٰ النوع الثاني: نفي ما أثبته، الله عَزَّوَجَلَّ أثبت في كتابه مغفرة واسعة من الذنوب جميعًا ثم يأتي بعض الناس ويقول: «هذا الذنب لا يُغفر وهذا الشخص لا يُغفر له»؛ هذا قول علىٰ الله بلا علم، الله عَزَّوَجَلَّ أثبت لنفسه مغفرة واسعة: ﴿يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾، وذكر

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٦/ ٩٤).

مغفرته في آيات كثيرة وذكرها النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في أحاديث عديدة ثم يأتي شخص ويقول علىٰ الله بلا علم، «هذا لا يغفره الله وهذا الشخص لا يغفر الله له وهذا لا يتوب الله عليه» أو نحو هذا الكلام!! فهذا قول علىٰ الله بلا علم في صفات الله جَلَّ وَعَلَا، من أنت حتىٰ تقول: «الله لا يغفر لهذا؟! أو هذا لا يتوب عليه؟!أو هذا لا يستحق أن يتاب عليه؟! أو هذا مجرم لا يناله مغفرة الله؟! أو نحو ذلك»، هذا أمر بيد الله عَزَّوَجَلَّ، ومن خاض في هذا خاض في صفات الله بلا علم.

إذًا الحديث ينبه علىٰ مسألة جليلة وعظيمة جدًّا وهي خطورة القول علىٰ الله بلا علم، قال تعالىٰ: ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾ [الإسراء: ٣٦].

أعيد ثانية في هذا الباب: خطورة القول علىٰ الله في أسمائه وصفاته بلا علم تتناول الجانبين: جانب الإثبات وجانب النفي؛ الإثبات القول علىٰ الله بلا علم فيه: بأن ينفي الله ما أثبته الله، والنفي: خطورة القول فيه بلا علم: أن يثبت الإنسان ما نفاه الله؛ فكلٌ من الأمرين خطير، وليس لأحد أن يقول في الله عَزَّوَجَلَّ في باب الإثبات والنفي إلا ما جاء في الكتاب والسنة، كما قال الأوزاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ندور مع السنة حيث دارت»[1]؛ أي: نفيًا وإثباتًا، ما ثبت في الكتاب والسنة أثبتناه، وما نُفي في الكتاب والسنة نفيناه ولا نتجاوز القرآن والحديث؛ هذا هو النهج السديد والطريق القويم، أما من خاض في هذا الباب بغير علم فأثبت ما نُفي أو نفىٰ ما أُثبت فهذا جرم خطير وذنب عظيم.

في مجال الإثبات: يقول الله عَزَّوَجَلَّ مبينا خطورة نفي ما أثبته الله؛ قال عَزَّوَجَلَّ في

(١) «اعتقاد أهل السنة» (٤١).

حق من خاضوا في علمه بغير علم: ﴿ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [فصلت: ٢٣] قبلها: ﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: ٢٢] ظننتم أن الله لا يعلم؛ هذا ما هو الآن ؟ هل هو نفي لثبوت صفة العلم لله أصلًا؟ أو إثباتٌ لها ولكنهم قالوا إن الله لا يحيط علمه بكل المخلوقات؟: ﴿ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا﴾؛ يعني الآية تفيد أنهم يثبتون أن الله عنده علم ولكن علمه ليس محيطا، أيضًا من يقول الله عنده مغفرة ولكن مغفرته لا تشمل هذا أو لا تشمل ذاك أو نحو ذلك؛ هذا كله من نوع الغلط في الأسماء والصفات، والغلط قد يكون بجحد الصفة أصلًا، أو بجحد شيء من تفاصيل هذه الصفة، فقد يكون بإثبات الصفة مثل أن يثبت الإنسان العلم ولكن يحد شموله لجميع المعلومات، أو يثبت المغفرة ولكنه يحد مغفرته لبعض الذنوب أو لبعض الأشخاص أو نحو ذلك؛ هذا كله قول علىٰ الله بلا علم، ماذا ترتب عليه؟ قال: ﴿ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [فصلت: ٢٣]؛ أي: أوقعكم في الردىٰ، هذا الجانب الأول: نفي ما أثبته الله لنفسه.

الجانب الثاني: إثبات ما نزه الله عنه نفسه، وهذا أيضا غلط عظيم في باب الصفات، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴾ [مريم: ٨٨]، نوع الخطأ هنا ما هو؟ إثبات شيء نزه الله نفسه عنه ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ [الإخلاص: ٣]، فأثبتوا لله ما نزه الله نفسه عنه، ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴾ [مريم: ٨٨- ٩١].

فالخطأ في الصفات سواء في باب النفي أو في باب الإثبات من أعظم الخطأ وأشنعه، فالحديث فيه بيان فيما يتعلق بمعرفة الله عَزَّوَجَلَّ والنهج القويم في هذا الباب وهو أن المسلم في باب الصفات يثبت لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ما أثبته الله جَلَّ وَعَلَا لنفسه، وينفي عنه سبحانه ما نفاه عن نفسه، ويعظم ربه جَلَّ وَعَلَا، ويكون حديثه في هذا الباب في

حدود دلالات كتاب الله عَزَّوَجَلَّ وسنة نبيه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

وانظر خطورة الغلط مرة ثانية في هذا الحديث الذي بين أيدينا، قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «قَالَ رَجُلٌ: **والله، لا يغفر الله لفلان**»؛ هنا نوع غلط هذا الرجل أنه خاض في صفات الله بغير علم، وتكلم في صفات الله بلا فهم ولا علم ولا دليل، أين دليله علىٰ قوله هذا: «لا يغفر الله»، ينفي عن الله وصفًا أين الدليل؟ هو لم ينف عنه صفة المغفرة أصلًا، لم يقل إن الله لا يغفر، يثبتها، ولكنه قيَّدها حجَّر واسعًا قيدها، «والله لا يغفر الله لفلان»، فماذا قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؟

«**فقال الله** عَزَّوَجَلَّ: **من ذا الذي يتألىٰ عليَّ!**»؛ خذ من هذا فائدة أن الخطأ في باب الصفات تأل علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، وقول في الله وفي عظمته وفي رحمته وفي جلاله وفي كرمه وفي منه قولٌ علىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بلا علم وتطاول.

«**إني قد غفرت له وأحبطت عملك**»؛ أي: أنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هيأ لفلان هذا الذي قال عنه ذاك القائل إن الله لا يغفر له هيأ له إقبالًا علىٰ التوبة إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ والإنابة إليه وشرح صدره لها وقبل منه توبته، وأحبط عمل هذا القائل علىٰ الله بلا علم؛ فهذا يدل علىٰ خطورة الغلط وأنه في غاية الخطورة علىٰ الإنسان.

قال: «**إني قد غفرت له**» وهنا أيضًا فيه فائدة في باب توبة الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ عبده التي يدل عليها اسمه «التواب»، فأهل العلم يقولون: إن توبة الله علىٰ عبده نوعان:

١- توبةٌ من الله علىٰ عبده قبل توبة العبد.

٢- وتوبة من الله علىٰ عبده بعد توبة العبد.

التوبة التي قبل توبة العبد هي توفيق الله لعبده للتوبة كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ﴾ [التوبة: ١١٨] أي شرح صدورهم وهيأها وجعلها تُقبل علىٰ التوبة، فإذًا إقبال الإنسان علىٰ التوبة وعلىٰ الاستغفار وعلىٰ الإنابة وعلىٰ الرجوع إلىٰ الله

هذا أمر بيد الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ولولا أن الله يشرح صدر العبد للتوبة ويهديه لها ويوفقه إليها وإلا لا يتوب العبد، فتوبة العبد بيد الله.

وأيضًا قبول التوبة والعفو عن السيئات وغفران الذنوب أيضًا الأمر بيده سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

وهذا مما يبين لنا عظم جرم هذا القائل لما قال علىٰ الله: «إن الله لا يغفر لفلان» فأزمة الأمور بيده، يهدي من يشاء سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ويضل من يشاء، يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي، فتجد الإنسان نشأ في بيوت كلهم أموات بالكفر ويحييه الله من بينهم، يخرجه من بينهم حيًا بالإسلام وينقذه الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وترىٰ آخر ينشأ في بيوت الإسلام ويرتد علىٰ عقبيه والعياذ بالله، فلا يتألىٰ الإنسان علىٰ الله: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ﴾ [فاطر: ٨] إقبال علىٰ الله لأن الأمور كلها بيد الله، غفران ذنوبك توبتك إلىٰ الله إنابتك إليه، ثباتك علىٰ طاعته، سلامتك من الضلال، كل ذلك بيد الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

وانظر هذا الرجل الذي كان في غفلة وضياع ومقارفة للمعاصي وارتكاب للجرم والذنوب هيئ الله عَزَّوَجَلَّ له هذا السبب فكان سببًا لتوبته وإنابته ورجوعه إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، يعني قد يقول الإنسان مقالة في شخص ما من العصاة: (وهذا لا يمكن أن يتوب وهذا..) فيتحول بإذن الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ هذا الشخص الذي قيل فيه هذا الكلام إلىٰ أصلح الناس وأحسنهم حالا، فالتوفيق بيد الله، وقد يُذل الآخر بسبب سوء ظنه بالله وقوله علىٰ الله بلا علم.

فالواجب علىٰ العبد أن يعرف نفسه أنه عبد لله؛ فيتذلل بين يديه، وينكسر ويطلب منه الهداية والمغفرة والعون، ويدعو إلىٰ دينه علىٰ بصيرة، ويحذر غاية الحذر من مثل هذا المنزلق الذي هو أخطر المنزلقات وأشنعها وهو باب القول علىٰ

الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بلا علم.

وأختم هنا فيما يتعلق بهذا الحديث؛ من أعظم الدلائل علىٰ فساد الطرائق المنحرفة التي عليها أرباب الكلام، عندما يخوضون في صفات الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ بلا علم.

وتوضيح ذلك: هذا الرجل الذي قال: «إن لا يغفر لفلان» هذا الاستنتاج الذي توصل إليه «إن الله لا يغفر لفلان» مبني علىٰ عقله، فبدأ يحرك عقله القاصر في هذه المسالة، وعقله: بدأ يعدد فلان أذنب كذا، ويوم كذا فعل كذا وفعل كذا واعتدىٰ علىٰ كذا، وأخذ يحلل المسألة عقليا وتوصل بعقله القاصر إلىٰ هذه النتيجة وهي: لا يغفر الله لفلان؛ فأحبط الله عمله، فهو استنتج بعقله ثم وصل إلىٰ نتيجة لا يغفر الله لفلان، هذا الاستنتاج العقلي الذي توصل به هذا الرجل إلىٰ هذا الجحد وهو أيضًا لم يجحد الصفة من أصلها وإنما جحد شيئًا من تفاصيلها وقيَّد الصفة، فهذا الاستنتاج العقلي الذي توصل إليه بعقله ترتب عليه حبوط عمله.

فهذه الاستنتاجات العقلية المبني عليها جحد صفات الله في كتب المتكلمين، ليس لها حد، استنتاجات عقلية ويبنون عليها جحد الصفات، تجدهم يقول مثلا: لو قلنا إن الله عَزَّوَجَلَّ يرضىٰ للزم أن يكون كذا، ولو كان كذا للزم أن يكون كذا، ويأتي باستنتاجات عقلية يسردها في الكتاب علىٰ أنها نوع من العلم وحقائق ويقينيات يسمونها، ثم النتيجة جحد الصفات رب العالمين يثبت لنفسه وهم يجحدون!

هذه خلاصة الأمر رب العالمين يثبت؛ أثبت لنفسه الرضا، أثبت لنفسه الاستواء علىٰ العرش، أثبت لنفسه الرحمة، أثبت لنفسه العلو، أثبت صفات كثيرة وفي كتب المتكلمين قوائم من الاستنتاجات يُبنىٰ عليها جحد الصفات، فهذا من أخطر ما يكون ولو تفكر هؤلاء في هذا الحديث فقط لأوجد في قلوبهم خوفًا من هذا الباب، ولو تفكروا في هذا الحديث فقط لعرفوا النهج المبارك الذي كان عليه أئمة

السلف، ما يقولون حرفا في صفات الله إلا بآية وحديث، تجد كتب السلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ يقولون: «من صفات الله الرضا مثلًا، أو من صفاته اليدين، أو من صفاته كذا؛ حدثنا فلان عن فلان عن فلان قال ﷺ، أو يأتي بالآية من القرآن»؛ هذه طريقتهم. وهؤلاء أقحموا عقولهم القاصرة وبدأوا يستنتجون وكانت نتيجة الاستنتاجات جحد صفات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فتقرأ في كتب المتكلمين نفيًا موسعًا مطولًا لصفات تراها ثابتة في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ وفي سنة نبيه ﷺ.

وهاهنا يأتي سؤال وهو: أي الفريقين أحق بالأمن؟ وأي الفريقين أحق بالسعادة؟ وأي الفريقين أحق برضا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؟ من كان في طريقتهم في هذا الباب علىٰ الإثبات لما أثبته الله ولما أثبته رسوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ونفي ما نفاه الله ونفاه رسوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لا يتجاوزون القرآن والحديث، كما قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا، «نصف الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله ﷺ لا نتجاوز القرآن والحديث»[1] أو الفريق الذي مبني اعتقاده علىٰ الاستنتاجات؟ وها أنت قد خبرت نتيجة الاستنتاج العقلي بصفة واحدة، أيضًا لم يُبن علىٰ هذا الاستنتاج العقلي جحد الصفة من أصلها وإنما جُحد بعض تفاصيلها فما بالك باستنتاجات عقلية كثيرة بُني عليها جحد الصفات من أصلها ومن أساسها!! فيقولون عن الله لا يرضىٰ ولا يحب ولا يسخط، ويقولون عن الله لم يستو، ويقولون عن الله أشياءَ كثيرة أثبتها الله لنفسه وأثبتها له رسوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ويَا سبحان الله أأنتم أعلم أم الله ؟! ونبينا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يقول عن نفسه: «**إن أتقاكم وأعلمكم بالله: أنا**»[2]، ثم يتركون هذا العلم الذي جاء عن الله وهذا العلم الذي جاء عن رسول الله ﷺ ثم يقحمون عقولهم

(١) انظر: «أقاويل الثقات» (ص٢٣٤).

(٢) رواه البخاري (٢٠).

التائهة التافهة الحقيرة ويستنتجون بناءً عليها هذه الاستنتاجات الباطلة، بل قالوا وكبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا بل قالوا: «إن العقل مقدَّم علىٰ النقل»، العقل الذي ورَّط هذا الرجل الذي جاء الآن ذكره في الحديث مقدم عندهم علىٰ النقل، النقل فيه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾.

وعقل هذا الرجل استنتج أن في ذنوب معينة لا تُغفر؛ فأحبط الله عمله، ويقولون إن العقل مقدم علىٰ النقل، وإذا تعارض يقولون عقل علىٰ نقل نقدم العقل، إذًا ما فائدة بعثة الرسل إذا كانت عقولكم هي المقدمة!! حتىٰ قال أحدهم مخاطبا لمثل هؤلاء: «إذًا ليقُل الواحد منكم أشهد أن عقلي رسول الله»؛ فأي إجرام وأيُّ تضييع للدين أفظع من هذا وأشنع نسأل الله العافية والسلامة.

فعلىٰ الإنسان هنا أن يقف وينظر إلىٰ ما هداه الله إليه من معرفته للحق والصواب ولزوم الكتاب والسنة والبُعد عن تلك الخرافات والضلالات التي تزينت في عقول أصحابها وتزخرفت في أذهانهم وأصبحوا يرونها علمًا سديدًا وأصبحوا هي علمهم الذي يتحدثون به ويسطرونه في كتبهم؛ وهي كلها ضلال وضياع، وعلىٰ العبد أن ينظر في هذه النعمة التي هداه الله إليها في معرفة الحق فيحمد الله عَزَّوَجَلَّ عليها.

فنحمد الله حمدًا كثيرًا علىٰ كل نعمة أنعم بها تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ علينا في قديم أو حديث أو سر أو علانية، ونسأله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أن يوزعنا شكر نعمته، وأن يثبتنا علىٰ صراطه المستقيم.

❊ ❊ ❊

[الترغيب في الخوف والرَّجاء]

١٧- وله عن أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا: «لَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ مَا عِنْدَ اللهِ مِنَ الْعُقُوبَةِ؛ مَا طَمِعَ بِجَنَّتِهِ أَحَدٌ، وَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ مَا عِنْدَ اللهِ مِنَ الرَّحْمَةِ؛ مَا قَنَطَ مِنْ جَنَّتِهِ أَحَدٌ»[(١)].

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «وله» أي للإمام مسلم رَحِمَهُ اللَّهُ في «صحيحه» «عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا» أي: إلىٰ النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أنه قال: «**لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من جنته أحد**» هذا الحديث ساقه المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ في باب معرفة الله والإيمان به لأنه حديث عظيم في التعريف بالرب جَلَّ وَعَلَا؛ وأنه سبحانه لم يَلق هذا الخلق عبثًا ولا أوجدهم سُدىٰ، بل خلقهم ليأمرهم وينهاهم، ومن أطاعه أعد له ثوابًا عظيمًا، ومن عصاه أعد له عذابا أليمًا، والجنة أعدت للمتقين الطائعين، والنار أعدت للكافرين الجاحدين، وفي الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر علىٰ قلب بشر، وفي النار من النكال والعذاب الأليم والأهوال ما لا يَخطر ببال.

والمصنف رَحِمَهُ اللَّهُ ساق هذا الحديث في باب معرفة الله عَزَّ وَجَلَّ ليعرف المسلم من خلال هذا الحديث أن الله عَزَّ وَجَلَّ عدلٌ وذو فضل؛ فمن قام بطاعته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وعبادته نال من فضل الله ونعيمه ورحمته ومنه سبحانه، ومن عدل عن الصراط وكفر بالله وأعرض عن دينه عامله الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بعدله وأناله ما أعده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ للمعرضين من العقاب الأليم.

---

(١) رواه البخاري (٦٤٦٩)، ومسلم (٢٧٥٥)، واللفظ له.

فهذا الحديث بابٌ عظيم في التعريف بالله عَزَّوَجَلَّ ببيان أنه عدلٌ، وأنه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ذو فضل، وأنه جَلَّوَعَلَا ذو رحمة ومنٍّ وإنعام، وفي الوقت نفسه ذو عذابٍ أليم، كما في قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠]؛ فالحديث فيه من التعريف بالله ما في هذه الآية ونظائرها: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ فهو جَلَّوَعَلَا ذو رحمة واسعة وأيضًا عذابه أليم؛ ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِي ٱلطَّوْلِ﴾ [غافر: ٣]، والحديث يدل علىٰ هذا المعنىٰ، ولهذا قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من جنته أحد**»؛ فعنده نعيم عظيم ورحمة واسعة، وفي الوقت نفسه عنده عذاب أليم وعنده نار وعقاب.

وهذا الحديث كما نبه العلماء رَحِمَهُمُٱللَّهُ من الأحاديث العظيمة التي تُحدث عند الإنسان إذا أحسن فهم الحديث وتأمله توازنا في باب الرجاء والخوف؛ وهما ركنان قلبيان للتعبد لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فالله عَزَّوَجَلَّ يُعبد رجاءً لثوابه وخوفًا من عقابه: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء: ٥٧]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠]. فهذا الحديث يُحدث للعبد بتأمله له توازنـًا في باب الرجاء والخوف، والعلماء قالوا: ينبغي للعبد أن يكون رجاءه وخوفه متوازنين، لا يغلب الرجاء علىٰ الخوف، ولا يغلب الخوف علىٰ الرجاء، وإنما يمضي في عبادته وتقربه إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ باعتدال وتوازن بين الرجاء والخوف. حتىٰ إن بعض العلماء شبَّههما بجناحي الطائر، الرجاء والخوف، وأن الطائر إذا اختل أحد جناحيه لا يتمكن من الطيران، ولا يتوازن طيرانه بشكل متوازن دقيق، وهكذا الذي ينبغي أن يكون عليه المتعبد في تعبده لله

سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بين الرجاء والخوف، لا يغلب الرجاء علىٰ الخوف؛ لأنه إذا غلَّب الرجاء وأصبح جانب الرجاء مغلبًا عنده وليس عنده خوف يحدث عنده عدم خوف من عقوبة الله جَلَّوَعَلَا، فلا يأمن مكر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وإذا غلَّب جانب الخوف علىٰ جانب الرجاء أيضًا يَختل عنده الأمر؛ فقد ييأس من روح الله عَزَّوَجَلَّ بسبب تغليبه لجانب الخوف، بينما إذا أتىٰ بهما باعتدال وتوازن اتزنت الأمور عنده، والذي يُحدث التوازن عند العبد في هذا الباب: أن ينظر في نصوص الكتاب والسنة التي في الرجاء وأيضًا نصوص الكتاب والسنة التي في الخوف؛ فمن أعمل نصوص الرجاء وأهمل نصوص الخوف، أو أعمل نصوص الخوف وأهمل نصوص الرجاء اختل الأمر عنده، فالمطلوب هو التوازن بإعمال والنظر والتدبر في نصوص الخوف والرجاء مًعا. وهذا الحديث جمع الأمرين للعبد؛ جمع له أمر النعيم العظيم وسعته وسعة رحمة الله عَزَّوَجَلَّ، وأيضًا جمع ذكر العقاب الأليم وبشكل واضح وقوي جدًّا؛ مما يجعل العبد بتأمله للحديث يكون متوازنا في رجائه وخوفه.

قال: «**لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة**» يعني من شدتها وأهوالها وأنواعها وفظاعتها «**ما طمع بجنته أحد**» من ينظر إلىٰ شدة العقوبة وأهوالها ويقف في نظره إلىٰ هذا الحد، لم ينتقل إلىٰ الجانب الآخر في الحديث؛ قال: «**ما طمع بجنته أحد**» يقنط الإنسان، لو وقف عند نصوص الخوف والوعيد يصاب بالقنوط، ولهذا قال: «**ما طمع بجنته أحد**»، ولهذا لا يصح أن تقف عند هذه الجملة من الحديث ولا تقرأ الجملة التي بعدها حتىٰ يتزن الأمر عندك؛ مثل حال من يقرؤون: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ ويقف ولا يكمل ما بعده: ﴿وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾، فهذا الذي يقول: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ ويقف؛ تجده يأمن من مكر الله، فتراه مستمرا في المعاصي والذنوب والأخطاء والآثام وغير ذلك وهو لا

يزال يقول: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ فيكون آمنًا من مكر الله عَزَّوَجَلَّ؛ وهذا باب شر علىٰ العبد وباب تفلت من الأمر والنهي والقيام بطاعة الله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، ولهذا قال هنا: «**لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد**».

«**ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من جنته أحد**»؛ الله عَزَّوَجَلَّ عنده رحمة واسعة، رحمة عظيمة جدًّا، لكنه أخبر عَزَّوَجَلَّ أنه سيكتبها لأهل الإيمان، وأن الكافر عندما يلقىٰ الله يوم القيامة لا مطمع له في رحمة الله، لكن لو أن الكافر علم بالرحمة الواسعة، ومر معنا شيء من التفاصيل التي تبينها «**لله أرحم بعباده من هذه بولدها**»، ولو علم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من جنته أحد.

إذًا هذا الحديث الجانب الآخر في الحديث يفيد بأن الإنسان لو نظر إلىٰ جانب الرحمة فقط ولم ينظر إلىٰ جانب الخوف يأمن من مكر الله، يبقىٰ يقول أن الله رحيم وأن الله غفور وأن الله كريم إلىٰ آخر هذه الأمور وينسىٰ عذابه الأليم.

فالشاهد أن الحديث يعطي العبد توازنا عظيما في باب الرجاء والخوف وفي باب معرفة الله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، وأيضًا فيه تنبيه في باب المعرفة أن المسلم كما أنه ينبغي عليه أن يعرف الله عَزَّوَجَلَّ بأسمائه وصفاته التي هي أسماء الرحمة والبر والإحسان والإنعام والإكرام والمن والعطاء إلىٰ غير ذلك، ينبغي أيضًا أن يعرفه بصفاته عَزَّوَجَلَّ التي هي صفات العقوبة والانتقام والبطش بالظالمين وإهلاك المبطلين، حتىٰ يكون عنده أيضًا توازن في باب الرجاء والخوف؛ رجاء الله وخوف عقابه، لكن من اقتصر علىٰ أسماء وصفات الإكرام والإحسان ولم يتأمل في عقاب الله وانتقامه وما أعده من العذاب والنكال فهذا لا يتحقق له الاستقامة في هذا الباب ولا يستتم له طيرانه وسيره لله عَزَّوَجَلَّ وما يقرب إليه، فهذا الحديث حديث عظيم جدًّا في باب معرفة الله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ والإيمان به.

❊ ❊ ❊

[بيانُ قرب الجنَّة والنار من العبد]

١٨- وللبخاريِّ، عن ابنِ مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**الْجَنَّةُ أَقْرَبُ إِلَىٰ أَحَدِكُمْ مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ وَالنَّارُ مِثْلُ ذَلِكَ**»[(١)].

ثم أورد رَحِمَهُ اللَّهُ هذا الحديث في صحيح البخاري عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**الجنة أقرب إلىٰ أحدكم من شراك نعله، والنار مثل ذلك**»؛ شراك النعل: هو سير النعل[(٢)]، ونعل الإنسان قريبٌ منه لأنه في قدمه؛ فهو قريب منه ليس عنه ببعيد.

قال: «**الجنة أقرب إلىٰ أحدكم من شراك نعله، والنار مثل ذلك**» فهذا الحديث له تعلق بما قبله بمعرفة الله عَزَّ وَجَلَّ وذلك بمعرفة ثوابه وعقابه؛ ثوابه الذي أعده لمن أطاعه، وعقابه الذي أعده لمن عصاه، وفي الحديث هذا تبيين إلىٰ أن ثواب الله قريب وعقابه قريب، ثواب الله عَزَّ وَجَلَّ لمن أطاعه قريبٌ جدًّا أقرب لأحدكم من شراك نعله، وعقاب الله عَزَّ وَجَلَّ لمن عصاه أقرب لأحدكم من شراك نعله، الثواب قريب والعقاب قريب.

فهذا الحديث يفتح للإنسان باب زوال الغفلة عن قلبه وطول الأمل والانقطاع عن العمل والطاعة أو الوقوع في المعصية؛ فيقال له: انتبه إن كنت مطيعًا فاعلم أن ثواب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لك قريب، وإن كنت خلاف ذلك فاعلم أن عقابه قريب، ولا

---

(١) رواه البخاري (٦٤٨٨).

(٢) انظر: «فتح الباري» (٧/ ٢٦٢).

أبلغ من هذا الوصف قال: «**أقرب إلىٰ أحدكم من شراك نعله**»، ولهذا يأتي أحاديث كثيرة تبين قرب الجنة والنار؛ مثل قوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ:

«**من مات وهو يدعو من دون الله ندًّا دخل النار**»(١).

«**من مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة**»(٢).

«**من قرأ آية الكرسي دبر كل صلاة مكتوبة، لم يمنعه من دخول الجنة إلا الموت**»(٣).

فالجنة قريبة من أهلها والنار قريبة من أهلها كذلك، وليس بين أهل الجنة والجنة إلا الموت، وليس بين أهل النار والنار إلا الموت، والموت قد يأتي الإنسان في أي لحظة، يعني بعد ساعة أو ساعتين أو أقل أو أكثر، فليس بين الإنسان وبين ثواب الله ونعيمه وجنته الإنسان المؤمن إلا أن يموت، وليس بين الكافر وبين عقاب الله وناره إلا أن يموت.

إذًا هذا حديث في باب معرفة الله عَزَّوَجَلَّ وأنه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ثوابه وجنته قريبة ممن أطاعه، وأن عقابه وناره أيضًا قريبة ممن عصاه، وهو كسابقه يفتح للإنسان باب الاعتدال في الرجاء والخوف، فيكون بين ناظريه في أعماله وطاعاته قرب الجنة وقرب النار، فيرغبه في الطاعة ويرهبه في تركه المعصية وهو لا يريد النار وإنما يريد الجنة فيحدُث عنده توازن؛ رجاء وخوف؛ فيمضي به بإذن الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ إلىٰ سديد الأقوال وصالح الأعمال.

❋ ❋ ❋

---

(١) رواه البخاري (٤٤٩٧).

(٢) رواه البخاري (٦٤٤٣)، ومسلم (٩٤).

(٣) رواه النسائي في «السنن الكبرىٰ» (٩٩٢٨)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٩٩٢٨).

[الحثُّ على الرحمة والإحسان إلى الخلق]

١٩- وعن أبي هريرةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ مرفوعًا: «**إِنَّ امْرَأَةً بَغِيًّا، رَأَتْ كَلْبًا فِي يَوْمٍ حَارٍّ يُطِيفُ بِبِئْرٍ، قَدْ أَدْلَعَ لِسَانَهُ مِنَ الْعَطَشِ، فَنَزَعَتْ لَهُ مُوقَهَا، فَسَقَتْهُ؛ فَغُفِرَ لَهَا بِهِ**»[(١)].

٢٠- وَقَالَ: «**دَخَلَتِ النَّارَ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ حَبَسَتْهَا؛ لا هِيَ أَطْعَمَتْهَا، وَلا هِيَ أَرْسَلَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الأَرْضِ**».

قَالَ الزُّهريُّ: لِئَلّا يَتَّكلَ أحدٌ، ولا ييأسَ أَحَدٌ. أخرجاه[(٢)].

ساق رَحِمَهُٱللَّهُ هذين الحديثين لبيان ما سبق وهو أن يكون الإنسان في أعماله معتدلًا متوازنا في رجائه وخوفه، وعقاب الله عَزَّوَجَلَّ قريب، قد يفعل أمرًا لا يُلقي له بالًا يهوي به في النار سبعين خريفًا، وقد يعمل شيئًا من أعمال البر يراه الناس قليلًا وهينًا يصدُق فيه مع الله ويَخلص فيه لله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ فيرتفع به في عالي الدرجات في جنات النعيم، فالرجاء بابه مفتوح وواسع، وأيضًا العقوبة سبيلها كبيرٌ وواسع، وأمورٌ يسيرة تدنِي الإنسان من الثواب وعالي الدرجات، وأمورٌ أيضًا يسيرة من السيئات قد يبلغ بها مبلغا عظيما في نيل العقوبة، ولهذا ينبغي للعبد أن ينظر في هذه الأحاديث التي تحرك الرجاء في القلب والأحاديث التي تحرك الخوف في القلب.

أورد أولا حديث أبي هريرة: «**أن امرأة بغيًّا**»؛ يعني كانت ترتكب البغي وهو الحرام والفاحشة، «**رأت كلبًا في يوم حار يطيف ببئر قد أدلع لسانه من العطش**»، رأت

---

(١) رواه البخاري (٣٣٢١)، ومسلم (٢٢٤٥).

(٢) رواه البخاري (٣٣١٨)، ومسلم (٢٢٤٢).

كلبًا بهذه الصفة في يوم حار يعني يوم صائف واشتد به العطش وكان عند بئر ولا يتمكن أن ينزل للبئر ليشرب، فيطوف حول البئر يريد الماء وأدلع لسانه من شدة العطش، فوقع في قلبها رحمة له، رحمت هذا الكلب وقع في قلبها رحمةً له.

«**فنزعت له موقها**» يعني خفها الذي في قدمها، ونزلت في البئر وملأت موقها، وأمسكت بموقها في الغالب في فمها، وأخذت بيديها تصعد من هذا البئر، كل هذا العمل لا يعلم به إلا الله عَزَّوَجَلَّ، فهي لم تقم به ليراها إنسان فيمدحها ويقول مثلًا شهمة أو مثلًا صادقة أو شيء من هذه الألقاب، هي لم تفعل ذلك إلا رحمةً بهذه البهيمة وصدقًا مع الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وطلبًا لثوابه عَزَّوَجَلَّ، ولا يقبل الله عَزَّوَجَلَّ أي عمل من الأعمال إلا إذا كان قُصد به التقرب إلىٰ الله، يعني هذه المرأة لو أنها كانت قامت بهذا العمل من أجل أن ناسًا حولها يمدحونها علىٰ هذا العمل لم يكن عملًا صالحًا.

ولهذا نبه العلماء أن هذه المرأة لما قام في قلبها من الصدق والإخلاص والنصح والرحمة فباشرت بسبب ذلك هذا العمل نالت هذا الثواب العظيم، ولهذا قال العلماء عند هذا الحديث: فيه دلالة علىٰ فضل التوحيد والإخلاص في عظم الثواب؛ فهذه امرأة لما قام في قلبها من التوحيد والصدق والإخلاص لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ونزلت في هذا البئر صادقةً مخلصةً لله عَزَّوَجَلَّ غُفر لها، وإلا كم من إنسان يعمل أمورا أعظم من ذلك ولكن لا يقوم فيه من الإخلاص والصدق مع الله فلا ينال هذا الثواب، فالحديث من الدلائل العظيمة علىٰ أهمية الإخلاص والصدق مع الله جَلَّوَعَلَا، وأن العمل القليل يعظم بالتوحيد والإخلاص، ولهذا قال العلماء: قليل العمل بالتوحيد خيرٌ من كثير العمل بغير التوحيد أو بالرياء أو بالسمعة، فهذه المرأة فازت بهذا الثواب العظيم قال: «**فيغفر لها به**».

الحديث الثاني قال: «**دخلت امرأة النار في هرة حبستها**» يعني جاءت بها عندها

في حجرة وأغلقت بابها ونافذتها ولم يصبح لهذه الهرة مكانا تخرج منه حتىٰ تأكل من خشاش الأرض (الفئران وغيرها من الحشرات)، ولا هي أيضًا جلبت لها طعاما في هذه الحجرة تأكل منه؛ فبقيت الهرة محبوسة مغلق عليها الباب تريد طعامًا، وماتت وهي علىٰ هذه الحال.

الحديث الأول يدل علىٰ رحمة القلب ولينه وما فيه من الشفقة والعطف والإحسان، وهذا الحديث يدل علىٰ غلظة القلب وقسوته وشدته وعدم رحمته، تأتي بهذا الحيوان وتجعله في حجرة وتغلق الباب عليه ثم يبقىٰ في جوع إلىٰ أن يموت!! هذا يدل علىٰ قسوة في القلب وغلظة وشدة.

فيقول هنا: «**دخلت النار امرأة في هرة حبستها، لا هي أطعمتها ولا هي أرسلتها تأكل من خشاش الأرض**»؛ عندما تقرأ هذا الحديث والحديث الذي قبله يعرفك بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ويزيل عنك ما يقع فيه كثير من الناس من خلل في هذا الباب؛ إما برجاء عندهم لا خوف معه، أو خوفٍ لا رجاء معه؛ وهذا كله خطأ، بل الحق هو التوازن.

في باب الأعمال الصالحة لا تستهن بأي عمل، اصدق مع الله في أي عمل صالح يرضاه عنك سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وشرعه لك، اصدق مع الله فيه وإن كان في عينك أو في أعين الناس يعتبر عملًا زهيدا أو عملًا قليلًا أو عملًا يُظن أن ليس له ثوابًا عظيمًا دعك من هذا التفكير، العمل الصالح وإن قَل اصدق مع الله فيه، فقد يكون عملًا صالحًا تفعله مرة تراه يسيرًا سبب لغفران ذنوبك، جاء في «**صحيح مسلم**» «**مَرَّ رَجُلٌ بِغُصْنِ شَجَرَةٍ عَلَىٰ ظَهْرِ طَرِيقٍ، فَقَالَ: وَاللهِ لَأُنَحِّيَنَّ هَذَا عَنِ الْمُسْلِمِينَ لَا يُؤْذِيهِمْ فَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ**»(١)، بخلاف لو أن إنسانا كان يمشي في طريق ويرىٰ غصنَ شوك وأناسٌ

---

(١) رواه مسلم (١٩١٤).

بعيدون فيقول أنا أحمل هذا الغصن حتىٰ يروني ويقولون: فلان يُحسن! فلا يصبح عملا يتقرب به إلىٰ الله، أو مثلًا يقول: «حتىٰ لا أقع فيه» فيصبح عملًا خاصًّا به هو، لكن الرجل المذكور في هذا الحديث قام في قلبه رحمة وإحسان ولطف كبير في حق الناس، «**وَاللهِ لَأُنَحِّيَنَّ هَذَا عَنِ الْمُسْلِمِينَ لَا يُؤْذِيهِمْ**» فأماط عنهم الأذىٰ من طريقهم، فشكر الله عمله فأدخله الجنة.

إذًا في باب الأعمال الصالحة لا يتقال الإنسان عملًا «**لاَ تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا وَلَوْ أَنْ تَلْقَىٰ أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ**»[(١)] صادقًا مع الله في جلب المودة بين المسلمين والمحبة فتلقىٰ أخاك بوجه طليق قد ترتفع بهذا درجات عالية، «**إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحَاسِنَكُمْ أَخْلاَقًا**»[(٢)]، فلا يستهين الإنسان بعمل.

فهذا الحديث يفتح لك بابًا عظيمًا في باب الرجاء حتىٰ في الأعمال الزهيدة القليلة التي تُرىٰ في عين الناس أنها قليلة وأن ثوابها قد يكون قليلا؛ وما يدريك، فقد يكون هذا العمل بصدقك مع الله ونصحك لعباد الله سببا لغفران ذنوبك ورفعة درجاتك عند الله عَزَّوَجَلَّ وعتقك من النار ودخولك الجنة.

وعندما تأتي للحديث الآخر؛ فهذه دخلت الجنة بسبب كلب، وهذه دخلت النار بسبب هرة، فكلبٌ دخلت به امرأة الجنة وهرة دخلت بها النار؛ فلا يستهين الإنسان بأعماله؛ هذه عاملت الهرة بإساءة فكانت إساءتها سببًا لدخولها النار، فهذا أيضًا ينبهك أنك لا تستهين بمعصية، ولا يقول الإنسان وماذا يعني هرة وهلكت وماتت وماذا يكون!

لا يستهين الإنسان بمعصية، فقد يتحاقر الإنسان عملا ويراه في عينه حقيرًا وهو

---

(١) رواه مسلم (٢٦٢٦).

(٢) رواه الترمذي (٢٠١٨)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٢٠١).

مثل الجبال في خطورته عليه، ثم يمضي في حياته مستهينا بالذنوب حتىٰ يصبح حاله مثل حال المنافق والعياذ بالله، وقد جاء في الحديث أن النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال: «**إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَرَىٰ ذُنُوبَهُ كَأَنَّهُ قَاعِدٌ تَحْتَ جَبَلٍ يَخَافُ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ، وَإِنَّ الْفَاجِرَ يَرَىٰ ذُنُوبَهُ كَذُبَابٍ مَرَّ عَلَىٰ أَنْفِهِ**»(١) يفعل الذنب تلو الآخر ولا يبالي ولا يكترث.

فعلىٰ كل حال هذا الحديث من الأحاديث العظيمة في باب التعريف بالله عَزَّوَجَلَّ وما أعده من ثواب وما أعده من عقاب، وأن ثواب الله قريب من الإنسان، وجنته قريبة من الإنسان، فهذه المرأة كانت في عمل فاسد وكتب الله لها هذه الخاتمة الطيبة من الصدق مع الله والنصح لمخلوقاته جَلَّوَعَلَا مع الرحمة والشفقة التي قامت في قلبها؛ فكانت سببًا لغفران ذنوبها.

وكم يتساءل كثير من التائبين وربما يستولي عليه شيء من القنوط بكثرة ذنوبه «عندي ذنوب فعلت كذا وفعلت كذا وما تركت كذا إلا..» فلينظر إلىٰ الأعمال الصالحة والطاعات المقربة إلىٰ الله فهذه ترفع عن الإنسان القنوط.

والحديث الآخر أيضًا يفتح لك بابًا عظيما في الخير وهو أيضًا أن تكون دائما خائفًا من عذاب الله.

إذًا حديث الكلب يقوي فيك الرجاء، وحديث الهرة يقوي فيك الخوف، وأنت مطلوب منك هذا وهذا، وينبغي أن تمشي في الأمرين معًا خوف ورجاء؛ ترجو رحمة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وتخاف عذابه.

وإياك أن يكون تعبُّدك لله بواحد من هذين دون الآخر، يعني بالرجاء دون الخوف أو بالخوف دون الرجاء؛ -الإيمان الصحيح والمعتقد الحق، ولهذا قال

---

(١) رواه البخاري (٦٣٠٨).

بعض العلماء: «مَنْ عَبَدَ اللهَ بِالْحُبِّ وَحْدَهُ فَهُوَ زِنْدِيقٌ، وَمَنْ عَبَدَهُ بالخوف وحده فهو حروري.. وَمَنْ عَبَدَهُ بِالرَّجَاءِ وَحْدَهُ فَهُوَ مُرْجِئٌ، وَمَنْ عَبَدَهُ بِالْحُبِّ وَالْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ مُوَحِّدٌ»(١).

والعلماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ يسمون هذه الأمور الثلاثة: «أركان التعبد القلبية» فتعبد الله رجاءً لثوابه وخوفًا من عقابه وحبًّا له جَلَّ وَعَلَا، وكل عبادة تقوم بها تقيمها على هذه الأركان: الرجاء للثواب، والخوف من العقاب، وحب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وقد جمُعت هذه الأركان الثلاثة كما نبه على ذلك المصنف في بعض رسائله جمعت في فاتحة الكتاب؛ ففي قولك: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الحب، لأن الحمد: هو الثناء مع الحب، فإذا قلت: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ مستحضرا ما يحمد عليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من الأسماء الحسنى والصفات العلا والنعم التي لا تعد ولا تحصى تحرك في قلبك جانب الحب، فإذا قلت: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ وتدبرت هذين الاسمين وما يدل عليهما يتحرك في قلبك الرجاء ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ﴾ [الإسراء: ٥٧]، ثم إذا أتيت إلى الآية التي بعدها: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ وتفكرت أيضًا في هذا الأمر ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٧- ١٩] فتخاف.

فإذًا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ تحرك الحب: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ تحرك الرجاء: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ تحرك الخوف؛ بهذه الثلاثة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، ولهذا قال رَحِمَهُ اللَّهُ: والمعنى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ أي نخصك يَا الله بالعبادة بالحب الذي دل عليه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ «قوله إيَاك نعبد بعد هذه الثلاثة، وبالرجاء الذي دل

---

(١) «شرح العقيدة الطحاوية» (ص ٣١٣).

عليه: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، وبالخوف الذي دل عليه: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾، وهذه السورة المتكرر قراءتها للمسلم في صلواته المفروضة وفي نوافله أيضًا تُحدث له التوازن في هذا الباب؛ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ فيه رحمة وفيه يوم دين يوم حساب وعقاب وجزاء، وكل هذا الأمر لابد أن يستحضره المسلم حتىٰ يكون علىٰ توازن في معرفته بربه سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ.

* * *

٢١- وَعَنْهُ، مَرْفُوعًا: «**عَجِبَ ربُّنَا مِنْ قَوْمٍ يُقَادُونَ إِلَىٰ الْجَنَّةِ بالسَّلاسِلِ**». رواه أحمد وَالبُخَاري(١).

ثم أورد رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الحديث «عنه» أي عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ «مرفوعًا» إلىٰ النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قال: «**عجب ربنا عَزَّوَجَلَّ من قوم يقادون إلىٰ الجنة بالسلاسل**»؛ فهذا أيضًا من الأحاديث التي تفتح للعبد بابًا في معرفة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأن الأمر بيده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ أمر الهداية والصلاح وأمر الضلال كل ذلك بيد الله كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ﴾ [فاطر: ٨]، فالهداية بيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إذا كتب لعبده هدايةً يسَّرها له، فبعض عباده يكتب له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هدايةً ينشرح صدره للخير، ويشرح صدره للإسلام ويُقبل عليه ويتقوىٰ ويتمكن منه، وآخرون يكتب لهم هدايةً ولا تكون هدايتهم بقوة الأولين وإنما هداية يُقادون فيها إلىٰ الهداية بالسلاسل، فيكونون مهتدين قودًا إلىٰ الهداية، وآخرين يكونون مهتدين منشرحة صدورهم إلىٰ الهداية مقبلة عليها والأمر بيد الله، وآخرون لا تكتب لهم هداية؛ فهذا يجعل الإنسان يُقبل علىٰ الله ويعرف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بأسمائه وصفاته، وأن هذا الخلق بتدبيره وتيسيره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له؛ فهذا يفتح للإنسان باب عظيم في معرفة الله.

قال: «**عجب ربنا**» وهذا فيه إثبات هذه الصفة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ التي وصفه بها رسوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ(٢).

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (٨٨١٣)، والبخاري (٣٠١٠).

(٢) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في رده علىٰ منكري صفة العجب لله تعالىٰ: «وَأَمَّا قَوْلُهُ: (التَّعَجُّبُ =

وفي قراءة في القرآن الكريم: ﴿ بَلْ عجبتُ وَيَسْخَرُونَ﴾ [الصافات: ١٢]، وعلىٰ هذه القراءة تكون هذه الصفة ثبتت في القرآن الكريم، وأما في السنة فقد ثبتت في بعض الأحاديث فيها إثبات العجب صفة لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

والقاعدة في هذا الباب عند أهل السنة والجماعة: أن ما أثبته الله جَلَّ وَعَلَا لنفسه وما أثبته له رسوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يُمرُّ كما جاء ويُؤمن به كما ورد، لا يُتلقىٰ بتحريفٍ باطل ولا أيضًا يتلقىٰ بتشبيهٍ فاسد، بل يُثبت لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ علىٰ الوجه اللائق بجلاله وكماله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ علىٰ حد قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١]، ففي قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌۖ﴾ فيه نفي التمثيل، وفي قوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ الإثبات لما أثبته الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من الصفات الكاملة والنعوت العظيمة التي أضافها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لنفسه.

فنثبت ما ثبت لله عَزَّوَجَلَّ من صفة في هذا الحديث بإثبات الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لها، فمن إيماننا بالله ومن معرفتنا به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن نؤمن بأنه يعجب كما أخبر عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وفي هذا الحديث وفي أحاديث أخرىٰ أخبر عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أمور يعجب منها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وعجبه ليس كعجب المخلوق، المخلوق قد عجب من شيء لكونه لا يعلمه، أو لكونه لا يدرك أبعاده، أو لحصوله علىٰ خلاف ما يتوقعه، أو لغير ذلك من الأسباب، وهذه كلها لوازم لعجب

=

اسْتِعْظَامٌ لِلْمُتَعَجَّبِ مِنْهُ)، فَيُقَالُ: نَعَمْ، وَقَدْ يَكُونُ مَقْرُونًا بِجَهْلٍ بِسَبَبِ التَّعَجُّبِ وَقَدْ يَكُونُ لِمَا خَرَجَ عَنْ نَظَائِرِهِ وَاَللَّهُ تَعَالَىٰ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ فَلَا يَجُوزُ عَلَيْهِ أَنْ لَا يَعْلَمَ سَبَبَ مَا تَعَجَّبَ مِنْهُ ؛ بَلْ يَتَعَجَّبُ لِخُرُوجِهِ عَنْ نَظَائِرِهِ تَعْظِيمًا لَهُ، وَاَللَّهُ تَعَالَىٰ يُعَظِّمُ مَا هُوَ عَظِيمٌ ؛ إمَّا لِعَظَمَةِ سَبَبِهِ أَوْ لِعَظَمَتِهِ» «مجموع الفتاوىٰ» (٦/ ١٢٣).

المخلوق، ولا يجوز بحال أن يُجعل لازم الصفة باعتبار إضافتها إلىٰ المخلوق لازمًا للصفة باعتبار إضافتها إلىٰ الخالق، بل صفات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تخصه وتليق بجلاله وكماله سبحانه، وصفات المخلوق تخص المخلوق وتليق بضعفه وعجزه وكونه مخلوقًا، وما أضيف إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من الصفات فلوازمها الكمال، وما أضيف إلىٰ المخلوق من الصفات فلوازمها النقص، ولا يصح بحال أن يُجعل لازم الصفة باعتبار إضافتها للمخلوق لازمًا للصفة باعتبار إضافتها إلىٰ الخالق؛ هذا كلام باطل، بل الصفة التي تضاف إلىٰ الله تخص بالله جَلَّ وَعَلَا وتليق بجلاله وكماله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فالعجب هنا صفة ثابتة لله وهي تضاف إليه عَزَّوَجَلَّ علىٰ الوجه الذي يليق بجلاله وكماله وعظمته سبحانه.

وفيه التنبيه علىٰ أن الأمور كلها بتسخيره لأنه هو الرب «**ربنا**»، فالرب هو المالك، والرب هو الخالق، والرب هو المتصرف الذي بيده أزمة الأمور، فالرب ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، هذه كلها من معانِي الربوبية.

* * *

[ما جاء في صفة الصَّبر لله تعالى]

٢٢- وعن أبي موسىٰ الأشعري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**وَمَا أَحَدٌ أَصْبَرَ عَلَىٰ أَذًىٰ يَسْمَعُهُ مِنَ اللهِ، يَدْعُونَ لَهُ الْوَلَدَ، ثُمَّ يُعَافِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ**». رواه البخاري(١).

ثم أورد رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الحديث في باب التعريف بالله والإيمان به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ قال ﷺ: «**وما أحد أصبر علىٰ أذًىٰ يسمعه من الله**» وهذا فيه معرفة الله عَزَّ وَجَلَّ وأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ صبور جَلَّ وَعَلَا، والنبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أخبر عن ربه جَلَّ وَعَلَا، «الصبر» بهذه الصفة؛ «**وما أحد أصبر علىٰ أذًىٰ يسمعه من الله**» ففيه أن الله عَزَّ وَجَلَّ صبور، فنحن نؤمن بهذا الوصف الذي وصفه به رسوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ونعرف ربنا بذلك، وأخبرنا النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ علىٰ مثال علىٰ صبره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولهذا قال: «**وما أحد أصبر علىٰ أذًىٰ يسمعه من الله، يدعون له الولد، ثم يعافيهم ويرزقهم**»؛ دعوىٰ الولد هذا قولٌ عظيم جدًّا: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْاْ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾ [مريم: ٨٨- ٩١] كلمة عظيمة جدًّا في غاية الخطورة وفي غاية الكفر والضلال والإلحاد في حق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يُدعىٰ له الولد، وهو جَلَّ وَعَلَا يدعون له الولد ويصبر، ما أحد أصبر علىٰ الأذىٰ منه، يدعون له الولد ثم يعافيهم ويرزقهم!! فأنت ترىٰ في الناس من هو ملحدٌ زنديقٌ كافرٌ عنيدٌ يحارب الله ويحارب أولياءه ويحارب دينه ولا يزال الله عَزَّ وَجَلَّ يعافيه في صحته ويرزقه مالًا، لا يهلكه فور إعلانه ما يعلن من الكفر والزندقة؛ فهذا من صبره جَلَّ وَعَلَا وأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ صبور.

---

(١) رواه البخاري (٦٠٩٩)، ومسلم (٢٨٠٤).

فالواجب علىٰ المسلم أن يعرف ربه بما عرَّفه به رسوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وهذا يفتح للإنسان بابا وهو أنه إذا وقع في المعاصي ووقع في الآثام وفي الكفر وفي الإجرام ويرىٰ نفسه؛ ولا يزال يأتيه بالرزق والمال ويوسَّع عليه في الرزق فهذا ليس دليلا علىٰ مكانته عند الله: ﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا﴾ [الفجر: ١٥- ١٧]؛ يعني ليس الأمر كما تظنون، فقد يكون الإكرام بالتوسعة والصحة والعافية وقد يكون هذا استدراجا، وكذلك قد يكون ما يصيب الإنسان من مرض أو سقم أو غير ذلك أو فقر ليس مهانةً للإنسان عند الله، يعني ليس الأمر كما تظنون؛ فالإنسان إذا وسع عليه في المال والصحة والعافية ليس دليلا علىٰ مكانته عند الله، أو إذا ضُيق عليه في الرزق وأصيب بالفقر أو المرض فهذا أيضا ليس دليلا علىٰ مهانته عند الله، فالإنسان قد يوسع له في الرزق والعافية وهو ليس له مكانة، كافر معرض لكن الله عَزَّوَجَلَّ يمهله، وإمهال الله له هذا من صبره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ فهو صبور يمهل ولا يهمل: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢] يمهلهم ولا يهملهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فإذًا هذا باب في المعرفة بالله جَلَّ وَعَلَا؛ إذا عرف الإنسان أن الله عَزَّوَجَلَّ يصبر علىٰ الأذىٰ يسمعه فلا يكون متماديًا في الأذىٰ لأن هذا يكون صبر من الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ الأذىٰ الذي يسمعه من العبد ثم بعد ذلك يأتي هلاك العبد بغتة، فلا يغتر الإنسان بأنه فعل أمورًا عظيمة أو آثامًا خطيرة وصحته باقية، بعض الناس يغتر يرىٰ صحته باقية، يرىٰ ماله باقيا، يرىٰ الخير عنده والنعمة متوالية.. فيظن أن الأخطاء الكبيرة التي وقع فيها ليست مؤثرة ويقول في نفسه لو كانت مؤثرة لأثرت في النعمة، أو أخذ الله مني هذا الذي أعطاني، فكونه لم يأخذ مني هذا دليل علىٰ أن هذه الأمور ليست مؤثرة؛ فهذا من الأشياء التي يخطئ فيها كثير من الناس فيتمادىٰ في العصيان.

* * *

[ما جاء في صفة الحبِّ لله تعالى]

٢٣- وله، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا نَادَىٰ: يَا جِبْرِيلُ، إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ، فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي جِبْرِيلُ فِي السَّمَاءِ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، وَيُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الأَرْضِ**»(١).

ثم أورد المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ هذا الحديث في التعريف بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بهذه الصفة العظيمة وهي أنه يحب جَلَّ وَعَلَا، كما قال عن نفسه في القرآن: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]، فهذه صفة ثابتة لله ثبتت في القرآن وثبتت في سنة النبي الكريم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فمما يجب علىٰ المسلم أن يعرف ربه به أنه يحب جَلَّ وَعَلَا؛ يحب أنبياءه، يحب أولياءه، يحب طاعته، يحب الطائعين من عباده: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، فالمسلم عليه أن يعرف هذه الصفة، ويعرف أنه يحب الطاعة ويبغض المعصية ويكره الكفر ولا يرضىٰ لعباده الكفر، وإذا عرف ذلك يجاهد نفسه في معرفة الأمور التي ينال بها محبة الله جَلَّ وَعَلَا.

والله جَلَّ جَلَالُهُ وضع لنا في القرآن ميزانـًا في هذا الباب، قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١] متىٰ يحببكم الله؟ مرتبطة بقوله: ﴿فَٱتَّبِعُونِى﴾ بمعنىٰ: كلما عظمت متابعتكم للرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وائتساؤكم به واقتداؤكم بهديه عظم، نصيبكم وحظكم من محبة الله لكم.

---

(١) رواه البخاري (٧٤٨٥)، ومسلم (٢٦٣٧).

فمحبة الله للعبد لا ينالها العبد بمجرد ادعائه، فاليهود أحقر عباد الله وأخسهم وأشرهم ومه هذا يقولون: «**نحن أبناء الله وأحباؤه**» فهذا يدلنا علىٰ أن الدعوىٰ هذه سهلة علىٰ اللسان، أن يقول الله يحبني أو نحن أحباء الله، وكثير من الناس خفيفة علىٰ لسانه، وربما ربط محبة الله له بأمور معينة، دولة من الدول الكافرة مشهورة بالفوز في لعب كرة القدم، فالشعب هناك يقولون كما ذكر لي بعض الإخوة يقولون» نحن الله عَزَّوَجَلَّ يحبنا بدليل أننا دائما ننتصر في كرة القدم»، فالدعوىٰ هذه سهلة جدًّا علىٰ اللسان.

ولهذا الإمام ابن كثير رحمة الله عليه نقل كلمة جميلة جدًّا رائعة لأحد السلف في «تفسيره» لهذه الآية فقال: «قال بعض الحكماء العلماء: ليس الشأن أن تُحِبّ، إنما الشأن أن تُحَبّ».

وقال الحسن البصري وغيره من السلف: زعم قوم أنهم يحبون الله فابتلاهم الله بهذه الآية، فقال: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾»[(١)]، فالشأن أن يحبك الله فعلا، فانتبه بماذا تنال محبة الله لك، ولهذا ذكر بعد ذلك الإمام ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أن هذه الآية تدل علىٰ أن من ادَّعىٰ محبة الله دون لزوم الشرع المحمدي والنهج النبوي بأن دعواه كاذبة، ونقل عن الحسن البصري زعم قوم أنهم يحبون الله حبًّا شديدًا فأنزل الله قوله: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى﴾.

ولهذا أيضا يسمي العلماء هذه الآية «آية المحنة»: فليمتحن المسلم نفسه علىٰ ضوء هذه الآية؛ وينظر إلىٰ قدر الاتباع عنده للرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فهو المقياس الذي يظهر به هذا الأمر والميزان الدقيق الذي يتبين به هذا الأمر.

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٢/ ٣٢).

فمما يجب علىٰ المسلم أن يعرف به ربه أن ربه يحب، ويتعهد أيضًا في معرفة الأعمال التي يحبها سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ من عباده ويرضاها عنهم حتىٰ يتعود في تطبيقها والقيام بها لينال بذلك محبة الله عَزَّوَجَلَّ.

فإذا أحبه الله اسمع ما في الحديث قل: «**إن الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ إذا أحب عبدًا نادىٰ: يا جبريل، إن الله يحب فلانًا فأحبه، فيحبه جبريل، ثم ينادي جبريل في السماء: إن الله يحب فلانًا فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ويوضع له القبول في الأرض**»، لا إله إلا الله! انظر هذا الخير العظيم إذا أخلص العبد مع الله وصدق وأقبل علىٰ الأعمال الصالحة بينه وبين الله صادقًا مع الله عَزَّوَجَلَّ وأحبه الله جَلَّوَعَلَا لإقباله وصدقه ونصحه وإخلاصه وجده واجتهاده وتقربه إلىٰ الله؛ إذا أحبه الله نادىٰ رب العالمين جبريل: «**إني أحب فلانًا**»، ما أعظم مكانة من فاز بهذا الأمر، وما أعظم مكانته أن يقول رب العالمين وخالق هذا الخلق سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: «**إني أحب فلانًا**»، يسميه باسمه، رب العالمين يسميه لجبريل أن يحبه، فيحبه جبريل ثم ينادي جبريل في أهل السماء: «**إن الله يحب فلانا فأحبوه**»، فيحبه أهل السماء، وقد مر معنا قريبًا: «**أطت السماء وحق لها أن تئط؛ ما في موضع شبر غلا وفيه ملك ساجد لله** سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ»، كل هؤلاء بالآلاف بل بالملايين كلهم يحبونه باسمه وبشخصه، أحبه الله ونادىٰ جبريل أن يحبه فأحبه جبريل ونادىٰ جبريل أهل السماء أحبوا فلانًا؛ فأحبه أهل السماء، ويُطرح له القبول في الأرض، وهذا هو معنىٰ قول الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾ [مريم: ٩٦]؛ أي مودة في قلوب الخلق.

فهذه الأمور: محبة الله لعبده، ومحبة أهل السماء له، والقبول الذي يطرح له في الأرض لا ينال بالدعاوىٰ ولا ينال بالتظاهر، لا يُنال إلا بشيء بين الإنسان وبين الله؛ صدق مع الله وإخلاص لله وإقبال علىٰ الله، فهذا مما يجب أن يعرف الإنسان به ربه

سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، أنه لا يفوز ولا يربح ولا يغنم ولا ينال سعادةً وطمأنينةً وقبولًا وراحة في الدنيا والآخرة إلا بشيء بينه وبين الله يصدق فيه مع الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى ويَخلص فيه لله جَلَّوَعَلَا، والأمور بيده سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

فهذا الحديث يفتح لك بابًا في معرفة الله، وأهمية الصدق معه والإخلاص له وحُسن الإقبال عليه، وأن يكون الإنسان بينه وبين الله أعمال يكسب بها قربه وثوابه ونيل أجره ورحمته والنجاة من عذابه سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، بمثل هذا ترتفع درجات العبد وتعلو منازله عند الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

❊ ❊ ❊

[إثبات رؤية المؤمنين لربِّهم يوم القيامة]

٢٤- وَعَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ البَجَلِيِّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ نَظَرَ إِلَىٰ القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ قَالَ: «**إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا القَمَرَ، لَا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ، فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَلَّا تُغْلَبُوا عَلَىٰ صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا ثُمَّ قَرَأَ:** ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه: ١٣٠]». رَوَاهُ الجَمَاعَةُ[(١)].

أورد المصنف رَحِمَهُٱللَّهُ هذا الحديث حديث جرير بن عبد الله البجلي في باب معرفة الله عَزَّوَجَلَّ والإيمان به؛ ففيه الدلالة علىٰ أن مما ينبغي أن يعرف به المؤمنون ربهم سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أنه جَلَّوَعَلَا يكرم أهل الإيمان وأهل الطاعة والعبادة والإحسان بأعظم كرامة وأجل منة وأعظم عطيةٍ؛ ألا وهي رؤيتهم لمن خلقهم وأوجدهم سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فهذه أكبر المنن وأعظم العطايا، ولهذا جاء في «**الصحيح**» عن النبي ﷺ أنه قال: «**إذا دخل أهل الجنة الجنة، يقول الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: تريدون شيئًا أزيدكم؟**»، بعد أن يأخذ أهل الجنة في نعيمها ويسعدون بما جعل الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لهم فيها من أنواع النعم والمنن والعطايا والأفضال يسألهم الله جَلَّوَعَلَا: «**تريدون شيئًا أزيدكم؟** ». فيقولون: «**ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟ فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئًا أحب إليهم من النظر إلىٰ ربهم عَزَّوَجَلَّ**»[(٢)].

فهذا يدل علىٰ أن هذه النعمة هي أعظم النعم، وكرامة الله عَزَّوَجَلَّ لأهل

---

(١) رواه البخاري (٥٥٤)، ومسلم (٦٣٢).

(٢) رواه مسلم (١٨١).

الإيمان، ومنَّته عليهم سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بأن يكرمهم يوم القيامة بالنظر إلىٰ خالقهم الجليل العظيم سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وهذا نظر إكرام وإنعام، ويحصل لهم بهذا النظر نضرة في وجوههم، وهو حُسن وبهاء وجمال وزينة، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وُجُوهٌ يَوۡمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]، ﴿نَّاضِرَةٌ﴾؛ أي: حسنة بهية جميلة مضيئة مشرقة. ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾؛ أي: تنظر إلىٰ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بأبصارها يوم القيامة، قال بعض السلف: «وكيف لا تكون ناضرةً وهي تنظر إلىٰ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؟» فالإنسان في نظرته لأشياء يسيرة جدًّا في الحياة الدنيا من المناظر الجميلة تجلب لقلبه البهجة والراحة إذا كان نظره إلىٰ النعيم الذي في الجنة!! وكيف إذا كان النظر إلىٰ الرب العظيم؟!، فهذه أكبر النعم التي ينالها أهل الإيمان يوم القيامة أن ينظر أهل الإيمان في الجنة إلىٰ من خلقهم وأوجدهم سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؛ فينظرون إلىٰ جلاله وجماله وكماله عَزَّوَجَلَّ، فهذه أكبر العطايا.

فالمصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ ساق هذا الحديث العظيم ليبين أن مما ينبغي أن يُعرف به الرب سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ الخالق لهذا الكون الموجد لهذه المخلوقات أن أهل الإيمان سيرونه يوم القيامة، وهذه خاصة لهم لا يشاركهم فيها غيرهم، ويترتب عليها من الخير العائد لهم ما لا يخطر لهم ببال؛ من نضرة الوجوه، وقرة العيون، وسرور القلوب، وأنس الخواطر، وتوالي الخيرات، إلىٰ غير ذلك من أمور عظيمة ينالها أهل الإيمان.

فنبينا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يخبر بهذا الأمر في هذا الحديث فيقول: «**إنكم سترون ربكم**»؛ أي: يا أهل الإيمان «**إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر**»، وجاء في بعض الروايات أنه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ نظر إلىٰ القمر في ليالي الإبدار في منتصف الشهر، نظر إلىٰ القمر وهو مكتمل في السماء كلٌّ يراه مكتملًا فقال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وهو ينظر

إليه: «**إنكم سترون الله** جَلَّوَعَلَا **كما ترون هذا القمر**». والكاف هنا في قوله: «**كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَر**» ليست تشبيهًا للمرئي بالمرئي، وإنما تشبيهًا للرؤية بالرؤية، أي كما أنكم ترون القمر رؤيةً حقيقية بأبصاركم فإنكم سترون الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، كما أن رؤيتكم للقمر رؤية حقيقية ترونه من فوقكم رؤية حقيقية الكل يراه والكل ينظر إليه لا يحتاج أن ينضم بعضكم إلىٰ بعض من أجل النظر لدقته أو لخفائه أو لبُعده وإنما الكل يراه؛ فالتشبيه هنا للرؤية بالرؤية؛ أي: أنها رؤية حقيقية بالأبصار كما أنكم ترون القمر من فوقكم رؤيةً حقيقية بالأبصار، هذا معنىٰ قوله: «**هَلْ تُمَارُونَ فِي الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَيْسَ دُونَهُ سَحَابٌ**»[(١)] ليلة البدر: هي ليلة التمام.

وفي بعض ألفاظ الحديث: «**إنكم سترون ربكم يوم القيامة**» فهذه الرؤية ليست حاصلة لأحد إلا في يوم القيامة، ولهذا جاء في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**إنكم لن تروا ربكم حتىٰ تموتوا**»[(٢)]، ولما سئل عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ هل رأىٰ ربه ؟ قال «**نورٌ أنىٰ أراه**»[(٣)] فهو عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لم ير الله جَلَّوَعَلَا، ورؤية الله عَزَّوَجَلَّ في الدنيا ليست حاصلة لأحد ولَن يجعل الله عَزَّوَجَلَّ للناس قدرة علىٰ هذه الرؤية، لكنه يوم القيامة سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يجعل لهم من القدرة والقوة علىٰ النظر له جَلَّوَعَلَا.

قال: «**لَا تَضَارُّونَ فِي رُؤْيَته**»، وقال: «**لا تُضَامُونَ في رؤيته**» رواياتٌ وألفاظ وردت في هذا الحديث وكلها دالة علىٰ معاني صحيحة، «**لا تُضَامُونَ في رؤيته**» أي: لا يحصل لكم ضيم في الرؤية بل الكل يحصل له الرؤية بدون عنت وبدون مشقة،

---

(١) رواه البخاري (٨٠٦)، ومسلم (١٨٢).

(٢) رواه النسائي في «سننه الكبرىٰ» (٧٧٦٤)، وابن أبي عاصم في السنة (٤٢٨)، وقال الألباني في «ظلال الجنة»: «إسناده جيد».

(٣) رواه مسلم (١٧٨).

وعادة عندما يريد الناس النظر إلىٰ شيء يكون دقيقًا يجتمعون حتىٰ يجدِّدوا أو يستطيعوا النظر أو الرؤية «**ولَا تَضَارُّونَ في رؤيته**» أي: لا يحصل لكم تضار بسبب تزاحم الناس أو تدافعهم لرؤية أمر معين، فكل هذا لا وجود له فسترون الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ رؤية حقيقية بأبصاركم، وأكد هذا المعنىٰ بعدة مؤكدات صلوات الله وسلامه عليه.

وينبغي أن يُعلم هنا من سياق هذا الحديث ودلالة أحاديث ونصوص أخرىٰ: أن رؤية الله عَزَّوَجَلَّ أعظم منال وأكرم نعمة وأفضل عطية ينالها أهل الإيمان، وهذه العطية والمنة العظيمة الكبيرة لابد في العبد من أجل أن يحصلها وأن ينالها وأن يكون من أهلها لابد له من أمور تؤهله لهذه الرؤية، فهي ليست حاصلة لكل أحد، ولهذا هنا خاطب أهل الإيمان قال: «**إنكم سترون ربكم**»، فليست كل الوجوه ستنظر ولهذا الله عَزَّوَجَلَّ قسَّم الوجوه في القرآن إلىٰ وجهين يوم القيامة، قال: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢- ٢٥]. نسأل الله العافية والسلامة، فالوجوه يوم القيامة علىٰ وجهين:

١- وجه ناضر؛ يعني حسن بهي جميل يكرمه الله عَزَّوَجَلَّ بالنظر إليه.

٢- ووجوه عليها غبرة ترهقها قترة محجوبةٌ عن الله ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥].

إذًا هناك أمور في الدنيا لابد أن يقوم بها العبد لتؤهله للرؤية وهي الإيمان وتحقيق طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، فالجنة التي أعظم إكرام وإنعام فيها رؤية الله فلا يمكن أن يدخلها أحد إلا بالإيمان، ولهذا قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في الحديث الصحيح: «**وَلَا**

يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلاَّ نَفْسٌ مُؤْمِنَةٌ»[(١)]، فالإيمان والأعمال الصالحة التي ترتفع بهما درجات العبد وينال بهما عالي المقامات ورفيع الدرجات لابد منهما: ﴿**وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ**﴾ [الأحقاف: ١٩]، ولهذا سيأتي عند المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ إيراد ما يدل علىٰ ذلك من السنة النبوية؛ فتفاوت أهل الجنة في نعيمها، ودرجاتها لتفاوتهم في الأعمال الصالحة والطاعات في حياتهم الدنيا.

فنبه النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إلىٰ هذا المعنىٰ؛ بقوله: «**إنكم**» أي يا أهل الإيمان «**سترون ربكم يوم القيامة**»، ونبه علىٰ العمل الصالح والتقرب إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ ومجاهدة النفس علىٰ ذلك ولاسيما وبخاصة الصلاة، ولهذا قال هنا في هذا الحديث: «**فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَلَّا تُغْلَبُوا عَلَىٰ صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا**».

وهنا رعاك الله لابد أن تنتبه إلىٰ فائدة عظيمة وهي الارتباط بين العقيدة والعمل الصالح، وثمرة العقيدة الصحيحة في حسن العمل، فثمة ارتباط وثيق بينهما؛ فالإيمان الراسخ يورث عملًا طيبا، ويحرك في القلب العمل لله، فلما ذكر ﷺ الرؤية التي هي أكمل نعيم وهي عقيدة يعتقدها أهل الإيمان، فهذه العقيدة لا تثمر بطالة، ولا كسلًا، ولا تثمر فتورًا، إنما تثمر جدًّا واجتهادًا، وتحرك في القلب شوقا لنيل هذه الرؤية وطمعًا فيها، وهذا الشوق والطمع يحرك في النفس إقبالًا علىٰ الأعمال وعلىٰ الطاعات التي يُنال بها هذا الأمر العظيم، فالعقيدة تثمر العمل وتحرك في القلب العمل ولهذا هنا قال: «**إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ**» هذه العقيدة، العمل الذي يترتب عليها وتتطلبه ما جاء في آخر الحديث في قوله: «**فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَلَّا تُغْلَبُوا عَلَىٰ صَلَاةٍ**»، فثمة

---

(١) رواه الترمذي (٣٠٩٢)، والنسائي (٢٩٥٨)، وصححه الألباني في «الإرواء» (٤/ ٣٠١).

ترابط وثيق بين العقيدة والعمل، وكأن الحديث يشار فيه إلىٰ سامعه يقال له: يا من عرفت أن أهل الإيمان يرون الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يوم القيامة ويكرمهم بهذه الرؤية فاجتهد أن تكون من هؤلاء بتقديم العمل والطاعة، واحذر أن تفرط في الصلاة، لأن تفريطك في الصلاة وتضييعك لها حكمٌ علىٰ نفسك بالحرمان من هذا الأمر، فالذي لا يصلي حكَم نفسه بالحرمان من هذا.

وينبغي أن ننتبه إلىٰ أن هناك ارتباط وثيق بين الصلاة ورؤية الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يوم القيامة، وهي واضحة في كثير من النصوص، والصلاة سميت صلاة لأنها تصل العبد بالله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، وهي أيضًا توصل العبد إلىٰ رؤية الله يوم القيامة، وانظر هذه الرابطة في نصوص كثيرة منها هذا النص الذي بين يديك؛ «**إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا القَمَرَ، لَا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ، فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَلَّا تُغْلَبُوا عَلَىٰ صَلَاةٍ**» يعني لا يغلبكم علىٰ الصلاة أي غالب، لأنه إذا غلب الإنسان علىٰ صلاته حصل له بذلك الحرمان، حرم نفسه «**فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَلَّا تُغْلَبُوا**» يعني كأنه يقال إن كنت تريد - ولا أحد يأبىٰ ذلك لنفسه - إن كنت تريد لنفسك ذلك فحافظ علىٰ الصلاة؛ هذا معنىٰ الحديث ومدلوله.

ففي الحديث ارتباط بين الصلاة والرؤية، انظر هذا الارتباط في القرآن الكريم بين الصلاة والرؤية، في قوله :سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]، هذا القِسم من الوجوه الذي يكرمهم الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بالرؤية.

انظر إلىٰ القسم الآخر الذي يُحجب ويُمنع ويُحرم ما هي صفاته ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾ [القيامة: ٢٤- ٣١]، هذه من موجبات الحرمان، ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾ هذا القسم الذي لا ينظر إلىٰ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ،

من القسم الذين قال عنهم في سورة أخرىٰ في آية أخرىٰ ﴿كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ ١٥ ثُمَّ إِنَّهُمۡ لَصَالُواْ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [المطففين: ١٥، ١٦]، فمن أعمالهم التي استحقوا بها ذلك ما ذكره الله هنا ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾. إذ ا المفهوم أن أولئك ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ﴾ من أهل الصلاة، والصلاة هي التي أوصلتهم وغيرها من الطاعات إلىٰ هذا الثواب العظيم.

فالرؤية مرتبطة بالصلاة ولهذا جاء في حديث عمار بن ياسر في «**سنن النسائي**» وغيره بسند ثابت أن النبي عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كان يدعو في صلاته «**اللهم بعلمك الغيب وقدرتك علىٰ الحق، أحيني ما علمت الحياة خيرًا لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيرًا لي**» إلىٰ قوله في هذا الدعاء: «**وأسألك النظر إلىٰ وجهك، والشوق إلىٰ لقائك في غير ضراء مضرة، ولا فتنة مضلة، اللهم زينا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهتدين**»[(١)]، ولاحظ أيضًا الارتباط بين الصلاة والرؤية في هذا الحديث؛ فنبينا عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في الصلاة التي هي من أعظم موجبات نبل الرؤية يسأل الله عَزَّوَجَلَّ لذة النظر قال: «**أسألك النظر إلىٰ وجهك، والشوق إلىٰ لقائك في غير ضراء مضرة، ولا فتنة مضلة**» لذة النظر إلىٰ وجه الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ هي أعظم لذة وليس في اللذات لذة تدانيها أو تقاربها، أعظم لذة علىٰ الإطلاق هي لذة النظر إلىٰ وجه الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، فيقول هنا «**أسألك النظر إلىٰ وجهك، والشوق إلىٰ لقائك في غير ضراء مضرة، ولا فتنة مضلة**» ولذة النظر غاية، والشوق إلىٰ لقائه وسيلة لنيل هذه الغاية، وقدَّم الغاية لعظمها وفخامتها، «**أسألك النظر إلىٰ وجهك، والشوق إلىٰ لقائك**» هناك شوق في القلب يحدو الإنسان يحركه يبعثه يدفعه إلىٰ الأعمال والقربات إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ حتَّىٰ ينال هذا

---

(١) رواه النسائي (١٣٠٥)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٣٠١).

الفوز العظيم والنعيم المقيم.

قال: «**في غير ضراء مضرة، ولا فتنة مضلة**» أي أسألك أن يكون نيلي لهذا الأمر في غير ضراء ولا فتنة.

وقال العلماء: لا تكون الرؤية إلا بعد الموت كما تقدم الحديث بهذا، والموت قد يطلبه الإنسان لنفسه لضراء أصابته ولهذا جاء في حديث آخر: «**لا يتمنين أحد منكم الموت لضر نزل به**»[(١)]، فقد يطلب الإنسان الموت لضراء أصابته فيريد الموت للخلاص من هذه الضراء، أو أيضًا يصاب الناس في زمانه بفتن فيخشىٰ علىٰ نفسه منها فيتمنىٰ الموت خوفًا من الفتن، فهنا يحقق هذا الدعاء ويخلص هذا الدعاء أنه يسأل الله عَزَّوَجَلَّ النظر إليه ولذة النظر إليه شوقًا إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ ليس طلبا للموت فرارًا من مصيبة ألمت بالإنسان في الدنيا أو ضراء أصابته في الدنيا، وليس أيضًا فرارًا من فتنة، وإنما هو في شوق وفي طمع وفي لهف وفي رغبة تَملأ جوانحه لرؤية الرب العظيم سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

قال: «**وأسألك النظر إلىٰ وجهك، والشوق إلىٰ لقائك في غير ضراء مضرة، ولا فتنة مضلة، اللهم زينا بزينة الإيمان**» وهذا مما يوضح الارتباط بين الإيمان بالله وطاعاته، ومن طاعاته العظام الصلاة، والصلاة إيمان ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمۡ﴾ [البقرة: ١٤٣]؛ صلاتكم أي: إيمانكم، فانظر الارتباط الذي أشير إليه أيضًا فيما سبق.

وعودة إلىٰ الحديث: يقول فيه عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ، هنا لفتة لابد نقف عندها، يقول «**فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَلَّا تُغْلَبُوا**» قف هنا متأملًا ودقق النظر وزد في التأمل في قوله عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «تُغلبوا «ماذا تستفيد منها ؟ «**فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَلَّا تُغْلَبُوا**» يعني كأنه

---

(١) رواه البخاري (٦٣٥١)، ومسلم (٢٦٨٠).

يقال لك: هذه الرؤية وهذه منزلتها وهذه مكانتها وهذه الصلاة هي أعظم ما تنال به الرؤية وانتبه في الدنيا أشياء كثيرة ستغلبك علىٰ الصلاة، فانتبه لا يغلبك علىٰ صلاتك أي شيء.

«فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَلَّا تُغْلَبُوا عَلَىٰ صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا»؛ الصلاة التي قبل طلوع الشمس هي صلاة الفجر، والصلاة التي قبل غروبها هي صلاة العصر، ولهاتين الصلاتين في النصوص خصوصية عظيمة جدًّا، وورد فيهما نصوص خاصة من ضمنها قول النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل والنهار، ويجتمعون في صلاة العصر وصلاة الفجر**»[(١)] فالملائكة الذين يتعاقبون علىٰ الناس بالليل والنهار يجتمعون في هذين الصلاتين «**ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم بهم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلون، وأتيناهم وهم يصلون**» لما جاءوا الفجر وجدوهم في صلاة، ولما صعدوا العصر كانوا في صلاة، والذين جاءوا بعدهم أيضًا وجدوهم في صلاة لما أتوهم، ولما صعدوا منهم كانوا أيضًا في صلاة الفجر، وهؤلاء الملائكة الذين يتعاقبون يرون عباد الله عندما ينزلون في صلاة وعندما يصعدون في صلاة «**تركناهم وهم يصلون، وأتيناهم وهم يصلون**»، النائم علىٰ فراشه والمشتغل بأعماله واللاهي عن صلاته ليس داخل مع هؤلاء، هذا يختص بالمصلين «**تركناهم وهم يصلون، وأتيناهم وهم يصلون**»، الذي ينام عن صلاة الفجر محروم هذا والذي ينام عن بقية الصلوات أيضًا محروم.

وقد تسأل هنا لماذا خصت هنا صلاة الفجر وصلاة العصر بالذكر؟ خصت هاتان الصلاتان بالذكر لأنهما أعظم الصلوات وفيهما من الفضائل والخصائص ما

---

(١) رواه البخاري (٥٥٥)، ومسلم (٦٣٢).

ليس لغيرهما، فإذا حافظ عليهما العبد فإن هذا يدفعه إلىٰ المحافظة علىٰ ما سواهما، وإذا ضيَّعهما العبد فهو لما سواهما أضيع من بقية الصلوات وغيرها من الطاعات، وصلاة الفجر تأتي في مفتتح اليوم وباكورته وأوله، فمن منَّ الله عَزَّوَجَلَّ عليه ولَا يُغلب علىٰ صلاة الفجر وأحسن في صلاته كانت هذه الصلاة عونًا له علىٰ أداء بقية الصلوات ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، فإذا استهل يومه بنشاط وهمة وتعوذ من الشيطان وذكر لله وإقبال علىٰ صلاة الفجر سيكون أيضًا بعون الله محافظًا علىٰ بقية الصلوات، فلأجل هذا خص هاتين الصلاتين بالذكر، قال: «**فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَلَّا تُغْلَبُوا**».

أيضًا لمزيد الفقه في هذا الباب؛ لك أن تسأل ما هي الأمور التي تغلب الناس علىٰ صلاتهم؟ وهذا من الأمور المهمة التي ينبغي أن تنتبه لها، فتعرفها حتىٰ لا تغلبك علىٰ صلاتك، فصلاة الفجر كثيرا ما يغلب الناس عليها، تجد الأذان أذِّن والمنادي نادىٰ «**الصلاة خير من النوم**» وهذا مستمر في نومه إلىٰ طلوع الشمس، اليوم وغدًا وبعد غد وهو علىٰ هذه الحال، فغلبه النوم وما يسبق النوم من طول في السهر، سهر في لهو وباطل ونوم عن فرائض، يسهر في لهو وفي باطل وفي ضياع وينام عن فريضة كتبها الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عليه!! فأي حرمان أفظع من هذا؟! أن يضيع ليله في لهو وباطل وأن يبتدأ نهاره بتضييع الفريضة، الليل يضيع في لهو وباطل! والنهار يفتتح بتضييع فريضة من فرائض الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ التي كتبها جَلَّوَعَلَا علىٰ عباده!!

يغلب الناس علىٰ صلاتهم أيضًا: اللهو والإقبال علىٰ الدنيا والتكالب عليها وملأ القلب بها؛ وهذه أمور تغلب الناس علىٰ صلاتهم، فأصبح الواحد من الناس من يغلبه علىٰ صلاته فنجان شاي، بيده فنجان الشاي يصبه؛ وينادىٰ للصلاة فيجلس يشرب الشاي ما يريد أن يترك الشاي والصلاة يتركها!! أمور كثيرة الآن حتىٰ أشياء

من أتفه وأحقر الأمور تغلب الناس علىٰ صلاتهم، وأصبح الصلاة في ميزان كثير من الناس لا قيمة لها، وقد قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ كلمة عظيمة جدًّا: «وإنما حظهم من الإسلام علىٰ قدر حظهم من الصلاة، ورغبتهم في الإسلام علىٰ قدر رغبتهم في الصلاة»(١)، لأن حظك من الإسلام بحسب حظك من الصلاة، ومن ضيع الصلاة فهو لما سواها أضيع، ومن حافظ علىٰ الصلاة كما قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**كانت له نورًا وبرهانًا ونجاة يوم القيامة، ومن لم يحافظ عليها لم يكن له نور ولا برهان ولا نجاة**»(٢)، الصلاة نور تضيء للإنسان طريقه في هذه الحياة وبرهان علىٰ إيمانه وحسن صلته بربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ونَجاة له يوم القيامة فيلقىٰ الله عَزَّوَجَلَّ يوم القيامة مصليًا مقبلًا مطيعًا لله جَلَّ وَعَلَا.

قال: «**إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا القَمَرَ، لَا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ، فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَلَّا تُغْلَبُوا عَلَىٰ صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا**»؛ قوله: «**فافعلوا**» فيه تنبيه لمجاهدة النفس ومداومة جهادها علىٰ المحافظة علىٰ الصلاة ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

ثم قرأ: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ غُرُوبِهَاۖ﴾ [طه: ١٣٠]، هذه الآية فيها إشارة إلىٰ هاتين الصلاتين؛ صلاة الفجر التي هي قبل طلوع الشمس، وصلاة العصر التي هي قبل غروبها.

* * *

(١) «طبقات الحنابلة» (١/ ٣٥٣).

(٢) رواه أحمد في «مسنده» (٦٥٧٦)، وابن حبان في «صحيحه» (١٤٦٧)، والدارمي في «سننه» (٢٧٧٧).



[انتصار الله لأوليائه، وانتقامه من أعدائهم]

٢٥- وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللهَ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ قَالَ: مَنْ عَادَىٰ لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ أَدَاءِ مَا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّىٰ أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ، كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَلَئِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ قَبْضِ نَفْسِ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ، وَلَابُدَّ لَهُ مِنْهُ». رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ[1].

ثُم أورد رَحِمَهُٱللَّهُ هذا الحديث العظيم في باب معرفة الله عَزَّوَجَلَّ والإيمان به، والحديث يدل علىٰ أن مما ينبغي أن يعرف المؤمن به ربه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أنه عَزَّوَجَلَّ يتولىٰ أولياءه والصالحين من عباده بحفظه وكلاءته ورعايته سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، يتولاهم بتوفيقه وتسديده وعونه، يتولاهم بحفظه ونصره جَلَّوَعَلَا؛ هو وليهم ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحج: ٣٨]، ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

فأولياء الله والصالحون من عباده يبين هذا الحديث ما لهم من الفضل والتوفيق والحفظ والتسديد والمعونة من الله جَلَّوَعَلَا، فهذا مما ينبغي أن يُعرف به الله جَلَّوَعَلَا؛ فيُقبل العبد علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ ويجاهد نفسه ليكون من أولياء الله.

---

(١) رواه البخاري (٦٥٠٢).

وباب كون العبد من أولياء مفتوح لكل أحد، لا يختص بجنس دون جنس أو لون دون لون أو نسب دون نسب لا يختص بأحد؛ بمجاهدة النفس علىٰ تحقيق أمرين الإيمان بالله وتقواه ينال العبد الولاية ويكون من الأولياء ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فكل من كان مؤمنًا تقيًّا كان لله وليًّا»[1]، فبالتقوىٰ والإيمان تنال ولاية الله عَزَّوَجَلَّ، ولا تنال الولاية بدعوىٰ يدَّعيها الإنسان أو نوع لباس يتميز به أو مظاهر يتظاهر بها أو نحو ذلك، وإنما تنال الولاية بشيء بين العبد وبين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٣].

واجتماع الإيمان والتقوىٰ يدل علىٰ أمرين يلزم العبد لزومهما والمحافظة عليهما وهما: العناية بالأوامر فعلا، والبعد عن الناهي والمحرمات وما نهىٰ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عباده عنه، فالإيمان تعني فعل الأوامر والطاعات مع صلاح المعتقد، والتقوىٰ تعني اجتناب المحرمات واتقائها والبعد عنها، فمن كان بهذه الصفة نال هذه المنزلة العلية والرتبة الرفيعة.

والحديث هنا فيه بيان ما للأولياء من مكانة عظيمة ومنزلة رفيعة عند رب العالمين وخالق الخلق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولهذا يقول الله عَزَّوَجَلَّ في بيان مكانة أوليائه ومنزلتهم قال: «**إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ قَالَ: مَنْ عَادَىٰ لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ**» وهذا فيه أن من بارز أولياء الله بالعدوان والظلم والإساءة والاعتداء فقد آذنه الله جَلَّ وَعَلَا بالحرب، ومن آذنه الله عَزَّوَجَلَّ بالحرب فقد تحقق هلاكه في دنياه وأخراه، لأنه

---

(١) «مجموع الفتاوىٰ» (٢/ ٢٢٤).

سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بيده أزمة الأمور ومقاليد السماوات والأرض، عطاؤه كلام وعذابه كلام سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

«**مَنْ عَادَىٰ لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ**» يفهم أيضًا من الحديث كما نبه العلماء أن من والىٰ الأولياء وأحبهم وعرف مكانتهم وقدرهم فقد فاز برضا الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وهذا المعنىٰ ما جاء في الحديث: «**أوثق عرىٰ الإسلام الولاية في الله والحب في الله والبغض في الله**»[1]، فمن أحبهم في الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ فاز برضا الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ومن عادىٰ أولياء الله وتلقاهم بالشنئان والبغض والعدوان والظلم ونحو ذلك فقد آذنه الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بالحرب، قال «**مَنْ عَادَىٰ لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ**».

ثُم ذكر صفة الأولياء، كأنه قيل: من هم الأولياء، الله قال: «**من عادىٰ لي وليًّا**» فذكر جَلَّوَعَلَا في هذا الحديث القدسي أن أولياءه علىٰ درجتين وعلىٰ مرتبتين:

الدرجة الأولىٰ بيَّنها في قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: «**وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ أَدَاءِ مَا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ**» هذه مرتبة من مراتب الولاية: المحافظة علىٰ الفرائض، والبعد عن المحرمات، وهذه الدرجة يسميها أهل العلم «درجة المقتصدين»، وإليها الإشارة في قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ﴾ [فاطر: ٣٢]، والمقتصد: هو الذي يحافظ علىٰ الفرائض ويترك المحرمات؛ هذا ولي من أولياء الله، ويوم القيامة يدخله الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ الجنة بدون حساب ولا عذاب.

والدرجة الثانية للأولياء وهي أرفع وأعلىٰ وأسمىٰ من هذه الدرجة وإليها الإشارة هنا في هذا الحديث في قوله: «**وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّىٰ أُحِبَّهُ**» وهذه الدرجة الثانية وهي أعلىٰ من الدرجة الأولىٰ، وهي المحافظة علىٰ الفرائض

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الصغير» (٦٢٤)، وحسنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٩٩٨).

وترك المحرمات وزيادة علىٰ ذلك العناية بالنوافل.

وقوله: «**وَمَا يَزَالُ**» هذه الكلمة تفيد الاستمرار والمداومة، «**وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ**» يعني مستمرًّا مداومًا محافظًا علىٰ النوافل، هذه الدرجة الثانية هي درجة المقربين أو»درجة السابقين بالخيرات «.

قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [فاطر: ٣٢]، وقد قال العلماء: المقتصد والسابق بالخيرات كلاهما يدخل الجنة بدون حساب ولا عذاب دخولًا أوليًّا، من كان محافظًا علىٰ الفرائض مبتعدا عن المحرمات، ومن كان أيضًا محافظا عليها وإضافة إلىٰ ذلك مسابقا في الرغائب والنوافل والمستحبات؛ فهذان يدخلان الجنة بدون حساب، ورتبتهما في الجنة ليست متساوية، السابقون لهم درجة عالية، والمقتصدون لهم درجة دون ذلك، ولهذا سيشير المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الحديث الآتي إلىٰ هذا المعنىٰ بذكر الجنات التي في الجنة جنة المقربين وجنة المقتصدين ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦]، ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٢]، يشير إلىٰ هذا المعنىٰ في الحديث القادم.

وإتيانه بالحديث القادم بعد حديث الولي في غاية المناسبة؛ لأن حديث الولي ذكر أن أولياء الله عَزَّوَجَلَّ وهي منزلة لا تنال بمجرد الدعوىٰ وإنما تنال بمجاهدة، والمجاهدة هنا «**وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ أَدَاءِ مَا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّىٰ أُحِبَّهُ**» يعني حتىٰ ينال منزلة عظيمة عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في المحبة، وإلا فإن من يؤدي الفرائض ويترك المحرمات له نصيب وحظ من حب الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ له، لكن الذي حافظ علىٰ النوافل نصيبه أوفر وحظه أعظم، ولهذا قال: «**حتَّىٰ أحبه**».

ثُم انظر ماذا يترتب علىٰ حب الله عَزَّوَجَلَّ لوليه ؟ قال: «**حَتَّىٰ أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ**» هذه ثمار وآثار «**فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ، كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَلَئِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ**» أي: أنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يؤيده ويسدده في سمعه وفي بصره وفي قدمه وفي يده ويستجيب دعاءه ويكون محفوظا بحفظ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ له، وهذا معنىٰ قوله «كنت سمعه» و«كنت بصره» و«كنت يده» و«كنت قدمه»؛ أي: أنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يسدده في سمعه وفي بصره وفي يده.

وقد أساء قوم أعظم إساءة عندما توهموا معنىٰ فاسد في قوله: «كنت سمعه» أي أن سمع الإنسان يصبح سمع الله وبصر الإنسان يصبح بصر الله إلىٰ غير ذلك من الكلام الباطل الذي لا يقوله من عرف دين الله عَزَّوَجَلَّ ومن عرف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والله جَلَّوَعَلَا ذكر في الحديث سائلًا ومعطيا، عبدًا ومعبودا، ربًا ومربوبا، حافظًا ومحفوظا، كل هذه ذكرت مفصول بينها، الله عَزَّوَجَلَّ بصفاته وهذا العبد بصفاته.

وهنا انتبه رعاك الله إلىٰ فائدة عظيمة جدًّا تعالج مشكلة نراها ظاهرة في حياتنا جميعا، وهي راجعة إلىٰ كثرة تفريطنا وتضييعنا في مجاهدة النفس علىٰ العبادة والتقرب إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ وهي كثرة المشاكل والأمور التي تقلق الإنسان، سواء ما يصل إليه منها من طريق السمع أو ما يصل إليه من طريق البصر أو ما يصل إليه من طريق اليد أو ما يصل إليه من طريق القدم، وقلة التوفيق في الأمور وقلة التسديد؛ فالحديث يعطيك العلاج ويعطيك الدواء الناجع لحل هذه المشكلة وهو أن تقبل علىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ونيلك التسديد والتوفيق والمعونة في سمعك وفي بصرك وفي قدمك وفي سيرك وفي رواحك وفي أمورك كلها، فنيلك هذا التسديد والتوفيق بيد الله، ولا تناله إلا إذا فعلت ما تنال به رضا الله والإقبال علىٰ طاعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فالحديث يفتح لك باب التوفيق وباب التسديد وباب نيل معونة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لك في أمورك كلها؛ أن تصلح ما بينك وبين الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

وهذا ينبهك علىٰ خطأ دارج عند كثير من الناس عندما يُنبه أحدهم علىٰ خطأ يفعله أو أمر يقع فيه تجده مثلا يقول: «الله يهديني أو اسأل الله أن يهدينا» لكنه ما يجاهد، الحديث ينبه إلىٰ هذا الخطأ، فلابد مع قولك: «الله يهدينا أو اللهم اهدنا أو ادعو الله أن يهدينا» مع هذا لابد أنت أن تجاهد نفسك «**وما يزال عبدي**» مجاهدة، يجاهد الإنسان نفسه في المحافظة علىٰ الفرائض ويجاهد نفسه في الجد والاجتهاد فيما استطاع من النوافل فتأتيه الثمرة العظيمة؛ فيحبه رب العالمين ثُم تأتي الثمار التي وراء ذلك؛ يسدده في سمعه يسدده في بصره يسدده في قدمه يسدده في يده، يجيب دعاءه: «**وَلَئِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ**» إن طلب من الله شيئا أعطاه، وإن استعاذ بالله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ واعتصم به من شيء أعاذه ووقاه وحماه، فهذه الأمور ثمار للمجاهدة التي دل عليها الحديث.

فالحديث ينبه العبد إلىٰ أن ولاية الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لابد فيها من المجاهدة:

أولا مجاهدة النفس علىٰ حفظ الفرائض ثُم بعد ذلك النوافل، وتقدم الفرائض علىٰ النوافل، لأن الفرائض مقدمة وبها يبدأ، فبعض الناس تجده يحافظ علىٰ بعض النوافل ويفوِّت بعض الفرائض، وبعضهم نسأل الله العافية والسلامة يحافظ علىٰ بعض البدع ولا يفوِّتها ويضيع الفرائض، وهذا من عجائب الناس؛ بعض البدع ما يمكن يفرط فيها ولا يساوم فيها ومهما كانت ظروفه ما يضيعها، بدع ما أنزل الله بها من سلطان، والفرائض مضيعة!! ثُم ربما يأتيه إحساس داخلي وهو مضيع للفرائض ومحافظ علىٰ البدع أنه من أولياء الله، وربما بعضهم يخبر بذلك؛ فيلبس زيًا معينا وهيئة معينة من اللباس ويضيع فرائض الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ويحافظ علىٰ بدع لا دليل

عليها لا في كتابٍ ولا في سنة ويشار إليه بين أصحابه بالبنان «هذا ولي من أولياء الله»، وهو ربما أيضًا يخبر عن نفسه بذلك. وبعضهم ربما قال بل قال بعضهم «لا أعلم وليًا لله إلا فلان وفلان وأنا»، وهذه كلها من حماقات أهل الضلال وأهل الضياع والعياذ بالله.

والولي الصادق ما هو شأنه؟ هل هو يأتي عند الناس ويقول أنا ولي وأنا صاحب كرامات؟ هل عهدتم واحد من الصحابة أو غيرهم كان يقول ذلك؟ لا والله! قال الله عن أوليائه: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠] يقول عبد الله بن أبي مليكة: «**أَدْرَكْتُ ثَلاثِينَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ كُلُّهُمْ يَخَافُ النِّفَاقَ عَلَىٰ نَفْسِهِ**»[(١)] لا يوجد فيهم من يزكي نفسه ويقول: أنا ولي من أولياء الله، والله يقول في القرآن: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٢] أيُّ تزكيةٍ للنفس أن يدعي الإنسان لنفسه أنه من الأولياء!! ولهذا لا يصح أن يدَّعي الإنسان هذا الأمر لنفسه ولا يدَّعيه لغيره، فلو رأيت شخصًا عليه ظاهر الصلاح والاستقامة والمحافظة علىٰ الفرائض والمحافظة علىٰ النوافل لا تجزم ولكن قل: «نحسبه من الأولياء، أو نرجو أن يكون من الأولياء» أو نحو ذلك أما الجزم فلا، ولا يجزم به لأحد، فإذا كان قتيل المعركة الذي يرفع السيف ويبلي بلاء عظيما في النكاية بالأعداء لا يجوز أن يقال له لأن الشهادة تترتب علىٰ أمر يوجد في القلب ما نراه، وهو من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، وهناك قتال للحمية، وهناك قتال للعصبية وهناك قتال لأغراض أخرىٰ، وهذه كلها مكانها القلب والإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ بوب في صحيحه: «باب لا يقال فلان شهيد» وأورد من النصوص ما يدل علىٰ المنع من ذلك، لكن من قُتل في المعركة

(١) رواه البخاري معلقا في «صحيحه» كتاب الإيمان (٣٦) باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر.

ورآه الناس أبلىٰ بلاءً حسنا يقال عنه: «نحسبه من الشهداء، نرجو أن يكون من الشهداء، هو من الشهداء إن شاء الله» أو نحو ذلك، أما الجزم فلا.

وهذا الذي يبين الفرق بين حال الأولياء الصادقين من الصحابة ومن اتبعهم بإحسان وحال غيرهم، فما كان أحد من الصحابة يدَّعي لنفسه ذلك، ولو تقرأ سيرهم ترىٰ عجبا، حتىٰ إن الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال «إن المؤمن جمع بين إحسان ومخافة، والمنافق جمع بين إساءة وأمنا»[(١)]؛ وهذا هو معنىٰ الآية ﴿**وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ**﴾ [المؤمنون: ٦٠]، قالت عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا كما في «**المسند**» وغيره بسند ثابت، قالت: قلت: يا رسول الله، هو الذي يسرق ويزني ويشرب الخمر وهو يخاف الله؟ قال: «**لا يا بنت الصديق، ولكنه الذي يصلي ويصوم ويتصدق وهو يخاف الله** عَزَّوَجَلَّ»[(٢)] هذا هو معنىٰ ﴿**وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ**﴾ أي: خائفة أن يرد عليهم عملهم، والله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿**إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ**﴾ [المائدة: ٢٧].

فالشاهد أن العبد في هذا الباب العظيم يجاهد نفسه وهو يجمع بين الرجاء والخوف؛ يرجو رحمة الله ويخاف عذابه ولا يدَّعي لنفسه رتبةً علية أو منزلة رفيعة وإنما يرجو الله ويقول أنا مقصر وأنا مفرط، ولا يزال في المجاهدة إلىٰ أن يلقىٰ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وهو علىٰ حال ينال بها أعظم منال بإذن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

ثُم قال في تَام الحديث: «**وَلَئِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ**» أي: أنه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يجيب دعاء؛ فمن كان بهذه الصفة لا يرده في سؤاله.

ويقول الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: «**وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ قَبْضِ نَفْسِ**

---

(١) انظر: «تفسير الإمام الطبري» (١٩/ ٤٥)، و«تفسير الإمام ابن كثير» (٥/ ٤٨٠).

(٢) رواه أحمد في «مسنده» (٢٥٧٠٥)، والترمذي (٣١٧٥)، وابن ماجه (٢١٩٨)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٦٢).

عَبْدِي الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ المَوْتَ وَأَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ، وَلَابُدَّ لَهُ مِنْهُ»؛ وهذا فيه من المعرفة بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: معرفة فضله وكرمه ولطفه ورحمته وإحسانه ومكانة عبده المؤمن عنده سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، مع أنه عَزَّوَجَلَّ غني عن المؤمن، لا تنفعه طاعته إن بقي حيا، ولا تضره معصية من عصىٰ، لكن هذا الكرم وهذا الجود وهذه الرحمة وهذا اللطف والإحسان منه عَزَّوَجَلَّ؛ فانظر هذا الكرم وتأمل هذا اللطف والإحسان.

يقول الغني سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ «**وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ**» أي: أنه سيفعله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ كتب ذلك وقدره وقضاه «**تَرَدُّدِي عَنْ قَبْضِ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ**» وانتبه هنا رعاك الله لا يخطر ببالك التردد الذي تفهمه من صفة الإنسان الذي يليق به وبضعفه وبعجزه وبقلة علمه وقلة بصيرته، لأن الإنسان عندما يتردد في أمر أن يفعله أو لا يفعله يكون تردده مبني علىٰ جهل بالعواقب، وما يدري هل الأصلح كذا أو الأصلح كذا فتجده مترددا، ولهذا شُرع لنا إذا تردد الإنسان في أمر أو تحير أن يصلي صلاة الاستخارة ويفوض الأمر لمن أحاط بكل شيء علما، «**اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم؛ فإنك تعلم ولا أعلم وتقدر ولا أقدر وأنت علام الغيوب**»[1] يفوض الأمر إلىٰ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ. هذا تردد العبد وهو مبني علىٰ جهل بالعواقب، ولا يجوز بحال عندما تقرأ صفات الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أن تخطر في بالك أو تورد في ذهنك أوصاف المخلوقين لأن هذا باطل، فصفات الله جَلَّوَعَلَا التي أضافها إلىٰ نفسه تليق بجلاله وكماله، فنحن نثبت ما أثبته الله لنفسه وهو قوله: «**ما ترددت**» نثبت هذا كما أثبته الرسول عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ، وفي الوقت نفسه نثبت معه كمال العلم المحيط بما كان وما يكون وبما لَم يكن أن لو كان كيف يكون، وأنه

(١) رواه البخاري (١١٦٢).

عَزَّوَجَلَّ أحاط بكل شيء علما وأحصىٰ كل شيء عددا، نؤمن بذلك كله.

فإذًا التردد الذي ذكر هنا وأضافه الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ لنفسه في هذا الحديث القدسي ما معناه ؟ لأن رب العالمين منزه عن الجهل بالعواقب[١].

---

(١) قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إثبات التردد لله عَزَّوَجَلَّ علىٰ وجه الإطلاق لا يجوز، لأن الله تعالىٰ ذكر التردد في هذه المسألة: «مَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ»، وليس هذا التردد من أجل الشك في المصلحة، ولا من أجل الشك في القدرة علىٰ فعل الشيء، بل هو من أجل رحمة هذا العبد المؤمن، ولهذا قال في نفس الحديث: «يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ».

وهذا لا يعني أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ موصوف بالتردد في قدرته أو في علمه، بخلاف الآدمي فهو إذا أراد أن يفعل الشيء يتردد، إما لشكه في نتائجه ومصلحته، وإما لشكه في قدرته عليه: هل يقدر أو لا يقدر، أما الرب عَزَّوَجَلَّ فلا» «لقاء الباب المفتوح» (س١٣٦٩).

وَسُئِلَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«عَنْ قَوْلِهِ ﷺ فِيمَا يَرْوِي عَنْ رَبِّهِ عَزَّوَجَلَّ: «وَمَا تَرَدَّدْت عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ قَبْضِ نَفْسِ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَكْرَهُ مُسَاءَتَهُ» مَا مَعْنَىٰ تَرَدُّدِ اللهِ ؟

فَأَجَابَ: هَذَا حَدِيثٌ شَرِيفٌ قَدْ رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ وَهُوَ أَشْرَفُ حَدِيثٍ رُوِيَ فِي صِفَةِ الْأَوْلِيَاءِ وَقَدْ رَدَّ هَذَا الْكَلَامَ طَائِفَةٌ وَقَالُوا: إنَّ اللهَ لَا يُوصَفُ بِالتَّرَدُّدِ وَإِنَّمَا يَتَرَدَّدُ مَنْ لَا يَعْلَمُ عَوَاقِبَ الْأُمُورِ وَاَللهُ أَعْلَمُ بِالْعَوَاقِبِ، وَرُبَّمَا قَالَ بَعْضُهُمْ: إنَّ اللهَ يُعَامِلُ مُعَامَلَةَ الْمُتَرَدِّدِ.

وَالتَّحْقِيقُ: أَنَّ كَلَامَ رَسُولِهِ حَقٌّ وَلَيْسَ أَحَدٌ أَعْلَمَ بِاَللهِ مِنْ رَسُولِهِ وَلَا أَنْصَحَ لِلْأُمَّةِ مِنْهُ وَلَا أَفْصَحَ وَلَا أَحْسَنَ بَيَانًا مِنْهُ فَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ كَانَ الْمُتَحَذْلِقُ وَالْمُنْكِرُ عَلَيْهِ مِنْ أَضَلِّ النَّاسِ ؛ وَأَجْهَلِهِمْ وَأَسْوَئِهِمْ أَدَبًا بَلْ يَجِبُ تَأْدِيبُهُ وَتَعْزِيرُهُ وَيَجِبُ أَنْ يُصَانَ كَلَامُ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَنْ الظُّنُونِ الْبَاطِلَةِ ؛ وَالِاعْتِقَادَاتِ الْفَاسِدَةِ وَلَكِنَّ الْمُتَرَدِّدَ مِنَّا وَإِنْ كَانَ تَرَدُّدُهُ فِي الْأَمْرِ لِأَجْلِ كَوْنِهِ مَا يَعْلَمُ عَاقِبَةَ الْأُمُورِ لَا يَكُونُ مَا وَصَفَ اللهُ بِهِ نَفْسَهُ بِمَنْزِلَةِ مَا يُوصَفُ بِهِ الْوَاحِدُ مِنَّا فَإِنَّ اللهَ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ لَا فِي ذَاتِهِ وَلَا فِي صِفَاتِهِ وَلَا فِي أَفْعَالِهِ ثُمَّ هَذَا بَاطِلٌ ؛ فَإِنَّ الْوَاحِدَ مِنَّا يَتَرَدَّدُ تَارَةً لِعَدَمِ الْعِلْمِ بِالْعَوَاقِبِ وَتَارَةً لِمَا فِي الْفِعْلَيْنِ مِنْ الْمَصَالِحِ وَالْمَفَاسِدِ فَيُرِيدُ الْفِعْلَ لِمَا فِيهِ مِنْ الْمَصْلَحَةِ وَيَكْرَهُهُ لِمَا فِيهِ مِنْ الْمَفْسَدَةِ لَا لِجَهْلِهِ مِنْهُ بِالشَّيْءِ الْوَاحِدِ الَّذِي يُحِبُّ مِنْ وَجْهٍ وَيَكْرَهُ مِنْ وَجْهٍ كَمَا قِيلَ:

=

قال مبينا معناه في الحديث نفسه: «**وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ قَبْضِ نَفْسِ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ المَوْتَ وَأَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ، وَلَابُدَّ لَهُ مِنْهُ**» هذا هو التردد: أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ فاعل شيء وهو قبض روح المؤمن، والعبد يكره الموت والله عَزَّوَجَلَّ يكره مساءة العبد، قال «**وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ قَبْضِ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ**» يعني فاعل ذلك سيقبض الله روحه، لكن قال: «**يَكْرَهُ المَوت**» والله يكره المساءة فهذا معنىٰ التردد في الحديث.

ولا يصح لإنسان أن يقول: «لا يجوز أن يُثبت هذا لله لأن التردد يعني الجهل بالعواقب والله منزه عن ذلك»، فيكون قائل هذه الكلمة جمع بين سيئتين: التشبيه

=

الشَّيْبُ كُرْهٌ وَكُرْهٌ أَنْ أُفَارِقَهُ ... فَاعْجَبْ لِشَيْءٍ عَلَىٰ الْبَغْضَاءِ مَحْبُوبُ

وَهَذَا مِثْلُ إِرَادَةِ الْمَرِيضِ لِدَوَائِهِ الْكَرِيهِ بَلْ جَمِيعُ مَا يُرِيدُهُ الْعَبْدُ مِنْ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ الَّتِي تَكْرَهُهَا النَّفْسُ هُوَ مِنْ هَذَا الْبَابِ وَفِي الصَّحِيحِ: «حُفَّتْ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ وَحُفَّتْ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ»، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ الْآيَةَ ، وَمِنْ هَذَا الْبَابِ يَظْهَرُ مَعْنَىٰ التَّرَدُّدِ الْمَذْكُورِ فِي هَذَا الْحَدِيثِ فَإِنَّهُ قَالَ: «لَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّىٰ أُحِبَّهُ»، فَإِنَّ الْعَبْدَ الَّذِي هَذَا حَالُهُ صَارَ مَحْبُوبًا لِلْحَقِّ مُحِبًّا لَهُ يَتَقَرَّبُ إلَيْهِ أَوَّلًا بِالْفَرَائِضِ وَهُوَ يُحِبُّهَا ثُمَّ اجْتَهَدَ فِي النَّوَافِلِ الَّتِي يُحِبُّهَا وَيُحِبُّ فَاعِلَهَا فَأَتَىٰ بِكُلِّ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنْ مَحْبُوبِ الْحَقِّ ؛ فَأَحَبَّهُ الْحَقُّ لِفِعْلِ مَحْبُوبِهِ مِنْ الْجَانِبَيْنِ بِقَصْدِ اتِّفَاقِ الْإِرَادَةِ بِحَيْثُ يُحِبُّ مَا يُحِبُّهُ مَحْبُوبُهُ وَيَكْرَهُ مَا يَكْرَهُهُ مَحْبُوبُهُ، وَالرَّبُّ يَكْرَهُ أَنْ يَسُوءَ عَبْدَهُ وَمَحْبُوبَهُ فَلَزِمَ مِنْ هَذَا أَنْ يَكْرَهَ الْمَوْتَ لِيَزْدَادَ مِنْ محاب مَحْبُوبِهِ ، وَاللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ قَدْ قَضَىٰ بِالْمَوْتِ فَكُلُّ مَا قَضَىٰ بِهِ فَهُوَ يُرِيدُهُ وَلَا بُدَّ مِنْهُ فَالرَّبُّ مُرِيدٌ لِمَوْتِهِ لِمَا سَبَقَ بِهِ قَضَاؤُهُ وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ كَارِهٌ لِمُسَاءَةِ عَبْدِهِ ؛ وَهِيَ الْمُسَاءَةُ الَّتِي تَحْصُلُ لَهُ بِالْمَوْتِ فَصَارَ الْمَوْتُ مُرَادًا لِلْحَقِّ مِنْ وَجْهٍ مَكْرُوهًا لَهُ مِنْ وَجْهٍ وَهَذَا حَقِيقَةُ التَّرَدُّدِ وَهُوَ: أَنْ يَكُونَ الشَّيْءُ الْوَاحِدُ مُرَادًا مِنْ وَجْهٍ مَكْرُوهًا مِنْ وَجْهٍ وَإِنْ كَانَ لَا بُدَّ مِنْ تَرَجُّحِ أَحَدِ الْجَانِبَيْنِ كَمَا تَرَجَّحَ إرَادَةُ الْمَوْتِ ؛ لَكِنْ مَعَ وُجُودِ كَرَاهَةِ مُسَاءَةِ عَبْدِهِ وَلَيْسَ إرَادَتُهُ لِمَوْتِ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يُحِبُّهُ وَيَكْرَهُ مُسَاءَتَهُ كَإِرَادَتِهِ لِمَوْتِ الْكَافِرِ الَّذِي يُبْغِضُهُ وَيُرِيدُ مُسَاءَتَهُ» «مجموع الفتاوىٰ» (١٢٩/١٨).

أولا والتعطيل ثانيا، أولًا شبَّه التردد الذي أضيف إلىٰ الله بالتردد الذي يُعهد في المخلوق، ثُم بنىٰ علىٰ هذا التشبيه تعطيل ما أثبته الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لنفسه، وهذه طريقة باطلة جمعت بين سوءتين، والسلامة في هذا الباب أن نثبت لله ما أثبته سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لنفسه علىٰ الوجه اللائق بجلاله وكماله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

وإذا أردت أن تتأمل هذا المعنىٰ في أقوىٰ صوره فلتتأمل في قبض الله جَلَّوَعَلَا لروح عبده ورسوله محمد ﷺ، ولهذا نبه عَلَيْهِالصَّلَاةُوَالسَّلَامُ علىٰ هذا المعنىٰ وأشار إليه عندما قال: «**إِذَا أُصِيبَ أَحَدُكُمْ بِمُصِيبَةٍ، فَلْيَذْكُرْ مُصِيبَتَهُ بِي فَإِنَّهَا أَعْظَمُ الْمَصَائِبِ عِنْدَهُ**»(١)، فقبَض الله عَزَّوَجَلَّ روح عبده ورسوله ﷺ وخليله صلوات الله وسلامه عليه وحُمل عَلَيْهِالصَّلَاةُوَالسَّلَامُ ميتًا ووُضع في الأرض ودُفن في التراب صلوات الله وسلامه عليه وهو خليل الرحمن عَلَيْهِالصَّلَاةُوَالسَّلَامُ.

* * *

(١) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٩٦٧٧)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٦٧١٨)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١١٠٦).

[إثبات نزول الله تعالى إلى سماء الدنيا]

٢٦- وَعَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَىٰ سَمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَىٰ ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ يَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟! مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟! وَمَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟!**». **مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ**[١].

ثُم أورد المصنف رَحِمَهُٱللَّهُ هذا الحديث العظيم أيضًا في باب معرفة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وأن مما نعرف الله به أنه ينزله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ كل ليلة إلىٰ سماء الدنيا كما أخبر بذلك الرسول الكريم عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ.

وهذا الحديث حديثٌ متواتر رواه عن النبي ﷺ قرابة الثلاثين صحابيا كلهم سمعوه عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ يقول هذا، يقول: «**ينزل ربنا**» فأثبت النزول وأضافه إلىٰ الله جَلَّوَعَلَا، والإمام ابن القيم رَحِمَهُٱللَّهُ في كتابه «**الصواعق المرسلة**» قال: «**قوله: (ينزل ربنا كل ليلة إلىٰ سماء الدنيا فيقول) في نحو ثلاثين حديثا كلها مصرحة بإضافة النزول إلىٰ الرب ولم يجئ موضع واحد بقوله: (ينزل ملك ربنا) حتىٰ يحمل ما خرج عن نظائره عليه**»[٢].

يقول: «**ينزل ربنا**» يضيف النزول إلىٰ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

وهنا أيضًا ينبغي أن تنتبه إلىٰ ما سبق بيانه وإيضاحه في الصفات التي تضاف إلىٰ الله جَلَّوَعَلَا تخصه وتليق به، وإذا خطر ببالك اللوازم التي تلزم صفة المخلوق فثق تَامًا واعلم يقينًا أن رب العالمين منزه عن ذلك، فعندما تنظر في نزول المخلوق

---

(١) رواه البخاري (١١٤٥)، ومسلم (٧٥٨).

(٢) «الصواعق المرسلة» (١/ ٣٨٧).

تجد أن نزول المخلوق يلزمه لوازم كثيرة تعرفها أنت من نزولك ونزول غيرك من الناس، هذه لوازم المخلوق ومن الباطل والفساد والضلال أن تضاف اللوازم التي تخص المخلوق إلىٰ الخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فعليك هنا عندما تقرأ هذا الحديث وأمثاله أن تثبت الصفة لله جَلَّ وَعَلَا علىٰ الوجه اللائق بجلاله، وإياك وأن تشبه الله عَزَّ وَجَلَّ في صفاته أو في شيء منها بصفات المخلوقين أو بشيء من صفاتهم.

فهنا يقول: «**ينزل ربنا**» نحن أيضًا نقول كما قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**يَنْزِلُ رَبُّنَا** تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ **كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَىٰ سَمَاءِ الدُّنْيَا**»، نقول كما قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وكما نقل الصحابة الكرام رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، خلافا لأهل البدع ممن جحدوا ذلك ونفوه وعطلوا هذه الصفة وقالوا بكل صراحة النزول لا يليق به، هكذا قالوا وكأنهم أعلم بالله من رسول الله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ!

الرسول ﷺ يخبر عن ربه عَزَّ وَجَلَّ أنه ينزل وهم يأتون فيما بعد ويقولون النزول لا يليق به، ثُم ماذا يذكرون؟! يذكرون اللوازم التي تلزم نزول المخلوق وبناءً عليها بحثوا نزول الخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فجمعوا بين المساءتين مساءة التشبيه ومساءة التعطيل، ولو سلموا من التشبيه لسلموا من التعطيل.

ولهذا لما قال رجل للإمام مالك بن أنس رَحِمَهُ ٱللَّهُ إمام دار الهجرة: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ كيف استوىٰ؟ غضب رَحِمَهُ ٱللَّهُ غضباً شديداً حتّىٰ إن جسمه تصبب عرقًا تعظيمـًا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ علته الرُحضاء؛ أي: تصبب عرقـًا، وقال كلمته العظيمة المشهورة؛ قال: «الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة»[1].

---

(١) رواه أبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٣٢٥)، والصابوني في «عقيدة السلف أصحاب الحديث» (ص٣٨)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٢/ ٣٠٤)، وانظر: طرق هذه القصة والكلام عنها في كتاب شيخنا عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظه الله: «الأثر المشهور عن الإمام مالك في صفة الاستواء دراسة تحليلية» وهو مطبوع ضمن العددين (١١١، ١١٢) ، من «مجلة الجامعة الإسلامية».

«**ينزل ربنا**» النزول هنا أضيف إلىٰ الله وأسند إليه، فالذي ينزل هو الله، قال المعطلة لهذه الصفة والمشتغلون بتعطيل الصفات: ليس النزول نزول الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وإنما النزول نزول ملك، قالوا والمعنىٰ في قوله «ينزل ربنا» ينزل ملك ربنا، قالوا فيه محذوف مقدر، والمحذوف المقدر لم يكتشفه إلا هؤلاء في عصور متأخرة!! النبي ﷺ ما ذكره والصحابة ما ورد علىٰ ألسنتهم والتابعون لهم بإحسان لم يأت علىٰ ألسنتهم حتىٰ جاء زمن أولئك واكتشفوا هذا المحذوف المقدر!! قالوا: هناك محذوف مقدر تقديره ملك ربنا، فنقول لهم: إذا وضعتم هذه الزيادة في الحديث ماذا سيكون معنىٰ الحديث؟ أكملوا الآن الحديث حتىٰ تعرفوا فساد ما عليه هؤلاء، أكملوا الحديث وأضيفوا هذا المحذوف المقدر الذي قاله هؤلاء وانظروا كيف يصير المعنىٰ: «ينزل ملك ربنا إلىٰ سماء الدنيا كل ليلة فيقول: من يسألني فأعطيه من يدعوني فأستجيب له من يستغفرني فأغفر له؟!»، إذًا الملك ادَّعىٰ نفسه أنه إله من دون الله! بزعمهم، ينزل كل ليلة وليس ليلة واحدة كل ليلة ينزل ويدَّعي أنه إله يقول: من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له؟ من يدعوني فأستجيب له؟ والله عَزَّوَجَلَّ قال في القرآن: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ﴾ [الأنبياء: ٢٩]، فهؤلاء ترتب علىٰ مقالهم هذا اللازم.

وجاء في بعض ألفاظ هذا الحديث في بعض طرقه أن الله عَزَّوَجَلَّ يقول: «**ينزل ربنا إلىٰ سماء الدنيا كل ليلة في ثلث الليل الآخر فيقول: لا أسأل عن عبادي أحدًا غيري**»[(١)]، أيضًا إذا أضيف هذا المحذوف المدعىٰ وقيل: «ينزل ملك ربنا كل ليلة إلىٰ سماء الدنيا فيقول لا أسأل عن عبادي أحدا غيري» فهذا يبين لك فساد هذا الكلام،

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (١٦٢١٨)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٤٥٥٨)، وابن حبان (٢١٢)، وصححه الألباني في «التعليقات الحسان» (٢١٢).

ويريدون أن يفروا من شيء ويقعون في شر منه، فالسلامة لا تكون إلا بالوقوف علىٰ قدم التسليم، وأن يثبت الإنسان لله ما أثبته لنفسه وما أثبته له رسوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ من صفات الكمال ونعوت الجلال، ويثبت ذلك لله علىٰ الوجه اللائق به.

ثُم هذا الحديث فيه ما في قبله من الارتباط بين العقيدة والعمل؛ فأخبر عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أن الله ينزل في ثلث الليل الآخر ثُم نبه علىٰ الجد والاجتهاد في ذاك الوقت في العمل بالسؤال والدعاء والاستغفار: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧]، ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٨]، وبالصلاة وبذكر الله جَلَّ وَعَلَا ودعائه وهذا عمل يترتب علىٰ قوة إيمان العبد واستحضاره لهذا المعنىٰ الجليل وهذه العقيدة العظيمة الثابتة في هذا الحديث.

وبهذا أيضًا تدرك أمرا نبه عليه العلماء وهو: أن تعطيل الصفات وجحدها وتأويلها شؤم علىٰ الإنسان في أعماله وتعطيل له في طاعته لربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فالشاهد أن هذا الحديث مما يرشد إليه ويدل عليه في معرفتنا بربنا سبحانه أنه ينزل كل ليلة في ثلث الليل الآخر ويقول: من يسألني؟ من يدعوني؟ من يستغفرني؟؛ في هذا الوقت الفاضل وهو وقت إجابة الدعاء يتفضل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيه بالنزول إلىٰ سماء الدنيا نزولا يليق بجلاله وكماله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وعظمته، الله أعلم بكيفيته، فهذا يحرك في العبد إقبالا علىٰ الطاعة والذكر والاستغفار والدعاء في هذا الوقت الفاضل العظيم.

❊ ❊ ❊

٢٧- وَعَنْ أَبِي مُوسَىٰ الأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**جَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَمَا بَيْنَ القَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ إِلَّا رِدَاءُ الْكِبْرِيَاءِ عَلَىٰ وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ**». رَوَاهُ البُخَارِيّ(١).

ثُم ختم هذا الباب رَحِمَهُ اللَّهُ بهذا الحديث الذي فيه بيان معرفة الله عَزَّوَجَلَّ ببيان ما أعده لأوليائه وعباده وما هيأ لهم من النُّزل في دار كرامته عَزَّوَجَلَّ؛ فذكر هذا الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «**جَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا**»؛ فهذا الحديث فيه التفاوت في نعيم الجنة وقد قال الله: عَزَّوَجَلَّ ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ۖ﴾ [الأحقاف: ١٩]، في الحديث الآخر قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم، كما تتراءون الكوكب الدري الغابر من الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم**»(٢)، والقرآن فيه إشارة إلىٰ التفاضل في الجنان والتمايز بينها؛ قال الله: عَزَّوَجَلَّ ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦]، ثُم ذكر أوصاف هاتين الجنتين، ثُم قال بعدها: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٢]، وذكر أوصافهما، وفي سورة الواقعة ذكر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أوصاف جنة المقربين وذكر أيضًا بعد ذلك أوصاف جنة أصحاب اليمين، فهي جنان متفاوتة ومتفاضلة ليست علىٰ درجة واحدة في الآنية، في الطعام، وفي الأُكل وفي الأنهار، وفيما أعده الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من النزل والكرامة لأهلها، ولهذا نصح عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عباد الله نصيحة عظيمة قال: «**فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس**»(٣)؛ هذه نصيحة لعباد الله، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ عن هذا الناصح الأمين صلوات الله وسلامه عليه ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْۖ﴾ [الأحزاب: ٦]، ولهذا بعض

---

(١) رواه البخاري (٧٨٤٨)، ومسلم (١٨٠).

(٢) رواه البخاري (٣٢٥٦) ومسلم (٢٨٣١).

(٣) رواه البخاري (٢٧٩٠).

العوام قد يفوتهم هذا فربما يقول: «يا رب أدخلني الجنة ولو عند الباب»، فما ينصح لنفسه، فانظر لكلام النبي ﷺ: «**فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس؛ فإنه أوسط الجنة، وأعلىٰ الجنة، أراه فوقه عرش الرحمن**»، فنصح عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كل عبد من عباد الله أن يقبل علىٰ الله بصدق واجتهاد وسؤال وإلحاح علىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وليس عزيز علىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يكرم عبده بعالي الدرجات ورفيع المنازل، فالعبد يجتهد ويسأل ربه الكريم ويتوجه إليه عَزَّوَجَلَّ بالأعمال الصالحة والدعوات والإقبال علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ حتىٰ يلقىٰ الله عَزَّوَجَلَّ وينال هذا الثواب العظيم.

ثُم ذكر أكبر نعيم وأعظمه مما يناله أهل الجنة في الجنة قال: «**وَمَا بَيْنَ القَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ إِلَّا رِدَاءُ الْكِبْرِيَاءِ عَلَىٰ وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدَنٍ**» وهذا فيه إثبات الكبرياء صفة لله كما يبين ذلك الحديث الذي في «**الصحيح**» يقول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ««**الْعِزُّ إِزَارُهُ، وَالْكِبْرِيَاءُ رِدَاؤُهُ، فَمَنْ يُنَازِعُنِي عَذَّبْتُهُ**»[(١)]، فالله عَزَّوَجَلَّ من صفاته الكبرياء ومن صفاته العظمة، وقد كان عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يقول في ركوعه «**سبحان ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة**»[(٢)].

قال: «**وَمَا بَيْنَ القَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ إِلَّا رِدَاءُ الْكِبْرِيَاءِ عَلَىٰ وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدَنٍ**» ومما يوضح هذا أيضًا ما جاء في الحديث الذي في «**صحيح مسلم**» قال: «**فيكشف الحجاب، فما أُعطوا شيئًا أحب إليهم من النظر إلىٰ ربهم عَزَّوَجَلَّ**»[(٣)]. ما ذكُر في هذا الحديث هو معنىٰ قوله سبحانه: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]. فالحسنىٰ: الجنة، والزيادة: النظر إلىٰ وجه الله الكريم.

❋ ❋ ❋

---

(١) رواه مسلم (٢٦٢٠).

(٢) رواه أبو داود (٨٧٣)، والنسائي (١١٢٠)، وصححه الألباني في «صحيح أبي داود» (٧٧٦).

(٣) رواه مسلم (١٨١).

بَابُ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى:
﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾

٢٨- عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: حَدَّثَنِي رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ مِنَ الأَنْصَارِ أَنَّهُمْ بَيْنَمَا هُمْ جُلُوسٌ لَيْلَةً مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِذْ رُمِيَ بِنَجْمٍ فَاسْتَنَارَ فَقَالَ: «**مَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ إِذَا رُمِيَ بِمِثْلِ هَذَا؟**» قَالُوا: كُنَّا نَقُولُ: وُلِدَ اللَّيْلَةَ عَظِيمٌ، أَوْ مَاتَ عَظِيمٌ، فَقَالَ: «**إِنَّهَا لَمْ تُرْمَ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ، وَلَكِنَّ رَبَّنَا عَزَّ وَجَلَّ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا سَبَّحَتْ حَمَلَةُ الْعَرْشِ حَتَّىٰ يُسَبِّحَ أَهْلُ السَّمَاءِ الَّذِينَ يَلُونَهُم حَتَّىٰ يَبْلُغَ التَّسْبِيحُ أَهْلَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَقُولُ الَّذِينَ يَلُونَ حَمَلَةَ الْعَرْشِ: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ فَيُخْبِرُونَهُمْ مَاذَا قَالَ، فَيَسْتَخْبِرُ أَهْلُ السَّمَوَاتِ بَعْضُهُمْ بَعْضًا حَتَّىٰ يَبْلُغَ الخَبَرُ أَهْلَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَتَخْطَفُ الجِنُّ السَّمْعَ، فَيُلْقُونَهُ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ، فَمَا جَاءُوا بِهِ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَهُوَ الحَقُّ، وَلَكِنَّهُمْ يَقْرِفُونَ وَيَزِيدُونَ**». رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ[1].

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ «بَابُ قَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣]»؛ هذه الآية جاءت لبيان وجوب توحيد الله عَزَّ وَجَلَّ وإخلاص الدين له وإفراده عَزَّ وَجَلَّ بالعبادة، وبطلان الشرك واتخاذ الأنداد الذين يُدعون وتصرف لهم العبادة من دون الله جَلَّ وَعَلَا. فهذه الآية جاءت مقررة لتوحيد الله مبطلة للشرك، وفهم هذه الآية يتطلب التأمل في الآيتين اللتين قبلها.

---

(١) رواه مسلم (٢٢٢٩)، والترمذي (٣٢٢٤)، والنسائي في «السنن الكبرىٰ» (١١٢٧٢).

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُواْ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾؛ فالسياق من أوله جاء لتقرير التوحيد وإبطال الشرك؛ إبطال اتخاذ الأنداد الذين يدعون من دون الله عَزَّوَجَلَّ، بل إن هذه الآيات كما نبه العلماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ من أعظم الآيات التي تبطل الشرك، بل قال بعض العلماء: إنها تقطع شجرة الشرك من عروقها وتجتثها من أصولها، بحيث إنها لا تبقي لمشركٍ متعلَّق ولا تبقي لمندد متمسَّك فهي تجتث الشرك من أصله وتقتلعه من عروقه، ومَن تدبر هذه الآيات وفهمها نفعه الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بها نفعا عظيما في إبطال الشرك ودحضه وتقرير التوحيد وتأصيله.

وقد بيَّن العلماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ وجه دلالة هذه الآية علىٰ اجتثاث شجرة الشرك واقتلاعها من عروقها؛ أن ما يتمسك به المشرك في دعائه لغير الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وسؤاله لغيره جَلَّ وَعَلَا لا يخرج عن أمور جاءت هذه الآية مبطلةً لها واحدًا تلو الآخر، فلم تُبق لمشرك متعلق أو متمسك، ذلك أن من يُدعىٰ من دون الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لابد أن يكون متصفًا بصفاتٍ إن وجدت فيه استحق أن يُدعىٰ وإلا فإن دعاءه باطل وضلال، وهذه الصفات جاءت هذه الآيات مبطلة لها واحدًا تلو الآخر.

❖ الأمر الأول: أن من يُدعىٰ من دون الله يستحق أن يدعىٰ لو كان يملك في هذا الكون ولو قدرًا يسيرًا أو شيئًا ضئيلًا ولو مثقال ذرة ملكًا استقلاليًّا، فلو وُجد أحد بهذه الصفة فإنه يستحق أن يُدعىٰ لهذا الملك الاستقلالي، ومعنىٰ ملكًا استقلاليًّا أي ملَكه بدون أن يملكه الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ إياه وإنما استقل هو بملكه وانفرد به، فأبطل الله عَزَّوَجَلَّ هذا الأمر الأول بقوله: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ

﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾، فكل من يُدعىٰ من دون الله من الملائكة أو الأنبياء أو الأولياء أو غيرهم لا يملكون مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض؛ أي مُلكًا استقلاليا بدون أن يملكهم الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ إياه، والله يقول: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦]، هذا الأمر الأول أُبطل.

الأمرُ الثاني: احتمال آخر إن وجد في أحد استحق أن يُدعىٰ؛ وهو أن يكون شريكا للمالك في ملكه أو في شيء من ملكه، فلو وُجد بهذه الصفة شريك للمالك للرب في ملكه أو في شيء من ملكه استحق أن يُدعىٰ لهذه الشركة التي له مع المالك؛ فأبطل الله عَزَّوَجَلَّ هذا الاحتمال الثاني بقوله: سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾؛ «وما لهم» أي من يُدعَون من دون الله؛ «فيهما» أي السماوات والأرض، «من شرك»، أي من مشاركة، فليس لمن يُدعىٰ من دون الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أي مشاركة في السماوات ولا في الأرض، فهو لا يملك شيئا استقلاليا، وليس له أيضًا شيء في السماوات والأرض علىٰ وجه المشاركة مع المالك في ملكه ولو في جزء يسير، فأبطل الله عَزَّوَجَلَّ هذا الاحتمال الثاني.

الاحتمال الثالث: إن لم يكن مالكًا ولَم يكن شريكًا للمالك في ملكه هناك احتمال ثالث إن وُجد فيمن يدعىٰ من دون الله استحق أن يُدعىٰ لوجود هذه الصفة فيه وهي: أن يكون معاونًا للمالك، ليس مالكًا ولا شريكًا للمالك ولكنه معاون للمالك وظهير ومساعد، فإذا وُجد أحد بهذه الصفة استحق أن يدعىٰ؛ فأبطل الله عَزَّوَجَلَّ ذلك بقوله: ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾، «وما له» الضمير يعود إلىٰ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، «منهم» أي ممن يدعون من دونه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، «من ظهير»، أي من معاون ومساعد ووزير ونحو ذلك، فهذا أمر نفاه الله قال: ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾.

إذًا بطلت احتمالات ثلاثة أبطلها الله عَزَّوَجَلَّ واحدًا تلو الآخر حسب أهميتها ومكانتها؛ نفىٰ أولًا أن يكون أحد مالكا لشيء في السماوات ولا في الأرض ملكا استقلاليا، ثُم أتبع ذلك بنفي وجود مشارك لله عَزَّوَجَلَّ في شيء من الملك ولو في قدر يسير، ثُم أتبع ذلك بنفي الظهير أو المعين أو الوزير بقوله ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾.

يبقىٰ بعد هذه الاحتمالات الثلاثة احتمال رابع إن وُجد فإن من يوجد فيه هذا الوصف يستحق أن يدعىٰ فأبطله الله عَزَّوَجَلَّ وهو: الشفيع الذي يشفع عند المالك ابتداءً، أي بدون إذن المالك، مثل شأن الناس الوجهاء والذين لهم مكانة عند أصحاب السلطة ولهم مكانة أيضًا وثِّقل في المجتمع فيستغل مكانته وجاهه ومنصبه فيدخل في الوقت الذي شاء ويشفع فيمن شاء ويطلب مستغلًا جاهه وهيبته ومكانته بدون إذن، ولهذا قال العلماء: إن المشركين في اتخاذهم الشفعاء شبَّهوا الله عَزَّوَجَلَّ بملوك الدنيا الذين يدخل عندهم الشفعاء بدون إذن وبدون استئذان ويطالب لفلان بكذا ولفلان بكذا ويرضخ الوالي أو السلطان لأمرهم تقديرًا لمكانته أو خوفا من منزلته أو نحو ذلك فيعطيه ما أراد ولا يردُّه فيما طلب خوفا أو هيبة أو طمعا أو نحو ذلك من الأمور التي توجد.

فنفىٰ الله عَزَّوَجَلَّ الشفيع الذي هو بدون إذن المالك سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ. وقد كان المشركون يعتقدون في أصنامهم أن لها مكانة عند الله فتشفع لمن شاءت وتقرب من شاءت إلىٰ الله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ؛ ولهذا يتعلقون بها ويبكون عندها وترق قلوبهم ويسألونها ويرجونها لأنها تَلك شفاعةً عند المالك تقرب من شاءت منه ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] أي: أنها عندها استطاعة وقدرة بأن تشفع لنا عند الله فتدنينا وتقربنا منه، وهذا شيء تملكه بزعمهم، فأبطل الله

سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ هذا المتعلق الرابع بقوله: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾.

فما بقي لمشرك متعلق، ومن يدعو غير الله بماذا يتعلق ؟ هذا الذي يتجه إليه بالدعاء والسؤال والطلب والإلحاح والذل بماذا يتعلق؟ هو ليس مالكا، ولا شريكا للمالك، ولا عوينا للمالك، ولا يستطيع أن يشفع عند المالك بدون إذن؛ فلماذا يتعلق به؟! فإذًا الآية كما وصف العلماء رَحِمَهُمُٱللَّهُ اجتثت شجرة الشرك من عروقها واقتلعتها من أصولها بحيث إنه لم يبقَ لمشرك متعلق.

ثُم في هذا السياق العظيم جاء هذا الموضع الذي جعله المصنف رَحِمَهُٱللَّهُ هنا عنوانًا للترجمة وهو قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾؛ فهمت السياق ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ من هم ؟ السياق الآن في إبطال الشرك وإبطال دعاء غير الله ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وممن يُدعون من دون الله ويُلتجأ إليهم من دون الله ملائكة الله، في أثناء هذا السياق أيضا الذي جاء لإبطال الشرك بيَّن رب العالمين سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ حال هؤلاء الملائكة الذين هم أعظم المخلوقات أجسامًا وقوة وقدرة أن حالهم إذا تفكر فيها المتفكر وتأمل فيها المتأمل حالهم مع الله تكشف كشفا واضحا وتبين بيانا جليا أن العبادة لا يستحقون منها ولا ذرة، لا يستحقون منها شيئا، وأن العبادة حق لمن خلقهم وأوجدهم، وأن حالهم مع الخالق العظيم سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ هي حال ضعف وحال فزع وحال خوف، مع قوتهم وما آتاهم الله عَزَّوَجَلَّ من البسطة في الأجسام والقوة والقدرة كل هذه الأمور ليست مخوِّلة لأن يصرف لهم شيء من العبادة لأنهم عباد لله عَزَّوَجَلَّ، عباد مكرمون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، ورب العالمين يقول في شأن هؤلاء الملائكة: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٢٩]، فهم عباد لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وحالهم مع الله جَلَّوَعَلَا حال ضعف.

والمسلم إذا جمع في هذا الموضع بين نظرين:

- **النظر الأول**: تتفكر في حال الملائكة من حيث ضخامة الأجساد والقوة والقدرة التي آتاهم الله.
- **والنظر الثاني**: تأمل أيضًا في حالهم مع الله تجدها حال خشية خوف وفزع والتجاء إلىٰ الله: تسبيح وتضرع.. هذه حالهم مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عبادٌ لله عَزَّوَجَلَّ لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

النظر الأول يستعان فيه بالآيات والأحاديث التي تصوِّر حال الملائكة، الملائكة أعطاهم الله عَزَّوَجَلَّ من كبر الأجسام ومن القوة والقدرة شيء لا يخطر ببال، منحهم الله عَزَّوَجَلَّ أمورًا وأقدرهم علىٰ أشياء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ والأمر بيده سبحانه، ولهذا تأتي أحاديث كثيرة تندهش عندما تقرأها في بيان ما يتعلق بأجسام الملائكة وكبرها، أو ما يتعلق بقوة الملائكة وقدرتهم وما آتاهم الله عَزَّوَجَلَّ من أمور؛ فعلىٰ سبيل المثال ما جاء في الحديث الصحيح أن النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قال: «**أذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله من حملة العرش؛ إن ما بين شحمة أذنه إلىٰ عاتقه مسيرة سبعمائة عام**»[(١)] يعني لو أن طيرا أراد أن يطير من العاتق إلىٰ شحمة الأذن يحتاج إلىٰ سبعمائة سنة طيران حتّىٰ يصل إلىٰ شحمة الأذن، فهذه المسافة ما بين شحمة الأذن إلىٰ العاتق فما هي المسافة بين بقية أجزاء بدنه ؟ هذه ضخامة في الأجسام، وأيضا ما أعطاهم الله عَزَّوَجَلَّ من قوة فأحد الملائكة يحمل قرية بكاملها بما فيها من سكان ويقلبها رأسا علىٰ عقب «لو شئت لأطبقت عليهم الأخشبين»[(٢)] جبلين يطبقهما علىٰ من فيهما، أعطاهم الله جَلَّوَعَلَا قدرة.

---

(١) رواه أبو داود (٤٧٢٧)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٥١).

(٢) رواه البخاري (٣٢٣١)، ومسلم (١٧٩٥).

فيتفكر الإنسان في هؤلاء الملائكة من جهة ما أعطاهم الله من القوة ومن القدرة، وأيضا تفكر في الجانب الثاني الذي لا ينبغي أن يغفل عنه وهو ذل هؤلاء الملائكة وانكسارهم بين يدي الله جَلَّوَعَلَا وضعفهم وافتقارهم إلىٰ الله وعدم غناهم عنه طرفة عين؛ فهذه المعاني لابد أن تكون حاضرة عند الإنسان، إذا غفل عن أن هؤلاء عباد لله مسخرون مربوبون مدبرون بتدبير الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ واعتقد فيهم أنهم أرباب من دون الله وقع فيما وقع فيه غيره من الشرك والاستنجاد بغير الله، إما ينظر إلىٰ قدرة من يدعوه أو ينظر إلىٰ قوته أو ينظر إلىٰ مكانته أو ينظر إلىٰ أمور أخرىٰ من هذا القبيل ويغفل عن جانب آخر كان يجب أن ينظر إليه وهو أنهم عباد لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ طوع أمره وتسخيره وتدبيره جَلَّوَعَلَا. فالآية تبين لك هذا المعنىٰ.

قال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ﴾ ما معنىٰ» فزع عن قلوبهم»؟ قال العلماء في كتب التفسير: أي زال الفزع عن قلوبهم، هذا الفزع متىٰ يحدث؟ يحدث كما سيأتي في الحديث الذي ساقه المصنف أن الله عَزَّوَجَلَّ عندما يتكلم بالوحي، فالملائكة الذين عرفتَ شيئا من أوصافهم وقوتهم وأجسامهم وضخامتهم وقدرتهم إذا تكلم الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بالوحي خرت صعقة، ويغشىٰ عليها تصعق خضعانًا لقوله وذلا وانكسارًا بين يديه تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، ثُم يصف الله عَزَّوَجَلَّ حال الملائكة عندما يزول عنهم الفزع الذي أصابه عندما تكلم الله جَلَّوَعَلَا بالوحي ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ﴾ أي: أزال الله عنهم الفزع الذي في قلوبهم ﴿قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ﴾ يسأل الملائكة بعضهم بعضا ماذا قال ربكم ؟ فيجيبون: ﴿قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾.

ويجب أن تنتبه هنا أن هذه الآية سيقت لإبطال الشرك، فإذا قرأت معها الآيتين قبلها فهمت أنها سيقت لإبطال الشرك، فكأنه يقال: هؤلاء الملائكة الذين آتاهم الله ما آتاهم من القوة والقدرة وضخامة الأجسام إلىٰ غير ذلك لا يستحقون من العبادة

شيئا، كأنه يقال لك: تأمل حالهم عندما يتكلم الله بالوحي؛ ما أن يتكلم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالوحي إلا وتخر الملائكة صعقة.. فهذا كله جاء لإبطال الشرك: ﴿قَالُواْ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾، حتىٰ ما خُتمت به الآية بذكر هذين الاسمين الكريمين هما أيضًا في تقرير التوحيد وإبطال الشرك، لأن العبادة حق للعلي الذي له العلو علو الذات وعلو القدر وعلو القهر، والكبير الذي لا أكبر منه.

وانتبه هنا لقوله ليست شيئا أمام عظمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وكبره، كبر الملائكة ضخامتها قدرتها قوتها ليست شيئا أمام قدرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فهي قدرة أقدرهم الله عليها وأجسام منحهم الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ إياها؛ فكيف يصرف لهم العبادة التي هي حق لله ولاُ يتوجه فيها لمن أعطاهم ولمن منحهم ولمن تفضل عليهم وهو رب العالمين الذي بيده تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أزمة الأمور.

فإذًا قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُواْ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ هذه الآية جاءت مقرِّرة للتوحيد مبينةً لعظمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وجلاله وكماله وأنه الرب المتصرف المالك المدبر وجميع المخلوقات عظمت أو صغرت طوع تدبيره وتسخيره جَلَّ وَعَلَا، لا خروج لأحد عن قدَره جَلَّ وَعَلَا وأمره، أمره نافذ وقدرته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ شاملة، لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه؛ فكل هذه المعاني العظيمة تبين للإنسان عظمة الله جَلَّ وَعَلَا وأنه وحده الذي يستحق أن يُصرف له الذل ويصرف له الخضوع وتصرف له العبادة بجميع أنواعها.

ثُم أورد رَحِمَهُ ٱللَّهُ حديث ابن عباس في صحيح مسلم وسنن الترمذي وسنن النسائي وهو من الأحاديث التي تبين معنىٰ الآية الكريمة، قال عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: «حدثنِا رجل من أصحاب النبي ﷺ من الأنصار أنهم بينما هم جلوس ليلة مع رسول الله ﷺ إذ رُمي بنجم. المراد بالنجم هنا: الشهب التي ترجم ويرمىٰ بها

الشياطين ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك: ٥]، فهذه النجوم أو هذه الشهب جعلها الله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ رجومًا للشياطين تُرجم بها، والمراد بالشياطين: أي الشياطين الذين يصعد بعضهم فوق بعض من أجل استراق السمع، أي: استراق الكلام الذي يدور بين الملائكة، وهذا الكلام الذي يدور بين الملائكة هو نتيجة تكلُّم الله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ بالوحي، فهو إذا تكلم بالوحي خرت الملائكة صعقة، ويكون أول من يفيق جبريل فيخبره سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ من وحيه بما يشاء، ثُم جبريل يخبر أهل السماء، ثُم أهل كل سماء يخبرون أهل السماء التي دونها إلىٰ أن يبلغ الأمر إلىٰ أهل السماء الدنيا من الملائكة؛ فيتحدثون بهذا الأمر، والشياطين تصعد بعضها فوق بعض من استراق كلمة واحدة، فهذا الصعود وهذه المغامرة يخاطرون بأرواحهم ويصعد الواحد فوق الواحد إلىٰ أن يقرب من السماء الدنيا حتىٰ يلتقطوا كلمة واحدة، ثُم قد يلتقط الكلمة وقد يضربه الشهاب قبل أن يلتقطها، وإذا التقط الكلمة ما ينزل بها بل هو متوقع أن الشهاب سيضربه قبل أن ينزل فيُلقيها إلىٰ الذي تحته مباشرة ومن تحته يلقيها، بحيث لو ضرب الأعلىٰ أو ضرب من هم في الأعلىٰ تكون الكلمة تنزلت، ويذهب ضحية هذه المخاطرة عدد منهم، يضربهم شهاب فيهلكون، كل هذا من أجل إضلال بني آدم وهم يدركون أن مخاطرتهم هذه لها ثمرات في إضلال الناس وصدهم عن دين الله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، فيأتون بهذه الكلمة إلىٰ الكاهن، فيمزج معها مئة كذبة، ثُم يبدأ يتكهن ويجعل من ضمن الأمور التي يقولها لهم هذا الأمر الذي وصله مما استرقه الْجن، فما الذي يحدث في الناس؟ قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في حديث آخر: «**فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِائَةَ كَذْبَةٍ فَيَصْدُقُ، فَيَقُولُونَ أَلَمْ**

يُخْبِرْنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا يَكُونُ كَذَا وَكَذَا، فَوَجَدْنَاهُ حَقًّا لِلْكَلِمَةِ الَّتِي سُمِعَتْ مِنَ السَّمَاءِ»(١) تبقىٰ هذه عالقة في أذهانهم ليروج من خلالها كذبه المتراكم، فيقولون: كان فعلا صادقا وكان الأمر علىٰ ضوء ما أخبر! فيذكرون صِّدقه وينسون كذبه؛ فتكون الفتنة في الناس ويكون تصديق الكهان والتعلق بالشياطين والانصراف إلىٰ غير الله عَزَّوَجَلَّ بالذل والخضوع وطلب الشفاء، هذا كله من مكر الشياطين وكيدهم ومن مصائدهم التي يضعونها لبني آدم لصدهم عن دين الله وعن عبادته سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

قال عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «**ما كنتم تقولون إذا رُمِي بمثل هذا ؟**» ما كنتم تقولون أي: في الجاهلية قبل أن يمنَّ الله عَزَّوَجَلَّ عليكم بالإسلام بهذا الدين العظيم؛ إذا رمي بهذه الشهب أي شيء كنتم تقولون ؟ «**قالوا كنا نقول: وُلِد الليلة عظيم أو مات عظيم**» هذه عقيدتنا دائما إذا رأينا الشهاب يرمىٰ قلنا وُلد عظيم هذه الليلة أو مات عظيم، فيجعلون رمي الشهاب دليل علىٰ موت عظيم أو ولادة عظيم، وانظر كيف صرفهم الشيطان عن الحكمة من رمي الشهب وشغَلهم بهذا الاعتقاد، وصرفهم الشيطان عن هذا الرمي ما هو مقصده وما المراد به؛ فماذا قال النبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ ؟ قال: «**إنها لم تُرمَ لموت أحد ولا لحياته**» هذه العقيدة التي تعتقدون عقيدة خاطئة لا أصل لها ولا صحة لها، ثم يبين عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ الصواب فقال: «**ولكن ربنا** عَزَّوَجَلَّ **إذا قضىٰ أمرا**» أي: من قضائه الكوني وأمَر بأمر ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

«**إذا قضىٰ أمرا سبحت حملة العرش**» سبَّحت الله عَزَّوَجَلَّ أي نزهته، لأن التسبيح هو التنزيه، فسبحت حملة العرش أي: قالوا: سبحان الله، يسبحون الله

(١) رواه البخاري (٤٧٠١).

جَلَّوَعَلَا، وهذا يفيدنا عظمة هذه الكلمة وجلالة قدرها وأنها كلمة من كلمات الدين العظيمة جدًّا.

قال: «سبحت حملة العرش» وهذا فيه الدليل علىٰ إثبات حملة العرش من الملائكة وثبوت هذا في القرآن ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾ [غافر: ٧].

«**سبحت حملة العرش حتَّىٰ يسبح أهل السماء الذين يلونهم**» يعني يسبح أهل السماء الذين يلون حملة العرش «**حتَّىٰ يبلغ التسبيح أهل السماء الدنيا، فيقول الذين يلون حملة العرش**» بعد هذا التسبيح الذي تداولوه كلهم إلىٰ أن نزل إلىٰ أهل السماء الدنيا «**فيقول الذين يلون حملة العرش: ماذا قال ربكم ؟**» أي: ماذا قال من الأمر الذي أمر به سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ «**فيُخبرونهم ماذا قال**» أي: يخبرونهم بالشيء الذي قاله الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ.

قال: «**فيستخبِر أي يسأل أهل السماوات بعضهم بعضًا حتىٰ يبلغ الخبر أهل السماء الدنيا؛ فتخطِف الجن السمع**» تُخطف: أي تلتقط السمع، وهم لا يلتقطون إلا شيئا يسيرا جدًّا، والله حمىٰ السماوات من استراقهم للسمع بالشهب التي تأتيهم من كل جهة، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿دُحُورٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ وَاصِبٌ ۝٩ إِلَّا مَنۡ خَطِفَ ٱلۡخَطۡفَةَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ ثَاقِبٞ﴾ [الصافات: ٩، ١٠]، فهم الشهب تأتيهم من كل جانب ومن كل جهة والسماء محمية بالشهب ولا يأخذون من السمع إلا الشيء اليسير، ولايزالون في مخاطرات متوالية، مخاطرة تلو مخاطرة وأرواح من أرواحهم تزهق كثيرة جدًّا ولا يبالون بذلك في سبيل أن يضل بني آدم.

قال: «**فتخطف الجن السمع فيلقونه إلىٰ أوليائهم**» أي: من الكهنة والسحرة والعرافين والمشعوذين وغيرهم من إخوان الشياطين «**فيلقونه إلىٰ أوليائهم، فما جاءوا به علىٰ وجهه فهو الحق**» يعني فهو حق مما التُقط، مما التقطه الجن واسترقوه

من السمع «**ولكنهم يقذفون ويزيدون**» أي: يقذفون فيه ويلقون فيه أشياء كثيرة ويزيدون فيه زيادة كبيرة والهدف من هذا كله إضلال بني آدم.

فهذا السياق المبارك العظيم بيَّن حال الملائكة وأنهم عندما يتكلم الله بالوحي أو بالقضاء فالملائكة تسبح وتعظم الله وتنزه الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وليس لها حول ولا قوة والأمر بيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ التدبير تدبيره والتسخير تسخيره، ولا يكون في ملكه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ شيء إلا ما شاءه وأراده، وأما الملائكة فليس بيدها شيء، مع ما آتاهم الله من القدرة والقدرة ليس بيدهم شيء أبدًا، الأمر كله بيد الله جَلَّ وَعَلَا.

* * *

٢٩- وَعَنِ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِذَا أَرَادَ اللهُ أَنْ يُوحِيَ بِالأَمْرِ تَكَلَّمَ بِالوَحْيِ أَخَذَتِ السَّمَوَاتُ مِنْهُ رَجْفَةٌ**، -أَوْ قَالَ: **رِعْدَةٌ**- **شَدِيدَةٌ خَوْفًا مِنَ اللهِ** عَزَّ وَجَلَّ، **فَإِذَا سَمِعَ ذَلِكَ أَهْلُ السَّمَوَاتِ صُعِقُوا**، -أَوْ قَالَ: **خَرُّوا للهِ سُجَّدًا**- **فَيَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَرْفَعُ رَأْسَهُ جِبْرَائِيلُ** عَلَيْهِ السَّلَامُ **فَيُكَلِّمُهُ اللهُ مِنْ وَحْيِهِ بِمَا أَرَادَ، ثُمَّ يَمُرُّ جِبْرَائِيلُ عَلَىٰ المَلَائِكَةِ، كُلَّمَا مَرَّ بِسَمَاءٍ سَأَلَهُ مَلَائِكَتُهَا: مَاذَا قَالَ رَبُّنَا يَا جِبْرَائِيلُ؟ فَيَقُولُ: قَالَ الحَقَّ وَهُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ، فَيَقُولُونَ كُلُّهُمْ مِثْلَ مَا قَالَ جِبْرَائِيلُ؛ فَيَنْتَهِي جِبْرِيلُ بِالْوَحْيِ إِلَىٰ حَيْثُ أَمَرَهُ اللهُ** عَزَّ وَجَلَّ». رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ خُزَيْمَةَ وَالطَّبَرَانِيُّ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَاللَّفْظُ لَهُ[(١)].

ثُم أورد المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ هذا الحديث حديث النواس بن سمعان وهو يفسر الآية ويبين معناها، والسنة شارحة للقرآن ومفسرة له؛ فيقول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**إذا أراد الله أن يوحي بالأمر تكلم بالوحي**» وهذا فيه إثبات الكلام لله عَزَّ وَجَلَّ، أنه جَلَّ وَعَلَا إذا أراد أن يوحي بالأمر تكلم بالوحي، والملائكة عباد لله عَزَّ وَجَلَّ وكل الله عَزَّ وَجَلَّ إليهم مهاما متنوعة؛ منهم من وكل بقبض الروح، منهم من وكل بالمطر، منهم من وكل بكتابة أعمال العباد، إلىٰ غير ذلك من الأمور التي وكلها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ للملائكة أو أمَر الملائكة بالقيام بتنفيذها.

«**إذا أراد الله أن يوحي بالأمر تكلم بالوحي أخذت السماوات منه رجفة**» أي: ترتجف السماوات إذا تكلم الله بالوحي وارتجفت أو ارتعدت شك الراوي «**أخذها رجفة أو رعدة**»، وهذا يبين لنا أن السماوات تحصل لها هذه الرعدة خوفا من الله

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٣٩٧)، وابن خزيمة في «التوحيد» (٢٠٦)، والطّبراني في «مسند الشاميين» (٥٩١)، وضعفه الألباني في «ظلال الجنة» (٥١٥).

وخشية منه سبحانه، فهذه السماوات الطباق مترامية الأطراف إذا تكلم الله بالوحي ارتعدت وأخذها رعدة خوفا من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، قال: «**فإذا سَمع ذلك أهل السماوات صعقوا**» أي: أصيبوا بالصعق عندما يسمعون ذلك، والسماوات ترتعد خوفا من الله عَزَّوَجَلَّ، والملائكة في هذه الحال يصعقون ويصابون بالصعق ويُغشىٰ عليهم.

قال: «**صعقوا أو قال خروا لله سجدا**» وجاء في بعض الأحاديث «**خضعانًا لقوله**» أي: خاضعين لقول الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ؛ هذه حال الملائكة: ذل وانكسار وخضوع وخشية وخوف من الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ يصعقون، وهذه حالهم بين يدي ربهم ومالكهم جَلَّوَعَلَا.

«**فيكون أول من يرفع رأسه جبريل** عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ» حتىٰ هو أيضًا يصاب بما يصاب به الملائكة؛ فيصاب بما يصاب الملائكة من الصعق والغشي لكنه يكون أول من يفيق.

«**فيكلمه الله من وحيه بما أراد**» فيسمع جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كلام الله من الله، فالذي يكلم جبريل من الوحي بما يشاء ليس إلا رب العالمين جَلَّوَعَلَا، الله هو الذي يكلمه، وجبريل يسمع كلام الله من الله بلا واسطة، يسمعه منه جَلَّوَعَلَا بحروفه وبصوته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ ولهذا من عقيدة أهل السنة والْجماعة أن الله عَزَّوَجَلَّ يتكلم بحرف وصوت، والذي يسمعه جبريل من الله هو كلمات بصوت يسمعه جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وهذا كلامٌ ثابت لله جَلَّوَعَلَا يليق بجلاله وكماله وعظمته، وما يقوله أهل البدع من أنه يلزم من هذا كذا ويوردون لوازم عقلية ينشئونها، ولكن هذا كله لا قيمة له، فهو كلام باطل نتيجته جحد ما أثبته الله وجحد ما أثبته رسوله ﷺ، والمسلم العاقل لا يلتفت إلىٰ كلام المتكلمين وخوض هؤلاء الخائضين في الله وفي صفاته

وأسمائه بغير علم، بل هذا كله يعرض عنه ولا يلتفت إلىٰ شيء منه، فالله يتكلم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وكلامه بحرف وصوت، وجبريل يسمع كلام الله من الله؛ ولهذا قال هنا في الحديث: «**فيكلمه الله من وحيه بما أراد**» يكلمه الله ليس الذي يكلمه غير الله بل الله يكلمه بوحيه بما أراد وهو العلي ﴿قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾.

«**فيقولون كلهم مثل ما قال جبْرائيل**» ﴿قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾، والرواية الأخرىٰ فيها أيضًا بيان أنه يخبرهم بما تكلم الله به وبما سمعه من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولهذا مر معنا في الرواية السابقة ما يدل علىٰ هذا المعنىٰ قال: «**فيقول الذين يلون حملة العرش ماذا قال ربكم؟ فيخبرونهم ماذا قال**» يعني يخبرونهم بالشيء الذي قاله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

الشاهد أنك إذا تأملت هذا الحديث وضَّح لك معنىٰ الآية، والآية سيقت لتبين لك ضعف الملائكة وحالها مع الله، وأنها تصعق وتصاب بالغشي، وأنها تصعق لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إذا تكلم بالوحي؛ فأنت إذا عرفت حال الملائكة بهذه الصفة تبين لك أنها لا تستحق من العبادة شيئا، وإذا بطلت عبادة الملائكة فغيرها من المخلوقات من باب أولىٰ، لأن الله عَزَّوَجَلَّ آتىٰ الملائكة من كبر الأجسام والقدرة والقوة ما لَم يؤتِّ غيرها من المخلوقات.

فالشاهد أن هذا كله مما يبين لنا عظمة الله جَلَّوَعَلَا وأنه مستحق للعبادة وأن العبادة حق له جَلَّوَعَلَا؛ فلا يدعىٰ إلا الله ولاُ يسأل إلا الله ولا يستغاث إلا بالله ولا يُطلب المدد والعون إلا من الله جَلَّوَعَلَا، ومن صرف شيئا من هذه الأمور لغير الله ما عرف التوحيد ولا عرف ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وكان أمره في ضياع؛ حيث يصرف الغاية المقصودة التي خُلق لأجلها إلىٰ غير الخالق العظيم والرب الجليل عظم وتقدس سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

❋ ❋ ❋

بَابُ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى:

﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

٣٠- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**يَقْبِضُ اللهُ الأَرْضَ، وَيَطْوِي السَّمَاءَ بِيَمِينِهِ ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا المَلِكُ، أَيْنَ مُلُوكُ الأَرْضِ؟!**». رَوَاهُ البُخَارِيُّ[(١)].

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ «**بَابُ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى**: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزُّمَر: ٦٧]»؛ هذه الترجمة معقودة لبيان عظمة الله جَلَّ وَعَلَا وجلاله وكماله، وأنه عَزَّ وَجَلَّ هو المستحق وحده أن يُفرد بالعبادة وأن يخص بالطاعة وأن لا يُجعل معه شريك في شيء منها، لأنه تَبَارَكَ وَتَعَالَى المتفرد بخلق السماوات وخلق الأرض وخلق الناس وإيجاد هذه المخلوقات لا شريك له في شيء من ذلك، فالواجب أن يُفرد تَبَارَكَ وَتَعَالَى وحده بالعبادة، ومن لم يفرده جَلَّ وَعَلَا بالعبادة فما قدره تَبَارَكَ وَتَعَالَى حق قدره؛ أي: لَم يعظمه حق تعظيمه.

قال: عَزَّ وَجَلَّ ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ أي: لَم يعظموه جَلَّ وَعَلَا التعظيم اللائق به، وهذا حال المشركين كلهم؛ فمن اتخذ مع الله الشركاء ما عظم الله ولا قدره

---

(١) رواه البخاري (٤٨١٢)، ومسلم (٢٧٨٧).

تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ حق قدره ولا يرجُ وقارًا لله عَزَّ وَجَلَّ وعظمة، قال سبحانه: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح: ١٣، ١٤]؛ فهذه كلها تبين سوء حال المشرك الذي اتخذ مع الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ الأنداد، ولهذا يأتي في القرآن في آيات كثيرة من ذكر عظمة الله وجلاله وكمال اقتداره سبحانه وقوته وتدبيره لهذا الكون، وأنه تحت تدبيره جَلَّ وَعَلَا وبقبضته وتحت تصرفه وطوع أمره إلىٰ غير ذلك من المعاني المبينة لعظمة الله جَلَّ وَعَلَا وأنه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وحده المستحق للعبادة.

وهذه الآية الكريمة صُدِّرت ببيان أن من اتخذ مع الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ الأنداد لم يقدُر ربه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ حق قدره، وخُتمت بتنزيه الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عن أفعال هؤلاء المشركين المنددين المتخذين الشركاء مع الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وذكُر في أثنائها من الدلائل البينات والبراهين الواضحات التي تبين فساد الشرك وما بطلان ما عليه أهله.

قال: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧] أي تكون في قبضة يده جَلَّ وَعَلَا،« **الأرض جميعًا قبضته يوم القيامة**»، وهذا فيه إثبات اليد لله يدًا تليق بجلاله وكماله موصوفة في القرآن وفي السنة بصفات اليد الحقيقية التي يُعرف معناها في لغة العرب، ولهذا جاء في القرآن وفي السنة من أوصاف يد الرحمن تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ما يدل علىٰ أنها يد حقيقية تليق بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، مثل القبض، والطي، والبسط، والأخذ، جاء في الحديث: «**إلا أخذها الله بيمينه**»[1]، بل إن صفات اليد التي وردت في الكتاب والسنة كثيرة، عدَّدها ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «**الصواعق المرسلة**»[2] كلها شاهدة علىٰ أنها يد حقيقية تليق بالله وبجلاله وكماله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

---

(١) رواه البخاري (١٤١٠)، ومسلم (١٠١٤)، واللفظ له.

(٢) (١/ ٢٣٢).

ومن أنكر ثبوت اليد صفةً له فهو جاحد معطل، ومن شبَّه يد الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ بأيدي المخلوقين فما قدر الله حق قدره ويكون بذلك كافرا مشبها.

وكيف يصح من عاقل أن يشبه يد الله عَزَّوَجَلَّ وهي مضافة إليه عَزَّوَجَلَّ موصوفة بالكمال والْجلال والعظمة! بيد المخلوقين والله يقول عن يده سبحانه: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾، أي عقل هذا الذي يقول: (إن أثبتنا لله اليد حقيقة لزم من ذلك أن تكون يده كيد المخلوق)؟! تعالىٰ الله عما يقولون، وسبحان الله عما يصفون وتنزه وتقدس عما يفترون سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

فهذه اليد أثبتها الرب جَلَّوَعَلَا لنفسه فالواجب الإيمان بها كما جاءت وإمرارها كما وردت، وكذلك الإيمان بكل صفاته التي جاء ذكرها في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ؛ كالقبض والطي والأخذ والبسط والأصابع وغير ذلك من صفات اليد التي ذكرت في كتاب الله العزيز وسنة النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه.

قال: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ أي: أنه تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ يطوي السماوات بيمينه، والطي هو جمع أطراف الشيء بعضها إلىٰ بعض. فالسماوات مطويات بيمينه: أي يطويها تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ ويجمع أطرافها بعضها إلىٰ بعض بيمينه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ نزَّه نفسه في ختام هذا السياق العظيم عن الشرك واتخاذ الأنداد؛ أي: تنزه وتقدس تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ عن شرك المشركين الذين سوَّوا به تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ ترابا، وسوَّوا به تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ أحجارًا، وسووا به تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ من لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ولا حياة ولا موتا ولا نشورا، سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عما يشركون: أي تنزه وتقدس تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ عن أن يُشرك به غيره وأن يسوَّىٰ به غيره وأن يعدَل به غيره وأن يجعل غيره عدلا له تنزه وتَبَارَكَوَتَعَالَىٰ وتقدس عن ذلك.

ثُم أورد المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ حديث أبي هريرة في معنىٰ هذه الآية الكريمة؛ أن النبي ﷺ قال: «**يقبض الله الأرض ويطوي السماء بيمينه ثم يقول: أنا الملك أين ملوك الأرض؟**» هذا أمر يفعله الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يوم القيامة يقبض الأرض بيده ويطوي السماء بيمينه، وعرفنا معنىٰ الطي، ثُم يقول أنا الملك أين ملوك الأرض؟ وجاء في بعض الروايات «**يهزهن** تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ **ويقول: أنا الملك أين ملوك الأرض؟**»[1] أين ملوك الأرض: أين من كانوا يملكون في الأرض مدنا أو ديارا وغير ذلك أين هم؟ وأين ما يملكون؟ وأين ملكهم؟، وهو تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ الملك في الدنيا والآخرة الذي بيده أزمة الأمور ومقاليد السماوات والأرض، لكن هذه الحقيقة لا تنكشف جلية لجميع الناس وعموم الخلق إلا إذا وقفوا وقد تجردوا من أمور الدنيا كلها وليس معهم منها أي شيء، ووقفوا بين يديه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ليس معهم من الدنيا شيء، فالملوك والرؤساء والصغار والكبار وأصحاب الأموال والفقراء كلهم يقفون علىٰ صعيد واحد ليس معهم من الدنيا شيء، ومن كان يملك فيها ومن كان لا يملك، من كان عنده شيء قليل ومن لا شيء عنده ومن عنده شيء كثير، الكل يقف في صعيد واحد في أرض عفراء، أرض جرداء، أرض لا ظل فيها ولا سكنىٰ ولا مأوىٰ، يقفون وقد تجردوا من أمور الدنيا، فأيَّ شيء كانوا يملكونه في الدنيا لا يكون معهم لا درهم ولا دينار ولا تجارة ولا مسكن ولا غير ذلك؛ فينجلي الأمر ويتجلىٰ للجميع ويظهر من كان مغترا بملكه مغترا بسلطانه مغترا برئاسته مغترا بتجارته كل هذه الأشياء تذهب ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ۝٢٨ هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ﴾ [الحاقة: ٢٨، ٢٩]، كلها تذهب ولا يبقىٰ منها شيء.

يقول الرب تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: أين ملوك الأرض؟ أين ملكهم ؟ أين ذلك الملك

---

(١) رواه البخاري (٧٥١٣)، ومسلم (٢٧٨٦).

المدَّعىٰ؟ أين تلك السلطة؟ أين ذاك الأمر والنهي؟ أين ذاك التعالي والتكبر الذي يوجد في كثير من الناس؟ أين ملوك الأرض؟ يقول أنا الملك في حديث آخر يقول: «**أنا الملك أنا الديان**» الديان: المجازي المحاسب؛ فهو تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يجازي العباد في ذلك اليوم ويحاسبهم علىٰ ما قدَّموا في حياتهم الدنيا.

* * *

٣١- وَلَهُ عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ اللهَ يَقْبِضُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الأَرَضِينَ، وَتَكُونُ السَّمَوَاتُ بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا المَلِكُ!**»[(١)].

٣٢- وَفِي رِوَايَةٍ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَرَأَ هَذِهِ الآيَةَ ذَاتَ يَوْمٍ عَلَىٰ المِنْبَرِ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُولُ هَكَذَا بِيَدِهِ يُحَرِّكُهَا، وَيُقْبِلُ بِهَا وَيُدْبِرُ: «**يُمَجِّدُ الرَّبُّ نَفْسَهُ أَنَا الجَبَّارُ: أَنَا المُتَكَبِّرُ! أَنَا العَزِيزُ! أَنَا الكَرِيمُ!**». فَرَجَفَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ الْمِنْبَرُ حَتَّىٰ قُلْنَا: لَيَخِرَّنَّ بِهِ». رَوَاهُ أَحْمَدُ[(٢)].

٣٣- وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ عَنْ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ مُقْسِمٍ أَنَّهُ نَظَرَ إِلَىٰ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كَيْفَ يَحْكِي عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «**يَأْخُذُ اللهُ سَمَوَاتِهِ وَأَرَضِيهِ بِيَدَيْهِ فَيَقْبِضُهُمَا فَيَقُولُ: أَنَا المَلِكُ، وَيَقْبِضُ أَصَابِعَهُ وَيَبْسُطُهَا، فَيَقُولُ: أَنَا المَلِكُ**». حَتَّىٰ نَظَرْتُ إِلَىٰ المِنْبَرِ يَتَحَرَّكُ مِنْ أَسْفَلِ شَيْءٍ مِنْهُ، حَتَّىٰ إِنِّي لَأَقُولُ: أَسَاقِطٌ هُوَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ؟![(٣)]

ثُم أورد المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ الحديث من رواية أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «**إن الله يقبض يوم القيامة الأرضين وتكون السماوات بيمينه**» أي أنه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يطويها بيمينه كما هو مبيَّن في الرواية التي قبله في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

تكون السماوات بيمينه «**ثم يقول أنا الملك**» وقوله عَزَّ وَجَلَّ: «**أنا الملك**» أي: الذي له الملك كله؛ مُلك الدنيا، وملك الآخرة، وملك الخلائق، الذي بيده أزمة

---

(١) رواه البخاري (٧٤١٢).

(٢) رواه أحمد في «مسنده» (٥٤١٤)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٥٤٦)، وصححه الألباني في «ظلال الجنة» (٥٤٦).

(٣) رواه مسلم (٢٧٨٨).

الأمور، واسمه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ «الملك» يدل علىٰ ثبوت صفة الملك لله جَلَّ وَعَلَا، والمُلك الذي هو صفة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يتناول أمورًا كلها يشملها كونه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ المَلك، منها: اتصافه جَلَّ وَعَلَا بصفات الجمال والجلال والعظمة والعزة والقدرة والقوة إلىٰ غير ذلك من الصفات التي تدل علىٰ صفات الملك جَلَّ وَعَلَا، فاسمه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ «الملك» يدل علىٰ صفات الملك التي هي صفات الجلال والكمال والعظمة، صفات القوة والقدرة والتدبير والتصرف.

أيضًا يشمل اسمه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ «الملك» ويدل علىٰ أنه له الحكم؛ له الحكم الشرعي، فهو الذي يأمر وينهىٰ ويشرع ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]، وله الحكم القدري فهو الذي له الأمر تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ كله ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، لا مانع لما أعطىٰ ولا معطي لما منع، لا رافع لما خفض ولا خافض لما رفع، لا قابض لما بسط ولا باسط لما قبض، الأمر بيده تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لأنه هو الملك وهو الذي يتصرف في مملكته تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ كيف شاء ويحكم فيها تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بعلمه وحكمته ويدبر كما أراد، ولا يمكن أن يكون في ملكه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ولا ذرة إلا بمشيئته جَلَّ وَعَلَا، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ولا حول ولا قوة إلا به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. وأيضا يشمل الحكم الجزائي؛ وهو المجازة والمحاسبة وإثابة المطيع ومعاقبة العاصي، كل ذلك من ملكه، من ملكه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وتدبيره ما ينزله من الكتب ويرسله من الرسل ويهدي إليه من الشرائع ويرضاه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ من الدين كل ذلك من معاني المُلك.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يوم القيامة: «**أنا الملك أين ملوك الأرض**» هذه الحقيقة كما قدمت لا تبرز جلية واضحة لكل الناس وعموم الخلق بكافة أصنافهم وجميع فئتهم إلا إذا وقفوا متجردين من الدنيا ليس معهم منها شيء، اضمحلت الأمور

وانقشعت الحقيقة وتجلىٰ الأمر فيقول تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: «**أنا الملك أين ملوك الأرض**» أين ذاك الملك الذي يُزعم والسلطان الذي يدَّعىٰ والتعالي الذي يوجد؟ كلها تذهب وتضمحل ولا يبقىٰ منها شيء والملك بيد الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ الواحد القهار، كل ملكٍ يفنىٰ وكل ملكٍ يزول ويبيد والله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ المالك الذي بيده الملك جَلَّوَعَلَا؛ مُلك الدنيا وملك الآخرة، مُلك السماوات وملك الأرض وملك الخلائق، الذي يحكم في خلقه وفي ملكه تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ كيف شاء وكما يريد سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

قال: «**وفِي رواية عنه أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية ذات يوم علىٰ المنبر**» وهذا فيه فائدة أن مما ينبغي أن يوعظ الناس به علىٰ المنبر ومما ينبغي أن يسمعونه في الخطابة الجامعة التي تعالج مشكلات الناس وتفتح لهم أبوابا في الهداية والصلاح وحسن الإقبال علىٰ الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ غرس الاعتقاد الصحيح وبيانه للناس وإيضاحه، كما كان نبينا عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ يصنع في خطبته؛ غرس الاعتقاد الصحيح وأن يُزرع في قلوب الناس تعظيم الله جَلَّوَعَلَا وقدره عَزَّوَجَلَّ حق قدره وتعظيمه حق تعظيمه، وأن يعرف الناس كمال قدرته وكمال قوته وكمال تدبيره جَلَّوَعَلَا، فهذه المعاني العظيمة يفتقر الناس إلىٰ بيانه ا وإيضاحها وتبيينها ولاسيما في الخطب الجامعة التي يوعظ فيها الناس ويذكَّرون بالله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ ويذكَّرون بعظمته وجلاله وكمال اقتداره سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

قال: «**قرأ هذه الآية يوما علىٰ المنبر**» فهذا كما قدمت يدل علىٰ مشروعية هذا العمل والحاجة إليه أن تُقرأ هذه الآيات وأمثالها من آيات التوحيد والآيات التي تبين عظمة الله جَلَّوَعَلَا؛ تُبين للناس وتقرأ علىٰ المنبر وتشرح معانيها وتوضح دلالاتها حتىٰ تقوىٰ صلة الناس بالله وإيمانهم به.

قرأ قول الله تعالىٰ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ

ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧]؛ قرأ هذه الآية صلوات الله وسلامه عليه وهو واقف علىٰ المنبر يخطب الناس ﷺ، قال ابن عمر: «**ورسول الله ﷺ يقول هكذا بيده يحركها ويقبل بها ويدبر**» لما قرأ عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ﴾ قبض النبي ﷺ بيده وأخذ يهزها عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يحركها إلىٰ الأمام وإلىٰ الخلف يقبِّل بها ويدبر، حتىٰ إن الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ لما رأوا المنبر يهتز قالوا: ليخرن به؛ يعني خشوا أن يخر المنبر أن يسقط من الاهتزاز، وهذا يدل علىٰ حماسة النبي عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ونصحه صلوات الله وسلامه عليه ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [التوبة: ١٢٨] فهذا من نصحه عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

وقبضه ﷺ بيده وهزها هذا كما بين أهل العلم المراد به: تحقيق الوصف، وأن الله سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يوم القيامة يقبض الأرضين بيده حقيقة ويطوي السماوات بيمينه حقيقة ويهزهن تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بيده حقيقة، فالنبي عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قبض بيد نفسه لأجل تحقيق الوصف وبيان أن هذا أمرٌ يكون يوم القيامة حقيقة يفعله رب العالمين جَلَّ وَعَلَا، ليس هنا تشبيه للقبض بالقبض ولا تشبيه لليد باليد ولا تشبيه للفعل بالفعل، حاشا أن يكون ذلك، وإنما المراد تحقيق الوصف، نظير هذا ما تقدم عندما قرأ النبي ﷺ قول الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾ [النساء: ٥٨]، فوضع عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أصبعه الإبهام علىٰ أذنه والسبابة علىٰ عينه، قال العلماء: المراد بذلك تحقيق الوصف أنه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ سميع حقيقةً بصير حقيقة، سميعٌ بسمع بصيرٌ ببصر يليقان بجلاله وكماله وعظمته سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فهذه الإشارة التي كانت منه عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بيده المراد بها تحقيق الوصف

وتأكيد الأمر وأنه يكون الأمر يوم القيامة بأنه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يقبض الأرضين ويطوي السماوات ويهزهن تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ ويقول: أنا الملك أين ملوك الأرض؟

قال: «**يحركها ويقبل بِها ويدبر، يَمجد الرب نفسه**» أي: أنه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لما يقبض الأرضين بيده ويطوي السماوات بيمينه ويهزهن يمجد نفسه، والتمجيد: هو السعة في الثناء، ومن أسمائه تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ «المجيد» وهو دال علىٰ ثبوت المجد صفة له تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، والمجد معناه في اللغة: السعة، وتَمجيد الرب نفسه :تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ أي أنه عَزَّوَجَلَّ يكثر من ذكر الثناء علىٰ نفسه جَلَّوَعَلَا بذكر أسمائه العظيمة وصفاته العليا الكريمة سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يذكر ذلك يمجد نفسه، فالتمجيد: هو السعة ومما يوضح هذا المعنىٰ ما ثبت في «**صحيح مسلم**» من حديث أبي هريرة أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ قال: «**قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل، فإذا قال العبد:** ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، **قال الله تعالىٰ: حمدني عبدي. وإذا قال:** ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، **قال الله تعالىٰ: أثنىٰ عليَّ عبدي. وإذا قال:** ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، **قال: مجدني عبدي**»(١) التمجيد: هو السعة في الثناء ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ هذا تَمجيد لله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ وتوسعة في الثناء علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ في تعداد صفاته وأسمائه.

فقال هنا: «**يمجد الرب نفسه**» أي: يذكر من أسمائه وصفاته ما يمجد به نفسه، أي: يثني علىٰ نفسه بها جَلَّوَعَلَا، فذكر من الأسماء التي يذكرها تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ ممجدًا بها نفسه: «**أنا الجبار أنَا المتكبر أنا العزيز أنا الكريم**» يذكر هذه الأسماء سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ممجدًا بها نفسه.

---

(١) رواه مسلم (٣٩٥).

«**أنا الجبار**» والْجبار: اسم من أسماء الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، والمعنىٰ الذي يدل عليه هو الجبر وهو يتناول أمورًا منها: جبر القلوب المنكسرة بإصلاحها وتزكيتها، وكذلك من معاني الجبار: انتقامه تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ من العتاة وقصمه لظهور الجبابرة والمعتدين، فالجبار يستفاد منه معنىٰ البطش والقوة والانتقام، ومعنىٰ إصلاح قلوب أهل الإيمان وجبر قلوبهم وتزكيتهم وإصلاح أحوالهم، فهذه كلها من المعاني التي يدل عليها هذا الاسم العظيم «**أنا الجبار**».

«**أنا المتكبر**» والمتكبر: اسم يدل علىٰ صفة الكبرياء لله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، والكبرياء صفة مختصة به، ومن نازع الله عَزَّوَجَلَّ في كبريائه قذفه الله عَزَّوَجَلَّ يوم القيامة في النار كما جاء في الحديث الذي في «**الصحيح**»: «**الْعِزُّ إِزَارُهُ، وَالْكِبْرِيَاءُ رِدَاؤُهُ، فَمَنْ يُنَازِعُنِي عَذَّبْتُهُ**»[1]، فالله عَزَّوَجَلَّ هو المتكبر أي الذي له الكبرياء، ومن الذكر الذي كان يقوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في ركوعه وسجوده: «**سبحان ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة**»[2].

❋ قوله: «**والكبرياء**» أي: ذي الكبرياء، «**والعظمة**» أي: ذي العظمة، فالله عَزَّوَجَلَّ مختص بذلك جَلَّوَعَلَا؛ فهو العظيم الذي له العظمة، وهو المتكبر الذي له الكبرياء.

ومن كان يتكبر في هذه الحياة الدنيا ويتعالىٰ علىٰ الناس ويتعاظم ويترفع علىٰ عباد الله سينجلي له الحق وتتبين له الحقيقة عندما يقف علىٰ صعيد وعرصات يوم القيامة ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ﴾ [طه: ١١١] عندما يقف ذاك الموقف العظيم يذكر أن كبرياءه سرابٌ وأن كبرياءه ضياع، الكبرياء لله، ومن يتكبر في هذه الحياة علىٰ الناس ويتعالىٰ علىٰ خلق الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ هو في الحقيقة ما عرف نفسه، وإلا لو تأمل في

---

(١) رواه مسلم (٢٦٢٠).

(٢) رواه أبو داود (٨٧٣)، والنسائي (١١٢٠)، وصححه الألباني في «صحيح أبي داود» (٧٧٦).

حقيقة نفسه وتدبر أمره لذهب من قلبه الكبرياء، الإنسان ما هو حتىٰ يتكبر؟ الإنسان مخلوق أوله نطفة وآخره جيفة يلقىٰ أو يدفن في حفرة وتأكل لحمه الديدان وتأكله الأرض، وهو بين ذلك يحمل في بطنه العذِّرة علىٰ أي شيء يتكبر؟! ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء: ٣٧] علىٰ ماذا يتكبر الإنسان؟ ومن يتكبر ما عرف حقيقة نفسه، لكن يوم القيامة يُحشر المتكبرون في غاية الذل وهم في غاية الصغار والضعة ويعرفون حقيقة تكبرهم، فيقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: «**أنا الجبار أنا المتكبر**»، وكما قدمت هذه معاني تظهر للناس كلهم؛ في الدنيا يوجد من يتجبرون ومن يتكبرون ومن يتعاظمون ومن أيضًا يغتر بتجبرهم وتعاظمهم وتكبرهم ويظنهم علىٰ شيء، لكن هذه كلها تنقشع وتنجلي وتتضح لعموم الخلائق يوم القيامة.

يقول جَلَّ وَعَلَا «**أنا الجبار أنا المتكبْر أنا العزيز**» والعزيز: هو القاهر الذي لا يغلب الذي بيده أزمة الأمور تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ قال أنا العزيز.

«**أنا الكريم**» يذكر تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ كرمه جَلَّ وَعَلَا وجوده وسخاءه ومنَّه وأفضاله جَلَّ وَعَلَا، وكرمه سبحانه الذي يثني علىٰ نفسه به في ذلك اليوم العظيم ليس لكافر فيه مطمع ولا حظَّ له فيه ولا منال، فالرب العظيم واسع الكرم واسع الجود واسع المن واسع العطاء عظيم الصفح عَزَّ وَجَلَّ، ليس لكافر في كرمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ورحمته ومغفرته مطمع، وهذا أمرٌ قُطع به في كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]. قال «**يقول أنا الكريم**». يقول ابن عمر: «**فيرجف برسول الله ﷺ المنبر**» يرجف المنبر برسول الله ﷺ لأنه كان يهز يده يقبِّل بها ويدبر؛ فيهتز جسمه لاهتزاز يده مقبلة مدبرة، ويهتز المنبر تبعا لاهتزاز جسم الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عليه، حتىٰ إن الصحابة لما رأوا اهتزاز المنبر من تحته عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قال: «**حتىٰ قلنا ليخرن به**» أي: يسقط المنبر برسول الله ﷺ؛ وهذا

كما قدمت مما يبين لنا كمال نصح النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، كمال نصحه في خطابته للناس وبيانه لهم، وقد وصفه بعض أصحابه أنه عليه منذر، «**إذا خطب الناس احمر وجهه وعلا صوته كأنه منذر جيش يقول: صبحكم ومساكم**»(١) والجيش معروفة صفته عندما يداهم بلدًا من البلدان فيأتي واحد من أهل هذا البلد يخبر أهل البلد بالجيش الذي داهمهم، فكيف تكون صفته؟ قال: «**كأنه منذر جيش**» أي: كأنه منذر قومه من جيش وصلهم وداهم بلدهم؛ «**صبحكم ومساكم**» جاءكم الجيش يعني في هذا الصباح وصلكم أو في هذا المساء. فكان عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ معلمًا أمينا وناصحا مشفقا صلوات الله وسلامه عليه، وما ترك خيرا إلا دل الأمة عليه، ولا شرا إلا حذرها منها.

وهنا يا إخوان يعجب المسلم غاية العجب عندما يتأمل في نصح النبي العظيم هذا في بيانه للدين وبيانه للاعتقاد وبيانه لأصول الإيمان بهذه القوة وبهذا النصح الكامل منه صلوات الله وسلامه عليه ثُم يجد أقوامًا وهم كثيرون يدَّعون الانتساب إليه ولا يأخذون الاعتقاد عنه!! وإنما يأخذون الاعتقاد عن عقولهم هم، ويبنون اعتقادهم علىٰ عقولهم، حتىٰ أحاديث النبي ﷺ بما فيها هذا الحديث الذي فيه نصحه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لا يأخذون منه عقيدةً بل يتشاغلون بتأويل هذا الحديث ورده ورد غيره من نصوص الصفات، سواء منها ما جاء في كتاب الله أو ما جاء في سنة رسول الله ﷺ؛ فترىٰ هؤلاء يقفون عند مثل هذه النصوص ويقول قائلهم: اليد ما تليق بالله، ولو أثبتنا اليد للزم كذا ولزم كذا.. ويدخل في تخرصات عقلية وخوضٍ باطل وقولٍ علىٰ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بلا علم وجحدٍ وإنكار لما وصف الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ به

(١) رواه مسلم (٨٦٧).

نفسه وما وصفه به رسوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ويتألىٰ علىٰ الله جَلَّ وَعَلَا ويقول عليه لا علم في أسمائه وصفاته، وهذه من أنكر المنكرات وأعظم المحرمات القول علىٰ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بلا علم ﴿ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ١٤٠]، هل هم أعلم بالله من رسوله !! عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يقف ﷺ ناصحا للأمة خطيبا علىٰ المنبر يقرأ هذه الآية الكريمة ويقبض عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بيده ويهزها أمام الناس مؤكدا هذا الأمر مؤكدا وقوعه وأنها حقيقة ستكون يوم القيامة ثُم يأتي أقوامٌ ينتسبون إليه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ويجحدون ذلك وينفونه!! وينفون ثبوت اليد صفة لله جَلَّ وَعَلَا ويقولون: لو أثبتناها لـلزم كذا ولـلزم كذا من أمور عقلية واستنتاجات عقلية نتيجتها جحد صفة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وسبق التنبيه أن من أرخىٰ لعقله الزمام وأطلق له العنان يخوض في هذا الباب متخرصًا متكلفا قائلا بلا علم، ويأتي بالأباطيل وأنواع الأضاليل، وسبق حديث النبي ﷺ الذي مر معنا قريبا قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**إن رجلا قال إن الله لا يغفر لفلان، فقال الله عَزَّوَجَلَّ من هذا الذي يتألىٰ عليَّ غفرت له وأحبطت عملك**»(١)؛ قال إن الله لا يغفر لفلان، قوله: «إن الله لا يغفر لفلان» هذا الرجل أرخىٰ لعقله العنان وأخذ يستنتج وأخذ يسبر حال ذلك الرجل وجد عنده معاصٍ كثيرة، ووجد عنده تفريطا وتقصيرا عظيما، وأخذ يستنتج وتوصل عقله إلىٰ هذه النتيجة أن الله لا يغفر لفلان، لم يجحد أن الله غفور ولكنه حجَّر المغفرة وحجَّر واسعا وأقحم عقله في مشيئة الله وفي علمه وحكمته، فمن أنت حتىٰ تقول الله لا يغفر لهذا أو لا يرحم هذا أو يرحم ذاك ؟! هذا أمر بيده ويرجع إلىٰ حكمته ومشيئته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فالقول علىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بلا علم من أعظم الجرائم وأخطرها؛ ولهذا

---

(١) رواه مسلم (٢٦٢١).

الجادة السليمة والطريق القويم في هذا الباب: أن يثبت المسلم لله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ صفاته كما أثبتها الله لنفسه وكما أثبتها له رسوله عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ.

ثُم أورد المصنف رَحِمَهُٱللَّهُ رواية أخرىٰ لهذا الحديث عن ابن عمر قال: «**روىٰ مسلم عن عبيد الله بن مقسم أنه نظر إلىٰ عبد الله بن عمر** رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا **كيف يحكي عن رسول الله** ﷺ **قال: يأخذ الله سماواتِهِ وأرضِيهِ بيديهِ فيقبِضهما**» فيه إثبات اليدين لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وثبوتهما كما جاء في القرآن كذلك: مثل قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ﴿بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُۚ﴾ [المائدة: ٦٤]، وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾ [ص: ٧٥]، فالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ له يدان حقيقيتان تليق بجلاله وكماله وعظمته سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

قال: «**يأخذ الله سماواته وأراضيه بيديه فيقبضهما**» ذكُر في الحديث هنا صفتان لليد الأخذ والقبض ومر معنا الطي؛ فهذه كلها صفات ليد الله.

وكما قال العلماء رَحِمَهُمُٱللَّهُ: الإضافة تقتضي التخصيص، فما يضاف إلىٰ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ من الصفات تخصه وتليق به، وما يضاف إلىٰ المخلوق من الصفات تخص المخلوق وتليق به، فاليد إذا أضيفت إلىٰ من ليس كمثله شيء ماذا يكون شأن هذه اليد؟ يكون شأنها ليس كمثلها يد لأنها أضيفت إلىٰ من ليس كمثله شيء، وعندما تضاف اليد إلىٰ المخلوق الناقص أي شيء يكون شأنها؟ تكون بحسب من أضيفت إليه؛ فيد المخلوق تليق بالمخلوق، ويد الخالق تليق به، فاليد المضافة إلىٰ الله شأنها كما قال الله ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ [الشورىٰ: ١١] لا في ذاته ولا في أسمائه ولا في صفاته بل متفرد: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] فهو جَلَّوَعَلَا أحد لا سمي له ولا مثيل ولا ند ولا نظير تنزه وتقدس عن ذلك، فاليد عندما تضاف إلىٰ الله جَلَّوَعَلَا فهي يد تخص الرب سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وتليق بجلاله وكماله، فلا تُجحد اليد ولا أيضًا تشبَّه

بأيدي المخلوقين كل ذلك ضلالٌ وباطل، والحق قوام بين تعطيل المعطل وتَمثيل الممثل، الحق إثبات بلا تمثيل وتنزيه بلا تعطيل، علىٰ حد قول الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١].

قال: «**فيقبضهما فيقول أنا الملك، ويقبض أصابعه ويبسطها**» أي: أنه عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كان علىٰ المنبر يقبض أصابعه ويبسطها، وهذا كما قدمنا المراد به تحقيق الوصف وأنه ثابت حقا، وأن هذا الأمر يكون يوم القيامة كما أخبر الله عن ذلك في كتابه العزيز وكما أخبر عن ذلك رسوله الكريم ﷺ الذي لا ينطق عن الهوىٰ إن هو إلا وحي يوحىٰ.

«**يقبض أصابعه ويبسطها فيقول أنا الملك**» وهذا فيه إشارة إلىٰ أن الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ يكون منه ذلك؛ يقبض السماوات ويقبض أصابعه تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ ويبسطها، وهذا فيه ثبوت الأصابع، والأصابع ثابتة في السنة لله جَلَّوَعَلَا علىٰ الوجه اللائق بجلاله، والحديث في «**الصحيحين**» وغيرهما: «أن حبرًا من أحبار اليهود جاء إلىٰ النبي عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وقال: إن الله يوم القيامة يضع السماوات علىٰ اصبع، والثرىٰ علىٰ إصبع، والشجر علىٰ أصبع، فلما ذكر ذلك ذاك الحبر ضحك النبي عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ حتىٰ بدت نواجذه ثُم تلا هذه الآية ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧][(١)]، لماذا ضحك عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؟ ؟ قال ابن مسعود راوي الحديث: «ضحك تصديقًا لقول الحبر» فهذا الضحك في هذا المقام المراد به تصديق قوله، أيمكن أن يكون ضحك النبي عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ منكّرًا لقوله؟ من يقول ذلك ما قدر الرسول

---

(١) رواه البخاري (٤٨١١)، ومسلم (٢٧٨٦).

عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قدره، إذ كيف يقال في حقه ﷺ أنه في مجلسه وعنده يقال في حق الله ما لا يليق به فيضحك حتىٰ تبدو نواجذه!! كان عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إذا انتهكت حرمات الله لا يقوم لغضبه شيء، حتىٰ إن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا ذكرت(١) أنه ما انتقم لنفسه قط عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فإذا انتُهكت حرمات الله يشتد غضبه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فكيف يقال فيمن هذه صفته أنه يقال أمامه وفي مجلسه وبين يديه في حق الله ما لا يليق به ولا يزيد إلا أن يضحك حتىٰ تبدو نواجذه؟! فهو عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ضحك لما سمع هذا الحبر يقول ذلك تصديقا لقوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

والأصابع ثابتة في هذا وفي غيره من الأحاديث منها قوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**إِنَّ قُلُوبَ بَنِيْ آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ كَقَلْبٍ وَاحِدٍ يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ**»(٢)، وجادة أهل السنة رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ وألحقنا بهم جادة مباركة، جادة آمنة، جادة سالمة ما فيها عثار وليس فيها منزلقات وليس فيها ورطات، جادة مستقيمة تثبت لله ما أثبته الله لنفسه، وتثبت له ما أثبته له رسوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ علىٰ الوجه اللائق بجلال الرب تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وكماله.

قال: «**فيقول أنا الملك حتىٰ نظرت إلىٰ المنبر يتحرك من أسفل شيء منه**» أي: من رسول الله ﷺ يتحرك من تحت قدميه صلوات الله وسلامه عليه.

«**حتىٰ إنِ لأقول أي ابن عمر أساقط هو برسول الله ﷺ**» أي: خشي أن يسقط المنبر من تحرك النبي صلوات الله وسلامه عليه علىٰ المنبر، وكما تقدم كل ذلك من كمال النصح الكريم .عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ

❊ ❊ ❊

---

(١) كما في «صحيح البخاري» (٣٥٦٠).

(٢) رواه مسلم (٢٦٥٤).

[أوَّل هذا الأمر كان اللّٰه قبل كلِّ شيءٍ]

٣٤- وفي «الصّحيحين» عن عِمران بن حصينٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول اللهِ ﷺ:

«اقْبلوا البشْرىٰ يا بني تميمٍ».

قالوا: قد بشرتنا فأعطِنا.

قال: «اقبلوا البشرىٰ يا أهل اليمنِ».

قالوا: قد قبِلنا فأخْبِرنا عن أول هذا الأمر.

قال: «كان الله قبل كلِّ شيءٍ وكان عرشه علىٰ الماءِ وكتب في اللوحِ المحفوظِ ذِكر كل شيء».

قال: فأتاني آتٍ فقال: يا عِمران! انْحلتْ ناقتك من عِقالِها.

قال: فخرجت في أثرِها فلا أدري ما كان بعدي».

قَالُوا: قَدْ قَبِلْنَا فَأَخْبِرْنَا عَنْ أَوَّلِ هَذَا الأَمْرِ، قَالَ: «كَانَ اللهُ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَىٰ المَاءِ وَكَتَبَ فِي اللَّوْحِ المَحْفُوظِ ذِكْرَ كُلِّ شَيْءٍ». قَالَ: فَأَتَانِي آتٍ فَقَالَ يَا عِمْرَانُ: انْحَلَّتْ نَاقَتُكَ مِنْ عِقَالِهَا، قَالَ: فَخَرَجْتُ فِي أَثَرِهَا فَلَا أَدْرِي مَا كَانَ بَعْدِي[(١)].

ثُم أورد المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ هذا الحديث حديث عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «**اقبلوا البشرىٰ يا بنِ تميم**» وهذا كان عام الوفود في أواخر عهده عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

---

(١) رواه البخاري (٣١٩٠).

كانت تأتيه الوفود من الأنحاء يفدون عليه ﷺ ويعلمهم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ويفقههم في دين الله ويبين لهم ما أمره الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ببيانه، فجاءه هذا الوفد من بني تَميم فقال: «**اقبلوا البشرىٰ**»، والبشرىٰ هنا أطلقت والمراد: البشرىٰ بسعادة الدنيا والآخرة بقبول هذا الدين الذي جاء به عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ والإقبال عليه، وأن من أقبل علىٰ هذا الدين وحفظه وحافظ عليه والتزم به وثبت عليه إلىٰ الممات يفوز بسعادة الدنيا والآخرة، ويفوز بالبشارة مطلقة التامة الكاملة: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِۚ﴾ [يونس: ٦٤] لهم أكمل البشارة، لهم البشارة المطلقة ولهم البشارة المقيدة؛ البشارة المطلقة بكل خير، والبشارة المقيدة ما جاء منها مقيدة إما بالجنة أو برضا الله أو نحو ذلك مما جاء ذكره في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ وسنة نبيه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

«**اقبلوا البشرىٰ يا بني تميم**» وهو عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بعث بشيرا ونذيرا؛ يبشر بالخير وبسعادة الدنيا لمن التزم وتَمسك بذلك، وينذر من الشر ومن النار وسخط الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ الذي يناله من أعرض ومن كفر بالله عَزَّوَجَلَّ.

«**قالوا: قد بشرتنا فأعطنا**» كأنهم أرادوا عطاء منه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ مما آتاه الله عَزَّوَجَلَّ من أمور الدنيا ومتاعها، ثُم جاء وفد آخر من أهل اليمن قال لهم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**اقبلوا البشرىٰ يا أهل اليمن**» قالوا: **قد قبِلنا فأخْبِرنا عن أول هذا الأمر**» **أي**: ما أول هذا الأمر المشاهد في هذا الكون، السماوات والأرضون والْجبال وهذه المخلوقات ما هو أولها؟ أخبرنا عن أول هذا الأمر ما هو أوله؟ فقال ﷺ: «**كان الله قبل كل شيء**» هذا المعنىٰ مثل قول النبي ﷺ في كل مرة إذا أراد أن ينام إذا أوىٰ إلىٰ فراشه «**اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء**»(١) كان الله ولم يكن شيء قبله.

---

(١) رواه مسلم (٢٧١٣).

«**وكان عرشه علىٰ الماء**» والعرش مخلوق من مخلوقات الله لوجوده أولية ولوجوده بداية، لم يكن موجودًا فخلقه الله، وكل مخلوق من مخلوقات الله مسبوق بعدم، والله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أول ليس قبله شيء، وكل مخلوق لوجوده بداية وهو مسبوق بعدم وكان بعد أن لم يكن، والله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ كان ولَم يكن شيء قبله.

قال «**وكان عر شه علىٰ الماء**» وهذا فيه إثبات العرش وخلق الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ للعرش؛ خلقه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وأوجده بعد أن لم يكن، والعرش هو أعلىٰ المخلوقات وسقفها.

«**وكَتَبَ في اللوح المحفوظ ذِكْرَ كل شيء**» فبين هنا عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ أن أول المخلوقات فيما يتعلق بهذا العالَم القلم، ولهذا جاء في بعض الروايات «**إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب. قال: رب، وماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتىٰ تقوم الساعة**»(١)، وليس في هذا دلالة علىٰ أن القلم خلق قبل العرش، العرش مخلوق قبل القلم لكن الأولية هنا تتعلق بما سئل عنه الرسول ﷺ وهو هذا العالم؛ السماوات والأرض والجبال.

قال: «**وكَتَبَ في اللوح المحفوظ ذِكْرَ كل شيء**» وجاء في بعض الروايات «**كتب فيه ما هو كائن إلىٰ يوم القيامة**» كتب ما هو كائن بتفصيل تام كامل، ومن فقه الصحابة لهذا العموم والشمول في الكتابة يقول ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «**كل شيء بقدر حتىٰ وضعك يدك علىٰ خدك**»(٢) فأي حركة يتحركها الإنسان وأي سكون وأي قيام وقعود كل ذلك بقدر كُتب في اللوح المحفوظ.

وهذا يبين لنا عظمة الخالق سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وكمال علمه جَلَّوَعَلَا؛ فكل ما هو

---

(١) رواه أبو داود (٤٧٠٠)، والترمذي (٢١٥٥)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٠١٧).

(٢) رواه البخاري في «خلق أفعال العباد» (ص٤٧).

كائن بالتفاصيل وبالجزئيات الدقيقة كلها كُتبت تفصيلا وبدقة لا يفوت شيء في اللوح المحفوظ قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، هذه التفاصيل كلها بدقة وما يكون من الناس من حركات؛ حركة يسيرة أو قليلة خائنة الأعين ما تخف الصدور، الأعمال التي في القلوب كل التفاصيلُ كتبت ولم يترك منها جزء يسير لم يترك منها ذرة واحدة، هذا يدل علىٰ كمال علم الله عَزَّوَجَلَّ، علم ذلك في الأزل وأحاط علمه وكتب ذلك في اللوح المحفوظ، خلق سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ القلم، والقلم مخلوق لله أوجده بعد أن لم يكن وقال له اكتب، وقال القلم لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ماذا أكتب؟ أي شيء أكتب؟ قال «اكتب ما هو كائن إلىٰ يوم القيامة» فأجرىٰ الله عَزَّوَجَلَّ القلم بكتابة ما هو كائن إلىٰ يوم القيامة، كل التفاصيل التي تكون إلىٰ يوم القيامة كُتبت بالقلم في اللوح المحفوظ ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ۝٥٢ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾ [القمر: ٥٢، ٥٣] كل ذلك مكتوب؛ فهذا يدل علىٰ كمال علم الله، وسيأتي عند المصنف بابٌ عظيم في إثبات القدر بمراتبه: العلم المحيط الشامل، والكتابة لكل ما هو كائن إلىٰ يوم القيامة، والمشيئة النافذة مشيئة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ النافذة، وأن كل ما يكون ويوجد هو خلق له ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢]، ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦]، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]، سيأتي عند المصنف رَحِمَهُٱللَّهُ باب خاص في هذا.

قال «**وكتب في اللوح المحفوظ ذكر كل شيء**»: الحديث لا يزال متصلا من النبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ لكن عمران يقول: «**فأتانِ آتٍ**» يعني جاءني رجل **وقال: يا عمران انحلت نَقتك من عقالها**» والعقال: ما يوضع في يد الناقة وهو المكوَّر المدور يوضع في يد الناقة إذا بركت بحيث لا تستطيع أن تقوم، وكلما أرادت أن تقوم منعها العقال، ولا تزال الناقة تحاول أن تقوم وفي يدها العقال فتجد العقال ينحل من يدها

شيئا فشيئا إلىٰ أن يسقط العقال أحيانا فتقوم، فهي تتكرر منها المحاولة، ولهذا صاحب الإبل إذا وضع فيها العُقُل يحتاج أن يتعاهدها دائما ويراقبها إذا انحل منها عقالها فيعيده ولهذا قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**تعاهدوا هذا القرآن، فوالذي نفس محمد بيده، لهو أشد تفلتًا من الإبل في عقلها**»[(١)].

قال: «**فأتانِي آت قال يا عمران أحلت نَاقتك من عقالها فخرجت في إثرها**» يعني خرج يطلب ناقته قال: «**فلا أدري ما كان بعدي**» وهذا اعتذار من عمران عن سبب ذكره بقية الحديث لهذا العذر الذي حصل له وهو أن ناقته انحلت من عقالها وذهبت وذهب في إثرها يُرجعها ويعيدها فيقول «**فلا أدري**» يقول ذلك معتذرا رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وأرضاه، وهذا أيضًا من كمال أدب الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ وحرصهم ونصحهم في بيان كلام النبي ﷺ، ولما كان للكلام بقية فاتته لهذا السبب اعتذر بهذا الأمر العارض الذي حصل له.

هذا الحديث والأحاديث التي قبلها وكذلك الأحاديث الآتية كلها في بيان عظمة الله جَلَّوَعَلَا، وأنه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ الرب العظيم والخالق الجليل والملك المتصرف المدبر لهذا الكون، وأنه تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ المستحق للعبادة وحده تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ دون سواه، وأن من صرف شيئا من العبادة والذل والخضوع لغيره ما قدر ربه تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ حق قدره وما عظمه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ حق تعظيمه.

❁ ❁ ❁

---

(١) رواه البخاري (٥٠٣٣)، ومسلم (١٨٤٤)، واللفظ له.

[النهي عن الاستشفاع بالله على أحد]

٣٥- وَعَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ عَنْ جَدِّهِ قَالَ: جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ جَهِدَتِ الأَنْفُسُ وَضَاعَتِ العِيَالُ، وَنُهِكَتِ الأَمْوَالُ، وَهَلَكَتِ الأَنْعَامُ، فَاسْتَسْقِ لَنَا رَبَّكَ، فَإِنَّا نَسْتَشْفِعُ بِكَ عَلَىٰ اللهِ وَباللهِ عَلَيْكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**وَيْحَكَ! أَتَدْرِي مَا تَقُولُ؟!**» وَسَبَّحَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَمَا زَالَ يُسَبِّحُ حَتَّىٰ عُرِفَ ذَلِكَ فِي وُجُوهِ أَصْحَابِهِ، ثُمَّ قَالَ: «**وَيْحَكَ! إِنَّهُ لَا يُسْتَشْفَعُ بِاللهِ عَلَىٰ أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ، شَأْنُ اللهِ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ، وَيْحَكَ أَتَدْرِي مَا اللهُ؟! إِنَّ عَرْشَهُ عَلَىٰ سَمَوَاتِهِ لَهَكَذَا**» وَقَالَ بِأَصَابِعِهِ مِثْلَ القُبَّةِ عَلَيْهِ «**وَإِنَّهُ لَيَئِطُّ بِهِ أَطِيطَ الرَّحِلِ بِالرَّاكِبِ**». رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ(١).

أورد المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الحديث؛ حديث جبير بن مطعِّم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في باب قول الله تعالىٰ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعٗا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧]، وقد ساق المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الحديث لما فيه من بيان وجوب تعظيم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأن من تعظيمه جَلَّ وَعَلَا أن يصون المسلم كلامه من كل قولٍ يتنافىٰ مع التعظيم ويتنافىٰ مع معرفة العظمة لله جَلَّ وَعَلَا، وفي الحديث تنبيه إلىٰ أن خطأ الإنسان فيما يتعلق بالله جَلَّ وَعَلَا أو أسمائه وصفاته فرعٌ عن نقص المعرفة بالله جَلَّ وَعَلَا، وأن المعرفة به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إذا تمكنت من القلب فإن أقوال الإنسان بإذن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يكون فيها

---

(١) رواه أبو داود (٤٧٢٦)، وضعفه الألباني في «ضعيف أبي داود» (١٠١٧).

السلامة؛ لأنه يتكلم عن تعظيمٍ لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ علىٰ ضوء ما جاء في كتابه وسنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه.

حديث جبير الذي ساقه المصنف فيه أن أعرابيا جاء إلىٰ النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وقال: «**يا رسول الله جهدت الأنفس**» أي أصابها الجهد؛ وهو المشقة والتعب.

«**وضاعت العيال**» لأنه لم يجد لهم أولياءهم ما ينفقون عليهم، لم يجدوا لهم القوت والطعام.

«**ونهُكت الأموال**» أي: الأموال بدأت تقِّل وتضعف وتنقص.

«**وهلكت الأنعام**» أي: بسبب القحط وقلة المياه وجفاف الزروع والنبات.

«**فاستسق لنا ربك**» أي: اطلب من الله وادع الله أن يسقينا أن ينزِّل علينا الغيث، وهذا الأمر كان يفعله الصحابة، ولا يزال يفعله المؤمنون؛ يُطلب من الإمام الذي يصلي بالناس أن يستسقي بهم، يتوجه إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ وهم وراءه صفوف يصلُّون ويتجهون الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بالدعاء، ويرفع يديه في دعائه ويرفعون أيديهم ويدعو ويؤمِّنون.

«**استسق لنا**» أي: اطلب من الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أن يسقينا، وهذا التوسل لا بأس به وهو التوسل بدعاء الصالحين الأحياء، أن يُطلب من الصالح الحي أن يدعو الله له، ولا يخاطَب بهذا غائب بل حي حاضر، ولا يخاطب بذلك أيضًا ميت، ولهذا لما مات النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لم يُفعل هذا معه، وإنما كانوا في حياته عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يقولون له: استسق لنا أو اطلب لنا من الله، أما بعد مماته لم يكن أحد من الصحابة وسلف الأمة يفعل شيء من ذلك، بل قال أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ كَانَ إِذَا قَحَطُوا اسْتَسْقَىٰ بِالْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَقَالَ اللَّهُمَّ إِنَّا كُنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّنَا** -

ﷺ - **فَتَسْقِينَا، وَإِنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِعَمِّ نَبِيِّنَا فَاسْقِنَا، قَالَ فَيُسْقَوْنَ**»[١].

فلماذا عدل عما كانوا عليه من طلب الدعاء من النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ؟ الجواب واضح؛ لأنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مات، وقد قال: «**إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له**»[٢]، فهذا التوسل مشروع؛ وهو التوسل بدعاء الصالحين الأحياء ولا يزال المسلمون يفعلونه.

قال: «**فاستسق لنا ربك**»: يعني اطلب لنا من الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أن يسقينا وأن ينزل لينا الغيث.

قال: «**فإنا نستشفع بك علىٰ الله وبالله عليك**» أي: نطلب منك أن تشفع لنا عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهذا الكلام كلامٌ خاطئ ولا يليق أن يقال في حق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وذلك لأن معرفة الله عَزَّوَجَلَّ وتعظيمه جَلَّ وَعَلَا حق تعظيمه تأبىٰ هذا الكلام، والاستشفاع يكون للأعلىٰ، أما أن يطلب من الأعلىٰ الذي بيده أزمة الأمور ومقاليد السماوات والأرض، الذي ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، يُطلب منه أن يشفع! هو بيده أزمة الأمور جميع المخلوقات نواصيها بيده وكلها طوع أمره وتدبيره وتسخيره والأمر له جَلَّ وَعَلَا من قبل ومن بعد، فكيف يقال في فهذه الكلمة في حق من هذا شأنه؟ فهي تتنافىٰ مع ما ينبغي أن يكون عليه المسلم من التعظيم لله جَلَّ وَعَلَا.

فقال النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**ويحك أتدري ما تقول؟**» انتبه لهذه الكلمة جيدًا «**أتدري ما تقول؟**» هذه الكلمة تكشف لك عن واقع كثير من الناس وهي أن كثيرًا منهم يقول كلامًا ولا يدري ما يقولوا ولا يدري أبعاد قوله، وقد يكون في قوله جنوح

---

(١) رواه البخاري (١٠١٠).

(٢) رواه مسلم (١٦٣١).

أو زلل أو خطأ أو انحراف ولا يدري عن أبعاد قوله، حتىٰ إن كثيرًا منهم عندما ينبَّه علىٰ خطأ درج عليه لسانه وتكرر عليه مدة طويلة في زمانه وعمره يقول سبحان الله أول مرة أنتبه لهذا، أول مرة أعرف هذا، وتجده ربما هذه الكلمة قالها مئات المرات في حياته.

إذًا هذا يبين لنا أن ثمة مشكلة في كثير من الناس في أقوالهم أنه يقول كلاما وهو في الحقيقة لا يدري ما يقول، ومعنىٰ لا يدري ما يقول: يعني لا يعرف أبعاده لا يعرف ماذا يحتوي عليه هذا الكلام من خطأ، لأنه لو كان يدري ما يقول لما قال كلاما يتنافىٰ مع تعظيم الله، لأنه هو في نفسه معظم لله، في، لكن هذا خطأ درج عليه لسانه بسبب نقص المعرفة ونقص العلم؛ لهذا قال: «**أتدري ما تقول؟**» هذه حقيقة ينبغي أن نقف عندها لتكون مفتاحًا لنا في التنبه، وأن الواجب علىٰ الإنسان أن لا يكون خوضه في كل كلام ما يدري عن حقيقته، بل يجب عليه أن يكون كلامه موزونا، وأن يحسب للكلمة حسابًا.

والخطأ في القول له خطر، فقد يقول الرجل الكلمة ولا يلقي لها بالا يهوي بها في النار سبعين خريفا، «**وهل يكب الناس في النار علىٰ وجوههم أو علىٰ مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم**»[(١)]، فالمخاطرة هكذا بالكلام وبالأقوال ورميه جزافًا وكل ما دار في خلَد الإنسان أو خاطره من كلام قاله وهو ما يدري ما هو؛ هذه مخاطرة.

فالحديث يفتح للعبد بابًا في التنبه لكلامه وللخطأ في أقواله، وإذا سبرت مجالس الناس أو مجالس العوام تجدها لا تخلو من كثير من الكلمات التي تنطوي علىٰ مخالفات شرعية، إما مخالفات في باب القدر، أو مخالفات في باب الإيمان، أو

---

(١) رواه الترمذي (٢٦١٦)، وابن ماجه (٣٩٧٣)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥١٣٦).

مخالفات في باب الأسماء والصفات والتعظيم لله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، أو مخالفات في حق جناب الرسول عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ، إلىٰ غير ذلك من المخالفات اللفظية الكثيرة التي تدرج وتنتشر في كثير من العوام وهي مبنية علىٰ أنهم لا يدرون ما يقولون.

إذًا قوله عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «**أتدري ما تقول؟**» فيه تنبيه إلىٰ وزن الكلام وضبطه بضوابط الشريعة، وأن لا يكون الإنسان في ألفاظه منطلقًا يقول كل قولٍ وكل كلامٍ ما صح منه وما لم يصح، بل يضبط كلامه ويزن كلامه بموازين الشريعة.

«**أتدري ما تقول؟**» يعني هذا كلامٌ لا يقوله من يدري بكلامه ويعرف أبعاد كلامه، وفي هذا أيضًا فيه تنبيه إلىٰ أهمية العلم في ضبط الكلام، وأهمية العلم الشرعي، لأن الإنسان متىٰ ما خلا من العلم الشرعي وضعف حظه منه حصل فيه من فساد الكلام بحسب ما فرَّط فيه، فالعلم الشرعي يصون الإنسان ويصون ألفاظه ويصلِّح منطقه وتكون به زكاته.

هذه كلمة تقريع وزجر تأتي بها العرب للتقريع والزجر «**ويحك**».

وقوله: «**وسبح رسول الله ﷺ فما زال يسبح**» يعني بعد أن قال للرجل: «**ويحك أتدري ما تقول؟**» أخذ يسبح؛ سبحان الله سبحان الله سبحان الله يكررها عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ، ويرددها.

«**حتىٰ عُرِف ذلك في وجوه أصحابه**» يعني عُرف تغير النبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ وظهور الغضب عليه صلوات الله وسلامه عليه، وأصحاب النبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ كانوا يعرفون من وجهه عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ الأمر؛ إذا كان الفعل أو القول محرما عرفوه من وجهه، وإذا كان باطلا عرفوه من وجهه، وإذا كان أمرا طيبا مباحًا عرفوه من وجهه كذلك.

«**حتىٰ عرف ذلك في وجوه أصحابه**» أي: التأثر الذي كان ظهر علىٰ النبي

عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ الغضب.

ثُم أعاد الخطاب للرجل منبهًا له علىٰ خطأه بعد أن سبح عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، والتسبيح: تنزيه لله، والحديث يدل علىٰ مشروعية الإتيان بالتسبيح عندما يقال في حق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قولا خطأ أو كلاما لا يليق بجلاله وعظمته، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ﴾ [البقرة: ١١٦]، وقال :جَلَّ وَعَلَا ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ١٨٠ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الصافات: ١٨٠، ١٨١] ينزه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ هنا نفسه عما يصفه به أعداء الرسل والمخالفون لهم، فالله جَلَّ وَعَلَا ينزه عن كل ما لا يليق به، والتسبيح تنزيه الله جَلَّ وَعَلَا، فلما قال هذا الأعرابي كلاما لا يليق بالله أخذ النبي ﷺ يسبح ويكرر التسبيح تنزيهًا لْناب الرب العظيم من أن يقال فيه مثل هذا.

قال: «**ويحك إنه لم يُستشفع بالله علىٰ أحدٍ من خلقه، شأن الله أعظم من ذلك**»؛ إنه لا يستشفع بالله علىٰ أحد من خلقه؛ يقول الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنما يُستشفع من الأدنىٰ للأعلىٰ، يعني يُطلب من الأدنىٰ أن يشفع عند الأعلىٰ، والأدنىٰ لا يُستشفع عند الأعلىٰ الذي هو رب العالمين إلا بإذنه سبحانه لأن الشفاعة ملكه ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ﴾ [الزمر: ٤٤]، أما أن يستشفع بالله علىٰ أحد من خلقه هذا كلام باطل، لأن الله عَزَّوَجَلَّ بيده أزمة الأمور وجميع الخلق ممالك له ومخلوقات له أوجدهم من العدم تحت مشيئته وتصرفه وتدبيره، فمن عرف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وعظَّمه لا يمكن أن يقول في حق الله اشفع لنا عند فلان أو نحو هذه الكلمة، فهذه تأتي من نقص المعرفة ونقص التعظيم لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

قال: «**إنه لم يستشفع بالله علىٰ أحد من خلقه شأن الله أعظم من ذلك**» وهذا فيه الشاهد للترجمة ولسوق المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ لهذا الحديث لبيان وجوب تعظيم الله؛ لأن قوله في الباب «**باب قول الله تعالىٰ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ﴾** [الزمر: ٦٧]» أي: ما

عظموا الله حق تعظيمه، وكل خطأ يتعلق بجناب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو من نقص التعظيم، حتىٰ الأخطاء التي تكون في ألفاظ الناس هذه من نقص التعظيم «**شأن الله أعظم من ذلك**».

«**ويحك أتدري ما الله؟**» يعني أتدري من هو الذي قلتَ في حقه هذه الكلمة قال: «**إن عرشه علىٰ سماواته لهكذا وقال بأصابعه مثل القبة عليه، وإنه ليئط به أطيط الرحل بالراكب**» هنا ينبه النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أن الرب العظيم جَلَّ وَعَلَا مستو علىٰ عرشه استواءً يليق بجلاله وكماله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كما أخبر ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]، مستو علىٰ عرشه ومماليكه كلهم تحته وأيضا تحت تدبيره، ومشيئته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيهم نافذة وقدرته شاملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٠]، وكلهم طوع تدبيره وتسخيره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، لا مانع لما أعطىٰ ولا معطي لما منع، لا خافض لا رفع ولا رافع لما خفض، الأمور كلها بيده، فهل إنسان عرف الله عَزَّ وَجَلَّ بهذه الصفة يليق به أن يقول مخاطبا الرب العظيم «**اشفع لنا عند فلان**»!! والملك ملكه والخلق خلقه وهو عليٌّ عليهم وهم تحت تدبيره وتسخيره، أيقال في حق من هذا شأنه اشفع لنا عند فلان ؟! وفلان وغيره وجميع المخلوقات ملك له وتحت تدبيره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ «**أتدري ما الله؟**» يعني من عرف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ما يقول هذا الكلام.

وهذا فيه فائدة: أن معرفة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بأسمائه وصفاته سبب صلاح العبد، وأن العبد كلما كان بالله أعرف وبأسمائه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وبصفاته صلحت أموره ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨] من كان بالله أعرف كان منه أخوف، ولعبادته أطلب، وعن معصيته أبعد لأن المعرفة بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وبأسمائه وصفاته هي التي تسوق العبد إلىٰ كل خير، ورفعة وعز وفلاح في الدنيا والآخرة، وإذا نقصت هذه

المعرفة ونقص حظ العبد ونصيبه منها يحصل عنده من أنواع الفساد وأنواع الخطأ وأنواع الانحراف الشيء الكثير.

«**إن عرشه علىٰ سماواته لهكذا، وقال بإصبعه كالقبة عليه**»: بمعنىٰ أن العرش سقف للمخلوقات، وهذا أمر دلت عليه النصوص وشواهده كثيرة في السنة، العرش سقف المخلوقات بل المعنىٰ الذي جاء في هذا الحديث وهو أن العرش للمخلوقات كالقبة بعض أهل العلم استشهد له بالحديث الذي في الصحيح وهو قول النبي ﷺ: «**إذا سألتم الله فسلوه الفردوس؛ فإنه أوسط الجنة وأعلىٰ الجنة وفوقه عرش الرحمن**»(١)، قال أهل العلم: ومثل هذا لا يكون إلا ما كان علىٰ هيئة القبة، فعرش الرحمن هو سقف المخلوقات وهو أعلاها وأرفعها وأوسعها ﴿ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ﴾ [البروج: ١٥] أي الواسع، فهو أوسع المخلوقات وأكبرها وأعظمها، وهو فوق المخلوقات والله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ مستو علىٰ عرشه يدبر أمر المخلوقات؛ يأمر وينهىٰ، يخفض ويرفع، يعز ويذل، يعطي ويمنع، يبسط ويقبض، يحيي ويميت، يدبر الأمر والكل تحت تدبيره، لا يكون في هذا الملك وهذا الكون في العالم من حركة إلا بتدبير الملك لمُلكه، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

«**وقال بأصابِعِهِ مثل القبةِ عليه وإنه ليئِطّ به أطِيط الرحلِ بالراكبِ**» فهنا الحديث في ذكر العرش وذكر علو الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ واستوائه علىٰ عرشه، وفيه تعظيم الله جَلَّوَعَلَا، وفيه صيانة الألفاظ والبعد عن الخطأ والغلط في حقه سُبۡحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وهذه المعاني كلها معاني صحيحة لها شواهدها ودلائلها في كتاب الله وسنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه.

---

(١) رواه البخاري (٧٤٢٣).

والحديث رواه أبو داود في «**سننه**»، ومن أهل العلم من حسَّن هذا الحديث، ومنهم من تكلم فيه من جهة الإسناد لأن فيه عنعنة محمد بن إسحاق، فبعض أهل العلم ضعَّف الحديث من جهة إسناده ومنهم من حسَّن الحديث، لكن المعاني التي في الحديث التي هي إثبات العرش وإثبات استواء الله علىٰ العرش وإثبات عظمة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ والنهي عن مثل هذه الألفاظ ونحو ذلك هذا كله شواهده ودلائله في كتاب الله وسنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه كثيرة.

❊ ❊ ❊

[صبرالله تعالى على تكذيب المخلوق له]

٣٦- وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، أَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: لَنْ يُعِيدَنِي كَمَا بَدَأَنِي، وَلَيْسَ أَوَّلُ الخَلْقِ بِأَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ إِعَادَتِهِ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا، وَأَنَا الأَحَدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ**»(١).

٣٧- **وفي روايةٍ عن ابنِ عباسٍ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «**وأمَّا شتمه إِيَّاي فقوله: لي ولدٌ، وسبحاني أنْ أتخِذ صاحِبة أو ولدا» رواه البخاريّ**(٢).

ثُم أورد المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ في باب تعظيم الله جَلَّ وَعَلَا حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله عَزَّوَجَلَّ»، وكل حديثٍ يرويه الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عن ربه يقول فيه «قال الله عَزَّوَجَلَّ» فهو حديث قدسي، وهو بألفاظه ومعانيه كلام الله عَزَّوَجَلَّ.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: «**كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ابن آدم ولم يكن له ذلك**» قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: «**كذبني ابن آدم**» المقصود بابن آدم ليس جميع بني آدم، وإنما المقصود من بني آدم الكفار الذين ينكرون البعث ويشركون بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ويتخذون الأنداد وينسبون لله الولد، سواء من مشركي العرب أو من أهل الكتاب أو من غيرهم.

---

(١) رواه البخاري (٤٩٧٤).

(٢) رواه البخاري (٤٤٨٢).

قال: «**ولم يكن له ذلك، وشتمنِ ولم يكن له ذلك**» قوله في الموضعين «**ولم يكن له ذلك**» فيه الشاهد للترجمة؛ لأن الواجب في حق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يعظَّم وأن لا يخطئ الإنسان في حقه جَلَّ وَعَلَا، لا بقول فيه تكذيب ولا بقول فيه شتم أو انتقاص، وأن تعظيم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يتنافىٰ مع ذلك قال: «**ولَم يكن له ذلك**» أي: ليس له أن يقول في حق الرب العظيم والخالق الجليل سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مثل هذا الكلام فجناب الله أعظم عَزَّ وَجَلَّ. قال: «**كذبني ابن آدم ولَم يكن له ذلك وشتمني ولَم يكن له ذلك**» ثُم بيَّن ذلك، بيَّن التكذيب وبيَّن الشتم ما هو.

قال: «**أما تكذيبه إياي؛ فقوله: لن يعيدنِي كما بدأنِي**» وهذا كلام الدهرية وغيرهم من منكري البعث ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ﴾ [التغابن: ٧].

قال: «**أما تكذيبه إياي فقوله لن يعيدني كما بدأني**» أي: أن الله لن يعيد المخلوقات ولن يعيد الناس كما بدأهم؛ وهذا تكذيب لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لأن الله أخبر وأخبرت رسله بأن الناس يبعثون ويقفون بين يدي الله وإليه يعودون ويجازيهم بأعمالهم يثيب المحسن ويعاقب المسيء، فمن نفىٰ ذلك كذب الله جَلَّ وَعَلَا.

قال: «**أما تكذيبه إياي فقوله لن يعيدنِي كما بدأنِي، وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته**» أول الخلق: أي خلْقه لهذه المخلوقات من العدم، فأوجد التراب بعد أن لم يكن، وخلق آدم من التراب، وخلق بني آدم من نطفة، نطفة آدم ثُم نطف ذريته فموُجد بني آدم بالتوالي، فالذي أوجد هذه المخلوقات من العدم أهون عليه، والأمر كله هين عليه سبحانه وإنما هذا لبيان الأمر وتوضيحه، فعندما تنظر للأمر من حيث هو لا من حيث قدرة الله: فخلْق المخلوقات وإيجادها من العدم أو إيجادها بعد أن تَموت؛ فأي الأمرين أهون من حيث هو؟ فهذا المقصود، أما الله عَزَّ وَجَلَّ كل شيء عليه هين ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، ﴿وَمَا

كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٤٤]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٠] فقدرته سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ شاملة لكل شيء ومشيئته نافذة جَلَّوَعَلَا، ولا راد لحكمه، عطاؤه كلام ومنعه كلام، إذا أراد شيء قال له كن فكان جَلَّوَعَلَا، خلَقَكم من العدم لا يعيدكم بعد أن أماتكم!! من يتفكر في عقله يجد الأمر في غاية الخطأ والانحراف، لأن من أوجد من العدم قادر علىٰ أن يوجد بعد أن يميت الناس، والأمر كله هين عليه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

قال: «**وأما شتمه إياي فقوله: اتخذ الله ولدًا**» أي: نسبة الولد إلىٰ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وهذا شتم، وانتقاص لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

قال: «**وأنَا الأحد الصمد**» هذا فيه فائدة أن معرفة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بأسمائه وصفاته تصون الإنسان من الغلط، فمن عرف الله بأنه الأحد ومن عرفه تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ بأنه الصمد فإنه ينزهه عما يتنافىٰ مع أحديته وصمديته.

«الأحد» دال علىٰ أحديته أي: تفرد سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بالكمال والجلال وتنزه عن الشبيه والمثال جَلَّوَعَلَا.

واسمه «الصمد» يدل علىٰ كمال صفاته وكمال غناه وافتقار جميع المخلوقات إليه، فالصمد هو «السيد الذي قد كمُل في سُؤدَده، والشريف الذي قد كمل في شرفه، والعظيم الذي قد عظم في عظمته، والحليم الذي قد كمل في حلمه، والغني الذي قد كمل في غناه، والجبَّار الذي قد كمل في جبروته، والعالم الذي قد كمل في علمه، والحكيم الذي قد كمل في حكمته، وهو الذي قد كمل في أنواع الشرف والسؤدد، وهو الله سبحانه هذه صفته، لا تنبغي إلا له»(١) كما جاء عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٤/ ٦٩٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠/ ٣٤٧٤).

فالصمد الذي هو الكامل في صفاته فلا يليق أن يقال في حقه له ولد أو له صاحبة، والأحد المتفرد بصفات الكمال ونعوت الجلال لا يليق في حقه أن يقال له ولد؛ فهذا من وصفه بما لا يليق به من النقائص والعيوب تنزه وتقدس عن ذلك.

قال: «**وأما شتمه إياي فقوله اتخذ الله ولدا وأنا الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد**»؛» **لم يلد**»: نفي لوجود الأصل،« **ولم يولد**» نفي لوجود فرع.

«**ولم يكن له كفوًا أحد**»، والكفؤ: هو النظير والمثيل والسمي ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥] استفهام بمعنىٰ النفي، أي لا سميَّ له، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١]، ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [النحل: ٧٤]، ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠]، ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢] فالله عَزَّوَجَلَّ لا سمي له ولا كفؤ له ولا نظير له، تنزه وتقدس عن ذلك.

قال «**وفِي رواية: عن ابن عباس** رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا **قال: وأما شتمه إياي فقوله: لِي ولد**» أي نسبة الولد إلىٰ الله «**وسبحانِي**» سبح تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ نفسه أي نزه نفسه، وتسبيح الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ لنفسه كثير في القرآن: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٨٠ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ١٨٠، ١٨٧] سبح نفسه جَلَّوَعَلَا عما يقوله أعداء الرسل، وسلَّم علىٰ المرسلين لسلامة ما قالوه في حق الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ من النقص والعيب.

قال: «**سبحانِي أن أتخذ صاحبة أو ولدًا**» فنسبة الولد لله وكذلك نسبة الصاحبة هذا فيه انتقاص وهو يتنافىٰ مع التعظيم، والواجب هو تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ وقدره حق قدره سبحانه كما هو المقصود والمراد بهذه الترجمة قول الله جَلَّوَعَلَا ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧].

❊ ❊ ❊

[النهي عن سبِّ الدهر]

٣٨- وَلَهُمَا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ؛ يَسُبُّ الدَّهْرَ، وَأَنَا الدَّهْرُ، بِيَدِيَ الأَمْرُ، أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ**»[1].

ثُم أورد المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ هذا الحديث عن النبي ﷺ أن الله تعالىٰ يقول: «**يؤذِيني ابن آدم**» أيضًا المراد بابن آدم ليس الجميع وإنما المراد بابن آدم: أي من يقع منهم هذا الخطأ ومن يقع منهم مثل هذا الكلام، أما من كان سالما من ذلك وهم الرسل وأتباع الرسل بإحسان؛ هؤلاء لم يقع منهم هذا الأمر وحفِظهم الله عَزَّوَجَلَّ منه وصانهم، فالمراد بابن آدم: أي من يقع في هذا الخطأ ومن يقع في مثل هذا الكلام.

وقوله هنا «**يؤذيني ابن آدم**» لا يتنافىٰ مع ما جاء في الحديث القدسي الآخر حديث أبي ذر «**يَا عِّبَادي إِنَّكُمْ لَنْ تَبلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِّي**»؛ فالعبد مهما فعل ومهما كان منه من قول أو فعلٍ لن يبلغ ضر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ﴿**وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ**﴾ [الأنعام: ٦١]، وهو جَلَّ وَعَلَا القدير علىٰ كل شيء، وهو القاصم لظهور الجبابرة والظلمة والبغاة ﴿**وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ**﴾ [هود: ١٠٢]، لأن هذا أذىٰ قولي يعني كلام قولي يقوله الإنسان وهو كلامٌ فيه أذىٰ، وكلام فيه سوء، كلام فيه قبح.

فالإيذاء ليس بمعنىٰ الضر، فالله عَزَّوَجَلَّ نفىٰ الضر وأثبت الإيذاء؛ قال «**يؤذيني ابن آدم**»، والإيذاء كلمات يقولها ابن آدم وهي مؤذية، والعبد مهما قال من كلامٍ أو

---

(١) رواه البخاري (٤٨٢٦)، ومسلم (٢٢٤٦).

فعل من أمرٍ لن يبلغ ضر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ «**إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِّي**».

قال: «**يؤذيني ابن آدم**» ثُم بيَّن ذلك قال: «**يسب الدهر**» أي يشتم الدهر، والدهر: هو تقلب الليل والنهار، الأيام، الشهور، السنوات، الأسابيع، الساعات، الدقائق كلها أجزاء للدهر، فالدهر هو تقلب الليل والنهار، وتقلب الليل والنهار في سنوات وفي شهور وفي أسابيع وفي أيام وفي ساعات وفي دقائق هذا كله تسخير من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وتدبير، فالأسبوع واليوم والشهر والساعة والدقيقة كلها لا تَملك من أمرها شيء بل هي مسخرة مدبرة، والمسخِّر والمدبر لها رب العالمين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فالله يقول: «**يؤذيني ابن آدم يسب الدهر**» ما هو سب الدهر؟ أن يقول الإنسان عندما يحصل له مشكلة معينة أو أمر معين أو شيء مؤذٍ فيسب الدهر؛ يسب الساعة، أو يسب اليوم، أو يسب الشهر، أو يسب الزمان، أو نحو ذلك من الأوقات، يعني مثلا يدرج علىٰ ألسنة الناس كثير من الألفاظ التي تدخل في الحديث، ليس المراد يسب الدهر أن يكون السب متجه إلىٰ هذه اللفظة بذاتها، بل كل ما كان بمعنىٰ الدهر أو جزء من أجزائه، فتجد بعض الناس علىٰ سبيل المثال إذا وقع له مشكلة مع شخص معين سب الساعة أو يصفها بصفات وهي ليس لها من أمرها شيء، واليوم ليس له من أمره شيء، فهذه المراحل هي مسخَّرة ومدَّبرة.

و ليس المراد» **أنا الدهر**» أن الدهر اسم من أسمائه أو صفة من صفاته جَلَّجَلَالُهُ، بل جاء المعنىٰ مبينا في الحديث «**أقلب الليل والنهار**» فالدهر الذي هو تقلب الليل والنهار تقلبه بمشيئة الرب، فالدهر مقلَّب ليس له من تقلبه أمر أو اختيار، فسب المقلَّب سبٌ لمقلبه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةً﴾ [الفرقان: ٦٢] الله جَلَّوَعَلَا جعل الليل والنهار بهذه الصفة، والليل والنهار والساعات والدقائق كلها بتسخيره وتدبيره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فسب المسخر سبٌ لمسخره، سب المدبَّر سب

لمدبره، سب المقلَّب سبٌ لمقلبه.

والشاهد في الحديث للترجمة: أن سب الدهر يتنافى مع تعظيم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ فمن نقص تعظيم المرء لله أن يسب الإنسان الساعة أو يسب الزمان أو يسب اليوم أو يسب الدقيقة أو اللحظة أو ما أشبه ذلك كل ذلك سبه من نقص تعظيم الله جَلَّ وَعَلَا.

والمصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ عندما ساق أنواع الأحاديث في هذا الباب أراد أن ينبهك تنبيها جميلا نافعًا أن باب التعظيم لله باب واسع جدًّا يصحبك في كل حياتك في كل كلماتك في كل حركاتك، يجب أن تكون دائما في كل ما تقول وفي كل ما تفعل معظما لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وإياك أن ينزلق بك الكلام هنا أو هناك وفي أي موطن فتأتي بكلمات تتنافى مع ما ينبغي أن يكون عليه المسلم من تعظيم لله جَلَّ وَعَلَا.

❋ ❋ ❋

بابُ: الإِيمانِ بِالقدرِ

وقوْلِ اللهِ تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ١٠١﴾ [الأنبياء: ١٠١].

وقوْلِهِ تعالىٰ: ﴿وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قَدَرٗا مَّقۡدُورًا ٣٨﴾ [الأحزاب: ٣٨].

وقوْلِهِ تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ٩٦﴾ [الصافات: ٩٦].

وقوْلِهِ تعالىٰ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ ٤٩﴾ [القمر: ٤٩].

«**بابٌ الإيمان بالقدر**»: الإيمان بالقدر أصل من أصول الإيمان وركن من أركان الدين وأساس من أسسه العظام، بل لا إيمان لمن لا يؤمن بالقدر، ولا يؤمن بالله عَزَّوَجَلَّ من لا يؤمن أن الأمور بقدره جَلَّوَعَلَا، فالإيمان بالقدر أصلٌ عظيم من أصول الإيمان، ولهذا لما سأل جبريل النبي ﷺ في الحديث المشهور عن الإيمان قال: أخبرني عن الإيمان، قال: «**أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وأن تؤمن بالقدر خيره وشره**»، فذكر عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أصول الإيمان ستة وعدّ منها الإيمان بالقدر. فالإيمان بالقدر أصل من أصول الإيمان، ولا ينتظم لعبد إيمانٌ ولا توحيدٌ إلا إذا آمن بالقدر، ولهذا جاء عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أنه قال: «الإيمان بالقدر نظام التوحيد، فمن وحد الله وكذب بالقدر نقض تكذيبُه توحيده»[(١)]؛ أي نقض تكذيبه بالقدر توحيده لله عَزَّوَجَلَّ، بمعنىٰ أنه لا يمكن أن يكون مؤمنًا بالله عَزَّوَجَلَّ إلا إذا

---

(١) رواه عبد الله بن أحمد في «السنة» (٩٢٥)، واللالكائي في «شرح الاعتقاد» (١٢٢٤).

آمن بالقدر، ويوضح هذا المعنىٰ الذي قرره ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قول الإمام أحمد رَحِمَهُٱللَّهُ: «القدر قدرة الله»[1] فمن لا يكون مؤمنا بقدرة الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ فهو ليس مؤمنا بالله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ؛ فينتقض الإيمان وينهدم التوحيد إذا جحد الإنسان القدر أو لم يؤمن بقدر الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، فالإيمان بالقدر أصل عظيم من أصول الإيمان وركن عظيم من أركان الدين ودعامة من دعائمه، كما قال ابن أبي داود رَحِمَهُٱللَّهُ في حائيته المشهورة:

وبالقدر المقدور أيقن فإنه دِعامة عقد الدين والدين أفيح

فالإيمان بالقدر دعامة لهذا الدين، ومن المعلوم أن دعامة الشيء هي أساسه الذي عليه بناؤه وقيامه.

والبيت لا يبتنىٰ إلا بأعمدة ولا عماد إذا لم تُرس أوتاد

فالإيمان لا يقوم إلا علىٰ أصول عظيمة وأسس متينة ودعائم قويمة عليها بناؤه وقيامه، من هذه الأصول العظام والأسس الكبار: الإيمان بقدر الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ؛ ولهذا عقد الإمام رَحِمَهُٱللَّهُ تعالىٰ هذه الترجمة في كتابه الإيمان، مبينًا فيها هذا الأصل العظيم ألا وهو الإيمان بالقدر.

والإيمان بالقدر أساسٌ لسعادة الإنسان وفلاحه في الدنيا والآخرة وطمأنينة قلبه وسكون نفسه، أسعد الناس في الدنيا والآخرة وأهنؤهم عيشًا وأكثرهم طمأنينةً وسكونًا وقرارًا أهل الإيمان بالقدر، فالإيمان بالقدر يجلب للعبد الخيرات والمسرات والراحات في الدنيا والآخرة، وقد قال عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «**عجبًا لأمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنّ أَمْرهُ كُلّهُ، خيْرٌ وليْس ذاك لأحد إِلاّ لِلْمُؤْمِنِ إِنْ أصابتهُ سرّاءُ شكر فكان**

---

(١) رواه الخلال في «السنة» (٩٠٤).

خيْرًا لهُ وإِنْ أصاب تهُ ضرّاءُ صبر فكان خيْرًا له[(١)]»، المؤمن يعلم أن ما وُفق له أو ما ناله من نعمة فهي من الله عَزَّوَجَلَّ فيحمد المنعِم جَلَّوَعَلَا لأنه يسّرها وقدرها وكتبها فيحمده تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عليها، وإذا أصيب بمصيبة أو بلاء أو نحو ذلك فإنه يعلم أنه من عند الله ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ﴾ [التغابن: ١١] فيرضىٰ ويسلم ويصبر، ولهذا قال: «**ولا يكون ذلك إلا للمؤمن**»؛ لأن الإيمان هو الذي يُوجِد هذه الطمأنينة ويوجد هذه الراحة والقرار والسكون للقلب.

فالإيمان بالقدر له آثاره العظيمة علىٰ العبد من حيث قوة صلته بالله وتمام التجائه إليه وكثرة دعائه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وسؤاله والإلحاح عليه؛ لأن الأمور بيده وبقضائه وقدره سبحانه؛ فله فوائد عظيمة وجليلة جدًّا، والمصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ عقد هذه الترجمة ليبين هذا الأصل العظيم من أصول الإيمان.

وينبغي أن يُعلم هنا: أن العبد لا يكون مؤمنًا بالقدر إلا إذا آمن بمراتب القدر التي دل عليها القرآن ودلت عليها سنة النبي الكريم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فلا يؤمن بالقدر من لا يؤمن بمراتبه المذكورة في القرآن والسنة، وهي كما بيّن أهل العلم أربعة مراتب:

الأولىٰ: الإيمان بعلم الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ الشامل المحيط الذي وسع كل شيء؛ فعلمه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بما كان وبما سيكون وبما لم يكن لو كان كيف يكون، وأنه عَزَّوَجَلَّ أحاط بكل شيء علمًا وأحصىٰ كل شيء عددًا ووسع كل شيء رحمة وعلمًا، وأن علمه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ محيط بكل شيء، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، فمن الإيمان بالقدر الإيمان بعلم الله، وأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ علم ما كان وعلم ما سيكون

---

(١) رواه مسلم (٢٩٩٩).

وأحاط علمه بكل شيء في الأزل علمًا محيطًا بكل شيء، كل ما وقع وكل ما يقع أحاط به علم الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في الأزل، فمن الإيمان بالقدر الإيمان بعلم الله عَزَّوَجَلَّ وأن علمه محيط بكل شيء وسع كل شيء.

المرتبة الثانية: الإيمان بأن الله كتب ما هو كائن من مقادير الخلائق إلىٰ يوم القيامة؛ كتبه جَلَّوَعَلَا في اللوح المحفوظ، وهذه الكتابة لمقادير الخلائق كانت قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وكل ما يكون كُتب كذلك وسيأتي الدليل عند المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ من السنة «**إن الله كتب مقادير الخلائق قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة**»(١) كل شيء كُتب، فمن الإيمان بالقدر أن نؤمن بأن الله عَزَّوَجَلَّ كتب كل شيء، كتب كل ما هو كائن إلىٰ يوم القيامة؛ من حركة، من سكون، من قيام، من قعود، من نوم، من طاعة، من فتور، من بر أو إحسان أو عصيان أو غير ذلك، كل ذلك كُتب، كتبه الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في اللوح المحفوظ ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ [الحج: ٧٠]، ﴿وَكُلُّ شَيۡءٖ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ۝٥٢ وَكُلُّ صَغِيرٖ وَكَبِيرٖ مُّسۡتَطَرٌ﴾ [القمر: ٥٢، ٥٣]. فهذه المرتبة الثانية؛ فمن لا يؤمن بالكتابة لا يؤمن بالقدر؛ لأن من الإيمان بالقدر أن نؤمن بالكتابة، كما أن من الإيمان بالقدر أن نؤمن بعلم الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ الذي أحاط بكل شيء.

المرتبة الثالثة: أن نؤمن بمشيئة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ النافذة وقدرته سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ الشاملة، وأنه جَلَّوَعَلَا علىٰ كل شيء قدير وأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن وأن كل شيء يقع إنما يقع بمشيئته وإذنه جَلَّوَعَلَا، قال تعالىٰ: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٨، ٢٩]، فالأمور لا يمكن أن تكون

---

(١) رواه مسلم (٢٦٥٣).

إلا بمشيئة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، فمشيئته نَّافذة: أي أن أيّ شيء يشاؤه لابد أن ينفذ، لا راد لحكمه ولا معقب لقضائه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ويقع طبقا لما شاء، فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قدير علىٰ كل شيء ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، فمن الإيمان بالقدر الإيمان بالمشيئة النافذة والقدرة الشاملة وأن ما شاء الله عَزَّوَجَلَّ كان وما لم يشأ لم يكن، وفي هذا يقول الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ في أبيات له جميلة:

ما شئتَ كان وإن لم أشأْ ... وما شئتُ إن لم تشأْ لم يكن

خلقت العباد علىٰ ما علمت ... ففي العلم يجري الفتىٰ والمسن

علىٰ ذا مننت وهذا خذلت ... وهذا أعنت وذا لم تعن

فمنهم شقي ومنهم سعيد ... ومنهم قبيح ومنهم حسن[1]

(ما شئت كان وإن لم أشأ)، كل ذلك بتقدير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وكل ذلك بمشيئته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ النافذة؛ فأي شيء تشاؤه يا الله يكون ويقع وإن لم أشأه أنا، والشيء الذي أشاؤه أنا العبد إن لم تشأه يا الله لا يكون، وهذا هو معنىٰ قوله سبحان وتعالىٰ: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٨، ٢٩]، إذًا من إيماننا بالقدر أن نؤمن بمشيئة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ النافذة وبقدرته تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ الشاملة، ومن لا يؤمن بهذا لا يؤمن بالقدر.

المرتبة الرابعة من مراتب الإيمان بالقدر: الإيمان بأن الله خالق كل شيء؛ خالق العباد وخالق أيضًا حركات العباد وسكناتهم وأعمالهم، فالعباد مخلوقون وأيضًا أعمالهم مخلوقة، كما قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦]، أي أنه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ الخالق للعباد والخالق أيضًا لأعمال العباد، فالكل مخلوقٌ لله

---

(١) رواه اللالكائي في «شرح الاعتقاد» (١٣٠٤).

تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، العباد في أشخاصهم وذواتهم وهيئاتهم وصورهم مخلوقين لله، «فمنهم قبيح ومنهم حسن»، وأعمال العباد من أعمال بر وإحسان أو أعمال فسق وعصيان كل ذلك مخلوق لله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، فنؤمن بأن الله خالق كل شيء، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ﴾ [الزمر: ٦٢]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦]، وقال تعالىٰ: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]، فمن الإيمان بالقدر أن نؤمن بأنه جَلَّوَعَلَا خالق كل شيء.

فهذه مراتب أربعة للقدر جمعها أحدهم في بيت فقال:

علـــمٌ كتابـــة مولانـــا مشـــيئته   وخلْقـــه وهـــو إيجـــادٌ وتكـــوين

فهذه المراتب الأربعة لا يكون مؤمنًا بالقدر من لا يؤمن بها؛ العلم، والكتابة، والمشيئة، والإيجاد.

«العلم» أي: علم الله المحيط بكل شيء، و«الكتابة» أي: كتابة الله عَزَّوَجَلَّ لمقادير الخلائق، و«المشيئة» أي: مشيئته تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ النافذة، و«الخلق» أي: كونه تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ خالق كل شيء.

وهذا كما تلاحظ كله من الإيمان بالله؛ إيمانٌ بعلمه، إيمانٌ بأنه كتب كل شيء، إيمانٌ بمشيئته بقدرته، إيمانٌ بأنه الخالق جَلَّوَعَلَا، فكيف يكون مؤمنًا بالله من لا يؤمن بهذه المراتب للإيمان بالقدر؟!

وبهذا البيان نعلم أن التوحيد كما قال ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا لا ينتظم ولا يستقيم ولا يصلح إلا إذا آمن العبد بأقدار الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ وأن الأمور كلها بقدر الله جَلَّوَعَلَا، وهذا الأصل العظيم من أصول الإيمان وردت عليه دلائل كثيرة تدل علىٰ وجوب الإيمان بالقدر، وتقرر أن الأمور كلها بقدر الله سُبۡحَانَهُوَتَعَالَىٰ ومشيئته تعالىٰ، وهي كثيرة جدًّا في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ وسنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه، وقد أورد

المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ طرفًا من هذه الأدلة.

فبدأ أولًا بقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١]؛ عنها: أي عن النار التي ذكرت في الآية التي قبل هذه الآية، فهم عنها مبعدون أي: لا يسمعون حسيسها ولا يقتربون منها ولا يدخلونها بل ينجيهم الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ منها بمنه وكرمه.

والشاهد من الآية للترجمة: قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ﴿سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ﴾؛ أي فيما علِمه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الأزل وكتبه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في اللوح المحفوظ، فمن علم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الأزل وكتب في اللوح المحفوظ أن لا يدخل النار لا يدخلها؛ لأن أهل النار كتب الله عَزَّوَجَلَّ في اللوح المحفوظ من هم وأعمالهم وما يقومون به، وأهل الجنة أيضًا كتب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في اللوح المحفوظ من هم وأعمالهم وما يقومون به، فالذين سبقت لهم من الله عَزَّوَجَلَّ الحسنىٰ فيما علِمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الأزل وفيما كتبه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في اللوح المحفوظ هؤلاء مبعدون عن النار لا يدخلونها وينجيهم الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ منها، لأنهم سبقت لهم من الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ الحسنىٰ.

وهنا يتبين لك الفائدة العظيمة التي يربحها المؤمن عندما يكون مؤمنا بالقدر وأن أهل الجنة كُتبوا وأن أهل النار أيضًا كُتبوا يظهر لك هنا الفائدة العظيمة ألا وهي: قوة التجاء المؤمن إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وانطراحه بين يديه جَلَّ وَعَلَا رجاءً وطمعًا ورغبًا ورهبًا في منّه وفضله وجوده وإحسانه دعاءً ورجاءً وسؤالًا وإلحاحًا لأن الأمر كله بيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فعندما يقرأ المسلم هذه الآية متأملًا لمعناها حقًّا وصدقًا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ﴾ قلبه يمتلأ طمعًا في أن يكون من هؤلاء الذين سبقت لهم الحسنىٰ من الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، يرجو ذلك ويطمع ويسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يجعلهم من هؤلاء وأن يعيذه من سبيل أهل الشقاء والهلاك،

قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ﴾.

ثم أورد قول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قَدَرٗا مَّقۡدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨]؛ وهذا أيضًا دليل من الأدلة الواضحة والصريحة علىٰ أن الأمور كلها بقدر، ﴿وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قَدَرٗا مَّقۡدُورًا﴾ وهذا فيه بيان أن كل أمر يقع ويوجد علىٰ مر العصور واختلاف الأيام قدر قدره الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ وكتبه جَلَّ وَعَلَا ﴿وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قَدَرٗا مَّقۡدُورًا﴾، وليست الأمور تقع هكذا بدون سابق علم من الله عَزَّوَجَلَّ وبدون سابق كتابة أو تقدير؛ بل الأمور كلها بقدر: ﴿وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قَدَرٗا مَّقۡدُورًا﴾، قال الله عَزَّوَجَلَّ في قصة موسىٰ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿ثُمَّ جِئۡتَ عَلَىٰ قَدَرٖ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٤٠] فليس مجيء موسىٰ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ عبثا، وإنما جاء لكون الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ قدر ذلك وكتبه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

قال: **وقوله تعالىٰ**: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦]، وهذا فيه أن الأمور كلها خلقٌ لله؛ العباد بأشخاصهم وذواتهم وهيئاتهم، وأيضًا في أعمالهم من بر وفجور، وطاعة وعصيان، وإيمان وكفر وإيمان وغير ذلك كل ذلك مخلوق لله، ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ﴾؛ أي وخلق ما تعملون، فالله عَزَّوَجَلَّ خالق كل شيء.

ثم ختم أدلة القرآن بقول الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ﴾ [القمر: ٤٩]، فكل شيء خلقه الله عَزَّوَجَلَّ وأوجده أوجده بقدر، قدّره سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ وكتبه جَلَّ وَعَلَا في اللوح المحفوظ ثم خلقه وأوجده كما قدّره وكما كتبه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ في اللوح المحفوظ.

فهذه بعض الأدلة من القرآن الكريم علىٰ الإيمان بالقدر ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ١ ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ٢ وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلىٰ: ١- ٣]، فالأمور كلها بقدره تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، ثم بعد ذلك شرع رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ في ذكر الأدلة علىٰ الإيمان بالقدر من السنة.

❊ ❊ ❊

[مقادير الخلائق]

٣٩- وَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ» عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ العَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللهَ قَدَّرَ مَقَادِيرَ الخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، قَالَ: وَعَرْشُهُ عَلَىٰ المَاءِ»[١].

ثم أورد رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ هذا الحديث في «**صحيح مسلم**» من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي ﷺ أنه قال: «**إِنَّ اللهَ قَدَّرَ مَقَادِيرَ الخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، قَالَ: وَعَرْشُهُ عَلَىٰ المَاءِ**»؛ إن الله كتب مقادير الخلائق، وهنا ينبغي أن تفهم قوله: «**مقادير الخلائق**»؛ أي: الأمور التي قُدر للخلائق أن يفعلوها وأن تقع منهم، فمقادير الخلائق كتبها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في اللوح المحفوظ قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وقوله: «**مقادير الخلائق**» شامل لكل أمر قدر للخلائق أفراد وجماعات أن يقع منهم، فكل ما يفعله الخلائق قدر عليهم وكتب في اللوح المحفوظ أيًا كان حتىٰ ولو دق الأمر ولو كان من الأمور الصغيرة أو الأمور التي لا يأبه بها الناس، فكل شيء يقع من الإنسان كُتب وقدر؛ ولهذا انظر إلىٰ فقه الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في هذا الباب، جاء عن الصحابي الجليل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عبد الله بن عباس أنه قال: «كل شيء بقدر حتىٰ وضعك يدك علىٰ خدك»[٢]؛ أي: أي شيء يقع من الإنسان قُدر كُتب في اللوح المحفوظ قبل خلق

---

(١) رواه مسلم (٢٦٥٣).

(٢) رواه البخاري في «خلق أفعال العباد» (ص٤٧).

السماوات والأرض بخمسين ألف سنة.

تبارك الله رب العالمين الذي وسع كل شيء علمًا والذي وسعت قدرته كل شيء ولا يعجزه شيء تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، وكيف يؤمن بالله من يجحد هذه الحقائق العظيمة والأصول الكبار التي دل عليها كتاب الله ودلت عليها سنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه!

قال: «**إِنَّ اللهَ قَدَّرَ مَقَادِيرَ الخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، قَالَ: وَعَرْشُهُ عَلَىٰ المَاءِ**»، وهذا فيه إثبات العرش والإيمان به وأنه مخلوق من مخلوقات الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ العظيمة، بل هو أكبر المخلوقات وأعظمها وأوسعها، والله عَزَّوَجَلَّ خلقه من العدم وأوجده بعد أن لم يكن، واستوىٰ عليه تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ استواءً يليق بجلاله وكماله كما أخبر بذلك عن نفسه في آيات في القرآن؛ منها قوله تعالىٰ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]، فنؤمن بالعرش ووجوده ونؤمن باستواء الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ عليه استواءً يليق بجلاله وكماله وعظمته سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

الشاهد هنا: الإيمان بالكتابة والتقدير العام الذي كان قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، والله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في حكمته بهذه المخلوقات وعموم الكائنات أنه قدر كل ما هو كائن منها تقديرًا عامًّا شاملًا قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، ثم بعد هذا التقدير العام الشامل تأتي تقديرات أخرىٰ مندرجة وداخلة في هذا التقدير العام، وسيذكر المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ تلك التقديرات التي هي داخلة في هذا التقدير العام؛ كالتقدير الذي قدّره الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ علىٰ الخلائق عندما أخرجهم من ظهر أبيهم آدم ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، وقسمهم إلىٰ فريقين فريق في الجنة وفريق في السعير، فهذا تقدير

وسيأتي دليله، وأيضًا التقدير العمري الذي يتعلق بعمر كل إنسان سيأتي دليله عند المصنف، وأيضًا التقدير الحولي أو السنوي في ليلة القدر ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ٤]، وأيضًا التقدير اليومي ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩]، فهذه التقديرات كلها داخلة ومندرجة في التقدير العام، فهي تقديرات من بعد التقدير العام الذي قدره الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وكتبه قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة.

❊ ❊ ❊

[النهي عن الاتِّكال على القدر وترك العمل]

٤٠- وَعَنْ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ وَمَقْعَدُهُ مِنَ الجَنَّةِ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَفَلَا نَتَّكِلُ عَلَىٰ كِتَابِنَا وَنَدَعُ العَمَلَ؟، قَالَ: «اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ، أَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَسَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ، فَسَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ» ثُمَّ قَرَأَ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧﴾ [الليل: ٥ - ٧]. مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[(١)].

ثم أورد رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ حديث علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأرضاه أن النبي ﷺ قال: «**مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ وَمَقْعَدُهُ مِنَ الجَنَّةِ**»؛ وهذا هو موضع الشاهد من الحديث للترجمة أن المقادير كُتبت، والتقدير هنا مثل سابقه؛ التقدير العام الذي كان قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وأن رب العالمين جَلَّ وَعَلَا كتب مقادير الخلائق في اللوح المحفوظ قبل خلقه السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، فقوله هنا في حديث علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**وقد كُتب مقعده**»؛ أي: كُتب في اللوح المحفوظ قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة؛ فهذا هو التقدير العام وهو نظير ما دل عليه الحديث السابق حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

قال: «**ما منكم من أحد**» وهذا أيضًا يفيد العموم وأنه لا يشذ أحد، فكل فرد من أفراد الناس وكل عمل من أعماله كتب في اللوح المحفوظ وكتب هل هو من أهل الجنة أو من أهل النار، وكل فرد من أفراد الناس كتب أمره وحاله وأعماله كل ذلك

---

(١) رواه البخاري (٤٩٤٩)، ومسلم (٢٦٤٧).

كتب، ولهذا قال عَلَيْهِ‌ٱلصَّلَاةُ‌وَٱلسَّلَامُ: «**ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار ومقعده من الجنة**».

هنا عندما يسمع المؤمن هذه الأدلة البينة في باب القدر وأن الأمور قُدرت وكتبت، وكُتب مقعد الإنسان من الجنة ومقعده من النار وهل هو مؤمن أو كافر؟ هل هو بر أو فاجر؟ وعندما يسمع المسلم هذه الآيات البينات والدلائل الواضحات المقررة للقدر وأن الأمور كُتبت وقدرت وقضيت يأتي سؤال في ذهنه وينقدح في باله وهو سؤال كما يقال يفرض نفسه، سواء طلبه الإنسان أو لم يطلبه: وهذا السؤال طرحه الصحابة رَضِيَ‌ٱللَّهُ‌عَنْهُمْ في أكثر من مناسبة علىٰ النبي ﷺ عندما سمعوا منه بيان القدر وأن الأمور مكتوبة وأن مقعد الإنسان من الجنة ومقعده من النار كتب، والسؤال هو: إذا كانت الأمور مقدرة ومكتوبة فيم العمل؟ (**ألا نتكل علىٰ القدر؟**): ألا يقول الواحد منا طالما أن الأمور كتبت وقدرت وعُلم مقعد الإنسان من الجنة أو مقعده من النار ليس هناك حاجة للعمل، بل لا أعمل شيئًا متكلًا علىٰ قدري السابق وعلىٰ ما كتبه الله تَبَارَكَ‌وَتَعَالَىٰ علي في اللوح المحفوظ، ولهذا جاء في هذا الحديث: «**قالوا: يا رسول الله أفلا نتكل علىٰ كتابنا وندع العمل؟**»، هذا السؤال مبني علىٰ التقرير السابق وهو أن النبي ﷺ ذكر لهم أنه ما من أحد إلا علم مقعده من الجنة ومقعده من النار، فقالوا علىٰ إثر هذا البيان «**ألا نتكل علىٰ كتابنا وندع العمل؟**»، جاء في بعض الروايات أنهم قالوا: «**يا رسول الله ففيم العمل؟**»(١)، طالما أن الأمر كُتب وقدر ألا نتكل علىٰ كتابنا وندع العمل؟ نتكل أي نعتمد علىٰ كتابنا وعلىٰ ما كتب علينا ونبني علىٰ ذلك وندع العمل.

أجاب النبي عَلَيْهِ‌ٱلصَّلَاةُ‌وَٱلسَّلَامُ بجواب واف كاف مع أنه في جملة لا تتجاوز السطر

---

(١) سيأتي بعد هذا الحديث.

الواحد لكن فيها الغنية والكفاية وفيها الشفاء لمن وفقه الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لفهم كلام النبي ﷺ والعمل به، أما من لم يفهم كلام النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ولم يستضئ بضياء هديه ﷺ فإنه سيتخبط في الظلمات ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠]، فذكر عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كلمات أو جملة جمعت الخير كله، في هذا الباب؛ قال ﷺ: «**اعملوا فكل ميسر لما خلق له**»، وما بعده بيان له، أما الجواب انتهىٰ هنا، «**اعملوا فكل ميسر لما خُلق له**»، هذا هو الجواب عن هذا السؤال في هذه الجملة المختصرة التي جمعت الخير كله.

وهذا مما يبين لك أن نبينا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أعطي جوامع الكلم، يقول الكلمات القليلة والأحرف اليسيرة التي تجمع للعباد خير الدنيا والآخرة، فلما سألوا هذا السؤال الكبير العظيم السؤال الذي ينقدح في الأذهان ويستشكله كثير من الناس أجاب عنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بكلمة لا تبلغ سطرا.

وهنا أنبه لا يمكن لأحد أن يستفيد من هذه الجملة المختصرة إلا إذا وعاها وفهمها وحقق ما دلت عليه كما كان الصحابة الكرام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وأرضاهم؛ فهي كلمة فيها شفاء وفيها بركة وفيها وفاء بهذا المطلب العظيم الجليل.

قال: «**اعملوا فكلٌ ميسر لما خلق له**»؛ وهذا الجواب الذي ورد في هذه الجملة بيّن فيه النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أصلين عظيمين في هذا الباب لا يتحقق للعبد سعادة إلا بتحقيقهما والإتيان بهما علىٰ التمام والكمال:

الأصل الأول مستفاد من قوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**اعملوا**»، وهذا أمر لهم بالعمل، «**اعملوا**»، يدخل تحتها: صلوا صوموا تصدقوا قوموا بأعمال البر والإحسان، أيضًا يدخل تحتها تجنبوا الحرام ابتعدوا عن الآثام، كل ذلك داخل تحت قوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**اعملوا**».

وغير خافٍ عليك أن مثل هذا الخطاب اعملوا أو اعمل أو صل أو صم أو

تصدق أو نحو ذلك لا يخاطب به إلا من له مشيئة وإرادة، أما من لا مشيئة له ولا إرادة لا يقال له اعمل، فالأمر بالعمل لا يكون إلا لمن له مشيئة، وهذا فيه إثبات المشيئة للعبد والإرادة وهي ثابتة في القرآن ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٨، ٢٩]، فالعبد له مشيئة، وليس منزوع المشيئة والإرادة وليس كالورقة في مهب الريح كما يدّعيه بعض أهل الضلال والباطل، فالعبد له مشيئة وله إرادة ﴿وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ﴾ [البلد: ١٠] طريق الخير وطريق الشر، فالذي يمشي إلىٰ طريق الخير مشىٰ إليه بمشيئته وإرادته ومن مشىٰ أيضًا إلىٰ طريق الشر مشىٰ إليه بمشيئته وإرادته، أرأيتم الرجل إذا رغب في عمل صالح واتجهت إليه عزيمته كيف أنه يبحث عن وسائله وأسبابه ويسعىٰ في تحقيقه ونيله، وكذلك والعياذ بالله إذا بُلي بطلب أمر سيء كيف أنه يسعىٰ في تحصيله فالعبد له مشيئة.

فإذًا مما يجب أن نُقر به هنا وأن نؤمن به أن العبد له مشيئة وإرادة يختار بها طريق الخير ويختار بها طريق الشر ويعمل بموجب هذه المشيئة، ولهذا إذا عمل الصالحات يثاب عليها، وإذا عمل السيئات يعاقب عليها؛ لأنه فعل ذلك بمشيئته.

فإذًا قوله عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**اعملوا**»، هذا يفيد أن العبد له مشيئة وإرادة ولهذا خوطب بهذا الأمر كما سبق الأمر بالصلاة لأمر بالصيام الأمر بالبر الأمر بالإحسان، «**اعملوا**» قيل له اعمل، ويدخل تحت قوله الأمر بالبعد عن المعاصي والآثام.

وهنا التطبيق العملي لتوجيه النبي عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في قوله: «**اعملوا**» أن يجاهد الإنسان نفسه علىٰ العمل كما قال ربنا جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]، ولو لم يكن للإنسان مشيئة هل يقال له اصبر وصابر ورابط واتق الله؟ لا يقال له إذا كان ليس له

مشيئة وإذا كان حاله وأمره كالورقة في مهب الريح، فقول: ﴿ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ هذا يدل علىٰ أن له مشيئة، فإذًا العبد هنا مطالب بأن يجاهد نفسه علىٰ العمل ويصابر ويرابط ويدفع نفسه إلىٰ الاستقامة وسلوك سبيلها والبعد عن مواطن الآثام والمعاصي؛ هذا كله مستفاد من قوله: «اعملوا»، وهو الأصل الأول.

الأصل الثاني مستفاد من قوله عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**فكل ميسر لما خلق له**»؛ وهذا فيه أن الأمور كلها بتقدير الله وبتيسيره وبمشيئته وبإذنه وبقدرته جَلَّ وَعَلَا، فكل ميسر لما خلق له: أي لما خلقه الله عَزَّ وَجَلَّ له من كفر أو إيمان، طاعة أو عصيان، دخول جنة أو دخول نار، وأن الأمور كلها بمشيئة الله سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وبقدرته جَلَّ وَعَلَا وأنه لا يمكن أن يقع شيء في هذا الكون إلا بمشيئة الله عَزَّ وَجَلَّ، فالملك ملكه والخلق خلقه جَلَّ وَعَلَا ولا يمكن أن يقع في هذا الكون أمرٌ خارج عن مشيئته أو أمرٌ ليس مخلوقا له تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ. ولهذا من لا يؤمن بهذا الأمر «**فكل ميسر لما خلق له**»، فإنه من لازم عدم الإيمان بهذا الأمر ادعىٰ أن مع الله خالقًا، ولهذا جاء عن السلف وجاء في حديث يُرفع إلىٰ النبي ﷺ حسّنه بعض أهل العلم: «أن القدرية مجوس هذه الأمة»[(١)]؛ لأن من ينفي القدر فإن من لازم نفيه للقدر أن يثبت خالقًا مع الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، ومن لا يؤمن أن الأمور كلها بتيسير الله وتوفيقه وخلقه وإيجاده من لازم ذلك أنه يثبت مع الله خالقًا؛ ولهذا فالقدرية مجوس هذه الأمة، المراد بالقدرية: أي نفاة القدر.

فنستفيد من هذا فائدة في الباب ألا وهي: أنَّنا نجاهد أنفسنا علىٰ الأعمال كما يدل علىٰ ذلك شطر هذه الجملة الأول، وفي الوقت نفسه لا نتكل علىٰ أعمالنا ولا نلتفت إليها بل نتوكل علىٰ الله سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ونطلب عونه وتوفيقه سبحانه، فيجاهد

---

(١) رواه أبو داود (٤٦٩١)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٤٤٤٢).

الإنسان نفسه علىٰ الأعمال الصالحة وفي الوقت نفسه يسأل ربه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ الثبات، التوفيق، التأييد، الهداية، وأن لا يزيغ قلبه ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران: ٨]، «اللهم إني أسألك الهدىٰ والسداد»(١)، «**اللهم إني أسألك الهدىٰ والتقىٰ والعفاف والغنىٰ**»(٢)، «**اللّهُمّ لك أسْلمْتُ وبِك آمنْتُ وعليْك توكّلْتُ وإِليْك أنبتُ وبِك خاصمْتُ اللّهُمّ إِنّي أعُوذُ بِعِزّتِك لا إِله إِلاّ أنْت أنْ تُضِلّنِي أنْت الحي الّذي لا يمُوتُ والجنُّ والإِنْسُ يمُوتُون**»(٣)، هذه كلها أحاديث ثابتة عن نبينا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وكان إذا خرج من بيته قال: «**اللّهُمّ إِني أعُوذُ بِك أنْ أضِلّ أوْ أُضلّ أوْ أزِلّ أوْ أُزلّ أوْ أظْلِم أوْ أُظْلم أوْ أجْهل أوْ يُجْهل عليّ**»(٤)؛ لأن الأمور بقدره جَلَّ وَعَلَا.

فإذًا الجواب المسدد في هذا الباب في السؤال الذي طرحه الصحابة ألا نتكل علىٰ القدر وندع العمل؟ «**أفلا نتكل علىٰ كتابنا وندع العمل؟**». قال: «**اعملوا فكل ميسر لما خلق له**»؛ أي جاهد نفسك علىٰ الأعمال الصالحات والبعد عن الأعمال السيئات وسل الله التيسير واطلب منه العون والتوفيق كما قال جَلَّ وَعَلَا ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، كما قال جَلَّ وَعَلَا ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، كما قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**احرص علىٰ ما ينفعك واستعن بالله**»(٥)، **كما قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ**: «**اعقلها وتوكل**»(٦)، فجمع عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بين هذين الأمرين.

---

(١) رواه مسلم (٢٧٢٥).

(٢) رواه مسلم (٢٧٢١).

(٣) رواه مسلم (٢٧١٧).

(٤) رواه أبو داود (٥٠٩٤)، وابن ماجه (٣٨٨٤)، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٣١٣٤).

(٥) رواه مسلم (٢٦٦٤).

(٦) رواه الترمذي (٢٥١٧)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (١٠٦٨).

وخلاصة الجواب أنه لابد لكل عبد في هذا الباب لينال السعادة في الدنيا والآخرة أن يحرص علىٰ فعل الأسباب الطيبة ويجاهد نفسه عليها حتىٰ ينال بها رضا الله والفوز بجنته والنجاة من غضبه، وفي الوقت نفسه يسأل الله عَزَّوَجَلَّ دومًا وأبدًا التوفيق والسداد والهداية والرشاد، ويتعوذ به جَلَّوَعَلَا من الزيغ والضلال والانحراف.

قال: «**فأما من كان من أهل السعادة فييسر لعمل أهل السعادة، وأما من كان من أهل الشقاوة فسييسر لعمل أهل الشقاوة**» أي: من كان ممن كتب الله عَزَّوَجَلَّ لهم السعادة في اللوح المحفوظ فسييسره له لعمل أهل السعادة، وهذا معنىٰ قوله: «**فكل ميسر لما خلق له**»: إن خُلق للسعادة يُسر لعملها، وإن خُلق للشقاوة يسر لعملها، وأما من كان من أهل السعادة فسييسره الله لعمل أهل السعادة، وأما من كان من أهل الشقاوة فسييسره الله لعمل أهل الشقاوة، إذًا السعادة لها أهل كتبوا في اللوح المحفوظ، والشقاوة لها أهل كتبوا في اللوح المحفوظ، ومن كان من أهل السعادة يسره الله لعمل أهل السعادة، ومن كان من أهل الشقاوة يسره الله لعمل أهل الشقاوة؛ وهذا يتطلب من المسلم كما جاء مبينًا في الحديث أن يجاهد نفسه علىٰ العمل بعمل أهل السعادة ويطلب من الله التيسير، وبيان ذلك في الآية التي أوردها النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ والآيات قال تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾، لاحظ هذه أسباب يفعلها العبد ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾، هذا مثل قوله في الحديث: «**اعملوا**»، ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥- ١٠]، فالعبد يجاهد نفسه علىٰ الأعمال الصالحات وفعلها، ويطلب من الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ دومًا التيسير والتوفيق.

❋ ❋ ❋

٤١- وَعَنْ مُسْلِمِ بْنِ يَسَارٍ الجُهَنِيِّ قَالَ: سُئِلَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ هَذِهِ الآيَةِ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢] فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ سُئِلَ عَنْهَا فَقَالَ: «إِنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَهُ بِيَمِينِهِ، فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّةً، فَقَالَ: خَلَقْتُ هَؤُلَاءِ لِلْجَنَّةِ وَبِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ يَعْمَلُونَ، ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَهُ فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّةً، فَقَالَ: خَلَقْتُ هَؤُلَاءِ لِلنَّارِ وَبِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ يَعْمَلُونَ،» فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، فَفِيمَ العَمَلُ؟، فَقَالَ: «إِنَّ اللهَ إِذَا خَلَقَ العَبْدَ لِلْجَنَّةِ اسْتَعْمَلَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ حَتَّىٰ يَمُوتَ عَلَىٰ عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ الجَنَّةِ، فَيُدْخِلُهُ بِهِ الجَنَّةَ، وَإِذَا خَلَقَ العَبْدَ لِلنَّارِ اسْتَعْمَلَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّىٰ يَمُوتَ عَلَىٰ عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ النَّارِ، فَيُدْخِلُهُ النَّارَ». رَوَاهُ مَالِكٌ(١) وَالحَاكِمُ(٢) وَقَالَ: عَلَىٰ شَرْطِ مُسْلِمٍ، وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ(٣) مِنْ وَجْهٍ آخَرَ عَنْ مُسْلِمِ بْنِ يَسَارٍ، عَنْ نُعَيْمِ بْنِ رَبِيعَةَ، عَنْ عُمَرَ.

ثم أورد رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ هذا الحديث عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه سئل عن معنىٰ قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢](٤)، ما معنىٰ هذه الآية وما المراد بها؟ سئل

---

(١) رواه مالك في «الموطأ» (١٥٩٣).

(٢) رواه الحاكم في «مستدركه» (٧٤).

(٣) رواه أبو داود (٤٧٠٣).

(٤) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «فإن هذه الآية فيها قولان: من الناس من يقول: هذا الإشهاد كان لما استخرجوا من صلب آدم كما نقل ذلك عن طائفة من السلف ورواه بعضهم مرفوعا إلىٰ النبي ﷺ وقد ذكره الحاكم لكن رفعه ضعيف، وإنما المرفوع الذي في السنن كأبي داود والترمذي وموطأ مالك من حديث أبي هريرة ومن حديث عمر: هو أنهم استخرجهم ليس في هذه الكتب أنهم نطقوا ولا تكلموا، ولكن في حديث أبي هريرة أنه أراهم آدم وفي حديث عمر وغيره أنه قال: هؤلاء للجنة وهؤلاء =

عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وأرضاه عن معناها فقال: «**سمعت رسول الله** ﷺ **سُئل عنها**»؛ أي سئل عن معنىٰ هذه الآية ما المراد بقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ ما معنىٰ هذا؟ فيقول عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: سمعت رسول الله ﷺ سئل عنها فقال: «**إن الله خلق آدم ثم مسح ظهره بيمينه**»؛ أي مسح الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ظهر آدم بيمينه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ فاستخرج منه ذرِيّة «**فقال: خلقتُ هؤلاء للجنة، وبعمل أهل الجنة يعملون، ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية فقال: خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون**»، وهذا كما بيّن أهل العلم تقدير من بعد تقدير، تقدير داخل في التقدير العام الذي مر في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، تقديرٌ عندما أخرج الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ذرية آدم من ظهره وأشهدهم علىٰ أنفسهم ألست بربكم، فأخرجهم في عالم من العوالم وأوجدهم تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ وأشهدهم علىٰ أنفسهم ألست بربكم؟ وقسمهم فريقين فريق في الجنة كما قال هنا: «**خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون**»، ثم أخرج من ظهره ذرية وقال «**خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون**»؛ فهذا يسميه أهل العلم التقدير الذي كان عندما أخرج ذرية آدم من ظهره وجعلهم فريقين فريق في الجنة وفريق في السعير، وهذا التقدير داخل في التقدير العام، داخل في التقدير الذي كتب في اللوح المحفوظ قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة.

لما ذكر النبي ﷺ للصحابة هذا الأمر طرحوا السؤال المتقدم؛ «**قال رجل: يا**

=

للنار ففيها إثبات القدر وأن الله علم ما سيكون قبل أن يكون وعلم الشقي والسعيد من ذرية آدم وسواء كان ما استخرجه فرآه آدم هي وأمثالهم أو أعيانهم، فأما نطقهم فليس في شيء من الأحاديث المرفوعة الثابتة ولا يدل عليه القرآن فإن القرآن يقول فيه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ فذكر الأخذ من ظهور بني آدم – لا من نفس آدم – وذرياتهم يتناول كل من ولده وإن كان كثيرا كما قال تمام الآية: ﴿أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ﴾» «درء تعارض العقل والنقل» (٤/ ٣٣٢).

رسول الله ففيم العمل؟»، قول هذا الرجل: ففيم العمل؟ هو نظير ما تقدم في حديث علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**ألا نتكل علىٰ كتابنا وندع العمل؟**»، وكما سبق التنبيه عليه؛ فعندما يسمع الإنسان أن أهل الجنة كتبوا وأهل النار كتبوا وأن هذا كله في اللوح المحفوظ قُدر وقضي يأتي هذا السؤال ففيم العمل؟ أو ألا نتكل علىٰ القدر؟ أو ألا ندع العمل؟ «**قال رجل: ففيم العمل يا رسول الله؟**» فقال ﷺ: «**إن الله إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتىٰ يموت علىٰ عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله به الجنة، وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتىٰ يموت علىٰ عمل من أعمال أهل النار فيُدخله النار**»، وهذا فيه تنبيه لما سبق بيانه في حديثه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ألا وهو: أن العبد ينبغي عليه أن يجاهد نفسه علىٰ العمل بعمل أهل الجنة والبعد عن أعمال أهل النار، ويسأل ربه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ العون التيسير التوفيق كما جاء في الدعاء الذي علّمه النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وهو في «**المسند**» وغيره قال: «وأسْألُك أنْ تجْعل كُلّ قضاء تقْضِيهِ لِي خيْرًا»[1]، يسأل الله عَزَّ وَجَلَّ أن يقدِر له الخير وأن يكتب له الخير حيث كان، يرجو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ويطمع في فضله وفي الوقت نفسه يجاهدها علىٰ الأعمال الصالحات.

الشاهد أن هذا الحديث فيه تقدير داخل في التقدير العام الذي كان كُتب في اللوح المحفوظ وهو التقدير الذي قدره الله عَزَّ وَجَلَّ علىٰ الخلائق عندما أخرجهم من ظهر أبيهم آدم وقسمهم إلىٰ فريقين فريق في الجنة وفريق في السعير.

وهذا الحديث في سنده شيء من الكلام لكن هناك شواهد له يتقوىٰ بها ويكون بها صحيحًا لغيره ومن شواهده الحديث الآتي بعده.

❊ ❊ ❊

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (٢٣٨٧٠).

٤٢- وَقَالَ إِسْحَاقُ بْنُ رَاهَوَيْهِ: حَدَّثَنَا بَقِيَّةُ بْنُ الوَلِيدِ قَالَ: أَخْبَرَنِي الزُّبَيْدِيُّ مُحَمَّدُ بْنُ الوَلِيدِ عَنْ رَاشِدِ بْنِ سَعْدٍ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي قَتَادَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ هِشَامِ بْنِ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ: أَنَّ رَجُلًا قَالَ يَا رَسُولَ اللهِ أَنَبْتَدَأُ الأَعْمَالُ أَمْ قَدْ قُضِيَ القَضَاءُ؟ فَقَالَ: «إِنَّ اللهَ لَمَّا أَخْرَجَ ذُرِّيَّةَ آدَمَ مِنْ ظَهْرِهِ أَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ، ثُمَّ أَفَاضَ بِهِمْ فِي كَفَّيْهِ، فَقَالَ: هَؤُلَاءِ لِلْجَنَّةِ وَهَؤُلَاءِ لِلنَّارِ، فَأَهْلُ الجَنَّةِ مُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ، وَأَهْلُ النَّارِ مُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ»[1].

ثم أورد رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الحديث: «**أن رجلًا سأل النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أنبتدأ الأعمال أم قد قُضِي القضاء؟**»، ومعنىٰ قول الرجل في سؤاله: «**أنبتدأ الأعمال**»؛ أي هل أعمالنا ليست مقدرة وليست مكتوبة فنفعلها نحن ابتداءً دون أن تكتب علينا ودون أن تقدر؟ أي: أن الأمر أنف وليس مقدرًا؟ «**أنبتدئ الأعمال**»؛ أي: هل الأعمال تقع منا ابتداء دون قضاء مسبق ودون قدر مسبق؟ «**أم قد قضي القضاء؟**» أيُّ الأمرين؟ يسأل النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

فقال ﷺ: «**إن الله لما أخرج ذرية آدم من ظهره أشهدهم علىٰ أنفسهم، ثم أفاض بهم في كفيه فقال: هؤلاء للجنة وهؤلاء للنار، فأهل الجنة ميسرون لعمل أهل الجنة وأهل النار ميسرون لعمل أهل النار**»، فبين عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أن الأمر قدر وقضي وليس أمرًا أُنُفا وليس أمرا يقع ابتداء من العباد دون سبْق تقدير وقضاء، بل الأمر قدر وقضي؛ هذا هو معنىٰ الجواب ومفاده.

قال: «**إن الله لما أخرج ذرية آدم من ظهره أشهدهم علىٰ أنفسهم، ثم أفاض بهم**

---

(١) رواه البخاري في «تاريخه» (٢٦٦٤)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٤٣٤)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٧٠٢).

في كفيه فقال: هؤلاء للجنة وهؤلاء للنار»، هذا في العالم الذي أخرج فيه الناس من ظهر آدم، كما تدل عليه الآية الكريمة والأحاديث المبينة لمعناها قسمهم الله عَزَّوَجَلَّ لما أخرجهم من ظهر أبيهم إلىٰ فريقين: قال: «**هؤلاء للجنة وبعملها يعملون، وهؤلاء للنار وبعملها يعملون**»؛ أي أن الأمر مقضي ومقدّر ومكتوب، مكتوب علىٰ كل إنسان هل هو من أهل الجنة أو من أهل النار، ومن كان قُدر له أنه من أهل الجنة فإنه بعملها يعمل، ومن قدِر له أنه من أهل النار فإنه بعملها يعمل، والواجب علىٰ من عرف هذا الأمر وفهمه من كلام نبينا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أن يجاهد نفسه علىٰ تحقيق التوجيه النبوي الكريم الذي مر معنا في حديث علي: «**اعملوا فكل ميسر لما خلق له**»، وهذه منهج في الباب أن يعمل المرء فكل ميسر لما خلق له، وكلما وقع في نفسه شيء من التكاسل أو التثبط أو التواني جاهد نفسه علىٰ العمل وعالجها بهذه الكلمة: «**اعملوا فكل ميسر لما خلق له**» ويسل الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ العون عن أمور الخير وأبواب البر والتيسير والتوفيق.

❊ ❊ ❊

[كتابة العمل، والأجل، والرِّزق، والشقاء، والسعادة]

٤٣- وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُوَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا نُطْفَةً، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللهُ إِلَيْهِ مَلَكًا بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: فَيَكْتُبُ عَمَلَهُ، وَأَجَلَهُ، وَرِزْقَهُ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ، ثُمَّ يَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ، فَوَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا، وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(١).

هذا الحديث حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أورده المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ في باب الإيمان بالقدر، وقد مضىٰ الحديث عن أهمية الإيمان بالقدر، وأنه أصل من أصول الإيمان العظيمة وركنٌ من أركان هذا الدين، وأنه نظام التوحيد، كما قال عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «**الإيمان بالقدر نظام التوحيد، فمن وحد الله وكذب بالقدر نقض تكذيبُه توحيده**»(٢)، فالإيمان بالقدر شأنه في الدين عظيم ومكانته فيه علية، وأيضًا مر معنا الكلام علىٰ مراتب القدر الأربعة التي لا إيمان لأحد بالقدر حتىٰ يؤمن بها، وساق المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ جملة من الأدلة الدالة علىٰ مكانة الإيمان بالقدر وعظم شأنه في دين الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ من كتاب الله عَزَّوَجَلَّ وسنة نبيه صلوات الله

---

(١) رواه البخاري (٣٢٠٨)، ومسلم (٢٦٤٣).

(٢) رواه عبد الله بن أحمد في «السنة» (٩٢٥)، واللالكائي في «شرح الاعتقاد» (١٢٢٤).

وسلامه عليه.

ثم بعد ذلك شرع رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ في ذكر الأدلة التي تتعلق بمراتب التقدير، وذلكم أن من الإيمان بالقدر الإيمان بالتقديرات التي قدرها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ علىٰ فترات؛ كالتقدير العام الذي مر معنا في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، وكالتقدير الذي مر معنا في حديث عمر وحديث هشام بن حكيم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، وذلك عندما أخرج الله عَزَّ وَجَلَّ ذرية آدم من ظهره، كذلك ما سيأتي معنا في هذا الحديث حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، فهذه التقديرات الإيمان بها من الإيمان بالقدر؛ ولهذا ينبغي علىٰ المسلم أن يجعل من إيمانه بالقدر إيمانه بهذه التقديرات التي ثبتت في الأحاديث الصحيحة الثابتة عن النبي ﷺ.

والنصوص دلت علىٰ أنواع من التقديرات:

▪ **أولها التقدير العام**؛ وهو الذي كان قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وهذا التقدير العام يدل عليه حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «**إن الله كتب مقادير الخلائق قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة**»(١)، وهذا يقال له: «التقدير العام»، وقد كان هذا التقدير العام قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، ثم يأتي بعد هذا التقدير تقديرات أخرىٰ قال أهل العلم هي كالتفصيل للتقدير العام وهي داخلة فيه ليست خارجةً عنه، فهي كالتفصيل للتقدير العام وهي تقديرٌ من بعد تقدير، وكل التقديرات التي أتت بعد التقدير العام هي داخلة فيه ليست خارجة عنه، فإذًا التقدير الأول هو التقدير العام.

▪ **ثم بعد ذلك يأتي التقدير** الذي كان عندما أخرج الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ذرية آدم من

(١) رواه مسلم (٢٦٥٣).

ظهر أبيهم وقسمهم إلىٰ فريقين فريق في الجنة وفريق في السعير؛ فهذا أيضًا تقديرٌ دل عليه حديث عمر والحديث الذي بعده حديث هشام بن حكيم وغيرهما من الأحاديث الواردة في هذا الباب.

▪ **ثم النوع الثالث من أنواع التقدير** أو المرتبة الثالثة من مراتب التقدير: التقدير العمري الذي يتعلق بعمر كل إنسان بعينه أو بشخصه، وذلك عندما يكون جنينا في رحم أمه حيث يبعث الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ إليه ملكا ويؤمر بكتب أربع كلمات؛ بكتب رزقه وأجله وعمله وشقي هو أو سعيد، فهذا التقدير الذي جاء في حديث عبد الله بن مسعود الذي أورده المصنف هنا هو الذي يتعلق بعمر كل إنسان في «التقدير العمري» يسمىٰ شخصه؛ حيث يرسل الملك ويؤمر بكتب أربع كلمات كتب رزقه وأجله وعمله وشقي هو أو سعيد، وهذه الأمور التي يكتبها للملك هي تقديرٌ يتعلق بشخص هذا الإنسان؛ ماذا يرزق؟ ومتىٰ يموت؟ وما هي أعماله أطاعات أم سيئات؟ كل ذلك يُكتب عليه، وهذه الكتابة التي تكون علىٰ الإنسان وهو في رحم الأم ليست خارجة عن التقدير العام الذي كُتب في اللوح المحفوظ بل هي داخلة فيه، ولهذا قال العلماء رحمهم الله تعالىٰ عن هذه التقديرات أنها تقديرٌ من بعد تقدير، وقالوا أيضًا أن هذا تقديرٌ يعتبر تفصيلًا للتقدير السابق؛ التقدير العام الذي كتيب في اللوح المحفوظ.

▪ **النوع الرابع** أو المرتبة الرابعة من مراتب التقديرات: التقدير السنوي؛ أي التقدير الذي يكون في كل سنة، والله عَزَّوَجَلَّ شاء أن يقدر كل سنة ما هو كائن فيها إلىٰ السنة الأخرىٰ وذلك في ليلة القدر، كما قال الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ في القرآن الكريم: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ٤]، قد جاء عن غير واحد من الصحابة والتابعين لهم بإحسان أن معنىٰ قوله: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ أي: يقدّر فيها ما هو كائن طوال السنة إلىٰ ليلة القدر الأخرىٰ، فيقدّر في تلك الليلة من يموت في هذه السنة من يمرض

من يهتدي.. إلىٰ آخره، حتىٰ ذكر بعض المفسرين أنه يُكتب فيها من سيحج، فلان بن فلان وفلان بن فلان هؤلاء سيحجون هذه السنة يُكتب في ليلة القدر، فيكتب في ليلة القدر ويقدر فيها ما هو كائن إلىٰ ليلة القدر الأخرىٰ، ولهذا لما سألت أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا النبي ﷺ ماذا تقول ليلة القدر؟ قال: «تقُولِين: اللهُمّ إِنّك عفُو تُحِبُّ الْعفْو، فاعْفُ عني»[1]، لأنك إذا كُتبت في ليلة القدر من أهل العافية وأهل المعافاة سعدت في العام كله، ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ فهي ليلة ليست كالليالي ليلة لها شأن عظيم ولها مكانة علية وهي خير من ألف شهر وفيها يقدر ما هو كائن إلىٰ ليلة القدر الأخرىٰ ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾ [القدر: ١ - ٤]. وقوله هنا ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ نظير قوله: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾؛ فليلة القدر أي التقدير «التقدير السنوي» يُكتب ويقدّر فيها ما هو كائن إلىٰ ليلة القدر الأخرىٰ، هذا يسميه أهل العلم الذي يكون في يوم من السنة لما هو كائن في السنة كلها، وشاء الله عَزَّوَجَلَّ أن يكون هذا اليوم الذي يقدّر فيه ما هو كائن في السنة كلها هو ليلة القدر خير الليالي وأشرفها وأفضلها.

▪ ثم يأتي التقدير اليومي لما هو كائن في كل يوم بعينه، وهذا يدل عليه قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩]، قال أهل العلم في تفسير الآية: الشأن أن يحيي هذا، ويميت هذا، ويمرض هذا، ويسقم هذا، ويُصح هذا، ويهدي هذا ويضل هذا، إلىٰ آخره.

فهذه تقديرات ثابتة في كتاب الله وثابتة في سنة النبي الكريم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ،

---

(١) رواه الترمذي (٣٥١٣)، وابن ماجه (٣٨٥٠)، وصححه الألباني في «تخريج المشكاة» (٢٠٩١).

ومن إيمان العبد بأقدار الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أن يؤمن بهذه التقديرات، وهي خمس تقديرات: التقدير العام، والتقدير الذي كان عندما أخرج الله عَزَّوَجَلَّ ذرية آدم من ظهره، وبعض أهل العلم يعرِض عن ذكر هذا التقدير ويكتفي بالتقدير العام، والتقديرات الثلاثة التي ذكُرت علىٰ اعتبار أنه داخل في التقدير العام وهو قريب منه من حيث أنه يُكتب فيه ما هو كائن لذرية آدم بعمومهم إلىٰ أن تقوم الساعة، بخلاف التقدير العمري يتعلق بعمر كل إنسان بعينه، والسنوي يتعلق بكل سنة بخصوصها، واليومي يتعلق بتقدير كل يوم بخصوصه؛ ولهذا بعض العلماء يعدُّها أربع تقديرات: العام والعمري والسنوي واليومي، وبعضهم يضيف إليها التقدير الخامس الذي هو التقدير الذي كان عندما أخرج الله عَزَّوَجَلَّ ذرية آدم من ظهره وقسمهم إلىٰ فريقين فريق في الجنة وفريق في السعير كما مر معنا الحديث عن النبي ﷺ بذلك.

وهذا الحديث حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وقد بدأه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بقوله: «**حدثنا رسول ﷺ وهو الصادق المصدوق**»، «**الصادق**»؛ أي: فيما يخبر به عن الله وفيما يبينه من دين الله وشرعه، فهو صادق عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بل لا ينطق عن الهوىٰ إن هو إلا وحي يوحي، و«**المصدوق**»؛ أي المؤيد من ربه بالشواهد والآيات والحجج والبراهين التي تدل علىٰ صدقه صلوات الله وسلامه عليه وصدق ما جاء به.

قال: «**إن أحدكم يُجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا نطفة**» «**إن أحدكم**» هذا يشمل كل بني آدم، شاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يكون خلْق كل واحد وكل فرد من أفراد بني آدم يمر بهذه المراحل، فأول ما يكون هذا الإنسان السوي الممتع بالسمع والبصر والقوىٰ أول ما يكون نطفة من ماء مهين تخرج من صلب الأب وتستقر في رحم الأم، ولهذا قال هنا: «**إن أحدكم يُجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا نطفة**» تستقر النطفة في رحم الأم وتبقىٰ علىٰ هذه الهيئة وكونها نطفة أربعين يومًا، وتأخذ بالتغير إلىٰ علقة؛

أي: إلىٰ قطعة صغيرة من الدم تأخذ وقتًا تتغير بالتدريج وتتحول بقدرة رب العالمين تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ هذه النطفة إلىٰ علقة، أي: قطعة صغيرة من الدم، وهذه المرحلة الثانية من المراحل التي ينتقل إليها الإنسان والتي يمر بها الإنسان في تكوين الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ له.

قال: «**إن أحدكم يُجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك**»؛ أي: أن هذه النطفة تتحول إلىٰ علقة وتبقىٰ أربعين يومًا علىٰ هذه الصفة، والعلقة: هي القطعة الصغيرة من الدم.

ثم بعد ذلك تتحول هذه القطعة الصغيرة من الدم إلىٰ مضغة ولهذا قال: «**ثم يكون مضغة مثل ذلك**»، والمضغة كما قال أهل العلم رحمهم الله تعالىٰ هي القطعة الصغيرة من اللحم، بقدر ما يمضغه الإنسان أو ما يتمكن الإنسان من مضغه من اللحم؛ وهذا إشارة إلىٰ أنها قطعة صغيرة ليست هبرة أو قطعة كبيرة، وهذه المرحلة الثالثة نطفة ثم علقة ثم مضغة.

بعد ذلك يكون أكمل في رحم الأم من حين أن استقر نطفة فيها يكون أكمل مئة وعشرين يومًا؛ أربعين يومًا نطفة، وأربعين يومًا علقة، وأربعين يومًا مضغة، فيكون بذلك أكمل في مراحل تكوينه مئة وعشرين يومًا.

وتفكر الإنسان في مثل هذه المراحل التي مر بها يهديه إلىٰ كمال الخالق وعظمة الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كيف أن هذه النطفة تتحول هذه التحويلات إلىٰ أن أصبح الإنسان سويا ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ١-٣] فتفكُّر الإنسان في هذه المراحل من أسباب هدايته، بل إنه يفيده فوائد عظيمة في حياته وفي مسلكه، ولهذا أحد السلف يقول متعجبًا يقول: «كيف يتكبر الإنسان ويختال ويتعاظم وقد خرج من مخرج البول مرتين؟!»، لأنه لو تفكر

الإنسان في مخرجه لابتعد عن الكبر ولتواضع ولان جانبه ولعرف حقيقة نفسه؛ خرج من مخرج البول مرتين: مرة نطفة من مخرج بول والده، ومرة طفلًا صغيرًا من مخرج بول أمه، فخرج من مخرج البول مرتين فكيف يتكبر؟! وكيف يختال؟! وكيف يتعاظم؟! وكيف يغتر وهذه حقيقة حاله؟! بل قال بعض أهل العلم أيضًا: كيف يتكبر الإنسان وأوله نطفة وآخره جيفة في القبر، وهو بين ذلك يحمل العذرة في بطنه! فلماذا يختال ولماذا يتكبر وهذه حقيقة حاله!

الشاهد أن تفكر الإنسان في هذه المراحل من الأمور العظيمة المهمة التي تفيد الإنسان فوائد عظيمة جدًّا لا حد لها، حتىٰ من الفوائد التي تستفاد: بيان قدرة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ الله يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ﴾ [الحج: ٥] هذا من البراهين علىٰ كمال قدرة الله، ﴿إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ﴾ يعني إن كنتم في شك من قدرة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ علىٰ بعث الأجساد بعد دفنها ومواراتها في التراب فانظروا في الخلق الأول: ﴿فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ﴾، فخلق الإنسان من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة إلىٰ غير ذلك من المراحل كل ذلك من الأمور التي تبعث في الإنسان وتحرك فيه أبوابًا كثيرة من الهداية.

والإنسان مر بمراحل سبعة جاء ذكر بعضها في هذا الحديث وفي بعض الآيات وجمُعت في الآيات التي جاءت في سورة المؤمنون، قد كان جاء عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنه كان يقول: «وخلق ابن آدم من سبع»[(١)]؛ أي التي يمر بها ابن آدم، ثم كان يتلو قول الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في سورة المؤمنون: ﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ﴾ هذه المرحلة الأولىٰ ﴿ ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةٗ

(١) «تفسير القرطبي» (١٢/ ١١٠).

فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾، هذه سبعة مراحل ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾؛ أي أصبح إنسانًا سويًّا له السمع وله البصر وله اليد وله... حتىٰ تحول قطعة اللحم إلىٰ العظام ثم من هذه القطعة من اللحم ينهض الرأس ويبدأ ثم تخرج الأيدي ثم الأرجل كل هذه المراحل التي تتكوّن ويمر بها الإنسان كلها من دلائل قدرة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ولهذا قال: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾.

فتفكر الإنسان في هذه المراحل العظيمة من الأمور التي تهديه إلىٰ الإيمان بكمال قدرة الله وكمال صنعه وخلقه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وكمال تقديره وتدبيره، وأنه عَزَّ وَجَلَّ المستحق للعبادة والذل والخضوع جَلَّ وَعَلَا، وأيضًا يهديه إلىٰ قدرته علىٰ البعث، ويهديه أيضًا إلىٰ معرفة الإنسان بحقيقة نفسه وحقيقة حاله، إلىٰ غير ذلك من أنواع من الهدايات.

ثم وأنت تتأمل في الهدايات المستفادة هنا في هذا الباب العظيم تعجب غاية العجب عندما ترىٰ أقوامًا خلقهم الله عَزَّ وَجَلَّ ومرُّوا بهذه المراحل العظيمة العجيبة إلىٰ أن استووا علىٰ هيئة الإنسان السوي بالسمع والبصر ثم تراهم يعكفون علىٰ أحجار أو علىٰ قباب أو علىٰ أضرحة يسألونها ويرجونها ويخضعون لها وينطرحون بين يديها راغبين راهبين ينسون رب العالمين تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ الذي أوجدهم وخلقهم وأمدّهم بالسمع والبصر؛ فأين عقول هؤلاء في التفكر بهذا الخلق وهذا الإيجاد وهذا الإبداع وهذا التصوير وهذا التكوين من الله جَلَّ وَعَلَا؟! لو فكر هؤلاء في حقيقة حالهم لما كان منهم ذل ولا خضوع ولا انكسار إلا لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ الذي خلقهم ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم﴾ [فاطر: ٣] هو الخالق وحده ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤] هو الخالق وحده ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠] كل ذلك لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فكيف يُذل

لغيره! وكيف يلتجأ لغيره! وكيف ينكسر بين يدي غيره! وتصرف العبادة لغيره! مع أنه جَلَّوَعَلَا المتفرد بخلق الأشياء ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١، ٢٢]

أي: لا تجعلوا لله شركاء في العبادة وأنتم تعلمون أنه لا خالق لكم غير الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ.

قال هنا في حديث ابن مسعود: «**إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا نُطْفَةً، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللهُ إِلَيْهِ مَلَكًا بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ**»، «**يبعث**»؛ أي يرسل «**ملكًا**»؛ أي: ملكًا من الملائكة وكل الله عَزَّوَجَلَّ إليه هذه الكتابة كتابة ما يتعلق بالإنسان إلىٰ أن يموت يكتب كل ما هو متعلق به.

قال: «**فيكتب عمله**»؛ أي ماذا سيعمل؟ صلاة صيام حج صدقة بر الوالدين إلىٰ آخره، وأيضًا إن كانت أعمالًا سيئة تُكتب من سرقة من كذب من غش من زنا من فواحش إلىٰ آخره كل ذلك يكتبه الملك، يكتبه في هذا الوقت كما بيّن نبينا الصادق المصدوق صلوات الله وسلامه عليه «**فيكتب عمله**»؛ أي الأعمال التي سيقوم بها.

و«**عمل**» هنا مفرد مضاف فيعم كل عمل سيقوم به الإنسان، «**فيؤمر بكتب أربع كلمات عمله**»: أي عمل يقوم به الإنسان إلىٰ أن يموت، جميع الأعمال يكتبها الملك، وكلها تسطر وتُكتب.

قال: «**وأجله**»؛ أي متىٰ سيموت؟ كم عمره؟ ما هو الوقت الذي يموت فيه؟ والله عَزَّوَجَلَّ يقول ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد: ٣٨] ويقول: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤]، فالأجل محدد وكتب علىٰ الإنسان كما أنه كتب عليه في اللوح المحفوظ قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة فكتب أيضًا ثانية علىٰ الإنسان وهو في رحم أمه، متىٰ سيموت؟ فموت الإنسان

والأجل الذي أجل له وحُد له لن يتجاوزه ولن يموت قبل أجله أيضًا، لن يموت الإنسان إلا إذا جاء الأجل وحضرت المنية التي كُتبت.

قال: «**ورزقه**»؛ أيضًا يكتب ما سيطعم وما سيشرب كل ذلك يُكتب الطعام والشراب الذي يتناوله الإنسان علىٰ مر الأيام كل ذلك يُكتب وهو في رحم أمه قبل أن يخرج إلىٰ الدنيا وقبل أن يشاهدها فكل ما هو متناول له أو طاعم له أو شارب له مدة حياته كل ذلك يكتب؛ ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ [الملك: ١٤] ففيه إحاطة علم الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بمخلوقاته.

وخلق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لهذه المخلوقات وإيجاده لها هو من الشواهد والدلائل علىٰ إحاطة علمه بها كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾؛ هذا من الشواهد والدلائل، ولهذا من بديع الاستدلال وجميله في الرد علىٰ الملاحدة ما ذكره الإمام الحافظ التيمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ في كتابه «الحجة» «قيل: إن بعض الملحدة قال يومـًا: أنا أخلق، فقيل: فأرنا خلقك فأخذ لحمـًا فشرحه، ثم جعل بينه روثـًا ثم جعله في كوز وختمه ودفعه إلىٰ من حفظه عنده ثلاثة أيام، ثم جاء به إليه فكسر الخاتم، وإذا الكوز ملآن دوداً فقال: هذا خلقي، فقال له بعض من حضر: فكم عدده، فلم يدر، فقال: فكم منه ذكور وكم منه إناث. وهل تقوم برزقه ؟ فلم يأت بشيء فقال له: الخالق الذي أحصىٰ كل ما خلق عدداً وعرف الذكر والأنثىٰ ورزق ما خلق، وعلم مدة بقائه وعلم نفاد عمره»[1]، فإذًا هذا الذي يمر علينا الآن في حديث ابن مسعود ألا وهو أن الله عَزَّوَجَلَّ يبعث ملكًا ويأمره بكتابة عمل الإنسان ورزقه وأجله وشقي هو أو سعيد هذه كلها من الدلائل والبراهين علىٰ كمال إحاطة علم الله جَلَّ وَعَلَا بكل شيء؛ بما كان

(١) «الحجة في بيان المحجة» (ص ١٤٣).

وبما سيكون وبما لم يكن لو كان كيف يكون.

قال: «**فيكتب عمله وأجله ورزقه وشقي أو سعيد**»؛ أي يُكتب هل هو من أهل الشقاء أو من أهل السعادة ـ جعلنا الله وإياكم من أهل السعادة ـ يُكتب هل هو من أهل الشقاء أو من أهل السعادة؟ وقد مر معنا في حديث علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال لما قال النبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «**ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار ومقعده من الجنة**»، وهذا فيه تمييز للسعداء من الأشقياء فقالوا: «**ألا نتكل علىٰ كتابنا وندع العمل؟**»، فقال النبي ﷺ: «**اعملوا فكل ميسر لما خلق له، فمن كان من أهل السعادة يسره الله لعمل أهل السعادة، ومن كان من أهل الشقاوة يسره الله لعمل أهل الشقاوة**»، فهنا يقول: «**وشقي هو أو سعيد**»؛ أي يكتب، وهذه الكتابة شقي هو أو سعيد هي أيضًا كتبت في اللوح المحفوظ، كتب في اللوح المحفوظ السعداء وكتب أيضًا في اللوح المحفوظ الأشقياء: «**ومن كان من أهل السعادة يسره الله** تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ **لعمل أهل السعادة ومن كان من أهل الشقاوة يسره الله لعمل أهل الشقاوة**»، ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥- ١٠].

قال: «**ثم يُنفخ فيه الروح**»؛ أي يُنفخ في هذا الكائن في رحم الأم الذي تحول من نطفة إلىٰ علقة إلىٰ مضغة، فبعد أن يكمل مئة وعشرين يومًا ينفخ فيه الروح وتصبح الروح تتحرك فيه.

قال: «**فوالذي لا إله غيره**» يقسم صلوات الله وسلامه عليه بالله.

قال: «**فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتىٰ ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها**»، «**فيسبق عليه الكتاب**» ذكر النبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ مقسمًا علىٰ ذلك تأكيدًا إلىٰ أن الأمور مكتوبة

وأن من كان كُتب من أهل الشقاوة ومن كتب من أهل النار حتىٰ لو عمل بعمل أهل الجنة يُختم له بعمل أهل النار، «**فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتىٰ ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها**»، ولهذا كان السلف ويُنقل عنهم في هذا نقول كثيرة أورد بعضها الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ في «**شرحه**»[1] لهذا الحديث في الأربعين النووية أنهم كانوا يخافون من شيئين: الكتاب السابق، ويخافون من الخواتم؛ ولا يدري الإنسان ماذا كُتب له؟ وبماذا يختم له في كتابه الذي كتب له؟ ويخافون من الخواتيم أي من سوء الخاتمة أن يموت الإنسان والعياذ بالله علىٰ خاتمة سيئة لا ينال بها إلا غضب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وسخطه وناره، فكانوا يخافون من ذلك ويؤرقهم هذا الأمر، وكل من هذين الأمرين مستفادٌ الخوف من قوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، «**فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتىٰ ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب**»، هذا الكتاب السابق، «**فيعمل بعمل أهل النار**»، هذه الخواتيم السيئة والعياذ بالله، «**فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها**».

ولهذا حقٌ علىٰ العاقل أن يخاف من هذا الأمر وأن يحسن الالتجاء إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وأن يصلح سريرته بينه وبين الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وأن يجتهد في أن يبعد من قلبه الدواخل والنيات السيئة، يجتهد في البعد عن ذلك كله، ولهذا جاء في بعض روايات هذا الحديث من حديث سهل بن سعد وهي إضافة مهمة صحت عن النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وفيها بيان لهذا الأمر قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس حتىٰ ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب**

(١) «جامع العلوم والحكم» (ص٥٧).

فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها»[(١)]، فقوله عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**فيما يبدو للناس**»، فيه تنبيه علىٰ أمر ألا وهو: أن من صلحت سريرته بينه وبين الله وصدق مع الله في التجائه، وفي إصلاح نفسه، وفي صدقه مع ربه؛ فإنه بإذن الله لا يختم له بالخواتيم السيئة ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠]، لكن البلاء عندما يكون في قلب الإنسان دواخل ونوايا سيئة وأمور غير نقية وأعماله فيما يظهر للناس أعمال جيدة وصالحة فمثل هذا هو الحقيق بأن يبوء بمثل هذه الخواتيم؛ ولهذا نقل ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ في كتابه «**الجواب الكافي**» عن بعض أهل العلم أنه قال: «واعلم أن سوء الخاتمة ـ أعاذنا الله تعالىٰ منها ـ لا تكون لمن استقام ظاهره، وصلح باطنه، ما سمع بهذا ولا علم به، ولله الحمد.

وإنما تكون لمن له فساد في العقيدة، أو إصرار علىٰ الكبائر، وإقدام علىٰ العظائم.

فربما غلب ذلك عليه، حتىٰ نزل به الموت قبل التوبة، فيأخذه قبل إصلاح الطوية، ويُصطلَم قبل الإنابة، فيظفر به الشيطان عند تلك الصدمة، ويختطفه عند تلك الدهشة، والعياذ بالله»[(٢)].

ولهذا كان من أهم ما ينبغي أن يعتني به المسلم أن يصلح سريرته بينه وبين الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وينقيها ويسأل الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أن يصلح له قلبه، وفي الحديث: «**اللّهُمّ آتِ نفسِي تقْواها وزكها أنْت خيْرُ منْ زكّاها أنْت ولِيُّها وموْلاها**»[(٣)]، فيدعو الله ويجاهد نفسه علىٰ صلاح قلبه بالبعد عن مثل هذه الأمور أو مثل هذه الدواخل السيئة التي

---

(١) رواه البخاري (٢٨٩٨)، ومسلم (١١٢).

(٢) «الجواب الكافي» (ص١١٨).

(٣) رواه مسلم (٢٧٢٢).

تكون في القلوب.

فإذًا هذه الزيادة التي جاءت في حديث سهل بن سعد هي زيادة مهمة وعظيمة جدًّا وفيها بيان لهذا الأمر قال: «**فيما يبدو للناس**»؛ أي فيما يظهر للناس أما في الداخل ففيه نوع من الخلل أو نوع من الفساد، فأفادنا هذا الأمر أن من أهم ما ينبغي أن يعنىٰ به المرء بينه وبين الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أن يجاهد نفسه في إصلاح قلبه وتنقية سريرته وأن يجاهد نفسه علىٰ سلامة القلب ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٩].

قال: «**فوالذي نفسي بيده إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتىٰ ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبِق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها**»؛ أي يدخل النار، وهذا فيه من الفائدة أن العبرة بالخواتيم، «**إنما الأعمال بالخواتيم**»(١)، والعبرة في حال الإنسان بما يُختم له، فمن خُتم له بالخاتمة الحسنىٰ كان من أهل الحسنىٰ، ومن ختم له بخاتمة أهل الشقاوة والعياذ بالله كان من أهل الشقاوة، وفي الحديث: «**من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة**(٢)».

قال: «**وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتىٰ ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبِق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها**»، وهذا فيه أن من الناس من يعمل حياته بعمل أهل النار من المعاصي والآثام والفسوق والفجور والكفر والعصيان، فيسبق عليه الكتاب ويكون له سابقة حسنىٰ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١] فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها، حتىٰ إن بعض الناس تكون هذه السابقة سابقة الحسنىٰ له قبل وفاته بلحظات يسيرة جدًّا، فقد يكون حياته كلها علىٰ الكفر ويكون كتب الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ له فيما كتب في اللوح

---

(١) رواه ابن حبان (٣٤٠)، وصححه الألباني في «صحيح ابن حبان».

(٢) رواه أبو داود (٣١١٦)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٤٧٩).

المحفوظ أن يسْلم ويهتدي قبل أن يموت بلحظات أو بدقائق ليس ساعات، فتكون حياته كلها علىٰ الكفر ويكون اهتداؤه واستقامته في دقائق! مثل ما جاء في القصة التي أوردها الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ وجوّد إسنادها عند تفسيره لقول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في سورة الأنعام ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾؛ ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ أي لم يخلطوه بشيء ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾؛ أي أمن تام واهتداء تام في الدنيا والآخرة.

أورد الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ قصة رجل من الأعراب:

عن جرير بن عبد الله قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ: فلما برزنا من المدينة، إذا راكب يوضع نحونا، فقال رسول الله ﷺ: «**كأن هذا الراكب إياكم يريد**». فانتهىٰ إلينا الرجل، فسلم فرددنا عليه فقال له النبي ﷺ: «**من أين أقبلت؟**» قال: من أهلي وولدي وعشيرتي. قال: «**فأين تريد؟**»، قال: أريدُ رسول الله. قال: «**فقد أصبته**». قال: يا رسول الله، علمني ما الإيمان؟ قال: «**تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت**». قال: قد أقررت. قال: ثم إن بعيره دخلت يده في جحر جُرْذَان، فهوىٰ بعيره وهوىٰ الرجل، فوقع علىٰ هامته فمات، فقال النبي ﷺ: «**علي بالرجل**». فوثب إليه عمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان فأقعداه، فقالا يا رسول الله، قبض الرجل! قال: فأعرض عنهما رسول الله ﷺ، ثم قال لهما رسول الله ﷺ: «**أما رأيتما إعراضي عن الرجل، فإني رأيت ملكين يدسان في فيه من ثمار الجنة، فعلمت أنه مات جائعا**»، ثم قال رسول الله ﷺ: «هذا من الذين قال الله، عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾»، ثم قال: «**دونكم أخاكم**». قال: فاحتملناه إلىٰ الماء فغسلناه وحنطناه وكفناه، وحملناه إلىٰ القبر، فجاء رسول الله ﷺ حتىٰ جلس علىٰ شَفِير القبر فقال: «**الحدوا ولا تشقوا، فإن اللحد لنا والشق**

لغيرنا»[(١)].

فتأمل ما قال له النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة**»، ذكر له مباني الإسلام، فقال الرجل وهو علىٰ بعيره: «أقررت»؛ أي: أقررت بهذا الذي تدعوني إليه، فدخل بإقراره هذا في الإسلام، لما قال: أقررت، ساخت قدم بعيره في حفرة جرذان، وحفرة الجرذان هو الفأر الكبير وحفرته تكون الأرض هشة وإذا وطأ عليها البعير تسيخ قدمه ثم يسقط، فساخت قدم بعيره في حفرة جرذان فسقط الرجل من فوق البعير علىٰ عنقه ومات من لحظته، حياته كلها علىٰ الكفر وحظه من الإسلام هو: «أقررت»!، وأقررت هذه لم يعش معها حياة الإسلام إلا يمكن دقيقة واحدة أو دقيقتين أو ثلاث دقائق! وحياته كلها علىٰ الكفر بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فأسلم وليس له من الإسلام إلا هذه الكلمة «أقررت»؛ أي أقررت بما تدعوني إليه وسقط ومات؛ فسبق له من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ سابقة الحسنىٰ والخاتمة الحسنة ولم يكن له حظ من هذا الإسلام إلا هذا الإقرار الذي مات علىٰ إثره هذا الرجل.

أورد ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الحديث عند هذه الآية: ﴿**ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ**﴾ ولهذا لم يلبس إيمانه بظلم، قال: «أقررت» ومات فلم يخلط إيمانه بشرك وختم له بهذه الخاتمة، ثم قال ﷺ: «**إني رأيت الملائكة تدس الفاكهة في فيه فعلمت أنه مات جائعا**»، خُتم له بهذه الخاتمة وهذا من الشواهد.

قال: «**وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتىٰ ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبِق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها**»؛ ومن الفوائد هنا العظيمة: أن

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (١٩١٧٦).

ينتبه من مضىٰ في حياته وقتًا طويلًا وعمرًا مديدًا علىٰ الآثام والمعاصي والرزايا والخزايا والإعراض عن الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ أن يتدارك نفسه باللجوء إلىٰ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وطلب الخاتمة الطيبة.

روىٰ أبو نعيم في الحلية عن الحسن بن علي العابد قال: «قال الفضيل بن عياض لرجل: كم أتَت عليك قال ستُّون سنة، قال: فأنت منذ ستين سنة تسيرُ إلىٰ ربِّك توشك أن تبلغ، فقال الرَّجل: يا أبا علي، إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، قال له الفضيل: تعلمُ ما تقول فقال الرجل: قلت: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، قال الفضيل: تعلَمُ ما تفسيرُه؟ قال الرَّجل: فسِّره لنا يا أبا علي، قال: قولُك إنَّا لله، تقول: أنا لله عبدٌ وأنا إلىٰ الله راجعٌ، فمَن عَلِمَ أنَّه عبد الله وأنَّه إليه راجع، فليعلَم بأنَّه موقوفٌ، ومَن عَلم بأنَّه موقوفٌ فليعلم بأنَّه مسئولٌ، ومَن علم أنَّه مسؤولٌ، فليُعِدَّ للسؤال جوابًا، فقال الرجل: فما الحيلة قال: يسيرة، قال: ما هي قال: تُحسنُ فيما بقيَ، يُغفَر لك ما مضىٰ، فإنَّك إن أسأتَ فيما بقي أُخِذتَ بما مضىٰ وما بقي»[(١)].

وهذا الذي ذكره الفضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ ورد مرفوعًا إلىٰ النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، عن أبي ذر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من أحسن فيما بقي غفر له ما مضىٰ ومن أساء فيما بقي أخذ بما مضىٰ**[(٢)]».

ولهذا من مضىٰ في حياة تفريط وتقصير وتضييع وإهمال ووقوع في الذنوب يتدارك ما بقي من حياته، ولربما الذي بقي من حياته أيام قلائل أو ساعات قلائل ما يدريه!! فيصلح ما بينه وبين الله ويصلح سريرته ويصدق مع الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ ويبدأ صفحة جديدة وحياة مباركة وأياما عامرة، ويترك تلك الحياة حياة الضياع والتفريط،

(١) «حلية الأولياء» (٨/ ١١٣).

(٢) رواه الطبراني في «معجمه الأوسط» (٦٨٠٦)، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب» (٣١٥٦).

والعبرة بالخواتيم؛ فيصلح خواتيمه بالتجائه إلىٰ ربه وسؤاله ومجاهدة نفسه علىٰ طاعة الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

ومن القصص في هذا الباب، وهي من شواهد الواقع لقوله عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**إن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار**» إلىٰ آخره: ما ذكره أحد الطلبة من إحدىٰ دول الكفر، يقول إن جدته كانوا يحاولون معها علىٰ الإسلام محاولات كثيرة جدًّا وعمرها فوق التسعين وتأبىٰ، ثم ساق لنا البشارة بعد مدة أن جدته أسلمت وماتت بعد إسلامها بثلاثة أيام فقط، أكثر من تسعين سنة علىٰ الكفر وثلاثة أيام علىٰ الإسلام!! فالعبرة بالخواتيم.

ولهذا ينبغي علىٰ الإنسان أن يهتم بأمر الخاتمة، وأن يجاهد نفسه علىٰ إصلاح السريرة بينه وبين الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ وتطهير القلب وتنقيته وتزكية النفس والاجتهاد في العمل الصالح والبعد عما يسخط الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، ومع هذا كله يلجأ إلىٰ الله سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لجوءًا كاملا أن يهديه، وأن يثبته، وأن لا يزيغ قلبه ﴿**رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ**﴾ [آل عمران: ٨]، فقد كان أكثر دعاء سيد ولد آدم عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**يا مقلب القلوب ثبت قلبي علىٰ دينك**»، تقول أم سلمة زوج النبي ﷺ: «**كان أكثر دعاء النبي ﷺ يا مقلب القلوب ثبت قلبي علىٰ دينك**». قالت أم سلمة: يا رسول الله ما أكثر دعاءك يا مقلب القلوب ثبت قلبي علىٰ دينك ؟ قال يا أم سلمة إنه ليس آدمي إلا وقلبه بين أصبعين من أصابع الله فمن شاء أقام ومن شاء أزاغ(١)».

---

(١) رواه الترمذي (٣٥٢٢)، وصححه الألباني في «صحيح الترمذي» (٢٧٩٢).

فيكون الإنسان دائم الالتجاء إلىٰ الله: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾، وكان من دعائه صلوات الله وسلامه عليه كما في «الصحيحين»: «**اللهم لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت وإليك أنبت وبك خاصمت أعوذ بعزتك لا إله إلا أنت أن تضلني فأنت الحي الذي لا يموت والجن والإنس يموتون**»[(١)]، وكان **عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في كل مرة يخرج فيها من بيته يقول:** «**اللهم إني أعوذ بك أن أَضِل أو أُضل، أو أَزِل أو أُزل، أو أَظلِم أو أُظلم، أو أَجهل أو يُجهل علي**»[(٢)]، دعوات مأثورة عنه في هذا المعنىٰ كثيرة جدًّا، وكل ما سبق يتلخص في قوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**احرص علىٰ ما ينفعك واستعن بالله**»[(٣)]، وسيأتي الحديث بهذا عن النبي ﷺ عند المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ.

* * *

---

(١) رواه البخاري (٧٣٨٥)، ومسلم (٢٧١٧)، واللفظ له.

(٢) رواه أبو داود (٥٠٩٤)، وابن ماجه (٣٨٨٤)، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٣١٣٤).

(٣) رواه مسلم (٢٦٦٤).

٤٤- وَعَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ أَسِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَبْلُغُ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**يَدْخُلُ المَلَكُ عَلَىٰ النُّطْفَةِ بَعْدَمَا تَسْتَقِرُّ فِي الرَّحِمِ بِأَرْبَعِينَ أَوْ خَمْسٍ وَأَرْبَعِينَ لَيْلَةً، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ أَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ؟ فَيَكْتُبَانِ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ أَذَكَرٌ أَوْ أُنْثَىٰ؟ فَيَكْتُبَانِ، وَيَكْتُبُ عَمَلَهُ، وَأَثَرَهُ، وَأَجَلَهُ، وَرِزْقَهُ، ثُمَّ تُطْوَىٰ الصُّحُفُ فَلَا يُزَادُ فِيهَا وَلَا يُنْقَصُ**». رَوَاهُ مُسْلِمٌ[١].

ثم أورد رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ هذا الحديث حديث حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو في «**صحيح مسلم**» وهو بمعنىٰ حديث ابن مسعود ولهذا ساقه بعده.

قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**يدخل الملك علىٰ النطفة**»، الملك: أي الذي وكل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إليه هذا الأمر، «**علىٰ النطفة**»: أي في الرحم.

«**يدخل الملك علىٰ النطفة بعد ما تستقر في الرحم بأربعين أو خمس وأربعين ليلة**»، وهنا في هذا الحديث أن دخول الملك وإتيانه وكتابته بعد أن يتم أربعين ليلة أو خمس وأربعين ليلة، وفي حديث ابن مسعود المتقدم أن الكتابة بعد مئة وعشرين؛ ولهذا بعض العلماء وفّق بين الحديثين بأن الكتابة تكون في الرحم مرتين: مرة في الأربعين أو الخمس والأربعين كما في حديث حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ومرة بعد المئة والعشرين كما يستفاد ذلك من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وبعض أهل العلم قالوا إنما الكتابة واحدة ليست مرتين، والملك يكتب علىٰ الإنسان شقي أو سعيد إلىٰ آخره مرة واحدة وهي بعد الأربعين، يعني في تمام الأربعين أو الخمس والأربعين يكتب ذلك، وأن ما جاء في حديث ابن مسعود ذكر تأخير كتابة الملك روعي فيه ترتيب المراحل: «**إن أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يومًا نطفة ثم يكون علقة مثل**

---

(١) رواه مسلم (٢٦٤٤).

ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك»، ذكرت المراحل التي يمر بها الإنسان متوالية متتابعة مراعاةً لذكر ترتيب المراحل ثم بعد ذلك ذكُر إتيان الملك وأمره بكتب أربع كلمات، فمن أهل العلم من رجح أن هذه الكتابة تكون بعد الأربعين ليلة إما أربعين أو خمس وأربعين كما هنا قال: «**أربعين أو خمس وأربعين ليلة**» وأن الكتابة تكون في هذا الوقت، وأن ما جاء في حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ روعي فيه ذكر ترتيب المراحل أولًا، ثم بعد ذلك ذكرت مسألة كتابة الملك وبعْثه إليه وأنه يكتب أربع كلمات رزقه أجله وعمله وشقي هو أو سعيد.

قال: «**فيقول يا رب أشقي أو سعيد**»؛ أي هذا الإنسان الذي أُمرت بكتابة حاله وعمله أشقي أو سعيد؟

«**فيكتبان**»؛ أي يكتب عليه هل هو من أهل الشقاء أو من أهل السعادة؟

ثم يسأل الملك: «**فيقول: يا رب أذكر أو أنثىٰ؟ فيكتبان**»، يكتب عليه هل هو ذكر أو أنثىٰ؟

«**ويكتب عمله وأثره وأجله ورزقه**»، يكتبها الملك، فهذه كلها تكتب علىٰ الإنسان.

قال: «**ثم تطوىٰ الصحف فلا يزاد فيها ولا يُنقص**»، مثل ما جاء في الحديث الآخر: «**رفعت الأقلام وجفت الصحف**»، فتطوىٰ الصحف أي أن ما كتب للإنسان لابد أن يكون. وإذا عرفنا أن ما كتب للإنسان لابد أن يكون فهل نتكل علىٰ الكتابة وندع العمل؟ لا والله، الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ سألوا النبي عن هذه المسألة وتقدم السؤال، قالوا: «**يا رسول الله، ألا ندع العمل ونتكل علىٰ الكتاب؟**»، ألا نتكل علىٰ هذا الذي طوي وفرغ منه وكتب وندع العمل؟ قال: «**اعملوا فكل ميسر لما خلق له**»؛ أي: جاهد نفسك علىٰ العمل واحرص علىٰ ما ينفعك وفي ذلك كله استعن بالله؛

استعن به أن يهديك أن يوفقك أن يثبتك أن يعيذك من الضلال أن يختم لك بالخاتمة الحسنىٰ، فالأمور بيده جَلَّوَعَلَا والخلق خلقه والأمر أمره تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، فتلجأ إليه وفي الوقت نفسه تجاهد نفسك مجاهدة تامة علىٰ القيام بالأعمال الطيبات والطاعات الزاكيات التي تتقرب بها إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ.

❊ ❊ ❊

[لا يقطع لأحد بدخول الجنة والنار إلا بدليل]

٤٥- وَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ» عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: دُعِيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَىٰ جِنَازَةِ صَبِيٍّ فَقُلْتُ: طُوبَىٰ لَهُ عُصْفُورٌ مِنْ عَصَافِيرِ الجَنَّةِ، لَمْ يَعْمَلْ سُوءًا وَلَمْ يُدْرِكْهُ فَقَالَ: «**أَوَ غَيْرَ ذَلِكَ يَا عَائِشَةُ! إِنَّ اللهَ خَلَقَ لِلْجَنَّةِ أَهْلًا خَلَقَهُمْ لَهَا وَهُمْ فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ، وَخَلَقَ لِلنَّارِ أَهْلًا خَلَقَهُمْ لَهَا، وَهُمْ فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ**»[(١)].

ثم أورد رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ هذا الحديث حديث أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وشاهد هذا الحديث للترجمة ونبدأ به هو قول النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**إن الله خلق للجنة أهلًا خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم، وخلق للنار أهلًا خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم**»، وهذا فيه أن الأمور مقدّرة ومكتوبة، وأن السعداء كتبوا وأن الأشقياء كتبوا، وأن الأمر قدِر للإنسان وطويت الصحف بما هو كائن.

فهذا الحديث شاهد للترجمة أن الأمور مقدرة والسعداء من الأشقياء وأهل الجنة من أهل النار كل ذلك كُتب والحديث واضح في الدلالة علىٰ هذا الأمر.

قال: «**إن الله خلق للجنة أهلًا خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم وخلق للنار أهلًا خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم**»، فهذا واضح تمامًا وهو في الدلالة في معنىٰ الأحاديث والنصوص المتقدمة التي ساقها المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ لتقرير هذا الباب وأن الأمور كلها بقدر بما في ذلكم أعمال العباد، وأهل السعادة من أهل الشقاوة، وأهل الجنة وأهل النار؛ كل ذلك بقدر؛ لأجل هذا ساق المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ هذا

---

(١) رواه مسلم (٢٦٦٢).

الحديث.

وقول النبي ﷺ لهذه الجملة جاء علىٰ إثر قول عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا عندما دُعِي رسول الله ﷺ إلىٰ جنازة صبي أي طفل صغير من الأنصار، فقالت عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: «**طوبىٰ له عصفور من عصافير الجنة**»، وهذه شهادة له بالجنة.

قالت: «**طوبىٰ له عصفور من عصافير الجنة لم يعمل سوءًا ولم يُدركه**»؛ أي لم يعمل السوء ولم يدرك وقت عمل السوء لأنه مات صغيرًا.

فقال الرسول ﷺ: «**أو غير ذلك**»؛ أي أولا تقولين غير هذا؟

«**أوغير ذلك يا عائشة؟ إن الله خلق للجنة أهلًا خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم وخلق للنار أهلًا خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم**»، وقيل إن النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قال لعائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا تنبيها لها إلىٰ عدم المسارعة في مثل هذا الجواب وفي مثل هذه التزكية والشهادة، وقيل إن النبي ﷺ قال ذلك قبل أن يبلغه أو أن ينزّل عليه أو أن يوحىٰ إليه بأن أطفال المؤمنين في الجنة، قد حكىٰ بعض أهل العلم الإجماع علىٰ ذلك، لكثرة الشواهد والدلائل علىٰ أن أطفال المؤمنين وفرطهم في الجنة وأنهم أيضًا يوم القيامة يشفعون لآبائهم وأمهاتهم ويكونون شفعاء لآبائهم وأمهاتهم، وجاء في هذا أحاديث عن النبي ﷺ ساق جملة منها الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه الصحيح وأيضًا في كتابه «**الأدب المفرد**»، ففي هذا دلائل عديدة فيها أن أطفال المؤمنين في الجنة، فقيل لعل النبي ﷺ قال لعائشة هذا قبل أن يبلغه، أو قاله لها تنبيها إلىٰ عدم المسارعة إلىٰ مثل هذا الجواب أو مثل هذه التزكية.

الشاهد من الحديث للترجمة هو قول النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**إن الله خلق للجنة أهلًا...**» إلىٰ آخر الحديث.

❊ ❊ ❊

[كلُّ شيء بقدر]

٤٦- وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ حَتَّىٰ العَجَزُ وَالكَيْسُ**». رَوَاهُ مُسْلِمٌ[1].

ثم أورد رَحِمَهُٱللَّهُ تعالىٰ هذا الحديث حديث ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أن النبي ﷺ قال: «**كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ**»، وقوله، «**كل شيء**» يتناول كل ما هو كائن؛ لأن الخلق خلق الله، والملك ملكه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ولا يمكن أن يقع في ملكه وفي خلقه إلا ما قدّره عَزَّوَجَلَّ وشاءه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ولهذا يقول عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «**كل شيء بقدر**»، وهذا بمعنىٰ قول الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]، أي: كل ما هو كائن بقدر، سواء الأشخاص والذوات، أو الأعمال والحركات والسكنات وغير ذلك.

«**كل شيء بقدر حتىٰ العجْزُ والكيْس**»؛ أيضًا هذا بقدر؛ عجز الإنسان، وكيسه أي: نباهته وفطنته وذكاؤه إلىٰ غير ذلك كل ذلك بقدر، العجز: أي ما يكون عليه الإنسان من فتور وخمول وكسل وتوان وتفريط هذا بقدر، وأيضًا الكيس ما يكون عليه الإنسان من نباهة وفطنة وحذق ونحو ذلك كل ذلك بقدر، وقد جاء في حديث يُرفع إلىٰ النبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ وفي سنده كلام ومعناه صحيح قال: «**الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنىٰ علىٰ الله الأماني**»[2]، لم يثبت عن النبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ، أما من حيث المعنىٰ فمعناه صحيح،

---

(١) رواه مسلم (٢٦٥٥).

(٢) روي عن النبي ﷺ كما عند الترمذي (٢٤٥٩)، وابن ماجة (٤٢٦٠)، وضعفه الألباني في «ضعيف =

الكيس أي من الناس النبيه الحاذق الفطن العاقل من هو؟ من دان نفسه أي حاسبها ولامها وعمل لما بعد الموت، والعاجز: من أتبع نفسه هواها وتمنىٰ علىٰ الله الأماني، فذُكر الكيس وذكر العجز هنا قال: «**حتىٰ العجز والكيس**»؛ أي ما يكون عليه الإنسان من عجز أو ما يكون عليه من كيس أي نباهة وفطنة كل ذلك بقدر.

وإذا علم المسلم أن كل شيء بقدر حتىٰ العجز والكيس هذا أيضًا كما سبق يقوي صلة الإنسان بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ويقوي أيضًا توجه العبد إلىٰ الله وحسن سؤاله والطلب منه جَلَّوَعَلَا؛ لأن الأمر بيده جَلَّوَعَلَا وبتقديره سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ولهذا جاء في الدعاء الصحيح عن النبي ﷺ: «**وأن تجعل كل قضاء قضيته لي خيرًا**»(١)، وهذا من أعظم الأدعية التي ينبغي أن يعتنىٰ بها في هذا الباب كما جاء في «**المسند**» و«**الأدب المفرد**» للإمام البخاري رَحِمَهُٱللَّهُ تعالىٰ: عن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا قالت: دخل علي النبي ﷺ وأنا أصلي وله حاجة فأبطأت عليه، قال يا عائشة: «**عليك بجمل الدعاء وجوامعه**» فلما انصرفت قلت: يا رسول الله وما جمل الدعاء وجوامعه؟ قال: «**قولي:**

=

الترغيب» (١٩٥٩).

جاء في«تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي» (٧/ ١٣٢):

«قوله: (الكيس) أي العاقل المتبصر في الأمور الناظر في العواقب.

(من دان نفسه) أي: حاسبها وأذلها واستعبدها وقهرها حتىٰ صارت مطيعة منقادة. (وعمل لما بعد الموت): قبل نزوله ليصير علىٰ نور من ربه، فالموت عاقبة أمر الدنيا فالكيس من أبصر العاقبة.

(والعاجز) المقصر في الأمور، (من أتبع نفسه هواها): من الاتباع أي: جعلها تابعة لهواها فلم يكفها عن الشهوات ولم يمنعها عن مقارنة المحرمات.

(وتمنىٰ علىٰ الله): وفي الجامع الصغير وتمنىٰ علىٰ الله الأماني، فهو مع تفريطه في طاعة ربه واتباع شهواته لا يعتذر بل يتمنىٰ علىٰ الله الأماني أن يعفو عنه».

(١) رواه أحمد في «مسنده» (٢٣٨٧٠).

اللهم إني أسألك من الخير كله عاجله وآجله ما علمت منه وما لم أعلم، وأعوذ بك من الشر كله عاجله وآجله ما علمت منه وما لم أعلم، وأسألك الجنة وما قرب إليها من قول أو عمل، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول أو عمل، وأسألك مما سألك به محمد وأعوذ بك مما تعوذ منه محمد، وما قضيت لي من قضاء فاجعل عاقبته رشدا»(١)؛ لأن الأقضية والتقدير بيده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ فيسأل الإنسان ربه هذا السؤال العظيم، «**وأن تجعل كل قضاء قضيته لي خيرًا**»؛ لأن العجز والكيس بقدر كل شيء بقدر، فتسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يجعل كل قضاء قضاه لك خيرًا، وهي دعوة عظيمة ومباركة.

وأيضًا من الدعاء العظيم في هذا الباب أن تقول: «**اللهم إني أعوذ بك من سوء القضاء**»؛ لأن القضاء بيده تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فتستعيذ بالله من سوء القضاء، مثل أن يقضىٰ للإنسان بكفر أو بفسق أو بمعصية أو غير ذلك، تعوذ بالله من ذلك، والنَّبِيَّ ﷺ «**كَانَ يَتَعَوَّذُ مِنْ سُوءِ الْقَضَاءِ..**»(٢)، وهذا الحديث يدلنا إلىٰ الخطأ في الدعوة المشهورة علىٰ ألسنة كثير من العوام: «**اللهم إني لا أسألك رد القضاء ولكن أسألك اللطف فيه**»، فقولهم في هذا الدعاء: «**اللهم إني لا أسألك رد القضاء**»، جاء في هذا الدعاء التعوذ من سوء القضاء فكيف يقول القائل في دعائه: «**لا أسألك رد القضاء**»، فهذا خطأ ولا ينبغي الدعاء بهذه الدعوة لما فيها من خطأ وغلط وإن كانت مشتهرة، حتىٰ إنه من شهرتها أن بعض العوام يظنها ثابتة في الأحاديث الصحيحة عن النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ومرة أحد العوام سمع التنبيه علىٰ هذا الحديث فجاء إلي وقال:

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (٢٥١٩)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٦٣٩)، وصححه الألباني في «صحيح الأدب المفرد» (٤٩٨).

(٢) رواه مسلم (٢٧٠٧).

كيف لا يقال وقد جاء في الحديث!! قلت له هذا لم يأت لا في حديث صحيح ولا ضعيف وليس من كلام النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ولا من كلام أهل العلم، وهو كلام غير صحيح ومخالف للأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ، قال: عندنا العلماء يقولونه! قلت: العبرة بالمعاني الصحيحة وبالموافقة لهدي النبي الكريم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؛ وهذا أيضًا يؤكد ما سبق التنبيه عليه إلىٰ أن الذي ينبغي علىٰ المسلم أن يحرص علىٰ دعوات النبي ﷺ المأثورة عنه؛ فإن فيها السلامة والعصمة، وفيها التمام والكمال والرفعة.

❊ ❊ ❊

[تفسير قوله تعالى:
﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾]

٤٧- وَعَنْ أَبِي قَتَادَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤﴾ [القدر: ٤] قَالَ: «يُقْضَىٰ فِيهَا مَا يَكُونُ فِي السَّنَةِ إِلَىٰ مِثْلِهَا». رَوَاهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ، وَابْنُ جَرِيرٍ. وَقَدْ رُوِيَ مَعْنَىٰ ذَلِكَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، وَالحَسَنِ، وَأَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيِّ، وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، وَمُقَاتِلٍ.

ثم ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ هنا هذه الآية: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ [القدر: ٤] وأورد فيها ما يروىٰ عن السلف في بيان معناها، وأنه يُقضىٰ فيها ما يكون في السنة إلىٰ مثلها، وأن هذا روي عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا والحسن وأبي عبد الرحمن السلمي وسعيد بن جبير وغيرهم.

﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ٤]، أيضًا قوله: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ هذا مثل ما مر التقدير السنوي، ثم يأتي بعد ذلك التقدير اليومي الذي يدل عليه قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩]، وسيأتي عند المصنف، ويكون بما ساقه رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ من روايات ذكر التقديرات الخمس: التقدير العام أولا ذكره في حديث علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، ثم التقدير الذي عندما أخرج الله عَزَّ وَجَلَّ ذرية آدم من ظهره وهذا في حديث عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وهو الحديث الذي بعده، ثم التقدير العمري وهذا ساق فيه حديث عبد الله بن مسعود وحديث حذيفة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، ثم بعد ذلك التقدير السنوي وأورد فيه رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ هذه الآية وتفسير السلف لها، ثم التقدير اليومي أورد فيه قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾.

❊ ❊ ❊

[ما جاء في صفة اللوح المحفوظ]

٤٨- وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «إِنَّ اللهَ خَلَقَ لَوْحًا مَحْفُوظًا مِنْ دُرَّةٍ بَيْضَاءَ، دَفَّتَاهُ مِنْ يَاقُوتَةٍ حَمْرَاءَ، قَلَمُهُ نُورٌ، وَكِتَابُهُ نُورٌ، عَرْضُهُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، يَنْظُرُ فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ ثَلَاثَمِائَةٍ وَسِتِّينَ نَظْرَةً فَفِي كُلِّ نَظْرَةٍ مِنْهَا يَخْلُقُ وَيَرْزُقُ، وَيُحْيِي وَيُمِيتُ، وَيُعِزُّ وَيُذِلُّ، وَيَفْعَلُ مَا يَشَاءُ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الرحمن: ٢٩]». رَوَاهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ، وَابْنُ الْمُنْذِرِ، وَالطَّبَرَانِيُّ، وَالحَاكِمُ[(١)].

ثم ختم رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ ذكر الأحاديث والنصوص المتعلقة بالتقديرات بهذا الحديث عن ابن عباس أنه قال: «**إِنَّ اللهَ خَلَقَ لَوْحًا مَحْفُوظًا مِنْ دُرَّةٍ بَيْضَاءَ، دَفَّتَاهُ مِنْ يَاقُوتَةٍ حَمْرَاءَ، قَلَمُهُ نُورٌ، وَكِتَابُهُ نُورٌ، عَرْضُهُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، يَنْظُرُ فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ ثَلَاثَمِائَةٍ وَسِتِّينَ نَظْرَةً فَفِي كُلِّ نَظْرَةٍ مِنْهَا يَخْلُقُ وَيَرْزُقُ، وَيُحْيِي وَيُمِيتُ، وَيُعِزُّ وَيُذِلُّ، وَيَفْعَلُ مَا يَشَاءُ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾**»؛ هذا موقوف علىٰ ابن عباس وسنده إليه فيه كلام، لكن المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ ساقه للآية الكريمة التي تدل علىٰ التقدير اليومي. وجاء عن عدد من الصحابة ومن اتبعهم بإحسان تفسير الآية بهذا المعنىٰ الذي أورده المصنف في قوله: «يخلق ويرزق، ويحيي ويميت، ويعز ويذل، ويفعل ما يشاء»، هذا معنىٰ قوله: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾، فالمراد بقوله: ﴿فِي شَأْنٍ﴾ أي: من إحياء وإماتة وهداية إضلال إلىٰ غير ذلك، فهذا هو التقدير اليومي تدل عليه

---

(١) رَوَاهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ في «تفسيره» (٣/ ٣٨٦)، وَالطَّبَرَانِيُّ في «معجمه الكبير» (١٢٥١١)، وَالحَاكِمُ في «مستدركه» (٣٩١٧)، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (١٦٠٨).

هذه الآية الكريمة.

ولما أنهىٰ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ هذه الأدلة المشتملة علىٰ التقديرات الخمس ختم ذلك بكلمة جامعة للعلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ:

قَالَ ابْنُ القَيِّمِ -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ- لَمَّا ذَكَرَ هَذِهِ الأَحَادِيثَ وَمَا فِي مَعْنَاهَا، وَقَالَ: «فَهَذَا تَقْدِيرٌ يَوْمِيٌّ، وَالَّذِي قَبْلَهُ تَقْدِيرٌ حَوْلِيٌّ، وَالَذِي قَبْلَهُ تَقْدِيرٌ عُمْرِيٌّ عِنْدَ تَعَلُّقِ النَّفْسِ بِهِ، وَالَّذِي قَبْلَهُ كَذَلِكَ عِنْدَ أَوَّلِ تَخْلِيقِهِ وَكَوْنِهِ مُضْغَةً، وَالَّذِي قَبْلَهُ تَقْدِيرٌ سَابِقٌ عَلَىٰ وُجُودِهِ لَكِنْ بَعْدَ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَالَّذِي قبْلَهُ تَقْدِيرٌ سَابِقٌ عَلَىٰ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ التَّقَادِيرِ كَالتَّفْصِيلِ مِنَ التَّقْدِيرِ السَّابِقِ.

وَفِي ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَىٰ كَمَالِ عِلْمِ الرَّبِّ وَقُدْرَتِهِ، وَحِكْمَتِهِ، وَزِيَادَةُ تَعْرِيفِهِ المَلَائِكَةَ، وَعِبَادَهُ المُؤْمِنِينَ بِنَفْسِهِ وَأَسْمَائِهِ، ثُمَّ قَالَ: فَاتَّفَقَتْ هَذِهِ الْأَحَادِيثُ وَنَظَائِرُهَا عَلَىٰ أَنَّ القَدَرَ السَّابِقَ لَا يَمْنَعُ العَمَلَ، وَلَا يُوجِبُ الِاتِّكَالَ عَلَيْهِ، بَلْ يُوجِدُ الجِدَّ والِاجْتِهَادَ.

وَلِهَذَا لَمَّا سَمِعَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ ذَلِكَ قَالَ: مَا كُنْتُ بِأَشَدَّ اجْتِهَادًا مِنِّي الْآنَ.

وَقَالَ أَبُو عُثْمَانَ النَّهْدِيُّ لِسَلْمَانَ: لَأَنَا بِأَوَّلِ هَذَا الأَمْرِ فَرَحًا مِنِّي بِآخِرِهِ.

وَذَلِكَ لِأَنَّهُ إِذَا كَانَ قَدْ سَبَقَ لَهُ مِنَ اللهِ سَابِقَةٌ، وَهَيَّأَهُ وَيَسَّرَهُ لِلْوُصُولِ إِلَيْهَا كَانَ فَرَحُهُ بِالسَّابِقَةِ الَّتِي سَبَقَتْ لَهُ مِنَ اللهِ أَعْظَمَ مِنْ فَرَحِهِ بِالْأَسْبَابِ الَّتِي تَأْتِي بها»[(١)].

هنا المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ ذكر هذه الكلمة العظيمة لابن القيم وفيها تلخيص

(١) «شفاء العليل» (١/ ٦١).

لما احتوت عليه الأحاديث الواردة في التقديرات، وأنها خمس تقديرات ذكرها ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد أن سرد الأحاديث الواردة في الباب، فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد ذكره للأحاديث وختمها كما هو الترتيب عند المصنف هنا ختمها بالتقدير اليومي قال: «فهذا تقدير يومي»؛ أي الوارد في قوله تعالىٰ: ﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ ۝٢٩﴾.

قال: «والذي قبله تقدير حولي» أو قبله سنوي أيضًا وهو الوارد في قوله: ﴿فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ﴾، وفي قوله: ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمۡرٖ﴾؛ هذا يقال له حولي أو يقال له أيضًا سنوي، لأنه يتعلق بكل حول أو كل سنة بخصوصها.

قال: «**والذي قبله تقدير عمري عند تعلق النفس به**»؛ أي بالإنسان، وهذا يشير فيه رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلىٰ حديث ابن مسعود المتقدم وحديث حذيفة أيضًا.

قال: «**والذي قبله كذلك عند أول تخليقه وكونه مضغة**»، هذا الذي في حديث حذيفة، وأشرت إلىٰ أن بعض أهل العلم يذكر أن الكتابة كتابتين: كتابة كما يدل عليه حديث حذيفة عند أول كونه مضغة، وكتابة أخرىٰ بعد ذلك عند تعلق الروح به كما يدل علىٰ ذلك حديث ابن مسعود، ولعل هذه الجملة تفيد أن ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ يرىٰ أنها كتابتان: كتابة يدل عليها حديث ابن مسعود، وكتابة يدل عليها حديث حذيفة.

فقول الإمام ابن القيم: «**والذي قبله تقدير عمري عند تعلق النفس به**» إشارة إلىٰ قوله: «**فينفخ فيه الروح ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح فيؤمر بكتب أربع كلمات**»، فعند تعلق الروح به يكتب.

قال: «**والذي قبله كذلك عند أول تخليقه وكونه مضغة**»، وهذا كما جاء في حديث حذيفة الذي ساقه المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

قال: «**والذي قبله تقدير سابق علىٰ وجوده**»؛ أي في هذه الدنيا، «**لكن بعد خلق السماوات والأرض**».

«**والذي قبله**» الذي هو التقدير العام الذي جاء في حديث عبد الله بن عمرو، «**والذي قبله تقدير سابق علىٰ خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة**»، هذه خلاصة جميلة ووافية لما اشتملت عليه النصوص في ذكر التقديرات.

قال: «**وكل واحد من هذه التقادير كالتفصيل من التقدير السابق**»، يعني إذا نظرت الآن أو تأملت في قوله في ليلة القدر: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ هل الذي يُفرق في ليلة القدر ويقدّر هل هو أمر خارج عما كُتب في اللوح المحفوظ أو داخل فيه؟ داخل فيه ولهذا قال: كالتفصيل للتقدير السابق، تفصيل لما كتب في اللوح المحفوظ فيما يتعلق بعموم الكائنات وعموم المخلوقات، فهذا كالتفصيل له ليس خارجًا عنه بل هو تقدير من بعد تقدير وهو داخل في التقدير السابق.

قال: «**وفي ذلك دليل علىٰ كمال علم الرب وقدرته وحكمته وزيادة تعريفه الملائكة وعباده المؤمنين بنفسه وأسمائه**»، فعندما تنظر في هذه التقديرات تهديك وتدلك إلىٰ كمال علم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وكمال قدرته وتدبيره وأن الأمر بيده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ثم قال الإمام ابن القيم: «**فاتفقت هذه الأحاديث ونظائرها علىٰ أن القدر السابق لا يمنع العمل ولا يُوجب الاتكال عليه**»، وهذه فائدة جليلة ومهمة وهي من أنفس ما يكون في هذا الباب؛ لأن بعض الناس عندما يقرأ الأحاديث ربما يدع العمل أو تحدِثه نفسه بترك العمل اتكالًا علىٰ القدر، وهذا منهج خاطئ، وقد عرفنا أن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لما بيّن لهم النبي ﷺ أمر القدر قالوا له: «**ألا نتكل علىٰ كتابنا وندع العمل؟**»، فنهاهم عن ذلك وأمرهم بالعمل قال: «**اعملوا فكل ميسر لما خلق له، فمن كان من أهل السعادة يسره الله لعمل أهل السعادة، ومن كان من أهل الشقاوة يسره الله لعمل أهل الشقاوة**».

قال: «**كل هذه الأحاديث تدل علىٰ أن القدر السابق لا يمنع العمل ولا يوجب الاتكال عليه بل يُوجب الجدّ والاجتهاد، ولهذا لما سمع بعض الصحابة ذلك قال: ما كنت بأشد اجتهادًا مني الآن**»، وهذا من فقه الصحابة وكمال علمهم، يقول «**ما كنت بأشد اجتهادًا مني الآن**»، أي أنه لما سمع هذه الأحاديث وسمع قول النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**اعملوا فكل ميسر لما خلق له**»، صار أمره بعد سماع الحديث أكثر اجتهادا ومحافظة وجدًّا في العمل منه قبل سماعه لهذا الحديث، وهذا يدلنا علىٰ كمال فقه الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وأرضاهم.

«**وقال أبو عثمان النهدي لسلمان: لأنا بأول هذا الأمر أشد فرحًا مني بآخره**»، أول هذا الأمر سابقة الحسنىٰ التي يكتبها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لعبده المؤمن، أعظم مني فرحا بآخره.

قال ابن القيم موضحا: «**وذلك لأنه إذا كان قد سبق له من الله سابقة وهيأه ويسره للوصول إليها كان فرحه بالسابقة التي سبقت له من الله أعظم من فرحه بالأسباب التي يأتي بها**»؛ أي يأتي بها العبد من جد واجتهاد وصبر ومصابرة ومرابطة وبذل الوسع، ففرحه بسابقة الحسنىٰ والتوفيق للهداية التي أكرمه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ومنّ عليه بها أعظم من فرحه بمباشرته لهذه الأسباب ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

❊ ❊ ❊

[ثمرة الإيمان بالقدر]

٤٩- وَعَنِ الوَلِيدِ بْنِ عُبَادَةَ قَالَ: دَخَلْتُ عَلَىٰ أَبِي وَهُوَ مَرِيضٌ أَتَخَايَلُ فِيهِ الْمَوْتَ، فَقُلْتُ: يَا أَبَتَاهُ أَوْصِنِي وَاجْتَهِدْ لِي، فَقَالَ: أَجْلِسُونِي فَلَمَّا أَجْلَسُوهُ قَالَ: يَا بُنَيَّ إِنَّكَ لَنْ تَجِدَ طَعْمَ الإِيمَانِ، وَلَنْ تَبْلُغَ حَقِيقَةَ العِلْمِ بِاللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ حَتَّىٰ تُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ، قُلْتُ: يَا أَبَتَاهُ، وَكَيْفَ لِي أَنْ أَعْلَمَ مَا خَيْرُ الْقَدَرِ وَمَا شَرُّهُ؟ قَالَ: تَعْلَمُ أَنَّ مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، وَمَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، يَا بُنَيَّ إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ القَلَمُ قَالَ: اكْتُبْ فَجَرَىٰ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَىٰ يَوْمِ القِيَامَةِ....» يَا بُنَيَّ إِنْ مِتَّ وَلَسْتَ عَلَىٰ ذَلِكَ دَخَلْتَ النَّارَ. رَوَاهُ أَحْمَدُ(١).

أورد المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ هذا الحديث في باب الإيمان بالقدر، وصلة هذا الحديث بالترجمة ظاهرة من جهة دلالة هذا الحديث علىٰ أن الإيمان بالقدر أصلٌ من أصول الإيمان وأساسٌ من أسسه العظام، وأنه لن يذوق أحد طعم الإيمان وحقيقة العلم بالله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ إلا بالإيمان بالقدر خيره وشره، وقد جاء هذا في وصية عبادة بن الصامت رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لابنه الوليد.

يقول الوليد بن عبادة: «**دخلت علىٰ أبي وهو مريض أتخايل فيه الموت**»؛ أي أحس وأشعر أنه قارب فراق الدنيا لأجل العلامات التي يراها علىٰ والده واشتداد المرض عليه، قال: «**أتخايل فيه الموت**»؛ أي أشعر وأحس أنه قد دنت منيّته واقترب

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (٢٢٧٠٥)، وأبو داود (٤٧٠٠)، والترمذي (٢١٥٥)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٠١٧).

أجله.

يقول: «**فقلت: يا أبتاه أوصني**»، وهنا أيضًا نلاحظ لطف الخطاب من الابن لوالده وجمال المناداة: «**يا أبتاه، أوصني**»؛ أي أريد منك وصية جامعة أنتفع بها، وعادةً من دنت منيته تكون وصيته من أبلغ الوصايا، وهي ما يسمىٰ بوصية المودع، كما في حديث العرباض بن سارية رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: وعظنا رسول الله ﷺ موعظة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب فقلنا: يا رسول الله، كأنها وصية مودع، فأوصنا. فوصية المودع لها وقع كبير وتتناول جوامع الخير بحسب نصح المودع وحاله من العلم والفهم.

قال: «**يا أبتاه أوصني واجتهد لي**»؛ أي في الوصية أريد شيئًا جامعًا، أمرًا أفوز بتحقيقه بخيري الدنيا والآخرة، أعطني كلامًا جامعًا توصيني به، فأحافظ عليه واجتهد لي في هذه الوصية.

فقال عبادة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**أجلسوني**»؛ وطلبه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لأن يجلس لكي يوصي ابنه، وهذا من اهتمامه بالأمر وعنايته به رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، فقد كان بإمكانه أن يوصي ابنه وهو في حال اشتداد المرض، وهو مستلقٍ علىٰ ظهره مثلا، لكن من شدة اهتمامه بالأمر وعنايته به طلب أن يُجلس.

وقوله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**أجلسوني**» فيه دلالة علىٰ شدة التعب الذي كان عليه، لو لم يكن في معاناة وتعب شديد لما طلب أن يُجلس وإنما يجلس بنفسه، لكن من شدة الإعياء والتعب قال: أجلسوني.

فلما أجلسوه «**قال: يا بني**»، وهذا أيضًا فيه لطف من الوالد لولده، «**يا بني**»، وأجمل ما ينادي به الوالد ولده هي هذه الكلمة، فهي أرق كلمة وأجمل كلمة من والد لولده «**يا بني**»، وهي أفضل من مناداة الابن باسمه أو مناداته بألفاظ أخرىٰ تكثر

علىٰ ألسنة بعض الناس يا ولد أو يا غلام أو يا طفل أو يا جاهل أو بعضهم يأتي بعبارات قاسية في مناداتهم لأولادهم وبنيهم.

قال: «**يا بني إنك لن تجد طعم الإيمان ولن تبلغ حقيقة العلم بالله** تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ **حتىٰ تؤمن بالقدر خيره وشره**»، وهنا ينبغي أن نلاحظ قيمة الإيمان بالقدر في تحقيق السعادة في حياة الإنسان، وذلكم أن الوليد بن عبادة طلب من والده في هذا المقام وصية جامعة وأراد من والده أن يجتهد في ذلك، فلم يزد والده في وصيته له علىٰ ذكر الإيمان بالقدر والتأكيد عليه وبيان أهميته وأنه أصلٌ عظيم وأساسٌ متين؛ فهذا يفيدنا أن الوصية بالإيمان بالقدر من جماع الوصايا ومن أعظم أسباب السعادة والفلاح في الدنيا والآخرة، بل لا سعادة للمرء في دنياه وأخراه إلا بالإيمان بالقدر كله خيره وشره من الله تعالىٰ.

قال: «**يا بني إنك لن تذوق طعم الإيمان**»، وهذا فيه أن الإيمان له طعم وله حلاوة وله ذوق، وليس كل أحد يذوق طعم الإيمان، بل لذوق طعم الإيمان أسس لابد منها ومسالك لابد من سلوكها، وقد نبّه عُبادة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن الإيمان بالقدر من أعظم ما يكون به ذوق طعم الإيمان، والإيمان له حلاوة وله ذوق وطعم، ومن أسباب ذوق طعم الإيمان والإحساس والشعور بحلاوة الإيمان: إيمان العبد بالقدر.

قال: «**إنك لن تجد طعم الإيمان ولن تبلغ حقيقة العلم بالله حتىٰ تؤمن بالقدر**»؛ لاحظ هنا أن عبادة بن الصامت رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ نبه علىٰ عظم شأن الإيمان بالقدر وعظم مكانة الإيمان بالقدر في الدين من جهتين:

▪ **الجهة الأولىٰ**: أن الإيمان بالقدر يذاق به طعم الإيمان، ولا يذاق طعم الإيمان إلا بالإيمان بالقدر؛ بمعنىٰ أن من لا يؤمن بالقدر لا يذوق طعم الإيمان ولا يجد حلاوة الإيمان، فهذا مما يبين مكانة الإيمان بالقدر في دين الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وأن

حلاوة الإيمان وذوق طعمه لا يمكن أن ينال إلا بالإيمان بالقدر.

▪ **الجهة الثانية**: الذي بيّن به عبادة بن الصامت رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ مكانة الإيمان بالقدر في دين الله عَزَّوَجَلَّ بقوله: «**ولن تبلغ حقيقة العلم بالله** تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ»؛ يعني لن تكون من أهل العلم بالله حقيقة إلا إذا آمنت بالقدر، ولن تكون من أهل العلم بالله والمعرفة به سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ إلا إذا كنت من أهل الإيمان بالقدر، وكيف يكون عارفًا بحقيقة العلم بالله من يجحد أقداره سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ! والقدر قدرة الله، ومن جحد القدر جحد قدرة الله، ولهذا بيّن رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنه لن يبلغ أحدٌ حقيقة العلم بالله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ إلا إذا آمن بالقدر، وقد قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في آخر آية من سورة الطلاق: ﴿**ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا**﴾، فأين إيمان الإنسان بالله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ خالق هذا الكون ومبدع هذه الكائنات من لا يحقق الإيمان بأنه تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ على كل شيء قدير وأنه تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ قد أحاط بكل شيء علمًا، وهذا من الإيمان بالقدر، فكيف يكون مؤمنًا بالله عارفًا به محققًا العلم به تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ من لا يؤمن بالقدر خيره وشره من الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ؟!

قال: «**حتىٰ تؤمن بالقدر خيره وشره**»؛ أي ما يقدّر من أمور خير أو ما يقدّر من أمور شر، مثل الطاعات وأبواب البر وعموم المنافع والمصالح، والشر أضداد ذلك من الكفر والفسوق والفجور والآثام وغير ذلك، فمن لا يؤمن أن كل شيء بقدر الخير والشر لن يبلغ حقيقة الإيمان ولن يبلغ حقيقة العلم بالله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، لأن من لا يؤمن بالقدر من لازم عدم إيمانه بالقدر ادعاء وجود خالق مع الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، ولهذا قال أئمة العلم عن القدرية النفاة (نفاة القدر) أنهم مجوس هذه الأمة لأن المجوس قالوا بوجود خالقين، والقدرية النفاة أيضًا يقولون بوجود خالقين؛ الله عَزَّوَجَلَّ خالق الإنسان والإنسان خالق فعل نفسه؛ لأنه إذا لم تكن أفعال العباد مقدّرة ومخلوقة لله

تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يكون بزعم هؤلاء خالقها الإنسان، فادّعوا بذلك وجود خالق مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فكان بهم شبهٌ بالمجوس، وهذا الكون والخلق خلق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ولا يمكن أن يقع في هذا الكون شيء لا يشاؤه الله ولا يقدره كونًا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الملك ملكه والخلق خلقه جَلَّ وَعَلَا.

قال: «**يا أبتاه**»، وسيسأل الوليد سؤالًا من أجمل السؤالات في هذا الباب، قال: «**يا أبتاه وكيف لي أن أعلم ما خيرُ القدر وشرُّه؟ قال: تعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليُخطئك**»؛ أي أن الأمور كلها بتقدير الله عَزَّوَجَلَّ، «**ما أصابك**» أي: من غنىٰ أو صحة وعافية، أو من إيمان وطاعة وصلاة وصيام أو من معصية، «**أصابك لم يكن ليخطئك**»: فكل ما قدِر لك وكتب أن يقع منك لا يمكن أن يتخلف؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا معقب لحكمه، فما أصابك من مصيبة كذلك من بلاء أو مرض أو سقم أو أي نازلة فلا يمكن أن تخطئك.. كتبها الله عليك، ولهذا سيأتي معنا في حديث أبي هريرة «**لا تقل لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا، ولكن قل قدّر الله وما شاء فعل**»؛ لأن القدر إذا وقع لا مناص عنه ولا مفر منه، ولا تفتح علىٰ نفسك في هذا المقام باب الشيطان، «**واعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك**»؛ أي: ما أخطأك من الأمور التي تطلبها مثلًا أو تسعىٰ في نيلها فلم تظفر بها ولم تحصلها لم يكن ليصيبك، أيضًا ما أخطأك من الحوادث والمصائب والنوازل والكوارث فسلمت لم يكن ليصيبك لأن القدر خيره وشره من الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وبيد الله عَزَّوَجَلَّ، وما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ [فاطر: ٢]، وفي وصية النبي ﷺ لابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: «**احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، واعلم أن الأمة لو اجتمعت علىٰ أن ينفعوك بشيء لن ينفعوك إلا بشيء كتبه الله لك، ولو**

اجتمعت علىٰ أن يضروك بشيء لن يضروك إلا بشيء كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف».

وهذا الإيمان بالقدر يعطي العبد طمأنينة ويُكسب قلبه سكونًا وراحة ويبعد عنه قلق قلبه واضطرابه؛ لأن هذه أمور مكتوبة ومقدّرة ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ﴾ [التغابن: ١١]، تأمل فائدة الإيمان بالقدر ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ﴾، قال علقمة رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ في بيانه لهذه الآية: «هو الرجل تصيبه المصيبة، فيعلم أنها من عند الله فيسلم ذلك ويرضىٰ»[(١)]، يعلم أنها مقدرة ومكتوبة لا مناص ولا مفر منها، فيرضىٰ ويسلم.

ولهذا المؤمن بالقدر عندما يصاب بالمصيبة يسلو لأنه يعلم أن هذه أمور مقدرة ومكتوبة ولا مفر منها ولا مناص ويسعىٰ في طلب ثواب الصابرين قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**عجبًا لأمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنّ أَمْرهُ كُلّه خيْرٌ وليْس ذاك لأحد إِلاّ لِلْمُؤْمِنِ؛ إِنْ أصابتْهُ سرّاءُ شكر فكان خيْرًا لهُ، وإِنْ أصابتْهُ ضرّاءُ صبر فكان خيْرًا له**»[(٢)]، المؤمن بالله وبأقداره سبحانه هو الذي يظفر بثواب الصابرين في المصائب وثواب الشاكرين في الطاعات والنعم والمنن، فهو في المصيبة صابر وفي النعمة حامد شاكر، وهذا لا يكون إلا للمؤمن، المؤمن بالله والمؤمن بأقدار الله عَزَّوَجَلَّ والمؤمن بأن الفضل بيد الله عَزَّوَجَلَّ يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

قال: «**يا بني إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: أول ما خلق الله القلم، قال: اكتب، فيجرىٰ في تلك الساعة بما هو كائن إلىٰ يوم القيامة**» أول ما خلق الله القلم أمره بالكتابة، والعرش خُلق قبل القلم، قد مر معنا سابقًا قول النبي ﷺ: «**وكان عرشه علىٰ**

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٣/ ٤٢١).

(٢) رواه مسلم (٢٩٩٩).

الماء»، فعرش الرحمن خلقه قبل خلق القلم، لكن قوله هنا: «أول ما خلق الله القلم» يحتمل أن الأولية تتعلق بالكتابة أي أول ما خلقه أمره أن يكتب، عند أول خلقه أمره بالكتابة، أو أن هذه الأولية تتعلق بهذا العالم السماوات والأرض والجبال وغير ذلك من مكونات هذا العالم، فأول ما خلق الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ القلم قال له اكتب؛ أي أمره بالكتابة.

خلق الله عَزَّوَجَلَّ القلم وأوجده بعد أن لم يكن وأمره أن يكتب، ولنلاحظ أن خلق القلم دل حديث عبد الله بن عمرو بن العاص المتقدم في أول هذه الترجمة كان قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة؛ لأن حديث عبد الله بن عمرو بن العاص قال فيه النبي ﷺ: «إن الله كتب مقادير الخلائق قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة»، فخلْق القلم كان قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة خلقه الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ولما خلقه أمره أن يكتب، «**قال اكتب**»، جاء في بعض الأحاديث: «**قال القلم وماذا أكتب؟ قال الله** :عَزَّوَجَلَّ **اكتب ما هو كائن إلىٰ يوم القيامة فجرىٰ القلم كتابة بما هو كائن إلىٰ يوم القيامة**»، جفت الأقلام ورفعت الصحف، فكتب القلم وجفت الكتابة بما هو كائن إلىٰ يوم القيامة.

فكتب وجرىٰ القلم بما هو كائن، من صغير أو كبير، من دقيق أو جليل، من أفعال من حركات، من موت أو حياة، من مرض أو سقم من قيام أو قعود إلىٰ غير ذلك كُتب؛ وهذا كله يدلنا علىٰ عظمة الخالق سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وكماله وكمال قدرته وإحاطة علمه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]. خلْق هذه المخلوقات وإيجاد هذه الكائنات وحده دليلٌ علىٰ إحاطة علم الله بها وكمال قدرته عليها، قد مر معنا الآية الكريمة قول الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾

[الطلاق: ١٢]، فالخلق دليلٌ علىٰ إحاطة العلم وكمال القدرة والتقدير.

قال: «**اكتب، فيجري في تلك الساعة أي التي كتب فيها القلم بما هو كائن إلىٰ يوم القيامة**»، فكل ما كان وما يكون وكل أفعال الآدميين وحركاتهم وسكناتهم وقيامهم وذهابهم ورواحهم كل ذلك كُتب، كل ما هو كائن إلىٰ يوم القيامة كتب في اللوح المحفوظ ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ [الحج: ٧٠]، ﴿وَكُلُّ شَيۡءٖ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ۝٥٢ وَكُلُّ صَغِيرٖ وَكَبِيرٖ مُّسۡتَطَرٌ﴾ [القمر: ٥٢، ٥٣].

قال: «**يا بني إن متّ ولست علىٰ ذلك دخلت النار**»، وهذا أمرٌ ثالث بيّن فيه عُبادة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ مكانة الإيمان بالقدر في دين الله، وأن من يموت غير مؤمن بالقدر يدخل النار؛ لأن من لا يؤمن بالقدر لا يؤمن بالله، ومن لا يؤمن بالله ليس له مصير إلا النار، ولا ينتفع بعمل ولا يستفيد من طاعة وإن صلىٰ وصام وتصدق كل هذه لا تفيده ولا ينتفع بها كما قال الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [المائدة: ٥]، إذا كفر الإنسان بالإيمان وبأصول الإيمان وبأركان الإيمان يحبط عمله ويبطل حتىٰ وإن كثرت طاعاته وتعددت عباداته وتنوعت، فالكفر مانعٌ من قبول الأعمال والإيمان أساس لقبوله، قال تعالىٰ: ﴿وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا﴾ [الإسراء: ١٩]؛ فمن لا يكون مؤمنًا لا يكون سعيه مشكورًا؛ أي مقبولًا مرضيًّا عند الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ. وقال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا مَنَعَهُمۡ أَن تُقۡبَلَ مِنۡهُمۡ نَفَقَٰتُهُمۡ إِلَّآ أَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: ٥٤]، وقال تعالىٰ: ﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

فالعمل لا يتقبل إلا إذا أقيم علىٰ الإيمان وبُني عليه، ولهذا قال رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ وأرضاه: «**يا بني إن مت ولست علىٰ ذلك دخلت النار**» أي: لست علىٰ الإيمان

بالقدر خيره وشره من الله تعالىٰ وأن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك، فإن مت علىٰ غير ذلك دخلت النار.

وهذا يبين لنا اهتمام السلف رحمهم الله تعالىٰ بأمر القدر وشأنه والوصية به والعناية به وأيضًا يفيدنا فائدة عظيمة جدًّا ألا وهي: ضرورة تربية الأبناء وتنشئتهم علىٰ الإيمان بالقدر وأن الأبناء يربون علىٰ ذلك وينشؤون عليه، حتىٰ ينشأ الناشئ قوي الصلة بالله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، قوي الالتجاء إليه جَلَّجَلَالُهُ، ويعلم أن الأمور كلها بيده وأنها بتدبيره وتسخيره وأن الحكم لله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، وهذا أمرٌ لا يكلف الوالد شيئًا لأنه أمرٌ فُطر عليه أناس، فُطروا علىٰ الإيمان بالله وعلىٰ قبول هذه المعاني والرضا بها، «**كل مولود يولد علىٰ الفطرة**»[1]، قال الله تعالىٰ: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: ٣٠]، في الحديث القدسي قال الله تعالىٰ: «**خلقْتُ عِبادِي حُنفاء كُلّهُمْ وإنّهُمْ أتتْهُمُ الشّياطِينُ فاجْتالتْهُمْ عنْ دِينِهِم**»[2].

ولهذا فإن تربية الأبناء علىٰ هذه الأصول العظيمة ليس أمرًا شاقًا بل هو من السهولة بمكان، لأنه يوافق فطرهم ويمشي مع الفطرة، وفطرته تدعوه إلىٰ ذلك وتقبل ذلك وترضىٰ به، بينما إدخال أباطيل أهل الكلام وأضاليل أهل الفلسفة ونحو ذلك من الخرافات والخزعبلات هذه أمور تُحشر علىٰ الناس وتزاحم الفطر وتؤدي إلىٰ انحرافها وضياعها وبُعدها عن الجادة السوية، فتربية الأبناء وتنشئتهم علىٰ الإيمان بالقدر من الأمور العظيمة المهمة التي ينبغي أن يُنشئ عليها الصغار، والصغار نشؤوا وفُطروا علىٰ الإيمان بالله والرضا بما قدّر وبما حكم سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ،

---

(١) رواه البخاري (١٣٨٥)، ومسلم (٢٦٥٨).

(٢) رواه مسلم (٢٨٦٥).

ويكفي الصغير تربية له أن يقال هذا تقدير الله هذا حكم الله؛ فيأخذه رأسًا بالقبول ما لم يُبتلىٰ بمن يحرف فطرته والعياذ بالله.

وأذكر من القصص اللطيفة الطريفة: أحد الآباء أخبرني عن ابنه الصغير الذي عمره كان إذ ذاك لا يبلغ ست سنوات، يقول: توفيت جدتنا وصلّينا عليها وأخذناها لندفنها، والجدة عندهم في البيت يراها الطفل ويجلس معها وتحكي له القصص وتداعبه وتؤانسه ويحبها، ثم يمشي هذا الصغير مع جنازة جدته ويصلّىٰ عليها ثم لما وصل إلىٰ المقبرة وإذا بهم ينزلون جدته ومحبوبته في التراب في الأرض ثم يهيلون التراب عليها، فكان هذا الأمر بالنسبة له أمر مفزع، يقول الوالد فالتفت إليّ ابني في ذلك الموقف وهم يدفنون التراب قال لي: لماذا يا أبي؟ لماذا جدتي هكذا تدفن؟ وتوضع في هذا المكان ويرمىٰ عليها التراب؟ يقول الأب: لما سألني ابني هذا السؤال تزاحمت في ذهني أجوبة أريد جوابا سريعًا جيدا أشفي به غليل ابني في سؤاله، يقول فأخذت أبحث عن جواب مناسب يقنع ابني في هذه اللحظة، يقول وأنا أشغل بالي في البحث عن الجواب التفت إلي ابني ثانية وقال لي: أم أ ن الله أرشدنا لهذا؟ قلت: نعم أمر الله، قال: خلاص، إذًا هذا أمر الله يعني فيه خير فيه بركة.

فالصغار هؤلاء تربيتهم علىٰ أمور الإيمان وحقائق الدين وأصوله أمور توافق فطرهم ويتلقونها بالقبول، ويكفي الصغير أن يعلم أنه أمر الله، فعندما يقال له هذا أمر الله رب العالمين الذي خلقنا وأوجدنا، والله عَزَّوَجَلَّ لا يأمر إلا بخير، وله الحكمة البالغة سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، يربىٰ وينشأ علىٰ هذه المعاني.

فنحن نستفيد من هذا الأثر العظيم أهمية تربية الأبناء علىٰ هذه الأصول العظيمة.

والأمر الآخر أن من يوصي أبناءه تكون وصيته بمثل هذا؛ يذكر الكلام

مضمومًا إليه دليله، مثل ما صنع عبادة بن الصامت، ذكر له الكلام وذكر له أهمية الإيمان بالقدر ومكانته وذكر له الدليل قال: «**سمعت رسول الله** ﷺ»، ولهذا يحتاج أيضًا الأبناء عندما يربّون علىٰ الفضائل والمعاني العظيمة أن تُذكر الأدلة، بعض الآباء يذكر لابنه الفضائل ويحثه عليها تارة بالزجر مثل: «إن لم تفعل ضربتك» أو مثل هذه المعاني، أو يقول: «إن لم تفعل فأنت كذا وكذا من الألفاظ القاسية»، بينما مقام التربية ومقام التعليم يقتضي مثل هذا البسط: تُذكر المعاني والتعليلات والتذليلات وتوضّح حتىٰ يأخذ الأمر مأخذا عظيما في قلب الموصىٰ بخطاب لطيف وبكلمات بينة كما هو مشاهد وملاحظ في هذه الوصية العظيمة من عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لابنه الوليد رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ.

❊ ❊ ❊

[عدم المنافاة بين الإيمان بالقدر والتداوي]

٥٠- وَعَنْ أَبِي خُزَامَةَ عَنْ أَبِيهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ: أَرَأَيْتَ رُقًى نَسْتَرْقِيهَا، وَدَوَاءً نَتَدَاوَىٰ بِهِ، وَتُقَاةً نَتَّقِيهَا هَلْ تَرُدُّ مِنْ قَدَرِ اللهِ شَيْئًا؟ قَالَ: «**هِيَ مِنْ قَدَرِ اللهِ**». رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ وَحَسَّنَهُ(١).

ثم أورد رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ هذا الحديث حديث أبي خزامة عن أبيه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «**قلت يا رسول الله أرأيت رُقىٰ نسترقيها ودواءً نتداوىٰ به وتُقاةً نتقيها هل تردُّ من قدر الله شيئًا؟**»، هذا سؤال جميل جدًّا في باب الإيمان بالقدر، يسأل هذا الصحابي الجليل النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عن الأدوية التي يتداوىٰ بها الناس، من يجد مثلًا شيئا من الألم في بطنه فيأخذ عشبًا معروفا أنه يفيد في هذا الوجع، أو تقاةً يتقيها وهذا يتناول كل ما يفعله الإنسان ليتقي به، مثل أن تتقي البرد بالألبسة الشتوية أو الشمس بالاستظلال، أو رماح العدو ونبله بالترس ونحو ذلك، فهذه الأشياء التي تأخذها للاتقاء اتقاء البرد أو اتقاء الشمس أو اتقاء النبل أو نحو ذلك هل ترد من القدر؟ والقدر المكتوب هل هي تمنعه؟ فكأنه يقول: إذا كان الأمر مقدّرا ومكتوبا فما الحاجة إلىٰ هذه الأمور؟ هي لا تمنع القدر ولا ترد القدر، وما كتب كائن لا محالة، فما الحاجة إليها؟ مثل ما جاء في الحديث المتقدم قال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ طالما أن الأمور كُتبت وقدِرت: «**ألا نتكل علىٰ القدر وندع العمل؟**» طالما أن الأمور كتبت وقدرت ألا نتكل علىٰ القدر

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (١٥٤٧٢)، والترمذي (٢٠٦٥)، وابن ماجه (٣٤٣٧)، وضعفه الألباني في «ضعيف ابن ماجه» (٧٤٩).

وندع العمل؟ فهنا يسأل هل هذه الأشياء ترد من القدر شيئا؟ فقال: «**يا رسول الله أرأيت رقىٰ نسترقيها**»، رقىٰ: جمع رقية مثل ظُلم جمع ظُلمة، «**ودواء نتداوىٰ به**»؛ أي الأدوية التي نستعملها ونفيد منها، «**وتقاة نتقيها**»؛ أي ما نتقي به الحر أو الشمس أو النبل أو نحو ذلك «**هل ترد من قدر الله شيئًا؟**».

قال: «**هي من قدر الله**»، وهذا من أجمل ما يكون وأعظم ما يكون جوابًا علىٰ هذا السؤال، قال هي من قدر الله: أي أن الله عَزَّوَجَلَّ قدّر أن فلانًا من الناس يمرض بالمرض الفلاني أنه يتناول العشب الفلاني أو الدواء الفلاني ويشفىٰ، قدّر أيضًا أن فلان من الناس يمرض وأنه يقرأ علىٰ نفسه بفاتحة الكتاب ويُشفىٰ ويبرأ، فالرقية من قدر الله، والتقاة من قدر الله، والاستشفاء من قدر الله، كل ذلك من قدر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

فإذًا هذا يدل علىٰ أن فعل الأسباب من الإيمان بالقدر، بل يفيد أن الإنسان لا يبلغ حقيقة الإيمان بالقدر إلا إذا فعل الأسباب غير معتمد عليها بل يتوكل علىٰ الله جَلَّوَعَلَا، لكن فعل الأسباب ذاته من الإيمان بالقدر، ولهذا قال عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «**هي من قدر الله**». ولهذا لا تُعطل الأسباب بل تُفعل، والأسباب ذاتها من قدر الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، ومن مقتضيات وتمام الإيمان بالقدر أن يباشر الإنسان الأسباب، ولهذا يقول أهل العلم فيمن يعطل الأسباب مثل من يقول: «إن قدّر الله لي ولد وكتب لي ولد يكون، وأما أنا لن أتزوج النساء إلىٰ أن أموت»، أو يقول: «إن كتب الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لي أن أكون من العلماء الكبار المحققين سأكون، لكن لن أطلب العلم ولن أجلس عند عالم ولن أقرأ كتابا وإن كان الله كاتب لي العلم وأن أكون عالمًا سأكون»!

تمنيـــت أن تمســـي فقيهـــا منـــاظرًا   بغيـــر عنـــاء والجنـــون فنـــون

ولـــيس اكتســـاب المـــال دون مشـــقة   تلقيتهـــا فـــالعلم كيـــف يكـــون!!

يعني لابد أن يبذل الإنسان له سببه، ويلاحظ أن بعض الناس قضية فعل السبب يُعملها فيما يحب ويهملها فيما لا تميل نفسه إليه، إذا جاء باب الطعام والشراب والأكل وأنواع المأكولات والمشروبات تجده يبذل الأسباب، وإذا جاءت الحقائق الشرعية والأمور التي فيها سعادة الآخرة تجده يقابلها في فتور ويقول: إن كان الله كاتب لنا خير من هذه الأمور سيحصل، أما فيما يتعلق بطعامه وشرابه والأمور التي تميل إليها نفسه فإنه يباشر فيها الأسباب(١).

قال: «**يا رسول الله أرأيت رقىٰ نسترقيها ودواء نتداوىٰ به وتقاة نتقيها هل ترد من قدر الله شيئًا؟ قال هي من قدر الله**»، وهذا فيه أيضًا مشروعية التداوي، كما صح في الحديث عن النبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «**تداووا عباد الله فإن الله سبحانه لم يضع داء إلا وضع معه شفاء إلا الهرم**»(٢)، فالتداوي مشروع ولا ينافي الإيمان بالقدر، والرقىٰ أيضًا مشروعة ولا تنافي الإيمان بالقدر، فكون الإنسان يرقي نفسه إذا مرض لا ينافي الإيمان بالقدر، لكنّ طلب الرقية من الآخرين تنافي تمام التوكل، ولهذا ذكر النبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ في السبعين ألف قال: «**هم الذين لا يسترقون ولا يكتوون ولا**

---

(١) قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُٱللَّهُ: «والناس في الأسباب طرفان ووسط:

الأول: من ينكر الأسباب، وهم كل من قال بنفي حكمة الله; كالجبرية، والأشعرية.

الثاني: من يغلو في إثبات الأسباب حتىٰ يجعلوا ما ليس بسبب سببا، وهؤلاء هم عامة الخرافيين من الصوفية ونحوهم.

الثالث: من يؤمن بالأسباب وتأثيراتها، ولكنهم لا يثبتون من الأسباب إلا ما أثبته الله سبحانه ورسوله، سواء كان سببا شرعيًّا أو كونيًّا.

ولا شك أن هؤلاء هم الذين آمنوا بالله إيمانا حقيقيًّا» «القول المفيد» (١/ ١٦٤).

(٢) رواه ابن ماجه (٣٤٣٦)، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٢٧٧٢).



يتطيرون وعلىٰ ربهم يتوكلون»[١]، الاسترقاء: طلبهم من الغير.

قال: «**أرأيت رقىٰ نسترقيها**» إذا كان المراد بذلك رقية الإنسان لنفسه فالأمر واضح، وإذا كان المراد أي نطلبها من الآخرين فهذا أمر مباح لكنه خلاف الأولىٰ، والحديث يدل أن هذا الأمر المباح «**نسترقيها**»؛ أي: نطلبها من الآخرين، فهذا أمر مباح، لكنه خلاف الأولىٰ، والحديث يدل أن الأمر المباح هو خلاف الأولىٰ هو من القدر، ولهذا في حديث حصين بن عبد الرحمن لما لدغته العقرب قال سعيد بن جبير: ما صنعت؟ قال: «**استرقيت**»... قال: «**قد أحسن من انتهىٰ إلىٰ ما سمع**»، ثم ساق الحديث وفيه قول النبي ﷺ: «**لا يسترقون**»[٢]، فقوله: «قد أحسن من انتهىٰ إلىٰ ما قد سمع» يدل علىٰ أن الاسترقاء مباح لكنه خلاف الأولىٰ، فالأولىٰ أن لا يطلب الإنسان من الآخرين أن يرقوه، وأن يكتفي برقيته لنفسه والتجائه إلىٰ ربه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

❊ ❊ ❊

---

(١) رواه البخاري (٥٧٠٥)، ومسلم (٢١٨).

(٢) رواه مسلم (٢٢٠).

[المؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف]

٥١- وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «الْمُؤْمِنُ القَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَىٰ اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ، احْرِصْ عَلَىٰ مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجَزَنَّ، فَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَذَا كَانَ كَذَا وَكَذَا! وَلَكِنْ قُلْ: قَدَّرَ اللهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ (لَوْ) تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ[١].

ثم ختم المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ هذه الترجمة بهذا الحديث حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأرضاه، وختْم الترجمة بهذا الحديث من جمال الختم؛ لأن ما سبق فيه تقريرٌ وتدليل إلىٰ أن الأمور كلها بقدر الله، وأيضًا ذكر التقديرات: التقدير العمري والتقدير العام إلىٰ آخر مما مر معنا في الأحاديث التي ساقها المصنف؛ فناسب ختْم الترجمة بهذا الحديث العظيم الذي فيه الأمر بمباشرة الأعمال وفعل الأسباب والحرص علىٰ النافع من الأمور ومجاهدة النفس علىٰ ذلك، لا أن يتكل الإنسان علىٰ القدر ويعطل العمل، فختم الترجمة بهذا الحديث تنبيهًا علىٰ أن من كمال وتمام الإيمان بالقدر مباشرة الأسباب وفعلها.

قال: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**المؤمن القوي خير وأحب إلىٰ الله من المؤمن الضعيف**»؛ المؤمن القوي أي في إيمانه وطاعته لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وقيامه بشعب الإيمان وخصال الدين؛ لأن الإيمان كما قال نبينا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**بضع وسبعون شعبة أعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذىٰ**

---

(١) رواه مسلم (٢٦٦٤).

عن الطريق والحياء شعبة من شعب الإيمان»[(١)]، فقوة الإيمان من قوة تحقيق هذه الشعب وكمال تحقيقها، فكلما كان العبد أعظم تحقيقًا لها وتتميما لها كان ذلك أقوىٰ في إيمانه، وكلما كان أقل كان ذلك أضعف في إيمانه.

وهذا من الشواهد والدلائل الواضحات علىٰ أن الإيمان يزيد وينقص ويقوىٰ ويضعف، وأن أهله ليسوا فيه سواء؛ منهم قوي الإيمان ومنهم ضعيف الإيمان، قال تعالىٰ ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ [فاطر: ٣٢] ليسوا علىٰ درجة واحدة بل بينهم تفاوت.

وهنا بيّن النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ التفاوت في الإيمان بين أهل الإيمان؛ مؤمن قوي ومؤمن ضعيف، والمؤمن القوي خير وأحب إلىٰ الله من المؤمن الضعيف.

وقوله: «**أحب إلىٰ الله**» فيه إثبات صفة المحبة لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وأنه يحب جَلَّ وَعَلَا، وأن حبه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يزيد لمن زاد إيمانه وقوي دينه، قال: «**أحب إلىٰ الله من المؤمن الضعيف**»، فهذا فيه تفاضل محبة الله عَزَّ وَجَلَّ للناس بحسب تفاوتهم في الإيمان وخصاله وأعماله.

قال: «**المؤمن القوي خير وأحب إلىٰ الله من المؤمن الضعيف وفي كلٍّ خير**»، وهذه الجملة في الحديث قوله إيرادها هنا من أنفع ما يكون؛ حتىٰ لا يظن بضعيف الإيمان أنه لا خير فيه، بل المؤمن الضعيف، «**وفي كل خير**» فيه خير ما دام أن الإيمان عنده محافظًا علىٰ إيمانه حتىٰ مع الضعف ففيه خير.

قال: «**المؤمن القوي خير وأحب إلىٰ الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير**»؛ أي في قوي الإيمان وفي ضعيف الإيمان في كل منهما خير، لكن الخير الذي عند قوي

---

(١) رواه البخاري (٩)، ومسلم (٣٥)، واللفظ له.

الإيمان أكثر وأعظم وأوفر من الخير الذي عند ضعيف الإيمان.

قال: «**احرص علىٰ ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجزن**»؛ وهذا فيه الدعوة إلىٰ العمل أي: كن حريصًا تمام الحرص علىٰ كل نفع لك، «**واستعن بالله**»، أي كن متوكلًا عليه طالبًا عونه ومدّه تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، لا أن تكون متكلًا علىٰ الأسباب التي تباشرها، فأمر النبي ﷺ بفعل الأسباب وفي الوقت نفسه أمر بالاستعانة بالله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ وحسن الالتجاء إليه تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ.

وقوله صلوات الله وسلامه عليه: «**احرص علىٰ ما ينفعك واستعن بالله**» يتضمن الوصية بأمور ثلاث لابد منها في هذا الباب:

الأمر الأول: الحرص، والحرص أمر يكون في القلب؛ رغبة وهمة وتطلعا للأمور النافعة، بأن يكون القلب له حرص ورغبة في الأمور النافعة المفيدة.

والأمر الثاني: الذي يتناوله هذا الحديث: سلوك مسالك الأمور النافعة؛ أي: السير في طلبها وتحصيلها.

والأمر الثالث: الاستعانة بالله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ؛ فتحرص علىٰ الخير، وتسلك مسالكه، ولكن تطلب عون الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ علىٰ تحقيقه.

فمن حرص دون سلوك لمسالك الخير وبذل لأسبابه هذا عجز وتوان وفتور، ومن حرص وسلك مسالك الخير ولم يلتجئ إليه تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ تكون عاقبته إلىٰ الحرمان والخسران، ولا يتحقق للإنسان الخير إلا بالحرص وبذل الأسباب والتوكل علىٰ الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ؛ فهذه أصول عظام أرشد إليها هذا الحديث في هذا الباب العظيم.

وقوله: «**احرص علىٰ ما ينفعك**» يتناول كل نافع من الأمور الدينية والدنيوية، ليس خاصا بالأمور الدينية فقط بل يتناول كل نافع؛ أما النافع في الدنيا فحرصك عليه ببذل الأسباب في طلب الرزق ﴿فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ﴾ [الملك: ١٥]، ولا يليق

بالمؤمن أن يبقىٰ مكتوف الأيدي في بيته ينتظر أن يأتيه رزقه في مكانه، بل يبذل السبب ويذهب إلىٰ السوق ويعمل ويباشر الأعمال فيما يميل إليه من مجالات: زراعة، صناعة، تجارة.. إلىٰ غير ذلك ﴿فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾؛ أمر بالمشي الذي هو السعي في طلب الرزق، فأمر تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ببذل الأسباب فيحرص الإنسان علىٰ ما ينفعه.

وهنا قوله: «**علىٰ ما ينفعك**» فيما يتعلق بالأمور الدنيوية؛ فيه تنبي علىٰ البعد عن الحرام؛ لأن المحرمات تضر الإنسان ولا تنفعه ولم يحرمها الله عَزَّوَجَلَّ وينهىٰ عباده عنها إلا لما فيها من المضرة عليهم والوبال عليهم في دنياهم وأخراهم، ولهذا قوله: «**احرص علىٰ ما ينفعك**»، فيه التنبيه إلىٰ الحرص علىٰ الأمور النافعة الدنيوية الطيبة البعيدة عن الحرام والبعيدة أيضًا عن الشبهات، قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**إن الحلال بين، وإن الحرام بين، وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقىٰ الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعىٰ حول الحمىٰ يوشك أن يرتع فيه**»[(١)] إلىٰ آخر الحديث.

ويتناول قوله: «**علىٰ ما ينفعك**» الحرص علىٰ الأمور الدينية؛ أي: احرص علىٰ ما ينفعك في دينك، والحرص علىٰ ما ينفع في الدين يتناول أمرين يجتمع فيهما الدين وهما: العلم النافع والعمل الصالح، فتحرص علىٰ ما ينفعك في دينك من العلوم النافعة، ولهذا ينبغي أن يكون للإنسان حظ ونصيب من العلم في كل أيامه، فأين الحرص علىٰ ما ينفع الإنسان في دينه ممن يمر عليه الأيام تلو الأيام بل الشهور تلو الشهور ولم يجلس ساعة يطلب فيها علمًا ينفعه في دينه؟! بل بعض الناس مضىٰ

---

(١) رواه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).

سنوات من عمره وما جلس يطلب علمًا أو يتفقه في دينه! فعنده وقت يجلس مع زملائه الساعات الطوال للضحك واللعب والسمر وليس عنده وقت يجلس ساعة واحدة يطلب فيها علمًا، والله المستعان.

ولهذا ينبغي عملًا بهذا الحديث وتحقيقًا له أن يجعل المسلم لنفسه برنامجا يوميا في العلم ولو كان قليلًا، لكن لا ينبغي أن يمر عليه اليوم ولا يحصِّل فيه علمًا مع ما عنده من الجهل في جوانب كثيرة فهذا من الحرمان، بل كان بعض المتقدمين يبكي إذا غربت الشمس ويلوم نفسه كيف غربت وهو لم يغنم في يومه مغانم كبيرة، ومن الناس من تغيب شمسًا تلو أخرىٰ ولا يحصل فيها ولا حرفًا من العلم!

ولهذا ينبغي للإنسان أنه يجعل لنفسه برنامج مع العلم ينفعه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ به، ومن أعظم ما يوصي به أهل العلم للمبتدئ «**الأربعين النووية**» للإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ؛ فهذا كتاب مبارك وعظيم النفع وكبير الفائدة، ولو جعل كل واحد منا لنفسه برنامجا مع الأربعين يحفظ في اليوم حديثًا واحدًا حفظا متقنًا لا يمضي عليه أربعون يوما إلا وأنهاها، لو جعل لنفسه برنامجا في كل ثلاثة أيام يحفظ حديثًا واحدًا لا تمر عليه السنة إلا وهي من محفوظاته، فيعتني بها ويعتني أيضًا بالكتب التي ألفها أهل العلم يتدرج فيها مثل: «**الأصول الثلاثة**»، و«**كتاب التوحيد**» لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ، «**كتاب العقيدة الواسطية**» لشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، «**كتاب عمدة الأحكام**»، و«**كتاب بلوغ المرام**»، ومثل هذه الكتب النافعة العظيمة المفيدة يجعل لنفسه فيها برنامجًا يحصل فيها علمًا، وقليل يستمر تظهر ثمرته فيما بعد بإذن الله، ويرىٰ الثمار بعد سنة أو سنتين..، وكثير من الناس عندما لا يرىٰ الثمرة مبكرة يترك المواصلة، لكن تستمر علىٰ قليل تحصل خيرا بإذن الله.

أعرف مجموعة من الشباب كانوا يجتمعون يوم الاثنين يصومون ثم يجتمعون

يفطرون سويًا ويسمعون لبعضهم نصف صفحة من القرآن الكريم لكنهم ثابتين علىٰ ذلك ومضوا عليه، وسألتهم أين وصلوا؟ فقالوا: انتهينا إلىٰ نصف القرآن، ويسمِّعون نصف صفحة ومعهم أحد طلبة العلم يفسر لهم الآيات ويبين لهم معانيها ودلالاتها ويفقههم فيها؛ فيحفظونها ويعرفون معانيها كل يوم اثنين؛ فنصف صفحة عبر سنوات تأتي النتائج.

أيضًا يشمل الحرص علىٰ ما ينفع جانب العبادة؛ لأن «**احرص علىٰ ما ينفعك**»؛ أي في أمور دينك يتناول العلم النافع والعمل الصالح، فأيضا يحرص الإنسان علىٰ جانب العبادة وأن يكون له حظ منها ولاسيما فرائض الدين وواجباته، قد قال تعالىٰ في الحديث القدسي: «**ما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه**»[(١)]، فيكون أعظم حرص الإنسان علىٰ فرائض الدين، حرصه علىٰ الصلاة والعناية بها، بعض الناس عندهم تهاون عجيب في الصلاة؛ وتفريط في أوقاتها وفي واجباتها وفي أدائها مع جماعة المسلمين، فأين الحرص علىٰ ما ينفع الإنسان في دينه مع هذا التهاون في هذه الفريضة من فرائض الدين؟! فيحرص الإنسان علىٰ الواجبات، ويحرص أيضًا علىٰ البعد عن المحرمات لأن الحرص علىٰ البعد عن المحرمات هو داخل في قوله ﷺ: «**احرص علىٰ ما ينفعك**».

فشمل الحديث في قوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**احرص علىٰ ما ينفعك**» شمل قوله: «**ما ينفعك**» أمورًا ثلاثة:

الأمر الأول: طلب الرزق وما ينفعك في دنياك.

الأمر الثاني والثالث: وما ينفعك في أمور دينك قسمناها إلىٰ قسمين علم نافع

---

(١) رواه البخاري (٦٥٠٢).

وعمل صالح.

فأصبح قوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يشمل أمورا ثلاثة: الرزق الطيب، والعلم النافع، والعمل الصالح، وهذا يوافق ما كان يواظب عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كل يوم بعد صلاة الصبح بدعاء يذكر فيها هذه الأمور الثلاثة التي هي حقيقة ما ينفع الإنسان: «**اللهم إني أسألك علمًا نافعًا، ورزقًا طيبًا، وعملًا متقبلًا**»(١).

وهذه الأمور الثلاثة هي أهداف المسلم في يومه، ولا أعلم للمسلم أهدافًا في يومه إلا هذه الثلاث: العلم النافع، والرزق الطيب، والعمل المتقبل.

قال: «**ولا تعجزن**»؛ أي انبذن عنك العجز وابتعد عنه، وجاهد نفسك علىٰ النهوض والهمة العالية وترك التواني والكسل والفتور؛ فإن هذه لا تأتي لك بخير، فاطّرح العجز والكسل والفتور وقم بالأمور النافعة بعزيمة وهمة لا تبقىٰ متكاسلا، وإذا خطر ببالك أمرًا نافعًا في دينك، أو دنياك، في علمك وعبادتك لا تعجز، واذهب إليه بهمة وبنشاط وتخلىٰ عن الكسل والعجز، لأنه لا يأتي لصاحبه إلا بالخسران والحرمان، يمضي العاجز الكسلان محروما من الخير، وكلما عرض له خير أجّله وسوّف وأخر إلىٰ أن تنقضي حياته وهو لم يحصل شيئًا، ولهذا قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**لا تعجزن**».

وقوله هنا في هذا المقام بعد قوله: «**احرص علىٰ ما ينفعك واستعن بالله**»؛ قوله: «**لا تعجزن**» فيه تنبيه إلىٰ أن هناك معاني ستدخل عليك عندما تحرص علىٰ النافع وهي أمور العجز والكسل والتواني؛ فجاهد نفسك علىٰ ألا تحول بينك وبين الخير فتطرح العجز والكسل وتقبل علىٰ ما ينفعك.

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (٢٦٧٣١)، وابن ماجه (٩٢٥)، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٧٥٣).

قال: «**فإن أصابك شيء**» يعني إن أصابك ضر أو بلاء ونزلت بك نازلة.

»**فلا تقل لو أني فعلت كذا كان كذا وكذا**» لأن هذا الكلام يفتح عليك عمل الشيطان فيدخل الإنسان في معاني سيئة جدًّا، مثلًا: لو قدِر لإنسان ما أنه سلك طريقًا وأصابه حادث في الطريق فلا يقل: لو أني جلست في البيت اليوم وما خرجت كان أسلم لي وما حصل لي الحادث!

وأيضًا عندما يفوتك مرغوب لا تقل لو أني عجلت أو لو أني أسرعت أو لو أني لم أمُر بالمكان الفلاني، أو كنت علىٰ سفر وصلت المطار وطارت الطائرة وتأخرت؛ لا تقل لو أني ما نمت اليوم بعد الفجر لو أني لو أني.. لا تقل.

«**ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل**» لأنك لو دخلت في باب «لو» دخل عليك الشيطان وأمرض قلبك وأتعبت نفسيتك وقلقت وضجرت، بينما إذا قلت: «**قدر الله وما شاء فعل**» سلوت وطمأن قلبك وقنعت أن هذا الأمر لم يكتب، ولو كان كتب لحصل لك؛ فتسلو نفسك ويطمئن قلبك.

قال: «**ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل**»: فالأمور كلها بقدر الله، وهذا فيه فائدة الإيمان بالقدر، وأن إيمانك بالقدر ينبغي أن يصاحبك في حياتك وانتبه لهذه المسألة فإنها مهمة جدًّا، إيمانك بالقدر ينبغي أن يصاحبك في حياتك ولا يكون الإيمان بالقدر أمورا نظرية تؤخذ وقت الدرس فقط، بل تحتاج إليه في كل لحظة من لحظاتك، دائما تشعر أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وأن القدر قدر الله وما شاء فعل، تؤمن بذلك ويكون هذا الإيمان مصاحبا لك، وكلما كان هذا الإيمان مصاحبا لك في حياتك كنت علىٰ خير عظيم.

و«لو» لها استعمالات صحيحة؛ لما تكون في تمني الخير، أو في بيان العلم

وإيضاحه «**لو استقدمت من أمري استدبرت لما سقت الهدي ولجعلتها عمرة**»(١) لها استعمالات صحيحة، لكن استعمالها في مثل هذا الموضع الذي حذّر منه النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ هو من المنهي عنه ومما يفتح علىٰ الإنسان عمل الشيطان(٢).

مسألة: ما حكم الخوض في مسائل القدر؟ وقد صح في الحديث عن النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أنه قال: «**إذا ذكر القدر فأمسكوا**»(٣)، صح هذا عن النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ صح عنه الأمر بالإمساك عند ذكر القدر، والخوض في ذلك، وجاء في الصحيح أن النبي ﷺ خرج علىٰ أصحابه يومًا وهم يتنازعون في القدر فغضب عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كأنما فُقئ في وجهه حب الرمان؛ أي احمّر وجهه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ من الغضب قال: «أبهذا أمرتم؟! أم بهذا أرسلت إليكم؟!!»(٤)فنهاهم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عن ذلك وحذرهم منه وبيّن أنه باب هلكة.

وعليه فالخوض في مسائل القدر له منحيان:

المنحىٰ الأول: وهو أن تبحث مسائل القدر في ضوء الآيات القرآنية والأحاديث النبوية؛ تقرأ النصوص الشرعية وتفهم معانيها في ضوء كلام أهل العلم وأئمة السلف فهذا لا بأس به، وأهل العلم ألّفوا مصنفات في القدر وعقدوا في كتب السنة أبوابًا في القدر أوردوا فيها الآيات والأحاديث المتعلقة بالإيمان بالقدر، فدراسة

---

(١) رواه البخاري (٧٢٢٩)، ومسلم (١٢١١).

(٢) انظر: «القول المفيد» (٢/ ٣٦٢).

(٣) رواه الحارث بن أبي أسامة في «مسنده» (٧٤٢) ، والطبراني في «معجمه الكبير» (١٠/ ١٩٨)، واللالكائي في شرح الاعتقاد (٢١٠) ، وأبو نعيم في الحلية (٤/ ١٠٨) وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٣٤).

(٤) رواه الترمذي (٢١٣٣)، وحسنه الألباني في «المشكاة» (٩٨).

هذه الآيات ودراسة هذه الأحاديث والتأمل في معانيها ومضامينها ودلالاتها أمر لا ينهىٰ عنه بل هو أمر مطلوب لأنه من العلم الشرعي الذي يندب المسلم إلىٰ تعلمه ومعرفته.

المنحىٰ الآخر: الخوض في القدر بالعقل المجرد وبالظنون الباطلة وبالأوهام الكاسدة، أو بالسؤالات الاعتراضية علىٰ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وعلىٰ أقداره، كأن يقول قائل والعياذ بالله:«لم فعل الله كذا؟ ولِم لم يفعل كذا؟ ولم قدّر كذا؟ ولم لم يقدر كذا؟ والله تعالىٰ يقول: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، ولهذا قيل: «لا تقل: لم أمر الله؟ ولكن قل بم أمر الله؟» فتأمل الفرق بين السؤالين: لا تقل لم أمر الله، ولكن قل بم أمر الله، وقارن السؤالين بالآية ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣] قول القائل: «لم أمر الله؟»، هذا يتعلق بما يفعله الله ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾، لا تقل لم أمر الله؟ من أنت حتىٰ تسأل رب العالمين عما يفعل؟! أنت مخلوق من مخلوقاته اسأل عما تسأل عنه أنت يوم القيامة ﴿وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ أنت ستُسأل يوم القيامة عليك أن تستعد عما ستُسأل؛ لأنه فقهٌ في دينك فقهٌ فهذا مطلوب منك، أما أن يقول الإنسان «لم أمر الله»، فهذا أمر منهي عنه.

❊ ❊ ❊

بَابُ: ذِكْرِ المَلَائِكَةِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وَالْإِيمَانِ بِهِمْ

وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [البقرة: ١٧٧] الآيَةَ.

وَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [فُصِّلَت: ٣٠].

وَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: ١٧٢].

وَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

وَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ [فاطر: ١] الآيَةَ.

وَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [غافر: ٧] الآية.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: «**باب ذكر الملائكة** عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ **والإيمان بهم**»

هذه ترجمة عقدها رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ ليبين أصلًا عظيمًا من أصول الإيمان وركنًا من أركان الدين ألا وهو: الإيمان بالملائكة الكرام عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ، وقد قال الله تعالىٰ: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة:

٢٨٥]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَـٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَـٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأَخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَـٰلَۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأَخِرِ وَٱلۡمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، فجمع الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ في هذه الآيات المباركات أصول الإيمان، ومن جملة هذه الأصول الإيمان بالملائكة.

والملائكة خلقٌ لله عَزَّوَجَلَّ لم نرهم لكن جاء الوحي بذكرهم، ومن أبرز صفات أهل الإيمان: الإيمان بالغيب أي: بكل ما غاب عنهم مما أخبرتهم به رسل الله قال الله تعالىٰ: ﴿هُدًى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [البقرة: ٢، ٣]؛ أي: الذين يؤمنون بكل ما غاب عنهم مما أخبرتهم به رسل الله لا يترددون في الإيمان بما تخبرهم به الرسل عليهم صلوات الله وسلامه من الأمور المغيبة التي لا يرونها ولا يشاهدونها، لكنهم يؤمنون بها لإخبار الرسل بها؛ فهذا من أبرز صفات أهل الإيمان.

والملائكة خلقٌ لله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ خلقٌ عظيم وخلق عجيب وخلقٌ كبير وخلق عددهم كثير، ولهم أسماء ولهم أعمال ولهم وظائف، والإيمان بهذا الخلق لله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ وبهذا الجند من جنوده تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ حق وواجب وهو أصل من أصول الإيمان؛ ولهذا لما جاء جبريل وهو أحد الملائكة عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ إلىٰ النبي ﷺ علىٰ صورة أعرابي قال للنبي ﷺ أخبرني عن الإيمان؟ قال: «**أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وأن تؤمن بالقدر خيره وشره**»؛ فعدّ صلوات الله وسلامه عليه في أصول الإيمان: «الإيمان بالملائكة»، ولهذا لا إيمان لمن لا يؤمن بالملائكة، والذي لا يؤمن بالملائكة لا يؤمن بالله، وهذا مستفاد من العطف الذي مر معنا في الآيات، قال الله عَزَّوَجَلَّ ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، فالذي لا يؤمن بملائكة الله

الذين ذكر الله عَزَّوَجَلَّ خبرهم في القرآن وذكر النبي ﷺ خبرهم في السنة هو في الحقيقة ليس مؤمنًا بالله ولا مؤمنًا بالكتب؛ لأن الكتب المنزلة علىٰ الرسل عليهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين كلها تقرر هذا الأصل وتدعو إلىٰ الإيمان بالملائكة؛ لأن أمور العقائد عند الأنبياء واحدة لا خلاف بين ا لأنبياء فيها، كما قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**نحن الأنبياء أبناء علات ديننا واحد وأمهاتنا شتىٰ**»(١)؛ أي عقيدتنا واحدة.

والملائكة خلقٌ لله عَزَّوَجَلَّ أوجدهم بقدرته، خلقهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بعد أن لم يكونوا وأوجدهم من العدم، وخلقهم تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ من نور كما صح بذلك الحديث عن رسول الله ﷺ، وكان خلق الملائكة قبل خلق آدم وخلق ذريته كما يدل علىٰ ذلك آيات في القرآن منها قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في سورة البقرة ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، هذا قبل أن يخلق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ آدم وقبل أن يوجده فكانت الملائكة لهم وجود خلقهم الله عَزَّوَجَلَّ وأوجدهم جَلَّ وَعَلَا وألهمهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ العبادة والطاعة، ولهذا لا يُعرف في الملائكة شيء اسمه معصية، المعصية غير موجودة عندهم لأن الله عَزَّوَجَلَّ ألهمهم الطاعة لله عَزَّوَجَلَّ والامتثال لأمره كما قال الله سبحانه: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠] فهم في عبادة دائمة وفي طاعة مستمرة وفي امتثال دؤوب لأمر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وليس فيهم من هو عاص لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وممتنع من طاعته .جَلَّ وَعَلَا

---

(١) رواه البخاري (٣٤٤٣)، ومسلم (٢٣٦٥).

قال الإمام ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ:«والعلات بفتح المهملة الضرائر، وأصله أن من تزوج امرأة ثم تزوج أخرىٰ كأنه عل منها، والعلل الشرب بعد الشرب وأولاد العلات الأخوة من الأب وأمهاتهم شتىٰ»«فتح الباري» (٦/ ٤٨٩).

وهذا الخلق من خلق الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ والجند من جنوده لا يعلم عِظمهم وكِبرهم وضخامة أجسامهم وعددهم إلا الذي خلقهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١]، فلا يعلم هذا الخلق إلا الذي خلقه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لكن جاء في القرآن وفي السنة شيء من التفاصيل المتعلقة بالملائكة؛ كذكر أسماء بعضهم، وذكر أعداد لهم، وذكر أوصاف لهم، وذكر وظائف للملائكة، فالإيمان بكل هذه التفاصيل الواردة في الكتاب والسنة عن الملائكة هو من الإيمان بالملائكة، والإيمان بالملائكة من الإيمان بالله عَزَّ وَجَلَّ كما سبق بيان ذلك.

ولهذا إذا قيل ما حقيقة الإيمان بالملائكة؟ أو بم يتلخص هذا الأمر الذي هو الإيمان بالملائكة؟ والجواب: أن الإيمان بالملائكة هو الإيمان بهذا الخلق وهذا الجند لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ إيمانٌ بأسمائهم، وأعدادهم، وأوصافهم، ووظائفهم؛ إجمالًا فيما أُجمل وتفصيلًا فيما فُصِّل، وهذه الجملة علىٰ اختصارها تجمع ما ينبغي أن يؤمن به فيما يتعلق بالملائكة، وكل ما يتعلق بالإيمان بالملائكة يرجع إلىٰ هذه الأمور الأربعة: الأسماء، والأعداد، والأوصاف، والوظائف؛ فنؤمن بهذه الأمور إجمالًا فيما أجمل وتفصيلًا فيما فصل، لأن التفاصيل المتعلقة بالملائكة لم تذكر لنا بكاملها وبتمامها وإنما ذكُر لنا شيء من هذه التفاصيل، فإيماننا بالملائكة هو إيمان مجمل فيما أجمل من أسمائهم وأعدادهم وأوصافهم ووظائفهم، وإيمان مفصل فيما فصل من أسماء الملائكة وأعداد الملائكة ووظائف الملائكة، فما فُصل في الكتاب والسنة مما يتعلق بالملائكة نؤمن به علىٰ وجه التفصيل كما جاء، وما أجمل من أخبارهم وأوصافهم أو أمورهم نؤمن به مجملًا.

أسماء الملائكة: لم يأت ذكر في القرآن والسنة إلا لعدد قليل من أسمائهم؛ فمن سمي لنا منهم آمنا باسمه كما ورد واعتقدنا وجود ملائكة بهذه الأسماء التي

جاءت في القرآن وجاءت في السنة، وما لم يسمّ من الملائكة نؤمن أيضًا به، وليس كل الملائكة هم من سموا في القرآن الكريم أو ذكُرت أسماءهم في القرآن الكريم، وأيضًا نؤمن بالأسماء التي تعم الملائكة عمومًا، مثل جند الله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١]، والكرام، والسفرة، ونحو ذلك من الأسماء التي تجمع الملائكة عمومًا وتشملهم، وأيضًا نؤمن بالأسماء المفصلة التي جاءت في القرآن أو السنة لأفراد من الملائكة مثل: جبريل وميكائيل وإسرافيل وهؤلاء الثلاثة هم أفضل الملائكة، ولهذا كان النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إذا قام يصلي من الليل توسل إلىٰ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بربوبيته لهؤلاء الثلاثة يخصهم بالذكر لأنهم أشرف الملائكة: «**اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرِيلَ وميكائيل وَإِسْرَافِيلَ؛ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِك فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اُخْتُلِفَ فِيهِ مِنْ الْحَقِّ بِإِذْنِك إنَّك تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيم**»(١)، فذكره عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لهؤلاء الثلاثة من الملائكة علىٰ وجه الخصوص في هذا الوقت الفاضل والحال الفاضلة واستفتاحه لصلاة الليل صلوات الله وسلامه عليه يدل علىٰ شرف هؤلاء الثلاثة من الملائكة جبريل وميكائيل وإسرافيل، وأيضًا جاء في القرآن مالك ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف: ٧٧]،

---

(١) رواه أبو داود (٧٦٧)، والترمذي (٣٤٢٠)، والنسائي (١٦٢٥)، وحسنه الألباني في «صحيح أبي داود» (٧٤٣).

فائدة: قال العلامة ابن أبي العز الحنفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «تَوَسَّلَ ﷺ إِلَىٰ رَبِّهِ بِرُبُوبِيَّةِ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ أَنْ يَهْدِيَهُ لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ، إِذْ حَيَاةُ الْقَلْبِ بِالْهِدَايَةِ . وَقَدْ وَكَّلَ اللهُ سُبْحَانَهُ هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةَ بِالْحَيَاةِ: فَجِبْرِيلُ مُوَكَّلٌ بِالْوَحْيِ الَّذِي هُوَ سَبَبُ حَيَاةِ الْقُلُوبِ ، وَمِيكَائِيلُ بِالْقَطْرِ الَّذِي هُوَ سَبَبُ حَيَاةِ الْأَبْدَانِ وَسَائِرِ الْحَيَوَانِ ، وَإِسْرَافِيلُ بِالنَّفْخِ فِي الصُّورِ الَّذِي هُوَ سَبَبُ حَيَاةِ الْعَالَمِ وَعَوْدِ الْأَرْوَاحِ إِلَىٰ أَجْسَادِهَا . فَالتَّوَسُّلُ إِلَىٰ اللهِ سُبْحَانَهُ بِرُبُوبِيَّةِ هَذِهِ الْأَرْوَاحِ الْعَظِيمَةِ الْمُوَكَّلَةِ بِالْحَيَاةِ ، لَهُ تَأْثِيرٌ عَظِيمٌ فِي حُصُولِ الْمَطْلُوبِ، وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ»«شرح العقيدة الطحاوية» (ص٤٨٨).

ومالك هو المقدّم في خزنة جهنم لأن الذين علىٰ جهنم من رؤساء الملائكة والزعماء فيهم تسعة عشر كما قال الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ [المدثر: ٣٠]؛ أي من الملائكة، وهؤلاء هم الذين لهم التقدم والرئاسة في الملائكة وفي مقدمة هؤلاء مالك خازن جهنم -حمانا الله وحماتكم ووقانا ووقاكم وأجارنا أجمعين من نًر جهنم ومن خزي يوم الدين-، وأعداد الملائكة الذين وكلوا بهذه الوظيفة المتعلقة بأمور النار لا يحصيهم إلا الله، ويكفيك أن تعلم في هذا ما صح في «**صحيح مسلم**» فيمن يجرون النار إلىٰ أرض المحشر يوم القيامة، قال عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ في الحديث الصحيح: «**يؤتىٰ بجهنم يوم القيامة ولها سبعون ألف زمام ومع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها**»[1]، فالملائكة الذين وكل الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ

إليهم جر نار جهنم إلىٰ أرض المحشر يوم القيامة عددهم سبعون ألف في سبعين ألف، وهذا عدد مهيل جدًّا وكلوا بهذه المهمة، والذين أيضًا وكلوا بمهمات أخرىٰ تتعلق بالنار لا يحصيهم إلا الله جاء وصفهم في القرآن، قد قال الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦] فالله جَلَّوَعَلَا وكل بالنار ملائكة هذه صفتهم وهذا نعْتهم كما أخبر رب العالمين ﴿مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ أي أنهم أهل غلظة أهل شدة لا يرحمون أهل النار ولا يعطفون عليهم، بل مهمتهم إيقاع النكال وإيقاع العقوبة بأهل نار جهنم دون أن يكون هناك عطف أو هناك رحمة، بل مهمتهم كما أمرهم الله عَزَّوَجَلَّ يتولون العقوبة، ولو كان الذي وكل إليه هذه المهمة في النار ليس غليظا ولا شديدا قد يعطف لكن الله

---

(١) رواه مسلم (٢٨٤٢).

عَزَّوَجَلَّ جعلهم بهذه الصفة نكالًا لأهل النار، جعل خزنة النار من الملائكة هذه صفتهم ﴿غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾، وأيضًا جعل سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ النار نفسها فيها تغيظ علىٰ هؤلاء ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان: ١٢] فمن شدة الغيظ والحنق الذي في النار نفسها علىٰ أهلها حمانا الله عَزَّوَجَلَّ أجمعين من دخولها وأجارنا من ذلك.

فنؤمن بأسماء الملائكة الذين جاء تفصيل أسمائهم في القرآن أو السنة، ومن ذلكم أيضًا ما جاء في «**سنن الترمذي**» وغيره عن النبي ﷺ أنه قال: «**إذا أدخل الميت في قبره أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما المنكر ويقال للآخر النكير، فيجلسانه ويقولان من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟**»(١)، وهذا أمر يعاينه الإنسان أول ما يدخل في القبر ويدرج فيه؛ يأتيه في القبر ملكان بهذه الصفة يقال لأحدهما: «المنكر»، ويقال للآخر: «النكير» وقد قال أهل العلم سميا بهذين الاسمين لأنهما يأتيان علىٰ هيئة منكرة، علىٰ هيئة غير معهودة للإنسان، ويقعدان الإنسان في قبره ويسألانه من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ إلىٰ آخر ما جاء في الحديث.

أما أعداد الملائكة: فإنَّ أيضًا نؤمن بأعداد الملائكة إجمالًا فيما أجمل وتفصيلًا فيما فُصل؛ إجمالًا نقول فيما يتعلق بعدد الملائكة: إن عددهم لا يحصيهم إلا الذي خلقهم كما في الآية الكريمة ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١] فلا يعلم عددهم إلا الذي خلقهم تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، لكن هناك نصوص كثيرة في السنة تدل علىٰ كثرة الملائكة الكاثرة، بل القرآن أيضًا فيه الدلالة علىٰ هذا المعنىٰ في مواضع؛ كقوله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ في سورة النجم: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ

(١) رواه الترمذي (١٠٧١)، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب» (٣٥٦٠).

أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴾ «كم» هنا التكثيرية إشارة إلىٰ كثرتهم الكاثرة وعددهم الهائل الذي لا يعلمه إلا الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

ومما يدل علىٰ كثرة الملائكة الحديث الذي سيأتي ذكره عند المصنف في قصة المعراج بالنبي ﷺ حيث قال: «**فَرُفِعَ لِيَ الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ، فَسَأَلْتُ جِبْرِيلَ فَقَالَ هَذَا الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ يُصَلِّىٰ فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ، إِذَا خَرَجُوا لَمْ يَعُودُوا إِلَيْهِ آخِرَ مَا عَلَيْهِمْ**»[(١)]، يوميًّا يدخله من الملائكة سبعون ألف ومن دخله منهم لا يعود لدخوله مرة ثانية؛ فهذا يدل علىٰ كثرة الملائكة، وأيضًا يدل علىٰ كثرة الملائكة قول النبي ﷺ: «**أطت السماء وحُق لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضعـًا جبهته ساجداً لله**»[(٢)]، وسيأتي الحديث عند المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ. فإجمالًا نقول عدد الملائكة كثير وهم كثرة كاثرة وعدد كبير جدًّا، ولا يعلم عددهم إلا الذي خلقهم هذا من حيث الإجمال.

ومن حيث التفصيل فيما يتعلق بعدد الملائكة نؤمن بالأعداد التفصيلية التي جاءت في القرآن أو في السنة كقوله تعالىٰ في الآية المتقدمة ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ [المدثر: ٣٠] هذا عدد يتعلق بالملائكة وهم المقدمون فيمن جعلهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ علىٰ نار جهنم فهذا عددهم، فنؤمن بهذا العدد علىٰ هذا الوجه التفصيلي الوارد في القرآن، أيضًا نؤمن بما دل عليه قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ﴿وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ ﴾ [الحاقة: ١٧]؛ فهذا عدد يتعلق بالملائكة وهم حملة عرش الرحمن تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، فنؤمن بهذا العدد التفصيلي كما جاء، وأيضًا العدد التفصيلي الذي مر معنا قريبا فيمن يجرون نار جهنم إلىٰ أرض المحشر، أيضًا العدد الذي يدل عليه ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ

---

(١) رواه البخاري (٣٢٠٧)، ومسلم (١٦٤).

(٢) رواه الترمذي (٢٣١٢)، وابن ماجه (٤١٩٠)، وحسنه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (١٨٨٢).

عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨] ملك عن يمينه وملك عن يساره، العدد التفصيلي الذي يدل عليه قوله: «**أتاه ملكان يقال لأحدهما المنكر والآخر النكير**»، قال ملكان فمثل هذه الأعداد التفصيلية التي جاءت في القرآن أو السنة نؤمن بها مفصلة كما جاءت.

أوصاف الملائكة وهو الأمر الثالث؛ أيضًا نؤمن بأوصاف الملائكة إجمالًا فيما أجمل وتفصيلًا فيما فُصل؛ أما من حيث الإجمال فنحن نؤمن بأن الملائكة من خلق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أوجدهم تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ من العدم، وأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ خلق الملائكة من نور كما في «**صحيح مسلم**» عن النبي ﷺ أنه قال: «**خُلقت الملائكة من نور، وخُلق الجان من مارج من نار، وخُلق ابن آدم مما وصف لكم**»[(١)]؛ أي من الطين، فالملائكة خلقوا من نور فنؤمن بذلك، وأعطاهم تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ من ضخامة الأجسام وكبر الهيئات والقوة والشدة شيئًا عظيمًا يدل علىٰ كمال قدرة الخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ فنؤمن بذلك كذلك.

ونؤمن أيضًا بأنه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ جعلهم أولي أجنحة كما قال عَزَّوَجَلَّ ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَـٰثَ وَرُبَـٰعَ﴾ [فاطر: ١] وأنهم ليسوا في عدد الأجنحة التي جعلها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيهم سواء بل متفاوتون في أعداد الأجنحة، منهم من له جناحان ومنهم من له ثلاث ومنهم من له أربع ومنهم من له أكثر من ذلك، كما قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في الحديث: «**أنه رأىٰ جبريل وله ستمائة جناح**»[(٢)]، فهم من أوصافهم أنهم لهم أجنحة، وأيضًا من أوصافهم أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أعطاهم القدرة علىٰ التشكل؛ فجبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مع ضخامة جسمه قد رآه النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ علىٰ صورته الحقيقية وقد سد الأفق، فكان يأتي في بعض المرات إلىٰ النبي ﷺ علىٰ

---

(١) رواه مسلم (٢٩٩٦).

(٢) رواه البخاري (٣٢٣٢)، ومسلم (١٧٤).

صورة رجل أعرابي، هذا الجسم الضخم الكبير العظيم الذي يسد علىٰ هيئته الحقيقية الأفق يصبح في صورة وجسم رجل، وهذا من قدرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الجسم الضخم الكبير الذي يسد الأفق يصبح في صورة رجل، فكان جبريل في بعض المرات يأتي في صورة أعرابي قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**بينما نحن جلوس عند النبي ﷺ إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يرىٰ عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد حتىٰ إذا جلس إلىٰ النبي ﷺ أسند ركبتيه إلىٰ ركبتيه ووضع كفيه علىٰ فخذيه**»[(١)]، ثم بدأ يسأل في آخر الحديث قال: «**هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم**»، وفي سورة مريم قال تعالىٰ: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ أي علىٰ صورة بشر سوي، في قصة أضياف إبراهيم جاءوا علىٰ صورة أضياف من البشر حسان وملاح فجاءوا علىٰ هذه الصفة، أيضًا مجيء جبريل إلىٰ النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ علىٰ صورة دحية الكلبي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من الصحابة، فأعطاهم الله جَلَّ وَعَلَا هذه القدرة علىٰ التشكل بحيث أن الملك تكون صورته علىٰ صورة بشر؛ فهذا فيما يتعلق بأوصاف الملائكة من حيث الإجمال نؤمن بهذه الأوصاف للملائكة.

وعلىٰ وجه التفصيل ما جاء في القرآن أو السنة من أوصاف للملائكة فنحن أيضًا نؤمن بها علىٰ الوجه التفصيلي الذي جاء في القرآن أو جاء في سنة النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير: ١٩، ٢٠] هذا جبريل، فوصفه الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بأنه ذي قوة فنؤمن بهذه الصفة، وأيضًا قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ﴿ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ﴾ [النجم: ٦]، وهذه صفة لجبريل أي جميل المنظر حسن الهيئة بهي الشكل، فمثل هذه الصفات التفصيلية للملائكة نؤمن بها،

---

(١) رواه مسلم (٨).

وأيضًا ما جاء في الحديث المتقدم الإشارة إليه أن النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ رأىٰ جبريل في صورته الحقيقية وقد سد عظم خلقه الأفق وله ستمائة جناح، فنؤمن بذلك، وهكذا ما جاء من نصوص في ذكر أوصاف الملائكة علىٰ وجه التفصيل كل ذلكم نؤمن به كما ورد، ومن ذلكم ما ورد في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**أُذن لي أن أحدثكم عن أحد الملائكة وهو من حملة العرش ما بين شحمة أذنه إلىٰ عاتقه مسيرة سبعمائة سنة**»[(١)]؛ أي أن المسافة التي بين عاتق الملك وشحمة الأذن سبعمائة سنة، ومع ذلك ترىٰ في بعض الناس بل في كثير منهم وهو بهذا الجسم الضعيف وبهذا الجسم الصغير مقارنة بتلك الأجسام من يمشي مختالًا متكبرًا ومتعاليًا ومترفعًا ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء: ٣٧]، ولو ينظر الإنسان ويتأمل في خلق جسم الملائكة يعطيه من الاستكانة لله والخضوع لله عَزَّوَجَلَّ والبعد عن الكبر والتعاظم والترفع علىٰ عباد الله ويدرك من هو؟ أنه مخلوق لله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، ولله مخلوقات عظيمة جدًّا وكبيرة أوجدها الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وخلقها علىٰ هيئات ضخمة وكبيرة جدًّا علىٰ ما وُصف لنا في كتاب ربنا وسنة نبينا صلوات الله وسلامه عليه، فنؤمن بأوصاف الملائكة إجمالًا فيما أجمل وتفصيلًا فيما فصل.

ثم الأمر الرابع: وظائف الملائكة: ومهامهم التي وكل الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لهم القيام بها؛ فهذا أيضًا نؤمن به إجمالًا فيما أجمل وتفصيلًا فيما فصل، أما من حيث الإجمال: فنحن نعتقد أن الملائكة جند لله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ خلقهم عَزَّوَجَلَّ وأوجدهم سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وأنهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، جند مطيع لله ممتثل لأوامره تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ ولا يعصون الله جَلَّوَعَلَا فيما يأمرهم به، وهم رسل لله كما يفيد هذا

---

(١) رواه أبو داود (٤٧٢٧)، وقال الذهبي في «العلو» (ص٥٨): (إسناده صحيح)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٥١).

اسمهم وهو «الملائكة»؛ لأن الملائكة كما قال العلماء رحمهم الله تعالىٰ مشتقة من الألوكة وهي الرسالة، يقال ألكني فلان؛ أي: أرسلني، فسموا ملائكة لأنهم رسل، قال تعالىٰ: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ [فاطر: ١] فهم رسل لله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ وجند له عَزَّوَجَلَّ لا يعصون الله فيما أمرهم، وأنهم قد وكل الله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ إليهم مهاما متنوعة ووظائف متعددة، فالإيمان بوظائف الملائكة هو من الإيمان بهم.

وأما تفصيلًا فيما يتعلق بوظائف الملائكة فإنا نؤمن بالوظائف التفصيلية التي ذكرت في القرآن أو ذكرت في سنة النبي الكريم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، كقوله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ١١]، وقوله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾ [الرعد: ١٣]، وقوله: تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]، وقوله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة: ١١]، وقوله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، وقوله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف: ٧٧]، وقوله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ [القدر: ٤]، وقوله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٣- ١٩٥]، وغيرها من الآيات في القرآن الكريم وهي كثيرة جدًّا تذكر لنا أعمال ووظائف للملائكة.

وهكذا أيضًا السنة فيها أحاديث كثيرة جدًّا تذكر لنا أعمال ووظائف للملائكة؛ جبريل وكل الله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ إليه النزول بالوحي وقد يشاركه في ذلك بعض الملائكة في بعض المرات، وإسرافيل وكل إليه الله عَزَّوَجَلَّ النفخ في الصور، وميكائيل وكل الله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ إليه ما يتعلق بالأمطار ونزول الأمطار، وهكذا من الملائكة من وكل الله عَزَّوَجَلَّ إليهم قبض الأرواح قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ

﴿٨٤﴾ ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾ أي أقرب إلىٰ الميت منكم وأنتم عنده جلوس ﴿وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٣- ٨٥] أي لا تبصرون ملائكة الله عَزَّوَجَلَّ الذين أرسلهم سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لقبض روحه.

فهذه الوظائف التفصيلية للملائكة نؤمن بها، وأيضًا ما جاء في الحديث الصحيح عن النبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ قال: «**يتعاقبون فيكم (أي: فيكم أيها الناس) ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر**»، يجتمعون أي يكون التقاء هؤلاء الملائكة في صلاة الصبح وصلاة العصر أي في الأرض»، يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر ثم يعرجون أي إلىٰ الله جَلَّوَعَلَا فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم كيف تركتم عبادي؟ قالوا أتيناهم وهم يصلون وتركناهم وهم يصلون[(١)]»؛ وهذا فيه بيان الشرف العظيم والفضل الكبير الذي يفوز به من يحافظ علىٰ الصلوات ولا يضيعها، فيوميًّا ملائكة تتعاقب ويجتمعون في هاتين الصلاتين، وإذا عرجوا إلىٰ رب العالمين سألهم وهو أعلم بهم كيف تركتم عبادي؟ قالوا: أتيناهم وهم يصلون، وتركناهم وهم يصلون، «أتيناهم» أي الملائكة الذين نزلوا الفجر أتوا الناس؛ أي: أهل الإيمان وأهل الصلاة وهم يصلون، وعندما يعرجون العصر تركوهم وهم يصلون، وهكذا من ينزل العصر أتىٰ إليهم وهم يصلون وإذا عرج الفجر تركهم وهم يصلون، ولهذا يقولون: «أتيناهم وهم يصلون وتركناهم وهم يصلون»، ينزل جماعة من الملائكة ويجتمعون في الجماعة الذين نزلوا قبل وتعرج الجماعة التي كانت موجودة أولًا وتبقىٰ الأخرىٰ قال: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل والنهار»، فمثل هذه الأعمال والوظائف التفصيلية

---

(١) رواه البخاري (٥٥٥)، ومسلم (١٤٣٠).

للملائكة التي جاء ذكرها في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ وسنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه نؤمن بها كما جاءت.

إذًا الإيمان بالملائكة هو الإيمان بهذا الخلق العظيم لله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ إيمانًا بأسمائهم وأعدادهم وأوصافهم ووظائفهم إجمالًا فيما أجمل وتفصيلًا فيما فصل، كل ذلكم في ضوء ما جاء في كتاب ربنا وسنة نبينا صلوات الله وسلامه عليه؛ ولهذا لما عقد المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ هذه الترجمة بعنوان: «باب ذكر الملائكة عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ والإيمان بهم» ساق أولا آيات من القرآن تتعلق بالملائكة ثم بعد ذلك أحاديث من السنة؛ وهذا فيه التنبيه إلىٰ أن الإيمان بالملائكة الإيمان بهذا الأصل شأنه كشأن أمور الإيمان يكون علىٰ ضوء كتاب الله عَزَّوَجَلَّ وسنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه.

بدأ أولًا بقول الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وهذه الآية الكريمة كما أسلفت جمعت أصول الإيمان وبيّن الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ فيها أن حقيقة البر هو الإيمان بهذه الأصول العظام؛ قال: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾، وإن كان هذا من البر لكن حقيقة البر هو الإيمان بهذه الأصول العظام وإتْباع هذا الإيمان بالأعمال الصالحات والطاعات الزاكيات كما يبين ذلك تمام الآية ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ إلىٰ آخرها، فهذه حقيقة البر، وأساس ذلك وأصله الإيمان بهذه الأصول؛ وهذا فيه تنبيه إلىٰ أنه لا يحقق البر من لا يؤمن بهذه الأصول أو لا يؤمن ببعضها أو يجحد بعضها، فالذي لا يؤمن بهذه الأصول أو يجحد بعضها لا يوجد فيه حقيقة البر، بل إن وُجد فيه شيء من أعمال البر لا تُقبل منه ولا تعد برًا ما لم تكن قائمة علىٰ هذه الأصول العظام، وهذا واضح في دلالة الآية الكريمة: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ

ﭐلْأَخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ فهذه الأعمال والطاعات لابد أن تكون قائمة علىٰ هذه الأصول، فإن لم تكن قائمة علىٰ هذه الأصول لا تكون برًّا ولا تكون عملًا صالحًا مقبولًا كما قال الله جَلَّوَعَلَا ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [المائدة: ٥]، فالأعمال أيًّا كانت ومهما كانت إذا لم تكن قائمة علىٰ هذه الأصول العظام لا تُقبل من العامل.

وذكر جَلَّوَعَلَا في هذه الأصول العظيمة الإيمان بالملائكة، ولم يُذكر الإيمان بالقدر في هذه الأصول مع أنه أصل من أصول الإيمان كما مر معنا في حديث جبريل لأنه داخل في الإيمان بالله، والقدر كما قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قدرة الله»[(١)]، فلم يُذكر لأنه داخل في الإيمان بالله.

فإذًا هذه الآية الكريمة جمعت أصول الإيمان ومن بين هذه الأصول الإيمان بالملائكة، ولهذا أورد المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ الآية الكريمة في هذا الموضع.

ثم أورد قول الله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٠- ٣٢]، وهنا فيه بيان حال أهل الاستقامة والمحافظة علىٰ طاعة الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ وملازمة عبادته تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ إلىٰ الممات ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩]، وأن من كانوا علىٰ هذه الحال محافظين علىٰ طاعة الله مستقيمين علىٰ عبادة الله عَزَّوَجَلَّ إلىٰ أن يتوفاهم الله فإن هؤلاء شأنهم كما

---

(١) انظر: «منهاج السنة» (٣/ ٢٥٤)، و«شفاء العليل» (ص٥٣).

أخبر الله عَزَّوَجَلَّ في هذه الآية تتنزل عليهم الملائكة أي عند قبض أرواحهم؛ بأي شيء؟ هؤلاء الملائكة لهم مهمة معينة ومحددة وهي حمل البشارة والطمأنينة والتنبيه علىٰ عدم الخوف وعدم الحزن فهذه مهمة هؤلاء ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ﴾ تبشر هذا الذي تقبض روحه بهذه البشارة العظيمة، ولهذا يشاهد ويعاين في بعض المتوفّين من يظهر علىٰ وجهه البشر ويظهر علىٰ وجهه السرور والراحة والسعادة، قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ﴾، أي أن هؤلاء الملائكة يقولون لهذا المتوفىٰ: لا تحزن ولا تخاف؛ والخوف يتعلق بما هو قادم عليه، والحزن يتعلق بما هو تاركه، الحزن يتعلق بالأشياء الماضية، والخوف يتعلق بالأشياء القادمة، فهم يطمئنونه بأن لا يخاف ولا يحزن: لا يحزن علىٰ ما هو تارك، فإن ما يتركه في حفظ الله عَزَّوَجَلَّ، ولا أيضًا يخاف مما هو قادم إليه فهو قادم إلىٰ رحمة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وفضله ومنه فيقولون له: اطمئن لا تخف ولا تحزن، مثلها قول الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في سورة الأحقاف: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ فلا تخاف ولا تحزن ويبشرونه بالجنة ﴿وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾.

وقيل أيضًا إن هذا التنزل يكون في عرصات يوم القيامة إذا قام الناس من قبورهم وبعثوا من قبورهم أصابهم الفزع تأتي الملائكة وتبشر أهل الاستقامة، وقد قال ابن كثير رَحِمَهُٱللَّهُ لا يمنع أن يكون التنزل متكررا عند الموت وعند البعث وفي عرصات يوم القيامة[١]: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟

(١) قال الإمام ابن كثير رَحِمَهُٱللَّهُ: «ولا منافاة بين هذا وبين ما تقدم، فإن الملائكة في هذين اليومين يوم الممات ويوم المعاد تتجلىٰ للمؤمنين وللكافرين، فتبشر المؤمنين بالرحمة والرضوان، وتخبر
=

بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾.

إذًا هذا أيضًا من الإيمان بالملائكة أن نؤمن بأن الله عَزَّوَجَلَّ وكل إلىٰ نفر من الملائكة يقومون بهذا العمل وهو التنزل علىٰ الموتىٰ من أهل الاستقامة بالبشارة وألا يخافوا ولا يحزنوا كما بيّن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ذلك في الآية الكريمة.

أثر الإيمان بالملائكة علىٰ العبد في سلوكه وتعبُّده: إذا قرأ العبد المسلم هذه الآيات وآمن بهذا التنزل من الملائكة في هذه اللحظات امتلأ قلبه شوقًا وطمعًا أن يكون من هؤلاء الذين تتنزل عليهم الملائكة في هذا الوقت العصيب وهذا الوقت الحرج مطمئنة مبشرة قائلة له لا تخاف ولا تحزن؛ فيحرك هذا الإيمان في قلبه حب الاستقامة والمحافظة علىٰ طاعة الله، لأنه يعلم من هذه النصوص أنه إذا استقام علىٰ طاعة الله وحافظ علىٰ عبادة الله ولزم أمر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ كان بإذن الله من هؤلاء الذين تتنزل عليهم الملائكة مبشرة له مطمئنة له، فيكون له أثر علىٰ العبد في عبادته وفي سلوكه.

وحديث آخر[(١)]: «**يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار**»: من أعظم الأحاديث التي تجعل الإنسان تشتد محافظته علىٰ الصلوات، وكيف يليق بإنسان عاقل يعلم أن الملائكة تنزل في هذين الوقتين الفاضلين وأنها في كل يوم تعرج إلىٰ الله ويسألها الله كيف تركتم عبادي فيقولون أتيناهم وهم يصلون وتركناهم وهم يصلون، كيف يرضىٰ إنسان لنفسه أنه في مثل هذا الوقت لا يكون في عداد المصلين وإنما في عداد النائمين والمفرطين والمضيعين؟!

=

الكافرين بالخيبة والخسران، فلا بشرىٰ يومئذ للمجرمين» «تفسير القرآن العظيم» (٦/ ١٠٢).

(١) مر معنا قريبًا.

ومثال آخر: الخوف من النار، قال الله تعالىٰ: ﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ﴾ [التحريم: ٦]، لما يتأمل الإنسان في هذا المعنىٰ يتأمل في الآيات القرآنية التي تذكر أوصاف وأعمال ووظائف للملائكة كل هذه الأمور تجعل الإنسان يكون لها الأثر العظيم في حياة الإنسان وفي عمله فيبادر إلىٰ طاعة الله وينزجر عن معصيته سبحانه.

انظر إلىٰ أثر الإيمان بالملائكة مثلا في قول النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**كيف أنعم وقد التقم صاحب القرن القرن وأصغىٰ بسمعه ينتظر أن يؤمر؟**»[(١)]؛ يعني ينتظر أن يأمره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالنفخ في الصور.

فمثل هذه المعاني والأمور التي تتعلق بالملائكة الإيمان بها استشعارها استحضار الإيمان بها مما يحرك في قلب الإنسان صلاح العمل والاستقامة علىٰ الطاعة والبعد عن المعاصي والآثام، فمن أقدمت نفسه علىٰ معصية وارتكاب ذنب من الذنوب ثم ذكر قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨] أي: كاتب من الملائكة عن يمينه وكاتب من الملائكة عن يساره، إن كان القول سديدًا وصالحًا كتب في حسناته، وإن كان إثمًا وسيئة كتب في سيئاته، فإذا استحضر الإنسان أن عليه رقيب وعتيد يكتبان ما يكون منه وما يقوله وما يفعله؛ فهذا الاستحضار للملائكة والإيمان بالملائكة الذي يكون حاضرا في قلب الإنسان له آثاره العظيمة علىٰ العبد في حياته في سلوكه في عبادته لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

ثم أورد رَحِمَهُ ٱللَّهُ قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: ١٧٢] وهذا فيه بيان حال الملائكة وأنهم أهل خضوع وذل وعبودية لله عَزَّوَجَلَّ وطواعية لأمره وعدم استنكاف أو استكبار أو امتناع أو إباء

---

(١) رواه الترمذي (٣٢٤٣)، وصححه الألباني في «صحيح الترمذي» (٢٥٨٥).

عن طاعة الله جَلَّوَعَلَا، بل هم أهل مداومة وملازمة لعبادة الله ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠] ولا يستنكفون من عبادة الله والاستكبار عن طاعته جَلَّوَعَلَا.

وقد جاءت هذه الآية قبل آية حذر الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ فيها من الغلو ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ [النساء: ١٧١]، فحذر فيها تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ من الغلو في الدين، ومن الغلو في الدين غلو النصارىٰ في عيسىٰ عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ حيث زعموا أنه ابن لله - تعالىٰ الله عن ذلك - وعبدوه مع الله، وأيضًا وجد من عبد الملائكة مع الله، ففي هذا السياق بين الرب تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ بطلان ذلك بقوله: ﴿لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ﴾، وهذا يستفاد منه أن العبد لا يُعبد ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ﴾ [الأعراف: ١٩٤]، العبد لا يُعبد وليس له حظ من العبادة، ولهذا بين الله عَزَّوَجَلَّ بطلان عبادة الملائكة وبطلان عبادة عيسىٰ بقوله: ﴿لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ﴾؛ فمن كان هذا شأنه مع الله عبد لله لا يستنكف عن عبادة الله، يعبد الله ويطيعه، فكيف يُجعل شريكا مع الله في العبادة لو كان عند هؤلاء عقول؟! فالعبادة حق لله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، أما الملائكة والأنبياء والأولياء كل هؤلاء لا يستحقون من العبادة شيئا بل هم عبيد لله، أما العبادة فهي لله وحده.

والملائكة شأنهم مع الله هو الذل والخضوع والانكسار قال الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣]، فمع ضخامة أجسامهم وكبرها وقوتهم علىٰ ما سبق وصف بعضه فيما تقدم في الأدلة إذا تكلم الله عَزَّوَجَلَّ بالوحي خرت صعقة خضعانًا لقوله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، فكيف يُجعل هؤلاء شركاء مع الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ في العبادة؟! فالملائكة عباد لله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ بل قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ إِنِّيٓ إِلَٰهٞ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجۡزِيهِ جَهَنَّمَۚ﴾ [الأنبياء: ٢٩] الذي

يدّعي من الملائكة أنه إله مع الله ـ ولا يدعون ذلك ـ بل هم عبيد لله مطيعون له يعاقبهم الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بإدخالهم النار ويصليهم نَّر جهنم.

وهذا فيه تنبيه إلىٰ أن التوحيد والعبادة والإخلاص حق لله عَزَّوَجَلَّ لا شريك لأحد فيه مهما بلغ جسمه من الكبر، ومهما بلغ من القوة والقدرة، ومهما أيضًا بلغ من الفضل والمكانة والمنزلة؛ العبادة حق لله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ وليس لله شريك فيها، لا يعبد إلا الله ولا يدعىٰ إلا الله ولا يلتجأ إلا إلىٰ الله ولا يستغاث إلا بالله ولا يطلب المدد إلا من الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ وهذا هو معنىٰ قولنا لا إله إلا الله أي: لا معبود بحق إلا الله.

ثم أورد رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ أي له تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ خلقًا وملكًا تصريفًا وتدبيرًا من في السماوات والأرض، ﴿وَمَنۡ عِندَهُۥ﴾ أي من الملائكة ﴿لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ﴾ أي أنهم في عبادة دائمة لله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ دون استكبار ودون استحسار أي: ملل وسآمة من عبادة الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، بل هم في عبادة دائمة وطواعية مستمرة ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ﴾ أي: لا يصيبهم الفتور بل هم في عبادة مستمرة لله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ وتسبيح لله عَزَّوَجَلَّ في الليل والنهار.

ثم أورد قول الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ مَّثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ﴾ [فاطر: ١] وهذا فيه من صفة الملائكة أنهم أولوا أجنحة؛ أي: جعل الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لهم أجنحة، وهم متفاوتون في أعدادها؛ فمنهم من له جناحان ومنهم من له ثلاثة أجنحة ومنهم من له أربعة، ومنهم من له أكثر من ذلك ﴿يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ مَا يَشَآءُۚ﴾ وقد رأىٰ النبي ﷺ جبريل علىٰ صورته الحقيقية وله ستمائة جناح كما تقدم، فهذا فيه من صفة الملائكة أنهم أولوا أجنحة، وأيضًا أنهم رسل لله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ يقومون بتنفيذ أوامره وما يرسله إليه وما يبعثهم للقيام به دون معصية أو امتناع أو إباء.

ثم ختم الآيات بقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ۝٧ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [غافر: ٧، ٨]، فذكر هنا تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ حملة العرش من الملائكة ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ﴾، وأيضًا ذكر تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ من حول العرش من الملائكة فالعرش له حملة، وحول العرش أيضًا ملائكة، وقد جمُعوا في الذكر في هذه الآية الحملة ومن حول عرش الرحمن من الملائكة، وأفرد الحملة بالذكر في قوله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ ﴿وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ﴾ [الحاقة: ١٧]، وأفرد من حول العرش بالذكر في قوله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ ﴿وَتَرَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنۡ حَوۡلِ ٱلۡعَرۡشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡۖ﴾ [الزمر: ٧٥].

وهنا جمع بين الحملة ومن حول العرش قال: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ﴾ العرش: عرش الرحمن ونحن نؤمن به، وهو العظيم المجيد الكريم كما وصفه الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ بذلك، ونؤمن بأن له قوائم كما جاء في الصحيح: «**فإذا أنا بموسىٰ آخذ بقائمة من قوائم العرش**»(١)، فنحن نؤمن بالعرش وأنه أعظم المخلوقات وأكبرها وسقفها وأثقلها قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**سبحان الله وبحمده عدد خلقه وزنة عرشه**»(٢)، ذكر أثقل الأوزان وهو وزن العرش، فالعرش أثقل شيء وأكبر شيء وأعظم شيء وله حملة من الملائكة(٣)، وأيضًا حوله ملائكة حافون من حول العرش نؤمن بذلك، ونؤمن بما أخبر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بقه من حال هؤلاء أنهم

(١) رواه البخاري (٢٤١٢)، ومسلم (٦١٠٣).

(٢) رواه مسلم (٦٨٥١).

(٣) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فهذا يبين أنَّ زنة العرش أثقل الأوزان» «الرسالة العرشية» (ص ٨).

يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أي: أنهم في تسبيح دائم وتحميد مستمر لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لا يفترون من ذلك دائما يسبحونه ويحمدون الله عَزَّوَجَلَّ مداومين علىٰ طاعته جَلَّوَعَلَا ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي هم من أهل الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ.

قال: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وانظر هنا إلىٰ الرابطة العظيمة الوثيقة بين أهل الإيمان والملائكة، وحب الملائكة لأهل الإيمان وأهل الطاعة العبادة لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، قال: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وهذا يبين لك أن رابطة الإيمان هي أقوىٰ الروابط، يدل لذلك أن الملائكة جنس مختلف عن جنس البشر، الملائكة خلقوا من نور والبشر خلقوا من طين فالملائكة جنسهم آخر، لكن رابطة الإيمان لما وجدت ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أصبح عندهم هذا الحب لأهل الإيمان والدعاء الدائم المستمر لهم والاستغفار لهم، اسمع الدعاء الذي يدعو به هؤلاء الملائكة ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝٧ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ يدعون بهذه الدعوات العظيمة المباركة لأهل الإيمان لأن فيه رابطة بينهم وهي رابطة الإيمان التي هي أقوىٰ الروابط، ولهذا الإيمان يجمع بين المختلف في الجنس، ويفرق أيضًا بين المتفق في الجسم والهيئة، تجد الأجسام واحدة والهيئة واحدة وأبناء أب واحد ولكن الإيمان يفرق ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢].

فهذا مما يبين أن رابطة الإيمان ورابطة «لا إله إلا الله» هي أقوىٰ الروابط، وقد قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف:

٦٧]، ومهما كانت الرابطة بين الناس في غير الله فمآلها إلىٰ الانقطاع قال تعالىٰ: ﴿وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦]، كل صداقة ومحبة في غير الله تتحول إلىٰ عداوة، ما كان لله دام واتصل وما كان لغيره انقطع وانفصل، فالذي لله هو الذي يدوم وهو الذي يبقىٰ وهو الذي يتصل، فهؤلاء الملائكة ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من شأنهم أنهم يستغفرون للذين آمنوا ويدعون لأهل الإيمان بهذه الدعوات العظيمة المباركة التي ذكرها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في هذه الآيات.

هذه بعض الآيات التي جاءت في القرآن، والواجب علىٰ المسلم أن يؤمن بكل ما ورد في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ وسنة نبيه ﷺ مما يتعلق بالملائكة الكرام، والسنة مليئة بالأحاديث التي تتعلق بأعمال الملائكة ووظائفهم وأوصافهم، وسيأتي طرف من هذه الأحاديث عند المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ.

❊ ❊ ❊

[خُلقت الملائكة من نور]

٥٢- وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنهَا **قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ** ﷺ: «**خُلِقَتِ المَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ الجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ**». **رَوَاهُ مُسْلِمٌ**[١].

٥٣- وَثَبَتَ فِي بَعْضِ أَحَادِيثِ المِعْرَاجِ: أَنَّهُ ﷺ **رُفِعَ لَهُ البَيْتُ المَعْمُورُ الَّذِي هُوَ فِي السَّمَاءِ السَّابِعَةِ وَقِيلَ فِي السَّادِسَةِ بِمَنْزِلَةِ الكَعْبَةِ فِي الأَرْضِ، وَهُوَ بِحِيَالِ الكَعْبَةِ، حُرْمَتُهُ فِي السَّمَاءِ كَحُرْمَةِ الكَعْبَةِ فِي الأَرْضِ، وَإِذَا هُوَ يَدْخُلُهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ، ثُمَّ لَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ آخِرَ مَا عَلَيْهِمْ.**

حديث عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنهَا، عن النبي ﷺ أنه قال: «**خلقت الملائكة من نور، وخلقت الجن وخلق آدم مما وصف لكم**»، هذا الحديث ساقه وأورده رَحِمَهُٱللَّهُ تعالىٰ في «**باب ذكر الملائكة** عَلَيۡهِمُٱلسَّلَامُ **والإيمان بهم**»؛ لأن فيه شيئًا يتعلق بخلق الملائكة والشيء الذي خُلق منه الملائكة، وأنهم خُلقوا من نور، وعرفنا فيما سبق أن خلق الملائكة كان متقدمًا علىٰ خلق آدم، كما يدل علىٰ ذلك آيات في كتاب الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ سبق الإشارة إلىٰ بعضها، فالملائكة خُلقوا قبل خلق آدم ووجدوا قبله، وكان أصل خلقهم أو الشيء الذي خُلقوا منه هو النور، كما قال عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «**خلقت الملائكة من نور**»، وآدم عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ خُلق من طين، والشياطين خلقوا من النار، ولهذا الأجناس الذي خُلق منها هذه الأصناف الثلاثة مختلفة؛ الملائكة خلقوا من النور، وآدم خلق من الطين، والشياطين خلقوا من النار، وكنا أيضًا رأينا أثر الإيمان في

---

(١) رواه مسلم (٢٩٩٦).

الجمع بين المفترق جنسًا في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا﴾ [غافر: ٧]، وأن الملائكة محبة ومودة لأهل الإيمان، وتدعو لهم، وذلك لجامع الإيمان بين الملائكة والمؤمنين مع اختلاف الجنس، الملائكة خلقوا من النور، وآدم خلق من طين، ولكن رابطة الإيمان تجمع بين المفترق جنسًا.

الشاهد من هذا الحديث، حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا لهذه الترجمة: أن فيه ذكرًا للملائكة، وأنهم خلقوا من نور.

ثم الحديث الذي بعد أورده المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ لأن فيه بيانًا لكثرة الملائكة، وأن عددهم لا يحصيه إلا الذي خلقهم، وذلك أن النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عندما عُرج به إلىٰ السماء، ورُفع إليه البيت المعمور أُخبر عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أن البيت المعمور يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون، فإذا كان من يدخل البيت المعمور من الملائكة يوميًّا سبعون ألف ومن دخل لا يعود؛ أي: أن من يدخلون البيت المعمور هم غير من دخله في المرات السابقة والمرات الماضية، فهذا فيه دلالة واضحة علىٰ كثرة عدد الملائكة، وأن عددهم لا يحصيه إلا الله جَلَّ وَعَلَا، وثمة نصوص عديدة تدل علىٰ كثرة الملائكة سبق الإشارة إلىٰ شيء منها، وسيأتي بعضها عند المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ.

❊ ❊ ❊

٥٤- وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا فِي السَّمَاءِ مَوْضِعُ قَدَمٍ إِلَّا عَلَيْهِ مَلَكٌ سَاجِدٌ، أَوْ مَلَكٌ قَائِمٌ، فَذَلِكَ قَوْلُ المَلَائِكَةِ: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ۝١٦٥ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ۝١٦٦﴾ [الصافات: ١٦٥، ١٦٦]**». رَوَاهُ مُحَمَّدُ بْنُ نَصْرٍ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، وَابْنُ جَرِيرٍ، وَأَبُو الشَّيْخِ**(١).

٥٥- وروَى الطَّبَرَانِيُّ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا فِي السَّمَوَاتِ السَّبْعِ مَوْضِعُ قَدَمٍ، وَلَا شِبْرٍ، وَلَا كَفٍّ إِلَّا وَفِيهِ مَلَكٌ قَائِمٌ، أَوْ مَلَكٌ سَاجِدٌ أَوْ مَلَكٌ رَاكِعٌ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ القِيَامَةِ قَالُوا جَمِيعًا: سُبْحَانَكَ مَا عَبَدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ إِلَّا أَنَّا لَمْ نُشْرِكْ بِكَ شَيْئًا»(٢).

ثم ساق رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ هذين الحديثين: حديث أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وحديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وفيهما أيضًا بيان كثرة الملائكة وكثرة عددهم، وأيضًا فيه ملازمة الملائكة لعبادة الله، وأنهم يعبدون الله عَزَّ وَجَلَّ، ويسبحونه، ويسجدون له، ويخضعون له، ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠]، لا يملون ولا يسأمون من العبادة وهم في عبادة دائمة ومستمرة لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

وفيه كما تقدم الدلالة علىٰ كثرة عدد الملائكة؛ لأن السموات علىٰ اتساعها وتباعد أطرافها ما فيها موضع شبر إلا وفيه ملك ساجد لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، فهذا يدل علىٰ أن عدد الملائكة في السموات عدد كثير لا يحصيه إلا الله، كما يدل علىٰ ذلك أيضًا قوله الله تعالىٰ: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ

---

(١) رَوَاهُ مُحَمَّدُ بْنُ نَصْرٍ في «تعظيم قدر الصلاة» (١/ ٢٦٠)، وابْنُ أَبِي حَاتِمٍ في «تفسيره» (١٠/ ٣٢٣٢)، والطبري في «تفسيره» (٢٣/ ١١١)، وَأَبُو الشَّيْخِ في «العظمة» (٣/ ٩٨٤).

(٢) رواه الطبراني في «معجمه الكبير» (١٧٥١).

لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ ﴾ [النجم: ٢٦]، و«كم» هنا تكثيرية، فيها بيان وإشارة إلىٰ كثرة عدد الملائكة في السموات، وهنا يخبر عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أن ما في السموات موضع شبر إلا وفيه ملك ساجد لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

حديث عائشة قال فيه عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**مَا فِي السَّمَاءِ مَوْضِعُ قَدَمٍ إِلَّا عَلَيْهِ مَلَكٌ سَاجِدٌ، أَوْ مَلَكٌ قَائِمٌ، فَذَلِكَ قَوْلُ المَلَائِكَةِ:** ﴿وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلصَّآفُّونَ ١٦٥ وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡمُسَبِّحُونَ﴾»، (الصافون)؛ أي: القائمون خضوعًا لله وتَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ صفوفًا قائمة متذللة بين يدي الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، ﴿وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡمُسَبِّحُونَ﴾؛ أي: المداومون علىٰ تسبيح الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وحمده وذكره جَلَّ وَعَلَا.

وحديث جابر هو بمعناه، ويشهد لحديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهَا: «**مَا فِي السَّمَوَاتِ السَّبْعِ مَوْضِعُ قَدَمٍ، وَلَا شِبْرٍ، وَلَا كَفٍّ إِلَّا وَفِيهِ مَلَكٌ قَائِمٌ، أَوْ مَلَكٌ سَاجِدٌ أَوْ مَلَكٌ رَاكِعٌ**»، وهذا بمعنىٰ حديث أم المؤمنين عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهَا، ولفظه مقارب للفظ حديثها.

قال: «فإذا كان يوم القيامة قالوا جميعًا: سبحانك، ما عبدناك حق عبادتك، إلا أنا لم نشرك بك شيئًا».

❊ ❊ ❊

[ذِكْر عِظَم خِلْقة الملائكة]

٥٦- وَعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَةِ اللهِ مِنْ حَمَلَةِ العَرْشِ، مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ إِلَىٰ عَاتِقِهِ مَسِيرَةُ سَبْعِمِائَةِ عَامٍ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَالبَيْهَقِيُّ فِي «الأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ»، وَ«الضِّيَاءُ فِي المُخْتَارَةِ»[(١)].

ثم أورد رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ هذا الحديث، حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وفيه عظم أجسام الملائكة وكبر أجسامهم وضخامتها، وأن أجسامهم ضخمة جدًّا وكبيرة، ولا يعلم كبر أجسام الملائكة وضخامتها إلا الذي خلق الملائكة وأوجدها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فيقول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في هذا الحديث، حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن النبي ﷺ قال: «**أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَةِ اللهِ مِنْ حَمَلَةِ العَرْشِ**»، ومر معنا في القرآن الكريم قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ﴾ [غافر: ٧]، وقول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧]؛ أي: ثمانية من ملائكة الله عَزَّوَجَلَّ.

وفي هذا الحديث يخبر عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أن الله عَزَّوَجَلَّ أذن له أن يخبر عن صفة أحد الملائكة الذين يحملون العرش، ولم يذكر لنا شيئًا من تفاصيل صفته عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وإنما أشار إلىٰ أمر واحد؛ وهو المسافة التي بين شحمة الأذن والعاتق فقط، وهذه الإشارة في هذا الحديث إلىٰ المسافة بين شحمة أذن الملك وعاتقه تعطي دلالة واضحة وأمارة بينه إلىٰ كبر جسم هذا الملك وضخامته؛ لأنك إذا

---

(١) رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ (٤٧٢٧)، وَالبَيْهَقِيُّ فِي «الأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ» (٨٤٦)، وانظر «السلسلة الصحيحة» (١٥٠).

عرفت أن المسافة بين شحمة الأذن والعاتق مسيرة سبعمائة سنة، وفي بعض روايات الحديث جاء بلفظ: «**تخفق فيه الطير سبعمائة سنة**»، فإذا كانت المسافة بين شحمة الأذن والعاتق بهذا الطول وبهذا الامتداد، فكيف بالمسافات الأخرىٰ بين بقية أجزاء بدنه؟! فهذا يعطي مؤشرًا واضحًا إلىٰ كبر أجسام الملائكة وضخامتها.

قال: «**أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَةِ اللهِ مِنْ حَمَلَةِ العَرْشِ، مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ إِلَىٰ عَاتِقِهِ مَسِيرَةُ سَبْعِمِائَةِ عَامٍ**»، وفي الحديث إثبات عرش الرحمن، وأن له حملة من الملائكة، وهذا المعنىٰ دل عليه القرآن كما سبق الإشارة إلىٰ الآيات الدالة علىٰ ذلك من كتاب الله عَزَّوَجَلَّ.

❋ ❋ ❋

[ذكر صفة جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ]

فَمِنْ سَادَتِهِمْ جِبْرَائِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَدْ وَصَفَهُ اللهُ تَعَالَىٰ بِالأَمَانَةِ وَحُسْنِ الخُلُقِ وَالقُوَّةِ فَقَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦﴾ [النجم: ٥، ٦].

وَمِنْ شِدَّةِ قُوَّتِهِ: أَنَّهُ رَفَعَ مَدَائِنَ قَوْمِ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَكُنَّ سَبْعًا بِمَنْ فِيهِمْ مِن الأُمَمِ وَكَانُوا قَرِيبًا مِنْ أَرْبَعِمِائَةِ أَلْفٍ وَمَا مَعَهُنَّ مِنَ الدَّوَابِّ وَالحَيَوَانَاتِ، وَمَا لِتِلْكَ المَدَائِنِ مِنَ الأَرَاضِي وَالعِمَارَاتِ عَلَىٰ طَرَفِ جَنَاحِهِ، حَتَّىٰ بَلَغَ بِهِنَّ عَنَانَ السَّمَاءِ، حَتَّىٰ سَمِعَ المَلَائِكَةُ نُبَاحَ كِلَابِهِمْ وَصِيَاحَ دِيَكَتِهِمْ، ثُمَّ قَلَبَهَا فَجَعَلَ عَالِيَهَا سَافِلَهَا، فَهَذَا هُوَ شَدِيدُ القُوَىٰ وَقَوْلُ ذُو مِرَّةٍ أَيْ: ذُو خُلُقٍ حَسَنٍ وَبَهَاءٍ وَسَنَاءٍ وَقُوَّةٍ شَدِيدَةٍ قَالَ مَعْنَاهُ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَقَالَ غَيْرُهُ ذُو مِرَّةٍ أَيْ: ذُو قُوَّةٍ.

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ۝٢١﴾ [التكوير: ١٩ - ٢١] أَيْ: لَهُ قُوَّةٌ وَبَأْسٌ شَدِيدٌ، وَلَهُ مَكَانَةٌ وَمَنْزِلَةٌ عَالِيَةٌ رَفِيعَةٌ عِنْدَ ذِي العَرْشِ ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ﴾ أَيْ: مُطَاعٍ فِي المَلَأِ الأَعْلَىٰ، ﴿أَمِينٍ ۝٢١﴾: ذِي أَمَانَةٍ عَظِيمَةٍ، وَلِهَذَا كَانَ هُوَ السَّفِيرَ بَيْنَ اللهِ وَبَيْنَ رُسُلِهِ.

٥٧- وَقَدْ كَانَ يَأْتِي إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي صِفَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ، وَقَدْ رَآهُ عَلَىٰ صِفَتِهِ الَّتِي خَلَقَهُ اللهُ عَلَيْهَا مَرَّتَيْنِ، وَلَهُ سِتُّمِائَةِ جَنَاحٍ. رَوَىٰ ذَلِكَ البُخَارِيُّ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ(١).

٥٨- وَرَوَىٰ الإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللهِ قَالَ: «رأىٰ رسول الله ﷺ جبريل في صورته وله سِتُّمِائَةِ جَنَاحٍ، كُلُّ جَنَاحٍ مِنْهَا سَدَّ الأُفُقِ، يَسْقُطُ مِنْ جَنَاحِهِ مِنَ التَّهَاوِيلِ

---

(١) رواه البخاري (٣٢٣٢)، ومسلم (١٧٤).

وَالدُّرِّ وَاليَاقُوتِ مَا اللهُ بِهِ عَلِيمٌ». إِسْنَادُهُ قَوِيٌّ[(١)].

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «رَأَى رَسُولُ اللهِ ﷺ جِبْرِيلَ فِي حُلَّةٍ خَضْرَاءَ قَدْ مَلَأَ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ[(٢)].

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «رَأَيْتُ جِبْرِيلَ مُنْهَبِطًا، قَدْ مَلَأَ مَا بَيْنَ الخَافِقَيْنِ، عَلَيْهِ ثِيَابُ سُنْدُسٍ مُعَلَّقٌ بِهَا اللُّؤْلُؤُ وَاليَاقُوتُ». رَوَاهُ أَبُو الشَّيْخِ[(٣)].

وَلِابْنِ جَرِيرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: جِبْرَائِيلُ عَبْدُ اللهِ، وَمِيكَائِيلُ عُبَيْدُ اللهِ، وَكُلُّ اسْمٍ فِيهِ إِيلُ فَهُوَ عَبْدُ اللهِ[(٤)].

٦٢- وَلَهُ عَنْ عَلِيِّ بْنِ الحُسَيْنِ مِثْلُهُ، وَزَادَ: «وَإِسْرَافِيلُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ»[(٥)].

٦٣- وَرَوَى الطَّبَرَانِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلِ المَلَائِكَةِ؟ جِبْرَائِيلُ»[(٦)].

٦٤- وَعَنْ أَبِي عِمْرَانَ الجَوْنِيِّ: أَنَّهُ بَلَغَهُ أَنَّ جِبْرَائِيلَ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ يَبْكِي فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا يُبْكِيكَ؟» قَالَ: «وَمَا لِي لَا أَبْكِي؟! فَوَاللهِ مَا جَفَّتْ لِي عَيْنٌ مُنْذُ خَلَقَ اللهُ النَّارَ مَخَافَةَ أَنْ أَعْصِيَهُ فَيَقْذِفَنِي فِيهَا». رَوَاهُ الإِمَامُ أَحْمَدُ فِي «الزُّهْدِ»[(٧)].

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (٣٧٤٨)، وانظر: «الإسراء والمعراج» (ص١٠٢).

(٢) رواه الترمذي (٣٢٨٣) ولكن بلفظ: «في حلة من رفرف»، وصححه الألباني في «صحيح الترمذي» (٢٦١٧).

(٣) رواه أحمد في «مسنده» (٢٤٨٨٥)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٢/ ٧٦٨).

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١/ ٤٣٧).

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (١/ ٤٣٧).

(٦) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١١٣٦١)، وضعفه الألباني في «السلسلة الضعيفة» (٤٤٦).

(٧) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (١/ ٥٢١)، وأحمد في «الزهد» (ص٢٧)، ولكن بلفظ: قال النبي ﷺ لجبريل عليه السلام: «لم تأتني إلا وأنت صار بين عينيك؟ قال: إني لم أضحك منذ خلقت النار».

٦٥- **وَلِلْبُخَارِيِّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا **قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ** ﷺ **لِجِبْرَائِيلَ: «أَلَا تَزُورُنَا أَكْثَرَ مِمَّا تَزُورُنَا فَنَزَلَتْ:** ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا﴾ [مريم: ٦٤] **الآيَةَ»**(١).

أورد المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هنا جملًا تتعلق بجبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الذي هو أشرف الملائكة وأفضلهم ومقدمهم، وله كما أشار المصنف المكانة العالية والمنزلة الرفيعة عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهو السفير بين الله وبين رسله، فهو الذي ينزل بوحي الله عَزَّ وَجَلَّ على الرسل؛ ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤]، فهو السفير وهو الواسطة في إبلاغ شرع الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ إلى الرسل الكرام، فذكر هنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى جملًا تتعلق بخير الملائكة، وأفضل الملائكة جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

قال: «**فمن سادتهم**»، ومعنى (من ساداتهم)؛ أي: من مقدم الملائكة وخيارهم وأفاضلهم جبريل، والسيد: هو المقدم على غيره، السيادة تعني الأولوية والتقدم والرفعة، وجبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ هو أشرف ملائكة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وأفضلهم.

قال: «**فمن سادتهم جبرائيل** عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ»، يقال: **(جبرائيل)**، ويقال: **(جبريل)**، وكل منهما لفظ صحيح، ومعناه كما سيأتي كلمة تعني: عبد الله، وكل اسم فيه (إيل) فهو عبد أو معبد يقال: إسرافيل، ميكائيل، جبرائيل، فكل ما كان مضافًا إلى (إيل) فهو عبدٌ؛ عبد الله، عبيد الله، عبد الرحمن... وهكذا.

قال: «**فمن سادتهم جبرائيل** عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، **وقد وصفه الله تعالى بالأمانة وحسن**

---

(١) رواه البخاري (٢٣١٨).

الخلْق والقوة»، هذه ثلاث صفات:

«**الأمانة**»؛ أي: أنه أمين، والأمانة ضد الخيانة، فهو أمين؛ أي: يقوم بالمهام التي توكل إليه ويؤمر بها علىٰ أتم ما يكون دون إخلال أو إقلال أو تفريط، بل يقوم بها بوفاء، وقد وصفه الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ بالأمانة في آيات من القرآن الكريم، منها قول الله تعالىٰ: ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير: ٢١]، وستأتي عند المصنف، وقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٣]، فالأمانة من صفاته عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فهو أمين، والأمانة صفته.

ثم ذكر الصفة الأخرىٰ قال: «**وحسن الخلْق**»؛ أي: أن هيئته ومنظره ومرآه وجسمه في جمال وحسن وبهاء عظيم، وهذا يدل عليه قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ [النجم: ٦]؛ أي: ذو جمال وبهاء وحسن، كما يأتي تفسير هذا بذلك عند ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قال: «**ذو خلق حسن وبهاء وسناء وقوة**»، فمن معاني ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ البهاء والجمال والحسن؛ أي: حسن الهيئة وجمال الخلق وحسن المرأىٰ والمنظر، فكانت صفته عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كذلك.

و«**القوة**»؛ أي: أن الله عَزَّوَجَلَّ أعطاه قوة، وسيشير المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ إلىٰ مثال يدل علىٰ قوة هذا الملك العظيمة، وأنه شديد القوىٰ، أعطاه الله عَزَّوَجَلَّ قوة شديدة، وهذا يدل عليه قول الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ [النجم: ٥]؛ أي: جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فجبريل أعطاه الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ قوة عظيمة.

إذًا؛ هذه ثلاث صفات لهذا الملك، وهي الأمانة وحسن الخَلْق والقوة.

قال: «**فقال تعالىٰ**»؛ أي: في وصفه بذلك: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۞ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۞ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النجم: ٥- ٧]، ﴿عَلَّمَهُۥ﴾؛ أي: علم النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾؛ أي: جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وهذه صفته، ذكره الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ بصفته، وأنه شديد القوىٰ؛ أي: أعطاه الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ قوة وشدة عظيمة خصه تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ بها. قال:

﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ قيل في معناها: أي: ذو جمال وحسن وبهاء، وهو الأقرب، وقيل في معناها: أي ذو قوة وشدة، لكن الأقرب أن المعنىٰ في قوله: ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾؛ أي: ذو جمال وبهاء وحُسن.

قال: «**ومن شدة قوته**»؛ أي: جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، «**أنه رفع مدائن قوم لوط** عَلَيْهِ السَّلَامُ **وكن سبعًا**»؛ أي: سبع مدن كبيرة فيها السكان، وفيها المباني، وفيها الماشية، وفيها الزروع، جميع هذه المباني السبع الكبيرة، «**رفعها** عَلَيْهِ السَّلَامُ **بطرف جناحه**»؛ أي: أقلها من الأرض ونهضها إلىٰ السماء رفعها عاليًا بطرف جناحه، وهذا من الدلائل علىٰ عظم قوة هذا الملك عَلَيْهِ السَّلَامُ.

قال: «**رفع مدائن قوم لوط** عَلَيْهِ السَّلَامُ **وكن سبعًا بمن فيهن من الأمم، وكانوا قريبًا من أربعمائة ألف وما معهم من الدواب والحيوانات، وما لتلك المدائن من الأراضي والعمارات علىٰ طرف جناحه**»؛ أي: رفع هذه المدائن بمن فيها علىٰ طرف جناحه، هذا شاهد، ومثال لقوة هذا الملك عَلَيْهِ السَّلَامُ.

قال: «**حتىٰ بلغ بهن عنان السماء**»؛ أي: وصل بهن إلىٰ عنان السماء؛ أي: المكان العالي الرفيع، و(**عنان السماء**): هو ما يقارب السحاب أو يعلوا علىٰ السحاب، وهذا اللفظ جاء في حديث النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في الحديث القدسي: «**يقول الله تعالىٰ: يا ابن آدم، لو بلغت ذنوب عنان السماء**»[1]، قيل في المعنىٰ: أي العالي الرفيع من السماء، والسماء هو العلو؛ أي: رفعها عاليًا إلىٰ عنان السماء؛ أي: إلىٰ العالي الرفيع، أو إلىٰ ما يقارب السماء المبنية التي هي السماء الدنيا.

قال: «**حتىٰ بلغ بهن عنان السماء حتىٰ سمعت الملائكة نباح كلابهم**»، وهذا

---

(١) رواه الترمذي (٣٥٤٠)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٤٣٣٨).

فيه إشارة إلىٰ أنه رفعهم رفعًا إلىٰ مسافة قريبة من السماء حتىٰ سمعت الملائكة نباح كلابهم وصياح ديكتهم.

«**ثم قلبها**»؛ أي: كفأ هذه الأراضي بمن فيها، «**فجعل عاليها سافلها**»، وهكذا كانت نهاية قوم لوط الذين كذبوه وعصوه، وأتوا الفواحش والخسائس ونصحهم ونهاهم وأنذرهم وحذرهم.

قال: «**فجعل عاليها سافلها، فهذا هو ﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾**»؛ يعني: هذا مثال علىٰ شدة قوة جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، قال: «**وقوله: ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ معناه: أي ذو خلْق حسن**»؛ أي: بهاء في وجمال في الخلق، وحسن في المرأىٰ والمنظر.

قال: «**وقوله: ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾، أي: ذو خلقٍ حسنٍ وبهاءٍ وسناءٍ وقوة شديدة**»، فهذه المعاني يدل عليها قوله: ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾؛ أي: ذو جمال وحسن وبهاء، وأيضًا من المعنىٰ وقوة وشدة. «**قال معناه ابن عباس**»؛ أي: جاء هذا المعنىٰ عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

«**وقال غيره: ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾؛ أي: ذو قوة**»، معنىٰ (**ذو مرة**)؛ أي: ذو قوة، والأقرب أن معنىٰ (**ذو مرة**)؛ أي: ذو جمال وذو بهاء وذو حسن، وأما الشدة والقوة فقد دل عليها قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في السياق نفسه: ﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾، فهذا يعطي معنىٰ القوة، وقوله تعالىٰ: ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ يعطي معنىٰ الحسن والجمال والبهاء والسناء، كما جاء هذا المعنىٰ عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

«**وقال تعالىٰ في صفته**»؛ أي: في صفة جبريل، ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [التكوير: ١٩]، وإضافة القول الذي هو القرآن إلىٰ جبريل إضافة إبلاغ وأداء، وإلا القول هو كلام الله عَزَّ وَجَلَّ سمعه جبريل من الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، كما قال جَلَّ وَعَلَا في آية أخرىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٢- ١٩٥]، فالإضافة هنا إضافة إبلاغ وأداء، نظيرها إضافته؛ أي: القول إلىٰ

نبينا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ۝٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ﴾ [الحاقة: ٤٠، ٤١]، فهنا أضيف القول إلىٰ رسولنا ﷺ إضافة إبلاغ وأداء.

قال: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ۝١٩ ذِي قُوَّةٍ﴾ هذه صفة لجبريل وصفه الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بالقوة، قال: ﴿ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ﴾، وصفه بالقوة، ووصفه بأنه مكين عند ذي العرش؛ أي: له مكانة عالية ومنزلة رفيعة ورتبة سنية، هذا معنىٰ قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ﴾.

إذًا؛ وُصف هنا بالقوة، قال: ﴿ذِي قُوَّةٍ﴾، ووصف أيضًا بأنه ﴿عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ﴾؛ أي: له المكانة العالية والمنزلة الرفيعة، ﴿عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ﴾؛ أي: عند الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

﴿مُّطَاعٖ ثَمَّ﴾؛ أي: في الملأ الأعلىٰ، ما قاله لهم وما أمرهم به أطاعوه، فهو مطاع يُمتثل أمره ولا يتردد أحد في الاستجابة لما يأمر به، ﴿مُّطَاعٖ ثَمَّ﴾؛ أي: مطاع في الملأ الأعلىٰ، ﴿أَمِينٖ﴾؛ أي: ومن صفاته الأمانة.

فهذه عدة صفات اجتمعت لجبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ في هذه الآية:

الصفة الأولىٰ: أنه رسول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، يقوم بإبلاغ أوامره للملائكة، وأيضًا للرسل من البشر، فهو واسطة بين الله عَزَّ وَجَلَّ وبين خلقه في إبلاغ أمره.

قال: ﴿كَرِيمٖ﴾، أيضًا من صفاته عَلَيْهِ السَّلَامُ: الكرم، والكرم هذه الكلمة معناها واسع، وهي من الكلمات التي تدل علىٰ المعاني الواسعة، فالكرم يدل علىٰ حُسن الخلق وطيب المعاملة والبذل والسخاء والإنفاق والجود، وغير ذلك من المعاني التي يتناولها الكرم، وأيضًا من معاني الكرم الحسن، فالكرم له معاني كثيرة جدًّا، والله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وصف جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ بأنه كريم؛ إذًا الصفة الثانية الكرم.

الصفة الثالثة: القوة في قوله تعالىٰ: ﴿ذِي قُوَّةٍ﴾؛ أي: صاحب جسم قوي

وشديد، ﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾، كما في الآية المتقدمة.

والصفة الرابعة لجبريل في هذه الآية الكريمة في قوله: ﴿عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾؛ أي: أن له مكانة علية، ورتبة سنية، ومنزلة رفيعة عند ذي العرش؛ أي: عند الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ هذه الصفة الرابعة.

الخامسة: في قوله تعالىٰ: ﴿مُطَاعٍ ثَمَّ﴾، وأن جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مطاع في الملأ الأعلىٰ، ويجيبون ما يأمرهم ويمتثلون ما يأمرهم به عليه وعليهم السلام.

والصفة السادسة: الأمانة؛ قال: ﴿أَمِينٍ﴾.

فهذه صفات ست، جمعها الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لجبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في هذه الآية الكريمة.

يقول المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ في تفسير هذه الآية وبيان معناها: «أي: له قوة وبأس شديد»، هذا معنىٰ قوله: ﴿ذِى قُوَّةٍ﴾، معنىٰ قوله: ﴿ذِى قُوَّةٍ﴾؛ أي: له قوة وبأس شديد.

«**وله مكانة ومنزلة عالية ورفيعة عند ذي العرش**»، وهذا معنىٰ قوله: ﴿عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾؛ أي: له مكانة ومنزلة عالية ورفيعة عند ذي العرش؛ أي: عند الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

وما يضاف إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ بـ«ذو» يقال: ذو العرش، أو نحوها من الإضافات، إما أن تكون إضافة خلْق أو إضافة وصف، فإذا أضيف المخلوق إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ مثل العرش هنا قال: ﴿ذِى ٱلْعَرْشِ﴾، فهذه إضافة خلق.

أما في مثل قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ﴾ [الذاريات: ٥٨] إضافة القوة إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ إضافة وصفٍ، وكذلك قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧]، إضافة الجلال وإكرام الله عَزَّوَجَلَّ إضافة وصف.

والضابط في هذا الباب: إذا أضيفت الأعيان القائمة بنفسها إلىٰ الله، فإضافتها إليه إضافة خلق، وإذا أضيف إليه المعاني والصفات التي لا تقوم إلا بموصوف فإضافتها إليه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ إضافة صفة.

وقوله هنا: ﴿ذِى ٱلْعَرْشِ﴾ إضافة العرش إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ إضافة خلْق، وهي إضافة تقتضي التشريف والتكريم.

قال: ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ﴾ معنىٰ هذه الكلمة «**أي: مطاع في الملأ الأعلىٰ**»؛ أي: في الملائكة الكرام، ومن أسماء الملائكة الملأ الأعلىٰ، ونحن عرفنا فيما سبق أن هناك أسماءً تجمع الملائكة، وتشملهم، مثل: الملائكة، وجند الله، والملأ الأعلىٰ، والسفرة، والكرام البررة، ونحو ذلك من الأسماء والأوصاف التي تجمع الملائكة وتشملهم.

قال: ﴿أَمِينٍ﴾، وهذه الصفة السادسة في الآية المتقدمة لجبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، قال: ﴿أَمِينٍ﴾؛ أي: ذي أمانة عظيمة؛ أي: صاحب أمانة عظيمة. قال: «**ولهذا كان هو السفير بين الله وبين رسله** عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ»؛ أي: في إبلاغ شرعه ووحيه وكلامه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ إلىٰ الرسل الكرام.

قال: «**وقد كان يأتي – أي: الوحي – إلىٰ رسول الله** ﷺ **في صفات متعددة**»، وكنا أيضًا عرفنا فيما يتعلق بصفة الملائكة أن الله أعطاهم قدرة علىٰ التشكل، فكان يأتي إلىٰ رسول الله ﷺ في صفات متعددة، جاء إلىٰ النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ علىٰ صورة أعرابي شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يُرىٰ عليه أثر السفر، ولا يعرفه من الصحابة أحد، فجاء علىٰ هذه الصورة، وجاء علىٰ صورة دحية الكلبي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وكان من الصحابة الذين أوتوا جمالًا وحُسنًا في الهيئة والخلق، فجاء علىٰ صورته، فكان يأتي إلىٰ النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ علىٰ صفات متعددة.

«**وقد رآه علىٰ صفته التي خلقه الله عليها مرتين، وله ستمائة جناح، وقد سد عظم خلْقه الأفق**» من كبر جسمه، قال: «**وله ستمائة جناح. روىٰ ذلك البخاري عن ابن مسعود** رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ».

قال: «**وروىٰ الإمام أحمد عن عبد الله؛ أي: ابن مسعود** رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ **قال: رأىٰ رسول الله** ﷺ **جبريل في صورته**»؛ أي: التي خلقه الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ عليها، «**وله ستمائة جناح كل جناح منها سد الأفق**»، وهذا أيضًا يدل علىٰ عظم خلق هذا الملَك.

قال: «**ويسقط من جناحه من التهاويل والدر والياقوت ما الله به عليم**»، «**يسقط من جناحه**»؛ أي: من جناح جبريل، «**من التهاويل**»؛ أي: الأمور العجيبة، «**والدر والياقوت ما الله بن عليم**»؛ فهذه صفة لجبريل أو بيان لعدد أجنحته وصفة لأجنحة جبريل عَلَيْهِٱلسَّلَامُ، وأن كل جناح منها سد الأفق، وأنه يسقط من جناحه من التهاويل والدر والياقوت ما الله به عليم.

قال: «**وعن عبد الله بن مسعود** رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ **قال: رأىٰ رسول الله** ﷺ **جبريل في حلة خضراء، قد ملأ ما بين السماء والأرض**»، وهذا فيه أيضًا رؤية النبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ عندما رأىٰ جبريل أنه رآه علىٰ هذه الهيئة وعليه حلة خضراء، والحلة: هو ما يُلبس؛ فعليه حلة لونها أخضر، وقد ملأ ما بين السماء والأرض؛ أي: سد الأفق وغطىٰ ما بين السماء والأرض، رآه النبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ، ومن كانوا أحياءً من الناس في ذلك الوقت لم يروا شيئًا، وهذا من دلائل قدرة الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، وأنه عَزَّوَجَلَّ علىٰ كل شيء قدير.

قال: «**وعن عائشة** رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا، **أن رسول الله** ﷺ **قال: رأيت جبريل منهبطًا- أي: نازلًا- قد ملأ ما بين الخافقين، عليه ثياب سندس معلق بها اللؤلؤ والياقوت**»، وهذا بمعنىٰ حديث عبد الله بن مسعود المتقدم، قد ملأ ما بين الخافقين؛ أي: سد الأفق

كما في الرواية الأخرىٰ، عليه ثياب سندس، وفي الحديث الذي قبله أنه رآه عليه حلة خضراء، معلق بها اللؤلؤ والياقوت.

قال: «**ولابن جرير عن ابن عباس** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا **قال: جبرائيل عبد الله**»؛ أي: معنىٰ هذا الاسم، وهي كلمة عبرانية معناها: عبد الله. قال: «**جبرائيل عبد الله، وميكائيل عبيد الله، وكل اسم فيه (إيل) فهو عبدٌ لله**»؛ أي: معبَّد لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

قال: «**وله- أي: ابن جرير- عن العلي بن الحسين مثله. وزاد: وإسرافيل: عبد الرحمن**»؛ أي: معنىٰ (**إسرافيل**): عبد الرحمن.

قال: «**وروىٰ الطبراني عن ابن عباس** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا **قال: قال رسول الله** ﷺ: **ألا أخبركم بأفضل الملائكة؟ جبريل**»، وهذا فيه فضل هذا الملك، وأنه مقدم الملائكة وسيدهم، وهذا المعنىٰ يدل عليه شواهد كثيرة ودلائل عديدة في القرآن وفي سنة النبي الكريم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ومن الشواهد عليه في القرآن: الآية المتقدمة قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾؛ أي: له مكانة ومنزلة، ولهذا قال المصنف: «**ولهذا كان السفير بين الله** تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ **وبين رسله**»؛ أي: في إبلاغ شرعه ووحيه.

قال: «**وعن أبي عمران الجوني أنه بلغه**» وعمران تابعي، وبلاغات التابعين مرسلة، «**أن جبرائيل أتىٰ النبي** ﷺ **وهو يبكي**»؛ أي: جبريل كان يبكي، جاء باكيًا إلىٰ النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، «**فقال له رسول الله** ﷺ: **ما يبكيك؟**»؛ أي: ما الشيء الذي يبكيك؟ «**قال: وما لي لا أبكي؟ فوالله، ما جفت لي عين منذ أن خلق الله النار؛ مخافة أن أعصيه فيقذفني فيها**»؛ أي: في النار.

قال: «وللبخاري **عن ابن عباس رضي الله تعالىٰ عنهما قال: قال رسول الله** ﷺ **لجبرائيل: ألا تزورنا أكثر ما تزورنا؟**»؛ أي: ألا تكثر من زيارتنا أكثر من الزيارة التي تأتينا؟ «**فنزلت**: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ [مريم: ٦٤]»، وفي قول النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ

لجبريل: «**ألا تزورنا؟**»، فيه دلالة على حبه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لجبريل وحبه لزياراته ومجيئه إليه وفرحه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بذلك، ولهذا طلب من جبريل أن يُكرر من الزيارة؛ «**ألا تزورنا أكثر مما تزورنا؟**»، يطلب منه أن يكثر من الزيارة، فنزل قول الله تعالىٰ: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾، وهذا فيه أن جبريل وغيره من الملائكة لا يقومون بشيء إلا عن أمر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، فنزل قوله: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ الآية.

❊ ❊ ❊

[مِيكَائِيلُ ملك الْقَطْرِ وَالنَّبَاتِ]

وَمِنْ سَادَتِهِمْ مِيكَائِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، **وَهُوَ مُوَكَّلٌ بِالْقَطْرِ وَالنَّبَاتِ.**

٦٦- وَرَوَىٰ الإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **أَنَّ رَسُولَ اللهِ** ﷺ **قَالَ لِجِبْرَائِيلَ: «مَا لِي لَمْ أَرَ مِيكَائِيلَ ضَاحِكًا قَطُّ؟ قَالَ: مَا ضَحِكَ مِيكَائِيلُ مُنْذُ خُلِقَتِ النَّارُ»**[(١)].

ثم قال رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ: «**ومن ساداتهم**»؛ أي: من سادات الملائكة: ميكائيل عَلَيْهِ السَّلَامُ، قال: «**وهو موكل بالقطر والنبات**»؛ أي: وكل الله عَزَّ وَجَلَّ إليه أمر القطر والنبات ونزول الأمطار وأمر السحاب، وكل الله عَزَّ وَجَلَّ ذلك إلىٰ ميكائيل.

وأورد فيما يتعلق بميكائيل هذا الحديث الذي رواه أحمد: أن رسول الله ﷺ قال لجبرائيل: «**«مَا لِي لَمْ أَرَ مِيكَائِيلَ ضَاحِكًا قَطُّ؟ قَالَ: مَا ضَحِكَ مِيكَائِيلُ مُنْذُ خُلِقَتِ النَّارُ**»؛ يعني: منذر خلقت النار ورآها قال: ما ضحك قط؛ أي: منذ ذلك الوقت، وهذا بمعنىٰ ما جاء في بلاغ أبي عمران الجوني فيما يتعلق بجبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ.

* * *

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (١٣٣٤٣)، وحسنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٥١١).

[إسرافيل ملك النَّفخ في الصُّور]

وَمِنْ سَادَاتِهِمْ إِسْرَافِيلُ.

وَهُوَ أَحَدُ حَمَلَةِ العَرْشِ، وَهُوَ الَّذِي يَنْفُخُ فِي الصُّورِ.

٦٧- رَوَىٰ التِّرْمِذِيُّ وَحَسَّنَهُ، والحَاكِمُ عَنْ أَبِي سَعِيدِ الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «كَيْفَ أَنْعَمُ وَصِاحِبُ القَرْنِ قَدِ الْتَقَمَ القَرْنَ وَحَنَىٰ جَبْهَتَهُ، وَأَصْغَىٰ سَمْعَهُ يَنْتَظِرُ مَتَىٰ يُؤْمَرُ فَيَنْفُخُ» قَالُوا: فَمَا نَقُولُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «قُولُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ عَلَىٰ اللهِ تَوَكَّلْنَا»[(١)].

٦٨- وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ مَلَكًا مِنْ حَمَلَةِ العَرْشِ يُقَالُ لَهُ إِسْرَافِيلُ، زَاوِيَةٌ مِنْ زَوَايَا العَرْشِ عَلَىٰ كَاهِلِهِ، قَدْ مَرَقَتْ قَدَمَاهُ فِي الأَرْضِ السَّابِعَةِ السُّفْلَىٰ، وَمَرَقَ رَأْسُهُ مِنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ العُلْيَا». رَوَاهُ أَبُو الشَّيْخِ وَأَبُو نُعَيْمٍ فِي الحِلْيَةِ[(٢)].

٦٩- وَرَوَىٰ أَبُو الشَّيْخِ عَنِ الأَوْزَاعِيِّ قَالَ: «لَيْسَ أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللهِ أَحْسَنَ صَوْتًا مِنْ إِسْرَافِيلَ، فَإِذَا أَخَذَ فِي التَّسْبِيحِ قَطَعَ عَلَىٰ أَهْلِ سَبْعِ سَمَوَاتٍ صَلَاتَهُمْ وَتَسْبِيحَهُمْ»[(٣)].

ثم ذكر ما يتعلق بإسرافيل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو من سادات الملائكة، وهؤلاء

---

(١) رواه الترمذي (٢٤٣١)، والحاكم في «مستدركه» (٤/ ٦٠٣)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٠٧٩).

(٢) رواه أبو الشيخ في «العظمة» (٢/ ٦٩٧)، وأبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٦٥)،

(٣) رواه الشيخ في «العظمة» (٣/ ٨٥٦).

الملائكة: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، هم سادات الملائكة ومقدموهم، ولهذا كان نبينا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إذا قام يصلي من الليل توسل إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ بربوبيته لهؤلاء الملائكة، يخصهم بالذكر لشرفهم، ولأنهم سادات الملائكة ومقدموهم، كان يقول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلىٰ صراط مستقيم**»[(١)].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**ومن ساداتهم: إسرافيل** عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ**، وهو أحد حملة العرش**»، وهذا بناه علىٰ حديث ابن عباس الآتي ذكره عند المصنف.

قال: «**وهو الذي ينفخ في الصور**»، وهذا قول جماهير أهل العلم أن الذي ينفخ في الصور من الملائكة هو إسرافيل، قد جاء في كثير من الأحاديث ذكر النافخ في الصور دون أن يُذكر اسمه، كما سيأتي في الحديث: «**كيف أنعم، وقد التقم ملك الصورِ الصورَ وأصغىٰ بسمعه؟**»، قال: «**ملك الصور**»، وفي بعض الروايات: «**صاحب الصور**»، وجماهير أهل العلم علىٰ أن الموكول إليه النفخ في الصور هو إسرافيل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ولهذا ذكر ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بعض كتبه من سر توسل النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لله عَزَّوَجَلَّ بربوبيته لهؤلاء الملائكة الثلاثة: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل؛ لأن هؤلاء الثلاثة موكول إليهم ما يتعلق بالحياة، «جبريل» موكول إليه الوحي الذي به تحيا القلوب، و«ميكائيل» موكول إليه القطر الذي به يحيا الناس والنبات والدواب، «وإسرافيل» موكول إليه النفخ في الصور الذي فيه حياة الأبدان. فهؤلاء الثلاثة موكول إليهم ما يتعلق بالحياة[(٢)].

---

(١) رواه مسلم (٧٧٠).

(٢) انظر: «إغاثة اللهفان» (٢/ ١٧٢).

قال: «رَوَىٰ التِّرْمِذِيُّ وَحَسَّنَهُ، والحَاكِمُ عَنْ أَبِي سَعِيدِ الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ القَرْنِ قَدِ الْتَقَمَ القَرْنَ**»، والقرن هو الصور الذي ينفخ فيه، قال الله تعالىٰ: ﴿ **فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ** ﴾ [المؤمنون: ١٠١]، فالصور فسره النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في بعض الأحاديث عندما سئل عنه، قال: «**قرن يُنفخ فيه**»[1]، وهنا قال: «**صاحب القرن**»؛ أي: الذي وكل إليه النفخ في القرن، والصور هو قرن ينفخ فيه.

قال: «**وصاحب القرن قد التقم القرن، وحنىٰ جبهته، وأصغىٰ بسمعه**»، وهذه الصفة حني الجبهة والإصغاء بالسمع إشارة إلىٰ شدة التركيز والانتباه والانتظار للإذن، أو للأمر بالنفخ في الصور، وفيه أن الملائكة سواء إسرافيل أو غيره لا يقومون بشيء من الأعمال إلا عن أمر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وإذنه، ولهذا قال: «**ينتظر متىٰ يؤمر فينفخ**»؛ أي: ينفخ في الصور.

«**قالوا: فما نقول يا رسول الله؟**» لأن هذا الأمر يخيف الإنسان ويُدخل في قلبه خوفًا.

«**قال: قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، علىٰ الله توكلنا**»، وهذه الكلمة دلت النصوص في القرآن وفي السنة أن المسلم يقولها عندما يخاف من شيء أو عندما يتسلط عليه عدو أو نحو ذلك، قالها إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حين ألقي في النار، وقالها النبي ﷺ والصحابة الكرام، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ **ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ** ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

قال: «**وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ مَلَكًا**

---

(١) رواه أبو داود (٤٧٤٢)، والترمذي (٢٤٣٠)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٨٦٣).

مِنْ حَمَلَةِ العَرْشِ يُقَالُ لَهُ إِسْرَافِيلُ، زَاوِيَةٌ مِنْ زَوَايَا العَرْشِ عَلَىٰ كَاهِلِهِ، قَدْ مَرَقَتْ- أي: دخلت وساخت- **قَدَمَاهُ فِي الأَرْضِ السَّابِعَةِ السُّفْلَىٰ، وَمَرَقَ رَأْسُهُ مِنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ العُلْيَا**». قال: «**رَوَاهُ أَبُو الشَّيْخِ وَأَبُو نُعَيْمٍ فِي الحِلْيَةِ**»؛ أي: في «**حلية الأولياء**»، والحديث في سنده كلام.

قال: «وروىٰ أبو الشيخ»؛ أي: في كتابه «**العظمة**»، وهو مطبوع.

«**عَنِ الأَوْزَاعِيِّ قَالَ**: «**لَيْسَ أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللهِ أَحْسَنَ صَوْتًا مِنْ إِسْرَافِيلَ، فَإِذَا أَخَذَ فِي التَّسْبِيحِ قَطَعَ عَلَىٰ أَهْلِ سَبْعِ سَمَوَاتٍ صَلَاتَهُمْ وَتَسْبِيحَهُمْ**»»، وهذا من قول الأوزاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ، ومثل هذا يحتاج إلىٰ الوقوف علىٰ دليل وشاهد عليه من سنة النبي ﷺ، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كل قائل إنما يحتج لقوله لا به إلا الله ورسوله»[1].

❊ ❊ ❊

(١) «الأعلام العلية» (ص٢٨).

[ملك الموت]

وَمِنْ سَادَاتِهِمْ مَلَكُ المَوْتِ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَلْم يَجِئْ مُصَرَّحًا بِاسمِهِ فِي القُرْآنِ وَلَا فِي الأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ، وَقَدْ جَاءَ فِي بَعْضِ الآثَارِ تَسْمِيَتُهُ بِعِزْرَائِيلَ، فَاللهُ أَعْلَمُ. قَالَهُ الحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ(١).

قال: «**ومن ساداتهم**»؛ أي: الملائكة، «**ملك الموت**»، وجاء ذكر هذا الملك بصفته لم يذكر اسمه لا في القرآن ولا في السنة، وإنما ذُكرت صفته؛ قال الله تعالىٰ: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ﴾ [السجدة: ١١]، فهذا ملك من سادات الملائكة، وكل الله عَزَّوَجَلَّ إليه قبض الأرواح وتوفي الناس.

قال: «**ومن ساداتهم ملك الموت** عَلَيْهِ السَّلَامُ، **ولم يجئ مصرحًا باسمه لا في القرآن ولا في الأحاديث الصحيحة**»؛ أي: ليس هناك دليل لا في القرآن ولا في الأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ في ذكر اسم هذا الملك، وأما تسميته عزرائيل، وهو مشهور علىٰ ألسنة كثير من الناس، فهذا الاسم لم يأت لا في القرآن ولا في السنة الصحيحة عن النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وإنما جاء في بعض تسميته بعزرائيل، ولهذا قال: «**فالله أعلم**»، لا يسمىٰ بهذا الاسم، ولا يجزم أن اسمه عزرائيل، ما دام أنه لم يثبت علىٰ ذلك دليل.

❊ ❊ ❊

---

(١) انظر: «تفسير القرآن العظيم» (٦/ ٣٦١٤)، و«البداية والنهاية» (١/ ٤٩).



[حَمَلَةُ العَرْشِ والكروبيون]

وَقَالَ: إِنَّهُمْ بِالنِّسْبَةِ لِمَا هَيَّأَهُمْ لَهُ أَقْسَامٌ:

فَمِنْهُمْ: حَمَلَةُ العَرْشِ. وَمِنْهُمْ: الكُرُوبِيُّونَ الَّذِينَ هُمْ حَوْلَ العَرْشِ، وَهُمْ مَعَ حَمَلَةِ العَرْشِ أَشْرَفُ المَلَائِكَةِ، وَهُمُ المَلَائِكَةُ المُقَرَّبُونَ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: ١٧٢].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: «**إنهم- أي: الملائكة عمومًا- بالنسبة إلىٰ ما هيأهم له أقسام**»، وهنا شرع رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ في ذكر وظائف الملائكة وأعمال الملائكة ومهام الملائكة، وأنهم أقسام؛ أي: باعتبار ما وكل الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ إليهم من مهام وأعمال ووظائف.

قال: «**فمنهم حملة العرش**»؛ أي: من وكل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إليهم هذا الأمر، وهذا جاء في القرآن وفي السنة الصحيحة عن النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ومن ذلكم قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ﴾ [غافر: ٧]، وقوله: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧].

قال: «**ومنهم الكروبيون**»، وهذا الوصف لم يأتِ فيما أعلم في شيء من الأحاديث الصحيحة عن النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وإنما جاء في بعض الآثار، والكروبيون قيل في المعنىٰ أقوال منها؛ أي: المقربون إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، ووُصفهم بالمقربين مر معنا، ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: ١٧٢].

قال: «ومنهم الكروبيون الذين هم حول العرش»، وهنا فسر الكروبيون من الملائكة؛ أي: المقربون من الملائكة ممن هم حول عرش الرحمن، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾ [الزمر: ٧٥]، وقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ﴾ [غافر: ٧].

❊ ❊ ❊

[سُكَّانُ السَّمَواتِ السَّبْعِ والمُوَكَّلُونَ بِالجِنَانِ]

وَمِنْهُمْ سُكَّانُ السَّمَواتِ السَّبْعِ يَعْمُرُونَهَا عِبَادَةً دَائِمَةً لَيْلاً وَنَهَارًا، صَبَاحًا وَمَسَاءً، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠] وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يَتَعَاقَبُونَ إِلَىٰ البَيْتِ المَعْمُورِ. قُلْتُ: الظَّاهِرُ أَنَّ الَّذِينَ يَتَعَاقَبُونَ إِلَىٰ البَيْتِ المَعْمُورِ سُكَّانُ السَّمَواتِ.

وَمِنْهُمْ: مُوَكَّلُونَ بِالجِنَانِ، وَإِعْدَادِ الكَرَامَاتِ لِأَهْلِهَا، وَتَهْيِئَةِ الضِّيَافَةِ لِسَاكِنِيهَا، مِنْ مَلَابِسَ، وَمَآكِلَ، وَمَشَارِبَ، وَمَصَاغٍ، وَمَسَاكِنَ، وَغَيْرِ ذَلِك مِمَّا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَىٰ قَلْبِ بَشَرٍ.

قال: «وَمِنْهُمْ سُكَّانُ السَّمَواتِ السَّبْعِ يَعْمُرُونَهَا عِبَادَةً دَائِمَةً لَيْلاً وَنَهَارًا، صَبَاحًا وَمَسَاءً، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾»؛ أي: لا يملون ولا يكلون ولا يسأمون، بل هم في عبادة دائمة لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وتسبيح مستمر بالليل والنهار دون سآمة أو ملل.

قال: «وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يَتَعَاقَبُونَ إِلَىٰ البَيْتِ المَعْمُورِ. قُلْتُ: الظَّاهِرُ أَنَّ الَّذِينَ يَتَعَاقَبُونَ إِلَىٰ البَيْتِ المَعْمُورِ سُكَّانُ السَّمَواتِ»؛ أي: مَن هم مِن عمار السموات من الملائكة، فهم الذين يتعاقبون إلىٰ البيت المعمور؛ أي: الذين يدخلونه أفواجًا أفواجًا، كل منهم عددهم سبعون ألف، ومن دخله لا يدخله مرة ثانية.

قال: «وَمِنْهُمْ: مُوَكَّلُونَ بِالجِنَانِ، وَإِعْدَادِ الكَرَامَاتِ لِأَهْلِهَا، وَتَهْيِئَةِ الضِّيَافَةِ لِسَاكِنِيهَا، مِنْ مَلَابِسَ، وَمَآكِلَ، وَمَشَارِبَ، وَمَصَاغٍ، وَمَسَاكِنَ، وَغَيْرِ ذَلِك مِمَّا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَىٰ قَلْبِ بَشَرٍ»، فمن الملائكة من وكل إليه ما يتعلق بالجنة، وقد جاء في بعض الروايات ولم يثبت في حديث صحيح عن النبي ﷺ أن «**رضوان**» خازن الجنة، كما أن «**مالك**» خازن النار، كما سيأتي، لكنه لم يأتِ في ذلك حديث صحيح، يرفع إلىٰ النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

[المُوَكَّلُونَ بِالنَّار]

وَمِنْهُمْ: المُوَكَّلُونَ بِالنَّارِ أَعَاذَنَا اللهُ مِنْهَا، وَهُمْ الزَّبَانِيَةُ وَمُقَدَّمُوهُمْ تِسْعَةَ عَشَرَ، وَخَازِنُهَا مَالِكٌ، وَهُوَ مُقَدَّمٌ عَلَىٰ الخَزَنَةِ، وَهُمُ المَذْكُورُونَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾﴾ [غافر: ٤٩].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [الزُّخرُف: ٧٧] الآيَةَ.

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [التحريم: ٦].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدَّثر: ٣٠، ٣١].

قال: «**ومنهم الموكلون بالنار أعاذنا الله منها وهم الزبانية، ومقدموهم تسعة عشر**»؛ أي: مقدم زبانية النار من الملائكة تسعة عشر، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ [المدثر: ٣٠]؛ أي: علىٰ النار من الملائكة تسعة عشر.

قال: «**وخازنها مالك**»؛ أي: خازن النار والمقدَّم علىٰ هؤلاء جميعًا مالك، وجاء اسمه في القرآن في قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف: ٧٧]، وخصوه بالنداء دون غيره من الملائكة؛ لأنه مقدم الملائكة.

قال: «**وَخَازِنُهَا مَالِكٌ، وَهُوَ مُقَدَّمٌ عَلَىٰ الخَزَنَةِ، وَهُمُ المَذْكُورُونَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ**: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ

﴿٤٩﴾ [غافر: ٤٩].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [الزُّخرُف: ٧٧] الآيَةَ.

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [التحريم: ٦].

❊ ❊ ❊

[الْمُوَكَّلُونَ بِحفظ بني آدم وحفظ أعمالهم]

وَمِنْهُمْ: المُوَكَّلُونَ بِحِفْظِ بَنِي آدَمَ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ١١].

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَلَائِكَةٌ يَحْفَظُونَهُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ، فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللهِ خَلَّوْا عَنْهُ.

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: مَا مِنْ عَبْدٍ إِلَّا وَمَلَكٌ مُوَكَّلٌ بِحِفْظِهِ فِي نَوْمِهِ، وَيَقَظَتِهِ مِنَ الجِنِّ وَالإِنْسِ وَالهَوَامِّ، فَمَا مِنْهَا شَيْءٌ يَأْتِيهِ يُرِيدُهُ إِلَّا قَالَ لَهُ وَرَاءَكَ إِلَّا شَيْئًا يَأْذَنُ اللهُ تَعَالَىٰ فِيهِ فَيُصِيبُهُ».

وَمِنْهُمْ: المُوَكَّلُونَ بِحِفْظِ أَعْمَالِ العِبَادِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِذۡ يَتَلَقَّى ٱلۡمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٞ ﴿١٧﴾ مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ ﴿١٨﴾﴾ [ق: ١٧، ١٨].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الانفطار: ١٠ - ١٢]».

ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: «**ومنهم الموكلون بحفظ بني آدم**»؛ أي: الذين وكل الله عَزَّوَجَلَّ إليهم حفظ بني آدم؛ أي: من أن يصيبهم شيء، إلا ما أذن الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ به أن يصيبهم، قال تعالىٰ: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ﴾؛ أي: من الملائكة، ﴿مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾، ومعنىٰ قوله: ﴿مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: بأمر الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ.

«**قال ابن عباس في معنىٰ الآية: أي ملائكة يحفظونه- أي: يحفظون الإنسان- من بين يديه ومن خلفه، فإذا جاء أمر الله خلَّوْا عنه**»؛ أي: إذا جاء أمر الله عَزَّوَجَلَّ بأن يصيبه الشيء خلوا عنه، فأصابه الشيء الذي أذن الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ أن يصيبه.

قال: «**وقال مجاهد: ما من عبد إلا وملك موكل بحفظه في نومه ويقظته من الجنس والإنس والهوام**»؛ أي: يحفظه من الجن ومن الإنس ومن الهوام.

«**فما منا شيء يأتيه يريده إلا قال له وراءك**»؛ أي: إلا رده الملك وأرجعه.

«**إلا شيء يأذن الله تعالىٰ فيه**»؛ أي: يأذن تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ به أن يصيب الإنسان، قال: «**فيصيبه**»؛ أي: يصيبه ما أذن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أن يصيبه، إما من أذىٰ الجن أو أذىٰ الإنس أو الهوام أو السباع أو غير ذلك.

قال: «**وَمِنْهُمُ: المُوَكَّلُونَ بِحِفْظِ أَعْمَالِ العِبَادِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾**»؛ أي: ملكان كاتبان، أحدهما عن يمينه والآخر عن شماله، أحدهما يكتب الحسنات، والآخر يكتب السيئات، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾، وهؤلاء الحفظة من الملائكة الذين يكتبون أعمال العباد ويطلعون علىٰ أعمالهم، وهم علىٰ مقربة منهم.

❊ ❊ ❊

[النهي عن التعرِّي ووجوب الاستحياء من الملائكة]

٧٠- رَوَىٰ البَزَّارُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللهَ يَنْهَاكُمْ عَنِ التَّعَرِّي، فَاسْتَحْيُوا مِنْ مَلَائِكَةِ اللهِ الَّذِينَ مَعَكُم الكِرَامِ الكَاتِبِينَ الَّذِينَ لَا يُفَارِقُونَكُمْ إِلَّا عِنْدَ إِحْدَىٰ ثَلَاثِ حَالَاتٍ: الغَائِطِ، وَالجَنَابَةِ، وَالغُسْلِ، فَإِذَا اغْتَسَلَ أَحَدُكُمْ بِالْعَرَاءِ اسْتَتَرَ بِثَوْبِهِ أَوْ بِجِذْمِ حَائِطٍ أَوْ بِغَيْرِهِ»[(١)].

قَالَ الحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ: وَمَعْنَىٰ إِكْرَامِهِمْ أَنْ يَسْتَحِيَ مِنْهُمْ: «فَلَا يُمْلِي عَلَيْهِمُ الأَعْمَالَ القَبِيحَةَ الَّتِي يَكْتُبُونَهَا، فَإِنَّ اللهَ خَلَقَهُمْ كِرَامًا فِي خَلْقِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ»[(٢)].

ثُمَّ قَالَ مَا مَعْنَاهُ: «إِنَّ مِنْ كَرَمِهِمْ أَنَّهُمْ لَا يَدْخُلُونَ بَيْتًا فِيهِ كَلْبٌ، وَلَا صُورَةٌ، وَلَا جُنُبٌ، وَلَا تِمْثَالٌ، وَلَا يَصْحَبُونَ رُفْقَةً مَعَهُمْ كَلْبٌ أَوْ جَرَسٌ».

ثم أورد رَحِمَهُ اللَّهُ هذا الحديث عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، والحديث أيضًا في سنده شيء من الكلام أن النبي ﷺ قال: «**إن الله ينهاكم عن التعري**»، والمراد بالنهي عن التعري؛ أي: فيما لا يحتاج إليه الإنسان وما لا يضطر إليه، ولا يتعرىٰ إلا بحدود الضرورة، وإذا كان التعري بكشف العورة لقضاء الحاجة فإن أيضًا هذا الأمر لا يُفعل إلا في حدود الحاجة، وإذا كان يقضي حاجته في العراء يبعد عن الناس ولا يرفع ثوبه إلا إذا دنا من الأرض ويتوارىٰ عن الأنظار بشجرة أو نحو ذلك.

قال: «**إِنَّ اللهَ يَنْهَاكُمْ عَنِ التَّعَرِّي، فَاسْتَحْيُوا مِنْ مَلَائِكَةِ اللهِ الَّذِينَ مَعَكُم الكِرَامِ**

---

(١) رواه البزار في «مسنده» (٤٧٩٩)، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (١٧٦٢).

(٢) «البداية والنهاية» (١/ ٥٤).

الكَاتِبِينَ الَّذِينَ لَا يُفَارِقُونَكُمْ إِلَّا عِنْدَ إِحْدَىٰ ثَلَاثِ حَالَاتٍ: الغَائِطِ، وَالجَنَابَةِ، وَالغُسْلِ، فَإِذَا اغْتَسَلَ أَحَدُكُمْ بِالْعَرَاءِ اسْتَتَرَ بِثَوْبِهِ أَوْ بِجِذْمِ حَائِطٍ- أي: طرف حائط- **أَوْ بِغَيْرِه**»، والوصية بالستر وعدم التعري، وأن يكون ذلك في حدود الحاجة هذا دلت عليه شواهد عديدة في هدي النبي ﷺ وسننه القويمة، صلوات الله وسلامه عليه، والاستحياء من الملائكة أيضًا جاءت به السنة، قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة؟**»[(١)].

«**قَالَ الحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ: وَمَعْنَىٰ إِكْرَامِهِمْ-** أي: الملائكة- **أَنْ يَسْتَحِيَ مِنْهُمْ: «فَلَا يُمْلِي عَلَيْهِمُ الأَعْمَالَ القَبِيحَةَ الَّتِي يَكْتُبُونَهَا**»، هذا من إكرام الملائكة، من إكرام الإنسان للملائكة أن يستحي منهم، وأن لا يملي عليهم أعمالًا يكتبونها سيئة، وهذا فيه أن العبد عندما يباشر الأعمال السيئة والأعمال القبيحة، هذا يتنافىٰ مع الحياء من الملائكة؛ لأنه لو كان يستشعر أن الملائكة معه ويرونه ويكتبون ما يفعل لاستحيىٰ منهم، وامتنع من أن يملي عليهم؛ أي: يجعلهم يكتبون كلامًا أو أعمالًا سيئة يقوم بها، وهذا فيه الثمرة العظيمة الكبيرة التي ينالها ويفوز بها من يستحضر هذا الأصل العظيم الذي هو الإيمان بالملائكة، فإذا استحضر الإنسان هذا الأصل العظيم ألا وهو الإيمان بالملائكة؛ فإنه بإذن الله عَزَّوَجَلَّ يحجزه عن السيئات، ويحرك فيه الإقبال علىٰ الطاعات والعبادات.

قال: «**فَإِنَّ اللهَ خَلَقَهُمْ-** أي: الملائكة- **كِرَامًا فِي خَلْقِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ**»، وهذا فيه شاهد لما سبق، وهو أن الكرم معناه واسع، فوصْف الملائكة بأنهم كرام هذا يدل علىٰ كثرة الصفات الحسنة الجميلة الطيبة فيهم؛ الصفات الخلْقية والصفات الخُلقية.

---

(١) رواه مسلم (٢٤٠١).

«**ثُمَّ قَالَ مَا مَعْنَاهُ**- أي: قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ-: «**إِنَّ مِنْ كَرَمِهِمْ أَنَّهُمْ لَا يَدْخُلُونَ بَيْتًا فِيهِ كَلْبٌ، وَلَا صُورَةٌ، وَلَا جُنُبٌ، وَلَا تِمْثَالٌ، وَلَا يَصْحَبُونَ رُفْقَةً مَعَهُمْ كَلْبٌ أَوْ جَرَسٌ**»، وهذا جاء في معناه بعض الأحاديث تُرفع إلىٰ النبي صلوات الله وسلامه عليه.

❋ ❋ ❋

باب ذكر الملائكة عَلَيْهِمُ السَّلَامُ والإيمان بهم

٧١- وَرَوَىٰ مَالِكٌ وَالبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلَاةِ الفَجْرِ وَصَلَاةِ العَصْرِ، ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ، فَيَسْأَلُهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ: تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ، وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ»[(١)].

٧٢- وَفِي رِوَايَةٍ أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ قَالَ: «اقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾﴾ [الإسراء: ٧٨]».

هذا الحديث، حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أورده المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ في «**باب ذكر الملائكة** عَلَيْهِمُ السَّلَامُ **والإيمان بهم**»؛ لأن في هذا الحديث ذكرًا لوظيفة من وظائف الملائكة وعملًا من أعمالهم، ألا وهو التعاقب علىٰ الناس بالليل والنهار؛ «**يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار**»، والتعاقب: هو أن يأتي فوج أو جماعة، ثم يعقبه فوج آخر، فيصعد فوج ويعرج فوج، «**يتعاقبون فيكم**»؛ أي: يأتي جماعات عقب جماعات من ملائكة الله عَزَّوَجَلَّ ويشهدون أعمال العباد، وهؤلاء الملائكة غير الحفظة الذين يكتبون أعمال العباد علىٰ الصحيح من أقوال أهل العلم في معنىٰ هذا الحديث.

قال: «**يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار**»، فهؤلاء ملائكة وكل الله

---

(١) رواه مالك في «الموطأ» (٤١١)، والبخاري (٥٥٥)، ومسلم (٦٣٢).

عَزَّوَجَلَّ إليهم التعاقب على العباد، ويجتمعون في هاتين الصلاتين: صلاة الفجر وصلاة العصر، فمن نزل من الملائكة في صلاة الفجر صعد في صلاة العصر، ويحصل لهؤلاء الملائكة المتعاقبين الاجتماع في هاتين الصلاتين؛ أي: يجتمع النازل من الملائكة مع من أراد الصعود والعروج من الملائكة، فيحصل اجتماع لهؤلاء الملائكة في هاتين الصلاتين صلاة الفجر وصلاة العصر؛ أي: أنهم يشهدون الصلاة ويحضرونها ويرون المصلين في صلاتهم، كما تلا أبو هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وأرضاه في معنى هذا الحديث قول الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨]؛ أي: تشهده الملائكة، وهذا الحديث مما يوضح ويبين معنى الآية، ﴿مَشْهُودًا﴾؛ أي: تشهده الملائكة وتحضره.

قال: «**يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، فيجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر**»؛ أي: أن هؤلاء الملائكة المتعاقبين يجتمعون في هاتين الصلاتين صلاة الفجر وصلاة العصر، بحيث أن من أراد منهم العروج يجتمع مع النازل من الملائكة في هاتين الصلاتين العظيمتين صلاة الفجر وصلاة العصر، وهما أفضل الصلوات، كما يدل على ذلك أحاديث عديدة ثابتة عن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه.

قال: «**ثم يُعرج إليه الذين باتوا فيكم**»، هذا فيه من الفائدة أن من نزل من الملائكة مثلًا في صلاة العصر، فإنه يبات؛ أي: يبقى في الأرض إلى أن يأتي وقت صلاة الفجر، ويكون عروجهم في وقت صلاة الفجر بحيث يجتمعون وقت هذه الصلاة مع الملائكة الذين نزلوا وقت صلاة الفجر، فيصعد أو يعرج من الملائكة من نزلوا في صلاة العصر ويبقى الملائكة الذين نزلوا في صلاة الفجر.

قال: «**فيعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم- أي: الله** جَلَّوَعَلَا- **وهو أعلم**»؛ أي:

أعلم بالملائكة وأعلم بالناس وأعلم بكل شيء تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، فإنه عَزَّوَجَلَّ أحاط بكل شيء علمًا وأحصىٰ كل شيء عددًا، ولا تخفىٰ عليه خافية في الأرض ولا في السماء.

فيسأل تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ الملائكة يقول لهم جَلَّ وَعَلَا: «**كيف تركتم عبادي؟**»، وهذا فيه إثبات صفة الكلام لله عَزَّوَجَلَّ علىٰ الوجه اللائق بجلاله وكماله وعظمته، وأنه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يتكلم بما شاء متىٰ شاء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ علىٰ الوجه اللائق بجلاله سبحانه.

قال: «**فيقول: كيف تركتم عبادي؟ فيقول: تركناهم وهم يصلون، وأتيناهم وهم يصلون**»؛ أي: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يسألهم عن الحالة التي تركوا عليها عباده؛ فيجيبون أنهم تركوهم علىٰ حال صلاة لله جَلَّ وَعَلَا، وأتوهم أيضًا علىٰ حال صلاة الله؛ لأنهم أتوهم في صلاة العصر وعرجوا منهم في صلاة الفجر، فأتوهم وهم يصلون وعرجوا أيضًا وهم يصلون، وهذا فيه من الدلالة فضل هاتين الصلاتين العظيمتين صلاة الفجر وصلاة العصر، وأن هاتين الصلاتين يحضرها هؤلاء الملائكة المتعقبون، أو بعبارة أدق يجتمع في حضورها هؤلاء الملائكة المتعاقبون ملائكة الليل وملائكة النهار، يجتمعون في هاتين الصلاتين صلاة الفجر وصلاة العصر.

وهذا مما يُعظم رغبة الإنسان في المحافظة علىٰ هاتين الصلاتين والعناية بهما، وقد جاء عن النبي ﷺ في فضل هاتين الصلاتين علىٰ وجه الخصوص أحاديث كثيرة عنه صلوات الله وسلامه عليه، وأنها من أعظم أسباب الخير في الدنيا والآخرة، قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**إنكم سترون ربكم يوم القيامة كما ترون القمر ليلة البدر لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تُغلبوا علىٰ صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروبها فافعلوا**»[1]، صلاة قبل طلوع الشمس؛ أي: صلاة الفجر، وصلاة قبل

(١) رواه البخاري (٥٤٤)، ومسلم (٦٣٣).

غروبها؛ أي: صلاة العصر، والأحاديث في بيان شأن هاتين الصلاتين كثيرة جدًّا، ومن ضيَّع هاتين الصلاتين مع ما فيهما من الأجور العظيمة فهو لما سواهما من الصلوات أضيع، ومن ضيع الصلاة المكتوبة فهو لما سواها من دين الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أضيع، من ضيع الصلاة لا حظ له في الإسلام؛ لأنه لا حظ في الإسلام لمن ضيع الصلاة.

* * *

[الملائكة تحف حِلَق الذِّكر والعلم]

٧٣- وَرَوَىٰ الإِمَامُ أَحْمَدُ وَمُسْلِمٌ حَدِيثَ: «مَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ فِيمَا بَيْنَهُمْ؛ إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمُ المَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ، وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ»(١).

ثم أورد رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ هذا الحديث، وهو في «**مسند الإمام أحمد**» و«**صحيح مسلم**»، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ أنه قال: «**مَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ**»، فذكر عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ الاجتماع في بيت من بيوت الله، وبيوت الله عَزَّوَجَلَّ هي المساجد التي أذن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ برفعها لإقامة ذكره جَلَّ وَعَلَا فيها، ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ۝٣٦ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [النور: ٣٦، ٣٧].

وانتبه هنا لقول رب العالمين تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿رِجَالٌ﴾، انتبه لهذا حتىٰ نعرف من خلال هذه الآية الكريمة حقيقة الرجولة التي غلط في حقيقتها كثير من الناس، بل أصبح معنىٰ الرجولة عند بعضهم هي التعدي والظلم والكبر والتعالي علىٰ الناس! إلىٰ غير ذلك من المعاني التي جاء تحريمها في الشرع، بينما حقيقة الرجولة الذل لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، ولزوم طاعته والقيام بعبادته، قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾، فهذه حقيقة الرجولة وحقيقة المراجل؛ أن يكون الرجل مطيعًا

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (٧٤٢٧)، ومسلم (٢٦٩٩).

لربه جَلَّ وَعَلَا ممتثلًا لأمره قائمًا بطاعته محافظًا علىٰ ما أمره الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ به من صلاة وعبادة وذل وخضوع لله جَلَّ وَعَلَا.

قال: «**مَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ**»؛ أي: اجتمعوا علىٰ القرآن ومدارسته، اجتمعوا علىٰ القرآن ليس لتلاوة حروفه فقط! بل لتلاوة القرآن وفهم المعاني، ولهذا قال: «**ويتذاكرونه بينهم**»، والتذاكر المراد به فهم المعاني وتدبر القرآن الكريم، كما قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص: ٢٩]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾ [النساء: ٨٢]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَفَلَمۡ يَدَّبَّرُواْ ٱلۡقَوۡلَ﴾ [المؤمنون: ٦٨]، فاجتمعوا لتلاوة القرآن؛ أي: تلاوة آيات القرآن وكلام الله عَزَّوَجَلَّ، وتذاكر القرآن بينهم بفهم معانيه ومعرفة دلالته والتدبر في آياته.

قال: «**يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة**»، نزلت عليهم؛ أي: من الله جَلَّ وَعَلَا. والسكينة: طمأنينة القلب وسكون النفس وراحة الإنسان، وقد قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، فيحصل لهم في مجالس الذكر ومجالس تلاوة القرآن وتدارس القرآن وفهم معانيه سكينة؛ أي: يحصل لهم من هذه المجالس ما تسكن به قلوبهم وتطمئن نفوسهم ويحصل به راحتهم.

قال: «**وغشيتهم الرحمة**»؛ أي: عمتهم وغطتهم وشملتهم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، فتكون رحمة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ شاملة لهم، فهم القوم لا يشقىٰ بهم جليسهم، كما جاء ذلكم عن نبينا صلوات الله وسلامه عليه.

قال: «**وحفتهم الملائكة**»، وهذا الأمر الثالث الذي يفوزون به ويظفرون به،

«**وحفتهم الملائكة**»؛ أي: أن الملائكة تحف المجتمعين في بيوت الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، (**تحفهم**)؛ أي: تحيط بهم، وكما يأتي في الحديث اللاحق تغطيهم بأجنحتها؛ رضًا بما يصنعون، وهذا فيه أن الملائكة يحبون مجالس العلم ومجالس الذكر التي يُتعلم فيها القرآن ويتفقه الناس فيها في أحكام شرع الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، فالملائكة تحب هذه المجالس، بل تطلب هذه المجالس، وإذا وجدوها حفوا أهلها والمجتمعين فيها، قد جاء عن النبي ﷺ أنه قال: «**إِنَّ لِلَّهِ مَلَائِكَةً يَطُوفُونَ فِي الطُّرُقِ، يَلْتَمِسُونَ أَهْلَ الذِّكْرِ، فَإِذَا وَجَدُوا قَوْمًا يَذْكُرُونَ اللهَ تَنَادَوْا هَلُمُّوا إِلَىٰ حَاجَتِكُمْ، قَالَ فَيَحُفُّونَهُمْ بِأَجْنِحَتِهِمْ إِلَىٰ السَّمَاءِ الدُّنْيَا**»(١)؛ أي: يطلبونها ويبحثون عنها.

قال: «**وذكرهم الله في من عنده**»، وهذه فضيلة رابعة يفوز بها المجتمعون لمدارسة القرآن ومذاكرته في بيوت الله عَزَّوَجَلَّ، قال: «**وذكرهم الله فيمن عنده**»؛ أي: أن الله عَزَّوَجَلَّ يذكرهم عنده؛ أي: في الملأ الأعلىٰ الكرام الأطهار البررة، يذكرهم؛ أي: بالثناء عليهم، يثني عليهم رب العالمين جَلَّوَعَلَا في الملأ الأعلىٰ، وهذه فضيلة عظيمة للاجتماع في بيوت الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لتلاوة كلامه ومدارسة معاني القرآن الكريم ومعرفة دلالاته.

ونظير هذا الذي هو ذكر الله جَلَّوَعَلَا للمجتمعين في بيوت الله عَزَّوَجَلَّ لتلاوة القرآن ومذاكرته ما جاء في «**صحيح مسلم**» من حديث معاوية بن أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عن النبي ﷺ قال: «**ما أجلسكم؟**»؛ أي: لأي شيء جلستم في المسجد؟ ولأي شيء تحلقتم واجتمعتم؟ قال: قلنا: جلسنا نذكر الإسلام وما منَّ الله علينا به، فهم جلسوا في المسجد يتذاكرون الإسلام ويتفقون في أحكامه، ويذكرون منَّة الله

---

(١) رواه البخاري (٦٤٠٨)، ومسلم (٢٦٨٩).

تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عليهم بهذا الدين وهدايته تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لهم لدخوله. فقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**الله، ما أجلسكم إلا ذلك؟**»، يستحلفهم بالله: «**آلله، ما أجلسكم إلا ذلك؟**»؛ يعني: ما جلستم إلا لهذا الغرض؟ ليس لكم غرض آخر؟ هذا هو هدفكم، وهذا هو مقصدكم؟ قال: قلنا: ما أجلسنا إلا ذلك. قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**أما والله، إني لم أستحفكم تهمة لكم، ولكن أتاني جبريل آنفًا فأخبرني أن الله يباهي بكم ملائكته**». رواه مسلم في «**صحيحه**»[(١)].

قال: «**أما والله، إني لم أستحلفكم تهمة لكم**»؛ أي: لم أطلب منكم الحلف لأني أتهمكم، وإنما طلبت منكم الحلف؛ لأن الأمر عظيم للغاية؛ أتاني جبريل قبل قليل وأخبرني أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يباهي بكم ملائكته.

وهذا ينبغي أن تلاحظ أمرًا؛ ألا وهو أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ غني عن العباد، وغني عن اجتماعهم في المساجد، وغني عن صلاتهم، وغني عن حرصهم علىٰ العلم وطلبهم له، وغني عن خضوعهم وسجودهم وركوعهم وعن جميع عباداتهم وطاعاتهم، وقد قال جَلَّ وَعَلَا في الحديث القدسي: «**يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي، فَتَنْفَعُونِي**»[(٢)]، فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا تنفعه طاعة الطائعين، ولا تضره معصية العاصين، لا تنفعه طاعة الطائعين ولو اجتمع عليها جميع الناس من أولهم إلىٰ آخرهم، ولا يضره معصية العاصين ولو اجتمع علىٰ المعصية جميع الناس من أولهم إلىٰ آخرهم: «**يا عبادي، لو أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا علىٰ أتقىٰ قلب رجل منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئًا، ولو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا علىٰ أفجر قلب رجل منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئًا**»، فهو جَلَّ وَعَلَا

---

(١) رواه مسلم (٢٧٠١).

(٢) رواه مسلم (٢٥٧٧).

لا تنفعه طاعة الطائعين، وطاعتهم لا تزيد ملك الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ شيئًا، ولا تضره سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ معصية العاصين، ومعصيتهم لا تُنقص من ملكه تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ شيئًا، بل طاعة الطائع تفيده هو، ومعصية العاصي تضره هو، ﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ [الإسراء: ١٥]، فالذي يطيع هو الذي ينتفع من الطاعة، والذي يعصي هو الذي يتضرر من المعصية.

والله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ مع كمال غناه يحب من عباده الطاعات والاجتماع علىٰ الخير وملازمة العبادات، يحب أهل ومجالس الذكر والاجتماع علىٰ طاعته جَلَّوَعَلَا في بيوته وتلاوة كلامه جَلَّوَعَلَا وتذاكر معانيه والتفقه في الدين، يحب التوابين ويحب المتطهرين، يحب الطائعين، يفرح تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ مع كمال غناه بتوبة التائبين، بل قال عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «**لله أشد فرحًا بتوبة عبده إذا تاب، من أحدكم أضل راحلته بفلاة وعليها طعامه وشرابه، حتىٰ إذا أيس منها أوىٰ إلىٰ ظل شجرة ونام تحت ظل شجرة ينتظر الموت، بينا هو كذلك إذا بخطام راحلته فأخذ بخطام راحلته وقال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح**»[(١)]، فيقول عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «**لله أشد فرحًا بتوبة عبده إذا تاب من فرح هذا الرجل براحلته**»، مع أنه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ غني عن توبة التائبين وعن طاعة المطيعين وصلاة المصلين وتعلم المتعلمين، ولكن هذا يبين لنا كمال فضله وعظيم منِّه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ علىٰ عباده أهل الطاعة وأهل الاجتماع علىٰ الخير وأهل الحرص علىٰ الفقه في دين الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، وأنهم يفوزون بهذه الخيرات العظيمة والأفضال الكريمة التي يمن عليهم بها رب العالمين تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ.

---

(١) رواه البخاري (٦٣٠٩)، ومسلم (٢٧٤٧).

وقوله ﷺ في الحديث: «**ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه**»، **(من بطأ به عمله)**؛ أي: كان عمله قاصرًا ضعيفًا أو مفرطًا ومضيعًا، بطأ به عمله عن بلوغ عالي الدرجات؛ أي: قصُر به عمله لضعف العمل أو قلته أو نقصه وتفريط صاحبه، **(من بطأ به عمله)**؛ أي: عن بلوغ الكمالات والوصول إلىٰ رفيع الرتب، **(لم يسرع به نسبه)**؛ أي: مَن كان عمله ضعيفًا ناقصًا بطأ به عن بلوغ الرتب العالية لا يسرع به نسبه، فيجعله يبلغها، كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ۝١٠١ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١، ١٠٢]، (ثقلت)؛ أي: بالأعمال، فالذي يبطئ به عمله لأنه فرَّط في العمل وقصر في العمل لا يرفعه نسبه، ولهذا يتمايز الناس ويتفاضلون عند الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بالتقوىٰ، كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، وفي الحديث يقول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**لا فضل لعربي علىٰ عجمي ولا لعجمي علىٰ عربي ولا لأحمر علىٰ أسود ولا أسود علىٰ أحمر إلا بالتقوىٰ**»[(١)]؛ أي: إلا بتقوىٰ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ؛ أي: ملازمة تقواه، وتقوىٰ الله عَزَّ وَجَلَّ: عمل بطاعة الله علىٰ نور من الله رجاء ثواب الله، وترك لمعصية الله علىٰ نور من الله خيفة عذاب الله، فالذي يبطئ به نسبه عن بلوغ الدرجات العالية والمنازل الرفيعة ليس نسبه الذي يسرع به.

وهذا فيه أهمية العمل ومكانته والمحافظة علىٰ عبادة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، والأنبياء وغيرهم لا يغنون عن أحد شيئًا، لا عن قاربتهم ولا عن غيرهم، والنبي ﷺ قال لفاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «**يا فاطمة بنت محمد**»، لم يكتفِ بقوله: (يا فاطمة)، بل نص علىٰ بنوَّتها له

---

(١) رواه البيهقي في «سننه» (٥١٣٧)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (٢٩٦٣).

قال: «**يا فاطمة بنت محمد، سليني من مالي ما شئت، لا أغني عنك من الله شيئًا**»(١)، وفي القرآن الكريم قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا﴾، والخيانة هنا خيانة الكفر، وليست خيانة الفاحشة والزنا؛ لأن ما زنت امرأة نبي قط، ﴿فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ [التحريم: ١٠].

جاء في الحديث الصحيح في «**صحيح البخاري**» وغيره عن نبينا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قال: «**يلقىٰ إبراهيم أباه آزر يوم القيامة، فيقول إبراهيم لأبيه: ألم أقل لك: لا تعصني؟ فيقول آزر: الآن لا أعصيك. فيقول إبراهيم** عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: **يا رب، ألم تعدني ألا تخزني يوم يبعثون؟ وأي خزي أخزىٰ من أبي الأبعد؟ فيقول الله** تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: **إني حرمت الجنة علىٰ الكافرين، ثم يقول الله** سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ **لإبراهيم: انظر إلىٰ أسفل منك، فيلتفت وينظر وإذا بذيخ- أي: يتحول والد إبراهيم علىٰ صورة ذيخ، وهو ذكر الضباع- ويؤخذ بقوائمه ويُطرح في النار ويلقىٰ في نار جهنم**»(٢)، والحديث في «**صحيح البخاري**»، قال: «**لا أغني عنكِ من الله شيئًا**»، فالأنبياء لا يغنون لا عن قرابتهم ولا غيرهم من الله شيئًا؛ لأن «**من بطأ به عمله لم يسرع به نسبه**»، لم تسرع به قرابته، سواء كان أبًا أو كان زوجًا أو كان ابنًا، ومر معنا الشواهد في ذلك كله، الأنبياء لا يغنون من الله شيئًا، «**من بطأ به عمله لم يسرع به نسبه**».

جاء رجل إلىٰ النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وقال: أسألك مرافقتك في الجنة. قال: «**فأعني علىٰ نفسك بكثرة السجود**»(٣)، لا بد من العمل لا يتكل الإنسان لا علىٰ

---

(١) رواه البخاري (٢٧٥٣)، ومسلم (٢٠٦).

(٢) رواه البخاري (٣٣٥٠).

(٣) رواه مسلم (٤٨٩).

نسب ولا علىٰ غيره، قال: «**فأعني علىٰ نفسك بكثرة السجود**»؛ أي: حافظ علىٰ العبادة والصلاة والطاعة لله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، أما من بطأت به أعماله وفرط في الأعمال متكلًا علىٰ نسب أو حسب أو غير ذلك لم تسرع به ولم تقدمه عند الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، قال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ۝١٠١ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝١٠٢ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ۝١٠٣ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١- ١٠٤]، والآيات في هذا المعنىٰ كثيرة، يقول الله جَلَّوَعَلَا: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝٣٦ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤- ٣٧]، لو تطلب الأم من ابنها وهي أغلىٰ ما تكون عنده لو تطلب منه يوم القيامة حسنة واحدة، قال لها: «نفسي نفسي»، ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٩]، ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ﴾؛ أي: أي نفس كانت ومهما كانت، ﴿لِّنَفْسٍ﴾؛ أي: أي نفس مهما بلغ قدرها ومكانتها ومنزلتها عند الإنسان، ﴿شَيْـًٔا﴾؛ أي: أي شيء كان ولو شيئًا قليلًا، كلها نكرات في سياق النفي، ﴿نَفْسٌ﴾، ﴿لِّنَفْسٍ﴾، ﴿شَيْـًٔا﴾، ثلاث نكرات في سياق النفي فتفيد العموم، نفس أيا كانت، لأي نفس أيًّا كانت، في أي شيء أيًّا كان، ﴿لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ رب العالمين جَلَّوَعَلَا، ولهذا الأعمال إذا بطأت بالإنسان وأخرته ليس الذي يسرع به نسبه، وليس الذي يقدمه أي شيء آخر، إنما الذي يقدم الإنسان وتعلو به درجاته أعماله كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأحقاف: ١٩].

* * *

[توقير الملائكة لطالب العلم]

٧٤- وَفِي المُسْنَدِ وَالسُّنَنِ حَدِيثُ: «إِنَّ المَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ العِلْمِ رِضًا بِمَا يَصْنَعُ»[(١)].

وَالأَحَادِيثُ فِي ذِكْرِهِمْ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ كَثِيرَةٌ جِدًّا.

ثم ختم رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ بقول النبي ﷺ: «**إِنَّ المَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ العِلْمِ رِضًا بِمَا يَصْنَعُ**»، وهذا جزء من حديث طويل، رواه الإمام أحمد في «**المسند**»، ورواه أهل السنن من حديث أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في فضل طلب العلم وبيان مكانة طلب العلم، وفيه جمل عديدة، اقتصر المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ علىٰ جملة واحدة منها لتعلقها بالترجمة، ألا وهي: ذكر الملائكة والإيمان بهم، والحديث فيه جمل عديدة في فضل طلب العلم ومكانة العلماء.

يقول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهل الله له به طريقًا إلىٰ الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضًا بما يصنع، وإن فضل العالم علىٰ العابد كفضل القمر ليلة البدر علىٰ سائر الكواكب، وإن العلماء ليستغفر لهم كل شيء حتىٰ الحيتان في الماء، وإن العلماء ورثة الأنبياء، فإن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا، إنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر**»، وهذا الحديث العظيم في فضل العلم رحل رجل من المدينة إلىٰ الشام في زمن الصحابة من أجله،

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (١٨٠٨٩)، والترمذي (٣٥٣٥)، والنسائي (١٥٨)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٢٩٧).

رحل إلىٰ أبي الدرداء، والرحلة في ذلك الوقت من المدينة إلىٰ الشام تحتاج من الوقت إلىٰ ما يقارب الشهر، فرحل إلىٰ أبي الدرداء، ولما وصل إليه قال لأبي الدرداء: «**جئت لحديث بلغني أنك تحدِّث به عن رسول الله ﷺ**»، قال: أما جئت لحاجة؟ قال: لا. قال: أما جئت لتجارة. قال: قال. قال: ما جئت إلا لهذا الحديث؟ قال: نعم. فرحل من أجل حديث واحد من المدينة، وهذا فيه فضل الرحلة في طلب العلم، ثم حدَّثه أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بهذا الحديث العظيم يُجمله الخمس في فضل العلم وفضل العلماء.

والشاهد من هذا الحديث: هو ما أورده المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ، أن النبي ﷺ قال: «**وإِنَّ المَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ العِلْمِ رِضًا بِمَا يَصْنَعُ**»، وقوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**تضع أجنحتها لطلب العلم**» علىٰ ظاهره، ونؤمن به علىٰ ظاهره كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ، فالملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم، وهذا الوضع للأجنحة هو من الملائكة رضًا بما يصنعه طالب العلم؛ أي: رضًا بصنيعه في سلوكه طريق العلم وسيره في دروبه، وهذا فيه فضل طلب العلم والسير في دروبه والجد والاجتهاد فيه.

ففيه فضائل عظيمة، منها: أن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم، وإن كنا لا نرىٰ الملائكة تضع أجنحتها لطلبة العلم، إلا أننا من ذلك علىٰ يقين؛ لأن الذي أخبرنا بذلك هو الصادق المصدوق ﷺ، الذي لا ينطق عن الهوىٰ، إن هو إلا وحي يوحىٰ، عليه صلوات الله وسلامه، وعدم الإبصار ليس دليلًا علىٰ انتفاء الأمر، قال تعالىٰ: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٣- ٨٥]؛ يعني: لا تبصرون الملائكة، يجلس أولياء المحتضر وقرابته حوله وتُنتزع روحه من أمامهم، وهم يرونه يموت أمامهم وتُنزع روحه، ولا

يرون الملائكة الذين جاءوا لقبض روحه؛ فهل عدم رؤيتهم للملائكة دليل علىٰ عدم وجود ملك الموت الذي يأتي لقبض الروح؟! قال: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾، فعدم الإبصار وعدم الرؤية ليس دليلًا علىٰ انتفاء الأمر، فإذا جاء الخير في كتاب الله أو في سنة نبيه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ آمنا وصدقنا؛ لأنه كلام الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوىٰ.

ومثل هذه الأحاديث يستفيد منها طالب العلم أنها تزيد في رغبته في الطلب، وتقلل من وحشته ومن تثبطه في طلب العلم؛ لأنه يأنس ويفرح ويحس بهذا الفضل العظيم الذي ذكره النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فيأنس بذلك، وأن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم رضًا بما يصنع، لماذا ذكر النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لنا ذلك؟ لماذا قال لنا: «وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضًا بما يصنع»؟ هل ذكر لنا ذلك مجرد معلومة نعرفها؟ أم ذكره لنا لنزيد رغبة في طلب العلم؟! هذا مما يزيد في الرغبة، ومما يزيد في الحرص علىٰ طلب العلم، فهذه المعرفة إضافة إلىٰ أمور كثيرة جاءت في السنة كلها تبعث الإنسان وتحرك في قلبه الحرص والرغبة في طلب العلم وتحصيله.

ويجب علىٰ كل إنسان أن يحذر غاية الحذر من رد ذلك أو عدم التصديق به، وليحذر أيضًا أشد الحذر من السخرية بذلك والتهكم به؛ لأن بعض الناس ممن لا دين عندهم ولا تعظيم لكلام الرسول الكريم الصادق المصدوق عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ربما سخروا من هذه الأشياء، بحجة أنهم لا يرون ولا يشاهدون شيئًا من ذلك، فربما سخروا من ذلك، وربما تهكموا بذلك، وقد ذكر الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ في كتاب له عظيم أفرده في شرح حديث أبي الدرداء وهو مطبوع، وهو من أنفس الكتب في بيان فضل العلم وفضل طلب العلم، وعند شرحه لهذه الجملة من الحديث أورد قصة لأحد الملاحدة لما سمع هذا الحديث؛ «فقال لطلبة العلم: ارفعوا أرجلكم عن

أجنحة الملائكة لا تكسروها، يستهزئ بذلك، فما زال من موضعه حتىٰ جفت رجلاه وسقط»[(١)]، شل الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ قدميه، وهذه عقوبة معجلة للساخرين والمتهكمين بسنة النبي ﷺ، وما عند الله من العقاب أشد وأبقىٰ.

ومثل هذا ما ذكره النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قصة ساخر آخر ومستهزئ آخر لما سمع حديث النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ الذي قال فيه: «**إذا قام أحدكم من فراشه فليغسل يده ثلاثًا، فإن أحدكم لا يدري أن باتت يده**»، فالكلام واضح، وقد يكون الإنسان وهو نائم يلمس عورته، ويلمس فرجه وهو نائم، فلا يدري أين باتت يده؛ يعني: لا يطمئن أنها بقيت علىٰ نظافتها وسلامتها من أن تمس شيئًا من فرجه أو نحو ذلك، قال: «**لا يدري أحدكم أين باتت يده**»، فأحد الساخرين المتهكمين سمع هذا الحديث فقال ساخرًا متهكمًا: «أنا أدري أين باتت يدي في الفراش! فأصبح وقد أدخل يده في دبره إلىٰ ذراعه»[(٢)]، وهذه من العقوبات المعجلة، وإذا سلِم الإنسان من العقوبة المعجلة ولم يتب إلىٰ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لم يسلم يوم القيامة من العقاب المؤجل، وعقاب الله أشد وأبقىٰ يوم القيامة.

ولهذا يجب علىٰ الإنسان أن يكون للسنة في قلبه حرمة وتعظيما، يعظم كلام الله ويعظم كلام الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ويحترمه ويعرف مكانته ويتلقاه بالقبول، ويعظم كلام الله عَزَّوَجَلَّ، ويعرف للسنة عظمتها وقدرها ومكانتها، ويتلقىٰ أحاديث النبي صلوات الله وسلامه عليه بالقبول.

ثم لما أنهىٰ المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ الأحاديث الواردة في ذكر الملائكة وذكر أعمال الملائكة وأوصاف الملائكة إلىٰ غير ذلك مما يتعلق بالملائكة، قال في ختام

(١) «مجموع رسائل الحافظ ابن رجب الحنبلي» (٢/ ٣٠٠).

(٢) بستان العارفين (ص٥٠).

هذا الباب: «**والأحاديث في ذكرهم** عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ **كثيرة جدًّا**»، منبهًا بذلك أنه لم يستوعب في هذا المختصر ما يتعلق بالملائكة ووظائفهم، وإنما أشار إلىٰ قليل من ذلك، والقليل الذي أشار إليه المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ينبه علىٰ الكثير ويدل عليه، وينبغي علىٰ المسلم أن تعظم عنايته بهذا الأصل العظيم من أصول الإيمان والركن المتين من أركان الدين، ألا وهو الإيمان بالملائكة، ولهذا الإيمان آثار عظيمة ومباركة علىٰ العبد في الدنيا والآخرة سبق الإشارة إلىٰ شيء منها أثناء عرض الأدلة التي ساقها المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ عن الملائكة والإيمان بهم.

❊ ❊ ❊

بَابُ: الوَصِيَّةِ بِكِتَابِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ

وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٣﴾ [الأعراف: ٣].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**باب الوصية بكتاب الله عَزَّوَجَلَّ**»، هذه الترجمة أوردها رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ في كتابه «**أصول الإيمان**»؛ لأن من أصول الإيمان العظيمة الإيمان بكتب الله عَزَّوَجَلَّ المنزلة، كما قال الله تعالىٰ: ﴿لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، فالإيمان بالكتب أصل من أصول الإيمان، وقال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖ﴾ [الشورىٰ: ١٥]؛ أي: آمنت بكل كتاب أنزله الله علىٰ أي رسول.

فالإيمان بالكتب أصل من أصول الإيمان، ومن الإيمان بالكتب الإيمان بخاتم الكتب المنزلة، ألا وهو القرآن الكريم الناسخ لجميع الكتب التي قبله والمهيمن عليها والمصدق لما بين يديه، وهو الكتاب الذي أنزله الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ علىٰ خاتم النبيين ﷺ، ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ﴾

[الأحزاب: ٤٠]، فهو عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ خاتم النبيين وكتابه خاتم الكتب، فلا يُبعث بعده عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ رسول ولا يُنزل بعد كتابه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كتاب.

والإيمان بالقرآن الذي هو كلام الله عَزَّوَجَلَّ هو إيمانٌ بهذا الكتاب العظيم، وأنه وحي من الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أنزله علىٰ رسوله ﷺ، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٣ – ١٩٥]، وأن نؤمن أنه كلام الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو من تكلم به، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]؛ أي: يسمع القرآن الذي هو كلام الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وأن نؤمن بأن هذا الكتاب فيه الهداية والفلاح والسعادة في الدنيا والآخرة، وأن من آمن بهذه القرآن وعمل به هُدي إلىٰ صراط مستقيم، ومن تنكَّب عنه وحاد عنه باء بالخسران في الدنيا والآخرة.

والمؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ عقد هذه الترجمة للوصية بكتاب الله عَزَّوَجَلَّ، حتىٰ يقبل المسلمون علىٰ كتاب الله وعلىٰ القرآن الذي فيه عزهم وفلاحهم ورفعتهم في الدنيا والآخرة؛ لأن أمة الإسلام كلما ارتبطت بالقرآن الكريم كان ذلك عزًّا لها وفلاحًا في الدنيا والآخرة، وكلما أعرضت عن القرآن وعن العناية به قراءةً وتدبرًا وعملًا وتطبيقًا باءت بالخسران في الدنيا والآخرة.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: «**باب الوصية بكتاب الله عَزَّوَجَلَّ**»، والوصية بكتاب الله تتناول أمورًا عديدة سنقف عليها من خلال النصوص التي ساقها رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ، وقد بدأ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٣].

﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾؛ أي: اتبعوا وحي الله جَلَّ وَعَلَا الذي أنزله إليكم هدايةً لكم وصلاحًا وفلاحًا ورفعة، وحكّموا كلام الله عَزَّوَجَلَّ بينكم واعملوا بكلامه

عَزَّوَجَلَّ وطبقوا أحكامه سبحانه وامتثلوا أوامره واجتنبوا نواهيه، كونوا متبعين لكلام الله عَزَّوَجَلَّ ممتثلين له متمسكين به.

﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ﴾، وهذا فيه أن الوحي منزل من الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، وأنه كلام الله عَزَّوَجَلَّ، قال: ﴿مِّن رَّبِّكُمۡ﴾، و«من» هنا تفيد الابتداء، وأن الكلام بدأ من الله عَزَّوَجَلَّ وهو منزل منه، كما قال السلف رَحِمَهُمُٱللَّهُ عن كلام الله: «من الله بدأ وإليه يعود»، فيدل علىٰ أنه من الله بدأ قوله: ﴿مِّن رَّبِّكُمۡ﴾، ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [السجدة: ٢]، فهو من الله عَزَّوَجَلَّ تكلم به، ونزل به جبريل علىٰ رسول الله ﷺ، وبلغه الرسول الكريم عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ للأمة علىٰ التمام والكمال.

قال: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ﴾، وقوله: ﴿مِّن رَّبِّكُمۡ﴾، فيه تنبيه إلىٰ ربوبية الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ الخاصة التي تدل علىٰ التربية علىٰ الإيمان والفضيلة والخير والإيمان الصحيح والعبادة القويمة وحُسن الإقبال علىٰ الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، ولهذا قال بعض أهل العلم: كان أكثر دعاء الأنبياء بهذا الاسم «ربنا» مستحضرين منة الله عَزَّوَجَلَّ عليهم بتربيته الخاصة لهم علىٰ الإيمان والكمال.

﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ﴾، (**لا تتبعوا**)؛ أي: لا تقتفوا من دونه، أي: دون الكتاب الذي أُنزل إليكم من ربكم أولياء؛ أي: أشخاصًا أو أناسًا تتولونهم وتتبعونهم وتأخذون عنهم وتتلقون منهم معرضين عن كتاب ربكم، وهذا فيه تحذير للناس من أئمة الضلال ودعاة الباطل الذين يصدون الناس عن كلام الله عَزَّوَجَلَّ وعن وحيه سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، ويوقعونهم في البدع والضلالات والمنكرات والأباطيل، وقد خاف النبي ﷺ علىٰ أمته من هؤلاء، قال: «**وَإِنَّمَا أَخَافُ عَلَىٰ أُمَّتِي الأَئِمَّةَ الْمُضِلِّينَ**»(١)،

---

(١) رواه أبو داود (٤٢٥٤)، والترمذي (٢٢٢٩)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٥٨٢).

فكان يخاف علىٰ أمته عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ منهم، والله جَلَّ وَعَلَا يحذر هنا من ذلك، قال: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ﴾؛ أي: من دون كتاب الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أولياء؛ أي: تتولونهم وتأخذون عنهم وتقتفون آثارهم وتمتثلون آثارهم وتمتثلون أوامرهم معرضين عن كلام الله عَزَّوَجَلَّ، ولقد وُجد من أئمة الباطل ودعاة الضلال من يصرف الناس عن القرآن ويصرفهم عن وحي الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، ويدعوهم إلىٰ الإيمان بعقلياته السقيمة وأفكاره الوضيعة وآرائه البالية، يدعون إلىٰ ذلك ويصدونهم عن كلام الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ؛ فوجب علىٰ كل مسلم أن يحذر من أولياء الشيطان ومن دعاة الباطل، وأن يُقبل علىٰ كلام الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

وقول الله عَزَّوَجَلَّ في تمام هذه الآية: ﴿قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ تنبيه إلىٰ أن من أعمل تذكره وتبصَّر في الأمور وتدبر؛ علم أن الهداية والفلاح والسعادة في اتباع كتاب الله لا في اتباع أولياء الباطل وأئمة الضلال، ولهذا قال: ﴿قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾؛ أي: لو أن تذكركم كان كثيرًا تتبصرون في الأمور وتتدبرون في حقائقها لأدركتم أن العز وفلاح في كتاب الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، فالهداية للتي هي أقوم والرشاد والفلاح إنما هو في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ.

❊ ❊ ❊

[التمسُّك بالكتاب والسنة]

٧٥- عَنْ زَيْدِ بنْ أَرْقَمَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ خَطَبَ فَحَمِدَ اللهَ، وَأَثْنَىٰ عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «أَمَّا بَعْدُ: أَلَا أَيُّهَا النَّاسُ، فَإِنّمَا أَنَا بَشَرٌ يُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَنِي رَسُولُ رَبِّي فَأُجِيبَ، وَأَنَا تَارِكٌ فِيكُمْ ثِقْلَيْنِ أَوَّلُهُمَا: كِتَابُ اللهِ فِيهِ الهُدَىٰ وَالنُّورُ، فَخُذُوا بِكِتَابِ اللهِ وَتَمَسَّكُوا بِهِ!»، فَحَثَّ عَلَىٰ كِتَابِ اللهِ، وَرَغَّبَ فِيهِ، ثُمَّ قَالَ: «وَأَهْلُ بَيْتِي» وَفِي لَفْظٍ: «كِتَابُ اللهِ هُوَ حَبْلُ اللهِ المَتِينُ، مَنِ اتَّبَعَهُ كَانَ عَلَىٰ الهُدَىٰ، وَمَنْ تَرَكَهُ كَانَ عَلَىٰ الضَّلَالَةِ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ[(١)].

ثم أورد رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ هذا الحديث العظيم حديث زيد بن أرقم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في ذكر خطبة رسول الله ﷺ التي خطبها قرب غدير يقال له: «خُم» بين المدينة ومكة، وهي خطبة فيها وصية عظيمة من الرسول ﷺ لأمته، وبدأ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ خطبته بالثناء علىٰ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بما هو أهله جَلَّ وَعَلَا. قال: «**وأثنىٰ عليه**».

ثم قال: «**أما بعد**»، وهذه يأتي بها صلوات الله وسلامه عليه في خطبه بعد حمده لله وثنائه عليه يقول: «**أما بعد**»، ثم يشرع في المقصود، والمراد بهذه الكلمة؛ أي: مهما يكن من شيء بعد، فالأمر كذا وكذا، يبين المقصود بعدها، ولا يُبدأ ببيان المقصود إلا بعد الثناء علىٰ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، يثني علىٰ الله أولًا بما هو أهله حمدًا وثناءً وتعظيمًا لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، ثم يشرع في المقصود، وبين يدي الشروع في المقصود يؤتىٰ بهذه الكلمة: «أما بعد»، تنبيهًا للسامع إلىٰ أن المتكلم شرع في المقصود من الخطاب

---

(١) رواه مسلم (٢٤٠٨).

والمقصود من الكلام.

قال: «**أما بعد، ألا أيها الناس**»، و(**ألا**) أداة استفتاح يُبدأ بها، وكثيرًا ما تأتي في أحاديث النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ للتنبيه وشد الأذهان.

«**ألا أيها الناس، فإنما أنا بشر**»، وهذا من الامتثال لقول الله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠]، وها هو عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يخبر ويفصح عن ذلك، «**أيها الناس، فإنما أنا بشر**»؛ أي: يعتريني ما يعتري البشر، ويصيبني ما يصيب البشر، ومن ذلكم الموت الذي كتبه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ علىٰ الناس، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]، وقال تعالىٰ: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، فالموت كتبه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ علىٰ البشر، ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨]، فهو يخبر عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عن ذلك، قال: «**إنما أنا بشر**».

وهذا يستفاد منه فائدة عظيمة تتعلق بالنبي الكريم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ألا وهي: البعد عن الغلو فيه الذي يقع فيه كثير من الناس من باب إظهار المحبة للنبي ﷺ وإظهار التعظيم له، فيغلو بعضهم في النبي ﷺ فيعطيه من الخصائص والصفات ما لا يليق إلا بالله عَزَّوَجَلَّ، فإذا تأمل المسلم في قوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**إنما أنا بشر**»، فالبشر لا يعطىٰ من خصائص رب البشر وخالق الخلق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وإذا أعطي أحد من البشر شيئًا من ذلك فهو غلو وباطل مهلك لصاحبه، كما قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**إياكم والغلو؛ فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين**»[١]، وقال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله إياها**»[٢]، وقال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**لا تطروني كما أطرت النصارىٰ المسيح عيسىٰ ابن مريم، فإنما أنا عبد الله، فقولوا:**

---

(١) رواه ابن ماجه (٣٠٢٩)، والنسائي (٣٠٥٧)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٦٨٠).

(٢) رواه أحمد في «مسنده» (١٢٥٥١)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٠٩٧).



عبد الله ورسوله»[(١)]، وسمع رجلًا يقول: ما شاء الله وشئت، فقال: «**أَجَعَلْتَنِي وَاللهَ عَدْلاً؟ بَلْ مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ**»[(٢)].

والأحاديث عنه صلوات الله وسلامه عليه في هذا المعنىٰ كثيرة؛ فهو بشر وهو عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عبدٌ لله، والعبد لا يُعبد ولا يعطىٰ شيئًا من خصائص الرب تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

فإذًا؛ قوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**أيها الناس، إنما أنا بشر**»، هذا فيه نفي للغلو وإبعاد عنه وتحذير منه، والنبي ﷺ لا يرضىٰ أن يغلو أحد فيه، ورب العالمين لا يرضىٰ ذلك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولا يشفع للإنسان حبه للنبي ﷺ أن يغلو فيه، أو أن يعطيه من الخصائص ما لا يليق إلا بالله، وإن ظن أنه يؤجر علىٰ ذلك فليعلم أنه يؤزر ولا يؤجر؛ لأن الأجر والثواب إنما يكون علىٰ الطاعات لا علىٰ الغلو في دين الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وإنما يأثم بغلوه وتجاوزه لحد الشريعة، والمحبة وحدها بدون ضبطها بضوابط الشريعة وقيود الكتاب والسنة لا تكفي، بل لا بد من أن تكون هذه المحبة منضبطة بضوابط كتاب الله عَزَّوَجَلَّ وسنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه.

قال: «**يوشك أن يأتيني رسول ربي**»، والمراد بالرسول هنا ملك الموت؛ لأن ملك الموت رسول، والملائكة عمومًا رسل، ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ فاطر: ١]، وكل منهم مرسل بمهمة ووظيفة وعمل، وملك الموت أيضًا رسول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لقبض من أذِن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ له بقبض روحه، ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة: ١١]، فهو وكل بهذه الوظيفة وبهذا العمل قبض الأرواح، كل من دنت منيته وجاء أجله جاء إليه هذا الرسول الذي هو ملك ا لموت لقبض روحه، قال:

---

(١) رواه البخاري (٣٤٤٥).

(٢) رواه أحمد في مسنده (١٨٦٧)، وانظر: «السلسلة الصحيحة» (١/ ١٣٨).

«**يوشك**»، ومعنىٰ (**يوشك**)؛ أي: يقترب قارب أن يأتيني ملك الموت، «يوشك أن يأتيني ملك ربي فأجيب».

قال: «**وأنا تارك فيكم ثقلين**» إذا مت وجاءني رسول ربي، فأنا تارك فيكم ثقلين، وهذه وصية النبي عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لأمته، وقوله عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «ثقلين» تنبيهٌ علىٰ عظم ما أوصىٰ به صلوات الله وسلامه عليه.

قال: «**إني تارك فيكم ثقلين**»، وهذا يذكرنا بالكلمة التي قالها أبو بكر الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ بعد وفاة النبي عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، خطب خطبة أو بيَّن بيانًا للناس قال فيه: «**من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت**»(١)، فالنبي عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بشر، ويعتريه ما يعتري البشر ويصيبه ما يصيب البشر، وقد بلغ رسالة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وافية كاملة، وترك فينا كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ، قال: «**إني تارك فيكم ثقلين؛ أولهما: كتاب الله**».

قال: «**فيه الهدىٰ والنور**»، وهذا هو الشاهد من سياق الحديث للترجمة، قال: «**فيه الهدىٰ**» كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، «**وفيه النور**» كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ﴾ [الشورىٰ: ٥٢].

قال: «**فيه الهدىٰ والنور**»، (**الهدىٰ**)؛ أي: إلىٰ الصراط المستقيم وإلىٰ جنات النعيم، وإلىٰ رضا الرب الكريم، وإلىٰ الفوز بالدرجات العلا، وإلىٰ القيام بالعبادة والطاعة لله عَزَّ وَجَلَّ علىٰ الوجه الذي يرضيه، وإلىٰ أسباب الثبات علىٰ الحق والهدىٰ، و(**النور**)؛ أي: الذي يضيء لكم الطريق وتبصرون به الجادة، وتذهب عنكم ظلمات

(١) رواه البخاري (٣٦٦٨).

الجهل وظلمات الباطل وظلمات الغي وظلمات الضلال، كلها تتبدد وتذهب عنكم بنور القرآن الكريم.

قال: «**فخذوا بكتاب الله**»، يوصي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بعد أن بين مكانة القرآن العلية ومنزلته العظيمة أمر بالأخذ به، «**فخذوا بكتاب الله وتمسكوا به**»، أي: عوِّلوا عليه، واعتمدوا عليه، وارجعوا إليه، وكونوا متمسكين به، ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ﴾ [الأعراف: ١٧٠]؛ أي: يتمسكون به، فكونوا متمسكين بكتاب الله عَزَّوَجَلَّ، معتصمين به، ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران: ١٠٣].

قال: «**فحث علىٰ كتاب الله ورغب فيه**»؛ أي: في وصيته تلك حث عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ علىٰ كتاب الله ورغب فيه، والحث علىٰ كتاب الله عَزَّوَجَلَّ والترغيب فيه يشمل الحث علىٰ سنة النبي الكريم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فمن الوصية بالكتاب الوصية بالسنة، ومن لا يتمسك بسنة النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ليس متمسكًا بالكتاب؛ لأن من تمسك بالكتاب حق التمسك، ففي الكتاب يقول الله تعالىٰ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧]، وفي الكتاب يقول: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩]، والرد إلىٰ الله: الرد إلىٰ الكتاب، والرد إلىٰ الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: الرد إلىٰ سنته، وفي الكتاب يقول: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ [الأحزاب: ٣٤] السنة، فلا يكون مستمسكًا بالكتاب من لا يتمسك بسنة النبي الكريم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

إذًا؛ قوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ هنا: «**خذوا بكتاب الله وتمسكوا به**»، وترغيبه في الكتاب وحثه عليه، هذا يشمل التمسك بالسنة؛ لأن في كتاب الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ الوصية بسنة النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه، ولهذا يأتي في بعض الأحاديث الجمع منه ﷺ في الوصية بين الكتاب والسنة، كقوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**تركت فيكم ما إن**

تمسكتم به لن تضلوا: كتاب الله وسنتي»[(١)]، وقوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كما في حديث جابر إذا خطب الناس يوم الجمعة: «**أما بعد، فإن أصدق الحديث كلام الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة**»[(٢)]، وقوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**إنه من يعش منكم فسيرىٰ اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنتي وسنة الخفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها، وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة**»[(٣)].

فإذاً؛ قول الرسول ﷺ هنا في هذا الحديث: «**وخذوا بكتاب الله وتمسكوا به**»، هذا يشمل السنة ولا بد؛ لأن في القرآن آيات كثيرة جدًّا فيها الوصية بسنة النبي ﷺ واتباع هديه، والأخذ منه، والتعويل علىٰ ما جاء به ﷺ.

ثم قال: «**وأهل بيتي**»؛ أي: أوصيكم بأهل بيتي، وهذه وصية من النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بأهل بيته، وهذا يتناول فيما يتعلق بأهل البيت أن يُعرف قدرهم وتُعرف مكانتهم ومنزلتهم، ويُعرف أيضًا ما أكرمهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ به من الشرف والنسب الرفيع والقرابة للرسول الكريم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ومحبتهم وتوليهم والترضي عنهم والدعاء لهم، إلىٰ غير ذلك من الحقوق العظيمة التي تُحفظ لآل بتي النبي ﷺ.

وهنا ينبغي علىٰ كل مسلم أن يكون في هذا الباب وفي كل باب من أبواب الدين بعيدًا عن مسلكين: مسلك الغلو، ومسلك الجفاء. وخير الأمور أوسطها، لا تفريطها

---

(١) رواه الحاكم في «مستدركه» (٣١٩)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٧٦١).

(٢) رواه مسلم (٨٦٧).

(٣) رواه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٢)، وصحَّحه الألباني في «صحيح التَّرغيب» (٣٧).

ولا إفراطها، ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، فآل بيت النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يُعرف لهم قدرهم، ومكانتهم، يُتولون ويُحبون، ولا يُعادون ويُبغضون، بل ويترضىٰ عنهم، ويترحم عليهم، إلىٰ غير ذلك من المعاني الصحيحة المطلوبة من المسلم، لكن لا يغلو فيهم، وليس من حفظ وصية النبي ﷺ في أهل البيت أن نرفع درجتهم، أو أن نعطيهم من الخصائص ما ليس إلا لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، كأن يدَّعي أحدهم فيهم أنهم يعلمون الغيب، أو أنهم يعلمون ما كان وما يكون، وأنهم يعلمون الآجال والأرزاق، وغير ذلك مما هو من خصائص الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، أو أن يتوجه إليهم والعياذ بالله بالدعاء والعبادة والالتجاء والخضوع والذل، هذه كلها لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فقط، ولهذا جاء عن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رَحِمَهُ ٱللَّهُ ورضي الله عن الصحابة أجمعين، جاء عنه أنه قال: «**أحبونا حب الإسلام**»[(١)]، انتبهوا إلىٰ جمال الكلام، قال: «**أحبونا حب الإسلام، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: ما أحب أن تنزلوني فوق منزلتي التي أنزلني الله إياها**»، ففي قوله: «**أحبونا حب الإسلام**» تنبيه إلىٰ أن الحب الذي ينبغي أن يكون لآل البيت مضبوطًا بحب الإسلام، أما الغلو وإعطاءهم من الخصائص ما لا يليق إلا بالله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لس هذا حب الإسلام، بل هذا حب أنكره النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وحذر منه ونهىٰ عنه.

إذًا؛ قوله: «**وأهل بيتي**»، هذا فيه دعوة إلىٰ الوسطية والاعتدال، من غلا في أهل البيت هل حفظ فيهم وصية النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؟ لا والله، ومن جفا في آل البيت هل حفظ فيهم وصية النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؟ حاشا وكلا، لا يحفظ وصية النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في آل بيته إلا من يكون فيهم متوسطًا، لا غاليًا ولا جافيًا، لا مفرطًا

---

(١) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (٥/ ٢١٤)، وأورده أبو نعيم في «الحلية» (٣/ ١٣٧)، والذهبي في «السير» (٤/ ٣٩٠).

ولا مفرطًا، بل يكون معتدلًا، ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾، ليس من حفظ وصية النبي ﷺ في آل بيته أن يغلىٰ فيهم، ولا أيضًا من حفظ وصية النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في آل بيته أن يعاملوا بالجفاء، فحفظ وصيته عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فيهم بالوسطية والاعتدال في هذا الباب بين الغلو والجفاء والإفراط والتفريط.

«**ثم قال: أهل بيتي**»؛ أي: أوصيكم بأهل بيتي، ولهذا جرت طريقة أهل السنة والجماعة في كتبهم ومؤلفاتهم، ولا سيما كتب العقائد؛ التنبيه علىٰ هذا الأمر وعلىٰ وصية النبي ﷺ بأهل بيته، وأن الواجب علىٰ المسلم أن يحبهم وأن يتولاهم، وأن لا يذكرهم إلا بالجميل والثناء الطيب، وأن لا يقع في أحد منهم، وأن لا ينتقص أحدًا، وأيضًا ألا يغلوا فيهم، فكتب أهل السنة عامرة بذلك ومليئة بالثناء علىٰ أهل البيت، وأيضًا في كتب أهل السنة التحذير من الغلو فيهم، والتحذير من أن يعطوا من الخصائص ما لا يليق إلا بالله.

والتحذير من الغلو كثير في كتب أهل السنة؛ يحذرون من أي غلو حتىٰ الغلو في النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؛ لأن الغلو نهىٰ الله عنه في كتابه، ونهىٰ عنه الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في سنته، فتبعًا للكتاب وتبعًا للسنة، يحذر أهل السنة من الغلو في آل البيت ومن الغلو في النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؛ لأن الغلو ليس من دين الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وليس من شرعه جَلَّ وَعَلَا.

ومن كان واقعًا في الغلو متلطخًا به يسمىٰ تحذير أهل السنة من الغلو في آل البيت انتقاصًا لآل البيت، ويسميه طعنًا في آل البيت، إلىٰ غير ذلك من الأسماء التي تطلق هنا وهناك، وكلها لا قيمة لها، والمسلم الواجب عليه أن يحفظ وصية النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في أهل بيته بالمحبة لهم والمودة والثناء عدم الانتقاص أو الاحتقار أو الازدراء أو غير ذلك من المعاني، وأن يتولاهم وأن يثني عليهم وأن يدعو لهم إلىٰ

ذلك من المعاني الصحيحة التي جاءت في كتاب الله وسنة نبيه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

ونحن- ولله الحمد- تعلمنا كتب هذا المؤلف شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ وكتب غيره من أهل العلم معرفة حق آل بيت النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، بل إننا وجدنا في سيرة هذا المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ وفي كتاباته الشيء العظيم في بيان حق آل بيت النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، بل إن هذا الرجل- أعني شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ- من شدة حبه لآل بيت النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ سمىٰ أولاده كلهم بأسماء آل البيت إلا واحدًا منهم فقط عبد العزيز، وإلا فأولاده كلهم سماهم بأسماء آل البيت: الحسن، والحسين، وعلي، وفاطمة، وإبراهيم، وسماهم بذلك لشدة محبته لآل بيت النبي ﷺ، وكثيرًا ما يأتي في كتبه الثناء عليهم والوصية بهم، ومع ذلك أعداؤه وأعداء السنة في كل وقت وحين، يقولون: لا يحبون آل البيت، لأن حب آل البيت عندهم أن يُعبدوا مع الله والعياذ بالله؟.

ولهذا نحمد الله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه أن هدانا لمحبة آل بيت النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ومحبة النبي ﷺ، وأن عافانا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وهو المعافي وحده أن عافانا من الغلو ونجانا منه، ونسأله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أن يمن علينا يوم القيامة بأن يجمعنا مع النبي ﷺ وأصحابه وآل بيته في جنات النعيم، إنه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ سميع الدعاء، وهو أهل الرجاء، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: «**وفي لفظ: كتاب الله هو حبل الله المتين**»، (**كتاب الله**)؛ أي: القرآن، (**هو حبل الله**)؛ أي: الذي من تمسك به فقد هُدي إلىٰ صراط مستقيم، قال تعالىٰ: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، والحبل هو ما يتمسك به ويتعلق به ويتجود به الإنسان، وإذا كان متينًا فهذا أبلغ، ولهذا قال: «**كتاب الله هو حبل الله المتين**»؛ أي: الذي يوصل من تمسك به إلىٰ سعادة الدنيا والآخرة.

قال: «**كتاب الله هو حبل الله المتين، من اتبعه كان علىٰ الهدىٰ، ومن تركه كان علىٰ الضلالة**»، (**من اتبعه**)؛ أي: اتبع القرآن كان علىٰ الهدىٰ، ومن تركه كان علىٰ الضلالة، وهنا أيضًا فيه تنبيه يتعلق بالوصية بكتاب الله، أن تشمل عناية المسلم بكتاب الله عَزَّوَجَلَّ القراءة والحفظ، والفهم والتدبر، والعمل والاتباع، لا أن ينشغل فقط بحروف القرآن وإقامتها عن فهمه وتدبره، وعن العمل به والقيام به، ولهذا قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هنا: «**من اتبعه**»، واتباع القرآن لا يكون إلا بعد القراءة والفهم، فيقرأ القرآن ويفهمه ثم يتبعه، فالقراءة وحدها لا تكفي، والتدبر وحده لا يكفي، بل لا بد من الاتباع، ولهذا نص عليه صلوات الله وسلامه عليه هنا، والله جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ﴾ [البقرة: ١٢١]، قال أهل العلم: تلاوة القرآن حق تلاوته تكون: بالقراءة والحفظ، والفهم والتدبر، والعمل، والاتباع نفسه تلاوة للقرآن؛ لأن من تلاوة القرآن أن تتبع القرآن، ومن معنىٰ التلاوة في اللغة: الاتباع، كما قال الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾ [الشمس: ٢]؛ أي: تبعها، فمن تلاوة القرآن اتباعه، فليست تلاوة القرآن بإقامة حروفه وتجويد مخارجه فقط، بل ذلك وبالتدبر لكلام الله عَزَّوَجَلَّ وفهمه، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ [محمد: ٢٤]، ﴿أَفَلَمۡ يَدَّبَّرُواْ ٱلۡقَوۡلَ﴾ [المؤمنون: ٦٨]، ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص: ٢٩]، وبالعمل أيضًا بالقرآن واتباع القرآن، وأن يكون القرآن إمامًا للإنسان وقائدًا.

❊ ❊ ❊

٧٦- وَلَهُ فِي حَدِيثِ جَابِرٍ الطَّوِيلِ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ فِي خُطْبَةِ يَوْمِ عَرَفَةَ: «وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا إِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ: كِتَابَ اللهِ، وَأَنْتُمْ تُسْأَلُونَ عَنِّي فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟» قَالُوا: نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَّغْتَ وَأَدَّيْتَ وَنَصَحْتَ، قَالَ بِأُصْبُعِهِ السَّبَّابَةِ يَرْفَعُهَا إِلَىٰ السَّمَاءِ وَيَنْكُتُهَا إِلَىٰ النَّاسِ: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ» ثَلَاثَ مَرَّاتٍ(١).

ثم أورد رَحِمَهُ ٱللَّهُ حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا في ذكر خطبة النبي ﷺ التي خطبها يوم عرفة الذي هو أعظم الأيام وسيد الأيام وأفضل الأيام، كما يقول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**خير الدعاء دعاء يوم عرفة**»(٢)، فيوم عرفة خير الأيام، في ذلك اليوم العظيم يوم عرفة خطب النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ الناس علىٰ صعيد عرفة خطبة عظيمة بليغة، كان منها قوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**وقد تركت فيكم ما لن تضلوا إن اعتصمتم به: كتاب الله**»، هذا فيه الوصية بكتاب الله، له مثل قول الله في القرآن، ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، والاعتصام بالقرآن: هو التمسك به، التمسك بكتاب الله عَزَّوَجَلَّ كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ﴾ [الأعراف: ١٧]؛ أي: يتمسكون به، ويعتصمون به، ويعولون عليه، ويجعلونه حاكمًا وإمامًا.

قال: «**تركت فيكم ما لن تضلوا إن اعتصمتم به**»، وهذا فيه أن من يتمسك بالقرآن لن يضل، قال تعالىٰ: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: ١٢٣]، فالذي يتبع القرآن نفىٰ الله عَزَّوَجَلَّ عنه الضلال ونفىٰ عنه الشقاء، ونفي الضلالة يقتضي ثبوت الهداية، ونفي الشقاء يقتضي

(١) رواه مسلم (١٢١٨).

(٢) رواه الترمذي (٣٥٨٥)، وحسنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٤/ ٧٧).

ثبوت السعادة، فالذي يتمسك بالقرآن يهتدي ويسعد في الدنيا والآخرة، والذي يترك القرآن فإنه يقع في الضلالة ويبوء بالخسران في الدنيا والآخرة.

قال: «**وأنتم تسألون عني**»؛ أي: يسألكم الله، والسؤال ذكره الله في القرآن: ﴿مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [القصص: ٦٥].

«**تسألون عني، فماذا أنتم قائلون؟**»، وهذا فيه التنبيه علىٰ الجانب الآخر، وهو جانب السنة وبلاغ النبي عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لدين الله عَزَّوَجَلَّ.

«**قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت**»، ونلاحظ هذه الكلمات الثلاث، قال: أنتم تسألون عني؛ أي: يسألكم الله عَزَّوَجَلَّ وهو أعلم بكم وبي وبالخلق أجمعين، تُسألون عني فماذا أنتم قائلون؛ أي: إذا سئلتم؟

«**قالوا: نشهد أنك قد بلغت، وأديت، ونصحت**»، (**بلغت**)؛ أي: الرسالة، و(**أديت**)؛ أي: الأمانة، (**ونصحت**)؛ أي: الأمة، فهو عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بلغ الرسالة وأدىٰ الأمانة ونصح الأمة وجاهد في الله حق جهاده حتىٰ أتاه اليقين، وما ترك خيرًا إلا دل أمته عليه، ولا شرًّا إلا حذرها منه، وتركهم علىٰ المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعده إلا هالك.

«**قال بأصبعه السبابة يرفعها إلىٰ السماء وينكتها إلىٰ الناس: اللهم اشهد، ثلاث مرات**»، قال بأصبعه السبابة، أشار بالسبابة يرفعها إلىٰ السماء عندما يقول: «**اللهم**»، يرفع أصبعه: اللهم فاشهد، وينكتها إليهم؛ أي: يخفض أصبعه ويشير بها إليهم، لما قالوا بلغت وأديت ونصحت، قال: «**اللهم فاشهد، اللهم فاشهد، اللهم فاشهد**»، فعل ذلك صلوات الله وسلامه عليه ثلاث مرات، وكان عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يشير بأصبعه إلىٰ العلو عندما قال: «**اللهم فاشهد**»، وهذا من الإيمان بعلو الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، وهذه الإشارة إلىٰ العلو: اللهم فاشهد، أشار بها إلىٰ العلو وأمامه ألوف الناس علىٰ صعيد

عرفة يرونه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وهو يشير هذه الإشارة ثم ينكتها إليهم، لماذا يشير هكذا: «**اللهم فاشهد**»، وهذا من الإيمان بعلو الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ علىٰ خلقه، قال تعالىٰ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلىٰ: ١]، قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ﴿ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ٩]، قال: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠]، قال: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [السجدة: ٢] النزول من أعلىٰ، قال: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]، ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك: ١٦]، إلىٰ غير ذلك من الآيات والدلائل الكثيرة علىٰ علوه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ علىٰ خلقه علوًّا يليق بجلاله وكماله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فكان يشير بأصبعه إلىٰ السماء وينكتها إليهم، ويقول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**اللهم فاشهد، اللهم فاشهد**»؛ أي: اشهد علىٰ كلامهم، وأنني بلغت وأديت ونصحت.

❊ ❊ ❊

[النهيُ عن ترك العمل بكتاب الله تعالى]

٧٧- وعَنْ عَلِيٍّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «أَلَا إِنَّهَا سَتَكُونُ فِتْنَةٌ»، قُلْتُ: مَا المَخْرَجُ مِنْهَا يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «كِتَابُ اللهِ فِيهِ نَبَأُ مَا كَانَ قَبْلَكُمْ، وَخَبَرُ مَا بَعْدَكُمْ، وَحُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ، هُوَ الفَصْلُ لَيْسَ بِالهَزْلِ، مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَّارٍ قَصَمَهُ اللهُ، وَمَنِ ابْتَغَى الهُدَىٰ مِنْ غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللهُ، وَهُوَ حَبْلُ اللهِ المَتِينُ، وَهُوَ الذِّكْرُ الحَكِيمُ، وَهُوَ الصِّرَاطُ المُسْتَقِيمُ، وَهُوَ الَّذِي لَا تَزِيغُ بِهِ الأَهْوَاءُ، وَلَا تَلْتَبِسُ بِهِ الأَلْسِنَةُ، وَلَا تَشْبَعُ مِنْهُ العُلَمَاءُ، وَلَا يَخْلَقُ عَنْ كَثْرَةِ الرَّدِّ، وَلَا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ، هُوَ الَّذِي لَمْ تَنْتَهِ الجِنُّ إِذْ سَمِعَتْهُ حَتَّىٰ قَالُوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ [الجن: ١، ٢] مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أُجِرَ، وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ، وَمَنْ دَعَا إِلَيْهِ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ». رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ: غَرِيبٌ(١).

ثم أورد رَحِمَهُٱللَّهُ هذا الحديث في الوصية بكتاب الله عَزَّوَجَلَّ عن علي بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: «**سمعت رسول الله** ﷺ **يقول: ألا إنها ستكون فتنة. قلت: ما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: كتاب الله...**» إلىٰ آخر الحديث.

وهذا الحديث لم يثبت مرفوعًا إلىٰ النبي ﷺ، ويروىٰ أيضًا موقوفًا علىٰ علي بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وهو من حيث المعاني والألفاظ التي اشتمل عليها معاني عظيمة وكلمات قوية في تعظيم كتاب الله وبيان قدر القرآن ومكانته، وذكر أمورا عظيمة تتعلق بالقرآن، لكنه لم يصح حديثًا مرفوعًا إلىٰ نبينا الكريم عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ.

(١) رواه الترمذي (٢٩٥٦)، وانظر: «السلسلة الضعيفة» (٦٣٩٣).

* قوله: «**ألا إنها ستكون فتنة**» يُغني عن هذا ما جاء في الحديث الذي أشرت إليه حديث العرباض قال: «**إنه من يعش مكم فسيرىٰ اختلافًا كثيرًا**»، وقال في الحديث الآخر: «**وتفترق أمتي علىٰ ثلاث وسبعين فرقة**»[(١)]، فأشار النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إلىٰ وجود الفتن، وأنها ستقع الفتن، جاء عنه هذا المعنىٰ في أحاديث عديدة، وأيضًا جاء عنه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في بيان المخرج عند وقوع الفتن في حديث العرباض، قال: «**إنه من يعش منكم فسيرىٰ اختلافًا كثيرًا**»، فذكر المخرج دون أن يُسال عنه، وهذا من كمال نصحه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، قال: «**إنه من يعش منكم فسيرىٰ اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنتي**»، هذا هو المخرج، «**فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها، وعضوا عليها بالنواجذ**»، وأيضًا في الحديث الآخر قال: «**وستفترق هذه الأمة علىٰ ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة**». قالوا: من هم؟ قال: «**من كان علىٰ مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي**»، هذا هو المخرج أن يكون الإنسان علىٰ مثل ما كان عليه النبي ﷺ وصحابته الكرام.

قال: «**كتاب الله فيه نبأ ما كان قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم**»، وهذه كلها موجودة في القرآن لأنه مشتمل علىٰ أخبار من سبق، فقص الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فيه علىٰ نبيه أخبار الأمم السابقة، وجاءت تفاصيل كثيرة من ذلك في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، وأيضًا: «**فيه خبر ما بعدكم**» أيضًا في القرآن الكريم إخبارات عن أمور آتية وتفاصيل قادمة كثيرة جدًّا، ومن ذلكم: الساعة وأشراطها وقيامها وأهوالها، وغير ذلك، فجاء فيه أخبار، قال: «**وحكم ما بينكم**» أيضًا هذا موجود في القرآن حكم ما بين الناس، وفيه الفصل في القضايا والأحكام.

قال: «**هو الفصل ليس بالهزل**»؛ أي: كلام الله عَزَّوَجَلَّ لا هزل فيه.

---

(١) رواه أبو داود (٤٥٩٦)، والترمذي (٢٦٤٠)، وابن ماجه (٣٩٩١)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٠٣).

«**من تركه من جبار قصمه الله**»، وهذا فيه خطورة ترك القرآن والإعراض عن القرآن، وأن من أعرض عن القرآن قصمه الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وإن كان جبارًا من الجبابرة.

قال: «**ومن ابتغىٰ الهدىٰ من غيره أضله الله**»، (**ومن ابتغىٰ الهدىٰ**)؛ أي: طلب لنفسه الهداية من غير القرآن أضله الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، هذا نظير قوله في الحديث المتقدم: «**هو حبل الله المتين، من اتبعه كان علىٰ الهدىٰ، ومن تركه كان علىٰ الضلالة**».

قال: «**وهو حبل الله المتين**»، وهذا أيضًا مر معنا في الحديث المتقدم.

«**وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا تشبع منه العلماء**»، وكل هذه أوصاف صحيحة لكلام الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

«**ولا يخلق عن كثرة الرد**»؛ أي: عندما يكرر الإنسان القرآن يجد أنه في كل مرة يتذوق حلاوة القرآن، لا يمل من القرآن بكثرة التلاوة، و(**لا يخلَق**) القرآن: لا يصبح القرآن عنده شيء قديم أو شيء خلِق بسبب التكرار وكثرة القراءة، بل في كل مرة يقرأ يقف علىٰ معاني وحِكم وأشياء من حلاوة القرآن ولذته، فهو لا يخلق بكثرة التكرار أو كثرة الرد.

«**ولا تنقضي عجائبه**» في القرآن أمور وعجائب عظيمة تدل علىٰ عظمة المتكلم به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

«**هو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتىٰ قالوا:** ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ [الجن: ١، ٢]» قال: (**الذي لم تنته الجن إذ سمعته**)؛ أي: مجرد أن سمعت القرآن أدركا عظمة القرآن، وآمنوا به مباشرة.

قال: «**من قال به صدق، ومن عمل به أُجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هُدي إلىٰ صراط مستقيم**»، وهذا كله من التمسك بالقرآن، لأن حقيقة التمسك: أن يعمل به المسلم، وأن يجعله حاكمًا، وأن يكون إليه داعيًا، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هُدي إلىٰ صراط مستقيم.

❊ ❊ ❊

٧٨- وَعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «مَا أَحَلَّ اللهُ فِي كِتَابِهِ فَهُوَ حَلَالٌ، وَمَا حَرَّمَ فَهُوَ حَرَامٌ، وَمَا سَكَتَ عَنْهُ فَهُوَ عَافِيَةٌ، فَاقْبَلُوا مِنَ اللهِ عَافِيَتَهُ فَإِنَّ اللهَ لَمْ يَكُنْ لِيَنْسَىٰ شَيْئًا». ثُمَّ تَلَا: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾﴾ [مريم: ٦٤]. رَوَاهُ الْبَزَّارُ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، وَالطَّبَرَانِيُّ[(١)].

ثم أورد رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ هذا الحديث حديث أبي الدرداء مرفوعًا إلىٰ النبي ﷺ أنه قال: «**ما أحل الله في كتابه فهو حلال، وما حرم فهو حرام**»؛ لأن الحلال ما أحله الله، والحرام ما حرمه الله، كما جاء في حديث النعمان بن بشير عن النبي ﷺ أنه قال: «**الحلال بين، والحرام بين**»[(٢)]، الحلال هو ما أحله الله، والحرام ما حرمه الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

قال: «**ما أحل الله في كتابه فهو حلال، وما حرم فهو حرام، وما سكت عنه فهو عافية**»؛ أي: ما سكت عنه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فلم يذكر فيه حلالًا ولا حرامًا فهو عافية، والأصل في الأشياء والمطاعم والملابس ونحوها الإباحة والحل، ﴿أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ [المائدة: ٤]، فما سكت عنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من الأمور التي يحتاج إليها الناس في طعامهم، في شرابهم، في لباسهم، في مساكنهم، إلىٰ غير ذلك، الأصل فيه الحل، وهو عافية من الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، كما جاء في هذا الحديث: «**فاقبلوا من الله عافيته**»[(٣)].

---

(١) رواه البزار في «كشف الأستار» (١٢٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢٢٣١)، والطبراني في «مسند الشاميين» (٣/ ٢٠٩).

(٢) رواه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).

(٣) رواه البزار في «البحر الزخار» (٤٠٨٧)، والحاكم في «مستدركه» (٣٤١٩)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٢٥٦).

قال: «**فإن الله لم يكن لينسىٰ شيئًا**»؛ يعني: لم يترك بيانه نسيانًا، وإنما ترك بيانه عافية، كما أخبر بذلك عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

«**ثم تلا:** ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤]»، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢]، فهو منزه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عن ذلك.

فهذا الحديث من جملة الأحاديث التي فيها الوصية بكتاب الله عَزَّوَجَلَّ أن نُحل حلاله وأن نحرم حرامه، فمن الوصية بالقرآن أن نحل حلال القرآن، وأن نحرم حرام القرآن، وأن نكون متمسكين بالقرآن الكريم.

❊ ❊ ❊

[بيان أن الصِّراط هو الإسلام]

٧٩- وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا، وَعَلَىٰ جَنبَتَيِ الصِّرَاطِ سُورَانِ فِيهِمَا أَبْوَابٌ مُفَتَّحَةٌ، وَعَلَى الأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرْخَاةٌ، وَعِنْدَ رَأْسِ الصِّرَاطِ دَاعٍ يَقُولُ: اسْتَقِيمُوا عَلَىٰ الصِّرَاطِ، وَلَا تَعْوَجُّوا، وَفَوْقَ ذَلِكَ دَاعٍ يَدْعُو كُلَّمَا هَمَّ عَبْدٌ أَنْ يَفْتَحَ شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الأَبْوَابِ قَالَ: وَيْحَكَ لَا تَفْتَحْهُ، فَإِنَّكَ إِنْ تَفْتَحْهُ تَلِجْهُ، ثُمَّ فَسَّرَهُ فأَخْبَرَ: «أَنَّ الصِّرَاطَ هُوَ الإِسْلَامُ، وأَنَّ الأَبْوَابَ المُفَتَّحَةَ مَحَارِمُ اللهِ، وَأَنَّ السُّتُورَ المُرْخَاةَ حُدُودُ اللهِ، وَأَنَّ الدَّاعِيَ عَلَىٰ رَأْسِ الصِّرَاطِ هُوَ القُرْآنُ، وَأَنَّ الدَّاعِيَ مِنْ فَوْقِهِ هُوَ وَاعِظُ اللهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُؤْمِنٍ**». رَوَاهُ رَزِينٌ، وَرَوَاهُ أَحْمَدُ، وَالتِّرْمِذِيُّ عَنِ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ بِنَحْوِهِ[(١)].

هذا الحديث حديث ابن مسعود، وأيضًا كما أشار المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ، رواه الإمام أحمد والترمذي من حديث النواس بن سمعان، حديث عظيم ضرب فيه النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فيما يرويه عن ربه عَزَّوَجَلَّ مثلًا عظيمًا، يبين الإسلام، والأمثال لها شأن عظيم ووقع كبير علىٰ القلوب، ولها فائدة عظيمة في فهم المعاني وإيصال حقائقها وضبطها؛ فإن الأمثال من شأنها أن تجعل الأشياء المعنوية بمثابة الأشياء المحسوسة الملموسة المشاهدة المعاينة.

والقرآن الكريم ضرب الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فيه أمثالًا كثيرة، تبلغ أربعين مثلًا لبيان

---

(١) رواه رزين كما في «مشكاة المصابيح» (١٩١)، والترمذي (٢٨٥٩)، وأحمد في «مسنده» (١٧٦٣٤)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (٢٣٤٨).

التوحيد والإيمان، وكذلك سنة النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ جاء فيها أحاديث كثيرة ضرْب الأمثال، فالأمثال لها شأن عظيم ومكانة عالية في بيان الدين، وينبغي علىٰ المسلم أن يرعىٰ هذه الأمثال انتباهه، والله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]، كان بعض السلف إذا مر علىٰ مثل من أمثال القرآن قال: «**ما مررت بآية في كتاب الله لا أعرفها إلا أحزنني لأني سمعت الله يقول:**﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾»[1]، ولهذا ينبغي أن يستفيد المسلم من هذه الأمثال العظيمة المضروبة في القرآن وفي سنة النبي الكريم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وهذا المثل الذي بين يدينا مثل عظيم مبارك، ضربه الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لبيان حقيقة الإسلام وتوضيحه وبيانه بيانًا وافيًا واضحًا بينًا.

يقول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**ضرب الله مثلًا صراطًا مستقيمًا**»، هذا هو مثل الإسلام، والإسلام مثله مثل الصراط المستقيم، قال الله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وفي دعاء المسلم المتكرر في كل ركعة من كل صلاة في سورة «الفاتحة»: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، ويقول جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الشورىٰ: ٥٢، ٥٣]، فالإسلام صراط مستقيم.

وهنا قوله: «**ضرب الله مثلًا صراطًا مستقيمًا**»؛ يُعنىٰ بالصراط المستقيم

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١١/ ٤٤٠).

الإسلام، كما سيأتي في الحديث، فالإسلام صراط مستقيم، وسمي الإسلام صراطًا مستقيمًا؛ لأن الإسلام وهو وحده الذي يوصل إلىٰ رضا الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ وجنات النعيم والنجاة من النار وعذاب الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ وعقابه بيُسر وسهولة، كما قال عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «**إن الدين يسر**»[1]، ويمتاز هذا الصراط المستقيم بميزات عظيمة، أهمها: سعته وسهولته واستقامته، فهذه صفات ثلاث للصراط المستقيم.

١- فهو واسع، يستوعب كل داخل وكل راغب في الدخول فيه وسلوكه، مهما كثر العدد، فإنه يسع لذلك، ولا يقال يومًا من الأيام: امتلأ الصراط، أو لا مجال لأحد أن يدخل أو يسير فيه، فكل من رغب أن يدخل في هذا الصراط ويسير علىٰ صراط الله المستقيم لينال رضاه في أي وقت وفي أي زمان وفي أي بلد الصراط يسعه، فهو صراط واسع.

٢- والأمر الثاني: هو صراط سهل ليس فيه حزونة وصعوبة وعسر وارتفاع وانخفاض والتواء وانحراف، بل هو سهل مستقيم وسهل، ليس فيه عسر ولا صعوبة، كما قال نبينا عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «**إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه**»[2]، وقال عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «**يسروا ولا تعسروا**»[3].

٣- والأمر الثالث: الاستقامة، فهو صراط مستقيم، والصراط المستقيم هو الذي يوصل إلىٰ المقصود بأقرب طريق، وليس هناك ما يوصل إلىٰ المقصود بأقرب طريق إلا الطريق المستقيم، أما الطرق الملتوية المعوجة المنحرفة، فهي إما أنها لا توصل إلىٰ المقصود، أو توصل إليه بانحراف وبُعد والتواء.

---

(١) رواه البخاري (٣٩).

(٢) رواه البخاري (٣٩).

(٣) رواه البخاري (٦١٢٥)، ومسلم (١٧٣٤).

والإسلام صراط مستقيم يمشي عليه المسلم في هذه الحياة، ويمضي ثابتًا عليه بتثبيت الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، ولهذا كانت حكمة الله عَزَّوَجَلَّ أن ينصب يوم القيامة صراطًا مستقيمًا علىٰ متن جهنم، ثم يُطلب من الخلائق يوم القيامة أن يعبروا من فوق الصراط المنصوب علىٰ متن جهنم، ويكون مرورهم علىٰ الصراط المستقيم علىٰ متن جهم بحسب حظهم من السير علىٰ الصراط المستقيم في الحياة الدنيا، فكلما كان الإنسان أشد محافظة وثباتًا علىٰ صراط الله المستقيم في هذه الحياة الدنيا كان ذلك أنفع له في المرور علىٰ الصراط المستقيم المنصوب علىٰ متن جهنم، وهذا هو معنىٰ قول الله تعالىٰ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٧١، ٧٢]، فسر النبي ﷺ الورد بالعبور علىٰ الصراط المنصوب علىٰ متن جهنم.

ولهذا ينبغي أن يتنبه لهذا الأمر، وهو أمرٌ سيمر عليه الجميع، نار جهنم من تحت الإنسان ويمشي علىٰ هذه النار من فوق صراط جاء وصفه في بعض الروايات بأنه أحدُّ من السيف وأدق من الشعر، ولا يستطيع أن يمر عليه إلا من يسَّر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ له المرور وكتب له ذلك، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي﴾؛ أي: الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾، ولهذا ذكر النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أن الناس يتفاوتون في المرور علىٰ الصراط، منهم من يمر كالبرق، ومنهم من يمر كلمح البصر، ومنهم من يمر كأجاويد الخيل وكركاب الإبل، ومنهم من يمر جريًا، ومن يمر مشيًا، ومنهم من يمر زحفًا، يزحف زحفًا حتىٰ يعبر، ومنهم من- والعياذ بالله- من يكردس في نار جهنم، وعلىٰ جنبتي الصراط كلاليب تخطف الناس بأعمالهم، ليس فقط صراط يُمر عليه، بل هناك كلاليب أيضًا تخطف الناس بأعمالهم، كما جاء الحديث بذلك عن رسول الله ﷺ، ولهذا من الخير للإنسان ما دام علىٰ قيد الحياة

وفي ميدان العمل أن ينتبه لنفسه، وأن يجاهدها علىٰ المحافظة علىٰ هذا الصراط المستقيم والثبات عليه والاستقامة عليه، إلىٰ أن يتوفاه الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وهو عنه راضٍ[(١)].

قال: «**وعلىٰ جنبتي الصراط المستقيم**» جداران بحيث إذا دخل الإنسان في هذا الصراط يجد علىٰ يمينه جدارًا وعلىٰ يسار جدارًا، فطريق مستقيم وعلىٰ يمينك جدار وعلىٰ يسارك جدار، وتمشي في الطريق المستقيم بين الجدارين، «**وفي السورين**»؛ أي: في هذين الجدارين «**أبواب مفتحة**»، بحيث أنت تمشي علىٰ الصراط المستقيم، يمر عليك علىٰ يدك اليمين وعلىٰ يدك الشمال أبواب كثيرة مفتحة، «**وعلىٰ الأبواب المفتحة ستور**»؛ يعني: ستائر مرخاة علىٰ الأبواب، قطع من القماش مرخاة علىٰ الأبواب، فالأبواب ليست مغلقة، وليس لها مفاتيح بحيث يحتاج الإنسان إذا أراد أن يدخل معها أن يبحث عن المفتاح، أو يقف يفتح أو يعالج الباب حتىٰ ينفتح، ليس هناك أبواب وإنما ستور مرخاة، والداخل لا يكلفه الدخول جهدًا ولا وقتًا، والباب الذي ليس عليه إلا ستارة، لا يحتاج منك جهدًا للدخول مثل الباب الذي تُخرج المفتاح وتفتح الباب وتحرك اليد وتدفع الباب ثم تدخل، لأن الباب الذي ليس عليه إلا ستارة إذا أراد الإنسان أن يدخل يدخل كما هو، يدفع الستارة ويدخل كما هو بدون أي مجاهدة أو عنت أو مشقة.

---

(١) في «صحيح مسلم» (٣٠٢) من حديث أبي سعيد الخدري ، وفيه: «ثمَّ يُضرَبُ الجسرُ علىٰ جهنَّم وتحلُّ الشفاعة، ويقولون: اللَّهمَّ سلِّم سلِّم، قيل: يا رسول الله! وما الجسرُ؟ قال: دحضٌ مزلَّة، فيه خطاطيفُ وكلاليبُ وحسك، تكون بنَجد فيها شُويْكةٌ يُقال لها السَّعدان، فيَمُرُّ المؤمنون كطرْف العين، وكالبرق، وكالرِّيح، وكالطير، وكأجاويد الخيل والرِّكاب، فناجٍ مُسلَّمٌ، ومخدوشٌ مرسَل، ومكدوسٌ في نار جهنَّم».

فإذًا؛ الصراط المستقيم علىٰ جنبتيه سوران، وفي السورين أبواب مفتحة، وعلىٰ الأبواب المفتحة ستور مرخاة، هذا مثل عندما تنتبه له يوضح لك أن الإسلام هذا مثله.

والسوران أو الجداران هما حدود الله، كما فسرهما النبي ﷺ بذلك في الحديث: «**والسوران حدود الله**»[1]، وهذا معناه أنك إذا مشيت علىٰ الصراط الذي هو الإسلام فعليك ألا تتعدىٰ حدود الله، كما قال الله في القرآن الكريم: ﴿**تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا**﴾ [البقرة: ٢٢٩]؛ أي: لا تتجاوز حدود الله؛ ولا تمارس أمورًا ليست من الإسلام وتظن أنك بها ماضيًا علىٰ الصراط، مثل من يمارس البدع والأهواء والضلالات ويريد أن يتقرب بها إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، هذا خروج عن حدود الإسلام وعن حد الشريعة وعن ضوابطها.

والأبواب المفتحة التي عليها ستور مرخاة فسرها النبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ بأنها محارم الله؛ أي: الأمور التي حرمها الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وهي الحدود المحرمة، حدود الله التي حرم علىٰ الناس أن يلجوها أو يدخلوها، كما جاء في آية أخرىٰ، قال تعالىٰ: ﴿**تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا**﴾ [البقرة: ١٨٧]؛ لأن (الحدود) هذه الكلمة تطلق في القرآن ويراد بها الإسلام، الأمر الذي شرعه الله عَزَّوَجَلَّ، وتطلق الحدود ويراد بها الحدود التي حرم الله المحرمات، وهذه حدود نهينا أن نقربها، لهذا في آية قال: ﴿**تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا**﴾، وفي آية أخرىٰ قال: ﴿**تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا**﴾، والحدود هنا ليست الحدود التي هناك، قال: ﴿**فَلَا تَعْتَدُوهَا**﴾، وها قال: ﴿**فَلَا تَقْرَبُوهَا**﴾، الذي قال فيها: ﴿**فَلَا تَقْرَبُوهَا**﴾؛ أي: المحرمات وما نهىٰ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عنه.

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (١٧٦٣٤)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٨٨٧).

قال: «**وعلىٰ الأبواب ستور مرخاة**»؛ أي: علىٰ الأبواب التي تدخل الإنسان علىٰ الحرام ستائر مرخاة، بحيث أن الداخل مع هذه الأبواب لا يحتاج إلىٰ وقت.

وهذه الأبواب المفتحة التي عليها ستائر دل حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ القادم عند المصنف الذي قال فيه: «**إن النبي ﷺ خط خطًّا مستقيمًا، وجعل علىٰ جنبتيه خطوطًا، وقال: هذا صراط الله، وهذه سبل، وعلىٰ كل سبيل منها شيطان**»[(١)]، وهذه الرواية تدل علىٰ أن هذه الأبواب إضافة إلىٰ كونها مفتحة هناك علىٰ كل باب شيطان يدعو، ولهذا جاء عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «إن هذا الصراط محتضَر»؛ أي: تحضره الشياطين وينادون هكذا، يقول ابن مسعود: «وينادون يقولون: يا عبد الله، هلم إلىٰ الصراط، هنا الصراط»[(٢)]، هذا لفظه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، «ينادون: هلم إلىٰ الصراط، هنا الصراط»، الشيطان لما يدعو الإنسان إلىٰ الدخول مع هذه الأبواب يناديه للدخول معها مشعرًا له أن دخوله مع هذه الأبواب ليس خروجًا عن الصراط، لا يقول له ادخل من هنا هذا طريق نار جنهم وهذا طريق سخط الله، يدخله فيها ويُشعره أنه لا زال علىٰ الصراط، وأنه لم يخرج عنه.

وليست الأبواب المفتحة بابًا واحدًا أو اثنين أو ثلاثة، بل هي أبواب كثيرة بمعنىٰ أن الإنسان علىٰ طول سيره علىٰ الصراط لا تزال تعرض له هذه الأبواب عن يمينه وشماله، وهذا فيه تنبيه علىٰ أن الإنسان ينبغي أن يكون علىٰ حذر من هذه الأبواب إلىٰ أن يتوفاه الله تعالىٰ، وهو في مجاهدة لنفسه أن لا يدخل مع شيء من هذه الأبواب التي تفضي به إلىٰ الحرام، وتجعله يقتحم الباطل، بل يتقي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ويحذر من هذه الأبواب، والنفس فيها فضول وفيها رغبة في التطلع والنظر إلىٰ ما

---

(١) سيأتي بإذن الله.

(٢) رواه المروزي في «السنة» (٢١)، والآجري في «الشريعة» (١٦).

مُنعت منه وحرِّم عليها، فقد تقول له النفس: «افتح الستارة قليلًا، لا تدخل افتح الستارة قليلًا وانظر ماذا في الداخل»، وإذا طاوع نفسه فتح الستارة قليلًا قالت له نفسه: «النظر من هذا الباب لا يكفي! ادخل خطوة واحدة أو خطوتين حتىٰ تنظر الأمر»، وهكذا الشيطان من جهة، والنفس الأمارة بالسوء من جهة أخرىٰ، ثم يقع من يقع في الدخول فيما حرم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والله المستعان.

وهذا يؤكد أن العبد ينبغي عليه أن يجاهد نفسه علىٰ الثبات علىٰ هذا الصراط، وأن يكون نظرته نظرة بعيدة وعميقة، فينظر إلىٰ نهاية الصراط ولا ينظر للفتن التي تعصف حوله، بل تتعلق همته ونظره بنهاية الصراط، سئل ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن الصراط: فقال: «تركنا محمد ﷺ في أدناه وطرفه في الجنة، وعن يمينه جواد، وعن يساره جواد، وعليها رجال يدعون من مر بهم هلم لك هلم لك فمن أخذ منهم في تلك الطرق انتهت به إلىٰ النار، ومن استقام علىٰ الطريق الأعظم انتهىٰ به إلىٰ الجنة»[(١)]، هذا هو الصراط، طريق تركنا النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في أدناه، ونهايته في الجنة.

قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وعن يمينه جواد، وعن يساره جواد»؛ أي: طرق تخرج الإنسان من هذا الصراط، فالإنسان يكون نظره نظر بعيد عميق، الجنة، رضا الله، النجاة من النار، كلما دعاه داعٍ للدخول مع هذه الأبواب ذكَّر نفسه بالجنة والحرمان منها، والنار والخوف من دخولها، وسخط الله عليه وغضبه منه، فتمنع مثل هذه النظرة والتطلع الرفيع العالي من الدخول من هذه الأبواب الملوثة المضرة ة التي يُحرم الإنسان بدخولها سعادة الدنيا والآخرة ولذة الدنيا والآخرة.

(١) رواه ابن وضاح في «ما جاء في البدع» (ص٧٤).

ثم قال ﷺ: «**وعند رأس الصراط داعٍ يقول: استقيموا علىٰ الصراط ولا تعوجوا**»، فسر النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ هذا الداعي بأنه القرآن، وهذا هو الشاهد لسوق المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ الحديث في هذه الترجمة؛ لأن فيه وصية بالقرآن، وبالعناية به والاهتمام والاستجابة لداعيه، وأنك كلما أعطيت نفسك عناية واهتمامًا بكتاب الله عَزَّوَجَلَّ كان ذلك من أعظم الأمور المعينة لك علىٰ الثبات علىٰ صراط الله المستقيم، ولا يتحقق للإنسان ثبات علىٰ صراط الله المستقيم إلا بالعناية بالقرآن الكريم، كما قال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿**وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ**﴾ [آل عمران: ١٠٣]، فمن اعتصم بحبل الله بكتاب الله تمسك به وعمل به؛ هدي إلىٰ صراط مستقيم.

ثم ذكر عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قال: «**وفوق ذلك داعٍ يدعو**»؛ أي: فوق الصراط في بعض الروايات «من جوف الصراط».

«**داعٍ يدعو كلما همَّ عبد أن يفتح شيئًا من تلك الأبواب**»؛ أي: الأبواب التي علىٰ جنبتي الصراط، «**قال: ويحك! لا تفتحه؛ فإنك إن تفتحه تلجه**»، ذكر عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ داعيًا يدعو من فوق الصراط أو من جوف الصراط، كلما هم العبد أن يفتح شيئًا من هذه الأبواب ليدخل قال لها هذا الداعي: يا عبد الله، لا تفتح الباب، فإنك إن تفتحه تلجه، أي: إذا فتحت الباب فسوف تدخله؛ وهذا فيه تنبيه وهو: أن الإنسان عندما يمر بهذه الأبواب يحتاج إلىٰ مجاهدة لنفسه؛ لأن نفسه تأخذه في الدخول إلىٰ هذه السبل للدخول مع هذه الأبواب تأخذه أخذًا تدريجيًّا، تقول له نفسه ويقول له الشيطان: «افتح الباب فقط، نظرة سريعة وأنت ماشي، لا تقف، انظر نظرة سريعة وامضي»، إذا فتح الستارة ونظر دخل، «**لا تفتح الباب؛ فإنك إن تفتحه تلجه**»؛ لأنه إذا فتح الباب ونظر إلىٰ الحرام ودخل إلىٰ قلبه من خلال النظر، أو من خلال السماع أمور الحرام أصيب بمرض القلب؛ إما مرض الشبهة أو مرض الشهوة،

والشبهة والشهوة منافذها علىٰ الإنسان السمع والبصر، ولهذا قال: «**لا تفتح الباب**»، امض علىٰ سيرك علىٰ صراط الله المستقيم.

ما هو هذا الداعي الذي من فوق الصراط أو من جوف الصراط؟ الذي ينادي في كل مرة يفكر فيها الإنسان أن يفتح الباب، يناديه ويقول له: «**لا تفتح الباب؛ فإنك إن تفتحه تلجه**»؟ قال النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**ذلك واعظ الله في قلب كل مسلم**»، وهذه نعمة من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ جعلها في قلوب أهل الإيمان، جعل في قلبه واعظًا، جعل في قلبه زاجرًا ناهيًا، كلما أراد أن يفتح شيئًا من هذه الأبواب وعظه، وهذه الموعظة يحس بها المسلم المستقيم علىٰ صراط الله المستقيم المحافظ علىٰ طاعة الله وعلىٰ الصلاة وعلىٰ عبادة الله؛ فإذا دعته نفسه للدخول من هذه الأبواب أنكر قلب نفسه، وأحس في قلبه نفرة من هذا وكراهية، وربما شعر في قلبه ألمًا واضطرابًا وعدم ارتياح، وأحس بوخز في قلبه، وأحس بضيق؛ هذا واعظ له، لأنه طريق ليس طريقه ومسلكه، والقلب خُلق لعبادة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ والذل له، فإذا أُدخل في الأهواء اضطرب وتشوش، «**واعظ الله في قلب كل مسلم**»، ولكن كما يقال: «كثرة الإمساس تقلل الإحساس»، فإذا دخل الإنسان وجاءه هذا الواعظ ومضىٰ ولم يبالِ، تعمق وبدأ الواعظ يخف وتعمق وأصبح يتوغل في الحرام ولا يشعر، وهذه خطورة الدخول في المحرمات والتوغل فيها والمضي فيها خطورة شديدة علىٰ الإنسان، ومثل هذا الإحساس المبارك الشعور الطيب الذي جعله الله في قلب المسلم يتبلد شيئًا فشيئًا، حتىٰ ربما ذهب عن الإنسان ولم يبقَ له أي أثر أو وجود، وهذا هو معنىٰ قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]؛ أي: غطىٰ عليها، وفُسر الران بأنه: إذا أذنب الذنب نُكت في قلبه نكتة سوداء، وإذا أذنب الذنب الآخر نكت في قلبه نكتة سودا، حتىٰ يغطىٰ القلب، فلا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا، ويتبلد

تمامًا، نسأل الله عَزَّوَجَلَّ لنا جميعًا العافية والسلامة.

لما ذكر عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ المثل فسره، ولهذا قال: «**ثم فسره، فأخبر أن الصراط المستقيم هو الإسلام، وأن الأبواب المفتحة محارم الله**»؛ أي: الأمور التي حرمها الله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ علىٰ عباده.

وهذا المثل يعينك في هذا الباب علىٰ ضبط نفسك؛ فإذا أمضيت في طريق الاستقامة وطريق الثبات علىٰ الحق ثم دعتك يومًا نفسك لفعل أمر محرم تذكر الصراط، قل الآن إذا دخلت في هذا المحرم معناه أنني فتحت الستارة ودخلت فيما حرم الله عَزَّوَجَلَّ، فأبقىٰ علىٰ صراط الله المستقيم خيرٌ لي، لأفوز برضا الله وبثوابه سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، ولهذا الشهوات تحف الإنسان من جوانبه، «**حُفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات**»[(١)]، فهذه شهوات تأتي علىٰ يمين الإنسان وعن يساره، وإذا دخل فيها أدخلته النار؛ لأن النار محفوفة بالشهوات، فيتقي الإنسان ربه عَزَّوَجَلَّ ويجاهد نفسه.

قال: «**ثم فسره فأخبر أن الصراط المستقيم هو الإسلام، وأن الأبواب المفتحة محارم الله، وأن الستور المرخاة حدود الله، وأن الداعي علىٰ رأس الصراط هو القرآن، وأن الداعي من فوقه هو واعظ الله في قلب كل مؤمن**»، فهذا مثل عظيم مبارك، نسأل الله العظيم رب العرش العظيم بأسمائه الحسنىٰ وصفاته العليا أن ينفعنا به، ولهذا الحديث شرح من أجمل وأبدع ما يكون للحافظ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ سماه: «**شرح حديث مثل الإسلام**»، وهو مطبوع، يُقرأ في جلسة واحدة، لكنه غزير الفائدة، كبير النفع في شرح هذا الحديث، وهذا المثل العظيم المبارك.

---

(١) رواه البخاري (٦٤٨٧)، ومسلم (٢٨٢٢).

وأورد رَحِمَهُ ٱللَّهُ- أعني: (الإمام ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ) في شرحه لهذا الحديث قصة أحد أصحاب النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، والحديث في «**صحيح مسلم**»، وهو عبد الله بن سلام أنه رأىٰ في المنام رؤية عجيبة، وعرضها علىٰ النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وفسرها له، يقول: «بينما أنا نائم إذ أتاني آتٍ وأخذ بيدي، فانطلق بي، فمررنا علىٰ جواد علىٰ شمالنا، فأردت أن آخذ فيها- أي: أسير في تلك الجواد- فقال لي: لا تذهب من هنا، هذه طريق أهل الشمال، وأخذ بي وإذا بطريق منهجة علىٰ يمننا ودخل بي معها، يقول: دخلنا مع هذه الطريق- هذا في المنام يراه- دخلنا مع هذه الطريق وإذا بجبل، فأردت أن أرقىٰ هذا الجبل، فكلما صعدت شيئًا من هذا الجبل سقطت علىٰ أستي- علىٰ قفاي-، وكلما صعدت سقطت ما استطعت أن أصعد، يقول: فأخذ بيدي وإذا بعمود ممتد طرفه في السماء وأسفله في الأرض، وعند أعلاه عروة- العروة هي ما يتمسك به- فقال لي: اصعد، قلت: كيف أصعد؛ يعني: هذا عالي ما أستطيع! قال: فأخذ بيدي وصعد بي حتىٰ وصلنا إلىٰ أعلىٰ العمود، وتمسكت بالعروة التي في أعلىٰ في السماء، يقول: فتمسكت بالعروة، فضرب هذا الذي معه بالعمود، فسقط العمود، وبقي متمسكًا بالعروة، يقول: واستيقظت من النوم، فذهبت إلىٰ النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فذكرت له الرؤيا»، قال: «الطرق التي رأيتها علىٰ شمالك هذه طرق أهل الشمال، والطريق التي سرت عليها علىٰ يمينك هذه طريق أهل الإيمان، والجبل الذي كنت تصعد وكلما صعدت لم تتمكن هذه منازل الشهداء ولن تنالها، والعمود الذي رأيته عمود الإسلام، والعروة التي رأيتها العروة الوثقىٰ، وتمسكك بهذه العروة ثبات لك علىٰ هذا الدين إلىٰ أن يتوفاك الله»[1]، وهذا

---

(١) جاء في «صحيح مسلم» (٢٤٨٤): عَنْ قَيْسِ بْنِ عُبَادٍ، قَالَ: كُنْتُ بِالْمَدِينَةِ فِي نَاسٍ، فِيهِمْ بَعْضُ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، فَجَاءَ رَجُلٌ فِي وَجْهِهِ أَثَرٌ مِنْ خُشُوعٍ، فَقَالَ بَعْضُ الْقَوْمِ: هَذَا رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ،
=

في معنىٰ المثل أو في جوانب منه، وأن الصراط المستقيم يحتاج الإنسان أن يمضي عليه ثابتًا ناظرًا إلىٰ أعلىٰ، ويجاهد نفسه علىٰ التمسك بالعروة الوثقىٰ والاعتصام بحبل الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ المتين، وأن يجاهد نفسه ألا ينحرف لا ذات اليمين ولا ذات الشمال، ولأجل هذا شرع لنا أن نلجأ إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ لجوءًا فُرض علينا سبع عشرة مرة في اليوم أن يهدينا الصراط المستقيم، ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧]، وأهل الصراط المستقيم: هو الذين عرفوا الحق وعملوا به، أما من عرف الحق ولم يعمل به فهو مغضوب عليه، ومن عمل بغير معرفة بالحق فهو ضال، فلا يكون من أهل الصراط المستقيم إلا بمعرفة الحق والعمل به، إذا كان الإنسان علىٰ هذا النهج وعلىٰ هذا المسلك كان من أهل صراط الله المستقيم.

* * *

=

هَذَا رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَصَلَّىٰ رَكْعَتَيْنِ يَتَجَوَّزُ فِيهِمَا، ثُمَّ خَرَجَ فَاتَّبَعْتُهُ، فَدَخَلَ مَنْزِلَهُ، وَدَخَلْتُ، فَتَحَدَّثْنَا، فَلَمَّا اسْتَأْنَسَ قُلْتُ لَهُ: إِنَّكَ لَمَّا دَخَلْتَ قَبْلُ، قَالَ رَجُلٌ كَذَا وَكَذَا، قَالَ: سُبْحَانَ اللهِ مَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَقُولَ مَا لَا يَعْلَمُ، وَسَأُحَدِّثُكَ لِمَ ذَاكَ؟ رَأَيْتُ رُؤْيَا عَلَىٰ عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَصَصْتُهَا عَلَيْهِ، رَأَيْتُنِي فِي رَوْضَةٍ - ذَكَرَ سَعَتَهَا وَعُشْبَهَا وَخُضْرَتَهَا - وَوَسْطَ الرَّوْضَةِ عَمُودٌ مِنْ حَدِيدٍ، أَسْفَلُهُ فِي الْأَرْضِ، وَأَعْلَاهُ فِي السَّمَاءِ، فِي أَعْلَاهُ عُرْوَةٌ، فَقِيلَ لِي: ارْقَهْ، فَقُلْتُ لَهُ: لَا أَسْتَطِيعُ، فَجَاءَنِي مِنْصَفٌ - قَالَ ابْنُ عَوْنٍ: وَالْمِنْصَفُ الْخَادِمُ - فَقَالَ بِثِيَابِي مِنْ خَلْفِي - وَصَفَ أَنَّهُ رَفَعَهُ مِنْ خَلْفِهِ بِيَدِهِ - فَرَقِيتُ حَتَّىٰ كُنْتُ فِي أَعْلَىٰ الْعَمُودِ، فَأَخَذْتُ بِالْعُرْوَةِ، فَقِيلَ لِيَ: اسْتَمْسِكْ. فَلَقَدِ اسْتَيْقَظْتُ وَإِنَّهَا لَفِي يَدِي، فَقَصَصْتُهَا عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «تِلْكَ الرَّوْضَةُ الْإِسْلَامُ، وَذَلِكَ الْعَمُودُ عَمُودُ الْإِسْلَامِ، وَتِلْكَ الْعُرْوَةُ عُرْوَةُ الْوُثْقَىٰ، وَأَنْتَ عَلَىٰ الْإِسْلَامِ حَتَّىٰ تَمُوتَ» قَالَ: وَالرَّجُلُ عَبْدُ اللهِ بْنُ سَلَامٍ.

[خطورة اتباع ما تشابه من الكتاب]

٨٠- وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: تَلَا رَسُولُ اللهِ ﷺ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ فَقَرَأَ إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ قَالَتْ: قَالَ: «فَإِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّىٰ اللهُ فَاحْذَرُوهُمْ». مُتَفَقٌ عَلَيْهِ[١].

المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ عقد ترجمة بعنوان: «باب الوصية بكتاب الله عَزَّوَجَلَّ»، وجمع رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ جملة من الدلائل من كتاب الله عَزَّوَجَلَّ وسنة نبيه ﷺ فيها الوصية بكتاب الله عَزَّوَجَلَّ عناية به ومحافظة عليه وتلاوة له وتدبرًا لآياته وعملًا بها وإيمانًا بمتشابهه وعملًا بمحكمه وقيامًا بأوامره ونواهيه، كما أمر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عباده بذلك، وكما أمر بذلك رسوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ومن جملة ما أورده رَحِمَهُ ٱللَّهُ من الدلائل في هذا الباب حديث أم المؤمنين عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، عن النبي ﷺ: أنه تلا قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧]، وهذه الآية العظيمة المباركة التي تلاها رسول الله ﷺ فيها بيان لحال أهل الإيمان مع كتاب الله عَزَّوَجَلَّ وحال أهل الزيغ والفساد مع كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، وأن حال أهل الإيمان مع كتاب الله هو الإيمان والتسليم واعتقاد أن المحكم والمتشابه كل

---

(١) رواه البخاري (٤٥٤٧)، ومسلم (٢٠٥٣).

ذلك من عند الله، فيؤمنون به ويردون ما تشابه منه إلىٰ المحكم، وأن حال أهل الزيغ ـ والعياذ بالله ـ اتباع المتشابه من كتاب الله عَزَّوَجَلَّ ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله.

وقد بدأ الله جَلَّوَعَلَا هذه الآية الكريمة ببيان أن آيات القرآن الكريم علىٰ نوعين: ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾، فذكر جَلَّوَعَلَا أن آيات القرآن علىٰ قسمين:

١- قسم محكم وصفه تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ بأنه أم الكتاب، وأم الشيء: أصله وأساسه وما عليه المعوَّل منه.

٢- والقسم والثاني: آيات متشابهات، والمراد بالتشابه؛ أي: في المعنىٰ، بحيث يكون معناها ليس ظاهرًا لكل الناس وليس واضحًا لكل أحد، بل لا يكون واضحًا إلا للعلماء الراسخين والأئمة المحققين.

قال: ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾، ووصف تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ المحكم بأنه أم الكتاب، وأم الشيء عرفنا أنه أصله الذي عليه يعوَّل وإليه يُرجع، ولهذا وصفهم بأنهم يعيدون ما تشابه عليهم من آيات الله عَزَّوَجَلَّ إلىٰ المحكم، ويعيدون ما خفي عليهم من الآيات وما اشتبه عليهم من معانيها إلىٰ ما أحكم من آيات الله؛ أي: ما كان واضحًا بينًا ظاهرًا، هذا شأن أهل الإيمان.

والمراد بالإحكام والتشابه هناك الإحكام من حيث ظهور المعنىٰ وبيانه، والتشابه خفاء المعنىٰ وعدم ظهوره، وليس في القرآن آيةٌ تخفىٰ علىٰ كل أحد حتىٰ علىٰ الراسخين، لكن في القرآن آيات متشابهات تخفىٰ معانيها علىٰ كثير من الناس، ولا يعلمها إلا الراسخون، كما قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما تلا هذه الآية: ﴿وَمَا يَعْلَمُ

﴿تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾، قال: «أنا ممن يعلمون تأويله»[(١)]؛ أي: يعلمون تأويله المتشابه، ويقول مجاهد بن جبر رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: «عرضتُ المصحفَ علىٰ ابن عباس ثلاث عَرْضات، من فاتحته إلىٰ خاتمته، أوقِفه عند كل آية منه وأسألُه عنها»[(٢)]، فالراسخون في العلم يعلمون معاني الآيات المتشابهات وهي في حقهم تكون واضحات لا تشابه فيها؛ لأن هذا التشابه تشابهٌ نسبي ليس في حق الناس عمومًا، وإنما في حق كثير منهم، أما الراسخون في العلم فإنهم يعلمون معاني المتشابه ويردُّون ما تشابه من آي القرآن إلىٰ المحكم، قال: ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌۖ﴾.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾؛ أي: قلوبهم، والعياذ بالله، زائغة مريضة دخلتها الأهواء والضلالات والأباطيل، ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾ لماذا؟ ﴿ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦۗ﴾، هذا غرضهم من اتباع المشابه، ﴿ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ﴾؛ أي: الفتنة بين الناس في دينهم وإيمانهم وعقيدتهم، وذلك بصرفهم عن الاعتقاد الصحيح والإيمان الراسخ المستمد من كتاب الله عَزَّوَجَلَّ وشغلهم بالأهواء والضلالات، ﴿وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦۗ﴾؛ أي: تأويل القرآن بحمله علىٰ غير معناه وصرفه إلىٰ غير مدلوله وغير مقصود الرب تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ منه.

﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ بالوقف، وأيضًا: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾؛ أي: والراسخون في العلم يعلمون تأويل المتشابه، والمراد بـ(تأويله)؛ أي: بتفسيره؛ لأن التأويل يطلق ويراد به التفسير، ويطلق ويراد به معرفة مآل الشيء وحقيقته.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٦/ ٢٠٣).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١/ ٩٠).

فإذا كان المراد بالتأويل التفسير فيجوز الوصل؛ لأن الراسخين في العلم يعلمون تفسير ومعاني الآيات المتشابهات، فيجوز الوصل، ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾؛ أي: أن الراسخين في العلم يعلون تفسير المتشابه برده إلىٰ المحكم البين.

ويطلق التأويل في القرآن ويراد به مآل الشيء وحقيقته، وعلىٰ هذا المعنىٰ يلزم الوقف؛ لأن هذا أمر لا يعلمه إلا الله، يلزم الوقف، ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ﴾، ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾.

وقراءة الوصل والوقف بملاحظة معنىٰ الآية ومدلولها يرجع أيضًا إلىٰ فهم معنىٰ المتشابه:

- لأن التشابه قد يراد به التشابه من جهة الحقيقة والكيفية؛ حقائق ما أخبر الله عَزَّوَجَلَّ به من المغيبات وعن نفسه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وأسمائه وصفاته وكيفيات ذلك، فالتشابه هنا ليس تشابهًا نسبيًّا، وإنما هو تشابه مطلق.

- وقد يراد بالتشابه من حيث المعنىٰ، وهو هنا يكون تشابهًا نسبيًّا؛ أي: في حق كثير من الناس، أما الراسخون في العلم فإنهم يعلمون تأويله.

وإذا فُهم من التشابه تشابه المعنىٰ جاز الوصل؛ لأن الراسخين في العلم يعلمون تأويله؛ أي: تفسيره، فالتشابه يراد به من حيث الحقيقة ويراد به من حيث المعنىٰ، فإذا كان المراد به من حيث الحقيقة والكيفية، فحينئذ لا بد من الوقف؛ لأن تأويل المتشابه بمعنىٰ حقيقته وكيفيته لا يعلمه إلا الله، وقد يراد به- أي: بالتشابه- أي: التشابه من حيث المعنىٰ، فإذا كان هذا المراد فيجوز الوصل؛ لأن الراسخين في العلم يعلمون معاني المتشابه، وقد مر معنا قول ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: «أنا من

الراسخين في العلم الذين يعلمون تأويله»[(١)]؛ أي: يعلمون تفسيره.

قال: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ﴾؛ أي: المحكم والمتشابه من آي القرآن الكريم، كل ذلك من عند الله، وإذا آمن المسلم بأن كل ذلك من عند الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فإنه لا يضرب كلام الله عَزَّوَجَلَّ بعضه ببعض؛ لأن كلام الله عَزَّوَجَلَّ ليس فيه اختلاف ولا تناقض، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾ [النساء: ٨٢]، فإذا تشابه علىٰ العبد شيء من معاني الآيات ولم يتضح له معناه فليرده إلىٰ المحكم البين، وإذا أيضًا شُبه عليه في بعض معاني الآيات وأُفهم منها معاني غير صحيحة من قِبل أهل الأهواء والضلال فليرد ما تشابه عليه أو شُبه عليه من الآيات إلىٰ المحكم منها.

وحتىٰ يتضح المقصود أضرب علىٰ ذلك مثالًا في أعظم الأمور وأجلها علىٰ الإطلاق، ألا وهو توحيد الله عَزَّوَجَلَّ الذي خلق الخلق لأجله وأوجدهم سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ لتحقيقه؛ بأن يفرد عَزَّوَجَلَّ بالعبادة بجميع أنواعها، بالصلاة، الصيام، والحج، والنذر، والتوكل، والاستغاثة، والرجاء، والدعاء، وغير ذلك من أنواع العبادة، فكل ذلكم حق لله؛ هذا أمر محكم بيِّن، ودلائله في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ وسنة نبيه ﷺ لا تُحصر إلا بكلفة، كثيرة جدًّا، قال تعالىٰ: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾ [النساء: ٣٦]، وقال تعالىٰ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]، ﴿قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾ [الأنعام: ١٥١]، الآيات في هذا كثيرة جدًّا، ومن العبادة الدعاء، بل قال النبي ﷺ: «**الدعاء هو العبادة**» وتلا قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٢/ ١١).

دَاخِرِينَ ﴾ [غافر: ٦٠][(١)]، فسمىٰ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ الدعاء عبادة، وجاء في القرآن آيات كثيرة تدل علىٰ أن الدعاء عبادة، وأنه حق لله تعالىٰ، ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴾ [الأحقاف: ٥]، قال تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣]، وقال تعالىٰ: ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴾ [الإسراء: ٥٦]، وقال تعالىٰ: ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ [سبأ: ٢٢]، والآيات في هذا المعنىٰ كثيرة، والأحاديث أيضًا في هذا المعنىٰ كثيرة جدًّا، يقول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**من مات وهو يدعو من دون الله ندًّا دخل النار**»[(٢)]، ويقول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا علىٰ أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء كتبه الله لك، ولو اجتمعوا علىٰ أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف**»[(٣)]، هذا أمر محكم بيِّن، أن العبادة حق لله والدعاء من العبادة فلا يجوز أن يصرف الدعاء إلا لله، ولا يُدعىٰ إلا الله، كما أنه لا يركع ويُسجد ويصلىٰ إلا لله، فكذلك الدعاء لا يدعىٰ إلا الله الدعاء عبادة حق الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النمل: ٦٢]، فالدعاء عبادة، والعبادة حق لله عَزَّوَجَلَّ، وصرفها لغيره تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ شرك بالله عَزَّوَجَلَّ، هذا أمر محكم بين واضح مثل وضوح الشمس في رابعة النهار، واضح لا خفاء فيه، لا التباس

---

(١) رواه الترمذي (٣٢٤٧)، وصححه الألباني في «صحيح الأدب المفرد» (١٧٥٧).

(٢) رواه البخاري (٤٤٩٧).

(٣) رواه الترمذي (٢٥١٦)، وصححه الألباني في «صحيح الترمذي» (٢٠٤٣).

ولا اشتباه فيه محكم في كتاب الله وآياته كثيرة جدًّا تراها في القرآن الكريم، وتراها في أحاديث الرسول صلوات الله وسلامه عليه.

فإذا جاءك شخص بآية أو بحديث وأراد من خلال هذه الآية أو الحديث أن ينقلك عن هذا الأصل العظيم البين المحكم، ولو جاءك رجل من أهل الزيغ وأراد أن ينقلك عن هذا الأصل بشيء اشتبه معناه عليك، مثل أن يأتيك ويقرأ عليك قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾ [المائدة: ٣٥]، ويقرأ عليك: ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾ [الإسراء: ٥٧]، وقال لك: الوسيلة أن تجعل واسطة بينك وبين الله من الأولياء ومن الأنبياء ومن الصالحين تدعوهم وتطلب منهم حتىٰ يقربوك من الله! لأن لهم مكانة وجاهًا عند الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، حتىٰ يقربوك من الله عَزَّوَجَلَّ، وحتىٰ يكونوا شفعاء ووسطاء لك عند الله، فأراد أن ينقلك بهذا الأمر عن المحكم البين من آيات كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، فكيف تكون صانعًا في مثل هذه الحال؟ تترك الآيات الواضحات البينات التي يدعوك فيها رب العالمين، ويدعوك رسوله عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ إلىٰ التوجه إليه وحده بالدعاء والسؤال والطلب! يقول عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ لابن عباس: «**إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله**»، ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وهنا ملاحظة مهمة، نبه عليها أهل العلم في معنىٰ الآية جميلة جدًّا، وهي أن سورة «البقرة» فيها آيات عديدة، يقول الله عَزَّوَجَلَّ فيها: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾، ثم يأتي الجواب: ﴿قُلْ﴾ كذا؛ ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ﴾ [البقرة: ٢٢٠]، ويأتي الجواب بـ(قل)، لكن في هذا الموضع قال: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى ﴾، لم يأتِ (قل)، بل قال: ﴿فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ﴾، ما في واسطة والذي يريد أن يدعو الله باب الله عَزَّوَجَلَّ

مفتوح في كل وقت وحين، في أي ساعة من ليل أو نهار، وفي أي بلد كنت في الدنيا وفي أي موضع كنت، ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾، فهل يحتاج من يدعو الله عَزَّوَجَلَّ أن يذهب إلىٰ ضريح يقف عنده حتىٰ يقبل الله ؟! أو يذهب إلىٰ قبة أو إلىٰ مكان أو نحو ذلك، فأينما تكون تمد يديك إلىٰ الله وسله وتلح عليه في الدعاء، «**ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة**»(١).

فإذا أراد أحد أن ينقلك عن هذا الأصل الحكم البين الواضح بشيء من المتشابه، كأن يتلو عليك الآيات المتقدمات، ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ ﴾ [الإسراء: ٥٧]، وأفهمك أن الوسيلة هي الواسطة، وهذا من المفاهيم المغلوطة، الواسطة التي يدعوك أن تتجه إليها لتكون وسيلة لك عند الله، فماذا أنت صانع؟

المنهج السديد أمامك في هذه الآية؛ تتبع المحكم الذي هو أم الكتاب، وما تشابه من آيات الكتاب عليك أعِده إلىٰ المحكم وقل: الدعاء حق لله، ولا يدعىٰ إلا الله، ولا يسأل إلا الله، ولا تمد اليدين يا رب يا رب إلا إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولا يمكن أن أنتقل عن هذا الأمر المحكم، وهذا الذي ذكرتَ لي في هذه الآية إن كنت تفهم معناه فبينه، وإذا كنت لا تفهم معناه قل لا أعرف معناه واسأل عنه أهل العلم، أما أنا لا يمكن أن أنتقل عن هذا المحكم البين الذي هو أبين الأمور وأوضحها.

وهنا يأتي أمر مؤلم جدا، ألا وهو: أن عوام الناس يلبَّس عليهم ولا تُذكر لهم هذه الآيات المحكمات في هذا الباب ويذكر لهم دعاة الباطل أشياء متشابهة وأحاديث موضوعة وقصص مختلقة، فيبعدونهم عن الإخلاص لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ إلىٰ

---

(١) رواه الترمذي (٣٤٧٩)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٤٥).

التعلق بالموتىٰ والمقبورين، حتىٰ إن بعضهم ليبكي ويخضع عند القبر ما لا يبكي ويخشع عندما يصل بين يدي الله تعالىٰ! يقف عند القبر خاشعًا باكيًا ذليلًا متذللًا، وإذا وقف يصلي أمام الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لا يخشع ولا يذل ولا يبكي ولا يدمع! وهذا من المفاهيم المغلوطة التي نشرت بين العوام والجهال.

بل من عجيب أمرهم- أعني: دعاة الباطل- أنهم غرسوا في نفوس كثير من العوام عدم الإصغاء للآيات المحكمات، وأوهموهم أنها لا تُفهم ولا ينبغي لأحد أن يفهمها، وأذكر هنا أيضًا قصة جميلة قرأتها في كتب أحد أهل العلم: أن رجلًا زار شخصًا، فلاحظ عليه أنه يمارس أمورًا شركية من دعاء وتوسل واستغاثة والتجاء إلىٰ غير الله، فأراد أن ينصحه، فقرأ عليه آيات في هذا الباب فيها أن الدعاء حق لله، وفيها التحذير من الشرك والاستغاثة بغير الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، فقال الرجل: «قف، لا تقرأ عليَّ هذه الآيات، هذه الآيات متشابه، وأنا وأنت لا نفهم هذه الآيات»، وهي آيات واضحات فيها النهي عن عبادة غير الله، فسكت هذا الرجل وتوقف عن الكلام، وانتظر ثم دخلت بنت صغيرة لصاحب البيت، فالتفت إلىٰ صاحبه وقال: لماذا لا تتزوج بنتك الصغيرة ؟ فغضب، قال: سبحان الله! كيف تقول هذا الكلام؟! هذا حرام. قال: ومن أين عرفت أنه حرام؟ قال: الله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ ﴾ [النساء: ٢٣]، قال: هذا لا نفهمه نحن، كيف الآيات التي فيها تحريم الشرك والدعوة إلىٰ التوحيد تقول لا نفهمها، وهنا نأتي ونستدل بآية! أراد أن ينبهه إلىٰ أن مثل هذه الأمور مغالطات في أشياء بينة وواضحة.

إن تحذير الله عَزَّوَجَلَّ في القرآن من الشرك ودعوته للتوحيد هذا أوضح الأمور، وكيف لا يكون أوضح المواضيع وأبينها وهو أعظم أمرٍ خُلقنا لأجله وأوجدنا لتحقيقه، ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾

[النحل: ٣٦]، ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، هذه هي الغاية التي خُلقنا لأجلها وأوجدنا لتحقيقها.

فهذا منهج مبارك يستفاد من هذه الآية الكريمة ينبغي أن يكون عليه المسلم؛ أن تُضبط المسائل وتُعرف بأدلتها وأن تُفهم، وإذا عارض معارض أو لبَّس ملبِّس أو شبه مشبه: رُد المتشابه إلىٰ المحكم وترك كلام أهل الزيغ والضلال، ولهذا النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لما تلا هذه الآية الكريمة قال: «**فإذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمىٰ الله، فاحذروهم**»، إذا رأيتم أناسًا يتبعون المتشابه منه؛ أي: من القرآن، ويتركون المحكم فأولئك الذين سمىٰ الله، سماهم بماذا؟ سماهم بالزيغ، قال: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ [آل عمران: ٧]، والزيغ هو الانحراف والجنوح، فاحذر أن تسمع إليهم؛ لأنهم بكلامهم يشبهون عليك ويلبسون عليك ويحرفونك عن الجادة السوية.

والمؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ له كلام عظيم جدًّا في شرح هذه الآية وبيان معناها وتوضيح دلالتها في كتابه «**كشف الشبهات**».

❋ ❋ ❋

٨١- وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: خَطَّ لَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ خَطًّا بِيَدِهِ ثُمَّ قَالَ: «**هَذَا سَبِيلُ اللهِ**»، ثُمَّ خَطَّ خُطُوطًا عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ، وَقَالَ: «**هَذِهِ سُبُلٌ عَلَىٰ رَأْسِ كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ** وَقَرَأَ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام: ١٥٣]». رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالدَّارِمِيُّ والنَّسَائِيُّ[١].

ثم أورد رَحِمَهُٱللَّهُ تعالىٰ هذا الحديث حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: «خَطَّ لَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ خَطًّا بِيَدِهِ ثُمَّ قَالَ: «**هَذَا سَبِيلُ اللهِ**»، ثُمَّ خَطَّ خُطُوطًا عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ، وَقَالَ: «**هَذِهِ سُبُلٌ عَلَىٰ رَأْسِ كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ**»، وهذا من كمال نصح النبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ لأمته وحسن بيانه وجمال تعليمه ﷺ؛ خط بيده الشريفة ﷺ خطًّا مستقيمًا ليس فيه التواء أو انحراف، وخط علىٰ جنبتي هذا الخط المستقيم خطوط تخرج عن هذا الصراط المستقيم ذات اليمين وذات الشمال، وقال عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ عن الخط المستقيم: «**هذا صراط الله المستقيم**»، الذي يجب علىٰ كل مسلم ومسلمة أن يسلكه، وأن يحافظ عليه، قال: «**وهذه سبل**»؛ يعني: طرق، «**وعلىٰ كل سبيل منها شيطان يدعو إليه**»، ومر معنا قول عبد الله بن مسعود: «إن هذا الصراط محتضَر»؛ أي: تحضره الشياطين و«وينادون يقولون: يا عبد الله، هلم إلىٰ الصراط، هنا الصراط»[٢]، يعني السبل التي عن يمين الصراط وعن شماله، علىٰ كل سبيل منها شيطان يريد أن يخرجه من صراط الله المستقيم، ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (٤١٤٢)، والد ارمي (٢٠٨)، والنسائي في «سننه الكبرىٰ» (١١١٧٤)، وحسنه الألباني في «المشكاة» (١٦٦).

(٢) رواه المروزي في «السنة» (٢١)، والآجري في «الشريعة» (١٦).

﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٦، ١٧].

ولاحظ ﴿وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ﴾؛ أي: أكثر الناس في قديم الزمان وحديثه يكونون صرعىٰ للشيطان والعياذ بالله، يخرجهم عن الصراط المستقيم، وفي الحديث الصحيح قال عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**إن الشيطان قاعد لابن آدم بأطرقه**»(١)؛ يعني: في كل طريق يسلكه ابن آدم، فالشيطان قاعد له في طريقه، وله حيل ومكر وخدّع، وله مصائد وفخوخ وطرائق عديدة لإغواء الناس وصدهم عن سبيل الله، وهو يجري من ابن آدم مجرىٰ الدم من العروق، قال بعض السلف: «إن عدوا يراك ولا تراه لشديد الخصومة والمؤنة إلا من عصم الله»(٢)، فإذا تنبه العبد لهذا وعرف أن الشيطان جالسٌ له في الصراط المستقيم يجاهد نفسه، حتىٰ قال مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ من أئمة التابعين أخذًا من هذه الآيات ومن هذه الأحاديث قال كلمة عجيبة: «ما من رفقة تخرج إلىٰ مكة إلا جهز معهم إبليس مثل عدتهم»(٣)، فكل فوج للحج يرسل معهم الشيطان فوجا مثل عددهم، فحتىٰ في الحج يقعد الشيطان للإنسان بهذا الطريق وهو يريد أحد أمرين: إما أن يفعل أمورًا زائدة عن الحد هي من الغلو في الدين، أو يريد منه أن يقلل من أعمال الحج، ولا يبالي بأي الأمرين ظفر إما غلوا أو جفاء، ولا يريد من الناس أن يفعلوا الحج والطاعات والعبادات كما أمرهم الله تعالىٰ، وهذا يتطلب من العبد مجاهدة، ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، واستعانة بالله، ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنۡ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ۝٩٧ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحۡضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٧، ٩٨]، تتعوذ

---

(١) رواه النسائي (٣١٣٤)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٦٥٢).
(٢) «معالم التنزيل» (٣/ ٢٢٣).
(٣) «الدر المنثور» (٤/ ٢٠٢).

بالله عَزَّوَجَلَّ من همزات الشيطان وتتعوذ بالله من حضوره في مكانه ومجالسك، وتسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يبعده عنه، وأن يعيذك منه، وأن يسلمك من شره وكيده.

قال: «**وعلىٰ كل سبيل منها شيطان**»، ما هي مهمته؟ قال: «**يدعو إليه**»، وهنا لو تلاحظ أن السبل التي علىٰ كل سبيل منها شيطان يدعو إليه هل هي نوع واحد أو مسلك واحد أو هي طرائق ومسالك؟ الشيطان قاعد لابن آدم بأطرقه ليخرجه عن الصراط المستقيم، إما إلىٰ فواحش محرمات آثام، أو ترك للفرائض والواجبات أو وقوع في البدع والضلالات والشركيات، فالسبل التي يريد الشيطان أن يخرج الإنسان إليها منوعة، وأحب شيء إلىٰ الشيطان أن يقع فيه الإنسان هو الشرك بالله عَزَّوَجَلَّ، ثم الآثام العظام مثل القتل والزنا ونحو ذلك، وقد جاء في بعض الأحاديث الصحيحة: «**إذا أصبح إبليس بث جنوده فيقول: من أضل اليوم مسلما ألبسته التاج...**»[(١)].

❁ ❁ ❁

---

(١) رواه ابن حبان في «صحيحه» (٦١٨٩)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٢٨٠).

[النهي عن الأخذ من الكتب السابقة]

٨٢- وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ يَكْتُبُونَ مِنَ التَّوْرَاةِ فَذَكَرُوا ذَلِكَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «**إِنَّ أَحْمَقَ الحُمْقِ وَأَضَلَّ الضَّلَالَةِ قَوْمٌ رَغِبُوا عَمَّا جَاءَ بِهِ نَبِيُّهُمْ إِلَيْهِمْ إِلَىٰ نَبِيٍّ غَيْرِ نَبِيِّهِمْ، وَإِلَىٰ أُمَّةٍ غَيْرِ أُمَّتِهِمْ**»، ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ [العنكبوت: ٥١]». رَوَاهُ الإِسْمَاعِيلِيُّ فِي «**مُعْجَمِهِ**» وَابْنُ مَرْدُوَيْهِ(١).

ثم أورد رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ هذا الحديث عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «**كَانَ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ يَكْتُبُونَ مِنَ التَّوْرَاةِ**»؛ يعني: يكتبون بعض ما في التوراة المحرفة التي بأيدي اليهودي.

«فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ»، فأنكر ذلك قال: «**إِنَّ أَحْمَقَ الحُمْقِ وَأَضَلَّ الضَّلَالَةِ قَوْمٌ رَغِبُوا عَمَّا جَاءَ بِهِ نَبِيُّهُمْ إِلَيْهِمْ إِلَىٰ نَبِيٍّ غَيْرِ نَبِيِّهِمْ، وَإِلَىٰ أُمَّةٍ غَيْرِ أُمَّتِهِمْ**»، ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١]»، ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ﴾؛ أي: أن القرآن فيه كفاية لهم وغنية، ولهذا جاء عن بعض السلف أنه قال: «من لم يسعه ما في كتاب الله وسنة النبي ﷺ ومن لم يسعه ما وسِع الصحابة من العمل بالكتاب والعمل بالسنة

---

(١) رواه الإسماعيلي في «معجمه» (٣٨٤)، وضعفه الألباني في «السلسلة الضعيفة» (٥٨٦٥).

فلا وسَّع الله عليه»[(١)]؛ لأن القرآن فيه كفاية، وسنة النبي عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فيهما الكفاية وفيهما الغنية.

فالمصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ ساق هذا الحديث؛ لأنه فيه شاهد للترجمة من حيث الوصية بكتاب الله والتمسك به والإعراض عن غيره، ولهذا أنكر عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ علىٰ من كتبوا التوراة وقال في إنكاره: «**إِنَّ أَحْمَقَ الحُمْقِ وَأَضَلَّ الضَّلَالَةِ قَوْمٌ رَغِبُوا عَمَّا جَاءَ بِهِ نَبِيُّهُمْ إِلَيْهِمْ إِلَىٰ نَبِيٍّ غَيْرِ نَبِيِّهِمْ، وَإِلَىٰ أُمَّةٍ غَيْرِ أُمَّتِهِمْ**»، هذا لو كانت أيضًا للتوراة سالمة من التحريف، كيف وهي أيضًا مشتملة علىٰ تحريفات كبيرة وتغيير وتبديل لكلام الله؟! ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشۡتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا يَكۡسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩].

والحديث في سنده ضعف، لكن المعنىٰ يشهد له في صحته الذي هو التحذير من الاشتغال بقراءة الكتب المنزلة علىٰ من قبلنا المحرفة يشهد له نصوص كثيرة، منها النص الآتي:

❁ ❁ ❁

---

(١) انظر: «الإبانة لابن بطة» (٢/ ٢٧٣)، وانظر قصة محمد بن عبد الرحمن الأدرمي في «البداية والنهاية» (١٠/ ٣٣٠).

٨٣- وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ ثَابِتِ بْنِ الحَارِثِ الأَنْصَارِيِّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: دَخَلَ عُمَرُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ بِكِتَابٍ فِيهِ مَوَاضِعُ مِنَ التَّوْرَاةِ فَقَالَ: هَذِهِ أَصَبْتُهَا مَعَ رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ أَعْرِضُهَا عَلَيْكَ، فَتَغَيَّرَ وَجْهُ رَسُولِ اللهِ ﷺ تَغَيُّرًا شَدِيدًا لَمْ أَرَ مِثْلَهُ قَطُّ، فَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ الحَارِثِ لِعُمَرَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: أَمَا تَرَىٰ وَجْهَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ عُمَرُ: رَضِينَا بِاللهِ رَبًّا وَبِالإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ نبيًّا؛ فَسُرِّيَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَقَالَ: «**لَوْ نَزَلَ مُوسَىٰ فَاتَّبَعْتُمُوهُ وَتَرَكْتُمُونِي لَضَلَلْتُمْ، أَنَا حَظُّكُمْ مِنَ النَّبِيِّينَ، وَأَنْتُمْ حَظِّي مِنَ الأُمَمِ**». رَوَاهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ وَابْنُ سَعْدٍ وَالحَاكِمُ فِي «**الكُنَىٰ**»[(١)].

ثم ختم رَحِمَهُٱللَّهُ تعالىٰ هذه الترجمة بهذا الحديث عن عبد الله بن ثابت بن الحارث الأنصاري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: «دخل عمر- أي: ابن الخطاب- رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ علىٰ النبي ﷺ بكتابٍ فهي مواضع من التوراة»؛ أي: فيه أشياء من التوراة، كتاب كُتب فيه أشياء من التوراة.

فقال: «**هذه أصبتها مع رجل من أهل الكتاب أعرضها عليك، فتغير وجه رسول الله ﷺ تغيرًا شديدًا لم أرَ مثله قط**»، يقول ذلك عبد الله بن ثابت رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

فقال عبد الله بن الحارث لعمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: «**أما ترىٰ وجه رسول الله ﷺ؟**»، ينبه عمر بن الخطاب إلىٰ التغير الذي حصل في وجه رسول الله ﷺ عندما قال له ما قال.

فقال عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «**رضينا بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمدٍ نبيًّا**»، وما أجمل هذه الكلمة في هذا الموضع، بل قال عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «**ذاق طعم الإيمان مَن رضي**

---

(١) رواه عبد الرزاق في «مصنفه» (١٠١٦٤)، والخطيب في الجامع (٢/ ١١٣)، وحسنه الألباني في «الإرواء» (١٥٨٩).

بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد رسولًا»(١).

«**فسُري عن رسول الله ﷺ وقال: لو نزل موسىٰ فاتبعتموه وتركتموني لضللتم**»، وجاء في بعض الروايات: «**لو كان موسىٰ حيًّا ما وسعه إلا اتباعي**»(٢)، عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عندما ينزل في آخر الزمان لا يحكم بالإنجيل، وإنما يحكم بالقرآن الكريم.

قال: «**أنا حظكم من النبيين**»؛ حظ هذه الأمة من النبيين هو محمد عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وهو خير النبيين وأفضلهم وإمامهم صلوات الله وسلامه عليه، وهذه نعمة علىٰ أمة الإسلام أن جعل حظهم من النبيين خير النبيين ﷺ وخاتم النبيين عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

قال: «**أنا حظكم من النبيين، وأنتم حظي من الأمم**»، وهذا فيه تنبيه منه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ جميل؛ وهو إذا كان النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ حظنا من النبيين ونحن حظه من الأمم لماذا يشغل بعض الناس نفسهم بكتب أنزلت علىٰ من قبلنا؟ كالتوراة المحرفة والإنجيل المحرف وغير ذلك؟! فالواجب أن يشغلوا أنفسهم بما فيه الكفاية والغنية، ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥١]، فالكتاب الكريم والسنة النبوية فيهما الكفاية والغنية.

❊ ❊ ❊

---

(١) رواه مسلم (٣٤).

(٢) رواه أحمد في «مسنده» (١٥١٥٦)، وحسنه الألباني في «الإرواء» (١٥٨٩).

بَابُ: حُقُوقِ النَّبِيِّ ﷺ

وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾ [النساء: ٥٩] الآيَةَ، وَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ [النور: ٥٦].

وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر: ٧] الآيَةَ.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: «**باب حقوق النبي ﷺ**»، حقوق النبي ﷺ هي من الإيمان به عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وأنه رسول من رب العالمين بلَّغ البلاغ المبين، أدىٰ الرسالة ونصح الأمة وجاهد في الله حق جهاده حتىٰ أتاه اليقين، وما ترك خيرًا إلا دل الأمة عليه، ولا شرًّا إلا حذرها منه، صلوات الله وسلامه عليه، والإيمان به من الإيمان بالنبيين الذي هو أصل من أصول الإيمان، والإيمان بالنبيين من الإيمان بالله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، وله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ حقوق علىٰ أمته، وواجب الأمة نحوه كثيرة، تتلخص في نقاط عديدة منها:

- **فمن حقوقه** عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: الإيمان به وأنه رسول من رب العالين، بلغ البلاغ المبين، وأدىٰ الرسالة، ونصح الأمة.

- **ومن حقوقه علىٰ أمته** عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: محبته ﷺ محبة مقدمة علىٰ محبة

النفس والوالد والولد والناس أجمعين، كما سيأتي بيان ذلك عند المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ.

- **ومن حقوقه** عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: طاعته، واتباع أمره، والتحاكم إلىٰ ما جاء به عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

- **ومن حقوقه علىٰ أمته:** تعزيره وتوقيره ونصرته والذب عنه وعن سنته ﷺ.

- **ومن حقوقه علىٰ أمته:** أن يجعلوه أسوة لهم وقدوة لهم يأتسون به ويقتدون بهديه، كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿**لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا**﴾ [الأحزاب: ٢١]، فهو الأسوة والقدوة صلوات الله وسلامه عليه، وهو أولىٰ بكل مرء من نفسه، كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿**ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ**﴾ [الأحزاب: ٦]، بمعنىٰ: أنه أحرص علىٰ نفسك منكم وأنصح لنفسك منك وأحق بالطاعة من طاعة نفسك صلوات الله وسلامه عليه.

فحقوق النبي ﷺ علىٰ أمته عظيمة جدًّا، وهنا في باب الحقوق ينبغي أن نعلم- معاشر المؤمنين- أن الحقوق ثلاثة:

١- **حق لله** جَلَّ وَعَلَا: أن لا يشرك فيه معه غيره، لا نبي مرسل، ولا ملك من الملائكة ولا غيرهما، وحق لله جَلَّ وَعَلَا وهو توحيده سبحانه وإخلاص الدين له، والقيام بالعبودية التي خلق الخلق لأجلها وأوجدهم لتحقيقها.

٢- **حق للنبي** عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: نصرته وتعزيره وتوقيره ﷺ.. كما سبق.

٣- **وهناك حقوق مشتركة:** الإيمان، والمحبة، والطاعة...

وقد جمع الله عَزَّ وَجَلَّ بين هذه الأنواع الثلاثة من الحقوق في قوله سبحانه: ﴿**لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ**﴾، هذا الحق المشترك، ﴿**وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ**﴾، هذا حق الرسول عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ﴿**وَتُسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا**﴾ [الفتح: ٩]، هذا حق خاص

لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، فذكر جَلَّ وَعَلَا في هذه الآية الحق المشترك، وذكر حق الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وذكر حق الله جَلَّ وَعَلَا.

ولا يُخلط بين هذه الحقوق، ولا يُجعل شيء مما هو خاص بالله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ للرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فهل يصح من أحد أن يجعل التسبيح للرسول ﷺ؟ فالجواب: طبعا لا؛ وكذلك الدعاء لا يُجعل له، ولا يدعىٰ إلا الله، والذبح لا يجعل له، الذبح لله وحده، ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ [الكوثر: ٢]، والعبادات كلها لا تجعل إلا لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، فلا يُجعل مع الله شريك لا من الأنبياء ولا من الملائكة ولا من غيرهم، فحق الله لله، ولهذا إذا أعطي غير الله شيء من حقوق الله فهذا من الغلو في الدين الذي حذر منه الرسول الكريم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وجاء عنه في الحديث الصحيح أنه قال: «**والله ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله عَزَّوَجَلَّ**»[(١)].

وبعض الناس من باب الحقوق ومن باب المحبة ومن باب الوفاء، يظن أن إعطاء النبي ﷺ شيئًا من حقوق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هذا من محبته ﷺ! وهذا من المفاهيم الخاطئة التي بُلي بها بعض الناس.

والله سبحانه جمع بين طاعته وطاعة رسوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في آيات كثيرة تزيد علىٰ العشرين آية، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ [النساء: ٥٩]، فجمع بين طاعته وطاعة رسوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، والإيمان به والإيمان برسوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ومحبته ومحبة رسوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فمن لم يكن مطيعًا للرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ولا محبًّا له ولا مؤمنًا به، هو في الحقيقة ليس مطيعًا لله ولا محبًّا لله ولا مؤمنًا بالله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ؛ لأنها متلازمة لا ينفك بعضها عن بعض.

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (١٢٥٥١)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٠٩٧).

ولهذا أيضًا جمع الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بين الشهادة له عَزَّوَجَلَّ بالوحدانية مع الشهادة لنبيه ﷺ بالرسالة، قد قال بعض العلماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: إن هذا هو معنىٰ قوله: ﴿وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ﴾ [الشرح: ٤]، فلا يُذكر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بالوحدانية إلا ويُذكر الرسول عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ بالرسالة والطاعة والاتباع له صلوات الله وسلامه عليه: «**أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله**» ﷺ.

فحق النبي ﷺ حق عظيم، وهو أعظم من حق الأم وأعظم من والأب، وأعظم من حق أي إنسان؛ لأن الذي حصل لأهل الإيمان ووصل إليهم من طريقه ﷺ هو النجاة من النار والفوز برضا الله تبارك تعالىٰ؛ ﴿قَدۡ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكُمۡ ذِكۡرٗا ۝١٠ رَّسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ﴾ [الطلاق: ١٠، ١١]، فالله عَزَّوَجَلَّ منَّ علىٰ الأمة ببعثته عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ وأنقذ به سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ من أنقذ من النار، وجعله إمامًا وهاديًا وقائدًا لنيل رضا الله عَزَّوَجَلَّ والفوز بجنته؛ ولهذا قال تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ﴾ [الأحزاب: ٦]، وسيأتي في الحديث: «**لا يؤمن أحدكم حتىٰ أكون أحب إليه من والده وولده وولده والناس أجمعين**»، بل حتىٰ يكون أحب إلىٰ الإنسان من نفسه كما في حديث عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وسيأتي معنا بإذن الله عَزَّوَجَلَّ كذلك.

قال رَحِمَهُٱللَّهُ تعالىٰ: «**باب حقوق النبي ﷺ**»، وهذا فيه التنبيه إلىٰ أن حقوقه عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ كثيرة، ولما عقد رَحِمَهُٱللَّهُ تعالىٰ هذه الترجمة ساق بعض الآيات وبعض الأحاديث التي جمعت أهم وأبرز الحقوق؛ ففي الآيات الأمر بطاعته عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ، وفي الحديث الأول الإيمان به ﷺ، وفي الحديث الثاني والثالث محبته صلوات الله وسلامه عليه، والحديث ا لرابع تعظيم سنته وتحكيم ما جاء به

ﷺ، وهذا كله ذكر لأهم حقوقه ﷺ علىٰ أمته.

بدأ أولًا بالآيات، فأورد قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ [النساء: ٥٩]، في هذه الآية الكريمة الأمر بطاعته عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وهذا حق من حقوقه علىٰ أمته أن يطاع فلا يعصىٰ، تطاع أوامره ويتبع ما جاء به، ولأجل هذا بعثه الله تعالىٰ بالحق والهدىٰ ليطاع، قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ [النساء: ٦٤]، وإلا ما فائدة بعثة الرسول إذا قابله الناس بالعصيان وعدم الطاعة! وكيف يستفيدون مما جاء به الرسول إذا كانوا لا يطيعونهم ولا يمتثلون أوامرهم؟ فأعظم الحقوق التي له علىٰ أمته عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أن يطيعوه وأن ينقادوا لأوامره وأن يحكموه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فيما شجر بينهم، وأن يردوا نزاعهم إليه وإلىٰ ما جاء به ﷺ، قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾، وفي جمع طاعة الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ مع طاعة الله دليلٌ علىٰ أن طاعته عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ من طاعة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ(١).

وفي **الآية الثانية** أورد قول الله عَزَّوَجَلَّ: **﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾** [النور: ٥٦]، والشاهد من الآية: **﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾** ﷺ، وفي الآية أن طاعة الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ من أعظم أسباب نيل رحمة الله، **﴿لَعَلَّكُمۡ**

---

(١) قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فأمر تعالىٰ بطاعته وطاعة رسوله وأعاد الفعل إعلاما بأن طاعة الرسول تجب استقلالا من غير عرض ما أمر به علىٰ الكتاب بل إذا أمر وجبت طاعته مطلقا سواء كان ما أمر به في الكتاب أو لم يكن فيه فإنه أوتي الكتاب ومثله معه ولم يأمر بطاعة أولي الأمر استقلالا بل حذف الفعل وجعل طاعتهم في ضمن طاعة الرسول إيذانا بأنهم إنما يطاعون تبعا لطاعة الرسول فمن أمر منهم بطاعة الرسول وجبت طاعته ومن أمر بخلاف ما جاء به الرسول فلا سمع له ولا طاعة» «إعلام الموقعين» (١/ ٤٨).

تُرۡحَمُونَ﴾، ومن أعظم أسباب نيل رحمة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ والفوز برضاه سبحانه طاعة رسوله عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في كل ما يأمر به.

وفي **الآية الثالثة** أورد قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾ [الحشر: ٧]، وهذه الآية أخذ منها أهل العلم أن كل ما جاءت به السنة الصحيحة الثابتة عن الرسول عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؛ فمن لا يأخذ بالسنة ولا يتمسك بها ليس آخذًا بالقرآن؛ لأن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ قال: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾، ولهذا جاء في «**الصحيحين**»: أن عبد الله بن مسعود قَالَ: «**لَعَنَ اللهُ الْوَاشِمَاتِ وَالْمُوتَشِمَاتِ وَالْمُتَنَمِّصَاتِ وَالْمُتَفَلِّجَاتِ لِلْحُسْنِ الْمُغَيِّرَاتِ خَلْقَ اللهِ**»، فَبَلَغَ ذَلِكَ امْرَأَةً مِنْ بَنِي أَسَدٍ يُقَالُ لَهَا أُمُّ يَعْقُوبَ، فَجَاءَتْ فَقَالَتْ: إِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّكَ لَعَنْتَ كَيْتَ وَكَيْتَ، فَقَالَ: وَمَا لِي لاَ أَلْعَنُ مَنْ لَعَنَ رَسُولُ اللهِ - ﷺ - وَمَنْ هُوَ فِي كِتَابِ اللهِ فَقَالَتْ لَقَدْ قَرَأْتُ مَا بَيْنَ اللَّوْحَيْنِ فَمَا وَجَدْتُ فِيهِ مَا تَقُولُ. قَالَ لَئِنْ كُنْتِ قَرَأْتِيهِ لَقَدْ وَجَدْتِيهِ، أَمَا قَرَأْتِ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾. قَالَتْ: بَلَىٰ. قَالَ: فَإِنَّهُ قَدْ نَهَىٰ عَنْهُ[(١)]، فدل علىٰ أن الأخذ بالسنة هو من الأخذ بالقرآن، ويذكر عن عبيد الله بن هارون الفريابي قال: سمعت محمد بن إدريس الشافعي يقول: «سلوني عما شئتم أخبركم من كتاب الله ومن سنة رسول الله ﷺ» قال: قلت له: يا أبا عبد الله ما تقول في محرم قتل زنبورا؟ قال: فقال: «نعم بسم الله الرحمن الرحيم قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾»[(٢)]، فالسنة الصحيحة الثابتة عن الرسول الكريم عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ الإيمان بها والأخذ بها من الإيمان بالقرآن ومن الأخذ بالقرآن.

---

(١) رواه البخاري (٤٨٨٦)، ومسلم (٢١٢٥).

(٢) «الفقيه والمتفقه» (ص ٢٥٣).

إذًا؛ من حقوقه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ علىٰ أمته أن يؤخذ بسنته، ويُتمسك بها، ويُتبع هديه ﷺ فيما يأمر به وفيما ينهىٰ عنه، وهذا هو تحقيق الإيمان به وتحقيق الشهادة له بالرسالة، ولهذا قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ في بعض كتبه: «**شهادة أن محمدًا رسول الله معناها: طاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، والانتهاء عما نهىٰ عنه وزجر، وألا يعبد الله إلا بما شرع**»(١)، هذا معنىٰ الشهادة.

وإذا تأملنا نجد أن ما جاء به الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لا يخرج عن أمور ثلاثة: الأوامر والنواهي والأخبار، فإذا شُهد له عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بالرسالة فإن هذه الشهادة تقتضي أن تطاع أوامره، وأن تصدق أخباره ما يخبر به، وأن تجتنب نواهيه ﷺ.

*   *   *

---

(١) «ثلاثة الأصول» (ص٧).

[الحثُّ على قتال المشركين حتى يكون الدِّين كلُّه لله]

٨٤- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّىٰ يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَيُؤْمِنُوا بِي، وَبِمَا جِئْتُ بِهِ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا، وَحِسَابُهُمْ عَلَىٰ اللهِ عَزَّوَجَلَّ**». رَوَاهُ مُسْلِمٌ[(١)].

ثم أورد رَحِمَهُٱللَّهُ هذا الحديث في بيان حق من حقوقه عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ؛ ألا وهو الإيمان به ﷺ، قال: «**ويؤمنوا بي**»، وذكر عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ الإيمان به مضمومًا إلىٰ الشهادة لله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ بالوحدانية «**حتىٰ يشهدوا أن لا إله الله ويؤمنوا بي**»، فالإيمان به ﷺ حق من حقوقه علىٰ أمته، الإيمان بأنه رسول من رب العالمين وأنه بلغ البلاغ المبين وأنه نصح الأمة وأدىٰ الرسالة وجاهد في الله حق جهاده حتىٰ أتاه اليقين، وأنه ما ترك خيرًا إلا دل الأمة عليه، ولا شرًّا إلا حذرها منه، وأنه عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ لم يأمر الأمة إلا بالخير، ولم ينهها إلا عن الشر، ولهذا يُذكر أن أعرابيًّا سئل، قيل له: بم عرفت صدق الرسول عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ؟ قال: وجدته ما أمر بشيء فقال العقل: ليته لم يأمر به، ولا نهىٰ عن شيء فقال العقل: ليته لم ينه عنه.

لم يأمر إلا بخير عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ، ولم ينه إلا عن شر، فكان ناصحًا أمينًا ومبلغًا وفيًّا، ﷺ، وهو منة الله جَلَّوَعَلَا العظيمة التي امتن بها علىٰ أمة الإسلام.

فالإيمان به عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ من جملة حقوقه علىٰ أمته، وهو حقٌّ فرض علىٰ الأمة، ولا يكون الرجل مسلمًا مؤمنًا إلا بالإيمان بالرسول عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ، ولهذا

---

(١) رواه مسلم (٢١).

ذكر الإيمان به ﷺ من جملة الأمور التي يُعصم به دم المرء، قال: «**حتىٰ يشهدوا أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، فإذا فعلوا ذلك**»؛ أي: فعلوا التوحيد، الشهادة لله بالوحدانية، والإيمان بالرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم علىٰ الله** عَزَّوَجَلَّ».

* * *

[ما جاء في الخِصال التي فيها حلاوة الإيمان]

٨٥- وَلَهُما عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا للهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ**»(١).

٨٦- **وَلَهُمَا، عَنْهُ مَرْفُوعًا: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ، حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ: وَلَدِهِ، وَوَالِدِهِ، وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»**(٢).

ثم أورد رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في بيان هذا الحق العظيم من حقوق النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ ألا وهو محبته ﷺ، فمحبته حق له علىٰ أمته، وهي من محبة الله جَلَّ وَعَلَا، ولهذا جُمع فيه بين محبة الله ومحبة الرسول ﷺ.

قال: «**ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان**»، (**ثلاث**)؛ أي: ثلاث خصاص، (**من كن فيه**)؛ أي: من اجتمعن فيه، (**وجد بهن**)؛ أي: بهذه الخصال، (**حلاوة الإيمان**)، وهذا فيه أن الإيمان له حلاوة ومذاقًا وطعمًا ولذة لا يبلغها العبد ولا يصل إليها إلا إذا حقق هذه الخصال العظيمة المذكورة في هذا الحديث:

- **الخصلة الأولىٰ**: قال: «**أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما**»؛ بمعنىٰ: أن تكون محبة الله ومحبة الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مقدمة علىٰ محبة ما

---

(١) رواه البخاري (٢١)، ومسلم (٤٣).

(٢) رواه البخاري (١٥)، ومسلم (٤٤).

سواهما من النفس والنفيس والوالد والولد والتجارة والمسكن والعشيرة وغير ذلك، فلا يقدِّم شيئًا أو أحدا علىٰ محبة الله ومحبة رسوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وقد قال الله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: ٢٤]، يسميها العلماء: «المحاب الثمانية»؛ أي: التي جُبل كل إنسان علىٰ محبتها، ومن منا لا يحب ولده أو والده أو تجارته أو بيته أو عشيرته؟! فهذه أمور جُبل الناس علىٰ محبتها؛ ولا حرج في ذلك، لا شيء في أن يحب الإنسان والده أو تجارته أو ماله، هذا أمر ليس فيه شيء لا حرمة فيه ولا ذنب فيه، لكن الخطورة إذا كانت هذه الثمانية أو بعضها محبتها مقدمة عند الإنسان علىٰ محبة الله ومحبة رسوله، ولهذا قال: ﴿أَحَبَّ﴾، و(**أحب**) أفعل تفضيل، ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾؛ أي: انتظروا حتىٰ يأتيكم عذاب الله وسخطه، فإذًا الخصلة الأولىٰ أن يكون الله ورسوله أحب إليه؛ أي: إلىٰ العبد، مما سواهما.

- **الخصلة الثانية**: «**أن يحب المرء لا يحبه إلا لله**»، وهذا أوثق عرىٰ الإيمان، كما جاء في الحديث الآخر، قال: «**أوثق عرىٰ الإيمان الحب في الله والبغض في الله**»[1]، وأيضًا في الحديث الآخر قال: «**من أحب لله، وأبغض لله، وأعطىٰ لله، ومنع لله؛ فقد استكمل الإيمان**»[2]، هنا قال: «**أن يحب المرء لا يحبه إلا لله**»؛ أي: أن يكون في حبه وبغضه تبعًا لحب الله عَزَّوَجَلَّ وبغضه؛ يحب المرء لا يحبه إلا لله، ويبغضه لا

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (١٨٥٢٤)، والطيالسي في «مسنده» (٧٤٧) ، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٤٣٣٨)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٧٢٨).

(٢) رواه أبو داود (٤٦٨٣)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٣٨٠).

يبغضه إلا لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

- **والخصلة الثالثة**: أن يكره الكفر كراهية شديدة، وأن يكره الرجوع إليه بعد أن أنقذه الله سبحانه منه، كما يكره أن يقذف في النار، وكل إنسان يكره أن يقذف في النار، ولا يحب ذلك لنفسه ولا يرضىٰ لنفسه ذلك، وهنا قال: «**أن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه، كما يكره أن يقذف في النار**».

فهذه خصال ثلاثة عظيمة، جمعها النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في هذا الحديث، وأخبر أن حلاوة الإيمان وطعمه لا تنال إلا بتحقيق هذه الخصال.

وفي الحديث الثاني، حديث أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتىٰ أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين**»، وهذا فيه وجوب تقديم محبته عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ علىٰ محبة الولد والوالد والناس أجمعين، بل وأيضًا علىٰ محبة النفس كما جاء في «**صحيح البخاري**» من حديث عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: قلت: يا رسول الله، لأنت أحب إليَّ من كل شيء إلا من نفسي. فقال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**والذي نفسي بيده، لا يؤمن أحدكم حتىٰ أكون أحب إليه من نفسه**». فقال عمر: والله، لأنت الآن أحب إليَّ حتىٰ من نفسي. قال: «الآن يا عمر»[(١)]؛ أي: الآن يتحقق الإيمان ويتم، فيجب أن تقدم محبة النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ علىٰ محبة الوالد والولد وعلىٰ محبة النفس، وأن تكون محبتك له عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أعظم من محبتك لنفسك.

وهنا السؤال ما هي حقيقة محبة النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؟ وما هي أيضًا حقيقة محبة الله؟

والجواب: من السهل علىٰ كل إنسان أن يقول بلسانه إني أحب الله، وأن يقول:

---

(١) رواه البخاري (٦٦٨٢).

إني أحب رسول الله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، من السهل على كل إنسان أن يقول: إن محبة الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في قلبي أعظم من محبتي لنفسي، هذه كلمة سهلة على اللسان، يمكن لكل أحد أن يقولها، فهل العبرة بمجرد القول؟ أم أنه هناك علامات لا بد أن توجد ودلالات لا بد أن تظهر يستبين من خلالها أن المحبة صادقة؟ فاليهود والنصارى يقولون: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾، كلمة سهلة جدًّا أن يقولها الإنسان، لكن هل العبرة بمجرد الدعاوى؟ الدعاوى إذا لم يقم عليها بينة أهلها أدعياء، ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [النساء: ١٢٣]، وكما قال الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي، ولكن الإيمان ما وقر في القلب وصدَّقته الأعمال»[(١)].

ولهذا يجب أن يعلم المسلم أن محبة النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لها علامات إذا ظهرت ووجدت في العبد دلت على صدق محبته للنبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وإذا انتفت فهذا دليل على أن محبته للنبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مجرد دعوى يدَّعيها، هناك علامات عظيمة إذا وجدت في العبد، فهي دليل على صدق محبته للنبي الكريم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ:

- **العلامة الأولى**: اتباعه ﷺ وامتثال أمره ولزوم سنته ﷺ، وهذه علامة ذكرها الله في القرآن، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١]، فذكر جَلَّ وَعَلَا علامة محبته اتباع رسوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ولهذا يسمي بعض العلماء هذه الآية «آية المحنة» أو «آية الامتحان»، أي: من ادعى محبة الله ومحبة رسوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فليمتحن نفسه على ضوء هذه الآية، هل هو متبع أو غير متبع؟ فإن كان متبعًا فهذا علامة صدق

(١) «اقتضاء العلم العمل» (٥٦).

المحبة، وإن كان غير متبع فهذا علامة عدمها؛ لأن صدق المحبة يقود الإنسان إلىٰ الاتباع.

تعصي الإله وأنت تزعم حبه ... هذا لعمري في القياس شنيع

لو كان حبك صادقًا لأطعته ... إن المحب لمن أحب مطيع

فالذي يكون صادقا في محبته لله ومحبة رسوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يطيع الله ويطيع رسوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النور: ٥٦]، يطيع الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ويمتثل أمره، ولهذا أورد ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ في تفسيره لهذه الآية عن أحد السلف أنه قال: «ليس الشأن أن تُحِب، لكن الشأن أن تُحَب»[(١)]، ليس الشأن أن تحِب؛ أي: أن تدعي أنك تحب الله وتحب رسوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ولكن الشأن أن تحَب؛ أي: أن يحبك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والله جَلَّ وَعَلَا لا يحبك بمجرد الدعوىٰ، بل لابد أن تقيم علىٰ دعواك بينة، وأن يظهر لدعواك برهان فتنال بذلك محبة الله، ولهذا أيضًا قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «هذه الآية الكريمة حاكمة علىٰ كل من ادعىٰ محبة الله، وليس هو علىٰ الطريقة المحمدية فإنه كاذب في دعواه في نفس الأمر، حتىٰ يتبع الشرع المحمدي والدين النبوي في جميع أقواله وأحواله»[(٢)]، وأورده عن الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ أنه قال: «زعم قوم أنهم يحبون الله حبًّا، فابتلاهم الله بهذه الآية: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١]».

- **العلامة الثانية**: الإكثار من ذكره عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وهذا متحقق للمسلم بذكر سنته وأحاديثه وهديه والإكثار من الصلاة والسلام عليه ﷺ، وأيضًا محبة لقياه

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٢/ ٣٢).

(٢) «تفسير القرآن العظيم» (٢/ ٣٢).

والاجتماع به في جنات النعيم يوم القيامة، فهذه من العلامات، ولهذا جاء في الحديث الصحيح عنه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قال: «**من أشد أمتي لي ناس يكونون بعدي، يود أحدهم لو رآني بأهله وماله**»(١)، فمحبة رؤياه ولقياه والاجتماع به في جنات النعيم، هذا من محبته، أما لقياه ومشاهدته في الدنيا هذا أمر انتهىٰ ولا مجال إلىٰ حصوله إلا في المنام، قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**ومن رآني في المنام فقد رآني؛ فإن الشيطان لا يتمثل في صورتي**»(٢)، أما في اليقظة غير حاصل.

مع أن بعض أهل الخرافة وأهل الدجل يدعون أنه يحضر عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ مجالسهم ويجتمعون به، وإذا كان فعلًا يحضر مجالسهم شخص يرونه بأعينهم ويشاهدونه، فإن الذي حضر مجالسهم شيطان، النبي ﷺ توفاه الله جَلَّ وَعَلَا ولا أحد من الناس بعد موته ﷺ يراه ويجتمع به يقظة، أما الرؤية المنامية فممكنة، أما يقظة فلا، وأحيانًا بعض الناس يأتيه شيء من الخلط ووساوس الشيطان ويدعي أنه رأىٰ الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ حقيقة، وهذه تأتي لبعض الناس.

وأذكر أن أحدهم قال لي مرة: إنني رأيت الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فقلت له: في المنام؟ قال: لا، حقيقة، ولك رسالة منه أبلغها لك؟ قلت: لا حاجة لي بها، لأن هذا الذي التقيت به شيطان، ورسالة الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ موجودة ما ضاعت، حتىٰ يُحتاج إلىٰ مثل هؤلاء يأتون بها ويبلغونها؟!

فهذا من الدجل ومن الضلال الذي ينطلي علىٰ السفهاء وعلىٰ العوام وعلىٰ الجهال، وينخدعون بذلك، ومن هنا تدخل البدع والضلالات، فيقول أحدهم: «**أنا رأيت الرسول** عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ **يقظة وقال لي: افعل كذا وأمر الناس بكذا**»، وتنتشر

---

(١) رواه مسلم (٢٨٣٢).

(٢) رواه البخاري (١١٠)، ومسلم (٢٢٦٦).

البدع، ثم أيضًا أتباعه يقولون له: «رضي الله عنك»؛ لأنه صار صحابيًّا رأىٰ النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، والصحبة انتهت بموته ﷺ.

أحد رواة الحديث من التابعين قيس بن أبي حازم رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان حيًّا في زمن النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وجاء إلىٰ المدينة من أجل أن يلتقي بالنبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ويتشرف برؤيته وسماع حديثه، لكن توفي النبي ﷺ قبل أن يلقاه، قالوا في ترجمته: «قد كاد أن يكون صحابيًّا»(١)؛ لأنه بقي علىٰ وصوله إلىٰ النبي ﷺ شيء قليل جدًّا.

- **العلامة الثالثة**: من علامات محبته عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: العناية بالقرآن؛ لأنه كتاب النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وهو كتاب الهداية والفلاح، ولهذا جاء عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «**من أحب أن يعلم أنه يحب الله ورسوله فلينظر؛ فإن كان يحب القرآن فهو يحب الله ورسوله** ﷺ »(٢)، فيعتني المسلم بالقرآن بهذا الكتاب العظيم الذي بُعث به رسول الله ﷺ، قراءة وتدبرًا وعناية به وعملًا به، ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ﴾ [البقرة: ١٢١].

- **العلامة الرابعة**: من علامات محبة النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه: نصرته ﷺ وتعزيره وتوقيره، وقد مر معنا الآية، قال تعالىٰ: ﴿لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُۚ وَتُسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾ [الفتح: ٩]، وتعزيره: نصرته، وتوقيره: احترامه ومعرفة قدره عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فهذه من جملة حقوقه.

- **العلامة الخامسة**: الانتصار له ولسنته عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وقد قال ﷺ: «**من رأىٰ منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك**

---

(١) «ميزان الاعتدال» (٥/ ٤٧٦)، و«سير أعلام النبلاء» (١١/ ٥٣).

(٢) رواه الطبراني في «معجمه الكبير» (٨٦٥٧).

أضعف الإيمان»[(١)]، فمن جملة حقوق النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ علىٰ الأمة أن يُنصر وأن تنصر سنته عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وأن يذب ويدافع عنه، وعن سنته ﷺ، هذا من جملة علامة محبته صلوات الله وسلامه عليه.

ـ **العلامة السادسة**: من علامات محبته ﷺ: البعد عن البدع التي حذر منها ونهىٰ الأمة عنها في أحاديث كثيرة جدًّا، قال: «**من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد**»[(٢)]، وفي رواية: «**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد**»[(٣)]، وقال: «**عليكم بسنتي وسنة الخفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها، وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة**»[(٤)]، وقال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدىٰ هدىٰ محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة**»[(٥)]، فمن محبته عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ البعد عن البدع ومحدثات الأمور التي نهىٰ الله عنها، صلوات الله وسلامه عليه، فهذا من جملة علامات محبته عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

– **العلامة السابعة**: ومن علامات محبته عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: عدم الغلو فيه ﷺ، وقد نهىٰ عن ذلك عمومًا وعن الغلو فيه علىٰ وجه الخصوص، وجاء عنه في هذا المعنىٰ في أحاديث كثيرة جدًّا، قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فِي**

---

(١) رواه مسلم (٤٩).

(٢) رواه ومسلم (١٧١٨).

(٣) رواه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨).

(٤) رواه أبو داود (٤٦٠٧) ، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٢)، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٤٠).

(٥) رواه مسلم (٨٦٧).

الدِّينِ فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ الْغُلُوُّ فِي الدِّينِ»[(١)]، وقال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**لاَ تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولُوا عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ**»[(٢)].

وقال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**وَاللهِ مَا أُحِبُّ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَنْزِلَتِي الَّتِي أَنْزَلَنِي اللهُ عَزَّوَجَلَّ**»[(٣)]، و«**قَالَتْ جَارِيَةٌ: وَفِينَا نَبِيٌّ يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ** ﷺ: «**لاَ تَقُولِي هَكَذَا، وَقُولِي مَا كُنْتِ تَقُولِينَ**»[(٤)]، لأن الله يقول: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥]، سمع رجلًا يقول: «**ما شاء الله وشئت**»، فقال: «**أَجَعَلْتَنِي وَاللهَ عِدْلاً بَلْ مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ**»[(٥)].

ورُوِي عَنِ الأَسْوَدِ بْنِ سَرِيعٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أُتِيَ بِأَسِيرٍ فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَتُوبُ إِلَيْكَ وَلاَ أَتُوبُ إِلَىٰ مُحَمَّدٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**عَرَفَ الْحَقَّ لأَهْلِهِ**»[(٦)]، لأن التوبة لله، والأحاديث عنه في هذا المعنىٰ كثيرة صلوات الله وسلامه عليه، فمن محبته عدم الغلو فيه ﷺ، لا يجوز لنا أن نرفعه فوق منزلته بزعم أننا نريد أن نظهر محبته، ليس هذا من علامات المحبة، ولهذا بعض الناس يدخل عليهم الداخل من باب المحبة فيغلو في النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ويأتي بأمور في حقه لا تليق إلا بالله؛ أحدهم يقول في أبيات له بمدح فيها الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يقول:

---

(١) رواه ابن ماجه (٣٠٢٩)، والنسائي (٣٠٥٧)، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٢٤٥٥).

(٢) رواه البخاري (٣٤٤٥).

(٣) رواه أحمد في «مسنده» (١٢٥٥١)، وصحَّحه الألباني في «السِّلسلة الصَّحيحة» (١٠٩٧).

(٤) رواه البخاري (٤٠٠١).

(٥) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٧٨٣)، والنسائي في الكبرىٰ (١٠٨٢٤)، وأحمد (١/ ٢٤١)، والبيهقي (٣/ ٢١٧)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٣٩).

(٦) رواه أحمد في «مسنده» (١٥٥٨٧)، والحاكم في «مستدركه» (٧٦٥٤)، والطَّبراني في «المعجم الكبير» (٨٣٩)، وضعَّفه الألباني في «السِّلسلة الضَّعيفة» (٣٨٦٢).

يا أكرم الخلق مالي من ألوذ به   سواك عند حلول الحادث العمم
وأن من جودك الدنيا وضرتها   وإن من علومك علم اللوح والقلم

أيصح هذا يا إخوان؟! لو نزعنا من البيت أوله وقلنا نناجي الله:

يا خالق الخلق ما لي من ألوذ به   سواك عند حلول الحادث العمم
وأن من جودك الدنيا وضرتها   وإن من علومك اللوح والقلم

هذا كلام جميل وتوحيد، «يا خالق الخلق»، نناجي الله ونؤمِّن علىٰ ذلك:

يا خالق الخلق ما لي من ألوذ به   سواك عند حلول الحادث العمم
وأن من جودك الدنيا وضرتها   وإن من علومك اللوح والقلم

فنحبه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، لكن خصائص الله لا نعطيها له، خصائص الله لله، ما ونرضىٰ ذلك، ولا نرضىٰ بما لا يرضاه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، هذا أمر يجب أن يتبينه المسلم، فكيف يقول القائل: «يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به سواك»! الملاذ هو الله، والمعاذ هو الله، والملجأ هو الله، الله يقول: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ [الذاريات: ٥٠]، ويقول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في كل مرة إذا أوىٰ إلىٰ فراشه: «**لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك**»[(١)].

وكيف يقول: «**وإن من جودك الدنيا وضرتها**»، الدنيا والآخرة من جوده ﷺ؟! إنما هي من جود الجواد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هو من جود الله ومنة من منن الله علىٰ عباده، فكيف يقال في حقه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إن من جودك الدنيا وضرتها؟!

وكيف يقال في حقه: «إن من علومك- أي: بعض علومك- علم اللوح

---

(١) رواه البخاري (٢٤٧)، ومسلم (٢٧١٠).

والقلم»! مع أنه لما سمع الأنصارية تقول: «وفينا رسول الله يعلم ما في غد»، وقال: «لا يعلم ما في غدٍ إلا الله» كما سبق.

فكيف لو سمع ﷺ هذا القائل يقول: «وإن من علومك علم اللوح والقلم».

فالشاهد: أنه يجب علينا أن نتقي الله عَزَّوَجَلَّ، وأن نعتدل، وأن لا نغالي في ديننا، وأن نتوسط؛ ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ ﴾ [البقرة: ١٤٣].

العلامة الثامنة: محبة من أحب، وبغض من أبغض، وبغض ما أبغض، أي: من الأشخاص، ومحبة ما أحبه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ من الخصال والخلال والأعمال، فمن محبة النبي ﷺ أن يكون كذلك، «**لا يؤمن أحدكم حتىٰ يكون هواه تبعًا لما جئت به**»[(١)]، وجاء عنه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**من أحب عليًّا فقد أحبني**»[(٢)]، «**الأنصار لا يحبهم إلا مؤمن، ولا يبغضهم إلا منافق**»[(٣)]، فمحبة من أحب وبغض من أبغض هذا أيضًا من علامات محبة النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

هذه علامات عظيمة لصدق المحبة للرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه، ونحن بشر، وفينا ضعف وقصور، وفينا خلل وتقصير، ولهذا نلجأ إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ الذي خلقنا وأوجدنا ومنَّ علينا بالصحة والعافية، والعقل، فنسأله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بأسمائه الحسنىٰ وصفاته العليا أن يجعلنا من أحباء الرسول حقًّا وصدقًا، ومن أتباعه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وأن يجمعنا به في جنات النعيم، وأن يعيذنا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ من البدع

---

(١) رواه البغوي في «شرح السنة» (١٠٤)، وصححه النووي في «الأربعين» (ص٥١)، وضعفه الألباني في «المشكاة» (١٦٧).

(٢) رواه الحاكم في «مستدركه» (٤٦٤٨)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٩٦٣).

(٣) رواه البخاري (٣٧٨٣)، ومسلم (٧٥).

والأهواء، وأن يعيذنا من الغلو في الرسول الكريم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وأن يحيينا على سنته، وأن يميتنا على سنته، وأن يجمعنا به في جنات النعيم، إنه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ سميع الدعاء، وهو أهل الرجاء، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

❊ ❊ ❊

[الردُّ على مَنِ اكتفى بالقرآن دون السُّنة]

٨٧- وَعَنِ المِقْدَامِ بْنِ مَعْدِ يكَرِبَ الكِنْدِيِّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**يُوشِكُ الرَّجُلُ مُتَّكِئًا عَلَىٰ أَرِيكَتِهِ يُحَدَّثُ بِحَدِيثٍ مِنْ حَدِيثِي، فَيَقُولُ: بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ كِتَابُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فَمَا وَجَدْنَا فِيهِ مِنْ حَلَالٍ اسْتَحْلَلْنَاهُ، وَمَا وَجَدْنَا فِيهِ مِنْ حَرَامٍ حَرَّمْنَاهُ، أَلَّا وَإِنَّ مَا حَرَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِثْلُ مَا حَرَّمَ اللهُ**». رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَه(١).

ثم ختم هذه الترجمة بهذا الحديث العظيم في الدلالة، علىٰ أن من محبته عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ اتباع سنته، والأخذ بما جاء به عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ، وأن اتباع السنة هو من اتباع للقرآن الكريم.

وساق رَحِمَهُٱللَّهُ هذا الحديث، حديث المقدام بن معديكرب الكندي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، أن رسول الله ﷺ قال: «**يوشك الرجل متكئًا علىٰ أريكته**»، وهذا علَم من علامات النبوة، يخبر عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ عن شيء سيكون فيما بعد، وقد وُجد هذا الذي حذر منه عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ ونهىٰ عنه في هذا الحديث وجد قال: (**يوشك الرجل متكئًا علىٰ أريكته**»، وجاء في بعض الروايات: «**يوشك رجل شبعان علىٰ أريكته**»(٢)، وقوله: «شبعان»؛ أي: همه الطعام وملء البطن، وليس له اشتغال بالعلم والذهاب إلىٰ العلماء وطلب العلم وتحصيله والتفقه في الدين، فهذا ليس من اهتماماته ولا من الأمور التي يعتني بها، ثم مع هذا كله «**متكئًا علىٰ أريكته**»: وهذا دليل أيضًا علىٰ أنه

---

(١) رواه الترمذي (٢٦٦٤)، وابن ماجه (١٢)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٦٤٣).

(٢) رواه أبو داود (٤٦٠٤)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٦٤٣).

من أهل الترف.

قال: «**يحدَّث بحديث من حديثي**»؛ أي: يُذكر له حديث من الأحاديث الصحيحة الثابتة عن رسول الله ﷺ، «**فَيَقُولُ: بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ كِتَابُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فَمَا وَجَدْنَا فِيهِ مِنْ حَلَالٍ اسْتَحْلَلْنَاهُ، وَمَا وَجَدْنَا فِيهِ مِنْ حَرَامٍ حَرَّمْنَاهُ**»، يقول: أنا لا آخذ إلا بالقرآن، أم سنة النبي ﷺ فلا، مع أن السنة هي مفسرة للقرآن، مبينة وشارحة له، ولا يمكن لأحد أن يعمل بالقرآن ما لم يعمل بسنة النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

وقوله: «**بيننا وبينكم كتاب الله**»، كلمة حق أريد بها باطل، وإنما أراد بها صاحبها أن يعطل الدين كله، فكيف نعرف عدد الصلوات المفروضة الظهر أربع، والعصر أربع، والمغرب ثلاث، والعشاء أربع، والفجر ركعتين، من أين عرفنا ذلك؟ إلا من السنة، أنصبة الزكاة؟ تفاصيل أعمال الحج؟ ومسائل عديدة متعلقة بالعبادات التي فصِّلت في السنة ولم تُعرف إلا من خلالها، والله جَلَّ وَعَلَا قال في القرآن: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ [الحشر: ٧].

فالنبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يخبر أنه سيوجد في الأمة أناس يدَّعون أنهم لا يأخذون إلا بالقرآن، وهذا الذي يدَّعي أنه لا يأخذ إلا بالقرآن هو في الحقيقة لم يأخذ بالقرآن ولم يأخذ بالسنة؛ لأنه لو أخذ بالقرآن حقًّا لأخذ بسنة النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه، ولهذا قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**ألا وإن ما حرَّم رسول الله ﷺ مثل ما حرم الله**»، ولهذا مر معنا فقه عبد الله بن مسعود قال: «**لَعَنَ اللهُ الْوَاشِمَاتِ، وَالْمُسْتَوْشِمَاتِ، وَالْمُتَنَمِّصَاتِ وَالْمُتَفَلِّجَاتِ لِلْحُسْنِ، الْمُغَيِّرَاتِ خَلْقَ اللهِ تَعَالَىٰ**»، فهل هذه موجودة بألفاظها في القرآن؟ وهنا يقول نبينا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**ألا وإن ما حرم رسول الله ﷺ مثل ما حرم الله**»، لأنه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لا ينطق عن الهوىٰ إن هو إلا وحي يوحىٰ، هو مبلغ عن الله لا يأتي بشيء من قبل نفسه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ولهذا

الذين يدَّعون أنهم لا يأخذون إلا بالقرآن هم في الواقع لا يأخذون حتىٰ بالقرآن الكريم، ووُجد طائفة في زماننا هذا يسمون أنفسهم «القرآنيين»؛ أي: لا نأخذ إلا بالقرآن، وهؤلاء ليسوا من أهل القرآن ولا من أهل السنة ولا من أهل الدين الذي شرعه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لعباده.

ولهذا يحمد المسلم ربه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ علىٰ العافية، ويسأله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ الثبات علىٰ الحق والهدىٰ، ويدعوه جَلَّ وَعَلَا أن يهديه إليه صراطًا مستقيمًا، ويتوسل إليه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أن يجنبه الفتن والبدع والأهواء، ويلجأ إليه دائمًا وأبدًا راجيًا منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يوفقه للاستقامة علىٰ دين الله إلىٰ أن يتوفاه ربه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وهو راضٍ عنه غير ضال ولا مضل ولا مغير ولا مبدل، ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

* * *

بَابُ: تَحْرِيضِهِ ﷺ عَلَى لُزُومِ السُّنَّةِ وَالتَّرْغِيبِ فِي ذَلِكَ وَتَرْكِ البِدَعِ وَالتَّفَرُّقِ وَالاِخْتِلَافِ وَالتَّحْذِيرِ مِنْ ذَلِكَ

وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب: ٢١].

وَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥٩] الآيَةَ.

وَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣] الآيَةَ.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: «**بَابُ: تَحْرِيضِهِ ﷺ عَلَىٰ لُزُومِ السُّنَّةِ وَالتَّرْغِيبِ فِي ذَلِكَ وَتَرْكِ البِدَعِ وَالتَّفَرُّقِ وَالاِخْتِلَافِ وَالتَّحْذِيرِ مِنْ ذَلِكَ**»، قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**تحريضه**»، التحريض: هو الحث علىٰ الشيء والترغيب فيه وبيان محاسن فعله ومساوئ تركه، قد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ﴾ [الأنفال: ٦٥]، فالتحريض: هو الحث والترغيب.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: «**بابٌ: تحريضه علىٰ لزوم السنة**»؛ أي: حث النبي ﷺ أمته علىٰ لزوم سنته والتمسك بها والتقيد بما جاء عنه صلوات الله وسلامه عليه، وتحذيره عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أمته من مخالفة السنة ومجانبتها والوقوع في الغلو في الدين والتفرق والاختلاف، وقد جاء في هذا الباب آيات كثيرة وأحاديث عديدة في سنة النبي صلوات الله وسلامه عليه، وقد اقتصر المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ علىٰ الإشارة إلىٰ

بعض هذه الأدلة.

قال: «**باب تحريضه ﷺ علىٰ لزوم السنة**»، والسنة المراد بها: الطريقة التي كان عليها رسول الله ﷺ، وهي شاملة لكل ما صح عنه ﷺ من قول أو فعل أو تقرير، فالسنة تشمل كل ما صح وثبت عن رسول الله عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ من الأقوال والأعمال، وكل- أيضًا- أمرٍ أقره النبي ﷺ، وقد جاء عنه في الحديث الصحيح، وسيأتي سياقه عند المصنف: «**وعليكم بسنتي**»؛ أي: الزموها وتمسكوا بها[1].

قال: «**والترغيب في ذلك**»، الترغيب: ذكر الشيء والحث عليه بذكر فضائله ومحاسنه وما يدعو الإنسان إلىٰ المواظبة عليه والحرص علىٰ فعله، والنبي عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ جمع بين الترغيب والترهيب، رغب ورهب صلوات الله وسلامه عليه، ذكر المرغبات، وذكر أيضًا صلوات الله وسلامه عليه المرهبات، حتىٰ في باب اتباع السنة جاء عنه عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ الترغيب في ذلك، وجاء أيضًا الترهيب من ذلك، قال: «**فمن رغب عن سنتي فليس مني**»[2]، هذا ترهيب، وجاء عنه أيضًا في أحاديث عديدة يأتي بعضها عند المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ الترغيب في لزوم سنة النبي الكريم عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

قال: «**وترك البدع**»، والبدع: هي المحدثات في دين الله، قال عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «السُّنَّةَ هِيَ مَا قَامَ الدَّلِيلُ الشَّرْعِيُّ عَلَيْهِ بِأَنَّهُ طَاعَةٌ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ سَوَاءٌ فَعَلَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَوْ فُعِلَ عَلَىٰ زَمَانِهِ أَوْ لَمْ يَفْعَلْهُ وَلَمْ يُفْعَلْ عَلَىٰ زَمَانِهِ لِعَدَمِ الْمُقْتَضِي حِينَئِذٍ لِفِعْلِهِ أَوْ وُجُودِ الْمَانِعِ مِنْهُ . فَإِنَّهُ إذَا ثَبَتَ أَنَّهُ أَمَرَ بِهِ أَوْ اسْتَحَبَّهُ فَهُوَ سُنَّةٌ» «مجموع الفتاوىٰ» (٢١/ ٣١٧).

(٢) رواه البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١).

كما سبق: «**من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد**»[(١)]، وفي رواية: «**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد**»[(٢)]، فالبدعة: ما ليس بسنة، كل أمر اخترع وأنشئ في الدين وقُصد به التقرب إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ وطلب ثوابه مما لم يأتِ في سنة النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه.

قال: «**والتفرق**»؛ أي: وترك التفرق والاختلاف، والمراد بالتفرق؛ أي: التفرق في الدين والتحزب والانقسام والافتراق، فحذر عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ من ذلك أشد التحذير؛ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩]؛ أي: فِرقًا وأحزابًا وطوائفا متفرقين في دين الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، فحذر من ذلك كله صلوات الله وسلامه عليه، وسيأتي في النصوص التحذير من ذلك.

بدأ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله تعالىٰ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١]، الأسوة: هو القدوة، وقال: ﴿حَسَنَةٌ﴾؛ لأن الأسوة حسنة أو سيئة؛ فمن كان إمامًا في الخير فهو أسوة حسنة، ومن كان إمامًا في الشر فهو والعياذ بالله أسوة سيئة، ولهذا قال الله تعالىٰ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾، فقوله: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ يدل علىٰ أن من الناس من هو أسوة حسنة، وهم الرسل وأتباع الرسل والسائرين علىٰ سننهم والمقتفون لأثرهم، ومن الناس من هو أسوة سيئة وإمام في الشر ودعاة إلىٰ نار جهنم والعياذ بالله.

والأسوة هو من يؤتسىٰ به، والائتساء: هو الاقتداء، فالنبي ﷺ أسوة حسنة في أعمال الخير كلها بدون استثناء، وفي جميع أبواب الخير، وخصال البر، وأبواب

---

(١) رواه ومسلم (١٧١٨).

(٢) رواه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨).

الطاعات، فهو عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أسوة حسنة؛ لأنه ﷺ كمَّل الدين وأتمه وأتىٰ به علىٰ الوفاء والتمام والكمال، فكان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أعلم الناس بالله، وأتقىٰ الناس لله، وأعظم الناس عبادةً لله، وما من خصلة من خصال الخير وباب من أبواب البر إلا وبلغ فيه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الرتبة العلية والمنزلة العالية الرفيعة صلوات الله وسلامه عليه، فهو أسوة في الخير؛ أي: إمامة وقدوة في أبواب الخير كلها صلوات الله وسلامه عليه.

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾، وهذا فيه أعظم الحث علىٰ التمسك بما جاء عنه ولزوم هديه والتقيد بسنته عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ بأنه أسوة حسنة؛ ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾، لكن هذا الائتساء والاقتداء يكون ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾، فيكون لأهل الإيمان بالله، للطامعين في ثوابه، للخائفين من عقابه، للراغبين في أجره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وثوابه، للذاكرين له جَلَّ وَعَلَا كثيرًا، هم الذين يوفقون للائتساء بالنبي الكريم وتعظيم سنته وتعظيم هديه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ والتقيد بما جاء به، أما من ضعف فيهم هذا الإيمان ونقص فيهم حظهم من تذكر الآخرة والوقوف بين يدي الله عَزَّوَجَلَّ والجزاء والحساب، فإن نفوسهم تنقلت إلىٰ الأهواء واتباع البدع والمحدثات والانكباب علىٰ الخرافات التي ما أنزل الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بها من سلطان، أما الإيمان الصادق والاعتقاد الراسخ وحسن الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ وعظيم موعوده فإن هذا أعظم داعٍ للإنسان للتمسك بهدي النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ والتقيد بسنته والبعد عن الأهواء والبدع والمحدثات.

ثم أورد رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ قوله الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩]، وهذا فيه ذم التفرق والاختلاف في دين الله عَزَّوَجَلَّ باتباع الأهواء وركوب البدع واقترافها.

قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ﴾، ويكون التفرق في الدين بالتخلي عنه وعدم التمسك به وبالوقوف في البدع والمحدثات التي ما أنزل الله بها من سلطان، ولهذا كما أن السنة تجمع، فإن البدعة تفرق، ولهذا يقال: «أهل السنة والجماعة، وأهل البدعة والفرقة»؛ فالبدعة تفرق الناس وتشتت شملهم، وتوجد بينهم العداوات والبغضاء، أما السنة فهي التي تجمع الناس؛ تجمعهم علىٰ الحق والهدىٰ وعلىٰ طلب رضا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ والخوف من عقابه.

قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا﴾؛ أي: متفرقين متحزبين منقسمين إلىٰ طوائف.

﴿لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾؛ لأن التفرق الذي يكون في الأهواء والبدع أمر حادث في الدين خارج عن سنة النبي الكريم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وقد وُجد بعد زمانه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، قال: «**وستفترق هذه الأمة علىٰ ثلاث وسبعين فرقة**»(١)، ذم ذلك عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وحذر منه في أحادي كثيرة.

قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾؛ أي: أنه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بريء من هؤلاء ليسوا منه وليس منهم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

ثم ختم الآيات بقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾ [الشورىٰ: ١٣]، ﴿أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ﴾ إقامة الدين إنما تكون بلزومه؛ تمسكًا ومحافظةً ورعاية له.

﴿أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾؛ أي: احذروا التفرق في دين الله عَزَّوَجَلَّ باتباع الأهواء وركوب البدع، فأمر الله جَلَّجَلَالُهُ بلزوم الدين والتمسك به، وحذر من التفرق

---

(١) رواه الترمذي (٢٦٤١)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٣٤٣).

ونهىٰ عنه، وهذه وصية الله عَزَّوَجَلَّ لأنبيائه ورسله.

وقد ذكر جَلَّوَعَلَا في هذه الآية أولي العزم من المرسلين، وهم خمسة: محمد عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ونوح، وإبراهيم، وموسىٰ، وعيسىٰ. جمع تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في هذه الآية أولي العزم من الرسل، كما جمعهم تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى﴾ [الأحزاب: ٧]، فجمعهم تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وهم أشرف الرسل وأفضلهم ومقدموهم، فوصية الله عَزَّوَجَلَّ للرسل ولأولي العزم مهم هي إقامة الدين وعدم التفرق فيه، (**إقامة الدين**)؛ أي: الذي بعث الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ به رسوله، وأنزل به تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ كتبه، و(**عدم التفرق فيه**): باتباع الأهواء وما تمليه العقول المجردة وما يقع في الناس في اتباعهم للمصادر المختلفة التي يتلقون منها ويأخذون عنها.

فأهل الإيمان أُمروا أن يأخذوا من الكتاب والسنة لتجتمع كلمتهم علىٰ الدين الحق، ومن تخلىٰ عن الكتاب والسنة وقع في التفرق، ولهذا لو تأمل الإنسان في واقع الناس من حيث عقائدهم وأديانهم ومذاهبهم وآراءهم تجد أن السبب في هذا التفرق الذي هم عليه راجع إلىٰ المصادر التي يستقون منها متخلين عن الكتاب والسنة؛ فمن الناس من يأخذ دينه وعقيدته من الرؤىٰ والمنامات، ومنهم من يأخذ دينه وعقيدته من عقله وفكرة المجرد، والعقول متفاوتة، ولهذا من بنوا عقائدهم علىٰ العقول صاروا إلىٰ عقائد كثيرة ومذاهب متعددة، ومنهم من يبنون عقائدهم علىٰ تجارب والأذواق، ومنهم من يبنون عقائدهم وأديانهم علىٰ القصص والحكايات والأخبار، وهكذا تجد الناس يبنون عقائدهم علىٰ أمور ما أنزل الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بها من سلطان، فوجد بسبب ذلك تفرق واختلاف وعقائد باطلة، ولا يمكن أن يستقيم للإنسان أمرٌ وأن يصح له عقيدة ويتم له دين إلا باتباع وحي الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ولزومه، «فكيف يرام

الوصول إلىٰ علم الأصول بغير ما جاء به الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؟!»[(١)]، ولهذا أيضًا قال أهل العلم: «من فارق الدليل ضل السبيل، ولا دليل إلا بما جاء به الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ»[(٢)].

❊ ❊ ❊

---

(١) «شرح العقيدة الطحاوية» (ص٩).

(٢) قاله شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ نقله عنه تلميذه الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ «مفتاح دار السعادة» (١/ ٨٣).

٨٨- وَعَنِ العِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: وَعَظَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ مَوْعِظَةً بَلِيغَةً ذَرَفَتْ مِنهَا العُيُونُ، وَوَجِلَتْ مِنْهَا القُلُوبُ، فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ كَأَنَّ هَذِهِ مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ فَمَا تَعْهَدُهُ إِلَيْنَا؟ فَقَالَ: «**أُوصِيكُمْ بِتَقْوَىٰ اللهِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ كَانَ عَبْدًا حَبَشِيًّا، فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَىٰ اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي، وَسُنَّةِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ المَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي، تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ وَابْنُ مَاجَه.

وَفِي رِوَايَةٍ لَهُ: «**لَقَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَىٰ البَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ، وَمَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَىٰ اخْتِلَافًا كَثِيرًا...**» ثُمَّ ذَكَرَه بِمَعْنَاهُ[1].

أورد هنا رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ هذا الحديث العظيم، حديث العرباض بن سارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «**وعظنا النبي ﷺ موعظة بليغة ذرفت منه العيون، ووجلت منها القلوب**»، الموعظة: هو الكلام الرقيق المؤثر المشتمل علىٰ الترغيب أو الترهيب؛ هذا يقال له: وعظ، والناس يحتاجون إلىٰ المواعظ، وكان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يتخول أصحابه بالموعظة[2]؛ أي: يأتي بالموعظة بين الوقت والآخر، يتخولهم بذلك ويتعاهدهم به، فالناس يحتاجون إلىٰ الموعظة؛ لأن الموعظة الصادقة المشتملة علىٰ الكلام اللين الرقيق من كتاب الله عَزَّوَجَلَّ وسنة نبيه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ من شأنه أن يرقق

---

(١) رواه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٢)، وصحَّحه الألباني في «صحيح التَّرغيب» (٣٧).

(٢) عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَتَخَوَّلُنَا بِالْمَوْعِظَةِ فِي الأَيَّامِ ، كَرَاهَةَ السَّآمَةِ عَلَيْنَا» رواه البخاري (٦٨).

القلوب ويلين النفوس ويرغبها في الخير ويرهبها من الشر، والناس يحتاجون إلىٰ ذلك؛ لأن الصوارف عن دين الله عَزَّوَجَلَّ والصواد كثيرة جدًّا والأمور التي تأخذ بالإنسان إلىٰ سبيل الغفلة متنوعة.

وفي باب الوعظ ينبغي أن يكون طرحه علىٰ الناس باعتدال كما جاء في السنة، وأن يكون وعظ الناس تخولا، ثم تُشغل المجالس بنشر العلم وبيان السنن والتفقيه في دين الله عَزَّوَجَلَّ وبيان الأحكام، لا أن يكون الكلام كله وعظًا، وأن تكون الخطب كلها وعظًا، وأن تكون الدروس كلها وعظًا؛ لأن القلوب إذا وُعظت تهيأت للخير، وإذا استمر معهم الوعظ فأين الخير الذي يُدلون عليه ويرشدون إلىٰ فعله ويبين لهم؟! فيُتخول الناس بالموعظة بين وقت وآخر حتىٰ تُقبِل قلوبهم وتنصرف عنهم الغفلة، والنفس لها إقبال وإدبار؛ فإذا أقبلت النفس ولانت بالموعظة الحسنة يبين للناس السنن وتوضح لهم الأحكام وهدي النبي الكريم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حتىٰ يحافظ الناس علىٰ ذلك ويتمسكوا به.

قال: «**وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة**»، وصفها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بهذا الوصف: **(موعظة بليغة)**.

«**وجلت منها القلوب، وذرفت منها العيون**»، **(وجلت القلوب)**؛ أي: خافت وخشعت، و**(ذرفت منها العيون)**؛ أي: دمعت العيون، والعين تدمع عندما يلين القلب ويخشع، فالصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ علىٰ إثر هذه الموعظة ذرفت عيونهم ودمعت، ووجلت قلوبهم؛ أي: خافت القلوب، وهذه فائدة الموعظة، فائدة الموعظة أن تلين القلوب وتخشع وتدمع العيون، ويرق الناس بحيث يُقبِلون علىٰ السنن، ويقبلون علىٰ المواظبة علىٰ دين الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**فقال قائل: يا رسول الله، كأن هذه موعظة مودع، فما تعهد**

إلينا؟»، وهذا من شدة حرص الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ على الخير ورغبتهم فيه؛ فلما وعظهم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ هذا الوعظ البليغ وقال لهم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في أنفسهم هذا القول البليغ الذي ألان القلوب وذرفت منه العيون، قالوا: «**كأنها موعظة مودع**»، موعظة شخص يوشك أن يودعنا وأن نفارقه، «**فما تعهد إلينا؟**»؛ أي: ما هي الوصية التي تعهد إلينا بها؟ ووصية المودع لها شأن ووقع كبير على القلوب؛ لأنها تأتي على جوامع الخير.

قال: «**أوصيكم بتقوى الله**»، أوصاهم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بهذه الوصية العظيمة الجامع للخير كله، وهي وصية الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ للأولين والآخرين من خلقه، كما يدل لذلك قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿**وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ**﴾ [النساء: ١٣١]، فهي وصية الله جَلَّ وَعَلَا للأولين والآخرين من خلقه، وهي وصية النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لأمته، قال: «**أوصيكم بتقوى الله**»؛ أي: أوصيكم أن تلزموا تقوى الله عَزَّوَجَلَّ وأن تحافظوا عليها.

وتقوى الله عَزَّوَجَلَّ: هي أن يجعل العبد بينه وبين ما يخشاه من عقاب الله وسخطه وقاية تقيه؛ وذلك لا يكون إلا بفعل الأوامر وترك النواهي، ولهذا فإن من أحسن ما قيل في تعريف التقوى وبيان حدها؛ أن تقوى الله عَزَّوَجَلَّ: «عمل بطاعة الله على نور من الله، رجاء ثواب الله، وتركٌ لمعصية الله على نور من الله خيفة عذاب الله»(١)؛ فهذه حقيقة التقوى، التقوى عمل بالأوامر وترك للنواهي، وأن تكون في ذلك كله على نور؛ أي: على علم، على علم بالمأمور لتفعله وعلى علم بالمنهي لتجتنبه، وأن تكون أيضًا جامعًا بين الرجاء والخوف، ترجو رحمة الله عَزَّوَجَلَّ وتخاف

---

(١) «كتاب الزهد» (ص ١٠١).

عقابه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فهذه حقيقة التقوىٰ التي أمرنا النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بلزومها.

قال: «**أوصيكم بتقوىٰ الله عَزَّوَجَلَّ والسمع والطاعة**»؛ أي: أوصيكم بالسمع والطاعة، والمراد بقوله: «**أوصيكم بالسمع والطاعة**»؛ أي: لمن تأمَّر عليكم، يدل لذلك قوله بعده: «**وإن كان عبد حبشي**»، السمع والطاعة؛ أي: لمن تأمر عليكم، وهذا نصح عظيم وأمر مهم للغاية يغفل عنه كثير من الناس، بل وكثير من الناس لا يدركون أهميته، وفي بعض الناس نوع من الجاهلية في هذا الباب، ويرىٰ أنه أعلىٰ مقامًا من أن يسمع ويطيع، وأن مكانه أرفع من ذلك فيدخله شيء من الجاهلية.

قال: «**والسمع والطاعة**»؛ أي: أوصيكم بالسمع والطاعة؛ أي: لمن كان أميرًا عليكم برًّا كان أو فاجرًا، لأن أمور الإسلام وأمور الدين لا تنتظم ولا تستقيم إلا بالجماعة، ولا جماعة إلا بإمام، ولا إمام إلا بسمع وطاعة، ولهذا إذا ترك الناس السمع والطاعة للأمير وللوالي تفرقت الجماعة، وإذا تفرقت الجماعة ضاع الدين، ولهذا جاء عنه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أحاديث كثيرة في الأمر بالسمع والطاعة، بل إنه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ضم السمع والطاعة للأمير وللولاة إلىٰ أمره بالصلاة والصيام وغير ذلك من الطاعات الكبار، كما جاء عنه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في حجة الوداع أنه قال: «**اتقوا ربكم، وصلوا خمسكم، وصوموا شهركم، وأدوا زكاة أموالكم، وأطيعوا ذا أمركم؛ تدخلوا جنة ربكم**»[(١)]، فضم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ طاعة الأمير إلىٰ الصلاة والصيام، فإذا لم يُسمع ولم يطع للأمير انتقضت الجماعة وتفرقت الكلمة، وإذا تفرقت كلمة الناس وذهبت جماعتهم ضاع دينهم؛ ولهذا جاءت أحاديث كثيرة ونصوص كثيرة في الكتاب وفي السنة، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي

---

(١) رواه الترمذي (٦١٦)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٨٦٧).

ﭐلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ [النساء: ٥٩].

والسمع والطاعة التي أُمرنا بها هي في المعروف، أما إذا أمر الوالي بالمعصية أو بالإثم والحرام فلا يطاع، لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وقوله هنا: «**بالسمع والطاعة**»، السمع؛ أي: لكلامه، والطاعة؛ أي: لأمره، «**بالسمع والطاعة**»؛ أي: أن تسمع لما يقول وتهتم بكلامه، والطاعة؛ أي: لأمره وما يأمر به من الأمور التي فيها مصالح الناس ومنافعهم وانضباط أمرهم.

قال: «**عليكم بالسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد حبشي**»؛ أي: ولو فُرض وقدر أن الذي استتب له الأمر وصارت له الولاية عبد حبشي فاسمع وأطع، وهذا فيه التحذير من أمر كان عليه أهل الجاهلية ألا وهو الاستنكاف والاستكبار عن السمع والطاعة للأمير؛ بأن يقول بعض الناس: «أنا أسمع وأطيع! أنا أعلىٰ من أن أكون كذلك»، يستنكف ويستكبر، فالنبي عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ حذر من هذا الاستنكاف وانتظام أمرهم والتئام شملهم وصلاح كلمتهم وبُعدهم عن الفتن، وأن تراق بينهم الدماء، وأن ينشب بينهم القتال، فيجب أن تراعىٰ المصالح العامة ومقاصد الدين الكلية التي ينتظم بها شمل المسلمين، لكن إذا دخل في الإنسان نوع جاهلية في هذا الباب لم يرضخ لهذه النصوص ولم يسمع لها ولم ينقد، بل أصبح بعض الناس إذا قرئت عليه الأحاديث التي فيها الأمر بالسمع والطاعة لولاة الأمر يشمئز منها وتنفر نفسه منها، إذا قرأت عليه الآيات والأحاديث التي فيها الصلاة والصيام يسمعها! أليس الذي أمر بالصلاة وأمر بالصيام وأمر بالحج هو الذي أمر بالسمع والطاعة لولي الأمر؟! فلماذا تُقبل النفس هنا وتشمئز هناك؟ والذي جاء عنه هذا الأمر هو نبينا عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ! بل في الحديث الواحد يأتي هذا وهذا، يقول عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**اتقوا ربكم، وصلوا خمسكم، وصوموا شهركم، وأدوا زكاة أموالكم، وأطيعوا ذا أمركم؛ تدخلوا جنة**

ربكم»، الذي أمر بالصلاة وأمر بالزكاة وأمر بالصيام وأمر بهذه الطاعة هو الذي أمر بطاعة ولي الأمر؛ لما يعلمه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ من التئام شمل المسلمين وصلاح كلمتهم وبُعدهم عن التفرق والاختلاف والشتات والضياع وإراقة الدماء وغير ذلك من المفاسد والأضرار التي لا يحصيها إلا الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

ثم من تأمل التاريخ ونظر في أحوال من خالفوا هدي النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وخرجوا علىٰ الولاة ونزعوا اليد من الطاعة وخرجوا علىٰ السلطان ورفعوا السيف، ماذا قدموا لأنفسهم، وماذا قدموا لأمة الإسلام؟ وقد لخص أحد أهل العلم ثمار صانع هؤلاء بقوله: «فلا أقاموا دينًا ولا أبقوا دنيا»[(١)]، بمثل هذه الأعمال ما أقموا دينًا ولا أبقوا دنيا؛ لأن الدماء تراق والفتن تكثر والكلمة تتفرق والعدو يتسلط ولا يحققون بذلك مصالحا ولا أرباحا، فالخير كل الخير فيما دعا إليه نبينا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وأرشد أمته إليه، قال: «**وبالسمع والطاعة**»؛ أي: أن تسمعوا للولاة وأن تطيعوا لهم، «**وإن كان عبدًا حبشيًّا**».

قال: «**فإنه من يعش منكم فسيرىٰ اختلافًا كثيرًا**»؛ أي: من يُكتب له طول عمر منكم سيرىٰ اختلافًا، وهذا من الأمور التي نبه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عليها، وأخبر بها، وهي من الأمور التي أطلعه الله عليها تقع في المستقبل ووقعت طبقًا لما أخبر، قال: «**إنه من يعش منكم فسيرىٰ اختلافًا كثيرًا**»؛ أي: اختلافًا في الدين وتفرقًا فيه ووقوعًا في البدع والأهواء.

والناصح لنفسه عندما يسمع قوله النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**إنه من يعش منكم فسيرىٰ اختلافًا كثيرًا**»، سيقع في نفسه ولابد سؤال، ألا وهو: إذا كان سيأتي خلاف

---

(١) «منهاج السنة النبوية» (٤/ ٣١٤).

كثير، ما المخرج؟ وما الحل؟ وماذا نصنع؟ فأرشد عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إلىٰ المخرج دون أن يُسأل، وذا من نصحه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، قال: «**فعليكم بسنتي**»، هذا هو المخرج، «**فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها، وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة**»، فلخص عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ المخرج والنجاة من التفرق والاختلاف في أمرين:

الأمر الأول: لزوم السنة، قال: «**فعليكم بسنتي**»؛ أي: الزموها، وتمسكوا بها، «**وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي**»؛ أي: الزموا سنة الخلفاء الراشدين؛ وهم: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين.

«**وسنة الخلفاء الراشدين المهديين**»، وقد نعتهم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بهذين الأمرين: بالراشدين والمهديين، (والرشاد) ضد الغواية، (والهداية) ضد الضلال، وهذا يفيد صلاحهم في العلم والعمل، صلاحهم في العمل هو الرشاد، وصلاحهم في العلم هو الهداية، فالمهتدي ضد الضال ومن كان عنده علم نافع يهتدي به، والراشد ضد الغاوي، والغاوي هو المنحرف، وقد قال الله عَزَّ وَجَلَّ في وصف نبيه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ [النجم: ٢]، نفي الضلال فيه إثبات الهداية، ونفي الغواية فيه إثبات الرشاد؛ أي: صلاح العلم والعمل، فنبينا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وصف خلفاءه: أبا بكر وعمر وعثمان وعلي بأنهم راشدين ومهديين؛ أي: صالحين في علمهم وعملهم، وهذا فيه تنبيه إلىٰ أن المؤهَّل للاقتداء والائتساء من كان شأنه كذلك، وهو الصالح في علمه وعمله، أما من كان عنده علم لا يعمل به فهو مغضوب عليه، ومن كان عنده عمل ليس مبنيًّا علىٰ علم صحيح فهو ضال، ولا يكون راشدًا مهتديًا إلا بالعلم النافع والعمل الصالح.

قال «**وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها**»؛ أي: الزموها

واعتصموا بها، وحافظوا عليها.

«**وعضوا عليها بالنواجذ**»، النواجذ: هي أضراس الإنسان، وعادة الإنسان إذا كان ثمة أمر يهتم له ويغتبط به ويفرح به، قد يعبر بذلك بالعض له علىٰ نواجذه محافظة منه عليه واهتمامًا به، قال: «**وعضوا عليها بالنواجذ**»؛ أي: كونوا محافظين عليها متمسكين بها محافظة من يهتم بالأمر إلىٰ درجة أن من غبطته عليه وفرحه به يعض عليه بالنواجذ.

الأمر الثاني: قال: «**إياكم ومحدثات الأمور**»؛ أي: احذروها وابتعدوا عنها وجانبوها، احذروا محدثات الأمور حتىٰ وإن مال إليها قلبك ورغبت فيها نفسك، حتىٰ وإن استحليتها، حتىٰ وإن حثك عليها بعض أشياخك، «**إياكم ومحدثات الأمور**»، احذر أي أمر مُحدث، والزم ما كان ثابتًا عنه عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فإن فيه الخير والبركة، حتىٰ وإن مالت نفسك ورغبت في أمر استحلته وارتاحت له واطمأنت له وسمعت حثًّا عليه من بعض الأشياخ، احذر منه ودعه واتركه، وعليك بسنته عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، قال: «**وإياكم ومحدثات الأمور**».

مثال: الصحابة ثبت عنهم في الحديث الصحيح أنهم سألوا النبي عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ سؤالًا واضحًا بينًا، قالوا فيه: يا رسول الله، عرفنا كيف نسلم، فكيف نصلي عليك؟ فعلمهم، قال: «**قولوا: اللهم صل علىٰ محمد وعلىٰ آل محمد كما صليت علىٰ إبراهيم وعلىٰ آل إبراهيم إنك حميد مجيد، وبارك علىٰ محمد وعلىٰ آل محمد كما باركت علىٰ إبراهيم وعلىٰ آل إبراهيم إنك حميد مجيد**»(١)، ونحن نعتقد في أنفسنا اعتقادًا كاملًا أنه عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ناصح أمين، وأنه ما ترك خيرًا إلا دلينا

---

(١) رواه البخاري (٣٣٧٠)، ومسلم (٤٠٦).

عليه، ولا شرًا إلا حذرنا منها، هذا كلام ناصح، فالواجب علينا أن نتمسك بما علمنا وأرشدنا إليه ودلنا عليه صلوات الله وسلامه عليه، لكن انظر في حال بعض الناس في هذا الباب، وكم اختُرع لهم من صلوات محدثة؟! حتىٰ كُتب مجلدا في صلوات محدثة يجلس مخترعها وينشئ كلامًا: «اللهم صل علىٰ محمد ما ناحت الحمائم ولفت العمام..»، والعوام مساكين، يمسك الكتاب ويقرأ ويظن أنه علىٰ خير: «اللهم صل علىٰ محمد الفاتح لما أغلق والخاتم لما سبق»، والعوام قد يغترون بهذا، والله المستعان، والنبي ﷺ يقول: «**وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة**»، وهنا ننتبه: «**فإن كل محدثة بدعة**»؛ أي: أيُّ عملٍ أو قول ليس هو من سنة النبي ﷺ ولا من هديه فهو محدث، وكل محدثة بدعة.

قال: «**وكل بدعة ضلالة**»، فلماذا يوقع الإنسان نفسه في مثل هذه الأمور التي حذر منها النبي الكريم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؟! فإذًا المخرج بأمرين كما سبق:

- **الأمر الأول**: لزوم السنة.
- **والأمر الثاني**: مجانبة البدعة.

ولا يمكن للإنسان أن يخرج من هذه الفتن إلا بهذين الأمرين: لزوم السنة، ومجانبة البدعة، والتوفيق بيد الله وحده، نسأله جَلَّ وَعَلَا أن يوفقنا جميعًا لكل خير.

قال: «**وفي رواية له: لقد تركتم علىٰ البيضاء**»، وانظر إلىٰ جمال هذا الكلام، «**لقد تركتكم علىٰ البيضاء**»؛ أي: علىٰ الطريقة البينة الواضحة الناصعة التي لا اشتباه فيها ولا التباس، وهذا دليل علىٰ كمال نصحه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لأمته، ومعناه: تركتكم علىٰ طريق واضح ومحجة بيضاء وسبل بينة نيرة مضيئة.

والإنسان إذا ترك علىٰ بيضاء هل يتوه؟ وهل يضيع؟ إذا ترك علىٰ طريق بيضاء واضحة نيرة مضيئة لا يتوه إلا إذا ترك الطريق الواضحة ودخل في الطرق المعوجة

وسلك السبل المعوجة، فالنبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ تركنا علىٰ البيضاء؛ أي: تركنا علىٰ الملة البيضاء والمحجة البينة والسبيل الواضحة.

قال: «**ليلها كنهارها**»؛ أي: واضحة بينة لا التباس فيها ولا غموض.

قال: «**لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك**»؛ أي: لا يزيغ عن هذه الطريق البيضاء بعدي إلا من كُتب له الهلاك، وفي الدعاء في القرآن الكريم: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران: ٨]، قالت أم سلمة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: كان أكثر دعائه ﷺ: «**يا مقلب القلوب ثبت قلبي علىٰ دينك**» قالت: قلت: يا رسول الله ما أكثر دعاءك يا مقلب القلوب ثبت قلبي علىٰ دينك ؟ قال: «**يا أم سلمة إنه ليس آدمي إلا وقلبه بين أصبعين من أصابع الله فمن شاء أقام ومن شاء أزاغ**» فتلا معاذ: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾[1].

ولهذا يجب علينا أن نقبل علىٰ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بصدق، ونسأله سبحانه أن لا يزيغ قلوبنا: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾، والأمر الثاني: أن نحرص علىٰ السنة الواضحة، والهدي البين الذي تركنا عليه رسول الله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ سُئل: ما هو الصراط المستقيم؟ قال: «تركنا محمد ﷺ في أدناه وطرفه في الجنة»[2]، فليس هناك سبيل للجنة إلا بالطريقة البيضاء التي ترك النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أمته عليه، وكل طريق إلىٰ الجنة مسدود إلا الطريقة البيضاء الواضحة التي ترك النبي ﷺ الأمة عليها، وليست هذه المحدثات هي التي توصل إلىٰ الجنة، حتىٰ وإن استحسنها الإنسان، ومالت إليها نفسه، والذي يوصل الإنسان إلىٰ رضا الله والجنة هو التمسك بما كان عليه النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه.

* * *

---

(١) رواه الترمذي (٣٥٢٢)، وصححه الألباني في «صحيح الترمذي» (٢٧٩٢).

(٢) رواه ابن وضاح في «البدع» (١٠٠١).

[هَدْيه ﷺ خير الهدي]

٨٩- وَلِمُسْلِمٍ عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ خَيْرَ الحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرَ الهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**»[(١)].

ثم أورد رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ هذا الحديث، حديث جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَمَّا بَعْدُ»، في الحديث في صحيح مسلم قال جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**إِذَا خَطَبَ احْمَرَّتْ عَيْنَاهُ وَعَلاَ صَوْتُهُ وَاشْتَدَّ غَضَبُهُ حَتَّىٰ كَأَنَّهُ مُنْذِرُ جَيْشٍ يَقُولُ** «**صَبَّحَكُمْ وَمَسَّاكُمْ**»...وَيَقُولُ «**أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ وَخَيْرُ الْهُدَىٰ هُدَىٰ مُحَمَّدٍ وَشَرُّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلاَلَةٌ**»، هذا الكلام كان نبينا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يردده في خطبه، كلما خطب الناس يأتي بهذا الكلام: «**أما بعد: فإن أصدق الحديث كلام الله وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة**»، وهذا التكرار منه ﷺ لحكمة: فيه أن الناس يحتاجون إليه حاجة ماسة؛ لأن البدع لا تزال تأتيهم من كل جانب، والأهواء تأتيهم من كل صوب، فيحتاجون دائمًا أن يُذكروا بهذا الأمر، فإذا رسخ هذا الأمر في قلوبهم وتمكن من أنفسهم لم يقبلوا من الناس كل ما يقولونه أو من كل داع ما يدعوهم إليه حتىٰ يتأكدوا منه وأن هذا من القرآن ومن السنة، أما إذا كان من الأهواء ومن المحدثات فلا يقبل وتنفر منه النفس.

قال: «**وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة**»، وقوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هنا:

---

(١) رواه مسلم (٨٦٧).

«**وكل بدعة ضلالة**» عام شامل لكل أمر محدث في دين الله، فليس في الأمور المحدثة في الدين شيء حسن، بل قال مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: «من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة زعم أن محمداً ﷺ خان الرسالة، لأن الله يقول: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المائدة: ٣]، فما لم يكن يومئذ دينًا، فلا يكون اليوم دينًا»(١).

ولتوضيح هذا المثال: لو جاءك رجل وحثك علىٰ شيء من هذه الأمور المحدثة ورغبك فيها، فاسأله: هل هذا الأمر الذي تدعوني إليه موجود في زمن النبي ﷺ أو لا؟ فإن قال: نعم، هو موجود، فقل له: أعطني الدليل من كتب السنن فهي موجودة ومحفوظة،، وإن قال: ليس موجودًا في زمن النبي عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ولكنه أمر جميل وأمر عظيم وجربناه وشيوخنا جربوه، وهو أمر عظيم جدًّا وأعطاك من هذا الكلام فقل له كما قال الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فما لم يكن يومئذ دينـًا، فلا يكون اليوم دينـًا»، ولن يكون دينًا إلىٰ أن تقوم الساعة، فمعنىٰ ذلك أن جوانب من الدين تركها النبي عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لم يبينها حتىٰ جاء أقوام فيما بعد أحدثوها وأوجدوها!! وهذا يدلنا علىٰ خطورة هذا الأمر.

❊ ❊ ❊

---

(١) «الاعتصام» (١/ ٢٩).

[معصية الرسول ﷺ توجب دخول النار]

٩٠- وَلِلْبُخَارِيِّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَىٰ**»، قِيلَ: وَمَنْ أَبَىٰ؟ قَالَ: «**مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَىٰ**»[(١)].

ثم أورد رحمه الله تعالىٰ هذا الحديث، قال: وَلِلْبُخَارِيِّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَىٰ**»: فجميع أمتي يدخلون الجنة إلا من أبىٰ منهم أن يدخل، وهذا الكلام عندما يسمعه الإنسان لأول وهلة يستغرب! من هذا الذي يأبىٰ؟ ومن الذي يُعرض عليه دخول الجنة ويقول: لا، أنا لا أريد دخولها، بل أرغب في دخول النار؟! يوجد أحد بهذه الصفة؟ وتوضيح ذلك سيأتي في بقية الحديث.

قال: «**كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبىٰ**»؛ أي: إلا من أبىٰ الدخول.

قال الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وأرضاهم: «**ومن يأبىٰ يا رسول الله؟**»، من يأبىٰ علىٰ نفسه الدخول؟

قال: «**من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبىٰ**»؛ أي: أبىٰ علىٰ نفسه الدخول، وهذا فيه التحريض علىٰ لزوم سنة النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وطاعته والمحافظة علىٰ هديه وسنته واتباع ما جاء به صلوات الله وسلامه عليه.

وفيه فائدة فيه تتعلق بالحديث الذي سبق: قوله في الحديث الذي قبله: «**كل**

---

(١) رواه البخاري (٧٢٨٠).

بدعة ضلالة»، هذا عام ليس هناك ما يخص شيئًا من أطرافه، والنبي ﷺ في العمومات التي لها خصوصيات أو لها ما يخصها يبين، وهذا من نصحه، ولهذا هنا قال: «**كل أمتي يدخلون الجنة**»، أتىٰ بهذا العموم، ولما كان لهذا العموم استثناءات قال: «**إلا من أبىٰ**»، وهناك قال: «**كل بدعة ضلالة**»، ولم يقل إلا بدعة مثلًا مفيدة في كذا أو بدعة استحسنها، كذا قال: «**كل بدعة ضلالة**» بدون استثناء، فيبقىٰ علىٰ عمومه جميع البدع وكل أمر محدث في الدين فهو ضلالة وكل ضلالة في النار، نسأل السلامة والعافية.

❊ ❊ ❊

[سُنَّة الرسول ﷺ هي السُّنة السمحة]

٩١- وَلَهُمَا عَنْ أَنَسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: جاءَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ إِلَىٰ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ ﷺ فَلَمَّا أُخْبِرُوا بِهَا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا، فَقَالُوا: أَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، فَقَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا فَأُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا، وَقَالَ الآخَرُ: أَنَا أَصُومُ النَّهَارَ وَلَا أُفْطِرُ، وَقَالَ الآخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلَا أَتَزَوَّجُ أَبَدًا، فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَيْهِمْ فَقَالَ: «**أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذا، أَمَا وَاللهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ للهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ؛ لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي**»[1].

(**ولهما**)؛ أي: وللبخاري ومسلم، ثم ساق رَحِمَهُٱللَّهُ تعالىٰ حديث أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في قصة النفر الذين جاءوا إلىٰ بيت النبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ للسؤال عن عبادته وحاله، وهذا فيه أن جزءًا كبيرًا من عبادة الإنسان وتقربه إلىٰ الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ تكون في البيت، وقد جاء في الحديث عنه عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «**فَإِنَّ خَيْرَ صَلاةِ الْمَرْءِ فِيْ بَيْتِهِ، إلاَّ الصَّلاَةَ الْمَكْتُوبَةَ**»[2]، وجاء عنه عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ أنه قال: «**لا تجعلوا بيوتكم مقابر**»[3]، وجاء عنه عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ أنه قال: «**مثل البيت الذي يُذكر فيه الله والبيت الذي لا**

---

(١) رواه البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١).

(٢) رواه البخاري (٦١١٣)، ومسلم (٧٨١).

(٣) رواه مسلم (٧٨٠).

يذكر فيه الله مثل الحي والميت»[١]، فجزء كبير من عبادة الإنسان تكون في بيته، فجاء هؤلاء النفر إلىٰ بيت النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ للسؤال عن عبادته ومعرفة حاله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ من حيث العبادة وأنواعه القربات التي تكون منه ﷺ.

يقول أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**جاء ثلاثة رهط إلىٰ أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ**»، هنا نلمس فائدة عظيمة من تعدد أزواج النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فإن هذا التعدد منه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في الأزواج كان سببًا عظيمًا ومباركًا في نشر علم عظيم وميراث مبارك عنه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ حُفظ في بيته من أزواجه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وهذا من الحِكم التي ذكرها أهل العلم في سبب تعدد أزواجه صلوات الله وسلامه عليه، فأزواجه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ من خلالهن يُعرف هديه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في بيته في التعامل مع أزواجه وحاله في البيت صلوات الله وسلامه عليه، فكل ذلك لا يُعرف إلا من طريق أزواجه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وأيضًا ما يتعلق بما يكون بين الرجل وزوجه كل ذلكم لا يمكن أن يُعرف إلا من خلال أزواجه ﷺ، ولهذا حُفظ ميراث مبارك وخير عظيم وفقه كبير عن طريق أزواج النبي صلوات الله وسلامه عليه.

قال: «**يسألون عن عبادة النبي ﷺ**»؛ أي: كيف كانت عبادته؟

«**فلما أخبروا بها كأنهم تقالوها**»؛ أي: رأوا أنها قليلة.

«**فقالوا: أين نحن من النبي ﷺ قد غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر**»، وكأنهم يفهمون أن كون النبي ﷺ غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر للتقليل من العبادة وعدم الإكثار منها، وقد جاء في كلامه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ الآتي ما يرد هذا الفهم حيث قال: «**إني أتقاكم لله وأخشاكم لله**»، فهو عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ مع أنه غفر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ له ما

(١) رواه البخاري (٦٤٠٧)، ومسلم (٧٧٩)، واللفظ له.

تقدم من ذنبه وما تأخر إلا أنه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كان أعبد الناس لله وأكثرهم طاعة له ولزومًا لعبادته وتقربًا إليه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وحفظًا لأوامره جَلَّ وَعَلَا، فكان أخشىٰ الناس لله وأتقىٰ الناس لله وأعظم الناس عبادة لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، فحقق مقام العبودية وكمل مقام الطاعة صلوات الله وسلامه عليه.

قال: «**فكأنهم تقالوها، وقالوا: أين نحن من النبي** ﷺ **قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر**»، كان هذا الفهم دافعًا لهم إلىٰ الدخول في أعمال وتشديدات علىٰ النفس لم تأت عن النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وتعسير علىٰ أنفسهم لم تأت في سنة النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، بل ولا دين الإسلام، بل تجاوزوا بها هديه وتعدوا ما جاء عنه صلوات الله وسلامه عليه.

«**فقال أحدهم: أما أنا فأصلي الليل أبدًا**»؛ أي: أحيي الليل كله بالصلاة، فيصلي ولا ينام.

«**وقال الآخر: أنا أصوم النهار ولا أفطر**»؛ أي: يكون شأني في عبادة الصيام أنني لا أفطر، ولم يقل: «**أبدًا**»، كما قال الأول، وكما قال أيضًا الآخر: «**وقال الآخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدًا**»، فبالنسبة للزواج قال أحدهم: لا أتزوج أبدًا، وبالنسبة لقيام الليل قال: أصلي الليل أبدًا، وبالنسبة للصيام قال: أنا أصوم النهار ولا أفطر. ولم يقل: أبدًا؛ لأن في أيام السنة ما لا يحل صيامه: عيد الفطر وعيد الأضحىٰ، فلا يحل صيامه.

وهذا الذي قالوه هو تشديد منهم علىٰ أنفسهم، ولم تأت به سنة، والنبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ جاء عنه في الحديث الصحيح أنه قال: «**إن هذا الدين يُسر، ولن يشاد**

الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا»[١]، ولننتبه لهذه الوصية العظيمة: «سددوا»؛ أي: اجتهدوا بأن تصيبوا السداد، والسداد هو موافقة السنة، وموافقة ما كان عليه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وإصابة هديه، فإن لم تبلغوا هذه الرتبة فقاربوا، جاهدوا أنفسكم علىٰ مقاربة السنة، أما أن يقول القائل: «أعمال النبي ﷺ قليلة ونريد أعمالًا لأنفسنا أكثر من عمله»، فهذا تجاوز لهديه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، قال: «سددوا»؛ أي: اجتهدوا في إصابة ما كان عليه صلوات الله وسلامه عليه، فإن لم يتمكن الإنسان من السداد فعليه بالمقاربة، يجاهد نفسه علىٰ أن يكون قريبًا من هدي النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ويترقىٰ شيئًا فشيئًا في الكمال والرفعة، والاتباع لهديه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، قال: «وأبشروا»، وهذه بشارة لأهل السداد ولأهل المقاربة، كلهم لهم حظهم من هذه البشارة، إلا أن أهل السداد حظهم منها أعلىٰ ومكانتهم فيها أرفع، أما أن يشاد الدين العبد فهذا ينال بسبب ذلك الخسران، وكم من إنسان شدد علىٰ نفسه في الدين وتجاوز هدي النبي الكريم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ حتىٰ ثقلت عليه العبادات، فتخلىٰ عنها وتحول إلىٰ حال سيئة بالتفريط في العبادة والإضاعة لها، وهذا يقع فيه بعض الناس بعدما يشدد علىٰ نفسه.

الشاهد: أن هؤلاء النفر الثلاثة وقعوا في الخطأ من جهة أنهم تقالوا عبادة النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وقالوا: إنه غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فإذًا لا بد لنا بالنسبة لنا أن تكون عبادتنا أكثر، فألزم كل واحد منهم بإلزام فيه تشددي علىٰ النفس.

قال: «**فجاء النبي ﷺ إليهم فقال: أنتم الذين قلتم كذا وكذا**»، وهذه أيضًا فيها فائدة عظيمة؛ النقل عن الأشخاص أحيانًا لا يكون صحيحًا، وأحيانًا يكون فيه شيء

---

(١) رواه البخاري (٣٩).

من الزيادة والتقول، وأحيانًا يكون فيه شيء من الغلط، وأحيانًا يكون وشاية ونحو ذلك، فبدأ النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بسؤالهم: «**أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟**»، فهذا فيه فائدة فيما يتعلق بمناصحة الآخرين، لا بد من التحقق والتأكد من وجود الأمر فيه.

فلما عرف عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أنه صدر منهم ذلك قال: «**أما والله، إني لأخشاكم لله وأتقاكم لله**»؛ أي: أنا أكثركم لله خشية وأعظمكم له تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ تقوىٰ، وقدَّم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بهذه المقدمة تمهيدًا بين يدي بيان خطئهم، ولنلاحظ أن الخطأ الذي عندهم بُني علىٰ ظن منهم أن النبي ﷺ غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وشأن غفران الذنوب أن تكون العبادة أقل، وكثير من الذنوب يحتاج إلىٰ أن تكون عبادته أكثر، فقدم بهذه المقدمة: «**إني لأتقاكم لله وأخشاكم لله**»؛ أنا أعظمكم تقوىٰ لله وأعظمكم خشية لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وهذه التقوىٰ والخشية له جَلَّ وَعَلَا لا تجعل الإنسان يفرط، بل تزيد من إقباله، كما قال في حديث آخر عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**أفلا أكون عبدًا شكورًا**»(١).

فقال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**لكني أصوم وأُفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء**»، خلاف التشديد الذي كان من هؤلاء علىٰ أنفسهم.

قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**لكني أصوم وأفطر**»؛ يعني: أصوم أيامًا وأفطر أيامًا، وأحدهم كان طلب صيام الدهر بالتشديد علىٰ نفسه، لكن من فضل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ورحمته تناول ثواب صيام الدهر دون أن تشدد علىٰ نفسك، السنة كلها خير وبركة، فتنال ثواب صيام الدهر دون أن تشدد علىٰ نفسك، قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**من صام رمضان ثم أتبعه ستًّا من شوال، كان كصيام**»(٢)، وقال أيضًا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في

---

(١) رواه البخاري (٤٨٣٧)، ومسلم (٢٨١٩).

(٢) رواه مسلم (١١٦٤).

الحديث الآخر: «صَوْمُ شَهْرِ الصَّبْرِ وَثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ صَوْمُ الدَّهْرِ»(١)، فالذي يصوم شهر رمضان ويصوم ثلاثة أيام من كل شهر فكأنما صام الدهر كله، فينال ثواب صيام الدهر دون أن يشدد علىٰ نفسه، وهذا من فضل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ علىٰ عبده المؤمن، أيضًا فيما يتعلق بقيام الليل من يحافظ علىٰ هديه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ويحافظ علىٰ الفرائض الواجبات في بيوت الله يُكتب له أجر القيام، قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**من صلىٰ العشاء في جماعة فكأنما قام نصف الليل، ومن صلىٰ الصبح في جماعة فكأنما صلىٰ الليل كله**»(٢)، فالذي يصلي الفجر مع الجماعة ويصلي العشاء مع الجماعة وينام ويصلي ويأخذ حظًّا من قيام الليل كُتب له قيام ليلة، وفي رمضان قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**من قام مع الإمام حتىٰ ينصرف كتب له قيام ليلة**»(٣)، فالسنة خير وبركة فعندما يحافظ المسلم عليها، وعلىٰ هدي النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فإنه يكتب له الصيام، ويكتب له القيام، وهذا من فضل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ورحمته بعباده المؤمنين.

قال: «**وأتزوج النساء**»، والزواج له حِكم، ويترتب عليه مصالح وفوائد عظيمة جدًّا، منها يكسر الشهوة، ويتحقق به السكن للإنسان والطمأنينة وراحة البال، ويكون به النسل، «**تزوجوا الودود الولود؛ فإني مكاثر بكم الأمم**»(٤)، فرغَّب عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في ذلك، ثم إذا اجتهد الإنسان مع أولاده تربية لهم وتأديبًا وتنشئة لهم، فيموت ويبقىٰ أيضًا من عمله الصالح، «**إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاثة...**»، وذكر منها

---

(١) رواه أحمد (٧٥٧٧)، والنَّسائي (٢٤٠٨)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٧١٨).

(٢) رواه مسلم (٦٥٦).

(٣) رواه أبو داود (١٣٧٥)، والترمذي (٨٠٦)، والنسائي (١٣٦٤)، وابن ماجه (١٣٢٧)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٦١٥).

(٤) رواه أبو داود (٢٠٥٠)، وحسنه الألباني في «صحيح أبي داود» (١٧٨٩).

عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**ولد صالح يدعو له**»[(١)]، فلماذا يحرم الإنسان نفسه من هذا الخير ويقول: أنا لا أتزوج؟! بل يتزوج ويجتهد في حصول النسل ويدعو الله عَزَّوَجَلَّ أن يصلح له الولد والذرية ويجتهد في تربيتهم، وإذا مات أيضًا بقي لهذا الولد عقب خير فهم يدعون له ويتصدقون عنه ويستغفرون له ويصل إليه ثواب ذلك وهو في قبره مرتهن.

فإذًا؛ هذه الأمور التي وقع فيها هؤلاء من باب الإحسان وإرادة الخير، وكم من إنسان يقع في الخطأ من حيث أراد الخير، ولهذا عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وأرضاه بلغه أن جماعة مجتمعين في المسجد وعليهم رجل قائم يقول: كبروا مائة فيكبرون مائة فيقول هللوا مائة فيهللون مائة ويقول سبحوا مائة فيسبحون مائة، فدخل عليهم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وقال: «ما هذا الذي أراكم تصنعون؟ قالوا: يا أبا عبد الرحمن! حصىً نعدُّ به التكبيرَ والتهليلَ والتسبيحَ، قال: فعُدوا سيِّئاتكم فأنا ضامنٌ أن لا يَضيعَ من حسناتكم شيءٌ، وَيْحَكم يا أمّة محمد! ما أسرع هلكتكم! هؤلاء صحابةُ نبيِّكم ﷺ متوافرون، وهذه ثيابُه لم تَبْلَ، وآنيتُه لم تُكسر، **والذي نفسي بيده إنَّكم لَعلَىٰ مِلَّةٍ هي أهدىٰ من مِلَّة محمد ﷺ أو مفتتحو باب ضلالة؟!** قالوا: والله يا أبا عبد الرحمن! ما أردنا إلا الخير، قال: وكم من مريد للخير لن يصيبه»[(٢)]، فكثير من الناس يقع في بدع وأعمال مخالفة للسنة وأمور لا أصل لها، وهو في قرارة نفسه ما أراد إلا الخير، وما أراد الشر، ولكنه بعمله هذا يقع في المخالفة، فقالوا: «والله يا أبا عبد الرحمن، ما أردنا إلا الخير»، فقال رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وأرضاه: «وكم من مريد للخير لن يصيبه»؛ أي: أنه لا يدرك الخير إلا من يتحراه ويجتهد في طلبه في ضوء سنة النبي الكريم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ

---

(١) رواه مسلم (١٦٣١).

(٢) رواه الدارمي في سننه (٢٠٤)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٠٠٥).

القائل ﷺ: «**تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا؛ كتاب الله وسنتي**»، فالذي يجاهد نفسه علىٰ لزوم السنة والتقيد بها والاكتفاء بما جاء عنه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ هو الذي يصيب الحق ويصيب الخير، أما أن يفتح لنفسه باب الاجتهاد ويقول: «هذا الذكر قليل الذي جاء في السنة ما يكفينا، وهذه الصلاة التي في الليل قليلة ما تسعنا، وهذا الصيام كذا»، ويبدأ يفتح علىٰ نفسه أبوابا من التشديد والأعمال التي ما أنزل الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بها من سلطان، فيشدد علىٰ نفسه فيشدد الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عليه، «**يسروا ولا تعسروا، بشروا ولا تنفروا**»، بهذا كان يوصي صلوات الله وسلامه عليه.

ثم ختم بأصل عظيم وقاعدة جليلة في الباب يجب علىٰ كل مسلم أن يحفظها وأن يعيها، قال: «**فمن رغب عن سنتي فليس مني**»، من رغب عن السنة؛ أي: اختار لنفسه غيرها رغبة عنها إما لعدها قليلة أو غير كافية أو ليست وافية أو نحو ذلك، يقول: «**فليس مني**»، وهذا من نصوص الوعيد الدالة علىٰ عظم هذا الأمر وخطورته، وأنه ذنب وإثم عظيم استحق صاحبه أن يقول فيه النبي ﷺ: «**ليس مني**»؛ أي: من كان راغبًا عن السنة فليس مني، وهذا من أحاديث الوعيد والتهديد الدالة علىٰ أن هذا الأمر ذنب عظيم.

ويجب أن نفهم أنه قد تكون الرغبة عن السنة بفعل عبادات لكنها ليست مشروعة أو زائدة عن الحد المشروع، فيضني الإنسان نفسه ويتعبها ويرهقها بعبادات، لكنه فيما ليس علىٰ سنة النبي ﷺ، فيؤزر ولا يؤجر، ويأثم ولا يثاب، وقد قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كما تقدم: «**من عمل عملًا ليس علهي أمرنا فهو رد**»؛ أي: مردود علىٰ صاحبه.

وهنا سؤال عندما قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**فهو رد**»، هل المعنىٰ أي مردود عليه ويكون الأمر لا له ولا عليه؟ يعني: لا ينال ثوابًا ولا ينال عقابًا؟

الجواب لا والله، بل البدعة باب إثم، وهي أخطر من المعصية، وباب شر على الإنسان، ولهذا هنا قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**من رغب عن سنتي فليس مني**»، ولهذا يجاهد الإنسان نفسه على العناية بالسنة وحفظها وضبطها والعمل بها والدعوة إليها، ولما خطب عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الناس ووعظهم في مسجد الخيف في أيام التشريق بمنى قال كلمة عظيمة لعموم المسلمين الذين أمامه، قال: «**نضَّر الله امرأً سمع مقالتي فحفظها فوعاها، فأداها كما سمعها**» كما سيأتي بإذن الله، فرغب ﷺ في حفظ السنة وفهمها وضبطها وإبلاغها للأمة بعد أن يعتني العبد في نفسه تطبيقًا لها ومحافظة عليها.

* * *

[بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا]

٩٢- وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**بَدَأَ الإِسْلَامُ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ فَطُوبَىٰ لِلْغُرَبَاءِ**». رَوَاهُ مُسْلِمٌ[(١)].

ثم أورد رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ هذا الحديث العظيم، قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**بدأ الإسلام غريبًا**»؛ أي: بدأ في أفراد وآحاد من الناس، والواحد منهم بتمسكه بدينه ومحافظته عليه يحس أنه في غربة، ومَن حوله ليسوا منه وليس منهم فهو غريب، مثل الرجل الذي يدخل مصرًا غير مصره وبلدًا غير بلده، ويمشي في الطرقات، ويلتفت هنا وهنك ينظر إلىٰ هذا وذاك لا يعرفهم ولا يعرفونه، بخلاف ما إذا كان في وسط أهله وعشيرته وجماعته وقرابته يمشي في الطريق، وأغلب من يراه يعرفهم ويعرفونه، فإذا ذهب إلىٰ بلد آخر يحسس بالغربة لا يعرِف ولا يُعرف، والإسلام بدأ غريبًا، الناس لا يعرفونه، بل جاء في الحديث عنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أنه قال: «**وإن الله نظر إلىٰ أهل الأرض، فمقتهم عربهم وعجمهم**»[(٢)]؛ لأن الجاهلية والعياذ بالله عمت الأرض كلها قبل مبعثه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وخيمت علىٰ جميع أطرافها، ولا يذهب الإنسان أي مكان في الأرض وفي أرجاء المعمورة إلا وقد عشعشت فيه الجاهلية وخيم فيه الضلال في الأرض كلها، ثم قال: «**إلا بقايا من أهل الكتاب**»: إلا قلة ونزل قليل وعدد يسير جدًّا، أما الأرض فقد خيمت عليها الجاهلية بكل أطرافها قبل مبعثه

---

(١) رواه مسلم (١٤٥).

(٢) رواه مسلم (٢٨٦٥).

عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وبدأ الإسلام ينشأ ويشع نوره ويظهر ضياؤه في جاهلية جهلاء وضلال مخيم، فكان مَن يُسلم ويعتنق هذا الدين ويدخل فيه يعيش حياة غربة، فميشي بين الناس غريبًا ليس منهم وليسوا منه، ليس على طريقتهم وليسوا على طريقته، فبدأ الإسلام غريبًا.

قال: «**وسيعود غريبًا كما بدأ**»، سبحان الله! الذي يتأمل في نشأة الإسلام وبدايته كيف بدأ غريبًا، لا يعرفه إلا القلة من الناس، قال: «**وسيعود غريبًا كما بدأ**»؛ بمعنى: أن الضلالة يعود إليها كثير من الناس: الانحراف، أباطيل، خصال أهل الجاهلية وأعمالهم، أما الإسلام النقي السالم من أوضار الجاهلية وضلال أهل الأهواء وأباطيل أهل الباطل فإنه سيعود غريبًا، فالذي سيعود غريبًا كما بدأ هو الإسلام الصافي النقي، أما الإسلام المدَّعى أو الإسلام المشوب بالأضاليل والأباطيل والأهواء واتباع الخرافات في دين الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فيوجد!

قال: «**فطوبى للغرباء**»، وهذا فيه حث عظيم وترغيب وتحريض منه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ على حفظ السنة والمحافظة عليها والاقتداء بهديه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ولا سيما إذا أعرض الناس عن السنة ورغبوا عنها وانشغلوا بالأهواء والأضاليل والأباطيل.

قال: «**فطوبى للغرباء**»، قيل: «**طوبى**»: الثواب العظيم والوعد الجزيل والأجر الكثير، وقيل: (**طوبى**): هي الجنة، وقيل: (**طوبى**) جاء في الحديث عن النبي ﷺ: «**شَجَرَةٌ فِي الْجَنَّةِ مَسِيرَةُ مِائَةِ عَامٍ ثِيَابُ أَهْلِ الْجَنَّةِ تَخْرُجُ مِنْ أَكْمَامِهَا**»[(١)].

فالشاهد أن النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وعد من حافظ على الإسلام واجتهد في

(١) رواه أحمد في «مسنده» (١١٦٧٣)، وابن حبان في «صحيحه» (٧٤١٣)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (٣٧٣٦).

التمسك به والمحافظة عليه بهذا الوعد العظيم، قال: «**طوبىٰ للغرباء**»، وقد سُئل عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في رواية ثابتة لهذا الحديث من هم؟ قال: «**الذين يُصلحون ما أفسد الناس**»[(١)]، وفي لفظ: «**الذين يَصلُحون إذا فسد الناس**»[(٢)]، فإذا حصل في الناس فساد، والفساد يدخل علىٰ الناس من جهة التخلي عن السنة والرغبة عنها والوقوع في البدع والأضاليل، فمن كان في مثل هذه الحال حريصًا علىٰ السنة، محافظًا عليها، متمسكًا بها، داعيًا إليها، ناصرًا عنها، فطوبىٰ له، كما أخبر عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

❊ ❊ ❊

(١) رواه الترمذي (٢٨٣٩).

(٢) انظر: «السلسلة الصحيحة» (٣/ ٣٤٧).

[علامة الإيمان: حبُّ ما جاء به الرسول ﷺ]

٩٣- وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ**». رَوَاهُ البَغَوِيُّ فِي «شَرْحِ السُّنَّةِ»، وَصَحَّحَهُ النَّوَوِيُّ[(١)].

ثم أورد رَحِمَهُٱللَّهُ تعالىٰ هذا الحديث عن عبد الله بن عمرو رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يؤمن أحدكم حتىٰ يكون هواه تبعًا لما جئت به**»، وهذا فيه أن الإيمان لا يتحقق للعبد، ولا يتم إلا إذا ألزم نفسه بالتزام السنة، والتقيد بما كان عليه الرسول عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ، فلا يرغب عن السنة، بل يرغب فيها ويحرص عليها ويجاهد نفسه علىٰ التمسك بها، ولا يكون في قلبه والعياذ بالله كراهية لها أو استيحاشًا منها أو بغضًا لشيء من هديه عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ، بل يكون هواه؛ أي: ما تهواه نفسه وتميل إليه وترغب في تحصيله، تبعًا لما جاء به الرسول عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ.

السؤال: ومتىٰ يبلغ الإنسان هذه الرتبة العالية والدرجة الغالية؟

والجواب: هذه الرتبة لا تُبلغ إلا إذا حصل من الإنسان قناعة تامة بأن هدي النبي ﷺ خير الهدي، وأنه عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ أولىٰ بالإنسان من نفسه، ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ﴾ [الأحزاب: ٦]، وأنه أحرص علىٰ نفسك منك، فإذا اقتنع الإنسان بهذا الأمر قناعة تامة واطمأن قلبه بذلك وراضت نفسه علىٰ ذلك؛ فإن هوىٰ

---

(١) رواه البغوي في «شرح السنة» (١٠٤)، وصححه النووي في «الأربعين» (ص٥١)، وضعفه الألباني في «المشكاة» (١٦٧).

القلب وميوله سيكون بإذن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لما جاء به النبي ﷺ، ولا بد في ذلك كله من عون الله وهدايته وتوفيقه وشرحه صدر عبده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لذلك، فالهداية والتوفيق بيده جَلَّ جَلَالُهُ.

❋ ❋ ❋

[صفات الفِرْقة الناجية من النار]

٩٤- وَعَنْهُ أَيْضًا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَيَأْتِيَنَّ عَلَىٰ أُمَّتِي كَمَا أَتَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ حَذْوَ النَّعْلِ بِالنَّعْلِ، حَتَّىٰ إِنْ كَانَ فِيهِمْ مَنْ أَتَىٰ أُمَّهُ عَلَانِيَةً لَكَانَ فِي أُمَّتِي مَنْ يَصْنَعُ ذَلِكَ، وَإِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ افْتَرَقَتْ عَلَىٰ ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، وَسَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَىٰ ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، كُلُّهُمْ فِي النَّارِ إِلَّا مِلَّةً وَاحِدَةً**»، قَالُوا: مَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللهِ؟، قَالَ: «**مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي**». رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ(١).

ثم أورد رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ هذا الحديث عن نبينا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أنه قال: «**ليأتين علىٰ أمتي كما أتىٰ علىٰ بني إسرائيل**»، ويفسره قوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في الحديث الآخر: «**حذو القذة بالقذة**»(٢)، في رواية: «**شبرًا بشبر ذراعًا بذراع، حتىٰ لو دخلوا في جحر ضب لاتبعتموهم**»(٣)، وهذا منه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إخبار أراد به التحذير والنصح للأمة، أن يحذروا من ذلك وأن يحذروا من اتباع سنن اليهود والنصارىٰ وأعداء الدين، فأخبر أن هذا سيوجد في الأمة، وأن كل أمر يفعله اليهود والنصارىٰ وأعداء الدين سيوجد في المنتسبين للإسلام من يفعله ومن يتشبه بهم فيه.

قال: «**ليأتين علىٰ أمتي كما أتىٰ علىٰ بني إسرائيل حذو النعل بالنعل**»، في الحديث الآخر قال: «**حذو القذة بالقذة**»؛ فإذا جئت بريش السهم وقارنت بينها

---

(١) رواه الترمذي (٢٦٤١)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٣٤٣).

(٢) رواه أحمد في «مسنده» (١٧١٣٥)، وحسنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٣٣١٢).

(٣) رواه البخاري (٣٤٥٦)، ومسلم (٢٦٦٩).

تجدها متساوية متماثلة؛ أي: أنهم يفعلون مثلهم تمامًا في كل صغير وكبير وكل دقيق وجليل، بل تصاب القلوب في بعض الأزمنة والعياذ بالله بسبب الفتنة وكون القلوب أشربت بالهوىٰ يصاب الناس في بعض الأوقات أنهم يتتبعون بكل دقة كل جديد عند اليهود والنصارىٰ، يتتبعونه بكل دقة وبكل لهف ويسألون عنه ويراقبونه، ثم إذا وجده فرح به غاية الفرح، وأنه من أوائل من جاء باتباع اليهود واتباع النصارىٰ ومن أوائل من حاز المشابهة لهم والمطابقة لأفعالهم وأقوالهم، وهذه مصيبة عظيمة في حال كثير من الناس؛ حين يتشبه بأعداء الدين في كل شيء، وهذا لا يكون إلا بسبب مرض القلب ورقة الدين، وإلا كيف يرضىٰ المسلم لنفسه بالدنية؟ وكيف يتبع أعداء دين الله عَزَّوَجَلَّ؟ وكيف يتبع الخاسرون الأخسرين أعمالًا؟ كيف يرضىٰ لنفسه بذلك؟ وقد تجد أن بعض الشباب ومن بعض النساء الحرص الشديد علىٰ مراقبة لأعمالهم وحركاتهم؛ المشي، اللباس، قصة الشعر، إلىٰ آخره فيتابعونهم متابعة دقيقة جدًّا، وهذه من المصائب.

قال: «**حذو النعل بالنعل**»؛ أي: أنهم يتابعونهم متابعة دقيقة خطوة بخطوة، مثل لو أن رجلًا يمشي بنعله في طريق وآخر يمشي خلفه يضع نعله خلف نعل الرجل يحاكيه في مشيته ويطأ موطئه ويتبعه.

حتىٰ قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**حتىٰ إن كان فيه ممن أتىٰ أمَّه علانية لكان في أمتي من يصنع ذلك**»، لو كان فيهم من أتىٰ أمه علانية؛ يعني: من اقترف الفاحشة والجريمة مع أمه علانية أمام الناس لكان في أمتي من يفعل ذلك، هذا كله قاله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ تحذيرًا للأمة ونهيًا لهم عن اتباع اليهود والنصارىٰ.

فعندما يُشرب القلب هوىٰ اتباع هؤلاء يمرض وتتغير عنده المفاهيم، وأذكر مثالًا علىٰ ذلك:

كان في زمان قريب بعض الشباب غير المتدين إذا رأوا الشاب الذي يلبس ثوبًا إلىٰ أنصاف ساقيه أو فوق الكعب؛ أن هذه هيئة منكرة وهيئة تجلب السخرية والضحك، فيسخرون ويستهزؤون منه، وإذا مر بهم يتغامزون، وبعد مدة زمانية أصبحت الموضة عند الغرب أن يُلبس البنطال إلىٰ الركبة أو أعلىٰ من الركبة قليلًا، فخرج هؤلاء الذين كانوا يضحكون ولبسوا البناطيل إلىٰ الركبة وقطعوها من الأسفل ومشوا في الشوارع معجبين بأنفسهم، ويرون أن هذا هو الرقي، والتطور والحضارة، وهذا الجمال، والله المستعان.

وأذكر كذلك أني رأيت رجلًا في إحدىٰ الدول حلق نصف رأسه الأيمن بالموس، والنصف الثاني الأيسر تركه طويلًا كاملًا وصبغه بالأخضر، أنا لما رأيته قلت: «سبحان الله! كيف استطاع هذا الرجل أن يمشي بين الناس؟! وكيف استطاعت قدماه أن تخطو مشيًا بين الناس بهذا المنظر الشنيع؟!»، ثم نظرت إليه ثانية وإذا به معجب بنفسه يمشي بإعجاب وفخر، ويرىٰ أنه من أحسن ما يكون، ولا تعجب لو رآه أحد الشباب حذو النعل بالنعل، لقال: «هذه سابقة، من يصل هذا الأمر! هذا هو الآن قمة الحضارة وقمة الرقي»، فعقول والعياذ بالله مخسوفة، فهنا ينتبه المسلم قال: «**حذو النعل بالنعل**»، وهناك قال: «**حذو القذة بالقذة**»، فكل أمر حتىٰ لو وجد فيهم من أتىٰ أمه علانية لوجد من يصنع ذلك، نعوذ بالله العظيم.

قال: «**وإن بني إسرائيل افترقت علىٰ اثنتين وسبعين ملة، وستفترق أمتي علىٰ ثلاث وسبعين ملة**»، هنا أيضًا قال ذلك صلوات الله وسلامه عليه ناصحًا للأمة، وهذا الحديث صحيح ثابت عنه، ولا ينبغي أن نلتفت للمشغبين ممن لا دراية لهم بأحاديث عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ولا معرفة لهم بها ولا خبرة ممن يشغبون ويهونون من هذه الأحاديث، مثل أحدهم يقول: «هذا الحديث يحتاج إلىٰ أن يعاد النظر فيه متنًا

وسندًا»، وهو ليس من أهل هذا الشأن، أو يطعن في صحته، وهو ليس من أهل الدراية بهذا الشأن، وبعضهم والعياذ بالله يقلبه بناء علىٰ رواية منكرة بإجماع أهل العلم، «كلهم في الجنة إلا واحدة»، فمثل هؤلاء لا يُلتفت إلىٰ كلامهم ويُعرض عنه، والنبي ﷺ قال ذلك ناصحًا للأمة، فلماذا يأتي هؤلاء ويغيرون من هذه النصيحة؟ أين الغيرة علىٰ الأمة والنصح لها؟! النبي ﷺ لما قال لنا: «**وستفترق هذه الأمة علىٰ ثلاث وسبعين فرقة**»، قال ذلك ناصحًا لنا، فلما يأتي أقوام ويحاولون التقليل من هذا الحديث والطعن فيه والتقليل من شأنه، ويزعمون أن هذا الحديث يفرق ويشق الصف، ونحو ذلك من المعاني، النبي ﷺ قال ذلك ناصحًا للأمة، إذا قبِلت أول الحديث لماذا ترد آخره؟ أليس قال في أول الحديث: «**لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرًا شبرًا حذو النعل بالنعل**»، أتقرُّ بذلك أو لا تقر؟ أتقر أنه سيوجد في الأمة من يكون هذا شأنه؟ سيقول: نعم، فما دمت تقر بهذا فلماذا تعجب من قوله في تمام الحديث: «**وستفترق هذه الأمة علىٰ ثلاث وسبعين فرقة**»؟!

ولهذا يجب أن يتقي الله عَزَّوَجَلَّ من يقلل من أمثال هذه الأحاديث المشتملة علىٰ نصيحة بالغة عظيمة من النبي عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لأمته، في الحديث قال: «**إنه من يعش منكم فسيرىٰ اختلافًا كثيرًا**»، ماذا يقول القائل في هذا الحديث؟ وماذا يقول في قوله: «**لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرًا شبرًا**»؟ فالشاهد: أن النبي عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قال ذلك نصحًا، ومن يقول أنه هذا غير صحيح، وأن الأمة لا تفترق مقالته هذه هي في الحقيقة فتح لباب البدع والضلال علىٰ مصراعيه؛ لأن النبي ﷺ قال ذلك تحذيرًا للأمة من البدع والضلال.

قال: «**وستفترق هذه الأمة علىٰ ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار**» وهذا وعيد قال: «**كلها في النار إلا واحدة**»، فهذا أمر توعد به النبي ﷺ أهل الافتراق، قال: «**كلها**

في النار إلا واحدة».

«**قالوا: من هي يا رسول الله؟ قال: من كان علىٰ مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي**»، هذه نجاته محققة، مثل ما قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**من صمت نجا**»[(١)]؛ أي: نجاته محققة، فمن لم يكن علىٰ مثل ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه ووقع في بعض البدع لا يعني الحديث أن من كان كذلك أنه في النار قطعًا، قد يتوب توبة نصوحًا، وقد تكون هناك مصائب مكفرة، وقد تكون هناك حسنات ماحية، فهذا الحديث خرج مخرج النصيحة للناس وتحذيرهم من الباطل وتحذيرهم من البدع، وخرج مخرج جمع الكلمة علىٰ السنة وعلىٰ الحق وعلىٰ الهدىٰ وعلىٰ اتباع ما كان عليه النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، والتحذير من الأهواء التي تفرق الناس وتفرق صفهم، وتوقع بينهم التدابر والتعادي، فمن لم يفهم مراد النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ولم يفهم مقصده ينجر إما إلىٰ رد الحديث من الأصل، أو الخوض في تأويلات باطلة وتحريفات كاسدة ما أنزل الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بها من سلطان.

والخلاصة: أن الواجب علينا أن نعي أن النبي ﷺ قال ذلك ناصحًا لنا، فنجاهد أنفسنا من سبل التفرق والاختلاف ومن طرائق أهل البدع والأهواء، وأن نُلزم أنفسنا بسنة نبينا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وهديه القويم.

* قوله في تمام الحديث: «**من كان علىٰ مثل ما أنا عليه وأصحابي**»، وهذا فيه أن الدين الصحيح هو ما كان في زمن النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ولهذا قال مالك بن أنس رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**فما لم يكن يومئذ دينا فلا يكون اليوم دينا**»[(٢)]، فالدين الصحيح هو الدين الذي كان في زمن النبي ﷺ، أيقول عاقل: إن أمورًا من الدين وجوانب منه حُرم منها

---

(١) رواه الترمذي (٢٥٠١)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٣٦٧).

(٢) «الاعتصام» (١/ ٣٣).

الصحابة وادُّخرت لأقوام جاء بعدهم؟! هذا لا يقوله عاقل، ولهذا عبد الله بن مسعود قال كلمته التي مرت معنا قريبًا، قال: «**والذي نفسي بيده إنَّكم لَعلَىٰ مِلَّةٍ هي أهدىٰ من مِلَّة محمد ﷺ أو مفتتحو باب ضلالة؟!**»؛ لأن هذه العبادة التي أنتم عليها لم تكن موجودة في زمن النبي ﷺ وأصحابه الكرام، ولهذا سيأتي أيضًا عند المصنف عن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «**كل عبادة لا يتعبدها أصحاب رسول الله ﷺ فلا تعبدوها؛ فإن الأول لم يدع للآخرِ مقالا**».

* * *

[أجر من دعا إلى هدًى]

٩٥- وَلِمُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ مَرْفُوعًا: «مَنْ دَعَا إِلَىٰ هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ لَا يُنْقِصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ دَعَا إِلَىٰ ضَلَالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ لَا يُنْقِصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا»(١).

ثم أورد المصنف رَحِمَهُٱللَّهُ تعالىٰ هذا الحديث في «باب تحريضه ﷺ علىٰ لزوم السنة والترغيب في ذلك وترك البدع والتفرق والاختلاف والتحذير من ذلك»، بعد أن ساق رَحِمَهُٱللَّهُ تعالىٰ جملة من الأحاديث المشتملة علىٰ الحث علىٰ التمسك بالسنة والتقيد بها.

وهذا الحديث حديث أبي هريرة يرفعه إلىٰ النبي ﷺ، قال فيه: «**من دعا إلىٰ هدىٰ كان له من الأجر مثل أجور من تبعه**»، المراد بالهدىٰ؛ أي: الذي ترك النبي ﷺ أمته عليه، وكل عملٍ يُتقرب به إلىٰ الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ مما لم يأتِ به فيه سنة عنه صلوات الله وسلامه عليه فهو من الضلالة وليس من الهدىٰ، لأن الهدىٰ هو ما جاء به النبي عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ، قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ﴾ [النور: ٥٤]، فلا يكون إصابة الهدىٰ إلا باتباعه والسير علىٰ منهاجه، وقد مر قريبًا قوله عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «أما بعد، فإن أصدق الحديث كلام الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ».

قال: «**من دعا إلىٰ هدىٰ**»؛ أي: من دعا إلىٰ حق وخير مما جاء به الرسول عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ، «**كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم**

---

(١) رواه مسلم (٢٦٧٤).

شيئًا»؛ أي: أن الداعي إلىٰ الحق والهدىٰ وإلىٰ سنة النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كان له من الأجر مثل أجور من تبعه.

ولا يراد بقوله: «**من تبعه**»؛ أي: من سمعوا منه هذه الدعوة، بل يشملهم ويشمل أيضًا أتباع الأتباع وأتباعهم إلىٰ ما شاء الله، فلو دعا إنسان إلىٰ سنة ثم من دعاهم إليها دعوا آخرين، والآخرين أيضًا دعوا آخرين إلىٰ ما شاء الله؛ كل هؤلاء يُكتب أجورهم لمن دعاهم إلىٰ هذه السنة أولًا، ولهذا فإن نبينا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ له مثل أجور أمته إلىٰ قيام الساعة، وكل من اتبعه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فللنبي ﷺ مثل أجره، فله ﷺ مثل أجر الحجاج في حجهم، والمعتمرين في عمرتهم، والصائمين في صيامهم، والمتصدقين في صدقتهم، والبارين بوالديهم في برهم، والواصلين للأرحام في صلتهم، إلىٰ غير ذلك من الطاعات، وكل طاعة يقوم بها المسلم في أي وقت وزمان اتباعًا للنبي الكريم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مثل أجره؛ لأنه رغَّب في ذلك ودعا إليه ودل الأمة إليه وأرشدهم إليه، ومن دعا إلىٰ هدىٰ كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيء.

أيضًا الصحابة الكرام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وأرضاهم دعاة حق وهدىٰ، الآن لما نقول: «قال أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وغيرهم من الصحابة»، ونروي من طريقهم أحاديث إلىٰ النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كانوا هم حملتها العدول ونقلتها الأخيار، وأيضًا ما حُفظ عنهم من الفقه في دين الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، كل هؤلاء يُكتب لهم أجر من تبعهم لا ينقص ذلك من أجورهم شيء، فهذا فيه فضل عظيم، ولهذا ينبغي علىٰ المسلم أن يجتهد في أن يكون له حظ من الدعوة إلىٰ الهدىٰ حتىٰ يفوز بهذا الحظ العظيم من الأجر، وكل في مقدوره ومستطاعه، ومن لم يكن عالمًا بالسنة يستطيع في زماننا هذا أن ينهل من علم

العلماء بها في الكتب النافعة والأشرطة المفيدة، ونقل سنن النبي ﷺ إلىٰ الناس وترغيبهم في الخير وحثهم عليه من الأهل والولد والأقارب ومن يلقاهم الإنسان بالكلمة الطيبة والرفق واللين، حتىٰ ينتشر الخير.

«**من دعا إلىٰ ضلالة**»؛ أي: من كان داعية ضلالة والعياذ بالله، يدعو إلىٰ البدع أو الأهواء أو الخرافات وما لا أصل له في دين الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، أو يدعو إلىٰ اتباع هوىٰ النفس من الآثام وما يُسخط الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، أو يدعو إلىٰ الفجور.

«**كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا**»، كما قال الله في القرآن: ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [النحل: ٢٥]، فالداعية إلىٰ ضلالة يبوء بإثم نفسه ويبوء بإثم من دعاهم إلىٰ ضلالته، ودعاة الضلالة الذين ضلوا علىٰ يديه إذا دعوا آخرين يبوء أيضًا بالإثم، ومما يوضح هذا قول النبي ﷺ فيما معناه: «**لم تقتل نفس ظلمًا إلا كان لابن آدم الأول كفل من دمها؛ لأنه أول من سن القتل**»(١)، فكل من سن سنة سيئة ودعا الناس إلىٰ ضلالة فإنه يحمل والعياذ بالله إثم ضلالته وإثم ضلالة أتباعه إلىٰ يوم القيامة.

ولهذا أيضًا قال العلماء: أن الداعية إلىٰ البدع إذا تاب لا يكفي أن يتوب في نفسه، بل لا بد أن يجتهد في إصلاح ما أفسد، ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ﴾ [البقرة: ١٦٠]، ولا بد أن يصلح إذا كان من دعاة الباطل والضلال، ولا يكفي أن يتوب في نفسه، بل لا بد أن يصلح ما أفسده في الناس ويبين لهم بطلان ما كان يدعوهم إليه تحذيرًا ونصحًا.

---

(١) رواه البخاري (٣٣٣٥)، ومسلم (١٦٧٧).

فهذا الحديث فيه حث علىٰ الدعوة إلىٰ السنة وتحذير من الدعوة إلىٰ الضلال والباطل، وفيه أيضًا تنبيه إلىٰ خطورة الكلمة، فالكلمة التي تخرج منك إما أن تكون لك أو عليك، وهي خطيرة لا يستهين بها الإنسان، فهو موقوف بين يدي الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وسائله عن كلامه، ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]، فيحفظ كلامه ويزنه بميزان الحق والهدىٰ، ميزان كتاب الله وسنة نبيه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فبعض الناس الآن يستهين في أمر الإخبار عن دين الله عَزَّوَجَلَّ أو بيان الأحكام؛ فتجد الناس والعوام والجهال بدين الله إذا ذُكر أمر من أمور الدين كل يدلي بدلوه ويبدي برأيه بدون فهم وبدون علم، هذا يقول الحكم كذا وذاك يقول الحكم كذا، قد جاء عنه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**وَمَنِ اسْتَشَارَهُ أَخُوهُ الْمُسْلِمُ فَأَشَارَ عَلَيْهِ بِغَيْرِ رُشْدٍ فَقَدْ خَانَهُ وَمَنْ أَفْتَىٰ بِفُتْيَا غَيْرِ ثَبْتٍ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَىٰ مَنْ أَفْتَاهُ**»(١)، فالكلمة خطيرة جدًّا كما نلاحظ في هذا الحديث.

سؤال: كيف أكون داعية إلىٰ الهدىٰ؟

الجواب: هذا مطلب عظيم جدًّا يثيره في نفوسنا وفي قلوبنا هذا الحديث العظيم المبارك، «**من دعا إلىٰ هدىٰ كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا**»، فينبغي أن تعلم هنا أيها الأخ الموفق أن من دعا إلىٰ الهدىٰ وإذا مات ودُفن وأدخل في القبر تصل إليه الأعمال تلو الأعمال، والأجور تلو الأجور، إلىٰ قيام الساعة، ما دام أن هناك مستفيدين من دعوته الصحيحة إلىٰ الحق والهدىٰ، فأئمة الهدىٰ الذين ماتوا من سنوات عديدة، بل ودعاة الخير الذين ماتوا من قرون طويلة وهم في قبورهم والأجور تصل إليهم تلو الأجور، يومًا تلو يوم تصلهم الحسنات في

(١) رواه أحمد في مسنده (٨٢٦٦)، وأبو داود (٣٦٥٧)، وابن ماجه (٣٤)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٠٦٨).

ملاحدهم، كما يدل علىٰ ذلك هذا الحديث العظيم، ومن الناس من هو الآن حي يمشي علىٰ وجه الأرض وحظه من الأجور قليل جدًّا ونصيبه من الآثام كثير جدًّا، فكيف يكون الإنسان داعيًا إلىٰ الهدىٰ؟

- **أولًا**: تُقبل علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ إقبالًا صادقًا أن يهديك أنت في نفسك، ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]، وأن يهدي بك، وأن يجعلك صالحًا مصلحًا، ﴿إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]، فتلجأ إلىٰ الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ وتدعوه، فالتوفيق بيده سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ.

- **ثانيا**: ثم تجتهد في أن يكون لك حظ من العلم النافع والفقه في دين الله عَزَّوَجَلَّ، وتعطي العلم الشرعي نصيبًا من وقتك، ولهذا سيأتي قريبًا عند المصنف رَحِمَهُٱللَّهُ تعالىٰ التحريض علىٰ طلب العلم، فتجعل لطلب العلم نصيبًا من وقتك وجزءًا من حياتك تتفقه في دين الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، وإذا وجد عندك التفقه ولو في شيء يسير من أمور الدين فهمته وفهمت دليله وتلقيته عن أهل العلم تلقيًا صحيحًا تدعو إليه وتنصح الآخرين به وترغبهم فيه، فيكتب لك أجور هؤلاء وثواب هؤلاء.

- **الأمر الثالث**: أن تكون محافظًا في نفسك علىٰ العمل والعبادة، مجاهدًا نفسك علىٰ البعد عن الآثام ومقارفة الذنوب؛ لأن الدعوة إلىٰ الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ كما أنها بلسان المقال، فهي أيضًا بلسان الحال؛ بالأسوة، وكون الإنسان في خلاله وخصاله قدوة للناس في الخير، وبالمجاهدة يتحقق للعبد كل خير وفضيلة، ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

❊ ❊ ❊

٩٦- وَلَهُ عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ إِنَّهُ أَبْدَعَ بِي فَاحْمِلْنِي، فَقَالَ: «مَا عِنْدِي» فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ أَنَا أَدُلُّهُ عَلَىٰ مَنْ يَحْمِلُهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ دَلَّ عَلَىٰ خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ»[١].

ثم أورد رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ هذا الحديث عن أبي مسعود الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، «**أن رجلًا جاء إلىٰ النبي ﷺ قال: إنه أُبدع بي فاحملني**»، (**أبدع بي**)؛ أي: انقطعت دابتي وراحلتي، إما بموت أو بهلاك أو مرض فلا تستطيع نقله وحمله، قال: «**إني أبدع بي فاحملني**)؛ أي: أعطني دابة تحملني أسافر عليها.

فقال النبي ﷺ: «**ما عندي**»؛ أي: ليس عندي دابة أعطيك إياها.

«**فقال رجل: يا رسول الله، أنا أدله علىٰ من يحمله، فقال: النبي ﷺ: «من دل علىٰ خير فله مثل أجر فاعله**»، وهذا فضل عظيم وكرم من الله عَزَّوَجَلَّ ومنة علىٰ عباده، أن من دعا إلىٰ خير، و(**خير**) هنا نكرة لتعم كل خير قلَّ أو صغر في نفع الناس في دينهم أو دنياهم، فإذا دل الإنسان أخاه إلىٰ حلقة علم، إلىٰ مكان عبادة، دعاه إلىٰ هدىٰ إلىٰ اتباع سنة، دله علىٰ شيء في حاجاته مصالحه فله مثل أجر فاعله، إن كانت صدقة فله مثل أجر المتصدق، وإن كان علمًا له مثل أجر بيان العالم وهكذا.

وينبغي علينا أن نذكر إخواننا ممن يرتبون الدروس والمحاضرات لأهل العلم، بحيث يتصل بالعالم ويقول له: «منطقتنا بحاجة إلىٰ درس أو بحاجة إلىٰ محاضرة»، ويحثه علىٰ ذلك ويؤكد عليه ثم يستجيب له مثلًا العالم أو الداعية إلىٰ الله ويُعد للدرس ويراجعه له ويتجشم السفر وعناء الطريق ثم يُلقي الخير والعلم،

---

(١) رواه مسلم (١٨٩٣).

ويستفيد الناس، هذا الذي دعاه إلىٰ هذا الأمر له مثل أجره، مع أن الذي كان منه مجرد اتصال أو مكالمة بالهاتف في دقيقة أو دقيقتين، فكل هذا الجهد الذي يكون من العالم يكون لذاك مثل أجره وفضل الله واسع، وقد روي في الحديث: «إن الله عَزَّوَجَلَّ يدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة صانعه يحتسب في صنعته الخير والرامي به ومنبله»[(١)]، ولهذا لا يحرم الإنسان حظه من الخير.

من اللطائف في هذا الباب: أن الشيخ الإمام عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ ألَّف كتابًا سماه «**تحفة الأخيار في الأذكار والدعوات التي يؤتىٰ بها في طرفي الليل والنهار**»، في الصباح والمساء وأدبار الصلوات، كتاب قيم جدًّا، وهو كتاب ليس كبيرًا، لكنه مليء بالفوائد العظيمة، ومن يقرأ الكتاب يجد فيه نفعا كبيرا في الذكر والدعاء وأشياء مستفادة من سنة النبي الكريم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؛ ولما وصل إلىٰ نهاية الكتاب ختمه بهذا الحديث حديث أبي مسعود البدري الذي قال فيه النبي ﷺ: «**من دل علىٰ خير فله مثل أجر فاعله**»، وكأنه بهذه الخاتمة يعطي القارئ رسالة جميلة جدًّا، يقول له: كما أنك قرأت هذا الكتاب وعرفت هذه الأذكار واستفدت منها وحصَّلتها انشرها أيضًا بين الناس، فإنك إن فعلت ذلك كان لك مثل أجورهم.

❊ ❊ ❊

---

(١) رواه أبو داود (٢٥١٣)، والترمذي (١٦٣٧)، وابن ماجه (٢٨١١)، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (١٧٣١).

[أجر مَنْ أحيا سُنة من سننه ﷺ]

٩٧- وَعَنْ عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ مَرْفُوعًا: «**مَنْ أَحْيَا سُنَّةً مِنْ سُنَّتِي قَدْ أُمِيتَتْ بَعْدِي فَإِنَّ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أَجْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنَ النَّاسِ لَا يُنْقِصُ مِنْ أُجُورِ النَّاسِ شَيْئًا، وَمَنِ ابْتَدَعَ بِدْعَةً لَا يَرْضَاهَا اللهُ وَرَسُولُهُ فَإِنَّ عَلَيْهِ مِثْل إِثْمِ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنَ النَّاسِ لَا يُنْقِصُ مِنْ آثَامِ النَّاسِ شَيْئًا**». رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَحَسَّنَهُ، وَابْنُ مَاجَه وَهَذا لَفْظُهُ(١).

ثم أورد رَحِمَهُٱللَّهُ تعالىٰ هذا الحديث عن عمرو بن عوف رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ مرفوعًا، قال: «**من أحيا سنة من سنتي قد أميتت بعدي**»، وهذا يبين لنا معنىٰ قوله في الحديث الآخر: «**من سن في الإسلام سنة حسنة**»، المراد بالسنة الحسنة: إحياء سنة أميتت، غفل عنها الناس، وفرطوا فيها وضيعوها، فمن أحياها كُتب له أجر مثل أجر من عمل بها.

فقول النبي ﷺ: «**من سن في الإسلام سنة حسنة**»، المراد به إحياء السنن التي أميتت وغفل عنها الناس وضيعوها، وليس المراد به إحياء البدع والضلالات التي ما أنزل الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ بها من سلطان، فنشر البدع هو من الدعوة إلىٰ الضلالة، ومن سن السنن السيئة في الناس، فيبوء الإنسان بإثمها وإثم من اتبعه فيها.

قال: «**من أحيا سنة من سنتي قد أميتت بعدي فإنه من الأجر مثل أجور من عمل بها من الناس لا ينقص من أجور الناس شيئًا**»، فأجور الناس الذين استجابوا له ثابتة كاملة، وله أيضًا مثل أجرهم، فيكون للعامل في عمله أجر، ويكون لمن دعاه إلىٰ هذا

---

(١) رواه الترمذي (٢٦٧٧)، وابن ماجه (٢١٠)، وضعفه الألباني في «ضعيف ابن ماجه» (٣٧).

العمل أجر في العمل، فيشترك في ثواب العمل: العامل والداعي إلىٰ هذا العمل.

قال: «**ومن ابتدع بدعة لا يرضاها الله ورسوله**»، وقوله: «**لا يرضاها الله ورسوله**»، هذا وصف لازم لكل بدعة، فليس هناك بدعة يرضاها الله ورسوله، بل هذا وصف لازم لكل بدعة، وكل إحداث في الدين ما ليس منه لا يرضاه الله ورسوله ﷺ، نظير قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ﴾ [المؤمنون: ١١٧]، قوله: ﴿لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾، هذا وصف لازم لكل شرك.

وقوله: «**لا يرضاها الله ورسوله**»، هذا وصف لازم لكل بدعة، كما سبق أن مر معنا: «**كل بدعة ضلالة**»؛ أي: وإن ظنها الناس طيبة حسنة نافعة؛ لأن دين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تام كامل، كما قال ربنا جَلَّ وَعَلَا: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

قال: «**ومن ابتدع بدعة لا يرضاها الله ورسوله فإن عليه مثل إثم من عمل بها من الناس لا ينقص من آثام الناس شيئًا**»، وهذا الحديث في سنده شيء من الكلام، لكنه بمعنىٰ الأحاديث المتقدمة قبله.

❊ ❊ ❊

[أسباب الفتن]

٩٨- وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: «كَيْفَ أَنْتُمْ إِذَا لَبِسَتْكُمْ فِتْنَةٌ يَرْبُو فِيهَا الصَّغِيرُ، وَيَهْرَمُ فِيهَا الكَبِيرُ، وَتُتَّخَذُ سُنَّة يَجْرِي النَّاسُ عَلَيْهَا، فَإِذَا غُيِّرَ مِنْهَا شَيْءٌ قِيلَ: تُرِكَتْ سُنَّةٌ، قِيلَ: مَتَىٰ ذَلِكَ يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ؟ قَالَ: إِذَا كَثُرَ قُرَّاؤُكُمْ، وَقَلَّ فُقَهَاؤُكُمْ، وَكَثُرَتْ أَمْوَالُكُمْ، وَقَلَّ أُمَنَاؤُكُمْ، والْتُمِسَتِ الدُّنْيَا بِعَمَلِ الآخِرَةِ، وَتُفُقِّهَ لِغَيْرِ الدِّينِ». رَوَاهُ الدَّارِمِيُّ[1].

ثم أورد رَحِمَهُ اللَّهُ هذا الأثر العظيم عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «**كيف أنتم إذا لبستكم فتنة؟!**»، لبستكم فتنة؛ أي: غطتكم فتنة انتشرت في الناس وكثرت وتفشت فيهم وعمت، والمراد بالفتنة؛ أي: فتنة الناس بدينهم بسبب غلبة الأهواء وسيطرة الشبهات حتىٰ تعمىٰ الحقائق الواضحة علىٰ الناس، ولهذا توصف الفتنة بالعميل الصماء؛ لأنها إذا وُجدت وعمت في الناس وانتشرت عليهم السبل ولم يميزوا بين حق وباطل وهدىٰ وضلال.

قال: «**كيف أنتم إذا لبستكم فتنة يربوا فيها الصغير ويهرم فيها الكبير**»، أشار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلىٰ أمرين متعلقين بالفتنة:

- الأمر الأول: يستفاد من قوله: «**ألبستكم فتنة**»، وهذا يفيد امتداد الفتنة المكاني، بحيث إنها تنتشر في الناس في الأطراف المختلفة والأمكنة المتعددة.

- والجانب الثاني: مستفاد من قوله: «**يربوا فيها الصغير ويهرم فيها الكبير**»،

---

(١) رواه الدارمي (١٨٦)، وصححه الألباني في «تحريم آلات الطرب» (ص١٦).

امتدادها الزماني، بحيث أن الصغير يربوا فيها، يكبر وينشأ في الفتنة، والكبير يهرم وهي لا تزال موجودة باقية، الكبير الذي بلغ من السن أربعين.. خمسين يهرم ويدركه الهرم والفتنة لا تزال قائمة، فتكون ممتدة من حيث المكان وممتدة أيضًا من حيث الزمان.

«**وتتخذ سنة يجري الناس عليها**»؛ أي: يمضي الناس عليها ويتمسكون بها ويظنون أنها هي السنة، إلىٰ درجة أنها إذا تُركت قيل تركت سنة، لأنهم من حيث المكان إذا نظروا وإذا بها هي الموجودة وهي المنتشرة، ومن حيث الزمان إذا نظروا يجدونها من قديم وهي موجودة، فإذا تُركت يقول الناس بسبب غلبة الفتنة عليهم «**تركت سنة**»، وهذا مما يبين لنا خطورة فتنة الناس في دينهم، فقد يتصدر إنسان للدعوة إلىٰ ضلالة أو إلىٰ بدعة ثم يستجيب له آخرون ويستجيب للآخرين آخرون فيموت الأول ثم يأتي علىٰ الناس زمان ولا يوجد في بعض المناطق إلا بدعة هذا الداعية الضال والعياذ بالله، فالأمر جد خطير.

يقول ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «**كيف أنتم إذا لبستكم فتنة يربوا فيها الصغير ويهرم فيها الكبير وتتخذ سنة يجري الناس عليها**»؛ أي: يمضي الناس عليها، «**فإذا غُيِّر منها شيء قيل تُركت سنة**».

«**قيل: متىٰ ذلك يا أبا عبد الرحمن؟**»، وقوله: «**متىٰ ذلك؟**» سؤال عن الحال التي يكون عليها الناس، بحيث تستشري فيهم الفتنة بهذا الشكل، وتتأصل فيهم، فقال: «**إذا كثر قُرَّاؤكم وقل فقهاؤكم**»؛ أي: إذا كثر فيكم القراء وقل فيكم الفقهاء في دين الله، القراء: الذين يقرءون القرآن ويجيدون تلاوته ويجيدون مخارج الحروف ونحو ذلك، يقيمون الحروف ويتلونها تلاوة جميلة بأداء حسن وصوت طيب بدون فقه في دين الله وبدون بصيرة، ومن كان صاحب عناية بالقرآن من حيث إقامة حروفه إذا تصدر لبيان الفقه وبيان الأحكام وهو لم يتفقه، وإنما حفظ حروف القرآن ولم

يحصل منه تفقه في دين الله يَضل ويُضل؛ لأن القرآن لا بد فيه من فهم، وفهْم القرآن ومعرفة معاني القرآن ودلالته لا بد فيها من ضوابط ووسائل وأسباب، لا أن يقول الإنسان في القرآن وفي كلام الله عَزَّوَجَلَّ ما لا يعلم، ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦]، ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

قال: «**إذا كثر قُرَّاؤكم وقل فقهاؤكم**»؛ أي: عندما تتخذ القراءة مجرد صناعة، ولا يكون هناك فقه في دين الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، ثم يتصدر القراء لبيان الأحكام ودعوة الناس علىٰ غير فقه في دين الله وبصيرة، والله يقول: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يوسف: ١٠٨].

قال: «**وكثرت أموالكم**»؛ أي: أن غالب اهتمام الإنسان الاهتمام بالمال والاهتمام بالدنيا، فطغىٰ عليهم الحرص علىٰ الدنيا أكثر من الحرص علىٰ الدين والآخرة، وفي الدعاء الثابت عن نبينا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أنه قال: «**اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا**»(١)، ولما سأل الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ إصلاح الدين والدنيا والآخرة بدأ بإصلاح الدين؛ لأنه هو المقدم، «**اللهم وأصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي، وأصلح لي آخرتي التي فيها معادي**»(٢)، فبدأ بإصلاح الدين؛ لأن إصلاح الدين مقدم علىٰ إصلاح الدنيا.

قال: «**وقل أمناؤكم**»؛ أي: قلت الأمانة، والأمانة إذا ذهبت عن الإنسان ولم يكن أمينًا، فهذا فيه خطورة منه بالغة علىٰ الناس؛ لأنه إذا لم يكن أمينًا سيتجرأ علىٰ دين الله وعلىٰ القول علىٰ الله جَلَّوَعَلَا وفي دينه وفي كتابه بغير علم؛ لأنه ينقصه الأمانة، بينما الأمين والذي يحافظ علىٰ أمانة الكلمة وأمانة القول وأمانة البيان وأمانة

---

(١) رواه الترمذي (٣٥٠٢)، وحسَّنه الألباني في «صحيح الجامع» (١٢٦٨).

(٢) رواه مسلم (٢٧٢٠).

النصيحة وأمانة التعليم، فإنه لا يتكلم بكل شيء، بل يتورع ويتأكد ويتبين الأمر ويتبصر ويتفقه ثم يبين عن علم، أما إذا نقصت الأمانة أو ذهبت فإنه سيجرؤ في الكلام في دين الله والقول علىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بغير علم.

قال: «**والتمستْ الدنيا بعمل الآخرة**»؛ أي: طلبت الدنيا بعمل الآخرة؛ أي: أصبح الناس يطلبون الدنيا بأعمال الآخرة، بمعنىٰ أنهم يعملون أعمالًا هي لا تُعمل إلا للآخرة؛ أي: لنيل ثواب الآخرة من صلاة وبر وصدقة وغير ذلك من الأعمال وهم لا يطلبون بها الآخرة، وإنما يطلبون بها الدنيا، كطلب مثلًا الشهرة أو الرئاسة أو الزعامة أن الصيت أو كثرة الاتباع، أو غير ذلك من المقاصد والأغراض، فهو يأتي بأعمال الآخرة، وهو في قراءة نفسه لا يريد بها الآخرة، وإنما يريد بها الدنيا، وفي الحديث: «**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوىٰ، فمن كانت هجرته إلىٰ الله ورسوله فهجرته إلىٰ الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلىٰ ما هاجر إليه**»[1].

والأمر الأخير قال: «**وتُفقه لغير الدين**»، يتفقه في الدين يتعلم الأحكام ويحفظ الأدلة، ولكنه يجتهد هذا الجهد ويبذل هذا الأمر لا للدين نفسه، وإنما يتفقه في الدين لأجل الدنيا، يلتمس بالتفقه فيه أمر الدنيا، وليس مراده أن يرفع الجهل عن نفسه وأن يرفع الجهل عن الآخرين، وأن يكون ناصحًا معلمًا مبينًا ليس هذا غرضه وإنما غرضه الدنيا، قد جاء عن الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ أنه قال: «العلم لا يعدله شيء إذا صلحت النية»، قيل: وما صلاحها؟ قال: «أن تنوي به رفع الجهل عن نفسك وعن غيرك»[2].

❋ ❋ ❋

---

(١) رواه البخاري (١)، ومسلم (١٩٠٧).

(٢) «الآداب الشرعية» (٢/ ٤٥).

[ذِكْر ما يمكن أن يهدم الإسلام]

٩٩- وَعَنْ زِيَادِ بْنِ حُدَيْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «قَالَ لِي عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هَلْ تَعْرِفُ مَا يَهْدِمُ الإِسْلَامَ؟ قُلْتُ: لَا، قَالَ: يَهْدِمُهُ زَلَّةُ العَالِمِ، وَجِدَالُ المُنَافِقِ بِالكِتَابِ، وَحُكْمُ الأَئِمَّةِ المُضِلِّينَ». رَوَاهُ الدَّارِمِيُّ أَيْضًا(١).

ثم أورد رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ هذا الأثر عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال لزياد بن حُدير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**هل تعرف ما يهدم الإسلام؟**»، هل تعرف الشيء الذي إذا وُجد هدم الإسلام ونقض عراه ونشر الفساد والشر في الناس؟

«**قلت: لا، قال: يهدمه زلة العالم**»، يقولون: «زلة العالِم زلة العالَم»)، العالِم إذا زل تبعه في زلته وخطئه خلق لا يحصيهم إلا الله، فزلته فيها خطورة جدًّا علىٰ الناس؛ لأنهم يأخذون عن علمائهم، وعن فقهائهم، فإذا زلوا توبعوا في ذلك.

قال: «**زلة العالم**»، هذا يبين لنا خطورة الكلمة كما تقدم، وأن العالم والداعية ينبغي أن ينتبه لكلامه، وأن يزنه، وأن يجتهد في ضبطه بضابط الكتاب والسنة، حتىٰ لا يزل في شيء يتبعه فيه خلق، ويكون سبب فساد وشر في الناس، و«**زلة العالم**»، هذا الأمر الأول مما يسبب هدم الإسلام.

- الأمر الثاني: «**وجدال المنافق بالكتاب**»، وهذا أيضًا جانب آخر من أخطر ما يكون في نقض الإسلام؛ أن يأتي المنافق الذي لا دين عنده ويجادل بالكتاب، يحفظ المنافق آيات من القرآن ويضبطها ويعرف مواضعها، ويبدأ يجادل الناس بالكتاب

---

(١) رواه الدارمي (٢١٤)، وصححه الألباني في «مشكاة المصابيح» (٢٦٩).

بغرض الإفساد، كما هو شأن أهل الزيغ، قال الله تعالىٰ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَـٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ ﴾ [آل عمران: ٧]، فالمنافق الذي يأتي ويحفظ آيات من المتشابه ويبدأ يجادل الناس بالكتاب، بل بلغنا أن بعض من يسمون بالمبشرين من المنصِّرين الذين يكون لهم غرض في البلاد الإسلامية أن يفسدوا عليهم أديانهم، بعضهم يتعمد أن يحفظ آيات من القرآن، ومراده بذلك أنه إذا جلس مع المسلمين أن يشككهم في أديانهم، خاصة مع العوام والجهال ومن لا فقه لهم، فيبدأ بعرض بعض الآيات من المتشابهات ويلبِّس عليهم دينهم ويشككهم فيه.

قال: «**وجدال المنافق بالكتاب**»، المنافق صاحب هوىٰ وصاحب باطل، فيجادل بالكتاب؛ أي: يأتي بآيات ويلبِّس علىٰ الناس ويشبه عليهم فيها، بحيث يقصد من ذلك أن يغرس فيهم بعض المفاهيم الباطلة، أو يشككهم في بعض الحقائق الصحيحة الثابتة في كتاب الله وسنة نبيه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فيتبعون المتشابه ويتركون المحكم البين؛ فهذا فيه خطورة جدًّا بالغة علىٰ الناس.

- الأمر الثالث: قال: «**وحُكم الأئمة المضلين**» عندما يتولىٰ أو تكون الولاية والسلطان بيد أئمة ضلال ودعاة بدعة، فهذا أيضًا فيه خطورة جدًّا علىٰ الناس؛ لأن السلطان والوالي إذا كان يحمل بدعة وضلالًا وباطلًا سيحمل الناس عليه طوعًا أو كرهًا وسيؤذيهم ويتسلط عليهم وينشر باطله ويدعوهم إليه إما بالقوة أو بالعرض الواسع باستغلال سلطته وولايته علىٰ الناس في نشر ما عنده من ضلال وباطل.

فهذه ثلاثة أمور ذكرها عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، تتسبب في انتقاض عرىٰ الدين: زلة العالم، وجدال المنافق بالكتاب، وحكم الأئمة المضلين.

❊ ❊ ❊

[الدعوة إلى الاقتداء بالسَّلف الصالح]

١٠٠- وَعَنْ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كُلُّ عِبَادَةٍ لَا يَتَعَبَّدُهَا أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَلَا تَعَبَّدُوهَا، فَإِنَّ الأَوَّلَ لَمْ يَدَعْ لِلْآخِرِ مَقَالاً، فَاتَّقُوا اللهَ يَا مَعْشَرَ الْقُرَّاءِ، وَخُذُوا طَرِيقَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ(١).

ثم أورد رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ هذه النصيحة العظيمة من حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ للقراء، والقراء في موضع قدوة للناس، وهم الذين حفظوا القرآن وأجادوا قراءته وأحسنوا في ذلك، فنصحهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هذه النصيحة العظيمة، قال: «**كل عبادة لا يتعبدها أصحاب رسول الله ﷺ فلا تعبَّدوها**»، وهذا ضابط عظيم جدًّا في باب العبادة؛ فكل عبادة لا يتعبدها أصحاب رسول الله ﷺ فلا تعبدوها، لأن ما لم يكن دينًا زمن محمد ﷺ وأصحابه لا يكون دينًا إلىٰ قيام الساعة، فالدين هو الذي كان عليه النبي ﷺ وأصحابه الكرام، وكل ما جاء بعده من محدثات الأمور ليست من الدين، ولو كانت من الدين لسبقنا إليها الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، لأنهم أحرص منا علىٰ الدين، وأكثر منا اجتهادًا عليه وحرصًا عليه، فلو كان خيرًا لسبقونا إليه، وهذا معنىٰ قول حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**فإن الأول لم يدع للآخر مقالًا**»، قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**»(٢)، فالخيرية بأعمال الخير والبر والصلة والصلاح

---

(١) انظر: «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (١١٩)، و«البدع والنهي عنها» (١٠)، وأصله في «صحيح البخاري» (٧٢٨٢) بلفظ: «يَا مَعْشَرَ الْقُرَّاءِ اسْتَقِيمُوا فَقَدْ سُبِقْتُمْ سَبْقًا بَعِيدًا فَإِنْ أَخَذْتُمْ يَمِينًا وَشِمَالًا ، لَقَدْ ضَلَلْتُمْ ضَلالًا بَعِيدًا».

(٢) رواه البخاري (٣٦٥١)، ومسلم (٦٤١٩).

اجتمعت في الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، «**لا يأتي عليكم زمان إلا الذي بعده شر منه، حتىٰ تلقوا ربكم**»[1]، أيمكن أن تكون هناك جوانب من العبادة في قرون متأخرة لم تكن موجودة في زمن أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وخيار الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ؟ حاشا والله.

فهذه قاعدة في الباب، وليت كل مسلم يحفظ هذه القاعدة، فهذا الكلام الذي قاله حذيفة صاحب سر رسول الله ﷺ لو يحفظها المسلم ينفعه الله بها نفعًا عظيمًا، «**كل عبادة لا يتعبدها أصحاب رسول الله ﷺ فلا تعبدوها**»، فلو جاءك إنسان وأرشدك إلىٰ عبادة أو نوع من الذكر قال لك: في الصباح تقول: يا لطيف، مثلًا ألف مرة، وليكن أيضًا معك سبحة فيها ألف خرزة، وقال لك: هذا شيء جيد، ومشايخنا جربوا وأنا رأيت في المنام كذا، وجاءني هاتف في المنام وقال لي كذا، وأعطاك من هذه الأمور تقبل أو ترجع إلىٰ هذه القاعدة: «كل عبادة لا يتعبدها أصحاب رسول الله ﷺ فلا تعبدوها»؟ وإن وسَّع عليك في مثل هذه الأمور لا تلتفت لها، لو قال لك أنا رأيت في المنام، بعضهم يدجل علىٰ الناس ويقول: «جاءني النبي ﷺ في المنام وقال هذا شيء جيد وهذا شيء عظيم وانشره في الناس»، أو يقول: جاءني هاتف في المنام هتف بي أو يقول جربت وجرب أشياخي أو غير ذلك من الأمور، هل هذه موازين توزن وتُعرف بها الشريعة؟ نرجع دائمًا إلىٰ هذه القاعدة العظيمة، يقول حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**كل عبادة لا يتعبدها أصاب رسول الله ﷺ فلا تعبدوها**»، قل لهذا الرجل الذي دعاك إلىٰ هذا الذكر أو لغيره من الأعمال وبناه علىٰ التجربة أو بناه علىٰ المنامات أو بناه علىٰ الهواتف أو علىٰ أي أمر آخر إذا انتهىٰ قل له: هل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فعلوا هذا الشيء الذي تدعوني إليه أو لا؟ إذا قال لك: نعم، فعله الصحابة، ماذا تقول له؟ اعطني الدليل، هذه كتب السنة موجودة ومحفوظة ومنشورة أعطني الدليل منها أن الصحابة فعلوا ذلك؟ أنا مثلت بالذكر بـ «يا لطيف» مرات؛ لأنه منتشر

---

(١) رواه البخاري (٧٠٦٨).

في بعض المناطق بين كثير من العوام يأتون به ولا أصل له في دين الله ولا وجود له في ذكر الصحابة، هذه أشياء أحدثت في الناس فيما بعد، نرجع للقاعدة: «كل عبادة لا يتعبدها أصحاب رسول الله ﷺ فلا تعبدوها»، بعض العوام يأتي ومعه ورقة كتبها له بعض الأشياخ بالأرقام، يا لطيف ألف مرة، يا حي مئتين مرة يا كذا، ويجلس الصباح الباكر يشتغل بأمور ليست مشروعة، والأمور المشروعة لو تسأله عنها التي تقال في الصباح ما يعرف منها شيئًا، وهذا مما يبين لنا قول النبي ﷺ: «**وَإِنَّمَا أَخَافُ عَلَىٰ أُمَّتِي الأَئِمَّةَ الْمُضِلِّينَ**»[1]، الذين يدعون الناس إلىٰ البدع والمحدثات، ولا يدلونهم علىٰ السنن الصحيحة الثابتة عن رسول الله ﷺ.

قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**فاتقوا الله يا معشر القراء**»، وتقوىٰ الله عَزَّ وَجَلَّ إذا وُجدت حقًّا في العبد صلحت حاله وزانت أموره.

«**وخذوا طريق من كان قبلكم**»؛ أي: طريق الصحابة، ولهذا يقول العلماء: من كان علىٰ الأثر كان علىٰ الطريق، أي من كان في عباداته وأعماله وأذكاره وطاعاته علىٰ الأثر؛ أي: علىٰ أثر الصحابة، فهو علىٰ الطريق؛ أي: علىٰ الطريق الصحيح الذي يوصل إلىٰ الجنة؛ لأن الطرق إلىٰ الجنة مسدودة إلا من طريق الذي كان عليه النبي ﷺ وصحابته الكرام، قال في الحديث الذي مر قريبًا: «**وستفترق هذه الأمة علىٰ ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة**». قالوا: من هم؟ قال: «**من كان علىٰ مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي**»، فهذه وصية عظيمة من حذيفة ونصيحة بليغة جدًّا، ينبغي علىٰ كل مسلم أن يحافظ عليها، وأن يحفظها، وأن تُنشر في الناس، كلمة عظيمة وجميلة ينبغي أن تنشر في الناس، «كل عبادة لا يتعبدها أصحاب رسول الله ﷺ فلا تعبدوها».

❊ ❊ ❊

---

(١) رواه أبو داود (٤٢٥٤)، والترمذي (٢٢٢٩)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٥٨٢).

١٠١- وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «مَنْ كَانَ مُسْتَنًّا فَلْيَسْتَنَّ بِمَنْ قَدْ مَاتَ؛ فَإِنَّ الحَيَّ لَا تُؤْمَنُ عَلَيْهِ الفِتْنَةُ، أُولَئِكَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ كَانُوا أَفْضَلَ هَذِهِ الأُمَّةِ، أَبَرَّهَا قُلُوبًا، وَأَعْمَقَهَا عِلْمًا، وَأَقَلَّهَا تَكَلُّفًا، اخْتَارَهُمُ اللهُ لِصُحْبَةِ نَبِيِّهِ ﷺ، وَلِإِقَامَةِ دِينِهِ، فَاعْرِفُوا لَهُمْ فَضْلَهُمْ، وَاتَّبِعُوهُمْ عَلَىٰ أَثَرِهِمْ، وَتَمَسَّكُوا بِمَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ أَخْلَاقِهِمْ وَسِيَرِهِمْ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا عَلَىٰ الهُدَىٰ المُسْتَقِيمِ» رَوَاهُ رَزِينٌ[(١)].

ثم أورده رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ هذا الأثر العظيم عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «**من كان مستنًّا فليستن بمن قد مات**»؛ يعني: من كان متأسيًا ومقتديًا ويريد أحدًا يقتدي به ويستن بطريقته ويلازم هديه، «**من كان مستنًّا فليستن بمن قد مات، فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة**»، بأن تلبسه فتنة فيضل في الدين أو في جوانب منه.

«**أولئك أصحاب محمد ﷺ**»، يشير بقوله: «**أولئك**»؛ أي: من قد مات، من كان مستنًّا فليستن بمن قد مات؛ أعني: أصحاب محمد ﷺ، استنوا بما كانوا عليه واقتدوا بما كانوا عليه، ثم ذكر جملة طيبة من صفاتهم:

قال: «**كانوا أفضل هذه الأمة**»، والنبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ شهد لهم بذلك، ورب العالمين شهد لهم بذلك في كتابه العزيز، قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ﴾ [التوبة: ١٠٠]، فذكر لهم جَلَّ وَعَلَا وهذا الثناء العظيم، السبق بالخير والفضيلة، وأثنىٰ علىٰ من اتبعهم بإحسان قوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ﴾، يفيد أن الخيرية في الناس بعد الصحابة بحسب اتباع الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بإحسان، وفي آية أخرىٰ قال تعالىٰ: ﴿**وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ**

---

(١) رواه رزين في «مشكاة المصابيح» (١٩٣)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٣٠٥).

ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ﴾ [النساء: ١١٥]، فرغب جَلَّ وَعَلَا ورهب في هذا الباب.

قال: «**كانوا أفضل هذه الأمة**»، ومر معنا أيضًا قريبًا قوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**خير الناس قرني**».

«**أبرها قلوبًا**»، قلوبهم صافية نقية، فيها البر، فيها الصدق، فيها الإخلاص، فيها المحبة الصدقة لرسول الله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

«**وأعمقها علمًا**»، كان عندهم علم عميق وفهم واسع وعظيم لدين الله وسنة النبي ﷺ.

«**وأقلها تكلفًا**»، الصحابة لم يكونوا من أهل التكلف، ولهذا قال من قال من أهل العلم: «كلام السلف قليل كثير البركة، وكلام الخلف كثير قليل البركة»، وإذا أردت شاهد ذلك اقرأ كلمة حذيفة التي مرت معك قريبًا، قال: «كل عبادة لا يتعبدها أصحاب رسول الله ﷺ لا تعبدوها»، كلمة واحدة تغنيك عن مجلدات لو وفقك الله عَزَّوَجَلَّ لفقه هذه الكلمة كلمة واحدة تغنيك عن مجلدات في هذا الباب العظيم؛ لأنها جمعت وأصلت وقعدت تقعيدًا عظيمًا وتأصيلًا مباركًا في هذا الباب.

قال: «**اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ ولإقامة دينه**»، وانظر هذه الصفة العظيمة، واختارهم الله عَزَّوَجَلَّ؛ أي: اصطفاهم جَلَّ وَعَلَا لصحبة نبيه؛ أي: ليفوزوا بشرف الصحبة للنبي الكريم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ولهذا خصوا دون سواهم ممن جاء بعضهم بهذا اللقب الشريف المبارك «الصحابة»، والمسلمون عندما يسمعون هذا اللقب لإنسانٍ ما يعرفون قيمة الرجل، لما يقال لهم: «الصحابي أبو بكر»، «الصحابي عمر»، «الصحابي عثمان»، «الصحابي أبو هريرة»، هذا اللقب العظيم الشريف الذي فاز به الصحابة وأكرموا به وخصوا به له وقع عظيم في نفوس الأمة، دعك من أهل الضلال

وأهل الأهواء الذين أشربوا الفتن وولغت ألسنتهم الفاسدة في الصحابة طعنًا وسبًّا وشتمًا ونيلًا منهم، دعك من هؤلاء، الكلام علىٰ أهل الإسلام وأهل السنة الفهم الصحيح.

«الصحابة» هذه الكلمة لها وزنها ولها قيمتها، ولها مكانتها في نفوسهم، أثنىٰ الله عليهم في القرآن وأثنىٰ عليهم النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في السنة، بل أثنىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عليهم في التوراة وفي الإنجيل قبل أن يوجدوا علىٰ وجه الأرض وقبل أن تمشي أقدامهم علىٰ وجه الأرض، أثنىٰ الله عليهم في التوراة وفي الإنجيل، كما في آخر آية من سورة «الفتح»، قال تعالىٰ: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾؛ أي: الصحابة، ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ﴾، الله عَزَّوَجَلَّ أثنىٰ عليهم هذا الثناء العاطر في التوراة، قال: ﴿وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ﴾، هذا ثناء آخر عليهم في الإنجيل، وأثنىٰ عليهم بعد وجودهم في آيات كثيرة من القرآن الكريم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وأرضاهم.

قال: «**اختارهم الله لصحبة نبيه ولإقامة دينه**»: فمآثرهم المجيدة والخير العظيم الذي كتبه الله علىٰ أيدي الصحابة في نشر الدين في أصقاع الدنيا مشاهد معلوم، ضحوا بالنفس والنفيس في سبيل نشر دين الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

قال: «**فاعرفوا لهم فضلهم**»، وهذه وصية ونصيحة من عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، اعرفوا لهم فضلهم، ومن أسف أن بعض الناس لا يعرفون فضل الصحابة ولا يعرفون ولا مكانتهم.

«**وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم وسيرهم**»، جاهدوا أنفسكم علىٰ التمسك بأخلاق الصحابة وسيرهم، قال بعض أهل العلم كلمة جميلة في هذا الباب:

«من كان بهم أشبه كان ذلك فيه أكمل»، فكلما كنت أشبه بالصحابة كان ذلك فيك أكمل في الدين، وكلما وفقك الله وأكرمك بالتشبه بالصحابة سائرًا على نهجهم، فذلك أكمل في دينك، وكلما فرطت في التشبه بالصحابة الكرام رَضِيَ اللهُ عَنْهُم كان ذلك أنقص في دينك.

قال: «**وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم وسيرهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم**»، فإنهم كانوا؛ أي: الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُم، على الهدى المستقيم.

❊ ❊ ❊

[تحريم المجادلة في كتاب الله]

١٠٢- وَعَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ قَالَ: سَمِعَ النَّبِيُّ ﷺ قَوْمًا يَتَدَارَءُونَ الْقُرْآنَ فَقَالَ: «إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِهَذَا، ضَرَبُوا كِتَابَ اللهِ بَعْضَهُ بِبَعْضٍ، إِنَّمَا نُزِّلَ كِتَابُ اللهِ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا، فَلَا تُكَذِّبُوا بَعْضَهُ بِبَعْضٍ، فَمَا عَلِمْتُمْ مِنْهُ فَقُولُوا، وَمَا جَهِلْتُمْ فَكِلُوهُ إِلَىٰ عَالِمِهِ». رَوَاهُ أَحْمَدُ وَابْنُ مَاجَه[(١)].

ثم ختم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ الباب بهذا الحديث عن النبي ﷺ: «**أنه سمع قومًا يتدارءون بالقرآن**»؛ أي: يتجادلون ويتمارون بالقرآن، فقال: «**إنما هلك من كان قبلكم بهذا**».

قال: «**ضربوا كتاب الله بعضه ببعض**»، أخذوا يعارضون بين النصوص ويصادمون بين الأدلة ويثيرون الشبهات.

«**وإنما نُزل كتاب الله يصدق بعضه بعضًا**»، ولهذا وصف الله عَزَّوَجَلَّ القرآن بأنه كان متشابهًا، قال: ﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ [الزمر: ٢٣]؛ أي: يصدق بعضه بعضًا، ويؤيد بعضه بعضًا، ولا يعارض بعضه بعضًا، أيضًا قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

قال: «**وإنما نُزل كتاب الله يُصدق بعضه بعضًا فلا تكذبوا بعضه ببعض**»، لا تكذبوا بعضه؛ أي: بعض القرآن ببعض؛ وهذا يحدث تكذيب بعض القرآن ببعض عندما يصادم الإنسان النصوص ويعارض بينها، فيصِل من خلال ذلك إلىٰ التكذيب

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (٢/ ١٨٥)، وابن ماجه (٨٥)، وحسنه الألباني في «مشكاة المصابيح» (٢٣٧).

ببعض الآيات، والعياذ بالله، مثل ما حصل من بعض الناس الذين كذبوا ببعض صفات الله الثابتة في كتاب الله جَلَّ وَعَلَا والثابتة في سنة نبيه ﷺ، زعمًا منهم وادعاءً كاذبًا أن هناك آيات تعارض ثبوت هذه الصفات لله، والآيات التي ادَّعوا أنها تعارض ثبوت الصفات لله أساءوا في فهمها كقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، ونحوها من الآيات، فهنا يُحذر من ذلك يقول: «**فلا تكذبوا بعضه ببعض**»؛ أي: لا تكذب بعض آيات القرآن ببعض آخر من القرآن؛ لأن القرآن يصدق بعضه بعضًا، وإذا وجد عندك تعارض فالتعارض لا يرجع إلىٰ القرآن نفسه وإنما يرجع إلىٰ فهمك أنت.

فإذا وجد القارئ تعارضا فهذا راجع إلىٰ فهمه، فما هو الحل إذا وجد تعارض، هل والعياذ بالله يكذب الإنسان بعض القرآن ببعض في ذلك؟

قال مبينًا الحل والمخرج في مثل هذا: «**فما علمتم منه فقولوا، وما جهلتم فكِلوه إلىٰ عالمه**»، فلا يقحم الإنسان نفسه فيما ليس له به علم، ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦]، ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

وبهذا الحديث ختم المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ هذه الترجمة العظيمة «باب تحريضه ﷺ علىٰ لزوم السنة والترغيب في ذلك وترك البدع والتفرق والاختلاف والتحذير من ذلك»، وجمع فيها جملة من النصوص الطيبة في هذا الباب من كتاب الله وسنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه.

❊ ❊ ❊

بَابُ: التَّحْرِيضِ عَلَى طَلَبِ العِلْمِ وَكَيْفِيَّةِ الطَّلَبِ

١٠٣- فِيهِ حَدِيثُ «الصَّحِيحَيْنِ» فِي فِتْنَةِ القَبْرِ: أَنَّ المُنَعَّمَ يَقُولُ: جَاءَنَا بِالبَيِّنَاتِ وَالهُدَىٰ فَآمَنَّا وَأَجَبْنَا وَاتَّبَعْنَا، وَأَنَّ المُعَذَّبَ يَقُولُ: سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلْتُهُ[١].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: «**باب التحريض علىٰ طلب العلم وكيفية الطلب**»، التحريض عرفنا معناه سابقًا، وأن المراد به: الحث والترغيب، والنبي ﷺ جاء عنه أحاديث كثيرة جدًّا في التحريض علىٰ طلب العلم والحث عليه وبيان فضائله وثماره وآثاره وعوائده الحميدة علىٰ طالب العلم في دنياه وأخراه، وسيأتي طائفة طيبة من الأحاديث الثابتة عن النبي ﷺ في هذا الباب، فهذه الترجمة عقدها رَحِمَهُ ٱللَّهُ ليبين فضل طلب العلم الشرعي ومكانته العالية وثماره الطيبة علىٰ طالب العلم في الدنيا والآخرة، وأيضًا يبين من خلال هذه الترجمة كيفية الطلب وشيئًا من الوسائل التي ينبغي أن يسلكها طالب العلم في طلبه للعلم وسعيه لتحصيله.

وأورد رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ جملة من الأحاديث في هذا الباب بدأها بالإشارة إلىٰ الحديث الذي في «**الصحيحين**» والذي فيه ذكرٌ لنعيم القبر وعذابه، وذكر لفتنة القبر، «**وأن المنعم**»؛ أي: الذي يكون من أهل النعيم في القبر يقول عندما يأتيه الملكان ويسألانه: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ «**يقول: جاءنا بالبينات والهدىٰ فآمنا**

---

(١) رواه البخاري (٨٦)، ومسلم (٩٠٥).

وأجبنا واتبعنا»، وهذا فيه بيان حال المسلم الذي طلب العلم الشرعي من أبوابه الصحيحة وعمل به وأقره وآمن بما جاء به الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وصدق بذلك واتبع النبي ﷺ فيما جاء به، ولهذا قال: «**جاءنا بالبينات والهدىٰ**»، جاءنا بالبينات؛ أي: جاءنا بالحجج الواضحات والدلائل الظاهرات، وجاءنا بالهدىٰ؛ أي: بدين الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ الذي خلق الخلق لأجله وأوجدهم لتحقيقه، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ في بيان ما يقوم به الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورىٰ: ٥٢]، فهو عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ جاء بالهدىٰ، ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ [الفتح: ٢٨]، فهو عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ جاء بالبينات؛ أي: الدلال الواضحات والحجج البينات، وجاء بالهدىٰ: جاء بالدين الحق الصحيح الذي بعثه رب العالمين تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

وهذه الكلمات التي يقولها المنعم: «**جاءنا بالبينات والهدىٰ فآمنا وأجبنا واتبعنا**»، هذا لو تأملنا يبين لنا حال طالب العلم الناصح في الطلب، وما هي الخطوات التي يسير عليها ويسلكها حتىٰ يكون من الفائزين في هذا الامتحان عندما يأتي الملكان إليه في قبره ويجلسانه ويسألانه: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ فيكون في حياته الدنيا تعلَّم وعرف الإسلام، وعرف النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وعرف حق الله عَزَّوَجَلَّ، عرف البينات، عرف الهدىٰ الذي جاء به الرسول ﷺ، وكل هذا لا يأتي إلا بالطلب، بطلب العلم والبحث عنه والسؤال عنه وإعطائه جزءًا من حياة الإنسان ووقته في تحصيل العلم ونيله.

فهذه أمور لا بد فيها من الطلب، ولا بد فيها من الجلوس بالتعلم والتفقه في دين الله جَلَّ وَعَلَا، ولهذا جاء في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**إنما العلم**

بالتعلم»[1]؛ أي: أنه لا بد من بذل وقت وبذل جهد وسعي وجد واجتهاد؛ كي ينال الإنسان ويحصل شيئًا منه، لا أن يبقىٰ في بيته وفي داره وعلىٰ فراشه، وينتظر أن يأتيه العلم في مكانه دون أن يذهب للبحث عنه ولطلبه، ولهذا سيأتي معنا عند المصنف قول النبي ﷺ: «**من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهل الله له به طريقًا إلىٰ الجنة**»، فلا بد من سلوك طريق طلب العلم وتحصيله ولا بد من الصبر علىٰ ذلك.

فإذًا هنا قوله: «**جاءنا بالبينات والهدىٰ**»، لو تتأمل من الذي يقول هذه الكلمة؟ إلا الذي عرف البينات وعرف الهدىٰ وعرف الحق وعرف ما جاء به الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وكل هذه المعرفة لا تكون إلا بطلب العلم، لا تكون إلا بالجلوس للتعلم والتفقه في دين الله عَزَّوَجَلَّ ومعرفة ما جاءه به صلوات الله وسلامه عليه، وبهذا يظهر لك وجه إيراد المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ لهذا الحديث في هذه الترجمة بدأ به منبهًا هذا التنبيه العظيم إلىٰ أن طلبك للعلم في حياتك الدنيا له ثمرة عظيمة عليك في الحياة الدنيا وبعد الممات، عندما تُدرج في قبرك ويهال عليك التراب وتنقطع عن هذه الدنيا ويأتيك الملكان ويجلسانك في قبرك ويسألانك، هنا تأتي قيمة العلم الشرعي.

وهنا ليس الحديث عن العلم الذي هو فرض كفائي، وإنما الكلام علىٰ العلم الذي هو فرض عين وواجب علىٰ كل واحد منهم، لأن واجبات الدين وفرائض الإسلام ما لا يسع أي حد من المكلفين جهله هذه أمور يجب أن يغتنم الإنسان وجوده في هذه الحياة الدنيا في أن يحصِّله وأن يتعلمه وأن يعرفه؛ لأنه سيُسأل عنه في قبره، فتأتي هناك ثمرة طلب العلم الشرعي وثمرة العناية به والاهتمام.

قال: «**فيقول: جاءنا بالبينات والهدىٰ فآمنا وأجبنا واتبعنا**»، في هذا الحديث

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٢٦٦٣) وغيره، وحسَّنه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٣٢٨).

دلالة ظاهرة علىٰ البدء بالعلم قبل القول والعمل؛ لأن المنعَّم يقول: «**جاءنا بالبينات والهدىٰ**» هذا هو العلم؛ معرفة ما جاء به الرسول عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وتعلمه. قال: «**فآمنا وأجبنا واتبعنا**»، وهذا هو الانقياد والامتثال والعمل، فأولًا العلم، ثم بعد ذلك الانقياد والامتثال والاتباع، وأيضًا قال هنا: «**فآمنا**»، عطف بحرف الفاء التي تفيد التعقيب، فآمنا؛ يعني هذا يفيد أنهم ما إن سمعوا وعرفوا هذه البينات إلا وأقبلوا عليها دون تردد ودون تمنُّع، بل أقبلوا عليها مؤمنين غير شاكين ولا مرتابين، وأيضًا أقبلوا عليها عاملين غير مترددين ولا متثبطين ولا متقاعسين.

قال: «**فآمنا وأجبنا واتبعنا**»، (**آمنا**)؛ أي: بالرسول عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وبما جاء به، وبأنه عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لا ينطق عن الهوىٰ وبما دعانا إلىٰ الإيمان به آمنا بذلك كله، و(**أجبنا**)؛ أي: استجبنا له عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فيما دعانا إليه، دعانا إلىٰ الشهادة بالوحدانية والشهادة له بالرسالة، دعانا إلىٰ امتثال الأوامر واجتناب النواهي، فكان شأننا معه هو الإجابة قد قال الله تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ ﴾ [الأنفال: ٢٤].

قال: «**واتبعنا**»؛ أي: واتبعناه ﷺ فيما يدعو إليه وفيما يأمر به.

وهذه الكلمات التي يقولها المنعم هي أصول السعادة الدينية والدنيوية، فأصول السعادة في الدنيا والآخرة اجتمعت في هذه الكلمات العظيمات، وإذا وُجدت هذه المعاني العظام في العبد؛ معرفة ما جاء به النبي عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ من البينات والهدىٰ، مع الإيمان والإجابة والاتباع، هذه أصول السعادة، بل لا سعادة إلا بذلك، ولا نعيم إلا بذلك، ولا نجاة من عذاب الله وعقابه وسخطه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ إلا بذلك.

قال: «**وأن المعذَّب- أجارنا الله إياكم- يقول: سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته**»، هل هذا عنده علم؟ عنده فقه؟ عنده فهم لدين الله؟ أبدًا، وإنما يقول: سمعت

الناس يقولون شيئًا فقلته؛ أي: وأنا لا أفهم ولا أعرف ولا أدري ولم أتعلم ولم أعطِ العلم شيئًا من حياتي أو من وقتي أو اهتمامي، «**سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته**»، ولهذا جاء في بعض الروايات أن الملك يقول له: «**لا دريت ولا تليت**»؛ أي: أنه لم يتعلم ولم يتفقه، فلم تحصل عندك التلاوة ولا القراءة ولا العمل الذي هو الاتباع، ولا دريت أيضًا؛ فكل ذلك يبين لنا أثر العلم في نجاة الإنسان وسعادته في دنياه وأخراه(١).

❊ ❊ ❊

---

(١) قال العلامة ابن أبي العز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَاعْلَمْ أَنَّ عَذَابَ الْقَبْرِ هُوَ عَذَابُ الْبَرْزَخِ ، فَكُلُّ مَنْ مَاتَ وَهُوَ مُسْتَحِقٌّ لِلْعَذَابِ نَالَه نَصِيبُه منه ، قُبِرَ أَوْ لَمْ يُقْبَرْ ، أَكَلَتْه السِّبَاعُ أَوِ احْتَرَقَ حتىٰ صَارَ رَمَادًا وَنُسِفَ فِي الْهَوَاءِ ، أَوْ صُلِبَ أَوْ غَرِقَ فِي الْبَحْرِ - وَصَلَ إلىٰ رُوحِه وَبَدَنِه مِنَ الْعَذَابِ مَا يَصِلُ إلىٰ الْمَقْبُورِ» «شرح العقيدة الطحاوية» (ص ٣٩٦).

[فضيلة التفقُّه في الدِّين]

١٠٤- وَفِيهِمَا عَنْ مُعَاوِيَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ»[1].

ثم أورد رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ هذا الحديث عن معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله ﷺ قال: «**من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين**»، وهذا أيضًا فهي مكانة العلم العالية الرفيعة، وأن من مكانته العالية أن توفيق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لعبده بأن يكون طالب علم، هذا من إرادة الخير به، ومن إرادة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عبده أن يفقهه في الدين؛ أي: أن يوفقه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إلىٰ التفقه في الدين.

وقوله في الحديث: «**يفقهه**»؛ أي: الله عَزَّ وَجَلَّ، «**يفقهه في الدين**» فيه أن التوفيق لطلب العلم وتحصيله وفهمه ومعرفة مسائله وضبطها، كل ذلك منة الله علىٰ عبده، فهو الموفق وهو المعين، وقد قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لنبيه: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]؛ لأن زيادة العلم وحصول العلم كل ذلك منة الله جَلَّ وَعَلَا علىٰ عبده، كان نبينا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يقول كل يوم كما في حديث أم سلمة في السنن وغيرها: كَانَ يَقُولُ إِذَا صَلَّىٰ الصُّبْحَ حِينَ يُسَلِّمُ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ عِلْمًا نَافِعًا، وَرِزْقًا طَيِّبًا، وَعَمَلًا مُتَقَبَّلًا**»[2]، فالعلم وحصوله والزيادة منه كل ذلك منة الله جَلَّ وَعَلَا علىٰ عبده وتوفيقه

---

(١) رواه البخاري (٧١)، ومسلم (١٠٣٧).

(٢) رواه أحمد في «مسنده» (٢٦٧٣١)، وابن ماجه (٩٢٥)، وصحَّحه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٧٥٣).



سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

قال: «**من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين**»؛ أي: يعينه ويشرح صدره وييسر له أبواب العلم ومجالس العلم والرغبة فيها والحرص عليها، وييسر له حفظ العلم وضبطه، فكل ذلك منة الله، ومن إرادة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ الخير بالعبد أ، تكون نفسه مقبِلة علىٰ العلم راغبة فيه محبة له حريصة علىٰ مجالسه مغتبطة بكتب العلم ومسائل العلم ومجالسة أهل العلم، فهذا كله من إرادة الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ الخبير بعبده، أما إذا كان الإنسان أجارنا الله منقبضة نفسه وكامشة ونافرة لا يرغب في مجالس العلم ولا يجب الجلوس فيها وإذا رآها انقبض ولا يرغب في قراءة العلم ولا يرغب في قراءة كتب العلم ويستوحش منها، هذا ليس من إرادة الخير به، ولهذا قال العلماء في شرح الحديث: مفهوم المخالفة لهذا الحديث أن من لم يفقه في الدين أن هذا من علامة عدم إرادة الخير به، مما يدل علىٰ خطورة مضي الإنسان في الحياة غافلًا عن العلم معرضًا عنه غير مبالٍ به، كيف يعرف الإنسان صلاته؟ كيف يعرف صيامه؟ كيف يعرف التوحيد الذي خلقه الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ لأجله؟ كيف يعرف المحرمات التي أُمر باجتنابها والبعد عنها إلا بالعلم، العلم هو الأساس الذي يضيء للإنسان طريقه، والله جَلَّوَعَلَا سمىٰ الوحي نورًا؛ لأن بالوحي يستضيء الإنسان له الطريق ويعرف الجادة ويستبين له السبل، فسلوك طريق العلم والعناية به هذا من إرادة الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ الخير بعبده؛ أن يحبب لقلبه العلم ومجالسة العلماء ومذاكرة مسائل العلم وأن يعطي العلم حظًّا من وقته، من الناس من يمر عليه الشهر والشهران والثلاثة والأربع بل والسنة والسنتان وهو لا يعطي العلم حظًّا من وقته، بل بعض الناس ليس له حظ من سماع العلم إلا في خطة الجمعة، وأيضًا يخرج من خطبة الجمعة وهو غافل عنها، إذا ما قيل له: ما هو موضوع الخطبة اليوم؟ لا يدري فضلًا عن مضامينها، لا ينتبه ولا يهتم، مع

أن من نعم الله عَزَّوَجَلَّ العظيمة علينا هذه الخطبة الجامعة التي تتكرر علىٰ مسامع الناس، كل جمعة يتفقون في الدين ويتعلمون ويوعظون ويذكرون، وحضورها واجب وفريضة علىٰ كل مسلم، فالشاهد أن من الخير للعبد أن يوفَّق لطلب العلم(١).

وهنا إذا قرأت هذا الحديث تستفيد فائدتين، أنت بحاجة إليهما:

- **الفائدة الأولىٰ**: أن تقبل علىٰ الله وتدعوه أن يوفقك؛ لأنه هنا قال: «يفقهه»، فتقبل علىٰ الله أن يفقهك وأن يوفقك؛ لأن هذا أمر بيد الله عَزَّوَجَلَّ، ولا يمكن أن يناله أي إنسان إلا إذا يسره الله له ذلك وشرح صدره، فتخرج بهذه الفائدة «يفقهه» يا رب فقهني، هذه فائدة عظيمة من الحديث، والنبي ﷺ يقول: «**من يرد الله به خيرًا يفقهه**»، إذًا الأمر بيد الله، فنخرج بثمرة وهي سؤال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أن يفقهنا في الدين، فنتوجه إليه وندعوه ونكرر الطلب والسؤال، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يرد عبدًا دعاه ولا يخيب مؤمنًا ناجاه، ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]، ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، ومن الأدعية الثابتة في سؤال الله تعالىٰ العلم النافع: «**اللهم إني أسألك علمًا نافعًا ورزقًا طيبًا وعملًا متقبلًا**»، وقد بدأ النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في هذه الدعوة بسؤال الله هذه الأمور الثلاثة بدأ بالعلم قبل الرزق وقبل العمل، وهذا فيه فائدة ألا وهي: أن العلم مقدم وبه يبدأ المسلم، وإذا لم يكن عند العبد علم فكيف يميز بين رزق طيب وخبيث! وكيف يميز بين عمل صالح أو طالح! فلا بد من العلم، وهو يحتاج إليه في المساجد وفي أماكن العبادة والطاعة ويحتاج إليه في طلب الرزق وأمور المعاش حتىٰ يكون الإنسان في حياته وفي معاملاته وفي عباداته وفي أموره كلها علىٰ بصيرة، ولهذا بدأ به قال: «**اللهم إني أسألك**

---

(١) انظر: «مفتاح دار السعادة» (١/ ٦٠).

علمًا نافعًا ورزقًا طيبًا وعملًا متقبلًا».

- **الفائدة الثانية** من حديث معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن تجاهد نفسك علىٰ طلب العلم، وأن يكون لك حظ منه في أيامك، والله تعالىٰ يقول: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، ولنتنبه أن الترجمة عند المصنف تتناول فضل العلم وتتناول كيفية طلبه، وهذه الأحاديث التي يسوقها كما أن فيها تنبيهًا علىٰ الفضائل وكيفية الطلب.

❊ ❊ ❊

١٠٥- وَفِيهِمَا عَنْ أَبِي مُوسَىٰ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ مِنَ الهُدَىٰ وَالعِلْمِ، كَمَثَلِ الغَيْثِ الكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ طَيِّبَةٌ قَبِلَتِ المَاءَ فَأَنْبَتَتِ الكَلَأَ وَالعُشْبَ الكَثِيرَ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ المَاءَ، فَنَفَعَ اللهُ بِهَا النَّاسَ فَشَرِبُوا، وَسَقَوْا، وَزَرَعُوا، وَأَصَابَ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَىٰ إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً، وَلَا تُنْبِتُ كَلَأً، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقِهَ فِي دِينِ اللهِ، وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ فعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَا يَرْفَعُ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَىٰ اللهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ**»(١).

ثم أورد رَحِمَهُٱللَّهُ تعالىٰ هذا الحديث الذي ضرب فيه النبي ﷺ مثلًا بليغًا وعظيمًا لما بعثه الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ به من الهدىٰ والخير، وأيضًا بيانًا لحال وواقعهم مع هذا الخير والهدىٰ الذي بُعث به صلوات الله وسلامه عليه، فضرب مثلًا بديعًا يبين هذه الحقيقة ويجلي هذا الأمر، ومن شأن الأمثال أنها تجعل الأمر المعني بمثابة الأمر المحسوس المشاهَد؛ فتقرب المعاني وتتضح وتظهر وتنجلي، والقرآن والسنة فيهما أمثال كثيرة لهذا الغرض.

فهنا ضرب عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ مثلًا يبين من خلاله ما جاء به من الخير والهدىٰ وواقع الناس مع هذا الخير؛ فيقول عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «**مثل ما بعثني الله به من الهدىٰ والعلم كمثل الغيث الكثير**»؛ يعني: كمثل المطر الغزير الكثير؛ وهذا فيه أن ما جاء به عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ من الوحي والعلم والهدىٰ مثل المطر، وهناك مشابهة بين الوحي والغيث، الوحي: سقيا للقلوب لا تحيا إلا به، والغيث: سقيا للأرض والنبات لا تحيا إلا به، ففيه مشابهة أن كلًّا من الغيثين الغيث الذي هو الوحي والغيث الذي هو المطر

---

(١) رواه البخاري (٧٩)، ومسلم (٢٢٨٢).

بهما الحياة، حياة الأرض والزرع والنبات لا تكون إلا بالمطر، وحياة القلوب والأرواح لا تكون إلا بالوحي، ولهذا قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في سورة «الحديد»: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الحديد: ١٦، ١٧]، هذا هو المثل؛ والمثل الذي ذُكر هنا في الحديث جاء في هذه الآية الكريمة، لما ذكر الله عَزَّوَجَلَّ الوحي ودعا عباده أن تخشع قلوبهم لسماعه حذر من أن تكون حالهم كحال أقوام طال عليهم الأمد؛ أي: بعُد العهد عندهم عن الوحي والرسالات وما جاء به الرسل من الحق والخير والعلم والهدىٰ فقست قلوبهم، فالقلب عندما يبعد عن الوحي يقسو ثم يذبل ثم يموت، ولهذا قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢]؛ أي: أحييناه بالوحي، مر معنا الآية الكريمة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]، يحييكم؛ أي: بالوحي، تحيا القلوب بالوحي.

فلما ذكر من بعُد عهدهم بالوحي وطال أمدهم قال: ﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، القلب عندما يبعد عن الوحي يقسو ويذبل ويضعف إلىٰ أن يموت، ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾، قال بعد ذلك ضاربًا مثلًا عظيمًا يبين لنا هذا الأمر: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، هذا فيه آية، وفيه أيضًا مثل وعظة وعبرة، كما أنه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يحيي الأرض الهامدة الميتة بعد موتها إذا أنزل عليها الغيث بالمطر، فكذلك القلوب الميتة إذا جاءها الوحي والهدىٰ والبينات دبت فيها الحياة، وبدون الوحي تكون القلوب ميتة ولا تحيا إلا به.

ولهذا ضرب النبي ﷺ مثلًا للوحي الذي بعث به جعل مثل ذلك الغيث الذي

تحيا به الزروع والنبات، وهذا فيه دعوة للتفكر، فعندما ترىٰ أرضًا يابسة ثم تراها بعد حين وقد نزل المطر فخرجت الزروع البهيجة والنباتات المتنوعة والزهور الجميلة والرائحة الطيبة أصبحت تُبهج قلبك، فهذا مَثَلٌ لك تعرف من خلاله قيمة العلم والوحي، فكما أن هذه الأرض حصلت لها هذه الحياة بالمطر الذي أنزله الله عليها، فكذلك القلوب لا تحصل لها حياتها إلا بالوحي، ولأجل هذا الشبه بين الوحي والغيث وبين الأرض والنبات عدد من أهل العلم سمو مصنفاتهم التي ألفوها في العلم بأسماء تفيد هذا المعنىٰ: «**بستان العارفين**»، «**الروض المربع**»، «**الرياض الناضرة**»، «**حدائق الأزهار**»، عناوين كثيرة تجدها من كتب أهل العلم مؤلفة بهذه الأسماء، لأن العلم بستان، والعلم حديقة، وهو روضة مباركة، وكلما كان حظ الإنسان من العلم أكبر ونصيبه منه أوفر زاد حجم حديقته وزاد أيضًا حجم ثمارها وآثارها، الله عَزَّوَجَلَّ قال في القرآن الكريم: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَاۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم: ٢٤، ٢٥]، فهذه أمثال عظيمة جليلة مباركة تبين لنا هذا الأمر وتجليه، ونبينا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عندما ضرب لنا هذا المثل العظيم ضربه لنعرف من خلاله ونستظهر من خلاله هذه الحقيقة في مكانة العلم العالية الرفيعة، وأيضًا عظم حاجة القلوب إلىٰ العلم وتحصيله.

قال: «**مثل ما بعثني الله به من الهدىٰ والعلم كمثل الغيث الكثير**»، الغيث الكثير يختلف عن الغيث القليل من جهة أنه يغطي جميع الحاجات، فالأرض تروىٰ، والماشية تروىٰ، والزروع أيضًا تأخذ نصيبها، وكل يأخذ حظه، أما إذا كان قليلًا فتفوت كثير من الحاجات، وهذا فيه تنبيه إلىٰ أن الوحي الذي جاء به النبي ﷺ غطىٰ جميع الجوانب وأتىٰ علىٰ جميع الحاجات والمصالح، فليس هناك مصلحة من

المصالح ولا حاجة من الحاجيات إلا وقد عمه هذا الغيث الذي هو الوحي الذي جاء به الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فقوله: «**الكثير**» فيه تنبيه علىٰ كمال الدين وشموله لجميع جوانب الحياة وجميع ما يحتاجه الإنسان في عبادته لله وتقريبه إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ثم بين بعد ذلك حال الناس مع هذا الوحي، قال: «**أصاب أرضًا فكانت منها طائفة طيبة**»، أصاب أرضًا؛ أي: أصاب أنواعًا من الأراضي أو عددًا منها.

«**أصاب أرضًا فكانت منها طائفة طيبة قِبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير**»، هذا قسم؛ قسم من الأرض قبِل أن يرتوي من الماء، ولهذا أيضًا تظهر ثمرة قبول الماء والارتواء منه، وهو أنها أنبتت العشب الكثير، ولعل هذا يذكرنا بالسلام الذي نقله إبراهيم الخليل عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إلىٰ أمة محمد ﷺ مع محمد عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عندما لقيه ﷺ عندما عُرج به إلىٰ السماء، قال إبراهيم الخليل لنبينا ﷺ: «**يا محمّد أَقرئ أُمَّتك منّي السلام، وأخبِرهُم أنّ الجنّة طيِّبةُ التُّربة، عذبةُ الماء، وأنّها قيعانٌ، وأنَّ غِراسَها: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلاّ الله، والله أكبر**»(١)، فالأرض الطيبة تقبل الماء، وقبولها له ينشأ عنه نبات العشب وتنوع الثمر وتعدد الخيرات والبركات، فهذا القسم الأول.

قال: «**فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير**»، فنبات العشب الكثير متوقف علىٰ قبول الماء، وهذا أيضًا تستفيد منه فائدة: أن حصول الهدىٰ والخير الكثير للعبد متوقف علىٰ حصول العلم وقبوله، أن يقبل العلم وأن يأخذ حظه منه ونصيبه، كما أن النبات الكثير والخير الكثير الذي يحصل للأراضي

---

(١) رواه الترمذي (٣٤٦٢)، وحسنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٠٥).

مبني علىٰ قبول الماء، فكذلك حصول الهدىٰ والخير متوقف علىٰ حصول العلم، الوحي الذي هو حياة القلوب، قال: «**قبلت الماء فأنبتت الكأ والعشب الكثير**».

«**وكانت منها أجادب**»؛ أي: أراضي جدباء، وهي الأرض الجدباء لا تُنبت، لكنها تمسك الماء، «**وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا**» أمسكت الماء؛ أي: حفظته، لكنها أرض جدباء، لا تستفيد هي من الماء ولا تنتفع به، وهذا حال من يحفظ العلم وينقله ولا يكون له حظ منه، فيستفيد منه غيره ولا يستفيد هو منه، ولهذا أحد التابعين كان يقول في دعائه: «**اللهم إني أعوذ بك.. أن يكون أحد أسعد بما علمتني مني، وأعوذ بك أن أكون عبرة لغيري**»[(١)]، فإذا كان من أخذ العلم الذي بينته له ووضحته له مأخذ الجد والاهتمام والعمل وأنت لم تأخذه ذلك المأخذ؛ فيكون غيرك أسعد بالعلم الذي معك منك، ويتعلمون أمورًا يعملون بها وينتفعون بها ويسعدون بها ويكون الذي علمهم وبين لهم حارمًا نفسه من هذا الخير، والأرض عندما تكون أرض جدباء تمسك الماء تأتي الماشية وتشرب ويأتي الناس ويستفيدون منها، ويأخذون منها لمزارعهم ويستفيد الناس، لكن الأرض بنفسها وبذاتها التي عليها هذا الماء لا تستفيد منه شيئًا، ولهذا ينتهي الماء ولا ترىٰ في الأرض الجدباء نباتة واحدة خضراء! لأنها أرض جدباء لا تنبت.

قال: «**وأصاب منها طائفة أخرىٰ**»؛ أي: طائفة من الأراضي أخرىٰ، «إنما هي قيعان لا تمسك ماءً ولا تنبت كلأً»، الماء لا تحفظه ولا أيضًا ينبت فيها نباتًا، «لا تمسك ماءً ولا تنبت كلأً»، ثم وضح النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مدلول هذا المثل، قال: «**فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به**»، الذي يفقه الدين وينتفع بما بعث

---

(١) رواه أحمد في «الزهد» (١٣٤٢).

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ به، هذا مثله مثل الأرض الطيبة التي قبلت الماء وأنبتت الكلأ والعشب الكثير.

قال: «**ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا ولم يقبل هدىٰ الله الذي أُرسلت به**»، سواء فرط في بيان مقصود العلم، يقول علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «هتف بالعلم العمل، فإن أجابه وإلا ارتحل»(١)، مقصود العلم العمل، أو فرط في العلم والعمل معًا.

فهذا مثال عظيم مبارك ضربه النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لأمته مبينًا من خلاله حقيقة الوحي الذي بعثه الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ به، وأيضًا بين من خلاله واقع الناس مع هذا الوحي من حيث القبول والرد.

* * *

(١) «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ٦٩٦)، و«الجامع لأخلاق الراوي» (١/ ٨٩).

١٠٦- وَلَهُمَا عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا مَرْفُوعًا: «إِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّىٰ اللهُ فَاحْذَرُوهُمْ»(١).

ثم ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الحديث، حديث عائشة، وكان مر معنا سابقًا عندما أورد المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ﴾ [آل عمران: ٧]، فقال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه**»؛ أي: ما تشابه من آي الكتاب، «**فأولئك الذين سمىٰ الله**»؛ أي: سماهم الزائغين ووصفهم بالزيغ، ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾، «**فأولئك الذين سمىٰ الله فاحذروهم**»؛ أي: احذروا من مجالستهم واحذروا من سماع كلامهم، واحذروا من أحاديثهم لأنهم يُضرون بمن يجالسونه، حيث يوقعون في الشبهات، ويدخلونه في الشكوك، ويلبّسون عليهم أمورا ويلبِّسون عليه الحقائق، ولهذا قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**فاحذروهم**»؛ احذروهم من حيث المجالسة، ومن حيث سماع الحديث الذي يقولونه، ومن قراءة الكتب التي يكتبونها، كل ذلك يُحذر إذا كان حال الإنسان اتباع المتشابه من آي القرآن ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله.

أما الراسخون في العلم فشأنهم في هذا الباب آخر، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ﴾ [آل عمران: ٧]، فالمحكم والمتشابه كله من عند الله ولا نضرب كتاب الله بعضه ببعض، وإذا اشتبه علينا آيات من القرآن أرجعناها للمحكم، ولهذا وصف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الآيات المحكمات بأنها أم الكتاب، وأم الشيء أصله الذي

---

(١) رواه البخاري (٤٥٤٧)، ومسلم (٢٦٦٥).

يرجع إليه، فالآيات المحكمات هي أم الكتاب؛ أي: هي الأصل الذي يُرجع إليه إذا اشتبه عليك شيء من الآيات تعيده إلىٰ الآيات المحكمات فينجلي الأمر، أما أهل الزيغ فإنهم يتبعون المتشابه من آي القرآن ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله.

فيكون هذا الحديث ساقه المصنف هنا ليبين من خلاله جانب يتعلق بطلب العلم، وأن العلم لا يؤخذ عن كل أحد، من يريد أن يحصِّل علمًا شرعيًّا صحيحًا يلقىٰ الله عَزَّوَجَلَّ به ويسعد فيه في دنياه وأخراه لا يذهب إلىٰ الزائغين الذين ذكر النبي ﷺ علامتهم هنا: «**إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمىٰ الله؛ فاحذروهم**»، فلا يؤخذ العلم عن كل متكلم، وإنما يؤخذ عن أهل العلم الذين بنوا علمهم علىٰ كتاب الله عَزَّوَجَلَّ وسنة نبيه ﷺ، ويؤخذ عن أهل البصيرة في دين الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، لا أن يؤخذ عن كل متكلم.

ولما أصبح الناس يأخذون العلم عن كل متكلم دخلوا في متاهات ودخلوا في شكوك وفي شبهات، والتبست عليهم الأمور ومرضت القلوب بالوساوس والأسقام، ولاسيما في زماننا هذا، الزمن الذي كثرت فيه وسائل الاتصال ووسائل النشر والفضائيات والقنوات والشبكة العنكبوتية الإنترنت، الوسائل كثرت وأصبح كثير من الناس لا يبالي عمن أخذ ويسمع لكل متكلم! وهذا من أسباب مرض القلوب، هذا «دخل رجلان علىٰ محمد بن سيرين من أهل الأهواء؛ فقالا: يا أبا بكر نحدثك بحديث؟ قال: لا، قالا: فنقرأ عليك آية من كتاب الله؟ قال: لا، قال: تقومان عني وإلا قمت، فقام الرجلان فخرجا، فقال بعض القوم: ما كان عليك أن يقرآ آية؟ قال: إني كرهت أن يقرآ آية فيحرفانها، فيقر ذلك في قلبي»[1].

---

(١) رواه اللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (٢٤٢)، والأصبهاني في «الحجة في بيان المحجة» (٥٤٦)، وعبد الله بن أحمد في «السنة» (١٠٠).

فالشبه تضر الإنسان مضرة بليغة جدًّا، ولهذا يحتاج طالب العلم في طلبه للعلم أن يبحث عن العلماء الأمناء الناصحين الذين لهم فقه وبصيرة في دين الله، ويلزمهم ويتلقى عليهم ويأخذ عنهم، وإذا رأى الذين يتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، فهؤلاء يحذرهم لتحذير النبي ﷺ منهم، فهذا الحديث يتعلق بكيفية الطلب.

❊ ❊ ❊

[حواريُّو الأنبياء]

١٠٧- وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللهُ فِي أُمَّتِهِ قَبْلِي إِلَّا كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُّونَ وَأَصْحَابٌ يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِهِ، وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ، ثُمَّ إِنَّهَا تَخْلُفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ، وَيَفْعَلُونَ مَا لَا يُؤْمَرُونَ، فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ[(١)].

أورد المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ هذا الحديث العظيم في باب التحريض علىٰ طلب العلم وكيفية الطلب، وهذا الحديث من الأحاديث العظيمة التي تبين النهج السوي والطريق المبارك والجادة المستقيمة التي ينبغي أن يكون عليها المسلم، وهي تلك الطريقة التي كان عليها الحواريون والأصحاب من صفوة أتباع الأنبياء وخلاصتهم، فقد ذكر صلوات الله وسلامه عليه هؤلاء الصفوة من أتباع الأنبياء مبينًا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ منهجهم المبارك ومسلكهم القويم حثًّا للأمة وترغيبًا لها وتحريضًا لها ليأتسوا بأولئك الأخيار، ويقتدوا بتلك الصفوة الأبرار من الحواريين والأصحاب حواريي الأنبياء وأصحابهم، والنبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ذكر للناس ذلك حتىٰ يعرفوا حال هؤلاء الأخيار وحليتهم وصفتهم ومسلكهم ليقتدوا بهم في ذلك.

قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**ما من نبي بعثه الله في أمته قلبي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب**»، قيل: الحواريون هم صفوة وخلاصة أصحاب الأنبياء

---

(١) رواه مسلم (٥٠).

ومقدموهم خيارهم، وهم أفضل أنصار الأنبياء وأفضل أتباعهم، ولهذا قدمهم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ. «**وأصحاب**»؛ أي: صحبوا الأنبياء علىٰ الموافقة والأتباع والنصرة، فما من نبي بعثه الله إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب ما هو نعتهم؟ وما هي صفتهم؟ وما حليتهم؟

قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ مبينًا ذلك: «**يأخذون بسنته ويقتدون بأمره**»، هذه صفة الحواريين والأصحاب الأخذ بسنة نبيهم واتباع أمره، وقد ذكر ذلك لنا النبي ﷺ ذلك لنهتدي بهؤلاء الصفوة وليكونوا لنا قدوة، فحالهم خير حال، ومسلكهم أفضل مسلك، وواجب علىٰ كل مسلم أن يجاهد علىٰ أن يكون علىٰ هذه الصفة العظيمة، ولخصها النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه في أمرين، قال: «**يأخذون بسنته، ويقتدون بأمره**»، هذه خلاصة حال هؤلاء، وخلاصة أمر هؤلاء في هذين الأمرين: يأخذون بسنته، ويقتدون بأمره.

«**يأخذون بسنته**»؛ أي: يتمسكون بها، ويعولون عليها، ويتحاكمون إليها، ويجعلون سنته هي مصدرهم وإمامهم، لا يجعلون مصدرهم في التلقي الأهواء واتباع الظنون والأخذ بالمنامات وبناء الأحكام علىٰ القصص والحكايات أو بناء الأحكام علىٰ العقول المجردة والآراء ونحو ذلك، بل شأنهم في التلقي الأخذ عن سنة نبيهم؛ وما كان من تنازع أعادوه إلىٰ ما جاء عنه، فهذا شأنهم، «**يأخذون بسنته**»، وهذا فيه بيان لصلاح علمهم، فهم في العلم حالهم أحسن حال، علومهم من علوم الأنبياء، فقههم مأخوذ عنهم، فهم ورثة الأنبياء، «**فإن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا، إنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر**»[1]، فهؤلاء في العلم أخذوا علوم

---

(١) رواه أبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٢٩٧).

الأنبياء تلقوها بشغف وأقبلوا عليها بلهف وتنافسوا في حفظها وضبطها والعناية بها وإبلاغها لمن كان بعدهم، وقد قال نبيهم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**نضر الله امرأً سمع مقالتي فوعاها فأداها كما سمعها**»، وسيأتي الحديث عند المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ والكلام علىٰ معناه، هذا الجانب في صفة هؤلاء، «**يأخذون بسنته**»، وهو دليل علىٰ صلاح علومهم.

الجانب الثاني: قال: «**ويقتدون بأمره**»، وهذا فيه صلاح العمل؛ فأعمالهم صالحة؛ لأن قدوتهم فيها الأنبياء، يقتدون بأمر نبيهم فلا يباشرون شيئًا من الأعمال ولا يقومون بشيء من الطاعات والقربات إلا إذا كان فيها أمر للنبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وتوجيه منه إرشاد، ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

فذكر عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في هاتين الجملتين صلاح العلم وصلاح العمل؛ صلاح العلم بقوله صلوات الله وسلامه عليه: «**يأخذون بسنته**»، وصلاح العمل بقوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**ويقتدون بأمره**»، وهذا هو الهدىٰ ودين الحق الذي بعث الله عَزَّوَجَلَّ به رسوله ﷺ، ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الفتح: ٢٨]، الهدىٰ: العلم النافع، ودين الحق: العمل الصالح، وفي دعاء المؤمنين المتكرر في كل صلاة: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧]، عندما تقول في دعائك: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، هؤلاء هم المنعَم عليهم الأنبياء وأتباعهم، والنبي ﷺ ذكر لك هنا حليتهم، وأنها تتلخص في أمرين: صلاح العلم وصلاح العمل، وبه تعلم أن من كان من الناس صالحا في علمه لكون علمه متلقىٰ من الأنبياء، وصالح في عمله لكونه في عمله مقتديًا بالأنبياء، فهو من المنعم عليهم، ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ

أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾، المغضوب عليهم: من عنده علم لا يعمل به، والضال: من عنده عمل بلا علم، والمنعم عليه: من جمع بين العلم والعمل، كما قال نبينا عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ هنا: «**يأخذون بسنته**»، هذا العلم، «**ويقتدون بأمره**»، هذا العمل، علم نافع وعمل صالح، ولهذا كان نبينا عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كل يوم إذا صلىٰ الفجر دعا الله عَزَّوَجَلَّ قائلًا: «**اللهم إني أسألك علمًا نافعًا ورزقًا طيبًا وعملًا صالحًا**»، وفي رواية: «**وعملًا متقبلًا**»، قال: «**يأخذون بسنته ويقتدون بأمره**»، هذه حال الحواريين والأصحاب.

ثم ذكر حال أقوام يأتون بعدهم ويخالفون نهجهم وينحرفون عن جادتهم، فوصفهم عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بقوله: «**ثم إنها تخلف من بعدهم خُلوف**»، «**ثم إنها**» الضمير هنا يسمىٰ ضمير الشأن؛ أي: يكون ويأتي من بعدهم خلوف، و«خلوف» جمع: خلْف، وهو الخالف بشر، قال تعالىٰ: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ ﴾ [مريم: ٥٩]، خلف بإسكان اللام، أما من خلفهم بخير؛ أي: باقتداء واتباع وائتساء فيقال له: «خلَف» بفتح اللام؛ أي: خلف هؤلاء بخير، أما من خلفهم بشر بالتخلي عن طريقهم والانحراف عن جادتهم فإنه يقال له: «خلْف»، ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ ﴾؛ أي: خالف بشر.

قال: «**ثم إنه يأتي من بعدهم خلوف**»؛ أي: يأتي من بعدهم أقوام يخلفونهم بشر، والناصح لنفسه عندما يسمع كلام النبي ﷺ هذا، تنفر نفسه من هؤلاء، ويتساءل ما هي صفة هؤلاء حتىٰ أحذر من أن أكون منهم؟

فوصفهم عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بصفتين، كما أنهم وصف الحواريين والأصحاب بصفتين، وصف هؤلاء الذين يخلفونهم بشر بصفتين، فقال عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون**»، هذه صفتهم، منبهًا بذلك ومبينًا

عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إلىٰ فساد عند هؤلاء في العلم والعمل، كما أن أولئك عندهم صلاح في العلم والعمل، فهؤلاء فساد في العلم والعمل، فساد في الجانبين: العلم؛ أي: المصدر الذي يتلقونه عنه العلم ليس الأخذ بالسنة سنة الأنبياء، والعمل أيضًا جانب العمل هو منحرفون فيه، فلا علومهم علوم متلقاة من الأنبياء، ولا أيضًا أعمالهم أعمال صالحات يقتدون فيها بالأنبياء، ففيهم الفساد في العلم وفساد في العمل، وأولئك فيهم صلاح في العلم وصلاح في العمل.

«**يقولون ما لا يفعلون**»، هذا تفريط في العمل، ليسوا أصحاب أعمال وجد واجتهاد في التقرب إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، بل يقولون أقوالًا ويتكلمون كلامًا من البر مثلًا والطاعات لا يفعلونها ولا يقومون بها، والله جَلَّوَعَلَا قال: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٣]، وقال: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤]، وقال عن نبيه شعيب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ﴾ [هود: ٨٨]، وهذه الآيات الثلاث أشار بعض السلف إلىٰ أن كل معلم ومفقه وناصح يجب أن تكون نصب عينيه؛ لئلا يكون حاله قولًا بلا عمل، يضيء للناس الطريق ولكنه في نفسه ضائع ومقصر ومفرط.

«**ويفعلون ما لا يؤمرون**»؛ أي: أنهم لا يتلقون علومهم من الأنبياء، ولهاذ وصفهم هنا بقوله: «ويفعلون ما لا يؤمرون»؛ أي: يأتون بأفعال وأمور وعبادات لم يؤمروا بها، قال قبل هذا: «**يقتدون بأمره**»؛ أي: بأمر نبيهم، وهنا قال: «**يفعلون ما لا يؤمرون**»؛ أي: يأتون بأفعال وأعمال وطاعات لم يؤمروا بها ولم يدعوا إليها من قبل أنبيائهم.

فبين عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أن صفة الخلوف الذين يخلفون الأنبياء بالشر تتلخص

في فساد العلم وفساد العمل، وذلك بقوله في وصفهم: «**يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون**»، ثم بين عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ما ينبغي علىٰ من رأىٰ هؤلاء الذين خلفوا الأنبياء بشر ماذا عليه أن يصنع؟ وكيف يكون أمره معهم؟ بين ذلك عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بقوله: «**فـمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل**»، هذا نظير قول النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في حديث آخر: «**من رأىٰ منكم منكرًا فليغيره بيده**»[(١)]؛ لأن الذي عليه هؤلاء من أنكر المنكر، قال: «**من رأىٰ منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**»، وقد ذكر العلماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ أن التغيير باليد ليس مناطًا بكل أحد، وإنما هو مناط بمن بيده الولاية والسلطة، بحيث يستطيع أن يغير ويزيل المنكر بيده، أما من لا ولاية له ولا سلطة عليه إذا أخذ يغير بيده ربما دبت في الناس الفوضىٰ، واستفشىٰ فيهم الشر والقتل وعمتهم الفوضىٰ، فالتغيير باليد لمن بيده سلطة، الوالي في بلده، الأمير، السلطان، الوالد في بيته عندما يرىٰ علىٰ ولده وأهله في البيت أمورًا من المنكرات والمخالفات، «**من رأىٰ منكم منكرًا فلغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه**»، وأيضًا اللسان ليس أمرًا مطلقًا لكل أحد، بل لا يتكلم إلا من عنده علم، لا يتكلم منكرًا بلسانه إلا من عنده علم، فإنكار المنكر لا بد فيه من العلم، ولا بد فيه من الحلم، ولا بد فيه من الصبر، هذه أمور لا بد منها في إنكار المنكر، قال: «**فليغيره بلسانه**»، يغير بلسانه مبينًا نكارة هذا المنكر وفساده بالحجة والبرهان والدليل الساطع والحجة البينة من كتاب الله وسنة نبيه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، قال: «**فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**»؛ أي:

---

(١) رواه مسلم (٤٩).

أضعف مراتب الإيمان في هذا الجانب إنكار المنكر التغيير بالقلب؛ وذكر بأن يكره القلب المنكر ويبغضه ويبغض وجوده.

وهنا في هذا الحديث قال: «**فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن**»، من جاهد هؤلاء بيده إن كان من أهل ذلك ومن أهل الاستطاعة علىٰ ذلك فهو مؤمن، «**ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن**»، إذا كان من أهل الاستطاعة لهذا الأمر، والله عَزَّوَجَلَّ قال: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ [التغابن: ١٦]، والحديث المتقدم قال: «**من رأىٰ منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه**»، فالأمر حسب الاستطاعة إذا كان مستطيعًا لذلك يفعله إن كان من أهل الاستطاعة، وألا ينتقل للذي بعده ولا يكون هذا فرضه، إنما يكون فرضه الذي بعده إذا لم يكن مستطيعًا.

قال: «**ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن**»، وهذه كما في الحديث الآخر أضعف الإيمان، إذًا الإنكار باليد من الإيمان، والإنكار باللسان من الإيمان، والإنكار بالقلب من الإيمان، وأرفع ذلك الإنكار باليد ثم اللسان ثم القلب علىٰ حسب الترتيب الذي جاء في الحديث، وهذا مما يدل علىٰ تفاوت أهل الإيمان، قوة وضعفا وزيادة ونقصا، وأنهم ليسوا فيه علىٰ رتبة واحدة.

وقوله في الحديث: «**وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل**»؛ أي: ولا مقدار يسير ولا ذرة يسيرة، والمراد به: أن هذا الأمر الذي هو الأمر الثالث المجاهدة بالقلب كراهية وبغضًا؛ لأن هذا المراد، «**ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن**»، كيف يجاهدهم بقلبه دون استعمال لليد ودون استعمال للسان؟ كيف يكون مجاهدًا لهم بقلبه؟ بأن يكره قلبه ما هم عليه ويبغض المنكر الذي يقومون به وينفر منهم ومن مجالسهم ويكون مبغضًا كارهًا، هذه مجاهدة بالقلب.

وليس المراد بقوله: «**وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل**»، نفىٰ أصل

الإيمان عمن لم يكره بقلبه المنكر، بل قد يكون الإنسان مباشرا المنكر محبًّا له مائلة نفسه إليه، ولا يرفع عنه أصل الإيمان، ولا ينفىٰ عنه، لهوىٰ في نفسه وجنوح عنده في فعل المنكر ومباشرة له ومحبة لفعله، فلا يكون بذلك منتقلًا من الإيمان أو منتفيًا عنه أصل الإيمان أو خارجًا من دائرة الإيمان، بل الذي يُنفىٰ عنه في هذا الحال كمال الإيمان الواجب لا أصله، ومراد النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بقوله: «**وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل**»؛ أي: أن هذا القدر الذي هو المجاهدة بالقلب هي أقل وأدنىٰ قدرٍ يوصف فعله بأنه إيمان، بعد ذلك لا يوجد شيء من خصال الإيمان، لكن من انتفت في حقه هذه الخصلة ليس معنىٰ ذلك أن أصل الإيمان منتفٍ عنده، بل قد يفعل المنكر هو بنفسه، قد يفعل الكبيرة، ولا يكون بها خارجًا من الإيمان؛ لأن الحق في مرتكب الكبيرة فيما دون الشرك بالله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: أنه مؤمن بإيمان فاسق بكبيرته، لا يُنفىٰ عنه أصل الإيمان، ولا يثبت أيضًا له كماله، بل شأنه أنه مؤمن ناقص الإيمان.

الشاهد: أن هذا حديث عظيم جدًّا، ذكر لنا فيه النبي ﷺ حال صفوة الأنبياء وخلاصة أتباعهم، ووصفهم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بأنهم يقتدون بأمر الأنبياء ويستنون بسنة الأنبياء، ثم حذر ﷺ من خلوف يخلفون أتباع الأنبياء بشر؛ وصفهم بأنهم يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون، ثم دعا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إلىٰ مجاهدة هؤلاء، كلٌّ في مقدوره ومستطاعه، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل.

* * *

[النهيُ عن الأخذ من اليهود والنصارى]

١٠٨- وَعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّا نَسْمَعُ أَحَادِيثَ مِنْ يَهُودٍ تُعْجِبُنَا أَفَتَرَىٰ أَنْ نَكْتُبَ بَعْضَهَا؟ فَقَالَ ﷺ: «أَمُتَهَوِّكُونَ أَنْتُمْ كَمَا تَهَوَّكَتِ اليَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ؟! لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِهَا بَيْضَاءَ نَقِيَّةً، وَلَوْ كَانَ مُوسَىٰ حَيًّا مَا وَسِعَهُ إِلَّا اتِّبَاعِي». رَوَاهُ أَحْمَدُ[(١)].

ثم أورد رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ هذا لحديث عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**أن عمر** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قال: يا رسول الله، إنا نسمع أحاديث من يهود تعجبنا**»، ربما يكون بعض هذه الأحاديث تتحدث عن شيء من الآداب أو شيء من الفضائل أو شيء من الأخلاق أو من المعاملات أو نحو ذلك.

قال: «**إنا نسمع أحاديث من يهود تعجبنا**»، وهنا ينبغي أن ننتبه إلىٰ من الذي قال هذه الكلمة: «**تعجبنا**» صحابي، بل قد قال عنه النبي ﷺ: «**لَقَدْ كَانَ فِيمَا قَبْلَكُمْ مِنَ الأُمَمِ مُحَدَّثُونَ، فَإِنْ يَكُ فِي أُمَّتِي أَحَدٌ فَإِنَّهُ عُمَرُ**»[(٢)]، صحابي علىٰ قدر عالٍ من العلم والفهم والفطنة والنباهة والفضل والخير.

قال: «**إنا نسمع أحاديث من يهود تعجبنا، أفترىٰ أن نكتب بعضها؟!**»، الآن ما الذي طلب أن يكتبه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ؟ طلب أن يكتب بعض الأحاديث التي تأتي عن هؤلاء قال: «**تعجبنا**»؛ أي في جوانب واضحة ونافعة، «**أفترىٰ أن نكتب بعضها؟!**»، هذا

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (١٥١٥٦)، وحسنه الألباني في «مشكاة المصابيح» (١٧٧).

(٢) رواه البخاري (٣٦٨٩)، ومسلم (٢٣٩٨).

السؤال الذي طرحه عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ينبغي أن ننتبه له؛ لأننا في هذا الزمان بُلينا ابتلاءً واسعًا عريضًا بتلقف الآداب والأخلاق والبحث عنها عند الغرب وعند أمم الكفر، وكأنه ليس بين أيدينا كتاب من رب العالمين نتلوه! وليس بين أيدينا سنة من النبي ﷺ واضحة بينة غراء! كأننا عُدمنا في كتاب ربنا وسنة نبينا ﷺ الأخلاق! وكأن جانب الأخلاق والآداب لم تبين في الكتاب والسنة، فأخذ الواحد ييمم شرقًا وغربًا، ويبحثون عن آداب وأخلاق وفضائل يأخذونها من فلان وعلان من كفرة لا يؤمنون بالله، ولا يدينون بدين الله عَزَّوَجَلَّ، فيتلقون عنهم الآداب والأخلاق، وبين أيديهم كتاب الله يتلىٰ، وبين أيديهم سنة نبيهم ﷺ واضحة بينة: «**تركتكم علىٰ البيضاء**»[(١)]، والكتاب والسنة جمع الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ للناس فيهما كل خير، وجعل كتابه تبيانًا لكل شيء وهدىٰ ورحمة، فيه المعاملات وفيه العلوم النافعة والآداب الكاملة، وفيه كل خير يرجوه الإنسان في دنياه وأخراه.

وبهذا تعلم الخطأ الكبير الذي يقع فيه كثير من الناس، يكتبون أشياء عن أمم الكفر من اليهود من النصارىٰ من المجوس من الوثنيين من حتىٰ الملاحدة الذين لا دين عندهم أصلا ومن الشيوعيين، وينشرونها بين بني الناس ويقولون هذا كلام جميل، وربما قالوا: هذا كلام عليه نور وأشياء من هذا القبيل، فسبحان الله! كيف أصيب الناس هذه الإصابة العظيمة ووقعوا في هذا البلاء؟!

فعمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ذكر أشياء قليلة قال تعجبنا «**نكتب بعضها؟**» وكتابتها تعني العناية بها والاحتفاء بها والاهتمام بها وحفظها حتىٰ تبقىٰ بين الناس متداولة تُنتشر، وهذا يبين لنا قيمة الكتابة وأنها تحفظ العلوم، ومن أعظم الوسائل لحفظ العلم

(١) رواه ابن ماجه (٤٣)، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٤١).

ونشره،

قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**أمتهوكون أنتم كما تهوكت اليهود والنصارىٰ**»، والتهوك في الأمور: الدخول فيها علىٰ غير بينة وعلىٰ غير تثبت وعلىٰ غير حجة وبرهان، يدخل في الأمر ولا يكون في الأمر صلاح له، بل يكون باب شر عليه، واليهود والنصارىٰ وقعوا في التهوك عندما تخلوا عن الكتاب الذي بين أيديهم، واشتغلوا بأمور أخرىٰ يستحسنونه وتعجبهم ويميلون إليها حتىٰ وقعوا بسبب ذلك في بعد كبير عن الكتاب الذي أنزل إليهم.

قال: «**لقد جئتكم بها بيضاء نقية**»، وهنا يقف المسلم عند هذا الوصف العظيم لدين الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، قال: «**لقد جئتكم بها بيضاء نقية**»؛ أي: واضحة، نقية؛ أي: ليس فهيا دخل، وليس فيها خلل، وليس فيها قصور، بل هي نقية، صفوة وخلاصة وزبدة في كل الجوانب، في العقيدة، في العبادة، في الأخلاق، إذا نظرت في العقيدة التي جاء بها عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فهي أصح العقائد وأكملها، وإذا نظرت إلىٰ العبادات التي جاء بها عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فهي أعظم العبادات وأتمها، وإذا نظرت إلىٰ الأخلاق والآداب التي جاء بها عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فهي أرفع الأخلاق وأجملها، «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**»[1]، أو: «**لأتمم صالح الأخلاق**»[2]، فجميع هذه الجوانب كملها عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾؛ أي: عقيدة وعبادة وخلقًا.

ثم قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**ولو كان موسىٰ حيًّا ما وسعه إلا اتباعي**»، لو كان موسىٰ حيًّا؛ أي: معكم وبين أظهركم، لم يسعه إلا أن يكون متبعًا لي مقتديًا بي فيما

---

(١) رواه البزار في «مسنده» (٨٩٩٤٩)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٤٥).

(٢) رواه أحمد في «مسنده» (٨٩٥٢)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٢٧٣)، وصححه الألباني في «صحيح الأدب المفرد» (٢٠٧).

جئت به، وهذا يفيد أن جميع الكتب التي قبل نبينا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ التي هي وحي من الله منزلة من رب العالمين، وجميع الكتب منسوخة بالقرآن، ومنسوخة بما جاء به الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فإذا كان الأمر بهذا المبلغ وبهذه الدرجة لو كان موسىٰ حيًّا ومعه كتابه الذي أنزله الله عليه لم يسعه إلا أن يتبع النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فكيف نكتب عنهم؟ وكيف نأخذ منهم؟ وكيف نتلقىٰ من أخلاقهم وآدابهم؟! فهذا كله من التفريط في هذا الدين والإضاعة له، وإذا أراد المسلم أفضل العقائد موجودة في القرآن والسنة، إذا أراد أفضل العبادات والطاعات موجودة في الكتاب والسنة، إذا أراد أفضل الآداب والأخلاق موجودة في الكتاب والسنة لم يفرط فيهما من شيء في العقيدة والعبادة والأخلاق، كل ذلك كُمل في كتاب الله وسنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه.

وهذا الحديث الذي ساقه المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ يبين لطالب العلم نهجًا سويًّا مباركًا في كيفية طلب العلم أن وهو: أن يكرس جهوده ويحفظ وقته في حفظ العلم الموروث عن النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، «**فإن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر**»[(١)].

تعجب غاية العجب من أقوام لا يحفظون آيات وردت في القرآن جمعت الأدب كله وجمعت الخُلق كله ثم تجده يحفظ كلمة لكافر فاجر ويتشدق بها ويعجب بها! وآيات من القرآن جمعت الآداب والأخلاق جمعًا وافيًا تجده لا يحفظها ولا يعرف معناها ولم يتفقه في مدلولها! فأين طلب الإنسان الخيرية لنفسه إذا كانت حالة بهذه الحال معرضًا عن كتاب الله وسنة نبيه ﷺ وميممًا ومشرقًا ومغربًا، ثم أيضًا يؤلم في هذا الباب أشد الألم مدارس بدأت تنتشر في أوساط المسلمين وفي

---

(١) رواه أبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٢٩٧).

ديارهم، ويسمون تلك المدارس وتلك الدروس التي يعقدونها يسمونها: «تدريب»، ويسمون من يقوم بتلك الأمور: «المدرب»، ويعقدون ندوات ودورات لصناعة الذات وخلق المواهب وإيجاد المهارات، ثم تنصبُّ جهودهم في بيان هذا الأمر علىٰ أشياء تُلقيت من الغرب، بعضهم يحاول أن يصفي وينقي لخلفية يسيرة عنده في العلوم الشرعية، وبعضهم أخذ ما عند الغرب بعلاته حتىٰ بما فيه من شركيات، وما فيه من انحراف عن دين الله وما فيه من تعلق بالأسباب وإعراض عن التوكل علىٰ الله والاستعانة به وطلب العون والمدد منه، وأدخلوا الناس في أوهام وخرافات لا حد لها في جانب معالجة المشاكل، وفي جانب ترتيب الأمور وتنظيم الأوقات، وفي جوانب الحياة الزوجية ونحو ذلك.

وعندما تنظر إلىٰ القرآن والسنة في حل مشكلات الإنسان وما يصادفه في حياته من هموم أو من غموم أو ما يواجهه في حياته من مشاكل كيف يعالجها في ضوء القرآن والسنة؟ تجد العلاج الشافي تجد البلسم وتجد طب القلوب والأبدان، بينما ترىٰ عند هؤلاء في معالجة المشاكل خرافات، كلام ساقط، كلام صادر من قلوب خاوية ومن قلوب كفار قلوب خاوية لا تحسن كيف تحل مشاكل.

وأذكر مثالًا واحدًا حتىٰ ندرك الانحراف العريض الذي وقع في هذا الباب، أحدهم كما نقل لي يتحدث مع مجموعة أمامه فيما يسمىٰ بالتدريب في حل المشاكل، قال: إذا وقعتَ في مشكلة في حياتكم وأرَّقتك ولا تستطيع معها أن تنام فإنك تجلس في غرفة وحدك ليس معك أحد وتغلق الباب وتنظر إلىٰ الجدار الذي أمامك وتتصور أن أمامك شاشة التلفاز، وأنك فتحت الشاشة، وبدأ التلفاز يشتغل أمامك، واجتهد وأنت تتصور وتتخيل أن تعرض المشكلة التي عندك من بدايتها في التلفاز، وشغل ذهنك واجمع قلبك واهتم وركز أمامك، كأن الشاشة تشتغل أمامك

من بداية المشكلة، ثم اعرض المشكلة علىٰ التلفاز من أولها إلىٰ آخرها وأنت تتابع الحدث من أوله، وكأنه أمامك، وكأنك تنظر إليها خطوة خطوة، فلما تقارب المشكلة أن تصل إلىٰ تمامها وهي تعرض أمامك علىٰ الشاشة، وبشكل سريع وكأنك أخذت حجرا واكسر الشاشة التي أمامك، والمشكلة التي كنت تعاني منها ستراها أمامك تحطمت وخرجت من نفسك وتكسرت في الشاشة، وتخرج من الغرفة وأنت مغتبط؛ لأنك كسرت المشكلة وحطمتها ولم يبقَ شيء منها، ومثل هذا الركام من الخرافات التي ما أنزل الله بها من سلطان، ثم يزيد هذا القائل يقول: وإذا انتهيت وخرجت ليس عندك مشكلة تحطمت المشكلة أمامك في نفس اللحظة تمسك يدك الإبهام وتضغطها بشدة بشكل مؤلم، ثم إذا قُدِّر أنه حصل، وأن المشكلة بدأت تعود ليس هناك حاجة أن تجلس الجلوس الطويل لتكسر المشكلة علىٰ الشاشة مرة ثانية، بل تضغط إبهامك الموضع الذي كسرت فيه المشكلة تضغط إبهامك فتجد أنها ذهبت.

ثم إذا انتهىٰ التدريب وسمعوا هذه المحاضرة، كل واحد يدفع مبلغًا من المال علىٰ هذا العلم الغزير الذي أخذوه من المدرب، ويتقبلون هذا بالشكر وبالتقدير والحفاوة، ويخرج الواحد منهم مغتبطًا: «أنا اليوم أخذت من المدرب الفلاني»، وأيضًا يعطيه المدرب شهادة أنه تدرب علىٰ يديه ويعطيه إذنًا يقوله له: درب الناس علىٰ حل المشاكل؛ وأما القرآن والسنة يتركان جانبًا ويشتغل الناس علىٰ أيدي هؤلاء المدربين بالانحرافات والضلالات التي ما أنزل الله بها من سلطان.

ألا فلنتق الله عَزَّوَجَلَّ، ولنعظم كتاب ربنا وسنة نبينا ﷺ، وكل ما نطلب من الخير والسعادة والرفعة وحل المشاكل وطمأنينة القلوب وسعادة النفوس، كل ما نطلبه موجود في الكتاب والسنة، «**تركتكم علىٰ البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها**

بعدي إلا هالك»، تركنا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ على بيضاء نقية، فيجب أن يُنتبه لهذا الأمر، وأن يحذر من هذه الأمور بأي مسميات كانت، وأن يكون إقبال المسلم على كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، وليكن لنا عظة وعبرة بهذا التنبيه المبارك والتوجيه السديد لنبينا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

عمر لما قال: «**أفترى أن نكتب بعضها؟!**»يعني: هذه الأشياء التي تعجبنا مما نسمعه من اليهود والنصارى، أنكتب ذلك؟ والذي سيكتب وينتقي ويأخذ الكلام مصفى ليس أي أحد، وإنما هو عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، ومع ذلك حذر النبي ﷺ من ذلك أشد التحذير، قال: «**أمتهوكون أنتم كما تهوكت اليهود والنصارى؟ لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لو كان موسى حيًّا ما وسعه إلا اتباعي**».

* قوله في الحديث: «**لو كان موسى حيًّا**» وموسى كليم الله عليه صوات الله وسلامه، «**ما وسعه إلا اتباعي**» أن يتبعني، فهذا فيه رد على بعض الغلاة من الطرقية الذي يدَّعي لنفسه أنه واصل، ويزعم أن التكاليف سقطت عنه، فالنبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يقول: «**لو كان موسى حيًّا ما وسعه إلا اتباعي**»، فهذا يبين زيف مثل هذه الدعاوى الكاذبة.

* * *

[أصول الدِّين وفروعه]

١٠٩- وَعَنْ أَبِي ثَعْلَبَةَ الخُشَنِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «إِنَّ اللهَ فَرَضَ فَرَائِضَ فَلَا تُضَيِّعُوهَا، وَحَدَّ حُدُودًا فَلَا تَعْتَدُوهَا، وَحَرَّمَ أَشْيَاءَ فَلَا تَنْتَهِكُوهَا، وَسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءَ رَحْمَةً لَكُمْ غَيْرَ نِسْيَانٍ فَلَا تَبْحَثُوا عَنْهَا». حَدِيثٌ حَسَنٌ رَوَاهُ الدَّارَقُطْنِيُّ وَغَيْرُهُ[١].

أورد المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ هذا الحديث، حديث أبي ثعلبة الخشني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو كما عده غير واحد من أهل العلم من جوامع كلم النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ومن أجمعها لأمور الدين أصوله وفروعه، بل بعض أهل العلم قال: إن هذا الحديث أجمع حديث لأصول الدين وفروعه، ومن تعلم هذه الأمور التي أرشد النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إلىٰ تعملها في هذا الحديث العظيم المبارك، فإنه يكون بذلك تعلم الدين كله، وما ينبغي للمسلم أن يتعلمه منه؛ فهو حديث عظيم جامع، ولهذا أورده الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ في كتابه «**الأربعين**»، ومن شرطه في كتابه أن يجمعه فيه ما عُد من الأحاديث من جوامع كلمه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فأورد هذا الحديث في الأربعين وحسنه قال: «وهو حديث حسن»، والحديث في سنده شيء من الكلام، لكن الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ في شرحه للأربعين[٢] ذكر ما يشهد لهذا الحديث ومما يتقوىٰ به، ويكون صالحًا للاحتجاج والاعتماد، وهو حديث عظيم جامع ينبغي علىٰ المسلم أن يتأمله.

---

(١) رواه الدارقطني في «سننه» (٤٢)، والطبراني في «معجمه الكبير» (٥٨٩)، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (١٥٩٧).

(٢) «جامع العلوم والحكم» (ص٢٧٦).

وإيراد المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ لهذا الحديث في «باب التحريض علىٰ طلب العلم وكيفية الطلب» من أجل ما في هذا الحديث من التوجيه النبوي لتعلم الفرائض والحدود والمحرمات، قال عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها، وحد حدودًا فلا تعتدوها، وحرم أشياء فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء رحمة لكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها**»، فهذا الحديث من الأحاديث العظيمة المهمة في باب التحريض علىٰ طلب العلم؛ تعلم الفرائض وتعلم حدود الإسلام وتعلم المحرمات في الإسلام؛ لأن من لم يتعلم الفرائض والحدود كيف يأتي بها؟ وكيف يكون ملتزمًا بالشريعة إذا لم يكن علىٰ علم بحدوده؟ وكيف أيضًا بجانب المحرمات ويبتعد عنها وهو لا يعرفها كما قيل: «كيف يتقي من لا يدري ما يتقي؟!»[1]، فإذًا هذا الحديث فيه التحريض علىٰ طلب العلم والحث عليه، بل فيه التنبيه علىٰ أهم ما ينبغي أن يتعلمه المسلم وهي أمور ثلاثة: الفرائض، والحدود، والمحرمات.

ثم أيضًا في الحديث بيان لغرض التعلم، فلو قال قائل: لماذا نتعلم الفرائض؟ ولماذا نتعلم حدود الشريعة؟ ولماذا نتعلم المحرمات؟ يأتي الجواب في الحديث نفسه، الفرائض نتعلمها حتىٰ لا نضيعها؛ لأن من لا يعرف الفرائض يضيعها، ونتعلم حدود الشريعة من واجب ومستحب ومباح حتىٰ لا نتجاوز حد الشريعة في أعمالنا، ولهذا قال هنا: «**وحد حدودًا فلا تعتدوها**»؛ أي: لا تتجاوزوها، والمحرمات أيضًا تُتعلم ويعرفها المسلم، ولهذا أفراد العلماء مصنفات خاصة في الكبائر والآثام والتحذير منها، فالكبائر والذنوب يعرفها المسلم من أجل أن يجتنبها، ولهذا قال: «**وحرم أشياء فلا تنتهكوها**»؛ أي: لا تقترفوها، واحذروا من فعلها والوقوع فيها، فهذا أهم ما ينبغي أن يتعلم.

ثم في الوقت نفسه لما ذكر في هذا الحديث أهم ما ينبغي أن يُتعلم حذر من

---

(١) «حلية الأولياء» (٩/ ٣١٦).

السؤالات التي لا يتحقق بها نفع للإنسان في الناحيتين العلمية والعملية، فنهىٰ عن ذلك، قال: «**وسكت عن أشياء**»؛ أي: لم يذكر فيها حلالًا أو حرامًا، «**رحمة لكم غير نسيان، فلا تبحثوا عنها**»، ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤]، في زمن الصحابة نُهوا عن هذه الأسئلة حتىٰ لا يكون السؤال مترتبًا عليه حكمًا، فنهوا عن مثل هذه السؤلات، ﴿لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ [المائدة: ١٠١]، وبعد زمن الصحابة يبقىٰ أيضًا النهي كما بين أهل العلم عن السؤال الذي فيه تعنت، وفيه مكابرة، وفيه خوض من المرء فيما لا يعنيه، والسؤال الذي فيه نوع اعتراض أو نحو ذلك، والسؤال الذي يراد به إثارة شبهة، فكل هذه السؤلات يُنهىٰ عنها.

ولهذا؛ فإن في الحديث من الفائدة: التنبيه علىٰ فقه السؤال، وكثير من الناس يلقون أسئلتهم دون فقه فيه من حيث طرح السؤال وآدابه، فقد يكون بعض الناس جاهلًا ببعض فرائض الإسلام وواجبات الدين ثم لا يسأل عنها ويسأل عن أغلوطات الأمور ويخوض في المشتبهات ويقحم نفسه فيما لا يعنيه، وهذا من قلة وعدم الفهم بفقه السؤال، بينما الناصح لنفسه الحريص علىٰ سعادته يجعل سؤاله مغنمًا له ولمن يسمع السؤال، وكم من سؤال صدر من إنسان ناصح ومن قلب محب للخير، فجعله الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ سبب هداية للسائل ولخلقٍ كثير لا يحصون، نتيجة سؤال طيب نافع صادق جاد يطرحه الناصح ليستفيد وليتفيد غيره من المؤمنين ومن عباد الله، وليس كلما يخطر في بال الإنسان ويدور في خياله يطرحه، فقد يكون الذي يدور في خيال الإنسان وساوس يتعوذ بالله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ منها ولا يصوغها سؤالًا فيشوش علىٰ نفسه وعلىٰ الناس، بل يتعوذ بالله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ منها وتذهب عنه وساوس الصدور، ولهذا قال هنا: «**وسكت عن أشياء رحمة لكم غير نسيان، فلا تبحثوا عنها**»؛ أي: لا تسألوا عنها.

وإذا تأملت في هذا الحديث تجد أنه قسم الأحكام وأمور الشريعة إلىٰ أقسام

أربعة، وبين الواجب علينا الواجب تجاه كل قسم:

- **القسم الأول**: الفرائض، وبدأ بها عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قال: «**إن الله فرض فرائض**»، والمراد بالفرائض واجبات الدين، وما فُرض علىٰ العباد فعله من الصلاة والصيام والزكاة والحج وغير ذلك من فرائض الإسلام، قال: «**إن الله فرض فرائض لا تضيعوها**»، وانظر جمال هذا البيان «**لا تضيعوها**»، وهذه الكلمة تقال للإنسان عندما يعطىٰ شيئًا ثمينًا، ويقال له: أمسكه ولا تضيعه، عندما يعطىٰ كنزًا ثمينًا يوضع في يده ويقال له: لا تضيعه، هذه الكلمة لا تقال إلا في الشيء الثمين الذي هو عرضة للضياع، فيؤكد علىٰ الإنسان وينبه إلىٰ المحافظة عليه، ولهذا هذه الفرائض هي عرضة للضياع في فتن الدنيا وصد الشيطان وقرناء السوء وأنواع الصوارف التي تعرض للإنسان في حياته،، الصلاة عرضة للضياع، الصيام عرضة للضياع، الزكاة عرضة للضياع، فقال: «**إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها**»، لتكن محافظتكم عليها مستمرة مستديمة معتنين بها محافظين عليها.

وهذا التوجيه النبوي الكريم يجعل المسلم في أوقاته كلها مجاهدًا نفسه علىٰ حفظ الفرائض وعدم إضاعتها، وأيضًا يجعل المسلم ينتبه إلىٰ أن فرائض الإسلام هي أعظم شيء في هذا الدين، وأنها إذا ضُيعت الفرائض فما سواها من أمور الدين أضيع، من ضيع فريضة الصلاة فما سواها من أمور الدين هو لها أضيع كذلك، فماذا ينتظر ممن ضاعت منه صلاته؟ وماذا ينتظر ممن يقوم الصباح ولم يصلِّ الفجر؟ فيومه كله يضيع، والله المستعان، وإذا ضاعت الصلاة ذهبت البركة وقام خبيث النفس كسلانًا، وأول ما يسأل عنه العبد يوم القيامة الصلاة، في الحديث قال: «من حافظ عليها كانت له نورًا وبرهانًا ونجاة يوم القيامة، ومن لم يحافظ عليها لم يكن له نور ولا برهان ولا نجاة يوم القيامة، وحُشر مع قارون وفرعون وهامان وأبي بن

خلف»[١]، يحشر مع صناديد الكفر وأئمة الباطل، فالفرائض إذا ضاعت ضاع ما سواها، وإذا حُفظت كانت بوابة لحفظ ما سواها، وهذا هو معنىٰ قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، وقوله سبحانه: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ٤٥]، فالصلاة تعينك علىٰ حفظ أمور الدين الأخرىٰ وتعينك علىٰ البعد عن الحرام، ولعل هذا هو سر البدء بالفرائض؛ لأنها أساس وبقية الأمور تأتي تبعًا لهذا الأساس العظيم.

قال: «**إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها**»: ومن حافظ علىٰ فرائض الدين حفظها له رب العالمين ولم يضيع له منا شيء، وقد قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣]، يحفظها له، وتكون بركة عليه في حياته الدنيا وأجرًا وثوابًا يلقاها يوم القيامة.

- «**وحد حدودًا فلا تعتدوها**»: المراد بالحدود هنا: حدود الشريعة، ولعله سبق معنا حديث يبين لنا ذلك، عندما ضرب مثلًا قال: «إن الله ضرب مثلًا صراطًا مستقيمًا، وعلىٰ جنبتي الصراط سوران، وفي السورين أبواب وعلىٰ الأبواب ستور مرخاة»، ثم بين في الحديث قال: «السوران حدود الله»، فالشريعة لها حدود لا يجوز للإنسان أ ن يخرج عنها، واجب ومستحب ومباح لا يخرج في أفعاله عن هذا الحد، فإذا خرج عن هذه الأمور عن الواجب والمستحب والمباح فهذا خروج عن حد الشريعة، إما إلىٰ مكروهات أو إلىٰ محرمات، ويفوت علىٰ الإنسان باقتراف هذه الأشياء حظه من مكانته في الشريعة ومنزلته فيها بحسب خروجه عن حدها، ولهذا قال أهل العلم عن الإيمان: ينقص بالمعاصي، فإذا فعل فعلا ليس واجبًا ولا مستحبًّا

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (٦٥٧٦)، وابن حبان في «صحيحه» (١٤٦٧).

ولا مباحًا إما محرمًا أو مكروهًا نقص إيمانه بحسب ذلك، فلا يقال: ذهب إيمانه إلا إذا فعل أمرًا ينتقل به من الملة ويخرج به من الدين، أما إذا ارتكب معصية أو ذنبًا صغيرًا كان أو كبيرًا فيما دون الكفر بالله فإن إيمانه ينقص، ولهذا قال أئمة العلم: يزيد وينقص، ولزيادته أسباب ولنقصانه أسباب، وهنا تحذير من الأسباب التي ينقص بها الإيمان قال: «فلا تعتدوها»؛ لأنه إذا اعتداها الإنسان نقص وضعف إيمانه.

- ذكر الأمر الثالث، قال: «**وحرم أشياء فلا تنتهكوها**»، حرم أشياء؛ أي: نهىٰ عباده عنها ومنعهم لما فيها من المضرة عليهم في دينهم ودنياهم، حرمها تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ علىٰ عباده، والله عَزَّوَجَلَّ لا يأمر إلا بما فيه خير ولا ينهىٰ إلا عما فيه ضر، قال: «**فلا تنتهكوها**»؛ أي: لا تقترفوا ولا تفعلوا الشيء الذي نهاكم الله عنه ولا ترتكبوه احذروا من ذلك، والانتهاك والتعبير به هنا يدل علىٰ أن الإنسان ما دام علىٰ جادة الشريعة، فإن ثمة حواجز يحذر من انتهاكها وتخطيها؛ لأنها تخرجه عن جادة الشريعة وعن صراط الله المستقيم، وكلما كانت الانتهاك لهذه المحرمات كان أبعد عن صراط الله المستقيم.

- الأمر الرابع، قال: «**وسكت عن أشياء**»؛ أي: لم يُذكر فيها حلال ولا حرام، «**سكت عن أشياء رحمة لكم غير نسيان فلا تبحوا عنها**»، ومن الأمثلة والشواهد علىٰ ذلك ما جاء في الحديث، وسيسوقه المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ بعد هذا الحديث، وهو حديث أبي هريرة، يقول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**ما نهيتكم عنه فاجتنبوه، وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم**»[(١)]، هذا الحديث له قصة، وهي أن النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لما ذكر للناس فريضة الحج ورغبهم فيه، قال رجل: «أفي كل عام؟»؛ يعني: هل هو فرض علينا في كل عام؟ فقال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «لو قلت: نعم؛ لوجبت»، ثم حذر عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ

---

(١) رواه البخاري (٧٢٨٨)، ومسلم (١٣٣٧).

من مثل هذه الأسئلة، وقال ﷺ: «**ما نهيتكم عنه فاجنبوه، وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة مسائلهم واختلافهم علىٰ أنبيائهم**».

وهنا ينبغي أن يُنتبه إلىٰ أن الكثير من الناس يفرطون في تعلم دينهم، فتجد الواحد منهم لا يتعلم الشريعة لا يتعلم حدود الإسلام، ولديه من الأسئلة فيما لا يعنيه الشيء الكثير، أما فرائض الإسلام لا يتعلمها! فهذه الأحاديث أيضًا فيها التحذير من هذا الأمر، وأن الواجب علىٰ الإنسان أن يعرف الفرائض، ويجاهد نفسه علىٰ فعلها، وأن يعرف حد الشريعة فلا يتجاوزه، وأن يعرف المحرمات ليكون بعيدًا عنها ويترك الأسئلة التي فيها تعنت أو تكلف أو تقعر أو تعمق أو خوض فيما لا يعنيه كل ذلك يتركه.

إن حديث أبي ثعلبة الخشني يضع للمسلم ولطالب العلم منهجية في طلب العلم حتىٰ تنضبط أموره وتتزن، يضع له منهجية في طلب العلم وكيف تكون اهتماماته في الطلب؟ وبماذا يبدأ؟ وكيف يتدرج في طلبه ؟ قال: «**إن الله فرض فرائض**»، هل يناسب في حق المسلم أن ينشغل بتعلم بعض المندوبات والرغائب والمستحبات وهو لا يعرف فرائض الإسلام ومفرط فيها؟!، فلا ينبغي الاشتغال بهذه المسائل قبل تعلم الفرائض، وأعظم الفرائض التوحيد الذي خُلق الخلق لأجله وأجدوا لتحقيقه، ثم الصلاة، الصيام، والزكاة، والحج، كما في الحديث: «**بني الإسلام علىٰ خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج بيت الله الحرام**»[(١)]، يتعلم الفرائض ثم يتعلم حدود الشريعة حتىٰ لا يخرج عن حدها فيتعرف علىٰ الواجبات والمستحبات، ثم يتعلم المحرمات حتىٰ لا يقترف شيئًا منها ولا يرتكب شيئًا منها.

---

(١) رواه البخاري (٨)، ومسلم (١٦).

ومن فوائد الحديث العظيمة: بيان أن مقصود العلم العمل، وإلا ما هي قيمة العلم! وما هي قيمة تعلم الإنسان للفرائض إذا كان حتىٰ بتعلمه لها مضيعًا لها! وما فائدة تعلم الإنسان للمحرمات إذا كان أيضًا مع تعلمه لها مقترفًا لها! يعرف المحرمات ويعرف عقوباتها عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ويعرف أن هناك جنة ونارًا وثوابًا وعقابًا، ثم يرتكب المحرمات! فيصبح علمه حجة عليه: «**القرآن حجة لك أو عليك**»(١)، فهذا الحديث من فوائده العظيمة أن فيه تنبيهًا إلىٰ أن مقصود العلم العمل، ولهذا يقول علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «هتف بالعلم العمل، فإن أجابه وإلا ارتحل»(٢)؛ يعني: العلم ينادي العمل، (فإن أجابه وإلا ارتحل»، ما الذي يرتحل؟ العلم، فإذا لم يعمل صاحب العلم به ارتحل علمه وذهب وأصبح حجة عليه، ولهذا من فوائد الحديث العظيمة أن فيه تنبيهًا للمسلم إلىٰ مقصود العلم، تجلس في مجالس العلم تتفقه لتعمل وإلا كان مجلسك شاهدًا عليك وحجة عليك.

سؤال: هل معنىٰ ذلك أن المسلم يترك مجالس العلم؟ فيقول: «أنا نفسي تميل إلىٰ التفريط وإلىٰ التضييع، وإذا جلست مجلس علم سأستمر علىٰ تفريطي وتضييعي، ويكون هذا المجلس حجة علي لا لي».

الجواب: لا؛ فإذا ابتعد الإنسان عن مجالس العلم ومجالس الخير حرم نفسه مما ينفعه، لأن مجالس العلم من أعظم بوابات الإنسان لصلاح نفسه وزكاء قلبه وطمأنينة قلبه وسكونها، «**ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتم الرحمة، وحفتهم الملائكة،**

---

(١) رواه مسلم (٢٢٣).

(٢) «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ٦٩٦)، و«الجامع لأخلاق الراوي» (١/ ٨٩).

وذكرهم الله فيمن عنده»(١)، يخرج المسلم من مجلس العلم ونفسه مقبلة علىٰ الخير مطمئنة منشرح الصدر، نافرة من المعاصي، محبة للخير، «**هم القوم لا يشقىٰ بهم جليسهم**»(٢)، ولهذا مجالس الخير ينبغي أن يحافظ عليها المسلم وفي الوقت نفسه، أيضًا يجاهد نفسه علىٰ العمل بالخير الذي يتعلمه ويعود نفسه علىٰ ذلك.

فالحديث عظيم مبارك، وإيراد المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ لهذا الحديث في باب التحريض علىٰ طلب العلم وكيفية الطلب، هذا من فقه المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ ومن جمال الاستشهاد والاستدلال.

❊ ❊ ❊

---

(١) رواه مسلم (٢٦٩٩).

(٢) رواه مسلم (٢٦٨٩).

[النهي عن الاختلاف والتفرُّق]

١١٠- وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ، وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ مَسَائِلِهِمْ، وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَىٰ أَنْبِيَائِهِمْ»[1].

ثم أورد رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ هذا الحديث، حديث أبي هريرة عنه، أن النبي ﷺ قال: «**ما نهيتكم عنه فاجتنبوه، وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم**»، هذا الحديث كما أشرت مقدمًا له قصة، وهي: أن النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قال: «**إن الله فرض عليكم الحج فحجوا**»، فقال رجل: أفي كل عام يا رسول الله؟ قال: «**لو قلت: نعم؛ لوجبت**»، ثم قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**ما نهيتكم عنه فاجتنبوه، وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم**»، «**ما نهيتكم عنه**»؛ أي: من المحرمات والممنوعات، «**فاجتنبوه**»؛ أي: ابتعدوا عنه، واحذروا من الوقوع فيه، «**وما أمرتكم به**»؛ أي: من صلاة وصيام وحج وصدقة وغير ذلك، «**فأتوا منه ما استطعتم**»؛ أي: افعلوا منه الذي تستطيعونه؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يكلف الإنسان ما لا يطيق، ولا يكلف نفسًا إلا وسعها، «**فأتوا منه ما استطعتم**» كما جاء في الحديث الآخر: «**صل قائمًا، فإن لم تستطع فقاعدًا، فإن لم تستطع فعلىٰ جنب**»[2]، وقال في الحج: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًاۚ﴾ [آل عمران: ٩٧]، ومن لا يطيق الصيام يطعم، فالشاهد أن الأوامر التي أمر الله

---

(١) رواه البخاري (٧٢٨٨)، ومسلم (١٣٣٧).

(٢) رواه البخاري (١١١٧).

تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ بها منوطة بالاستطاعة، وإذا كان الإنسان مستطيعًا لفعلها فعلها، وإذا كان لا يستطيع فعلها كاملة يفعل منها ما استطاع.

وهنا ملاحظة مهمة: في النواهي، قال: «**ما نهيتكم عنه فاجتنبوه**»، ولم يقل: «ما استطعتم» ولم يذكر الاستطاعة، وفي الأوامر قال: «**وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم**»، قال أهل العلم: لأن النواهي ترك وعدم فعل، والترك مستطاع لكل أحد، للقوي والضعيف للصحيح والمريض للكبير والصغير للذكر والأنثىٰ، أما الأوامر قد تكون مستطاعة وقد لا تكون، مثال للتوضيح في الفرق بين الأمر والنهي، فعندما يقال: «لا تدخل الباب»، وعندما يقال: «ارفع هذا الحجر» أمر، عندما يقال: «لا تدخل الباب»، هل يحتاج أن يقال إذا استطعت؟ لا يحتاج إليها؛ لأنه مستطيع، يبقىٰ في مكانه يذهب من طريق آخر، لكن «ارفع هذا الحجر»، هذا أمر ممكن قوي الذي أُمر فيرفعه، ويمكن يكون ضعيفًا مريضًا ما يستطيع أن يرفعه، ولهذا لما يؤمر الإنسان بفعل شيء يقال له: إذا استطعت، «اذهب احملي ذاك إذا استطعت».

قال: «**فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة مسائلهم واختلافهم علىٰ أنبيائهم**»، كثرة المسائل والاختلاف علىٰ الأنبياء له سبب، وسببه قلة إقبال النفس علىٰ العمل، فالنفس التي ليس لها رغبة في العمل تبدأ في المسائل، ربما يلاحظ هذا بصورة مصغرة عندما تأمر طفلك الصغير أن يحضر لك شيئًا، إذا لم يكن عنده رغبة أو نشاط أن يحضره لك مثلًا تجده يكثر السؤال: أين؟ الذي فوق أو الذي تحت؟ في عدة أشياء أيها الذي تريد منه؟ ويجلس في مكانه وقد يسألك عشرة أسئلة! فهذه السؤالات قد يكون سببها أن نفسه ليست نشيطة للعمل، أما الراغب في العمل الذي نفسه مقبلة علىٰ العمل فبمجرد ما يُدل علىٰ الخير ويفتح له أبوابه مباشرة يفعل، لاحظوا هذا في أمر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لبني إسرائيل أن يذبحوا بقرة؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗۖ﴾

[البقرة: ٦٧]، فالأمر واضح، ولا يحتاج إلىٰ أي سؤال، بل خذ أي بقرة واذبحها، وتكون أديت الذي أُمرت به، لكنهم سألوا سؤالات، وهي نابعة عن عدم رغبة في العمل والحرص عليه، ﴿مَا لَوْنُهَاۚ﴾، ﴿مَا هِيَ﴾، ﴿إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا﴾، أسئلة متعددة، تأتي في قلة رغبة في العمل من كل أحد من الصغير من الكبير، وهذا فيه تنبيه يفيد جدًّا في هذا الباب الذي ساقه المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ لأجله فيه تنبيه لطالب العلم أن تتجه همته العالية في الطلب إلىٰ الأمور الكبار مع الحرص علىٰ العمل والجد في ذلك، فيعرف الفرائض والأوامر ويعرف أيضًا النواهي والمحرمات، وهو مقبل علىٰ فعل الأوامر وحريص علىٰ ترك النواهي واجتنابها.

بهذه المناسبة أذكر قصة لما فيها من فائدة، ألا وهي: قصة طالب كنت درَّسته في المرحلة المتوسطة قبل أكثر من عشرين سنة، وكان حافظًا للقرآن حفظًا جيدًا، فيوم من الأيام أتاني بمذكرة في حدود ثلاثمائة صفحة أو أكثر ومكتوبة عليها، «الأوامر والنواهي في القرآن»، وقال لي: أريد أن تقرأ هذه وتوجهني، قلت: من الذي جمعها؟ قال: أنا، فقلت: لا ينبغي أن يكون التأليف والكتابة في هذه المرحلة، الآن تعتني بطلب العلم والتأصيل فيه، فقال: أنا لم أؤلف، بل بفضل الله أحفظ وأقرأ القرآن دائمًا، ولما وجدت في القرآن أوامر كثيرة يأمرنا الله بها ونواهي كثيرة ينهانا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عنها، فأحببت أن أتفقه فيما يأمرني الله به لأفعله، وما ينهاني عنه لأتركه، فكلما وقفت علىٰ أمر في القرآن أقيده في الكراسة، وأرجع إلىٰ «تفسير ابن كثير» و«تفسير ابن سعدي»، وأنقل معنىٰ الآية، وأيضًا النواهي في القرآن الكريم، فجمع لنفسه من أجل أن يتفقه فيما أمره الله به في القرآن وما نهاه الله عنه في القرآن من أجل أن يفعل الأوامر ويترك النواهي، وجمع كلام أهل العلم فيها مستشعرًا قول ابن مسعود: «إذا سمعت الله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فأرعها سمعك، فإنه خير

يؤمر به، أو شر ينهىٰ عنه»[(١)].

فكثير منا يقرأ الأوامر والنواهي التي في القرآن، وكأنها لا تعنيه، وكأنه لا تعلق له بها، يقرأ الآية إن كانت أمرًا يقصر في فعله وإن كانت نهيًا يقترفه، والله المستعان.

إذًا الحديث فيه توجيه مبارك للمسلم ولطالب العلم في طريقة الطلب بأن يهتم في طلبه للعلم بالأمور العظيمة الكبيرة من الفرائض والمحرمات، وأيضًا أن تتجه همته للعمل.

❊ ❊ ❊

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩٦٣٣).

[مراتب العلم]

١١١- وَعَنِ ابْنِ مَسْعودٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**نَضَّرَ اللهُ عَبْدًا سَمِعَ مَقَالَتِي فَحَفِظَهَا وَوَعَاهَا وَأَدَّاهَا، فَرُبَ حَامِلِ فِقْهٍ غَيْرُ فَقِيهٍ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَىٰ مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ، ثَلَاثٌ لَا يُغَلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُسْلِمٍ: إِخْلَاصُ العَمَلِ للهِ، وَالنَّصِيحَةُ لِلْمُسْلِمِينَ، وَلُزُومُ جَمَاعَتِهِمْ؛ فَإِنَّ دَعْوَتَهُمْ تُحِيطُ مَنْ وَرَاءَهُمْ**». رَوَاهُ الشَّافِعِيُّ، وَالبَيْهَقِيُّ فِي «**المَدْخَلِ**».

وَرَوَاهُ أَحْمَدُ، وَابْنُ مَاجَه، وَالدَّارِمِيُّ عَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ(١).

ثم أورد المصنف رَحِمَهُٱللَّهُ تعالىٰ هذا الحديث، حديث ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وهذا الحديث حديث متواتر عن النبي ﷺ، كما نص علىٰ ذلك جماعة من أهل العلم، وقد رواه عن النبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ عشرين نفسًا من الصحابة أو يزيد علىٰ ذلك، ولعل لذلك سببًا، ألا وهو: أن النبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ ذكر هذا الحديث في جمع غفير من الناس، جاء في بعض طرق حديث ابن مسعود، هذا وجاء أيضًا من رواية جبير بن مطعم أن النبي ﷺ قال هذا الحديث في مسجد الخيف من منىٰ يوم العيد في حجة الوداع، فخطب ﷺ في الناس ووعظهم في ذلك اليوم، وكان مما قال: «**نضر الله امرأً سمع مقالتي**»، وأمامه جموع المسلمين في ذلك المكان، ولهذا رواه جمع من

---

(١) رواه الشافعي في «مسنده» (١٥/ ١٤)، والبيهقي في «الدلائل» (١ / ٢٣)، وأحمد في «مسنده» (١٣٣٥٠)، والترمذي (٢٦٥٧)، وابن ماجه (٢٣٢)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٧٦٦).

الصحابة، وهو حديث معدود في الأحاديث المتواترة عن النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه.

قال ﷺ: «**نضر الله امرأً سمع مقاتلي فحفظها ووعاها وأداها**»، «**نضر الله**» هذا دعاء، دعاء من النبي ﷺ بالنضرة، والنضرة: هي البهاء والتنور والضياء والحسن، دعا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بنضرة الوجه وبهائه وجماله وحسنه لمن قاموا بهذه الأمور التي ذكرها عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في الحديث، وقد قال الله في القرآن: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]، ﴿نَّاضِرَةٌ﴾؛ أي: حسنة بهية جميلة، ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾؛ أي: تنظر بأبصارها إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يوم القيامة، نسأل الله أن يكرمنا جميعًا بذلك.

فالنضرة: هي البهاء والحسن والجمال، فدعا صلوات الله وسلامه عليه بالنضرة، ولهذا تستطيع وأنت في هذا القرن وفي هذا الزمان المتأخر من التاريخ أن تفوز بدعاء النبي ﷺ لك بأن ينضر الله وجهك إذا جاهدت نفسك علىٰ فعل هذه الأمور التي ذكرها النبي ﷺ في هذا الحديث فتفوز بإذن الله بدعوة مباركة ميمونة من النبي ﷺ: «**نضر الله امرأً**»، دعاء لمن يقوم بهذه الأمور بأن ينضر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وجهه.

قال: «**نضر الله عبدًا سمع مقالتي فحفظها ووعاها وأداها**»، فحتىٰ يفوز العبد بهذه الدعوة يفعل أمورًا أربعة، وهي مراتب العلم، ولهذا أوردها المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذه الترجمة، فالذي يريد أن يفوز بهذه الدعوة العظيمة المباركة الميمونة من النبي ﷺ يحرص علىٰ أمور أربعة ذكرها صلوات الله وسلامه عليه في هذا الحديث، قال:

١- «**سمع مقالتي**».

٢- «**فحفظها**».

٣- «**ووعاها**».

٤- «**أداها**».

فهذه مراتب أربعة للعلم، ذكرها صلوات الله وسلامه عليه في هذا الحديث ودعا لمن حقق هذه المراتب بالنضرة.

- **المرتبة الأولىٰ**: السماع، ويقولون: أول العلم سماعه، لكن متىٰ يسمع العبد العلم؟ أكثر الناس نفوسهم نافرة من سماع العلم ومنشغلة عن الجلوس له ومنصرفة في أمور لا طائل من ورائها ولا فائدة فيها، ولهذا أول العلم سماعه، فإذا أراد الإنسان أن يجاهد نفسه علىٰ العلم والتعلم أن يوطد نفسه ويصبرها علىٰ سماع العلم، وأن يجلس مطمئنًا يسمع العلم، فهذا أول العلم، وإذا حرم الإنسان نفسه من سماع العلم الأمور الأخرىٰ ينحرم منها تبعًا.

- **المرتبة الثانية**: «فحفظها»: حفظ ما يسمع الإنسان، والحفظ له وسائل عديدة، منها: أن يكرر الإنسان ما يسمع، حديثًا سمعته تكرره، من الناس من لا يحتاج أن يكرر ما يحفظه إلا خمس مرات فقط، ومنهم من يحتاج إلىٰ عشرين مرة، ومنهم من يحتاج إلىٰ خمسين، وهكذا، فيكرر الإنسان هذا العلم الذي سمعه وهو مغتبط به فرح بسماعه حريص علىٰ عوائده وآثاره العظيمة التي عليه وعلىٰ الناس في الدنيا والآخرة، فيكرر العلم حتىٰ يكون محفوظًا، ومن الحفظ للعلم أيضًا يُكتبه، فالعلم صيد، والكتابة قيد، فيكتبه حتىٰ يبقىٰ محفوظًا عنده في الكتاب يتسنىٰ له مطالعته ومراجعته بين وقت وآخر، وكثير من الأحاديث حُفظت، حفظها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالكتابة.

- **المرتبة الثالثة**: قال: «ووعاها»، وهو الفهم، يفهم ما يسمعه ويفهم ما يحفظه، ولا يكون الحفظ مجرد جمع معلومات لا يدري ما هي ولا يعرف معناها ولا يعرف مدلولها، بل يعي أي يفهم ويعرف المعنىٰ، ولا يكون الانشغال بالحفظ المجرد بل يحفظ ويفهم، فإذا حفظ آيات من القرآن يجتهد أن يفهمها، وإذا حفظ أحاديث من

سنة النبي الكريم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أيضًا يجتهد في فهمها ومعرفة مدلولها.

- ثم تأتي **المرتبة الرابعة**: قال: «وأداها» في بعض الروايات، «كما سمعها»؛ يعني: يتقن حفظها وضبطها وفهمها ويؤديها؛ أي: كما سمعها وافية، ولهذا كان أئمة الحديث يجتهدون في ضبط ألفاظ الأحاديث وحفظها عناية دقيقة، وإذا شك في لفظ في الحديث نبه عليه، وهذا كله من حرصهم علىٰ الفوز بمثل هذه الدعوة العظيمة المباركة من النبي الكريم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، «**نضر الله امرأً سمع مقالتي فحفظها ووعاها وأداها**»، فهذه مراتب العلم: السماع، ثم الحفظ، ثم الفهم، ثم أداؤه وإبلاغه كما سمعه.

قال: «**فرب حامل فقه غير فقيه، ورب حامل فقه إلىٰ من هو أفقه منه**»، وهذا فيه ألا يحتقر الإنسان من المعروف والخير شيئًا، ويجتهد أن يكون حريصًا علىٰ سماع العلم وحريصًا علىٰ حفظ العلم وفهمه وإبلاغه للناس، فرب حامل فقه غير فقيه، ربما أن يكون الإنسان يحفظ حديثًا وليس عنده فقه تام فيه فيذكره إلىٰ من هو أفقه منه، فيبين ما فيه من فقه، بحيث يكون هذا الأول ليس عنده قدرة علىٰ الاستنباط والفهم، فإذا عرضه علىٰ من هو أفقه منه عرف كيف يستنبط منه وكيف يأخذ منه الأحكام، والأول الذي كان حافظًا له لم يكن علىٰ علم بذلك، «**فرب حامل فقه غير فقيه**»، وهذا فيه أن من الناس من يكون يحفظ أحاديث، ولكن لا يعرف مدلولها، أو لا يعرف دلالتها الواسعة، يعرف شيئًا يسيرًا من دلالات الحديث.

و بعض الأحاديث مثل: «يا أبا عمير، ما فعل النغير؟»، بعض الناس يظن أنه ليس فيه دلالات أو فوائد فقهية أو أشياء تستنبط منه، بعض العلماء أوصل الفوائد التي تستنبط من هذا الحديث إلىٰ ستين فائدة[1]، فمعرفة الأحكام والاستنباط ليس

---

(١) قال الإمام ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وذكر ابن القاص في أول كتابه أنَّ بعض الناس عاب علىٰ أهل الحديث أنهم يروون أشياء لا فائدة فيها، ومَثَّلَ ذلك بحديث أبي عمير هذا، قال: «وما درىٰ أن في هذا الحديث =

لكل أحد، ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ﴾ [النساء: ٨٣]، هنا يتميز أهل العلم والراسخين فيه.

قال: «**فرب حامل فقه غير فقيه، ورب حامل فقه إلىٰ من هو أفقه منه**»، قد يكون الشخص أعلم وأفقه منك، وأرسخ منك في العلم، وتذكر له فائدة جديدة عليه لأول مرة يسمع بها، «**رب حامل فقه إلىٰ من هو أفقه منه**»، فهذا فيه تحريك الإنسان إلىٰ السماع والحفظ والوعي والإبلاغ والأداء.

ثم قال عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**ثلاث لا يغل عليهم قلب امرئ مسلم**»: الغل معروف، وهو داء يصيب القلب ومرض يدخل في النفس، ولهذا قال: «**ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم**»، الغل مكانه القلب، فقلب المسلم لا يحمل غلًّا، بل نفسه منشرحة.

قال: «**إخلاص العمل لله**»: نفس المسلم لا تغل علىٰ ذلك، بل تطمئن وتقبل عليه؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ هو الخالق الرازق المنعم الموجد لهذه المخلوقات والعبادة حق له وحده، ليس لأي أحد فيها شركة، فالمسلم يقبل علىٰ الإخلاص ونفسه في غاية الانشراح والطمأنينة؛ لأنه يأتي بالعبادة صافية نقية لا يريد بها إلا وجه المستحق سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، فهي حق له وحده جَلَّ وَعَلَا، فنفس المسلم تقبل علىٰ الإخلاص ولا تتردد فيه، ولا يجد في قلبه شيئًا تجاه الإخلاص.

«**والنصيحة للمسلمين**»: والنصيحة معناها: إرادة الخير للغير، وحب الخير للمسلمين، فلا يجعل في قلبه غشًّا ولا غلًّا ولا حقدًا ولا حسدًا، وهذا من تحقيق

=

من وجوه الفقه وفنون الأدب والفائدة ستين وجها) ثم ساقها مبسوطة فلخصتها مستوفيا مقاصده، ثم أتبعته بما تيسر من الزوائد عليه..» «فتح الباري» (١٠/ ٥٨٤).

الإيمان وتتميمه أن يكون العبد بهذا المستوىٰ من النصح، والناصح للمسلمين لا يغش ولا يخدع ولا يحمل غلًّا، لأن الله عَزَّوَجَلَّ أمرنا بأن نكون ناصحين للمسلمين، محبين الخير لهم، متعاونين معهم علىٰ البر والتقوىٰ والصلاح، لا نحمل شرًّا أو أذىٰ أو كيدًا أو مكرًا لهم.

قال: «**ولزوم جماعتهم**»: أن يلزم جماعة المسلمين، فلا ينزع اليد من الطاعة، ولا يشق العصا، ولا يفرق الكلمة، بل يكون من جماعة المسلمين، واحدًا منهم يفرح لفرحهم، ويألم لألمهم، لا يميز نفسه عليهم، ولا يتسلط عليهم بأذىٰ، بل يكون واحدًا من جماعة المسلمين.

ولاحظ هنا أن هذه الأمور الثلاثة التي ذكرها النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وقال: «**لا يغل عليهن قلب مسلم**» لها ارتباط بالدعوة في أول الحديث، قال: «**نضر الله امرأً سمع مقالتي فوعاها، فأداها كما سمعها**»: فمتىٰ يتأتىٰ للناس أن يسمعوا العلم ويحفظوه، ويعوه، ويبلغوه؟ إذا تحققت فيهم هذه الأمور الثلاثة: إذا كانوا من أهل الإخلاص، ومن الناصحين للمسلمين، ولزموا جماعة المسلمين، أرأيتم عندما يفرق بعض الناس كلمة المسلمين بالفتن والخروج علىٰ ولاة الأمر ونزع اليد من الطاعة ثم تنشب الفتن بين الناس وتراق الدماء ويذهب الأمن ويكثر القلق، في مثل تلك الأجواء هل يتهيأ للناس الجلوس لسماع العلم؟ وهل يتهيأ لهم الجلوس لحفظ العلم؟ وهل يتهيأ لهم إبلاغ العلم؟ ومنطقتهم تعصف بالدماء وتعصف بالفتن وتعصف بالشرور، فإذا لم يحقق الناس هذه الأمور الثلاثة: الإخلاص لله، والنصيحة للمسلمين، ولزوم الجماعة، لا يتحقق لهم الأمر الأول الذي دعا النبي ﷺ لأهله بالنضرة الذي هو طلب العلم بالتدرج في مراتبه.

قال: «**فإن دعوتهم تحيط من ورائهم**»: دعوة المسلمين شبهها النبي

عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بالسياج، أي: الإسلام الذي يُدعىٰ إليه ويدعون إليه مثل السياج الذي يحيط بهم.

«**فإن دعوتهم تحيط من ورائهم**»: أي: تجمعهم جمعًا محيطة بهم وهم داخلها، وهذا تأكيد علىٰ لزوم الجماعة أن لا يخرج الإنسان من جماعة المسلمين، فإذا أراد أن يصلح نفسه أو يصلح أفرادًا من جماعة المسلمين لا يخرج عن الجماعة يبقىٰ مع الجماعة واحدًا منهم، ويصلح بالتي هي أ حسن، وانتبهوا للفرق في باب الإصلاح بين المصلحين والمفسدين، المفسد الذي يتزعم الإصلاح يخرج عن جماعة المسلمين، ويميز نفسه عن صف المسلمين، ويكون خارجًا عن الجماعة، وبزعمه أنه مصلح، فيبدأ يفسد في الجماعة قتلًا وإراقة للدماء وإثارة للشرور والفتن، وإذا سئل ماذا تصنع؟ قال: أريد الإصلاح، وهو مفسد، والذي يريد الإصلاح لجماعة المسلمين يبقىٰ واحدًا من الجماعة ويصلح الجماعة بالحسنىٰ.

أرأيت- وهذا مثل يوضح لك هذا الأمر جليًّا- أرأيت عندما تكون أنت علىٰ خطأ ويحدثك شخص وينبهك برفق تشعر أنه منك، وتجد نفسك ترتاح إليه وتسمع، بينما إذا نابذك وسل عليك سيفه ورماك بالعظائم، معتديًا عليك، ستنفر نفسك منه، ويُوجد في الصف وبين الناس من المفاسد وإراقة الدماء والشرور ما لا يحمدون عاقبته، ويتضمن قوله: «**دعوتهم تحيط من ورائهم**» أن من كان مع الجماعة فإن الدعوات التي تدعىٰ لهم تشمله بإذن الله؛ مثلا: «**اللهم أعز الإسلام والمسلمين**»، «**اللهم اهدنا فيمن هديت**»، «**اهدنا الصراط المستقيم**»، وهذا فيه نهي عن الخروج عن جماعة المسلمين، وعن صفهم، وأن يكونوا يدًا واحدة متعاونين متآزرين متناصحين، كلهم يبتغون وجه الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ بالعمل لله مخلصين.

❊ ❊ ❊

[أنواع العلم]

١١٣- وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «الْعِلْمُ ثَلَاثٌ: آيَةٌ مُحْكَمَةٌ، أَوْ سُنَّةٌ قَائِمَةٌ، أَوْ فَرِيضَةٌ عَادِلَةٌ، وَمَا كَانَ سِوَىٰ ذَلِكَ فَهُوَ فَضْلٌ». رَوَاهُ الدَّارِمِيُّ، وَأَبُو دَاوُدَ(١).

هذا الحديث أورده المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ في «**باب التحريض علىٰ طلب العلم وبيان كيفية طلب العلم**»؛ لأن الحديث مشتمل علىٰ جماع أصول العلم، وأنها ترجع إلىٰ هذه الأمور الثلاثة المذكورة في هذا الحديث، وما سوىٰ ذلك كما يبين في الحديث فضل.

الأمر الأول: «آية محكمة»، آية أي من كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، محكمة وقد عرفنا فيما سبق معنىٰ قول الله جَلَّوَعَلَا: ﴿هُوَ الَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ [آل عمران: ٧]، والآية المحكمة؛ أي: البينة الواضحة في دلالتها، وأيضًا يراد بالآية المحكمة؛ أي: غير المنسوخة.

الأمر الثاني: «سنة قائمة»؛ أي: سنة من سنن النبي الكريم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، قائمة؛ أي: متقررة وثابتة.

فهذا هو العلم، العلم: آية محكمة أو سنة قائمة، ولهذا قال أهل العلم: «العلم قال الله قال رسوله»، هذا هو العلم، «قال الله»: آية محكمة، «قال رسوله»: سنة قائمة، هذا هو العلم، والعلم كله يرجع إلىٰ هذا.

---

(١) رواه أبو داود (٢٨٨٥)، وابن ماجه (٥٤)، وضعفه الألباني في «ضعيف أبي داود» (٦١٥).

والأمر الثالث: قال: «فريضة عادلة»، قوله: فريضة عادلة، يحتمل أحد أمرين:

١- الأول: أن يراد بالفريضة الفرائض المعروفة التي هي قسمة المواريث وقسمة التركة، ولهذا فإن الإمام أبا داود رَحِمَهُ ٱللَّهُ خرَّج هذا الحديث في كتابه «**السنن**» في كتاب: الفرائض، بل جعله أول حديث في كتابه الفرائض من «**سننه**»، فيحتمل أن المراد بالفريضة؛ أي: قسمة التركة قسمة المواريث.

٢- ويحتمل أن الأمر أوسع من ذلك، أن الفريضة العادلة فرائض الإسلام وواجبات الدين.

وإضافة الفريضة العادلة إلىٰ السنن القائمة والآية المحكمة من إضافة الخاص للعام؛ لأن الفريضة العادلة هي من الآيات المحكمات، ومن السنن الثابتات ليست أمرًا زائدًا، لكن التخصيص يكون للاهتمام.

قال: «**وما كان سوىٰ ذلك فهو فضل**»؛ أي: ما سوىٰ هذه الأمور الثلاثة فهو فضل، أما أصول العلم فإنها ترجع إلىٰ هذه الأمور الثلاثة.

❋ ❋ ❋

[تحريم تفسير القرآن برأي]

١١٤- وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ قَالَ فِي القُرْآنِ بِرَأْيِهِ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ». رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ[١].

١١٥- وَفِي رِوَايَةٍ: «مَنْ قَالَ فِي القُرْآنِ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ». رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ[٢].

ثم أورد رَحِمَهُ اللَّهُ هذا الحديث في بيان خطورة القول على الله وفي كتابه بغير علم، والحديث وإن كان في سنده كلام، إلا أن معناه حق، وما ذُكر فيه أمر متقرر ثابت عند أهل العلم، وشواهد ذلك ودلائله في الكتاب والسنة كثيرة جدًّا، حتى قال أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قولته المشهورة: «أي أرض تقلني، وأي سماء تظلني، إذا قلت في القرآن برأيي - أو: بما لا أعلم؟!»[٣]، والله عَزَّ وَجَلَّ يقول: ﴿**وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ**﴾ [الأعراف: ٣٣]، ويقول جَلَّ وَعَلَا: ﴿**وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا**﴾ [الإسراء: ٣٦].

الرواية الأولى: قال: «**من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار**»، أي: بالرأي المجرد، والرأي المجرد مذموم، ذمه أهل العلم لما يترتب عليه من جنوح وانحراف عن الحق والصواب، بينما إذا كان رأي الإنسان تبعًا لكتاب الله عَزَّ وَجَلَّ

---

(١) رواه الترمذي (٢٩٥١)، وضعفه الألباني في ضعيف الترمذي (٥٧٠).

(٢) رواه الترمذي (٢٩٥٠)، وضعفه الألباني في ضعيف الترمذي (٥٦٩).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١/ ٧٨).

وسنة نبيه ﷺ وعمله في حدود فهم النص، لا الافتيات علىٰ النص وتحريفه عن مراده ومدلوله ومقصوده، فلا باس بذلك أن يكون تبعًا، ولهذا الرأي المذموم هو ذلك الراي الذي تُحرَّف فيه النصوص وتصرف عن مراداتها، ويكون فيه تكلفات وخروج عن معاني ودلالات كلام الله عَزَّوَجَلَّ وكلام رسوله صلوات الله وسلامه عليه.

قال: «**من قال في القرآن برأيه**»، وهذا باب للناس فيه جرأة لا حد لها، حتىٰ إن بعض الناس يطيب له يكلف نفسه الاستدلال بالقرآن بأنواع من التكلفات التي ما أنزل الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بها من سلطان، ويتمحل بأن يأتي باستدلالات وشواهد علىٰ ذلك من كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، فهذا كله من القول في القرآن بالرأي المذموم، يُعمِل الإنسان رايه وفكره ويترك دلالات النصوص ومعانيها وفهم أئمة السلف لها، ثم يشغل نفسه بآراء سقيمة، والشواهد علىٰ ذلك من واقع الناس حتىٰ في زماننا فيما يتداوله الناس بينهم من آراء سقيمة وفهوم سقيمة لكلام الله جَلَّوَعَلَا كثيرة جدًّا، وهي من الجرأة علىٰ كلام الله عَزَّوَجَلَّ.

الرواية الأخرىٰ: قال: «**من قال في القرآن بغير علم**»، وهذه توضح الرواية الأولىٰ، توضح قوله: «**من قال بالقرآن برأيه**»، وأن القائل في القرآن برأيه قائل بغير علم في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، ولو كان المعوَّل علىٰ الآراء المجردة ويُجعل القرآن تبعًا لها ما الحاجة إذًا إلىٰ القرآن؟! وإذا كان المعول علىٰ الآراء المجردة والقرآن تبع للآراء يوظفه الناس علىٰ ما توصلت إليه آراءهم وأفكارهم فإذًا ما الحاجة للقرآن؟! ومن الناس من طريقته أنه يعتقد أولًا ثم يستدل، فتتقرر العقيدة عنده، ثم يستدل ويبحث لها عن دليل في القرآن والسنة بنوع من التكلف وتحريف النصوص وصرفها عن دلالاتها، والعياذ بالله.

فالشاهد: أن في هذا تهديدًا لمن يقول في القرآن بغير علم، أو يقول في القرآن

برأيه يُعمل رأيه المجرد في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، ومن أعمل رأيه المجرد في كتاب الله وقال فيه عن غير علم وعن غير اقتفاء واتباع لسلف الأمة فإنه مخطئ وإن أصاب؛ لأنه أخطأ في الطريقة التي تعامل فيها مع كتاب الله تَبَارَكَوَتَعَالَى، وكتاب الله عَزَّوَجَلَّ معظَّم ومحترم في ألفاظه ومعانيه.

❋ ❋ ❋

[إثم الإفتاء بغير عِلْم]

١١٦- وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ أُفْتِيَ بِغَيْرِ عِلْمٍ كَانَ إِثْمُهُ عَلَىٰ مَنْ أَفْتَاهُ، وَمَنْ أَشَارَ عَلَىٰ أَخِيهِ بِأَمْرٍ يَعْلَمُ أَنَّ الرُّشْدَ فِي غَيْرِهِ فَقَدْ خَانَهُ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ[(١)].

ثم أورد رَحِمَهُ اللَّهُ هذا الحديث عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ أنه قال: «**من أُفتي بغير علم كان إثمه علىٰ من أفتاه**» أي: من أخذ فتوىٰ من أحد المفتين أو المتصدرين للفتوىٰ، وكان ذاك المفتي قد أفتاه بغير علم، فإن إثمه علىٰ من أفتاه، وهذا فيه بيان لخطورة الفتوىٰ، وأن الفتوىٰ مسئولية وأمانة يتحملها المفتي، ورب العالمين جَلَّ وَعَلَا يسأله عنها يوم القيامة، فإذا أفتىٰ شخصًا أو أشخاصًا بغير علم، فإن إثم هؤلاء عليه؛ لأنهم وثقوا به، واطمأنوا إليه، وعدوه من أهل الذكر، ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٧]، وسألوه فأفتاهم بغير علم، فأصبحت العهدة في هذا الأمر عليه.

وهذا يبين لنا خطورة الفتوىٰ، ولهذا قيل: «لا يكن همك تخليص السائل، وليكن همك تخليص نفسك»، فإذا سئلت لا يكن همك متجهًا لتخليص السائل، وليكن همك تخليص نفسك؛ لأن الكلام الذي ستقوله أصحبت مسئولًا عنه، وتُسأل عنه يوم القيامة، بعض الناس عندما يُسال ويأتيه السائل مثلًا وهو متألم من مشكلة ما ويعاني من أمر ما، ويتكلم وهو متأثر، فربما عطف عله المفتي أو من تصدر للفتوىٰ،

---

(١) رواه أبو داود (٣٦٥٧)، وابن ماجه (٥٣)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٠٦٨).

وأحب أن يعاونه، وعلىٰ قول بعض العوام يفزع معه، قال: «لا حرج، هوِّن عليك، ليس عليك خطأ، افعل ولا حرج مثلًا»، ثم يذهب هذا المستفتي بهذه الفتوىٰ، وتبقىٰ العهدة علىٰ المفتي، وقد يكون ممن يجرؤ علىٰ الفتوىٰ بدون علم.

وكثير من العوام إذا اطمأن إلىٰ الشخص ولهيئته ولمظهره استفتاه وخاصة في المواضع الحرجة التي تحتاج إلىٰ ما يسمىٰ «فتوىٰ فورية»، ومثل هذه الأمور يحتاج من الإنسان أن ينتبه لنفسه، وأن يخلص نفسه قبل أن يخلص السائل، وقد يسأل السائل ويذهب ولا يجده المفتي عندما يتبين له أنه أخطأ، فيذهب بالخطأ ولا يجده، فلو أحب أن يصلح ما أفسد أو أن يصلح الخطأ الذي وقع منه قد لا يجد المستفتي؛ ولهذا ينبغي علىٰ الإنسان أن ينتبه وأن يحتاط وأن يكون همه تخليص نفسه، وقد قال السلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ قديمًا: «إذا أغفل العالم لا أدري أصيبت مقاتله»[(١)]؛ يعني: من أخطأ كلمة لا أدري عندما يُسال أصيبت مقاتله، جنىٰ علىٰ نفسه جناية بليغة، وأضر نفسه إضرارًا بليغًا، ولو أخذنا نضرب الأمثلة علىٰ هذا الباب من واقع الناس، نجد أمورًا عجبًا في الجرأة علىٰ هذا الباب.

فهذا الحديث فيه تحذير شديد من الجرأة علىٰ الفتوىٰ، وأن ينتبه الإنسان عندما يفتي؛ لأنه مسئول أمام الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عن ذلك، وكما أيضًا قيل: «أجرؤكم علىٰ الفتيا أجرؤكم علىٰ النار»؛ لأنها مسئولية عظيمة وأمانة، فهذا الحديث فيه التهديد والتخويف والتحذير من هذا الأمر.

وقوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**من أفتي بغير علم فإنهما إثمه علىٰ من أفتاه**»، هل هذا الحديث يُعد مسوغًا لعوام الناس أن يسألوا كل أحد؟ حتىٰ بعضهم يقول: «اجعل

---

(١) «ذم الكلام وأهله» (٥٠٨).

بينك وبين النار مطوع عالم»؛ أي: اسأل شخصًا فيما تريد وإذا أفتاك به خذ به إن كان فيها نار وفيها عقوبة عليه هو، لا والله، الله عَزَّوَجَلَّ ما أمر الناس أن يسألوا كل أحد قال: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، وكلما كان الرجل أرسخ في العلم وأمكن في الفتوىٰ فهو الأحق بأن يُسال، وقد قيل قديمًا: «لا يُفتىٰ ومالك في المدينة»، فإذا كان في البلد عالم راسخة قدمه في العلم، وضلع في علوم الشرع، وتمكن فيه فإنه لا يستفتىٰ غيره، وكما يقال: (إذا حضر الماء بطل التيمم)، فالأصل أن يكون يبحث المسلم في فتواه عن العالم الراسخ، فإذًا الحديث ليس مسوغًا للعوام في أن يسألوا كل أحد، ويجعلوا العهدة علىٰ من سألوه، فإن ذمتهم لا تبرأ بذلك، لأنهم لم يحققوا مدلول قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

الشق الثاني: «**ومن أشار علىٰ أخيه بأمر يعلم أن الرشد في غيره فقد خانه**»، هذه تُعد خيانة، وهذا الجانب من الحديث في باب المشورة والنصح للمشاوِر وأن المستشار مؤتمن، فإذا كان المستشار؛ أي: من اطمأن أخوه لرأيه فاستشاره في أمر من أموره ومصلحة من مصالحه فأشار إليه بأمر يعلم أن الرشد خلافه فهذه خيانة له.

فإذًا جانب الحديث الأول يتعلق بالفتوىٰ، وجانب الحديث الآخر يتعلق بجانب المشورة وإبداء الرأي في المصالح العامة ونحوها، ويبين فيه صلوات الله وسلامه عليه أن من أشار عليه أخيه بأمر يعلم أن الرشد خلافه فهي خيانة، فبعض الناس عندما يستشار لا يُعمِل فكره في بيان الأصلح والأنفع لمن استشاره، بل يُعمل فكره في توريط من استشاره وإيقاعه في العواقب الردية، ويستغل استشارته له لمثل هذه الأغراض؛ فهذه تُعد خيانة، وهي داخلة في عموم قول النبي ﷺ في أوصاف

المنافقين: «**وإذا اؤتمن خان**»[١]، إذا ائتمنه في الأخذ برأيه ثم أعطاه رأيًا هو في نفسه يعلم أنه خلاف الرشد فهذه تعد خيانة.

لعل- والله تعالىٰ أعلم- إيراد المصنف لهذا الحديث في «باب التحريض علىٰ طلب العلم وكيفية الطلب» التنبيه لطالب العلم أن لا يندفع في باب الفتوىٰ وباب الرأي، لا سيما عندما يحصِّل طرفًا يسيرًا وقليلًا من العلم، فعليه بالتأني ويحاول أن يحيل الفتوىٰ ويتلخص منها، فقد كان السلف يتدافعون الفتوىٰ لا يتسابقون إليها، فيأتيه الشخص ويقول: اذهب إلىٰ فلان، ويذهب إلىٰ فلان، ويقول: اذهب إلىٰ فلان، وإذا كان هناك من هو أعلم وأولىٰ بالفتوىٰ وأجدر، فيحال إليه ويتخلص المسئول من مسئولية الكلمة ومسئولية الفتوىٰ.

❊ ❊ ❊

---

(١) رواه البخاري (٣٣)، ومسلم (٥٩).

١١٧- وَعَنْ مُعَاوِيَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: **«أَنَّ النَّبِيَّ** ﷺ **نَهَىٰ عَنِ الأُغْلُوطَاتِ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ أَيْضًا**[1].

ثم أورد رَحِمَهُٱللَّهُ تعالىٰ هذا الحديث، وفيه نهي النبي ﷺ عن الأغلوطات، وأغلوطات المسائل؛ أي: ما يكون من تكلفات وتقعر في الكلام ولا يزيد الأمور إلا غموضًا ولا الحقائق إلا اشتباهًا والتباسًا، فنهىٰ النبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ عن الأغلوطات؛ لأن الإسلام واضح وأموره بينة، ولا حاجة للإسلام أن يثار بين أهله أغلوطات الأمور وتعمقات وتكلفات لا يحتاج إليها الناس، بل وجودها بينهم لا تزيد الأمور عندهم إلا اشتباهًا، فنهىٰ عن ذلك بحيث تكون الكلمات في أمور واضحة وبينة دون تقعر أو تكلف، أو نحو ذلك.

❊ ❊ ❊

(١) رواه أبو داود (٣٦٥٦) بلفظ: «نَهَىٰ عَنِ الْغَلُوطَاتِ»، وضعفه الألباني في «ضعيف أبي داود» (٧٩١).

[فضيلة طلب العلم]

١١٨- وَعَنْ كُثَيِّرِ بْنِ قَيْسٍ قَالَ: كُنْتُ جَالِسًا مَعَ أَبِي الدَّرْدَاءِ فِي مَسْجِدِ دِمَشْقَ، فَجَاءَ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا أَبَا الدَّرْدَاءِ، إِنِّي جِئْتُ مِنْ مَدِينَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ لِحَدِيثٍ بَلَغَنِي عَنْكَ أَنَّكَ تُحَدِّثُهُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ مَا جِئْتُكَ لِحَاجَةٍ، قَالَ: فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَىٰ الجَنَّةِ، وَإِنَّ المَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ العِلْمِ، وَإِنَّ العَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ وَالحِيتَانُ فِي جَوْفِ المَاءِ، وَإِنَّ فَضْلَ العَالِمِ عَلَىٰ العَابِدِ كَفَضْلِ القَمَرِ عَلَىٰ سَائِرِ الكَوَاكِبِ، وَإِنَّ العُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، وَإِنَّمَا وَرَّثُوا العِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ». رَوَاهُ أَحْمَدُ، وَالدَّارِمِيُّ، وَأَبُو دَاوُدَ، وَالتِّرْمِذِيُّ، وَابْنُ مَاجَه(١).

ثم أورد المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ هذا الحديث العظيم الجامع لفضائل طلب العلم، بل إن هذا الحديث من أجمع الأحاديث لبيان فضائل الطلب، حيث ذكر النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في هذا الحديث الجامع خمسة فضائل عظيمة، عدَّها واحدة تلو الأخرىٰ صلوات الله وسلامه عليه نصحًا للأمة وتحريضًا لها علىٰ طلب العلم وبيانًا للعوائد العظيمة والفوائد الكبيرة التي ينالها المسلم بسلوكه لطريق طلب العلم.

ورواية أبي الدرداء لهذا الحديث لها قصة لطيفة، ساقها المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ألا

(١) رواه أحمد في «مسنده» (٢١٧١٥)، والدارمي في «سننه» (٣٤٢)، وأبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٥)، وابن ماجه (٢٢٣)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٢٩٧).

هي: أن رجلًا جاء إلىٰ أبي الدرداء رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وكان في دمشق والرجل كان في المدينة، ورحل إليه ولم يحركه في رحلته من المدينة وانطلاقه منها إلا الحديث، سماع حديث بلغه أن أبا الدرداء يحدث به، فاشتاقت نفسه إلىٰ سماع هذا الحديث من الصحابي الراوي للحديث عن النبي ﷺ، رغم ما في الرحلة من بذل وقت ومشقة عظيمة، والأمر ليس كما في وقتنا، فالرحلة تحتاج إلىٰ قرابة شهر كامل يتعرض فيه الإنسان إلىٰ الشمس ووهج الصحراء ولفح الرياح وأنواع من المتاعب والمخاوف، ولأمور كثيرة، فهذا الرجل لم يعبأ بذلك كله مقابل أن يسمع هذا الحديث، وخرج من المدينة وانطلق ذاهبًا إلىٰ الشام لحديث واحد، والرحلة في ذلك الوقت مكابدة وعناءً، وكان الرجل في ذلك الوقت إذا جاءهم من السفر يعرفون فيه أثر السفر، ولهذا كانوا مستغربين عندما جاء جبريل علىٰ صورة أعرابي، قالوا: «**شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرىٰ عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد**»[(١)]، أي: رجل غريب، أما في زماننا هذا من جاء من السفر ومن لم يأتِ ليس بينهما فرق كبير، وقد لا تتغير الهيئة ولا الملامح ولا يظهر عليه غبار ولا تتسخ الثياب ولا أي شيء آخر، يأتي من أقصىٰ الدنيا يكون سفره وحاله فيه مثل حال المقيم، في أجواء مكيفة وكراسي مريحة والماء والعصير والطعام والشراب والمسافة أيضًا لا تطول، فالذي يُقطع في تلك الأزمان في شهر يُقطع الآن بالطائرات في ساعة أو ساعتين، ولهذا ينبغي لنا أن نشكر الله عَزَّوَجَلَّ إذا ركبنا هذه الوسائل التي منَّ الله علينا بها في هذا الزمان، ففي «**صحيح مسلم**» من حديث عبد الله بن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ إِذا اسْتَوَىٰ عَلَىٰ بَعِيرِهِ خَارِجًا إِلَىٰ سَفَرٍ كَبَّرَ ثَلاثًا، ثُمَّ قَالَ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ

---

(١) رواه مسلم (٨).

﴿ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾، اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ فِي سَفَرِنَا هَذَا البِرَّ وَالتَّقْوَىٰ، وَمِنَ العَمَلِ مَا تَرْضَىٰ، اللَّهُمَّ هَوِّنْ عَلَيْنَا سَفَرَنَا هَذَا، وَاطْوِ عَنَّا بُعْدَهُ، اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ وَالخَلِيفَةُ فِي الأَهْلِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذ بِكَ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ، وَكَآبَةِ المَنْظَرِ، وَسُوءِ المُنْقَلَبِ فِي المَالِ وَالأَهْلِ، وَإِذَا رَجَعَ قَالَهُنَّ وَزَادَ فِيهِنَّ: آيِبُونَ، تَائِبُونَ، عَابِدُونَ، لِرَبِّنَا حَامِدُونَ»(١).

فنقول: «**سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين**»؛ أي: مطيقين، «**وإنا إلىٰ ربنا لمنقلبون**»، فنذكر نعمة المنعِم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وفضله وتيسيره، ونستعمل هذه الوسائل التي يسرها الله لنا فيما أباحه الله لنا وفيما أوجبه علينا وفيما فرضه علينا، فمن الناس من يمتلك هذه الوسائل ويستخدمها في الحرام، يخرج من بيته ويشغل سيارته وينطلق بها إلىٰ الحرام، ويستعمل هذه الوسائل التي أكرمه الله بها ومنَّ عليه بها في أمور محرمة وآثام، والعياذ بالله.

ففي هذا الحديث هذا الرجل انطلق من المدينة متحملًا مكابدة السفر والمعاناة الشديدة إلىٰ أن وصل إلىٰ دمشق وبحث عن أبي الدرداء حتىٰ وصل إليه وسأله عن الحديث.

قال الرجل: «**إني جئتك من مدينة الرسول ﷺ لحديث بلغني عنك أنك تحدثه عن رسول الله ﷺ، ما جئتك لحاجة**»، فهذه همة كبيرة تبدو واضحة من كلامه، قال: «**جئتك من المدينة**»؛ أي: إلىٰ دمشق، «**جئتك من المدينة لحديث بلغني عنك أنك تحدثه عن رسول الله ﷺ وما جئتك لحاجة**» فهذا الرجل جاء يطلب الحديث نفسه ويطلب علو السند فيه، فالحديث بلغه أن أبا الدرداء يحدث به عن رسول الله ﷺ،

---

(١) رواه مسلم (١٣٤٢).

فجاء يطلب علو السند فيه، وجاء يطلب أيضًا أمرًا آخر لعلنا أدركناه، وهو: الفضائل التي في الحديث: فضائل طلب العلم، وهو طامع أن تُكتب أنفاسه وخطواته وسيره وسفره، طلبا رفعة عند الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وهذا ما ينبغي أن يكون عليه طالب العلم في طلبه، أن يحتسب جهده وقته جلوسه سيره سفره معاناته، كل هذه يحتسبها عند الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، والله لا يضيع أجر من أحسن عملًا.

جاء في بعض روايات هذا الحديث أن أبا الدرداء استوثقه في الأسئلة؛ لأن الأمر ليس بالهين: «**أَمَا جِئْتَ لِحَاجَةٍ؟ قَالَ: لاَ، قَالَ: أَمَا قَدِمْتَ لِتِجَارَةٍ؟ قَالَ: لاَ؛ قَالَ: مَا جِئْتَ إِلاَّ فِي طَلَبِ هَذَا الْحَدِيثِ**»، فهذه السؤالات من أبي الدرداء للرجل ليس المراد تخوينه أو الشك في صدق حديثه ولكن المراد منها إظهار عظمة الأمر، نظير هذا ما جاء في «**صحيح مسلم**»: عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، قَالَ: خَرَجَ مُعَاوِيَةُ عَلَىٰ حَلْقَةٍ فِي الْمَسْجِدِ، فَقَالَ: مَا أَجْلَسَكُمْ؟ قَالُوا: جَلَسْنَا نَذْكُرُ اللهَ، قَالَ آللهِ مَا أَجْلَسَكُمْ إِلَّا ذَاكَ؟ قَالُوا: وَاللهِ مَا أَجْلَسَنَا إِلَّا ذَاكَ، قَالَ: **أَمَا إِنِّي لَمْ أَسْتَحْلِفْكُمْ تُهْمَةً لَكُمْ**، وَمَا كَانَ أَحَدٌ بِمَنْزِلَتِي مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَقَلَّ عَنْهُ حَدِيثًا مِنِّي، وَإِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ خَرَجَ عَلَىٰ حَلْقَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: «**مَا أَجْلَسَكُمْ؟**» قَالُوا: جَلَسْنَا نَذْكُرُ اللهَ وَنَحْمَدُهُ عَلَىٰ مَا هَدَانَا لِلْإِسْلَامِ، وَمَنَّ بِهِ عَلَيْنَا، قَالَ: «**آللهِ مَا أَجْلَسَكُمْ إِلَّا ذَاكَ؟**» قَالُوا: وَاللهِ مَا أَجْلَسَنَا إِلَّا ذَاكَ، قَالَ: «**أَمَا إِنِّي لَمْ أَسْتَحْلِفْكُمْ تُهْمَةً لَكُمْ**، وَلَكِنَّهُ أَتَانِي جِبْرِيلُ فَأَخْبَرَنِي، أَنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يُبَاهِي بِكُمُ الْمَلَائِكَةَ»[1] أي: لم أطلب منكم أن تحلفوا لكوني أتهمكم إذًا، لماذا؟ «**وَلَكِنَّهُ أَتَانِي جِبْرِيلُ فَأَخْبَرَنِي، أَنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يُبَاهِي بِكُمُ الْمَلَائِكَةَ**»، أمر في غاية العظمة، فإذًا أبو الدرداء رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في تلك السؤالات أراد أن يبرز قيمة هذه الهمة

---

(١) رواه مسلم (٢٧٠١).

العالية في طلب العلم وتحصيله، ثم روىٰ له الحديث.

قال: **فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:** «**مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَىٰ الجَنَّةِ، وَإِنَّ المَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ العِلْمِ، وَإِنَّ العَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ وَالحِيتَانُ فِي جَوْفِ المَاءِ، وَإِنَّ فَضْلَ العَالِمِ عَلَىٰ العَابِدِ كَفَضْلِ القَمَرِ عَلَىٰ سَائِرِ الكَوَاكِبِ، وَإِنَّ العُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، وَإِنَّمَا وَرَّثُوا العِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ**»، فذكر هذا الحديث العظيم المشتمل علىٰ خمس جمل مشتملة علىٰ خمسة فضائل لطلب العلم.

- **الفضيلة الأولىٰ**: قال: «**من سلك طريقًا يطلب فيه علمًا سلك الله به طريقًا إلىٰ الجنة**»، هذه الفضيلة الأولىٰ أن طلب العلم طريق إلىٰ الجنة، وتأمل هذا في قوله تعالىٰ: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢]، والعمل لا بد فيه من علم، والعلم قبل القول والعمل؛ ولهذا فهي أمور منتظمة، كل واحد منها آخذ بالآخر، طلب للعلم ومعرفة له ولقدره ولفضله ولتفاصيله، ثم عمل وجد واجتهاد علىٰ بصيرة وبينة، ثم منة عظمىٰ وكرامة كبرىٰ يوم القيامة بالفوز برضا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ودخول جنات النعيم.

وقوله هنا: «**سهل الله له به طريقًا إلىٰ الجنة**»، فيه لفتة عظيمة جدًّا في فضل العلم عندما يصدق صاحبه في الطلب فإنه تسهل له الأعمال وتلين له الطاعات، والأعمال لا تلين لصاحبها إلا بالعلم؛ لأن العلم تُدرَك به فضائل الأعمال الصحيحة وآثارها وعوائدها الحميدة، وأيضًا تدرك به خطورة التقصير فيها والانتقاص لها، فيكون العلم حاجزًا لصاحبه عن الرذائل باعثًا له إلىٰ بلوغ أعلىٰ الرتب في الفضائل، وفي الوقت نفسه أيضًا يبغض له المعاصي والآثام، فيخرج من العلم بنفس مطمئنة،

وبقلب منشرح، وبضياء يهتدي به، ولهذا قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وكمال كل إنسان إنما يتم بهذين النوعين: همة ترقيه، وعلم يبصره ويهديه»[1]، فإذا لم يكن عند الإنسان علم وعنده همة سيمشي في ضياع ويسير في ضلال، لأن العلم هو الذي يضيء له الطريق، فيحتاج إلىٰ علم يهديه، ويحتاج أيضًا إلىٰ همة، وإذا وُجدت الهمة ولم يوجد العلم مشىٰ الإنسان في ضلالات وبدع ما أنزل الله بها من سلطان، ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٣، ١٠٤].

- **الفضيلة الثانية: «وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضًا لطالب العلم»**، الملائكة لها أجنحة، كما قال الله: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ [فاطر: ١]، وقد رأىٰ النبي ﷺ جبريل وله ستمائة جناح، فالملائكة لها أجنحة، ومن الملائكة من وكل الله عَزَّوَجَلَّ إليهم تتبع حلقات ومجالس العلم، كما جاء في الحديث: «**إِنَّ لِلَّهِ مَلَائِكَةً يَطُوفُونَ فِي الطُّرُقِ، يَلْتَمِسُونَ أَهْلَ الذِّكْرِ، فَإِذَا وَجَدُوا قَوْمًا يَذْكُرُونَ اللهَ تَنَادَوْا هَلُمُّوا إِلَىٰ حَاجَتِكُمْ**»[2]، فهذه مهمتهم، يجولون ويطوفون، وإذا وجدوا حلقة ذكر تنادوا: هلم إلىٰ حاجتكم، فيحفون مجالس العلم بالأجنحة، ويضعون أجنحتهم لطالب العلم رضًا بما يصنع؛ أي: بصنيعه.

وهذا الأمر وإن كان طالب العلم لا يراه لأنه أمر مغيب، ولكن هذا من الإيمان بالغيب، ونحن علىٰ يقين تام بأن هذا الأمر يكون؛ لأن الذي قاله صادق مصدوق ﷺ لا ينطق عن الهوىٰ، وعدم الرؤية ليس شاهدًا ولا دليلًا علىٰ انتفاء هذا الأمر، وإخبار النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ للأمة بهذا الخبر الغيبي لأي شيء؟ ولماذا أخبرنا بذلك؟ هل

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٤٦).

(٢) رواه البخاري (٦٤٠٨).

أخبرنا بذلك لمزيد معلومات نضيفها إلىٰ المعلومات التي عندنا؟ أم ذكر ذلك عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ حتىٰ يكون هذا الأمر دافعًا؟ لولا إخباره عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بهذا الأمر لما علمناه، الله جَلَّ وَعَلَا له ملائكة سيارون يبحثون عن حِلق العلم، وإذا وجدوا حلق العلم حفوهم بأجنحتهم، في الحديث الآخر قال: «**وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ، يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِم السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ**»(١)، فقوله هنا: «وحفتهم الملائكة»، وفي الحديث الأول: «تضع أجنحتها»، هذا أمر لا علم لنا به، لولا إخبار النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فهو عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أخبر بذلك نصحًا للأمة، وحتىٰ يكون ذلك باعثًا للإنسان لمزيد من المطلب وحرص عليه، ويأنس طالب العلم بهذا الأمر أن ملائكة الله الكرام الأطهار البررة تضع أجنحتها له رضًا بما يصنع، وإذا جلس مجلس العلم حفته بأجنحتها؛ فهذه كرامة ومنة أكرم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بها طالب العلم، فيأنس بذلك، وينشط في الطلب، ويجد ويجتهد، وهذا من آثار الإيمان بالغيب وبأصول الإيمان علىٰ العبد في سلوكه وأعماله وطاعاته.

- ثم **ذكر فضيلة ثالثة،** قال: «وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض والحيتان في جوف الماء»، هذه أيضًا فضيلة، وهي نظير ما تقدم، إيماننا بها جزء من إيماننا بالغيب، فنحن لم نر الملائكة يضعون أجنحتهم لطالب العلم، وأيضًا لم نسمع استغفار من في السموات والأرض والحيتان، لكننا من استغفارها للعالم علىٰ يقين، حتىٰ الحيتان التي تسبح في الماء علىٰ كثرتها، نحن علىٰ يقين تام أنها تستغفر لطالب العلم، تقول: اللهم اغفر له، ومن في السموات يستغفر له، ومن في

(١) رواه مسلم (٢٦٩٩).

الأرض يستغفر له، وهذا فضل الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

ولنتأمل هذه الفضيلة مع قول الله جَلَّوَعَلَا: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [غافر: ٧]، هذا عام لأهل الإيمان، لكن العالم يستغفر له من في السموات ومن في الأرض حتىٰ الحيتان في الماء، فالعالم خُص بهذا، ومن أوضح ما قيل في الحكمة أمران:

الأمر الأول: قالوا: لأن النفع الذي يكون من العالم ليس قاصرًا علىٰ الناس، حتىٰ الدواب تستفيد من علم العالم، لأن عموم الناس يسمعون دائمًا من أهل العلم الحث علىٰ الرفق بالحيوان واللطف ببهيمة الأنعام ورحمتها والإحسان إليها، ويروون لهم أحاديث في ذلك، ويفرِدون المصنفات في ذلك، فما يكون من نفع يأتي من جهة العالم ليس المستفيد منه الناس فقط، بل أيضا تستفيد منه حتىٰ الحيوانات، والأحاديث في الرفق بالحيوان كثيرة يرويها العلماء ويشرحونها ويبينونها ويوضحونها للناس، فالشاهد: أن الأحاديث في هذا الباب كثيرة جدًّا عن نبينا صلوات الله وسلامه عليه. هذا أمر قيل في الحكمة.

- **الأمر الثاني**: أن هذه الكائنات، والسموات والأرض ومن فيها: الجبال، والأشجار، الدواب، كلها مسبحة لله، مطيعة له، عابدة خاضعة لله جلا وعلا، ساجدة له: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ﴾ [الإسراء: ٤٤]، فهذه الكائنات والمخلوقات الجمادات منها والحيوانات كلها مسبحة وساجدة لله، ﴿وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ﴾ [الحج: ١٨]، فاستغفار هذه الكائنات للعالم؛ لأنه يعمل عملًا دءوبًا في إصلاح الناس لكي يحققوا العبودية التي خُلقوا لأجلها وأوجدوا لتحقيقها، وهذه الكائنات عابدة لله، فهي تستغفر له؛ لأنه يُصلح الفساد الذي يكون في الناس والخروج الذي يكون في الناس

عن العبودية التي خُلقوا لأجلها وأوجدوا لتحقيقها، وفساد الناس بخروجهم عن التوحيد وعن الطاعة يُفسد الكون ويُضر به، ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ [الروم: ٤١]، فعمل العالم في إصلاح الناس ودعوتهم صلاح للكون، صلاح للناس، صلاح للأرض، صلاح للبحار، فهذه حكمة أخرىٰ قيلت في استغفار من في السموات ومن في الأرض حتىٰ الحيتان في الماء للعالم.

قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض والحيتان في جوف الماء**»، فتعبير النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ هنا بقوله: «**في جوف الماء**»، ولم يقل: في الماء؛ تنبيهًا إلىٰ أن الحيتان المستغفرة حتىٰ من كان منها في أعماق الماء وفي لجج البحار وأعماقها، فهذا من الفضائل التي تحرك في الإنسان طلب العلم حتىٰ يحظىٰ بهذه الفضيلة العظيمة.

- **ثم ذكر الفضيلة الرابعة**: قال: «**وإن فضل العالم علىٰ العابد كفضل القمر ليلة البدر علىٰ سائر الكواكب**»: وهذا مثل عظيم جدًّا ذكره النبي ﷺ ليبين من خلاله التمايز والتفاضل بني العالم والعابد، وكأنه يقول لك عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إذا أردت أن تعرف الفرق والتفاضل بينهما، فتعال يوم الرابع عشر من الشهر، وانظر إلىٰ السماء لترىٰ القمر والنجوم، فإذا نظرت إلىٰ النجوم تجد أنها في نفسها جميلة وزينة للسماء، فهي شيء طيب وجميل ومنظر ماتع، لكنها لا تضيء لك؛ لكن إذا جئت في آخر الشهر عندما يذهب ضوء القمر ستظلم الأرض، والنجوم التي في السماء لا تضيء لك الطريق وتصبح ليلة ظلماء، وإذا لم يكن معك مصباح قد لا ترىٰ طريقك أصلا، لكن في ليلة البدر ليلة الرابع عشر عندما يكون البدر تمامًا تجد الأرض مضيئة، فتدرك الفرق بين النجوم وبين القمر، وهذا كالفرق بين العالم والعابد، فالعابد عبادته لنفسه من صلاة وصيام وصدقة وبذل، وغير ذلك، فهذا نفعه قاصر عليه وخاص به، أما

العالم فعِلمه ليس خاصًا به، بل ضياء للناس وضياء للأمة ونفع للخلق، مثل ضوء القمر في ليلة الرابع عشر يضيء الدنيا، والعالم ضياء للناس ونور بما يبين لهم من العلم والهدىٰ والحق والخير، ولهذا قال بعض أهل العلم قديمًا: «لولا العالم- أي: بفضل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- لكان الناس مثل البهائم»(١)، فكيف يعرف الناس أحكام الدين من العبادات كالطهارة والصلاة؟ والمعاملات كالبيع والنكاح والطلاق؟ إلا عن طريق العالم، حتىٰ بعض الناس الذي يتجرءون علىٰ بعض العلماء بالوقيعة بهم إذا وقع في أمر وإشكال يتعلق بالدين وكان حريصًا علىٰ معرفة الحق فيه يذهب إلىٰ العالم الذي كان يطعن فيه ويسأله، فالعلماء ضياء ونور للناس، إذًا هذا الحديث يبين الفرق بين العالم والعابد كالفرق بين القمر والكواكب.

بعض العلماء ذكر لطيفة في تشبيه العالم بالقمر، القمر كما هو معروف ضوؤه من ضوء الشمس، والنبي ﷺ وصفه الله في القرآن بأنه سراج منير، والسراج هو الشمس، ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ [النبأ: ١٣]؛ أي: الشمس، فالعالم شُبه بالقمر؛ لأن ضوء القمر من الشمس، والعالم علمه من النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، كما سيأتي معنا في الحديث، «وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر».

- **ثم ذكر الفضيلة الخامسة،** قال: «**وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر**»؛ أي: أنه كلما كان نصيب العبد من العلم والموروث النبوي أكبر كان نصيبه من الخير أوفر، فالعلماء ورثة الأنبياء، والأنبياء لم يورثوا أموالًا، وإنما ورثوا العلم، ميراث الأنبياء

---

(١) انظر: «مفتاح دار السعادة» (٢/ ١١٨).

العلم، فمن أخذ العلم وتلقاه وحصَّله فقد أخذ بحظ وافر.

من اللطائف التي تذكر عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه مر بسوق المدينة فوقف عليها فقال: «يا أهل السوق ما أعجزكم» قالوا: وما ذاك يا أبا هريرة؟ قال: «ذاك ميراث رسول الله ﷺ يقسم وأنتم ها هنا ألا تذهبون فتأخذون نصيبكم منه؟» قالوا: وأين هو؟ قال: «في المسجد» فخرجوا سراعا ووقف أبو هريرة لهم حتىٰ رجعوا فقال لهم: «ما لكم؟» فقالوا: يا أبا هريرة قد أتينا المسجد فدخلنا فيه فلم نر فيه شيئا يقسم! فقال لهم أبو هريرة: «وما رأيتم في المسجد أحدا؟» قالوا: بلىٰ؛ رأينا قوما يصلون، وقوما يقرؤون القرآن، وقوما يتذاكرون الحلال والحرام، فقال لهم أبو هريرة: «ويحكم فذاك ميراث محمد ﷺ»(١).

فالعلماء ورثة الأنبياء، وهم أيضًا الذين يقسمون هذا الميراث بين الناس، ولا يزال هذا العلم الموروث من النبي ﷺ يتناقله الناس، يأخذه اللاحق عن السابق، ويحمله في كل أمة خيارها وعدولها، كما جاء في الحديث عنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله**»(٢).

❋ ❋ ❋

---

(١) رواه الطبراني في «الأوسط» (١٤٢٩)، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب» (٨٣).

(٢) رواه الطبراني في «مسند الشاميين» (٥٩٩)، والبيهقي في «سننه الكبرىٰ» (٢٠٧٠٠)، وصححه الألباني في «المشكاة» (٥١).

[الحِكْمة ضالَّة المؤمن]

١١٩- وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ مَرْفُوعًا: «الكلمة الحِكْمَةُ ضَالَّةُ المُؤْمِنِ، فَحَيْثُ وَجَدَهَا فَهُوَ أَحَقُّ بِهَا». رَوَاهُ التِّرمِذِيُّ وَقَالَ: غَرِيبٌ، وَابْنُ مَاجَه[1].

أورد رَحِمَهُٱللَّهُ تعالىٰ هذا الحديث وهو يتعلق بالجانب الثاني من الباب، ألا وهو كيفية طلب العلم، وأن طالب العلم الحريص عليه إذا وجد ضالته وفائدته من العلم أخذها أينما وجدها، فلا يرده عن أخذ الفائدة والعلم كون الذي أخذ منه العلم أقل منه منزلة أو علمًا أو نحو ذلك.

قال: «**الكلمة الحكمة ضالة المؤمن**»، المراد بالكلمة؛ أي: الكلام، والمراد بالحكمة؛ أي: الذي فيه حكمة بأن يكون فيه بيان لأمر من أمور الشريعة أو موعظة من المواعظ أو نصيحة يحتاج إليها العبد أو نحو ذلك، فالكلمة التي فيها حكمة ونفع وفائدة هي ضالة المؤمن، والضالة: هي الشيء المفقود الذي يبحث عنه صاحبه ويسعىٰ في طلبه، وإذا وجده فرح وأمسك به.

«**فحيث وجدها فهو أحق بها**»؛ أي: أحق بالكلمة الحكمة من قائلها، ولا سيما إذا كان القائل إنسانًا مفرطًا أو مقصرًا أو غير مبالٍ، فالمؤمن صادق الإيمان الجاد في طاعة الرحمن تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ إذا وجد الكلمة المشتملة علىٰ الحكمة، فإنه يأخذ بها وهو أحق بها؛ أي: أحق بها من قائلها إذا كان مفرطًا، وقد يقول الكلمة التي فيها الحكمة الفاجر أو الفاسق، فالمؤمن صادق الإيمان إذا سمعها لا يضره أن يأخذ بالحق

---

(١) رواه الترمذي (٢٦٨٧)، وابن ماجه (٤١٦٩)، وضعفه الألباني في «ضعيف ابن ماجه» (٩١٢).

والصواب كون الذي سمعها منه فاجرًا أو فاسقًا أو مقصرًا، كأن يذكر له آية من القرآن أو حديث فيه دلالة ظاهرة علىٰ أمر معين يكون الإنسان غافلًا عن هذه الدلالة والانتباه لها، فلا يجعل دنو منزلة من سمع منه هذا الكلام سببًا لرده وعدم وقبوله،

الشاهد: أن طالب العلم ينبغي أن يكون حريصًا علىٰ الخير إذا وجده به وهو أحق به.

❊ ❊ ❊

[صفة الفقيه الحق]

١٢٠- وَعَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «إِنَّ الفَقِيهَ حَقَّ الفَقِيهِ مَنْ لَمْ يُقَنِّطِ النَّاسَ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ، وَلَمْ يُرَخِّصْ لَهُمْ فِي مَعَاصِي اللهِ، وَلَمْ يُؤَمِّنْهُمْ مِنْ عَذَابِ اللهِ، وَلَمْ يَدَعِ القُرْآنَ رَغْبَةً عَنْهُ إِلَىٰ غَيْرِهِ، إِنَّهُ لَا خَيْرَ فِي عِبَادَةٍ لَا عِلْمَ فِيهَا، وَلَا عِلْمَ لَا فَهْمَ فِيهِ، وَلَا قِرَاءَةٍ لَا تَدَبُّرَ فِيهَا»(١).

ثم أورد رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ هذا الأثر الجميل العظيم عن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأرضاه وعن الصحابة أجمعين في بيان من هو الفقيه حقًّا، مبينًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن الفقيه ليس بكثرة معلوماته الفقهية ولا بكثرة كلامه، ولا باعتبارات عديدة يراها الناس، بل هناك ضوابط تدل علىٰ فقه الرجل وعلىٰ حسن فهمه وجمال دلالته للناس إلىٰ الخير، فهو فقيه في علمه بالشريعة، فقيه في بيانه للناس ونصيحته لهم كذلك، فقيه في باب الترغيب والترهيب، وفي باب الرغبة والرهبة.

قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**إن الفقيه حق الفقيه، مَن لم يقنط الناس من رحمة الله**»، ذكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أمورًا عديدة هي صفات للفقيه حقًّا، فالأمر الأول قال: «**من لم يقنط الناس من رحمة الله**»، وهذا من الفقه، بعض الناس لقلة فقهه قد يقنط الناس، ولا سيما المقبلين علىٰ التوبة الطامعين في رحمة الله عَزَّوَجَلَّ، ومثال ذلك: قصة الرجل الذي قتل تسعة وتسعين نفسًا، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدلوه إلىٰ رجل عابد، فذهب إليه وسأله هل له من توبة؟ قال: «**لَيْسَتْ لَكَ تَوْبَةٌ**»، وهذا تقنيط من رحمة الله، وهذا

---

(١) رواه الدارمي (٣٠٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٧٧).

دليل علىٰ عدم فقهه، ثم إنه كمل به المائة وقتله، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض، فدلوه إلىٰ عالم فسأله هل من توبة: قال: «**نَعَمْ، وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ؟**»(١)، فباب التوبة مفتوح ورب العالمين يقول: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾ بالزمر: ٥٣]، ﴿لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ﴾؛ أي: مهما عظم الذنب وكبر الجرم فالله عَزَّوَجَلَّ لا يتعاظمه ذنب أن يغفره، ومهما كان جرم الإنسان وذنبه وخطيئته حجمًا وعددًا، فالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ غفور رحيم، يعفو عن الذنوب، ويغفر السيئات، ويصفح ويتجاوز، وأثنىٰ علىٰ نفسه بذلك تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ في مواضع كثيرة من كتابه جَلَّوَعَلَا، فالفقيه حقًّا من لا يقنط الناس من رحمة الله، بل يجتهد في دعوتهم إلىٰ التوبة إلىٰ الإنابة إلىٰ الأوبة إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ وإلىٰ الفوز برحمة الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ روضاه، فهذا هو الفقيه حقًّا، لا ييأس الناس ولا يقنطهم من رحمة الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، بل يجتهد في ترغيبهم في التوب ودلالتهم إلىٰ أبوابها وبيانه لسعة رحمة الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ ومغفرته، وأنه عَزَّوَجَلَّ وسع كل شيء رحمة وعلمًا.

قال: «**ولم يرخص لهم في معاصي الله**»، هذا الأمر الثاني، ليس من الفقه في دين الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ أن يرخص للناس المعاصي، أو أن يهوِّن لهم خطرها، فكما أنه لا يقنط الناس من التوبة أيضًا لا يرخص لهم في المعصية، فتقنيطهم من التوبة إفراط، والترخيص لهم في المعصية تفريط، ودين الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ وسط بين الإفراط والتفريط، والتائب المقبل لا يقنط ويقال له: لا مجال للتوبة لمثلك، وأيضًا من بدأت تتفلت نفسه نحو المعصية لا يرخص له فيها ولا يهون له من شأنها، فهذه وسطية ينبه عليها رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في هذا الباب هي من كمال فقه الرجل، وهذا يحدث توازن من العالم الفقيه الحصيف في مناصحته للناس، يبين لهم جرم الذنوب وخطرها وسوء عاقبتها، وفي الوقت نفسه أيضًا يدعوهم للتوبة،

---

(١) رواه البخاري (٣٤٧٠)، ومسلم (٢٧٦٦).

ويبين لهم أن أبوابها مفتوحة، وأن الله عَزَّوَجَلَّ يغفر الذنوب جميعًا.

ثم ذكر الأمر الثالث، قال: «**ولم يؤمنهم من عذاب الله**»، ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩]، لا يؤمنهم من مكر الله ومن عذابه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، بل يجمع لهم بين الخوف والرجاء والترغيب والترهيب، ومتىٰ يكون الرجل مؤمنًا للناس من عذاب الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ؟ إذا كان لا يفقه طريقة تعليمهم وطريقة نصحهم وتوجيههم، فيذكر لهم مثلًا الفضائل، وفي الوقت نفسه لا يذكر لهم الوعيد والعقوبة علىٰ الجرائم التي يقترفونها، كأن يجد أناسًا يباشرون معاصي وكبائر وجرائم ثم يكون حديثه معهم في حدود قول النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**أَتَانِي جِبْرِيلُ** عَلَيْهِ السَّلَامُ **فَبَشَّرَنِي أَنَّهُ مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِكَ لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ، قُلْتُ: وَإِنْ زَنَىٰ وَإِنْ سَرَقَ؟ قَالَ: وَإِنْ زَنَىٰ وَإِنْ سَرَقَ**»(١)، أو مثلًا من قال كذا غُفرت له ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر، ويكتفي بعرض أمثال هذه الأحاديث عليهم دون أن يعرض عليهم أحاديث الوعيد، فإذا كان تعليمه لهم بهذه الصفة أمنهم من عذاب الله؛ لأنه لم يذكر لهم الأحاديث التي فيها الوعيد، ولهذا قال العلماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ: «من أعمل نصوص الوعد وأهمل نصوص الوعيد دخل في جانب الأمن من مكر الله ومن عذابه، من أعمل نصوص الوعيد وأهمل نصوص الوعد دخل في جانب القنوط من رحمة الله»، ولا يتحقق التوازن في هذا الباب إلا بإعمال نصوص الوعد والوعيد والرجاء والخوف، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء: ٥٧]، ولهذا تجد نصوص القرآن جامعة بين الوعد والوعيد، أما إذا وقف الإنسان عند جانب منها وقع في الخطأ، كمن يقرأ: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩]، ويقف، بعض العصاة يفعل ذلك، يفعل المعصية، وإذا نوصح قال: ربك غفور رحيم، لكن أكمل الآية! ﴿وَأَنَّ

---

(١) رواه البخاري (١٢٣٧)، ومسلم (٩٤).

عَـذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٥٠]، فلا يحصل التوازن للعبد في سيره إلىٰ الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ إلا بالرجاء والخوف، بهما معًا، ولهذا قال العلماء رَحِمَهُمُٱللَّهُ: الرجاء والخوف بالنسبة للمؤمن كجناحي الطائر، لا يستطيع الطائر أن يطير إلا بالجناحين لو قُص أحد جناحيه لم يستطع الطيران[(١)]، وهكذا أمر الرجاء والخوف بالنسبة للمؤمن، لا بد أن يكون راجيًا خائفًا، فإذا كان من أهل الرجاء بلا خوف أمن، وإذا كان من أهل الخوف بلا رجاء قنط، إذًا الفقيه لا يؤمن الناس من مكر الله، ولا أيضًا يقنطهم من رحمة الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ مهما كانت ذنوبهم، أحد السلف وهو الحسن البصري رَحِمَهُٱللَّهُ تعالىٰ لما قرأ قول الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ [البروج: ١٠] في قصة أصحاب الأخدود لما قرأ قول الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ﴾، قال: «انظروا إلىٰ هذا الكرم والجود، قتلوا أولياءه وهو يدعوهم إلىٰ التوبة والرحمة»[(٢)]، ولهذا ليس لأحد أن يُيئس الناس من التوبة بعد هذه الآية، يقتلون أولياءه وأصفياءه، ثم يدعوهم للتوبة، يقول: ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ﴾، هذه دعوة لهم إلىٰ التوبة إلىٰ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

فالشاهد: أن الفقيه لا يقنط، وفي الوقت نفسه لا ييئس، وكلمة علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ فيها رد علىٰ مذهبين متطرفين وُجدا فيما بعده ونشأ في الأمة مذهب قائم علىٰ إعمال نصوص الرجاء وإهمال نصوص الخوف، وهو «مذهب المرجئة»، ومذهب قائم علىٰ إعمال نصوص الخوف وإهمال نصوص الرجاء، وهو «مهذب الخوارج»،

---

(١) قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُٱللَّهُ: «القلب في سيره إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ بمنزلة الطائر: فالمحبة رأسه، والخوف والرجاء جناحاه، فمتىٰ سلم الرأس والجناحان فالطير جيد الطيران، ومتىٰ قطع الرأس مات الطائر، ومتىٰ فُقد الجناحان فهو عرضة لكل صائد وكاسر، ولكن السلف استحبوا أن يقوىٰ في الصحة جناح الخوف علىٰ جناح الرجاء، وعند الخروج من الدنيا يقوىٰ جناح الرجاء علىٰ جناح الخوف»«مدارج السالكين» (١/ ٥١٧).

(٢) «تفسير القرآن العظيم» (٦/ ٩٤).

ودين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وسط بين ذلك، والوسطية في هذا الباب لا تكون إلا بهذا الأمر الذي ذكره علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في بيان الفقيه حقًّا، وأن الفقيه حقًّا لا يقنط الناس من الرحمة، ولا يرخص لهم في المعصية ولا يؤمنهم من عذاب الله.

قال رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**ولم يدع القرآن رغبة عنه إلىٰ غيره**»، هذا فيه تنبيه أن الفقيه هو الذي يكون في نفسه مرتبطًا بالقرآن وفهمًا وتدبرًا وعملًا، وأيضًا من الدعاة إلىٰ كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، كما جاء في الحديث: «**خيركم من تعلم القرآن وعلمه**»[1]، فهو في نفسه يتعلم القرآن ويتفقه فيه، وأيضًا في الوقت نفسه يعلم الناس القرآن ويدعوهم إلىٰ كتاب الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، ولا يرغب عنه ولا يعرض عن كتاب الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، لا لأقاويل الناس ولا لآرائه هو ولا لأفكاره ولا غير ذلك، بل دعوته إلىٰ كتاب الله، والله عَزَّوَجَلَّ قال لرسوله ﷺ: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلۡوَحۡيِۚ﴾ [الأنبياء: ٤٥]، وقال: ﴿فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥]، وقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ﴾ [ق: ٣٧]، وقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، إلىٰ غير ذلك من الآيات.

قال: «**إنه لا خير في عبادة لا علم فيها**»؛ لأن من يعبد الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بلا علم يكون ضالًا في عبادته، والعبادة لا تُقبل من صاحبها مهما كثرة وتعددت وتنوعت إلا إذا كانت قائمة علىٰ العلم الموروث عن نبينا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وهذا هو معنىٰ قوله ﷺ: «**من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد**»؛ أي: مردود علىٰ صاحبه غير مقبول منه، والله تعالىٰ يقول: ﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا﴾ [الكهف: ١٠٣، ١٠٤].

قال: «**ولا علم لا فهم فيه**»؛ أي: محفوظات لدىٰ الإنسان كثيرة، لكنه لا يفهم

---

(١) رواه البخاري (٥٠٢٧).

المعاني، ولا يعرف الدلالات، فأي أثر للعلم إذا كان الإنسان يحفظه ولا يفهمه؟! وأي أثر عليه إذا كان يحفظ نصوص العلم ولا يفهم منه شيئًا، ولهذا قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**ولا علم لا فهم فيه**»؛ أي: ولا خير في علم لا فهم فيه، فإذا كان يحفظ ولا يفهم أي أثر يكون لهذا العلم الذي حفظه! ولهذا مر معنا قريبًا دعوة النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال: «**نضر الله امرأً سماعة مقالتي فحفظها ووعاها**»، لم يكتفِ بالحفظ وحده، بل جمع معه الوعي وهو فهم ما يحفظه العبد.

قال: «**ولا قراءة لا تدبر فيها**»، ولا قراءة؛ أي: للقرآن لا تدبر فيها، والله جَلَّ وَعَلَا يقول: «كتاب أنزلناه ... الألباب» [ص: ٢٩]، يقول جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، ويقول جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤]، ويقول جَلَّ وَعَلَا: ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾ [المؤمنون: ٦٦- ٦٨]؛ أي: أنهم لو تدبروا القول لما نكصوا علىٰ الأعقاب، ولما رجعوا القهقرىٰ ولمضوا علىٰ طريق الاستقامة والحق والهدىٰ، والقول الذي هو كلام الله لا ينتفع به الإنسان إلا إذا تدبر كلام الله عَزَّ وَجَلَّ وعقل معانيه، وقد قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [البقرة: ١٢١]، قال أهل العلم: تلاوة القرآن حق التلاوة لا تكون إلا بأمور ثلاثة: الحفظ والفهم والعمل، حفظ الآيات وفهم معانيها والعمل بها بهذا يكون الإنسان من أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته.

فهذه كلمة عظيمة من الخليفة الراشد علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأرضاه في بيان الفقيه حقًّا.

❊ ❊ ❊

١٢١- وَعَنِ الحَسَنِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ جَاءَهُ المَوْتُ وَهُوَ يَطْلُبُ العِلْمَ لِيُحْيِيَ بِهِ الإِسْلَامَ فَبَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّبِيِّينَ دَرَجَةٌ وَاحِدَةٌ فِي الجَنَّةِ». رَوَاهُ الدَّارِمِيُّ(١).

ثم ختم هذه الترجمة بهذا الحديث عن الحسن رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، عن رسول الله ﷺ، وهذا مرسل، وأيضًا الإسناد قبل الحسن فيه ضعف، ولكن ختم المصنف رَحِمَهُٱللَّهُ بهذا الحديث في هذه الترجمة تنبيه علىٰ أمر عظيم يتعلق بكيفية الطلب، ألا وهو: أن طالب العلم لا ينبغي أن يقف عن طلب العلم في مرحلة معينة من حياته أو في وقت معين من عمره، بل الذي ينبغي عليه أن يطلب العلم طلبًا مستمرًّا إلىٰ أن يتوفاه الله، هذا الذي ينبغي أن يكون عليه المسلم، أن يكون مستمرًّا في طلب العلم إلىٰ أن يُدخل في قبره يستمر في الطلب، ليس أن يقرأ متنًا عند أحد الشيوخ، ثم إذا ختم المتن أو المتنين يتوقف عن الطلب، بل يستمر طالبًا للعلم إلىٰ أن يُدخل في قبره، ولا يزال محتاجًا إلىٰ العلم محتاجًا إلىٰ التزود منه إلىٰ آخر لحظة من حياته، ﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا﴾ [طه: ١١٤].

قال عن الحسن: قال رسول الله ﷺ: «**من جاءه الموت وهو يطلب العلم ليحيي به الإسلام**»، أيضًا هنا تنبيه علىٰ أمر آخر، وهو: أن تستمر في طلب العلم بالنية الصحيحة، وهي أن تقصد بالعلم إحياء الإسلام، «قَالَ مُهَنَّا: قُلْتُ لِأَحْمَدَ: حَدِّثْنَا مَا أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ قَالَ: طَلَبُ الْعِلْمِ قُلْتُ: لِمَنْ، قَالَ: لِمَنْ صَحَّتْ نِيَّتُهُ قُلْتُ: وَأَيُّ شَيْءٍ يُصَحِّحُ النِّيَّةَ قَالَ يَنْوِي يَتَوَاضَعُ فِيهِ وَيَنْفِي عَنْهُ الْجَهْلَ»(٢) فهذا هو إحياء الإسلام

---

(١) رواه الدارمي (٣٥٤)، وضعفه الألباني في «المشكاة» (٢٤٩).

(٢) «الآداب الشرعية» (٢/ ١٠٤).

بالعلم.

قال: «**فبينه وبين النبيين درجة واحدة في الجنة**»، يغني عن هذا قول النبي ﷺ، وقد تقدم معنا: «وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه- أي: العلم- فقد أخذ بحظ وافر».

إذًا؛ هذا الحديث الختم به في هذه الترجمة فيه التنبيه علىٰ أهمية المواصلة في طلب العلم والمداومة عليه إلىٰ أن يموت العبد وهو طالب علم، وقد رؤي الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الأيام الأخيرة من حياته وهو يقرأ بنهم في كتب الحديث مقبلًا عليها ومعه الحبر والورق والكتابة والهمة العالية في آخر حياته، فسأله أحدهم في ذلك إلىٰ متىٰ؟ يعني: حصَّلت من العلم نصيبًا كبيرًا فإلىٰ متىٰ تطلب العلم؟ فقال كلمته المشهورة رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: «مع المحبرة إلىٰ المقبرة»(١)؛ يعني: معنىٰ كلامه لا أزال طالب علم مستمرًّا علىٰ الطلب إلىٰ أن أُدخل في القبر، فهذه حال طالب العلم الجاد لا يثنيه شيء عن الطلب، بل هو حريص عليه جاد فيه إلىٰ أن يتوفاه الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

❊ ❊ ❊

---

(١) انظر: «مناقب الإمام أحمد» (ص٥٥).

بَابُ: قَبْضِ العِلْمِ

١٢٢- عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَشَخَصَ بَصَرُهُ إِلَىٰ السَّمَاءِ ثُمَّ قَالَ: «هَذَا أَوَانٌ يُخْتَلَسُ فِيهِ العِلْمُ مِنَ النَّاسِ حَتَّىٰ لَا يَقْدِرُوا مِنْهُ عَلَىٰ شَيْءٍ». رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ[(١)].

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ: «**باب قبض العلم**»، هذه الترجمة عقدها رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ ليبين ما ورد في السنة عن نبينا صلوات الله وسلامه عليه أن العلم يُقبض، وأن قبضه يكون بموت أهله وحملته، لا ينتزع من قلوب الرجال، بل يكون قبضه بقبض العلماء، وهذه الترجمة كما أن فيها بيانًا لأن العلم يُقبض بقبض العلماء ففيها أيضًا حث علىٰ تعلم العلم والعناية به وحفظه والاجتهاد في ذلك؛ لأن الإنسان لا يدري متىٰ يُحتاج إليه في بلده ومنطقته مع كثرة الجهل وقلة العلم، فإذا فرط في العلم وقت تيسير تحصيله له ثم تهيأت أو حصلت الحاجة إلىٰ العلم ندم علىٰ تفريطه، ولهذا يغتنم المسلم وطالب العلم فرصة تهيئ طلب العلم له بأن يأخذ منه نصيبًا وافرًا وحظًا طيبًا، ثم ينفع الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ به فيما بعد من شاء من عباده.

وأورد عن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «**كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَشَخَصَ بَصَرُهُ إِلَىٰ السَّمَاءِ**»؛ أي: رفع بصره إلىٰ السماء ونظر إلىٰ العلو.

ثم قال: «**هذا أوان يختلس فيه العلم**»؛ أي: يختطف فيه العلم ويؤخذ، والمراد

---

(١) رواه الترمذي (٢٦٥٣)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٩٩٠).

بأخذ العلم: أخذ حملة العلم ونقلته، وبعض العلماء أخذ أو استنبط من هذا الحديث أن في هذا إشارة إلىٰ دنو أجله صلوات الله وسلامه عليه.

قال: «**هذا أوان يختلس العلم من الناس حتىٰ لا يقدروا منه علىٰ شيء**»، أي: لا يقدروا علىٰ شيء؛ أي: من العلم؛ لأنه لا يوجد له حملة، إذا قُبض رجال العلم وأهله ثم بحث الناس عن العلم لا يجدون من يبينه ويوضحه لهم.

* * *

[النهي عن تلاوة القرآن دون تدارسه والعمل به]

١٢٣- وَعَنْ زِيَادِ بْنِ لَبِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: ذَكَرَ النَّبِيُّ ﷺ شَيْئًا فَقَالَ: «ذَلِكَ عِنْدَ أَوَانِ ذَهَابِ العِلْمِ»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ كَيْفَ يَذْهَبُ العِلْمُ وَنَحْنُ نَقْرَأُ القُرْآنَ وَنُقْرِئُهُ أَبْنَاءَنَا، وَيُقْرِئُهُ أَبْنَاؤُنَا أَبْنَاءَهُمْ إِلَىٰ يَوْمِ القِيَامَةِ؟ قَالَ: «ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا زِيَادُ، إِنْ كُنْتُ لَأَرَاكَ مِنْ أَفْقَهِ رَجُلٍ فِي المَدِينَةِ، أَوَلَيْسَ هَذِهِ اليَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ يَقْرَءُونَ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وَلَا يَعْمَلُونَ بِشَيْءٍ مِمَّا فِيهِمَا؟». رَوَاهُ أَحْمَدُ، وَابْنُ مَاجَه(١).

ثم أورد رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ حديث زياد بن لبيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: ذكر النبي ﷺ شيئًا فقال: «**ذلك عند أوان ذهاب العلم**»؛ أي: عند وقت ذهاب العلم وعدم وجوده.

فلما سمع زياد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إخبار النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بذهاب العلم أثار تساؤلًا قال: «**قلت: يا رسول الله، وكيف يذهب العلم؟! ونحن نقرأ القرآن ونقرئه أبناءنا ويقرئه أبناؤنا أبناءهم إلىٰ يوم القيامة؟**»، وهذا فيه إشارة إلىٰ طريقة تناقل العلم، وأن اللاحق يأخذه من السابق، فيقول: كيف يذهب العلم والعلم يُتناقل، يأخذه الطلاب عن الشيوخ، ثم يصبح الطلاب شيوخًا، فيأخذه عنه طلابهم وهكذا، فقال النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**ثكلتك أمك يا زياد**»؛ أي: فقدتك أمك، وهذه الكلمة يؤتىٰ بها للتعجب، لا لقصد الدعاء علىٰ الإنسان بذلك حقيقة.

قال: «**إن كنت لأراك من أفقه رجل بالمدينة**»؛ أي: كنت أعدُّك من أفقه رجال

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (١٧٤٧٣)، وابن ماجه (٤٠٤٨)، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٣٢٧٢).

المدينة، من أكثرهم فقهًا.

«**أوليس هذه اليهود والنصارىٰ يقرءون التوراة والإنجيل، لا يعملون بشيء مما فيهما**»، وهذا فيه أن بقاء العلم ليس بحفظ ألفاظ العلم والنصوص العلمية وكثرة المحفوظات، بل يشمل الحفظ والفهم والعمل، ويشمل أيضًا الثبات علىٰ العلم والرسوخ فيه، لا أن يكون الإنسان متذبذبًا ومتنقلًا، وهذا يتبين في الفتن التي يكثر فيها تنقلات الناس وتحولاتهم من مذهب إلىٰ آخر، ومن رأي إلىٰ رأي، مما يدل علىٰ عدم الرسوخ في العلم والثبات عليه، فبين له النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أن العلم ليس بمجرد الحفظ، فقد يكون الإنسان يحفظ القرآن ويحفظ نصيبًا من أحاديث النبي ﷺ، ولا يكون من أهل العلم لسببين: أولًا: لكونه لا يفهم، وثانيًا: لكونه لا يعمل ولا يُرىٰ عليه أخلاق القرآن وآداب القرآن وما يدعو إليه القرآن، الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ في زمن التابعين تحدث عن بعض القراء الذين اشتغلوا بالحفظ وضيعوا العمل، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قد قرأت القرآن كله فما سقطت منه حرفًا وقد والله أسقطه كله»، ماذا يقصد؟ أي: قرأته قراءة متقنة مجودة مرتلة، لم أسقط منه شيئًا، يقول الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقد والله أسقطه كله، ما ترىٰ الله القراء في خلق ولا عمل»، قال: «متىٰ كانت القراء تقول مثل هذا؟ لا أكثر الله في الناس مثل هؤلاء»[(١)].

الشاهد: أن هذا الحديث يبين أن حفظ العلم لا بد فهي من فهم العلم والعناية بضبطه، وأن يعيه المسلم، قد مر معنا الحديث «ووعاها»، ولا بد أيضًا من الثبات علىٰ العلم بترك التنقل والتذبذب والاضطراب.

❊ ❊ ❊

(١) «أخلاق أهل القرآن» (ص ١٦).

[الحثُّ على طلب العِلْم قبل قَبْضه]

١٢٤- وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: «عَلَيْكُمْ بِالعِلْمِ قَبْلَ أَنْ يُقْبَضَ، وَقَبْضُهُ ذَهَابُ أَهْلِهِ، عَلَيْكُمْ بِالعِلْمِ فَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَا يَدْرِي مَتَىٰ يُفْتَقَرُ إِلَيْهِ، أَوْ يُفْتَقَرُ إِلَىٰ مَا عِنْدَهُ، وَسَتَجِدُونَ أَقْوَامًا يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ يَدْعُونَ إِلَىٰ كِتَابِ اللهِ وَقَدْ نَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ، عَلَيْكُمْ بِالعِلْمِ وَإِيَّاكُمْ وَالبِدَعَ وَالتَّنَطُّعَ وَالتَّعَمُّقَ، وَعَلَيْكُمْ بِالعَتِيقِ». رَوَاهُ الدَّارِمِيُّ بِنَحْوِهِ(١).

ثم أورد رَحِمَهُٱللَّهُ تعالىٰ هذا الأثر عن ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في الحث علىٰ العلم قبل أن يقبض، لأن الشيء الثمين النفيس الذي تُخبر عنه بأنه سيأتي عليه ويُقبض فيها أعظم حض علىٰ طلب العلم وتحصيله، ولهذا قال ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «**عليكم بالعلم قبل أن يقبض**»؛ لأن الإنسان لو رغب في العلم بعد قبضه لا يجد من يعلمه، وقبض العلم بقبض العلماء، فيقول رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «عليكم بالعلم قبل أن يقبض»، وعرفنا أن قبضه بقبض أهله.

قال: «**عليكم بالعلم؛ فإن أحدكم لا يدري متىٰ يفتقر إليه**»، حث رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ علىٰ العلم وتعلمه من جهتين:

الجهة الأولىٰ: قال: «قبل أن يقبض العلم».

والجهة الثانية: قال: «لا يدري أحدكم متىٰ يفتقر إليه»، وهذا أمر يلاحظه كثير من طلاب العلم الذين رحلوا في طلب العلم وتهيأت لهم مجالس علمية جادة في

---

(١) رواه الدارمي (١٤٣)، وعبد الرزاق في «مصنفه» (٢٠٤٦٥)، والطبراني في «معجمه الكبير» (٨٨٤٥).

تحصيل العلم، وفرطوا في كثير منها، لما رجعوا إلىٰ ديارهم وبلدانهم واحتاج الناس إليهم أحسوا حينئذ بالتفريط الذي كان منهم والأيام التي ضاعت عليهم، ويبدأ يندم ويتأسف ويقول: كنت في بلد كذا وفيه علماء وكنت مضيعًا لتلك المجالس، ولو أنني لازمتهم وحفظت و... إلخ. لأفدت الناس في هذا الوقت، ولهذا يحث رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ علىٰ العلم بقوله: «**عليكم بالعلم؛ فإن أحدكم لا يدري متىٰ يُفتقر إليه**»؛ يعني: من يحتاج إلىٰ العلم الذي عنده، وإذا ذهب إلىٰ بلده وهم يظنون فيه خيرًا لأنه غاب عنهم سنوات لطلب العلم ثم افتقروا إلىٰ العلم الذي عنده، ثم تبين لهم أنه هو وإياهم سواء ما تميز عنهم بشيء ولم يحصل علمًا يفيدهم به تأسف الجميع لذلك، ولهذا ينبغي علىٰ الإنسان الذي أكرمه الله وهيأ له طلب العلم وحضور مجالسه أن يجتهد في الإفادة العظيمة منها؛ لأنه كما قال ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «لا يدري متىٰ يُفتقر إليه»؛ أي: لا يدري متىٰ يُحتاج إلىٰ العلم الذي عنده.

قال: «**لا يدري متىٰ يفتقر إليه أو يفتقر إلىٰ ما عنده**»؛ أي: ما عنده من العلم.

قال: «**وستجدون أقوامًا يزعمون أنهم يدعون إلىٰ كتاب الله وقد نبذوه وراء ظهورهم**»، وهذا فيه تنبيه من ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن العبرة ليست بالشعارات والدعايات، وما أكثرها في كل زمان وأوان كأن يرفع الإنسان شعارات ينسب نفسه إليها مجرد نسبة، ولكنه لا يحقق ما يقتضيه هذا الانتساب من استقامة واتباع واقتداء، لا يلتزم بذلك، فيحذِّر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ من أمثال هذه الشعارات والدعايات التي لا حقيقة لها، ولا تنطوي علىٰ مضمون صحيح، وضرب علىٰ ذلك مثالًا، قال: «**ستجدون أقوامًا يزعمون أنهم يدعونكم إلىٰ كتاب الله**»، لكن ما هي حقيقة أمرهم؟ قال: «**وقد نبذوه وراء ظهورهم**»؛ إذًا هناك شعارات سترفع بدعوىٰ الدعوة إلىٰ كتاب الله أو الدعوة إلىٰ سنة رسول الله ﷺ، ولكن المضمون والحقيقة أمر آخر، ويكون

الانتساب من هؤلاء إلىٰ الكتاب أو إلىٰ السنة مجرد دعوىٰ:

والــدعاوىٰ مــا لــم تقيمــوا عليهــا بينـــــات أصـــــحابها أدعيـــــاء

فلا بد من بينة، والبينة هي صدق الاتباع والاقتداء بالرسول الكريم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، لا بمجرد الدعايات والشعارات المجردة عن حقيقة الاتباع والاقتداء.

وقد ترىٰ كتبًا يُكتب عليها «**عقيدة أهل السنة**»، أو غيرها من العناوين، وإذا نظرت إلىٰ المضمون تجد السنة شيئًا وما يدعو إليه هؤلاء شيء آخر، «وكلًّا يدعي وصلًا لليلىٰ»، وكلًّا يدَّعي أن الذي عنده هو السنة وهو الحق لكن الدعوىٰ وحدها لا تكفي، ولا يُعرف صاحب باطل لا في قديم الزمان ولا في حديثه يقول عن نفسه أنه داعية بدعة أو يقول للناس أيها الناس اتبعوني فأنا من دعاة البدع والضلالات!

إذًا؛ لا يغتر المسلم بمجرد الدعايات وزخرفة القول وتزيين الباطل، بل يكون معتمدًا في هذا الباب أهل القرآن وأهل السنة حقًّا وصدقًا بالعلم والعمل والاتباع لما جاء في كتاب الله وسنة رسوله صلوات الله وسلامه عليه.

ثم قال رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**عليكم بالعلم**»؛ أي: بالعلم الموروث عن النبي الكريم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، العلم الشرعي المستمد من كتاب الله وسنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه، عليكم بهذا العلم احفظوه وحافظوا عليه وافهموه واعتنوا بالعمل به.

«**وإياكم والبدع والتنطع والتعمق**»، إياكم والبدع؛ أي: إياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة ضلالة، كما نص علىٰ ذلك نبينا صلوات الله وسلامه عليه بقوله: «وكل بدعة ضلالة»، وقد تقدم الحديث معنا، وقال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد**»؛ أي: مردود علىٰ صاحبه غير مقبول منه، قال: «وإياكم والبدع»؛ أي: احذروها واجتنبوها وابتعدوا عنها واحذروا أن تكونوا من أهلها.

«**والتنطع**»، التنطع: هو التكلف والتعمق، قال: «**إياكم والتنطع والتعمق**»، التعمق: هو التقعر في الأمور، والتنطع: هو التكلف فيها، فحذر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ من هذا وذاك؛ أي: الزم السنة وتمسك بها واحذر البدع، واحذر من تكلفات المتكلفين وتخرصات المبطلين وتنطعات المتنطعين التي يتجاوزون بها حدود سنة النبي الكريم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

قال: «**عليكم بالعتيق**»، العتيق؛ أي: القديم الذي كان عليه الناس في العهد الأول زمن النبي ﷺ وأصحابه، وما لم يكن دينًا في ذلك الزمان لا يكون دينًا إلىٰ أن تقوم الساعة، كما قال الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ.

❋ ❋ ❋

١٢٥- وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» عَنِ ابْنِ عَمْرٍو مَرْفُوعًا: «إِنَّ اللهَ لَا يَقْبِضُ العِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ العِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ العِلْمَ بِمَوْتِ العُلَمَاءِ، حَتَّىٰ إِذَا لَمْ يَبْقَ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالاً، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا»(١).

ثم أورد رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ هذا الحديث المخرَّج في «**الصحيحين**» حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا مرفوعًا؛ أي: إلىٰ النبي ﷺ أنه قال: «**إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من العباد**»؛ أي: ليس قبض العلم بانتزاعه من صدور العلماء؛ بحيث ينام العالم ويصبح ولا يجد في صدره علمًا، وبين النبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ صفة قبضه، وأن قبضه بموت أهله الذين هم العلماء، فكلما مات عالم محقق راسخ في العلم كان موته وقبضه قبضا للعلم؛ لأن قبضه بقبض حملته.

ولهذا؛ فإن من الفوائد العظيمة المستفادة من هذا الحديث: عِظم المصيبة علىٰ الناس بموت العلماء الأكابر وفقد الأئمة الراسخين، فهذا من أعظم المصائب التي يصاب بها الناس ويبتلون بها؛ لأن فقد العلماء فقد للعلم الذي كانوا يحملونه وكان الناس يأخذونه عنهم بالسؤال والفتوىٰ والدراسة والتعليم.

«**حتىٰ إذا لم يبق عالمًا**»؛ أي: لم يبق في الناس عالم، فما الذي يحدث؟

قال: «**اتخذ الناس رءوسًا جُهالًا**»؛ أي: يتصدر لتعليم الناس وإفتائهم رءوسًا جهالًا؛ أي: لا علم لهم ولا فقه لهم في دين الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ.

قال: «**فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا**»، الرءوس الجهال عندما يتصدرون لتعليم الناس ويُستفتون في أمور دين الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ وهم لا يحملون علمًا،

---

(١) رواه البخاري (١٠٠)، ومسلم (٢٦٧٣).

ثم يفتون تكون فتواهم مبنية علىٰ غير علم فيَضلِّون ويُضلِّون، يَضلونهم عن سواء السبيل، ويُضِلون أيضًا غيرهم عن طريق الحق، وهذا يبين الحال البئيسة والواقع المؤلم الذي يعيشه الناس عندما يفقدون العلماء، وهذا أمر ظاهر وبين في المجتمعات والبلدان التي لا علماء فيها.

والناس يحتاجون إلىٰ العلم، ولا تزال حاجتهم إلىٰ ذلك متكررة كل يوم، يريدون معرفة دينهم الذي خلقهم الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ لأجله وأوجدهم لتحقيقه، فإذا احتاج الناس إلىٰ علم في بلد ما وليس فيه عالم وليس فيه من يفقههم في دين الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ فإنها مصيبة عظيمة، وقد يكون في بلدهم مع هذا أئمة ضلال ودعاة باطل، وقد قال عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «**وَإِنَّمَا أَخَافُ عَلَىٰ أُمَّتِي الأَئِمَّةَ الْمُضِلِّينَ**»(١)، وعندما تكون الحال في بعض البلدان بهذه الصفة تنتشر في الناس الضلالة وتروج البدع وتكثر الخرافات والفتن والشبهات؛ لأنه بلد لا علماء فيه ولا فقهاء فيه، وفيه أئمة ضلال ودعاة باطل.

وينشأ الناس لا يعلمون إلا هذه الأمور وهذه الضلالات والخرافات التي يقوم علىٰ تعليمها دعاة الباطل وأئمة الضلال، بينما الحق بين وواضح وظاهر، ودلائله بينة وحججه ظاهرة، لكن ينشأ بعض الناس في مجتمعات فيها دعاة باطل ودعاة ضلال فيضلونهم ويحذرونهم من سماع الحق من أهله.

وأذكر أني لقيت رجلًا جاء إلىٰ هذه البلاد، فكان بعض الشيوخ في بلده يحذرونهم من سماع العلم في هذه البلاد، ويصفون أهل العلم في هذه البلاد بأوصاف وألقاب ينفرون منها، فقالوا له: «انتبه أن تأخذ منهم علمًا أو تسمع منهم، واحذر أن

---

(١) رواه أبو داود (٤٢٥٤)، والترمذي (٢٢٢٩)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٥٨٢).

يفتنوك وأن يخدعوك، ولهم علامة بينة إذا رأيتها تعرف هؤلاء». قلت: ما هي العلامة؟ قال: «دائمًا إذا تحدثوا يقولون: قال الله، قال رسوله!»، فيأتي المسكين الجاهل تقرأ عليه الآيات، تقرأ عليه الأحاديث، وقال الله، وقال رسوله، ويقول: صدق علماؤنا جزاهم الله خيرًا، نصحونا، وإلا كنا تورطنا مع هؤلاء، فلا يسمع لا الآيات ولا أحاديث النبي ﷺ، ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ﴾ [فصلت: ٢٦].

فهذه حال الناس عندما يبتلون في مجتمعاتهم وبلدانهم بدعاة الباطل وأئمة الضلال، فالمصيبة والله عليهم عظيمة، والبلية عليهم كبيرة، والنبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ نصح الأمة وبين لهم الجادة، وأوضح لهم الصراط المستقيم، والحق ولله الحمد واضح وظاهر وبين لا خفاء فيه ولا التباس.

❊ ❊ ❊

١٢٦- وَعَنْ عَلِيٍّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَ عَلَىٰ النَّاسِ زَمَانٌ لَا يَبْقَىٰ مِنَ الإِسْلَامِ إِلَّا اسْمُهُ، وَلَا يَبْقَىٰ مِنَ القُرْآنِ إِلَّا رَسْمُهُ، مَسَاجِدُهُمْ عَامِرَةٌ وَهِيَ خَرَابٌ مِنَ الهُدَىٰ، عُلَمَاؤُهُمْ شَرُّ مَنْ تَحْتَ أَدِيمِ السَّمَاءِ، مِنْ عِنْدِهِمْ تَخْرُجُ الفِتْنَةُ، وَفِيهِمْ تَعُودُ». رَوَاهُ البَيْهَقِيُّ فِي «شُعَبِ الإِيمَانِ»[(١)].

ثم ختم رَحِمَهُٱللَّهُ تعالىٰ هذه الترجمة بهذا الحديث عن علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**يوشك أن يأتي علىٰ الناس زمان لا يبقىٰ من الإسلام إلا اسمه**»؛ أي: الاسم مسلم، لكن الحقيقة شيء آخر، وفي بعض البلدان تجد أن المسلم أو المنتسب إلىٰ الإسلام حاله وحال الكافر سواء، فلا فرق بينهما لا في الأعمال ولا في الصفات، وليس للمسلم سمة يتميز بها ولا عمل يتميز به، أعماله وأعمال الكافر واحدة لا فرق بينهما، إلا أنه إذا قيل له لست بمسلم يغضب، وليس عنده من الإسلام إلا اسم الإسلام ومجرد الانتماء إلىٰ الإسلام، أما حقيقة الإسلام وتطبيق الإسلام والعمل به فهذا لا يوجد فيه.

قال: «**ولا يبقىٰ من القرآن إلا رسمه**»، الرسم؛ أي: الحروف والكتابة ومجرد القراءة لألفاظ القرآن وحروفه دون فهم ودون عمل بكتاب الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ.

قال: «**مساجدهم عامرة**»؛ أي: يأتي الناس للصلاة لكن تحقيقها بخشوع وخضوع ومحافظة علىٰ الأركان والواجبات، هذا لا يكون موجودًا فيهم.

قال: «**مساجدهم عامرة وهي خراب من الهدىٰ**»؛ أي: الذي كان عليه رسول الله ﷺ.

---

(١) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (١٩٠٨)، وضعفه الألباني في «المشكاة» (٢٧٦).

قال: «**علماؤهم شرٌّ من تحت أديم السماء**»؛ لأنهم علماء ضلال ودعاة باطل ودعاة فتنة ودعاة بدع، فعلماؤهم شر من تحت أديم السماء.

«**من عندهم**»؛ أي: عند علمائهم، «**تخرج الفتنة، وفيهم تعود**»، منهم تخرج وإليهم تعود.

وهذا الحديث في سنده كلام وهو غير ثابت، لكن هذه بعض المعاني التي يؤول إليها حال بعض الناس في بعض الأزمنة، وفي بعض الأوقات عند غياب تحقيق مقصود العلم؛ ألا وهو: الاتباع والاقتداء بالرسول الكريم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ والعمل بالعلم، وقد قال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «يهتف بالعلم العمل فإن أجابه وإلا ارتحل»، فإذا لم يكن صاحب العلم عاملًا به فإنه يرتحل عنه ولا يستفيد أيضًا منه الآخرين، والدعوة كما أنها بلسان المقال فهي بلسان الحال.

وبهذا الحديث ختم المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ هذه الترجمة التي بعنوان: «قبض العلم»، ثم انتقل إلىٰ ترجمة أخرىٰ بعنوان: «التشديد في طلب العلم للمراء والجدال».

❊ ❊ ❊

بَابٌ: فِي التَّشْدِيدِ فِي طَلَبِ العِلْمِ لِلْمِرَاءِ وَالجِدَالِ

١٢٧- عَنْ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ طَلَبَ العِلْمَ لِيُجَارِيَ بِهِ العُلَمَاءَ، أَوْ لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ، أَوْ يَصْرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ أَدْخَلَهُ اللهُ النَّارَ». رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ[١].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: «**باب التشديد في طلب العلم للمراء والجدال**»، هذه الترجمة عقدها رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ ليبين أهمية إصلاح النية في طلب العلم؛ لأن العلم عبادة يتقرب بها المؤمن إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والله عَزَّوَجَلَّ لا يقبل العبادة إلا إذا كانت خالصة لوجهه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لهذا جاء في الحديث القدسي أن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يقول: «**أنا أغنىٰ الشركاء عن الشرك، من عملَ عملا أشركَ فيه معِي غيري تَركْته وشركَه**»[٢]، ولهذا جاء نصوص كثيرة في الكتاب والسنة تحذر من صرف العمل لغير الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وجاءت نصوص خاصة تحذر من طلب العلم لغير الله، وأن طالب العلم إن طلب العلم لغير الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لم يكن طلبه للعلم عملا صالحا؛ لأن العمل لا يكون صالحًا إلا إذا ابتغي به وجه الله عَزَّوَجَلَّ، أما من ابتغىٰ بعمله غير وجه الله عَزَّوَجَلَّ فلا يكون في عِداد أعماله الصالحة، ولهذا فإن من يطلب العلم للرياء أو للزعامة أو للشهرة أو للصيت أو لغير ذلك من الأغراض فإنه بذلك لا يكون في عمله

---

(١) رواه الترمذي (٢٦٥٤)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٣٨٣).

(٢) رواه مسلم (٢٩٨٥).

متقبلا من الله جَلَّ وَعَلَا.

ونصحًا من المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ عقد هذه الترجمة للتحذير من فساد النية في طلب العلم، وللتأكيد علىٰ أهمية إخلاص النية في طلب العلم، قال: «**باب التشديد في طلب العلم للمراء والجدال**»، التشديد؛ أي: ما ورد من نصوص الشرع من الوعيد الشديد في طلب العلم إذا لم يكن غرضه إلا المراء والجدال، أو مماراة السفهاء والمجادلة لهم، فليس غرضه بطلبه للعلم ابتغاء وجه الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، أو رفع الجهل عن نفسه وعن إخوانه المسلمين، وإنما غرضه منه الجدال والمراء والممارة والشهرة ونحو ذلك من الأغراض السيئة.

وأورد في هذه الترجمة جملة من النصوص فيها الدلالة علىٰ المقصود، بدأها بحديث كعب بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من طلب العلم ليجاري به العلماء أو ليماري به السفهاء أو يصرف به وجوه الناس إليه أدخله الله النار**»، ذكر عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في هذا الحديث طلب العلم ولكن بنية فاسدة لا بنية خالصة لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، والنية الفاسدة لا تندرج تحت نوع معين، بل إنها تشمل أنواعًا عديدة وأمورًا كثيرة كلها تدخل في فساد النية، وما ذكره النبي عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في هذا الحديث ليس حصريًّا لفساد النية في طلب العلم، وإنما ذكر عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أمثلة يُطلب العلم لأجلها، وتكون هي الغرض من طلب العلم، وتكون دليلًا علىٰ فساد نية الإنسان في طلبه للعلم، وأن نيته ليست خالصة لوجه الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

كمن يطلب العلم «**ليجاري به العلماء**»، وهذا طلب الشهرة والصيت والسمعة، فعلم مكانة العلماء في الناس ورأىٰ قبول الناس ومحبتهم لهم، فأخذ يطلب العلم ليجاري العلماء حتىٰ يقال: عالم، أو يقال: فاق العالم الفلاني، أو يقال: أفحم العالم الفلاني، أو نحو ذلك من الأغراض التي يريدها في طلبه للعلم، فهو يكابد

ويجد ويجتهد في الطلب ويسهر الليل ويحفظ ويراجع ويستذكر وغرضه من ذلك كله مجاراة العلماء، حتىٰ إذا حضر مجلسًا فيه عالم أخذ يجاري العالم بأن يبرز ما عنده من علم حتىٰ يقال: إنه أفضل منه أو أقوىٰ منه أو أمكن علمًا منه أو يفحم العالم الفلاني أو نحو ذلك من الأغراض؛ فهذه نية فاسدة، ولا يكون طلب العلم ممن طلبه لهذا الغرض في صالح عمله الذي يتقبله الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

ولهذا بعض من كان غرضه في طلبه للعلم هو الغرض فإنه يبحث عن غرائب المسائل ودقائقها ويتعمق فيها ويضيع أصول الإيمان ومباني الإسلام وقواعد الشريعة، لا يكون معتنيًا بها، ولكن يعتني ببعض دقائق مسائل العلم، ثم إذا حضر مجلسًا أخذ يتحدث عنها بنفس طويل حتىٰ يُلتفت إليه، وهذا مراده بينه وبين نفسه ونيته في داخله هذا مراده، والله أعلم بسرائر الناس مطلع علىٰ ما في القلوب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فيتكلم ويفصل القول في المسائل حتىٰ يبرز في المجالس وحتىٰ يقال: إنه فاق العالم الفلاني أو فاق فلانًا أو هو أفضل من فلان أو نحو ذلك من المدائح التي كان يطلب العلم لأجلها، وماذا يغني عنه هذا الغرض عندما يلقىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولا يجد هذا العلم الذي أمضىٰ فهي وقتًا طويلًا ومدة طويلة لا يجده في صالح عمله! بل يكون سببًا لدخوله النار لفساد النية والعياذ بالله، فهذا مما يدل علىٰ التشديد والتحذير والوعيد الشديد في النصوص لمن طلب العلم ليس لوجه الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وإنما لغرض من هذه الأغراض.

قال: «**وليماري به السفهاء**»، والمماراة: هي المجادلة، ولا يكون الغرض فيها بروز الحق وثبوته وإبطال الباطل، وإنما يكون الغرض فيها بروز الشخص نفسه وذيوع صيته بين الناس وأن يشتهر بالعلم أن يشتهر بالجدال بالخصومات، قال: «**ليماري به السفهاء**»؛ أي: يجادل السفهاء بهذا العلم الذي حصَّله ليكون بارزًا فيهم،

ظاهرًا عليهم، ليس غرضه في طلبه للعلم أن يصلح بعلمه الذي منَّ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ به عليه بمعرفة أحوال السفهاء ودعوتهم للخير وأخذهم إلىٰ سبيل الاستقامة والهدىٰ، وإنما غرضه أن يبرز وأن يشتهر.

«**أو يصرف به وجه الناس إليه**»؛ أي: أن تنصرف وجوه الناس إليه، وهذا طلبا للشهرة والصيت بين الناس، وأن يُلتفت إليه ويشار إليه بالأصابع، ويقال: هذا العالم، وهذا البحر والحبر، وغيرها من المدائح، أما من طلب العلم لوجه الله وأُثني عليه خيرًا لم يكن طالبًا لذلك ولم يكن غرضه في طلب العلم ثناء الناس ومدحهم، وأُثني عليه خيرًا، فإن هذا لا يضره إذا كانت نيته بينه وبين الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ صالحة، وإنما الكلام هنا في حق من كان غرضه من طلب العلم هذه الأشياء، يطلب العلم ليجاري العلماء أو ليماري السفهاء أو ليصرف بالعلم الذي عنده وجوه الناس إليه، فمن كان غرضه في طلبه للعلم هذا الغرض أدخله الله النار يوم القيامة؛ لأن العلم عبادة، وعمل صالح يُتقرب به إلىٰ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وهذا لم يخلص في طلبه للعلم، ولم يقصد بطلبه للعلم وجه الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فكان طلبه للعلم في عمله السيئ لفساد نيته ولم يكن في عمله الصالح.

❊ ❊ ❊

[الجدَلُ سبب الضَّلال]

١٢٨- وَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدًى كَانُوا عَلَيْهِ إِلَّا أُوتُوا الجَدَلَ»، ثُمَّ تَلَا قَوْلَهُ تَعَالَىٰ: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الزُّخرُف: ٥٨]. رَوَاهُ أَحْمَدُ، وَالتِّرْمِذِيُّ، وَابْنُ مَاجَه[(١)].

ثم أورد رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ حديث أبي أمامة الباهلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا؛ أي: إلىٰ النبي ﷺ أ نه قال: «**ما ضل قوم بعد هدىٰ كانوا عليه إلا أوتوا الجدل**»؛ أي: ما ضل قوم عن الخير وحسن الإقبال علىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وتحقيق العبودية له والذل بين يديه والقيام بطاعته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، كما يجب من عباده إلا أوتوا الجدل؛ أي: إلا ضاعت أوقاتهم هدرًا في الجدل والخصومات، وهذا من الدلائل علىٰ فساد النيات في طلب العلم؛ لأن العلم إذا طُلب بنية خالصة وابتغي به وجه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أثمر العمل وصلحت به القلوب، وقد قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]، فالعلم أساس الخشية لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، ولكن لا تتحقق ثماره إلا إذا أخلص فيه صاحبه لله وابتغىٰ به وجه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وإذا أريد بالعلم أغراضًا أخرىٰ لم يثمر عملًا صالحًا، ولهذا قال: «**ما ضل قوم بعد هدىٰ كانوا عليه إلا أوتوا الجدل**»، يكون طلبهم للعلم للجدل والخصومات مثل ما مر معنا في الحديث السابق، قال: «**من طلب العلم ليجاري به العلماء أو ليماري السفهاء**»، فيكون طلبهم للعلم

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (٢٢١٦٤)، والترمذي (٣٢٥٣)، وابن ماجه (٤٨)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٦٣٣).

واستذكارهم له وبحثهم في مسائله المراد منه الجدل والخصومات، وهذا من الدلائل علىٰ فساد النيات في طلب العلم.

«ثم تلا؛ أي: رسول الله ﷺ قول الله تعالىٰ: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢا ﴾»؛ أي: ليس لهم غرض في العمل الذي يثمر العلم، وليس لهم غرض في العبودية التي يدعو إليها العلم، وإنما غرضهم في العلم الخصومة والجدل، فهذه نية فاسدة؛ لأن النية الصالحة تثمر لصاحبها خشية لله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ وجدًّا واجتهادًا في التقرب إليه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وبُعدًا عما نهىٰ عنه تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ.

❊ ❊ ❊



[أبغض الرِّجال إلى الله]

١٢٩- وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ إِلَىٰ اللهِ الأَلَدُّ الخَصِمُ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[(١)].

ثم ساق رَحِمَهُٱللَّهُ تعالىٰ حديث أم المؤمنين عائشة ضي الله عنها، عن النبي ﷺ أنه قال: «**إِنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ إِلَىٰ اللهِ الأَلَدُّ الخَصِمُ**»، وهذا وعيد شديد، وهذا فيه إثبات أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يبغض، وأيضًا هناك أدلة كثيرة في القرآن والسنة تدل علىٰ أنه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يحب، وإذا عرف المؤمن أن ربه تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ يبغض ويحب فإن هذا يدفعه للبحث عن محاب الله ليفعلها وللبحث عن الأمور التي يبغضها الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ليجتنبها، ومن الذي يرضىٰ لنفسه أن يبغضه الله جَلَّوَعَلَا ؟! فلا يكون هذا إلا للنفس الدنيئة الرديئة، إذا أصحبت النفس هكذا فإنها لا تبالي بهذا الأمر، فتفعل أمورًا تعلم أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يبغضه إذا فعلها ولا يبالي بذلك، والعياذ بالله.

وهنا في هذا الحديث قال: «**إن أبغض الرجال**»، وهذا فيه دليل علىٰ التفاضل في البغض، وأن بغض الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ للناس متفاوت بحسب ما هم عليه من أعمال سيئة ومخالفات وخروج عن طاعته سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وبغضه لهؤلاء المفرطين المضيعين لبعض أشد من بعض كما يدل علىٰ هذا الحديث.

قال: «**إن أبغض الرجل إلىٰ الله الألد الخصم**»، والألد: من اللدد، وهو: الخصومة، ومنه قوله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ [مريم: ٩٧]؛ أي: أهل خصومة،

---

(١) رواه البخاري (٢٤٥٧)، ومسلم (٢٦٦٨).

﴿قَوۡمٗا لُّدّٗا﴾ نظيره قوله تعالىٰ في الآية المتقدمة، ﴿بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ﴾، ﴿لُّدّٗا﴾؛ أي: ﴿خَصِمُونَ﴾؛ أي: أهل خصومة، واللدد هو شدة الخصومة، فأبغض الرجال إلىٰ الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ من كانت نفسه مولعة باللدد والخصومة، فمجالسه مجالس مجادلات ومماراة، وليس له غرض في العبادة وتحقيق الخشية لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وتحقيق الذل لله عَزَّوَجَلَّ، وإنما غرضه في علمه وطلبه للعلم اللدد والخصومة والجدل والمماراة ونحو ذلك من الأغراض، فمن كان غرضه في طلب العلم هذا فإنه من أبغض الناس وأبغض الرجال إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ.

❊ ❊ ❊

[النهيُ عن طلب العلم للمراء ونحوه]

١٣٠- وَعَنْ أَبِي وَائِلٍ عَنْ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: مَنْ طَلَبَ العِلْمَ لِأَرْبَعٍ دَخَلَ النَّارَ -أَوْ نَحْوَ هَذِهِ الكَلِمَةِ-: لِيُبَاهِيَ بِهِ العُلَمَاءَ، أَوْ لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ، أَوْ لِيَصْرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ، أَوْ لِيَأْخُذَ بِهِ مِنَ الأُمَرَاءِ». رَوَاهُ الدَّارِمِيُّ(١).

ثم أورد رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الأثر عن أبي وائل شقيق بن سلمة من علماء التابعين عن عبد الله بن مسعود الصحابي الجليل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال- أي: ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -: «**من طلب العلم لأربع دخل النار**»، قوله: «**لأربع**»؛ أي: لأغراض أربع كانت هي مقصده ومراده من طلبه للعلم، لم يكن في طلبه للعلم مخلصًا لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مبتغيًا وجه الله عَزَّ وَجَلَّ، وإنما لأحد أغراض أربعة ذكرها.

الثلاثة الأول منها تقدمت معنا في حديث سعد بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهي قوله: «ليباهي به العلماء، أو ليماري به السفهاء، أو ليصرف به وجه الناس إليه»، فهذه الأمور الثلاثة كلها تقدمت معنا في حديث كعب بن مالك.

وزاد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أمرًا رابعًا وهو: «**ليأخذ به من الأمراء**»؛ أي: طلب العلم وغرضه فيه أن يكون له مكانة عند الأمراء، ومنزلة فيعطونه ويغدقون عليه بالأعطيات، وأن تكون له مكانة أو شأن أو منزلة عندهم ليأخذ منهم، ومن كان هذا غرضه في طلب العلم فنيته فاسدة لا يكون علمه في صالح عمله.

❊ ❊ ❊

---

(١) رواه الدارمي (٣٧٣).

[صفة العلماء المتّقين]

١٣١- وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ لِقَوْمٍ سَمِعَهُمْ يَتَمَارَوْنَ فِي الدِّينِ: «أَمَا عَلِمْتُمْ أَنَّ للهِ عِبَادًا أَسْكَتَتْهُمْ خَشْيَةُ اللهِ مِنْ غَيْرِ صَمَمٍ وَلَا بَكَمٍ، وَإِنَّهُمْ لَهُمُ العُلَمَاءُ، وَالفُصَحَاءُ، وَالطُّلَقَاءُ، وَالنُّبَلَاءُ، العُلَمَاءُ بِأَيَّامِ اللهِ، غَيْرَ أَنَّهُمْ إِذَا تَذَكَّرُوا عَظَمَةَ اللهِ طَاشَتْ عُقُولُهُمْ، وَانْكَسَرَتْ قُلُوبُهُمْ، وَانْقَطَعَتْ أَلْسِنَتُهُمْ، حَتَّىٰ إِذَا اسْتَفَاقُوا مِنْ ذَلِكَ تَسَارَعُوا إِلَىٰ اللهِ بِالأَعْمَالِ الزَّاكِيَةِ، يَعُدُّونَ أَنْفُسَهُمْ مِنَ المُفَرِّطِينَ، وَإِنَّهُمْ لَأَكْيَاسٌ أَقْوِيَاءُ، وَمَعَ الضَّالِّينَ وَالخَطَّائِينَ وَإِنَّهُمْ لَأَبْرَارٌ بُرَءَاءُ، أَلَا إِنَّهُمْ لَا يَسْتَكْثِرُونَ لَهُ الكَثِيرَ، وَلَا يَرْضَوْنَ لَهُ بِالقَلِيلِ، وَلَا يُدِلُّونَ عَلَيْهِ بِأَعْمَالِهِمْ حَيْثُ مَا لَقِيتَهُمْ مُهْتَمُّونَ مُشْفِقُونَ، وَجِلُونَ خَائِفُونَ» رَوَاهُ أَبُو نُعَيْمٍ(١).

١٣٢- قَالَ الحَسَنُ وَسَمِعَ قَوْمًا يَتَجَادَلُونَ: «هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مَلُّوا العِبَادَةَ، وَخَفَّ عَلَيْهِمُ القَوْلُ، وَقَلَّ وَرَعُهُمْ فَتَكَلَّمُوا»(٢).

ثم أورد رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ هذا الأثر عن ابن عباس، وسنده فيه مقال، لكنه مشتمل علىٰ معاني عظيمة وكلام صحيح في باب إخلاص النية والتشديد في طلب العلم للمراء والجدال.

«**قال** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **لقوم سمعهم يتمارون في الدين**»؛ أي: أن هذه المقالة التي قالها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان سببها أنه مر بقوم يتمارون في الدين؛ أي: جلسوا للمماراة والخصومة

---

(١) رواه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٣٢٥)، وأحمد في «الزهد» (ص ٤٣).

(٢) رواه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ١٥٧)، وأحمد في «الزهد» (ص ٢٧٢).

والجدل في الدين، والجدل الذي ورد ذمه في النصوص في نحو قوله تعالىٰ: ﴿**مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا**﴾ [الزخرف: ٥٨]، يختلف عن المجادلة التي وردت في قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]؛ لأن المجادلة هي ذكر للعلم وبيان له واستشهاد بدلائله وحججه وبراهينه لإصلاح الناس وتوجيههم للخير وإبطال الباطل، فهذا أمْر أمَر الله عَزَّوَجَلَّ به في قوله: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، أما الجدل فإنه خوض في مسائل العلم بغير علم، أو خوض في مسائل بغير نية صحيحة كطلب شهرة أو محمدة أو إفحام، أو بروز عليهم، أو نحو ذلك، فسواء كان خوضًا في مسائل العلم بغير علم أو خوضًا في مسائل العلم بنية فاسدة وغرض فاسد، فكل ذلك جدال محرم يوصل بالإنسان إلىٰ المآلات التي لا تُحمد، ولهذا جاء التحذير من الجدل، قال: ﴿**مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا**﴾؛ أي: ليس لهم غرض في العلم، ولا نية صحيحة فيه، وإنما نيتهم وغرضهم فيه الجدل والخصومات.

وابن عباس مر- كما في هذه الرواية- علىٰ نفر يتمارون في الدين؛ أي: خاضوا فيه بالجدل والخصومات، فقال رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**أما علمتم أن لله عبادًا أسكتتهم خشية الله من غير صمم ولا بكم**»؛ أي: أن بعض الأكياس وأهل العلم قد يسكت في مجلس من المجالس وليس به صمم ولا بكم، يسمع ويستطيع أن يتكلم بكلام أقوىٰ من الكلام الذي يقال، ولكنه يرىٰ أن هذا مجلس خصومة ليس مجلس طلب للحق، فيسكت لا يخوض معهم في حديثهم؛ لأنه حديث لم يُرَد به وجه الله عَزَّوَجَلَّ.

ولهذا يذكر عن الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ صاحب المصنفات المعروفة، ومنها كتاب العظيم «**جامع العلوم والحكم**»، الذي شرح فيه الأربعين للإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ، ذكروا في ترجمته أنه جلس يومًا مع طلابه وتحدث في مسألة من مسائل الفقه وفصل القول فيها تفصيلًا واسعًا، وأخذ يبين ويذكر الأدلة

والشواهد بتفصيل عظيم جدًّا، انتفع به طلاب العلم في مجلس العلم، ثم إنه في المساء كانوا في مجلس وحصل في المجلس خصومة ومماراة في المسألة نفسها، فالتفت طلابه إليه ينتظرونه بتحدث بشيء فما تحدث، مع أنهم سمعوا منه تفصيلًا واسعًا في هذه المسألة بعينها فما تحدث بشيء، وكانوا يلتفتون وينتظرون أن يتحدث فما تحدث بشيء، وطلابه يرغبون أن يتحدث حتىٰ أيضًا يبرز علمه وفضله، ولكنه لما خرج سأله بعض طلابه مستغربين وقالوا هذه المسألة فصلت لنا فيها وهنا سكت! قال: «إنما أتكلم بما أرجو ثوابه، وقد خفت من الكلام في المجلس»[(١)]، أي هذا مجلس أريد به الدنيا والخصومة والمماراة، وكل واحد يريد أن يغلب الآخر ويُسكت الآخر.

ولهذا هنا يقول ابن عباس: «**أما علمتم أن لله عبادًا أسكتتهم خشية الله من غير صمم ولا بكم**»؛ أي: ليس بهم بكم لا يتكلمون ولا صمم لا يسمعون، هم يسمعون ويتكلمون ويحسنون البيان لكنهم في مجالس الخصومات والجدل والممارات لا يخوضون فيها ولا يشاركون أهلها خصومتهم ومماراتهم.

قال: «**وإنهم لهم العلماء والفصحاء والطلقاء والنبلاء العلماء بأيام الله**»، ليس بهم عيٌّ أو جهل أو عدم دراية بمسائل العلم، هم أهل علم وأهل فصاحة وأهل طلاقة في الكلام وأهل نبل وفضل وأهل علم بأيام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

«**غير أنهم إذا تذكروا عظمة الله طاشت عقولهم وانكسرت قلوبهم وانقطعت ألسنتهم**»، ولهذا قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «رأس العلم خشية الله جَلَّ وَعَلَا»[(٢)]، ودليل ذلك قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨].

---

(١) «الجوهر المنضد في طبقات متأخري أصحاب الإمام أحمد» (ص٥٢).

(٢) «طبقات الحنابلة» (١/ ٣٨٠).

قال: «**حتىٰ إذا استفاقوا من ذلك تسارعوا إلىٰ الله بالأعمال الزاكية**»، وهذا من العلم الذي يثمر عملًا، لأن العلم لا يثمر وحشة في الصدور وتهاجرًا بين الإخوان وتعاديًا وبغضاء وشرورا وتقاطعا وتدابرا، وغير ذلك من الأغراض؛ ففرق بين علم يثمر سكينة وطمأنينة وإيمانًا وعبادة وإقبالًا علىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وعلم لا يثمر هذه الثمار، ولهذا قال: «**حتىٰ إذا استفاقوا من ذلك تسارعوا إلىٰ الله بالأعمال الزاكية**».

قال: «**يعدون أنفسهم مع المفرطين، وإنهم لهم الأكياس**»، وهذه أيضًا ميزة لهؤلاء، لا يرىٰ نفسه شيئًا لا في العلم ولا في العبادة، وقد نقل الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، عن شيخ الإسلام ابن تيمية كان يقول: «ما لي شيء، ولا مني شيء، ولا في شيء»[(١)]، فلا يرون أنفسهم شيئًا لا في العلم ولا في العبادة، وهذا قد ذكره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن المؤمنين الكمَّل من عباده في سورة «المؤمنون» قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ﴾، قد سألت أم المؤمنين عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهَا: هم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ قال: لا يا بنت الصديق، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون وهم يخافون أن لا يقبل منهم أولئك الذين يسارعون في الخيرات»[(٢)]، هذا معنىٰ قوله: ﴿يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ﴾؛ أي: يقدمون ما يقدمون من الأعمال الصالحات والعبادات الزاكيات، وقلوبهم وجلة؛ أي: خائفة ألا يقبل

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٥٢٠).

(٢) رواه الترمذي (٣١٧٥)، وابن ماجه (٤١٩٨)، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٣٣٨٤).

قال العلامة الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «و السر في خوف المؤمنين أن لا تقبل منهم عبادتهم، ليس هو خشيتهم أن لا يوفيهم الله أجورهم ... وإنما السر أن القبول متعلق بالقيام بالعبادة كما أمر الله عَزَّوَجَلَّ، وَهُمْ لا يستطيعون الجزم بأنهم قاموا بها علىٰ مراد الله، بل يظنون أنهم قصروا في ذلك، ولهذا فهم يخافون أن لا تقبل منهم، فليتأمل المؤمن هذا عسىٰ أن يزداد حرصا علىٰ إحسان العبادة والإتيان بها كما أمر الله، وذلك بالإخلاص فيها له، واتباع نبيه ﷺ في هديه فيها»«السلسلة الصحيحة» (١/ ١٦١).

منهم، ولهذا قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن المؤمن جمع بين إحسان ومخافة، والمنافق جمع بين إساءة وأمنا»[(١)]؛ المنافق أعماله سيئة وآمن من مكر الله، والمحسن أعماله صالحة وخائف، فجمع بين إحسان ومخافة؛ أي: من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، بينما المنافق جمع بين (إساءة) أي: في العمل، (وأمنا) أي: من مكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قال: «**يعدون أنفسهم مع المفرطين وإنهم لأكياس أقوياء، ومع الضالين والخاطئين**»، يعدون أنفسهم مع الضالين والخاطئين، «**وإنهم لأبرار برءاء**»، أبرار في أعمالهم، برءاء؛ أي: من سيئ العمل وقبيحه، ولكن مع صلاحهم وزكائهم جمعوا بين الإحسان والمخافة، فعالم ولا يرىٰ نفسه عالمًا، وقد قيل: «من قال عن نفسه أنه عالم فقد جهل»، فالعالم ولا يرىٰ نفسه عالمًا، والعابد لا يرىٰ نفسه عابدًا، بل يرىٰ نفسه مقصرًا في العلم والعمل، ولهذا لا يزال يطلب العلم ولا يزال أيضًا يجتهد في العلم والتقرب إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بهما.

قال: «**ألا إنهم لا يستكثرون له الكثير**»، لا يستكثرون له؛ أي: لله جَلَّ وَعَلَا، الكثير؛ أي: من الأعمال، فمهما قدموا من الأعمال وأكثروا من الطاعات يرونها قليلة لا يستكثرون له كثيرًا.

«**ولا يرضون له بالقليل**»، بل لا يزالون مجتهدين في الإكثار من الأعمال الصالحة والقربات الزاكية التي يتقربون بها إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قال: «**ولا يُدلون عليه بأعمالهم**»؛ أي: لا يمنون علىٰ الله بالأعمال، قال تعالىٰ: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ

---

(١) انظر: «تفسير الإمام الطبري» (١٩/ ٤٥)، و«تفسير الإمام ابن كثير» (٥/ ٤٨٠).

صَٰدِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧]، ولا يقول الواحد منهم أنا الذي فعلت كذا وأنا الذي فعلت كذا ممتنًّا بعمله مدليًا بعمله.

قال: «**حيثما لقيتم مهتمون مشفقون، وجلون خائفون**»؛ أي: هم ماضون علىٰ هذه الصفة خوف وشفقة وخشية من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وفي مقابل ذلك أيضًا جد واجتهاد في التقرب إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ بصالح الأعمال وسديد الأقوال، وهذا الذي ذكر في هذا الأثر هو من أمارات الإخلاص ودلائله.

ثم ختم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ هذه الترجمة بهذا الأثر عن الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ، وقد سمع قومًا يتجادلون، قال: «**هؤلاء قوم ملوا العبادة، وخف عليهم القول، وقل ورعهم فتكلموا**»، اجتمعت فيهم خصال ثلاث:

- **الخصلة الأولىٰ**: أنهم ملوا العبادة؛ أي: أصيبت قلوبهم بملل وسآمة من العبادة، فنفرت منها، ولا يُقبلون عليها ولا تُقبل قلوبهم علىٰ القيام بها.

- **والخصلة الثانية**: أن القول خف عليهم، مع أن القول ثقيل: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ٥]، فينبغي لمن تكلم أن يحسب لقوله حسابًا، «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت**»(١)، فيحسب حسابًا لقوله، ولها من خف عليه القول وأصبح الكلام عنده هينًا لا يبالي بما يقول، ولا يكترث بما يتكلم وصار والعياذ بالله من أهل المماراة والجدل والخصومات.

- قال: «**وقل ورعهم**»، وهذه الصفة الثالثة التي هم متصفون بها، قل ورعهم؛ أي: قلت فيهم الخشية والمراقبة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فاجتمع فيهم خصال ثلاث: ملل من العبادة، وعدم مبالاة بالقول والكلام خف

---

(١) رواه البخاري (٦٠١٨)، ومسلم (٤٧).

القول عليهم، وأيضًا ليسوا أهل مراقبة لله عَزَّوَجَلَّ ولا أهل ورع وخشية مه سبحانه، فتكلموا؛ أي: هان عليهم أمر الكلام فصاروا أهل جدل وخصومة، وشاهد كلام الحسن حديث النبي المتقدم حيث قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**ما ضل قوم بعد هدىٰ كانوا عليه إلا أوتوا الجدل**»، ثم تلا قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾ [الزخرف: ٥٨].

فهذه الترجمة وما ساقه فيها المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ من الشواهد والدلائل هي كلها في باب التشديد في طلب العلم لأجل المماراة والمجادلة والخصومة، وبيان أن الواجب علىٰ طالب العلم أن يصلح نيته في طلبه للعلم، وأن يبتغي بطلبه للعلم وجه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأن يعد طلبه للعلم من قربه التي يتقرب بها إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ يرجو بها ثوابه ويخشىٰ عقابه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وقد قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «العلم لا يعدله شيء إذا صلحت النية»، قيل: وما صلاحها؟ قال: «أن تنوي به رفع الجهل عن نفسك وعن غيرك»، أن يكون غرض الإنسان في طلبه للعلم أن يرفع أولًا الجهل عن نفسه ليتفقه في الدين، وأيضا أن يرفع الجهل عن إخوانه ببيان العلم لهم وإيضاح مسائله لهم وتحذيرهم مما هم عليه من خطأ وضلال وباطل، فإذا كانت النية في الطلب هذه فهذه نية صحيحة.

❊ ❊ ❊

بَابُ: التَّجَوُّزِ فِي القَوْلِ وَتَرْكِ التَّكَلُّفِ وَالتَّنَطُّعِ

١٣٣- وَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ مَرْفُوعًا: «**الحَيَاءُ وَالعِيُّ شُعْبَتَانِ مِنَ الإِيمَانِ، وَالبَذَاءُ وَالبَيَانُ شُعْبَتَانِ مِنَ النِّفَاقِ**». رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ[(١)].

قال المؤلف رحمه الله تعالىٰ: «**باب التجوز في القول وترك التكلف والتنطع**»، التجوز في القول: هو الاختصار، وترك التنطع والتكلف فيه، وهو البعد عن التوسع في الكلام والتقعر في الحديث، والإطالة فيما لا حاجة ولا داعي إليه.

والمصنف رَحِمَهُٱللَّهُ تعالىٰ عقد هذه الترجمة وجعلها في خاتمة كتابه «**أصول الإيمان**» منبهًا بذلك الدعاة إلىٰ أصول الإيمان وأسس الدين وقواعد الإسلام أن يكون هم الواحد منهم إبلاغ دين الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ وإيصاله للناس بالكلمات المختصرة والألفاظ القليلة وجوامع القول، لا أن يكون هم الإنسان كثرة الحديث والتوسع في القول والتقعر في الكلام، بل الكلام القليل المفيد خير من الكلام الكثير الذي ليس من ورائه طائل، وخير الكلام ما قل ودل، فتكون ألفاظه قليله ومعانيه دالة علىٰ المقصود بأبين ما يكون، وقد أوتي نبينا ﷺ جوامع الكلم، وكان يتجوز في الكلام يختصر في الكلام، ولو شاء من سمع كلامه صلوات الله وسلامه عليه أن يعد حديثه لعده، فهذه الترجمة جاءت في خاتمة كتاب «**أصول الإيمان**»، منبهًا بها المصنف رَحِمَهُٱللَّهُ تعالىٰ علىٰ أهمية مراعاة التجوز والاختصار في القول، وأن يكون مقصود

---

(١) رواه الترمذي (٢٠٢٧)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (٢٦٢٩).

الداعي إلىٰ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ والمبلغ لدين الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أن يعرف الناس الحق، لا أن يُعرف هو بكثرة الكلام والتوسع فيه، فإن هذا من الأغراض المنافية للإخلاص لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في العلم وتعليمه.

وأورد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذه الترجمة جملة من النصوص الدالة علىٰ هذا المقصود، وبدأها بحديث أبي أمامة الباهلي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا إلىٰ النبي ﷺ، أنه قال: «**الحَيَاءُ وَالعِيُّ شُعْبَتَانِ مِنَ الإِيمَانِ، وَالبَذَاءُ وَالبَيَانُ شُعْبَتَانِ مِنَ النِّفَاقِ**»، قوله: (**الحياء**): الحياء معروف، وهو شعبة من شعب الإيمان، وهو خلق جميل يكون في العبد يحجزه عن الأمور الرذيلة والأعمال السيئة، (**والعي**): في الأصل المراد به عدم القدرة علىٰ البيان والقول والإفصاح عن الأمور وبيانها، وليس هذا هو المراد هنا، وإنما المراد بالعي: أن يكون حال الإنسان في قلة كلامه وقلة حديثه وتجوزه في القول واختصاره فيه وخوفه من الخطأ إذا قال أو تكلم أو تحدث، فتكون حاله كحال من به عي؛ أي: عدم قدرة علىٰ الكلام، وهو قادر عليه وقادر علىٰ البيان، ولكنه يختصر الكلام اختصارًا، ويقلل من الحديث حتىٰ كأنه به عي؛ أي: عدم مقدرة علىٰ البيان والإفصاح في القول، وليس فيه عي حقيقة، وإنما الذي به خوف الله عَزَّوَجَلَّ ومراقبة الله جَلَّ وَعَلَا، فيتكلم الكلام وهو خائف، ويعد كلامه من عمله الذي سيحاسبه الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عليه يوم القيامة، فيختصر الكلام ويتجوز في الحديث ويراقب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في كلامه كما يراقب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في أعماله الأخرىٰ.

قال: «**الحَيَاءُ وَالعِيُّ شُعْبَتَانِ مِنَ الإِيمَانِ**»؛ أي: خصلتان من خصال الإيمان وشعبتان من شعبه، والمراد بذلك: أن الإنسان يحفظ كلامه ويحفظ قوله، ولا يكون من أهل الثرثرة والإكثار من القول والإكثار من الكلام، «ومن كثر كلامه كثر سقطه، ومن كثر سقطه النار أولىٰ به»، كما روي ذلك في الأثر.

قال: «**وَالبَذَاءُ وَالبَيَانُ شُعْبَتَانِ مِنَ النِّفَاقِ**»، البذاء؛ أي: في القول؛ بأن يقول الإنسان وكلامه بذيئًا وألفاظه بذيئة؛ أي: نابية وسيئة وقبيحة، ولا يراعي تهذيب القول واختيار اللفظ الطيب السليم.

قال: «**وَالبَذَاءُ وَالبَيَانُ**»، البيان المراد به الإفصاح عن القول وحسن إيضاح الأمر، وساقه هنا مساق الذم قال: «**من النفاق**»، وليس المراد بأن البيان من القول؛ أي: البيان الذي يحصل به الدلالة علىٰ المقصود وإيصال الحق والخير للناس بالألفاظ البينة والكلمات المتينة السديدة، وإنما المراد بالبيان؛ أي: التفاصح في الكلام والتوسع في القول والتقعر في الكلام والتظاهر بالفصاحة في المنطق والحديث وحسن الإيضاح والبيان، فهذا من النفاق، وإذا كان غرض المتكلم بكلامه وحديثه أن يُظهر للناس أنه فصيح وأنه حسن البيان، وأنه جميل القول، وأن كلامه أحسن الكلام وأفصحه وأبينه، فمن كان حديثه كذلك فهذا من النفاق، يطيل الكلام ويتوسع في الحديث، ويتخير أنواع الألفاظ، لا لشيء إلا ليمدح بفصاحته وحسن ألفاظه وجمال أقواله ونحو ذلك.

❊ ❊ ❊

[فضل حُسنُ الخلق]

١٣٤- وَعَنْ أَبِي ثَعْلَبَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ أَحَبَّكُمْ إِلَيَّ، وَأَقْرَبَكُمْ مِنِّي يَوْمَ القِيَامَةِ أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقًا، وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي مَسَاوِئُكُمْ أَخْلَاقًا، الثَّرْثَارُونَ الْمُتَشَدِّقُونَ الْمُتَفَيْهِقُونَ**». رَوَاهُ البَيْهَقِيُّ فِي «**شُعَبِ الإِيمَانِ**»[(١)].

ثم أورد رَحِمَهُٱللَّهُ تعالىٰ حديث أبي ثعلبة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، أن رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ أَحَبَّكُمْ إِلَيَّ، وَأَقْرَبَكُمْ مِنِّي يَوْمَ القِيَامَةِ أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقًا**»، وهذا فيه بيان حسن الخلق وأهميته في حياة المسلم، وأن أحاسن الناس أخلاقًا هم الأرفع درجات يوم القيامة، والأقرب منزلة إلىٰ النبي ﷺ، وأن العبد كلما حسن خُلقه ارتفعت درجته وعلت منزلته، كما قال نبينا عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «**إن أحبكم إليَّ وأقربكم مني**»؛ أي: منزلة يوم القيامة، فهذا يدل علىٰ أن حسن الخلق فيه رفعة الدرجات وعلو المنازل يوم القيامة، وأن العبد بحسن خلقه يقرب من النبي ﷺ يوم القيامة بحسب ما يكون عليه من تحقيق وتكميل وتتميم لحسن الخلق.

قال: «**وإن أبغضكم إليَّ وأبعدكم مني مساوئكم أخلاقًا**»؛ أي: أهل الأخلاق السيئة، وهذا فيه أن الخلق ينقسم إلىٰ قسمين: خلق حسن وخلق سيئ، قد ثبت عن النبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ في دعائه أنه قال: «**واهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت**»[(٢)]، قال هنا: «**وإن**

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (١٧٧٤٣)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤٩٦٩)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٥٣٥).

(٢) رواه مسلم (٧٧١).

أبغضكم إليَّ وأبعدكم مني مساوئكم أخلاقًا»؛ أي: أهل الأخلاق السيئة والأخلاق الذميمة، فهؤلاء أبعد الناس منزلة ومكانة عن النبي ﷺ، وهم أبغض الناس إلىٰ النبي صلوات الله وسلامه عليه.

ثم ذكر شيئًا من صفات أهل الأخلاق السيئة وبعض صفات أهل الأخلاق السيئة فقال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**الثرثارون، المتشدقون، المتفيهقون**»، وهذا هو المقصود من إيراد المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ لهذا الحديث في هذه الترجمة، قال: «**الثرثارون، المتشدقون، المتفيهقون**»، والمراد بهذه الكلمات التأكيد علىٰ معنىٰ واحد وهو: التوسع والتقعر في الكلام والحديث في غير ما حاجة، فالثرثرة في كثرة الكلام والتوسع في القول يقال: «فلان ثرثار»؛ أي: كثير الكلام، قال: (والمتشدقون)؛ أي: من يحرك شدقه كثيرًا بالكلام والحديث فيما لا طائل فيه. و«المتفيهقون»؛ أي: يفتح فمه ويقعر فاه في الكلام والحديث.

فهذه الكلمات الثلاث كلها تدور حول كثرة الكلام وكثرة الحديث وكثرة القول والولع بذلك فيما لا فائدة فيه، ولا طائل من ورائه، فمن كان كذلك فهو من أهل الخصال والخلال الذميمة والأخلاق السيئة، فالمؤمن يحسب لكلامه حسابًا ويعد كلامه من عمله الذي يحاسبه الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عليه، ولهذا قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في الحديث الصحيح: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت**»، ويبلغ الكلام مبلغه الخطير عندما يكون كلامًا في دين الله جَلَّ وَعَلَا وخوضًا في شرع الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وإطالة للقول والحديث في ذلك عن غير علم وبصيرة في دين الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، مما يترتب علىٰ كثرة القول في ذلك كثرة القول علىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بال علم، وهذا من أعظم المحرمات وأكبر الآثام.

❊ ❊ ❊

١٣٥- وَلِلتِّرْمِذِيِّ نَحْوُهُ عَنْ جَابِرٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

قال: «وَلِلتِّرْمِذِيِّ نَحْوُهُ عَنْ جَابِرٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ»(١)؛ أي: نحو حديث أبي ثعلبة، وحديث أبي ثعلبة في سنده انقطاع، وأشار المصنف أنه قد جاء عن جابر بن عبد الله رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا حديثًا نحو حديث أبي ثعلبة، مشيرًا بذلك إلىٰ أنه شاهدًا لهذا الحديث يتقوىٰ الحديث به، والحديث له شواهد منها حديث جابر الذي أشار إليه المصنف وأحاديث أخرىٰ يتقوىٰ بها الحديث ويرتقي إلىٰ درجة الاحتجاج به.

❊ ❊ ❊

---

(١) رواه الترمذي (٢٠١٨).

[ذمُّ التكسب بالكلام]

١٣٦- وَعَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ يَخْرُجَ قَوْمٌ يَأْكُلُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ كَمَا يَأْكُلُ البَقَرُ بِأَلْسِنَتِهَا». رَوَاهُ أَحْمَدُ، وَأَبُو دَاوُدَ، وَالتِّرْمِذِيُّ[1].

ثم أورد رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ حديث سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ يَخْرُجَ قَوْمٌ يَأْكُلُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ كَمَا تَأْكُلُ البَقَرُ بِأَلْسِنَتِهَا**»، يأكلون بألسنتهم؛ أي: يجعلون الكلام الذي يقولونه بألسنتهم والعلم الذي يبينونه بألسنتهم غرضًا للأكل وغرضًا للطعام، فيكون غرضه بكلامه وبيانه الأكل والطعام، فيتكلم ليأكل، ويبين العلم وغرضه من هذا البيان أن يأكل به وأن يكون وسيلة أكل له، وليس غرضه بالعلم نشر الدين وبيانه للناس وتعليمهم ما يجهلون من أمر دينهم، فهذا الصنف من الناس أخبر النبي ﷺ أن الساعة لا تقوم حتىٰ يوجد في الناس من هو كذلك، قال: «**لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ يَخْرُجَ قَوْمٌ يَأْكُلُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ كَمَا تَأْكُلُ البَقَرُ بِأَلْسِنَتِهَا**»، وهذا فيه ذم لمن كان غرضه في طلبه للعلم الدنيا والأكل ونحو ذلك، ومن صفة هؤلاء التفاصح في الكلام وكثرة القول وإظهار النفس عند الناس بالكلام البليغ وبالكلام الفصيح وبالقول الجميل ويكون غرضه من ذلك كله أن يأكل بلسانه.

* * *

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (١٥٩٨)، ورواه البزار في «مسنده» (٢٠٨٠)، وحسنه الألباني في «المشكاة» (٤٧٩٩).

[ذمِّ المتكلِّف في الكلام]

١٣٧- وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «**إِنَّ اللهَ يُبْغِضُ البَلِيغَ مِنَ الرِّجَالِ، الَّذِي يَتَخَلَّلُ بِلِسَانِهِ كَمَا تَتَخَلَّلُ البَقَرَةُ بِلِسَانِهَا**». رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، وَأَبُو دَاوُدَ[(١)].

ثم أورد رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ هذا الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «**إِنَّ اللهَ يُبْغِضُ البَلِيغَ مِنَ الرِّجَالِ، الَّذِي يَتَخَلَّلُ بِلِسَانِهِ كَمَا تَتَخَلَّلُ البَقَرَةُ بِلِسَانِهَا**»، هنا ليس الذم للبلاغة مطلقًا من حيث هي؛ لأن الكلام البليغ الحسن الطيب الذي يوضح به المقصود وتبين به المعاني العظيمة، بحيث يفهم الناس ويعرفوا الحق ويهتدوا إلىٰ الصواب، هذا أمر يحمد ولا يذم عليه الإنسان، لكن إذا كان الغرض والمقصد هو البلاغة نفسها والظهور بها، وأن تكون هي المقصودة لا أن تكون وسيلة لبيان الحق وإيضاحه، فتكون البلاغة هي المقصودة وهي الغاية المطلوبة، بحيث يتكلم الإنسان وغرضه أن يُعرف بالبلاغة، وأن كلامه كلام بليغ، وقوله قول فصيح، فيتكلم ويأتي بالكلام البليغ الجميل الحسن وغرضه من ذلك أن يظهر في الناس ببلاغة كلامه وجمال ألفاظه، فهذا الذي يُذم.

قال: «**إِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يُبْغِضُ البَلِيغَ مِنَ الرِّجَالِ، الَّذِي يَتَخَلَّلُ بِلِسَانِهِ كَمَا تَتَخَلَّلُ البَقَرَةُ بِلِسَانِهَا**»، وهنا يلاحظ وجهًا عجيبًا بين هذا وبين البقرة عندما تتخلل بلسانها، فالبقرة تحرك لسانها حركة كثيرة وتكثر من حركة اللسان، لكن هذه الحركة التي تكثر علىٰ لسان البقرة ليس من ورائها جدوىٰ، وليس من ورائها ثمرة ولا ينتفع بها، بل هو

---

(١) رواه أبو داود (٥٠٠٥)، والترمذي (٢٨٥٣)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٨٧٥).

لوك للسان وتحريك له، وهذا مثل للبليغ الذي هدفه وغرضه في كلامه ظهور بلاغته وظهور فصاحته، فمثل هذا ليس أهلًا لأن يكون ممن ينتفع بكلامه ويستفاد من قوله ويستفاد من حديثه؛ لأنه ليس غرضه هو بيان العلم وإيضاحه للناس، وإنما غرضه في الكلام إطالة الحديث وإكثار القول بما لا فائدة فيه ولا ثمرة، ولهذا أحيانًا يقال عن بعض الحديث ويقول ذلك بعض الناس يقولون: «كلام جميل جدًّا، لكن ما استفدنا منه شيئًا»، فيكون كلامًا جميلًا ألفاظه تشد السامع من حيث بلاغتها، ومن حيث فصاحتها، ومن حيث جمال ألفاظها، لكن السامع لا يحصِّل فائدة ولا يحصِّل ثمرة، ولهذا قال من قال من أهل العلم: «كلام السلف قليل كثيرة البركة، وكلام الخلف كثير قليل البركة»، وكان السلف الذي اجتمعت همتهم علىٰ بيان الحق وإيصاله للناس بأقرب طريق يختارون من الكلمات أجمعها، وليس لهم غرض في الكلام نفسه، وإنما غرضهم أن يُعرف المقصود، فإذا عُرف المقصود بكلمتين فقط اكتفوا بها ولم يزيدوا ثالثة، وإن احتيج إلىٰ كلمة ثالثة زادوها، ليس لهم غرض في الكلام من حيث هو، وإنما غرضهم أن يُفهم المقصود وأن يُعرف المراد.

❊ ❊ ❊

[النهي عن تعلم صرف الكلام]

١٣٨- وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ تَعَلَّمَ صَرْفَ الكَلَامِ لِيَسْبِيَ بِهِ قُلُوبَ الرِّجَالِ أَوِ النَّاسِ لَمْ يَقْبَلِ اللهُ مِنْهُ يَوْمَ القِيَامَةِ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ[1].

ثم أورد رحمه الله تعالىٰ هذا الحديث، وهو مبين وموضح للحديث الذي قبله، البليغ من الرجال الذي ورد ذمه في الحديث السابق، وأنه أبغض الناس إلىٰ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ هو الذي يتعلم صرف الكلام ليسبي به قلوب الناس أو قلوب الرجال، يتعلم صرف الكلام؛ أي: يتعلم بلاغة الحديث وجمال الألفاظ وحسن العبارات، وغرضه من ذلك أن يسبي قلوب الرجال، بحيث يلتفتون إليه ويشار إليه بالبنان، فيقال: فلان بليغ، وفصيح، أو فلان ألفاظه جميلة أو نحو ذلك من الكلمات التي هي مقصده في كلامه وحديثه، فيتعلم صرف الكلام؛ أي: يفني وقتًا من حياته لتعلم البلاغة الفصاحة ونحو ذلك، من أجل ماذا؟ قال: «**ليسبي**»؛ أي: بكلامه، وقوله: «**قلوب الرجال**»، ومعنىٰ يسبي القلوب؛ أي: يسلبها ويجذبها إليه، بحيث تنشد القلوب إليه وتعجب به، ويشتهر في الناس بذلك ويعرف بذلك؛ فلان بليغ فصيح مفوه، ونحو ذلك من الكلمات التي جعلها غرضًا له في تعلمه للبلاغة والفصاحة وتصريف الكلام.

قال: «**مَنْ تَعَلَّمَ صَرْفَ الكَلَامِ لِيَسْبِيَ بِهِ قُلُوبَ الرِّجَالِ أَوِ النَّاسِ لَمْ يَقْبَلِ اللهُ مِنْهُ يَوْمَ القِيَامَةِ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا**»، وهذا فيه وعيد شديد لمن كانت حاله كذلك، وقيل في معنىٰ «**صرفًا ولا عدلًا**» أقوال منها؛ أي: لم يقبل منه فريضة ولا نفلًا.

❊ ❊ ❊

---

(١) رواه أبو داود (٥٠٠٦)، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٥٥٢٩).

[صفة كلام رسول الله ﷺ]

١٣٩- وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: «كَانَ كَلَامُ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَصْلاً يَفْهَمُهُ كُلُّ مَنْ يَسْمَعُهُ»(١).

وَقَالَتْ: «كَانَ يُحَدِّثُنَا حَدِيثًا لَوْ عَدَّهُ العَادُّ لَأَحْصَاهُ»(٢).

وَقَالَتْ: «إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَسْرُدُ الحَدِيثَ كَسَرْدِكُمْ»(٣).

رَوَىٰ أَبُو دَاوُدَ بَعْضَهُ.

ثم أورد رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ حديث أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «**كان كلام رسول الله ﷺ كلامًا فصلًا يفهمه كل من يسمعه**»، يقال: قول فصل وكلام فصل؛ أي: كلام واضح بين محقق للمقصود، بحيث تفصل فيه الأمور ويكون فصلًا فيها، قول فصل وكلام فصل؛ أي: كلام بين واضح فاصل بالأمر محقق للمقصود والمراد، فوصفت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كلام النبي ﷺ بأنه كلام فصل يفهمه كل من يسمعه، أي كلام يسمعه عموم الناس علىٰ كافة طبقاتهم، الصغير يفهمه والكبير يفهمه وقليل العلم يفهمه والذكر يفهمه والأنثىٰ تفهمه، فكل من سمعه يفهمه، وهذا من كمال نصحه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ لأن هدفه في الكلام نصح الجميع، فتكون النصيحة لعموم الناس، وقد بُعث عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ رحمة للعالمين، فكان صلوات الله وسلامه عليه يقول

---

(١) رواه أبو داود (٤٨٣٩)، وحسنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٠٩٧).

(٢) رواه البخاري (٣٥٦٧)، ومسلم (٢٤٩٣).

(٣) رواه البخاري (٣٥٦٨)، ومسلم (٢٤٩٣).

الكلام الذي يفهمه السامع يفهمه الجميع.

وهذا أمر ينبغي أن يراعىٰ في بيان الحق والهدىٰ للناس، فعندما يبين من أراد دعوة الناس إلىٰ الحق والهدىٰ معاني الدين وأمور الإسلام لا يختار الألفاظ التي يحتاج من يسمعها إلىٰ أن يراجع قواميس اللغة حتىٰ يعرف مراد هذا المتكلم، وإنما يختار لهم الكلمات التي يفهمون بها المقصود ويتضح بها المراد، وقد كان شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بعض رسائله يبين لهم أصول الإيمان ويكتبها لهم باللهجة العامية، وكان العوام إذا سألوه عن بعض المسائل أجابهم باللهجة العامية؛ لأن الغرض أن يفهم الإنسان الدين الصحيح، وليس الغرض أن نختار ألفاظًا وأقوالًا بليغة فصيحة بقطع النظر أن يكون من أمامي فهم الكلام أو لم يفهمه، فالمقصود أن يفهم الناس دينهم، وأن يعرفوا الغاية التي خُلقوا لأجلها وأوجدوا لتحقيقها، وتعجب غاية العجب عندما يشرح بعض المتكلفين للناس معنىٰ «**لا إله إلا الله**»، فيتعمق في الكلام عن الألفاظ والعديد من الأمور إلا التوحيد الذي الكلمة هذه دالة عليه، فيفهمون أمورًا وجوانب كثيرة، لكن لا يفهمون التوحيد الذي هي مدلوله ودالة عليه، فالشاهد أن المتكلم والمبين للناس ينبغي أن يكون غرضه في الكلام أن يعرف الناس الحق وأن يعرفوا الهدىٰ والدين القويم بالألفاظ الواضحة والكلمات البينة، لا أن يكون غرضه التفاصح وإظهار بلاغته وإظهار معرفته باللغة، ونحو ذلك من المقاصد.

«**وقالت: كان يحدث حديثًا لو عده العاد لأحصاه**»، وهذا فيه تنبيه منها رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا إلىٰ قلة ألفاظه وكلماته عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فكانت كلماته وألفاظه قليلة، وقد أوتي ﷺ جوامع الكلم، فكان يتجوز القول ويختصر في الكلام، حتىٰ لو شاء العاد أن يعد كلامه لعده، صلوات الله وسلامه عليه.

«**وقالت: إنه لم يكن يسرد الحديث كسردكم**»؛ أي: أنه يأتي بالكلام سريعًا سردًا لم يكن كذلك، أي: أنه ﷺ كان يترسل في الحديث ويتأنىٰ في الكلام، وتخرج الكلمات منه مترسلة: ألفاظًا ثم تتلوها الألفاظ الأخرىٰ بترسل وتؤدة، بحيث يفهم من عنده ويضبط من عنده كلامه، وإذا احتاج الأمر أن يعيد الكلمة مرة أو مرتين أعادها صلوات الله وسلامه عليه، ولهذا جاء في أحاديث كثيرة عنه ﷺ يقول الصحابة: «قال ذلك ثلاثًا»، مثل قوله: «**الدين النصيحة، الدين النصيحة، الدين النصيحة**»، كررها ثلاثًا صلوات الله وسلامه عليه، وجاء عنه مثل هذا نظائر كثيرة جدًّا يكرر الكلمة الواحدة بألفاظها مرات ثلاث من أجل أن تُحفظ وتضبط، وكان يترسل في الكلام؛ أي: لا يسرد الكلام سردًا بحيث لا يتمكن الإنسان من ضبطه.

ولاحظ قول عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا: «**كسردكم**»، هذا أمر يرجع إلىٰ طبائع الناس، ويمكن للإنسان أيضًا أن يعالجه بالتدرب علىٰ ذلك، وإلا كثير من الناس من طبيعته وعادته في الكلام أن كلامه سرد لا يترسل في الكلام، بينما نبينا عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ لم يكن كلامه سردًا، بل كان يترسل ويتأتىٰ في الكلام صلوات الله وسلامه عليه من أجل أن يضبط الكلام.

قال المصنف رَحِمَهُٱللَّهُ تعالىٰ: «روىٰ أبو داود بعضه»، أبو داود روىٰ الجزء الأول؛ لأن الحديث يتكون من ثلاثة أجزاء، كل جزء مبدوء بقوله: «قالت»، فالجزء الأول رواه أبو داود، والجزء الثاني متفق عليه، والجزء الثالث متفق عليه كذلك.

❋ ❋ ❋

[الترغيب في قلَّة الكلام]

١٤٠- وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا رَأَيْتُمُ العَبْدَ يُعْطِي زُهْدًا فِي الدُّنْيَا وَقِلَّةَ مَنْطِقٍ فَاقْتَرِبُوا مِنْهُ، فَإِنَّهُ يُلَقَّىٰ الحِكْمَةَ». رَوَاهُ البَيْهَقِيُّ فِي «شُعَبِ الإِيمَانِ»(١).

ثم أورد رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ هذا الحديث، وهو حديث في سنده كلام، قال أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن رسول الله ﷺ قال: «**إِذَا رَأَيْتُمُ العَبْدَ يُعْطِي زُهْدًا فِي الدُّنْيَا وَقِلَّةَ مَنْطِقٍ فَاقْتَرِبُوا مِنْهُ، فَإِنَّهُ يُلَقَّىٰ الحِكْمَةَ**»، إذا أعطي زهدًا في الدنيا؛ أي: كان زاهدًا في الدنيا وليس همه وغرضه الدنيا، وأيضًا كلامه قليل ليس من أهل الثرثرة وكثرة الكلام، فجمع بين زهد في الدنيا وقلة في المنطق، فمن كان كذلك يؤتىٰ الحكمة، فمن كان زاهدًا في الدنيا قليل المنطق فهذا حري أن يؤتىٰ الحكمة، بخلاف الذي همه الدنيا وكثير الكلام، فهذا بعيد عن الحكمة كل البعد.

❊ ❊ ❊

---

(١) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٤٩٨٥)، وانظر: «السلسلة الضعيفة» (٤/ ٣٩٥).

[إن من البيان سحرًا]

١٤١- وَعَنْ بُرَيْدَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ مِنَ البَيَانِ سِحْرًا، وَإِنَّ مِنَ العِلْمِ لَجَهْلاً، وَإِنَّ مِنَ الشِّعْرِ حِكَمًا، وَإِنَّ مِنَ القَوْلِ عِيَالاً»[(١)].

ثم أورد رَحِمَهُٱللَّهُ تعالىٰ هذا الحديث، وفي سنده أيضًا مقال، لكن لبعض شواهد صحيحة.

قال: «**إن من البيان سحرًا**»، مر معنا قريبًا قول النبي ﷺ: «**وَالبَذَاءُ وَالبَيَانُ شُعْبَتَانِ مِنَ النِّفَاقِ**»، والمراد بالبيان الذي يذم هو ذلكم البيان الذي يكون غرض المتكلم هو البيان نفسه والبلاغة نفسها، وأن يُعرف بذلك، وهنا قال عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «**إن من البيان سحرًا**»؛ أي: ما يسحر القلوب والعقول ويجذبها إلىٰ المتكلم، وذا قد يكون خرج مخرج الذم، وقد يكون خرج مخرج المدح، بمعنىٰ أن الإنسان إذا كان غرضه هو البيان نفسه والبلاغة نفسها، وأن يسبي قلوب الرجال وعقولهم، وليس غرضه الحق فهذا أمر يذم عليه الإنسان، أما إذا كان البيان أن يأتي ببيان الحق بالألفاظ البينة والقول الفصل والكلام الواضح الذي يجذب الناس إلىٰ الحق ويرغبهم فيه، فهذا لا يذم عليه الإنسان، بل يحمد.

قال: «**وإن من العلم جهلًا**»، وهذا نظير ما جاء في هذا الحديث قول أبي يوسف تلميذ أبي حنيفة رَحِمَهُمَاٱللَّهُ، قال: «العلم بالكلام هو الجهل، والجهل بالكلام هو

---

(١) رواه أبو داود (٥٠١٢)، وضعفه الألباني في «ضعيف أبي داود» (١٠٦٦).

العلم»[١]، قال هنا: «**إن من العلم جهلًا**»؛ أي: من أمور العلم التي يحرص بعض عن الناس علىٰ تعلمها وشغل الأوقات في معرفتها هي من الجهل وليست من العلم، مثل ما قال أبو يوسف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: «العلم بالكلام جهل، والجهل بالكلام علم»، فهناك أمور تصرف الأوقات في معرفتها وتعلمها، وهي نوع من الجهل وازدياد من الجهل.

قال: «**وإن من الشعر حكمًا**»، الشعر كلام موزون، والكلام فيه حق وباطل، والشعر كلام، لكنه منظوم، ولهذا قد يأتي في الشعر أمور كثيرة لا فائدة فيها، بل أمور سيئة وقبيحة، ويأتي في الشعر حكمًا بليغة وعظات مؤثرة، فأثنىٰ النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ علىٰ ما كان نافعا ومفيدا، قال: «**وإن من الشعر حكمًا**»؛ أي: بعض الشعر فيه حكمة، وما كان من الشعر كذلك يستفيد منه الإنسان وينتفع به؛ لأن من الشعر ما هو كلام بليغ، وفيه عظة وعبرة للناس، وما كان كذلك من الشعر يستفاد منه وينتفع به.

قال: «**وإن من القول عيالًا**»؛ أي: القول الذي يقدَّم إلىٰ من لا ينتفع به ولا يستفيد منه، فمن القول ما هو عيال أي من حيث مَن أُلقي عليه القول وأفيد به، وهو ليس من أهله ولا من أهل الانتفاع به، فهذا معنىٰ قوله: «**إن من القول عيالًا**»؛ أي: علىٰ بعض الناس الذين يسمعون القول ولكنهم لا ينتفعون به، وهذا فيه التنبيه علىٰ وضع القول في غير موضعه ووضع الحديث في غير محله.

❊ ❊ ❊

---

(١) انظر: «شرح العقيدة الطحاوية» (ص ٧٥).

[الاختصار في القول خير]

١٤٢- وَعَنْ عَمْرِو بْنِ العَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ يَوْمًا، وَقَامَ رَجُلٌ فَأَكْثَرَ القَوْلَ فَقَالَ عَمْرٌو: لَوْ قَصَدَ فِي قَوْلِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «لَقَدْ رَأَيْتُ -أَوْ: أُمِرْتُ- أَنْ أَتَجَوَّزَ فِي القَوْلِ؛ فَإِنَّ الجَوَازَ هُوَ خَيْرٌ». رَوَاهُمَا أَبُو دَاوُدَ[1].

آخِرُهُ وَالحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ حَمْدًا كَثِيرًا.

ثم ختم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ هذه الترجمة بهذا الحديث عن عمرو بن العاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**أنه قال يومًا وقام رجل فأكثر القول**»؛ أي: سمع رجلًا يتكلم وأكثر الكلام.

فقال عمرو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**لو قصد في قوله لكان خيرًا له**»، قصد؛ أي: توسط؛ لأن القصد هو التوسط بين الزيادة والنقصان، والتوسط بين الإفراط والتفريط، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ﴾ [لقمان: ١٩]؛ أي: ليكن مشيك قصدًا، لا بالسريع الذي هو نوع من الجري والعدو، ولا بالبطء المتماوت، بل يكن مشي الإنسان وسطًا بين السرعة والتماوت وهذا هو القصد.

قال: «**لو قصد في قوله لكان خيرًا له**»؛ أي: لو توسط وكان كلامه قصدًا؛ أي: متوسطًا معتدلًا لكان خيرًا له.

«سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: **لَقَدْ رَأَيْتُ** -أَوْ: **أُمِرْتُ**- **أَنْ أَتَجَوَّزَ فِي القَوْلِ؛ فَإِنَّ الجَوَازَ هُوَ خَيْرٌ**»، أتجوز؛ أي: أختصر القول ويكون قولي وكلامي مختصرًا قليلًا، «**فإن الجواز هو خير**»؛ أي: الاختصار في القول خير؛ لأنه أنفع وأبقىٰ للناس وأدوم

---

(١) رواه أبو داود (٥٠٠٨).

للفائدة، وكثرة الكلام ينسي آخره أوله، كما جاء هذا المعنىٰ عن أبي بكر الصديق رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، أنه قال في وصيته: «**وإذا وعظت فأوجز ولا تكثر الكلام فإن كثرة الكلام تنسي بعضه**»[1]؛ بينما التجوز في الكلام والاختصار فيه أنفع وأبقىٰ للفائدة وأدوم للخير، ولهذا أمر نبينا عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ أن يتجوز في الكلام؛ أي: أن يختصر فيه.

ومن يطالع مصنفات شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُٱللَّهُ يجد في مصنفاته مضىٰ علىٰ هذا الهدي القويم والسنن المبارك، فكان يتجوز في الكلام ويختصر في القول وكتبه ليست كتبًا مطولة وموسعة، بل غالبها كتب مختصرة، وبارك الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ فيها بركة عظيمة، نفع بها العباد وصلحت بهم العقائد وفُهم بها التوحيد، وعُرفت بها السنة، وأيضًا حذر فيها من البدع والخرافات والأباطيل التي ما أنزل الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ بها من سلطان بعبارات مختصرة وتجوز في القول واختصار فيه، فنفع الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بكلامه وقد كان مقتديًا في ذلك برسول الله صلوات الله وسلامه عليه.

ثم ختم هذه الرسالة بحمد الله، قال: «**آخره**»؛ أي: آخر هذا الكتاب، «**والحمد لله رب العالمين حمدًا كثيرًا**».

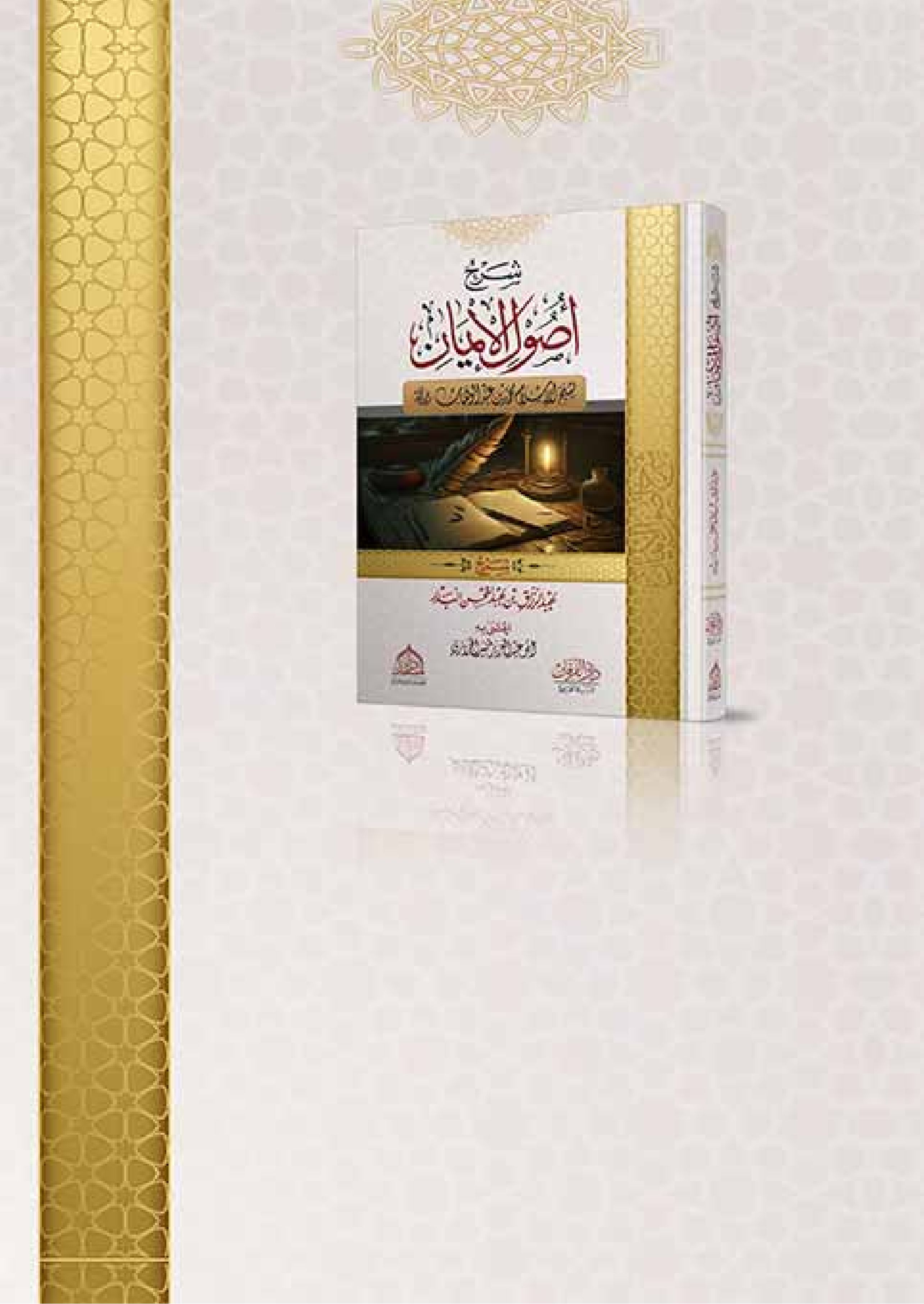
ونحمد الله عَزَّوَجَلَّ الذي من علينا أجمعين بقراءة هذا الكتاب والاستفادة مما فيه، ونسأله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ أن يجعل ذلك حجة لنا لا علينا، وأن يجعل ذلك في موازين حسناتنا أجمعين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

والله أعلم، وصلىٰ الله وسلم علىٰ نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

---

(١) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٦٥/ ٢٤٨).

فهرس الموضوعات


شرح
أصول الإيمان